جوناثان باول

الحوار مع الجماعات المسلحة:

السبيل إلى إنهاء الصراعات المسلحة في العالم





ترجمه من الإنجليزية

عاشور الشامس





الحوار مع الجماعات المسلحة:

السبيل إلى إنهاء الصراعات المسلحة في العالم

جوناثان باول

ترجمه من الإنجليزية

عاشور الشامس





الإهداء

إلى جميع ضحايا الإرهاب في العالم...

على أمل أن يرى العالم ضحايا أقل في المستقبل.

إذا ما اتعظنا بدروس الماضي

بسم الله الرحمن الرحيم

طبعة دار العرب الأولى: حزيران/يونيو 2017 م- 1438 هـ

ردمك 978-614-01-2176-8

دار العرب للنشر والتوزيع
AL-ARAB PUBLISHING LLC.
30450 Orchard Lake Rd.
Farmington Hills, MI 48334
T: 248 - 862 - 5666
E: alarabbook@gmail.com

توزيع



facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت- هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت- هاتف 786233 (9611+)

المحتويات

الحوار أصل من أصول ثقافتنا وطريق لحل أزمتنا: مصطفي عبدالوهاب الساقزلي................ 6

مقدمة.. 9

الفصل الأول: ما هي الأسباب التي تدعونا إلى التحاور مع الإرهابيين.............. 27

الفصل الثاني: الاتصال بالعدو... 59

الفصل الثالث: بناء القنوات.. 99

الفصل الرابع: كيف تسعى الحكومات إلى إغراء المسلحين للدخول في المحادثات............ 135

الفصل الخامس: الشريك الثالث.. 165

الفصل السادس: الدخول في المفاوضات.. 201

الفصل السابع: فن التفاوض.. 241

الفصل الثامن: لماذا تنجح بعض المفاوضات ويفشل بعضها؟.......................... 285

الفصل التاسع: التنفيذ.. هو العامل الوحيد الذي يولد الثقة........................ 325

الفصل العاشر: دروس من التاريخ.. 359

الفصل الحادي عشر: المستقبل... 399

كلمة لا بد منها: الحوار مع تنظيم "الدولة الإسلامية في بلاد الشام"........................ 425

شكر وتقدير.. 431

تعريف بالكتاب... 435

قائمة المراجع BIBLIOGRAPHY... 439

الحوار أصل من أصول ثقافتنا
وطريق لحل أزمتنا

إن الذين شهدوا عن كثب تلك التضحيات، والثمن الباهظ، للصراعات المسلحة في العالم يدركون بحق أن الحوار هو في نهاية المطاف السبيل الوحيد لإيقاف الحروب وبناء السلام. وهذا ينطبق على أجزاء كبيرة من عالمنا العربي أكثر من غيره. فلهذا يسعدني هنا أن أقدم للقراء العرب الترجمة العربية لكتاب السيد (جوناثان باول) وهو كتاب قيم يدور موضوعه حول "**الحوار مع الجماعات المسلحة**".

إن جوناثان باول – كدبلوماسي عريق ومفاوض متميز ووسيط معروف – يكتب عن تجارب عاشها بصورة مباشرة وشارك فيها من خلال الحوار مع جماعات مسلحة وإرهابية للوصول الى قناعات مشتركة حيال تحقيق سلام حقيقي ودائم بين أطراف النزاع.

كما أن الدروس والعبر التي استخلصها من هذه التجارب الحوارية تبين لنا بما لا يدع مجالا للشك أن الحوار هو الذي أقنع الكثير من الجماعات المسلحة المعاصرة في العالم – التي وصم بعضها بأنه إرهابي – أن تتبنى الوسائل السلمية، وتتخلى عن العنف، وتنخرط في العملية السياسية لفض النزاعات.

وهذا، بالنسبة لنا كمسلمين، ليس مجرد واقعية مفرطة، بل وسيلة ناجعة مجدية. فالمجادلة بالتي هي أحسن والمناظرة والحوار المباشر مع من نختلف معهم، مهما اشتد الخلاف واحتد النزاع، إن هي إلا آليات أصلية في تراثنا حثنا عليها القرآن الكريم والسنة النبوية، وهي من أصول ثقافتا الغنية وتاريخنا وحضارتنا الزاخرة.

قص علينا القران حوارا بالحجج والبراهين بين الله الخالق وإبليس المتمرد. وقص علينا حوارات عدة بين الانبياء والفراعنة والطغاة المستبدين كانت كلها حوارات ومحاجات عقلانية ومنطقية تدار بالعرف والمنطق السليم، وجها لوجه، في جو من الموضوعية والشفافية الكاملة.

وأشهر الحوارات مع مجموعات التطرف العنيف في تراثنا الاسلامي تلك التي جرت بين الصحابي حبر الأمة عبدالله بن عباس، رضي الله عنه، وبين أول مجموعة إرهابية متطرفة ظهرت في الاسلام، وهم الخوارج. وقد نجح عبدالله ابن عباس من خلال مناظرات مفتوحة معهم في إقناع وانسحاب أكثر من ربع اتباعهم وإدراكهم لخطأ منهجهم وتطرفه وبعده عن سماحة ووسطية الإسلام.

إن الحوار مع المجموعات المسلحة والمتطرفة حوار لا مفر ولا مناص منه. وهو حوار معقد وصعب ولكن لا بد منه اليوم قبل أي وقت آخر. وهو في أمس الحاجة الى فكر وهمة الصحابي الجليل عبدالله بن عباس وحكمته.

إن الحوار المباشر الصادق هو فرصة للتعامل مع الأسباب الحقيقية التي تدفع بأناس راشدين عقلاء إلى منزلق الغلو والعنف والتطرف. ومعالجة هذه الأسباب من جذورها، سواء كانت فكرية بتجفيف منابع هذا الفكر، أو كانت سياسية أو إقتصادية أو إجتماعية – أو حتى نفسية – بإطلاق خطط لوضع المعالجات لها. وإن الحوار الصادق والصبر عليه هو المنطلق الى إزالة سوء الفهم الموجود لدى طرفي النزاع، ومن ثم فإن تقريب وجهات النظر يؤدي الى إيجاد حلول عملية لفض النزاعات وبناء السلام وجلب الاستقرار والرفاه.

في ظل ما مرت وتمر به منطقتنا من زلازل، بعد ثورات الربيع العربي، وانتشار السلاح بين الشباب، ليس هناك من بديل عن إطلاق حوارات صادقة وجادة لاستيعاب المسلحين واقناعهم بان يكونوا جزء من التغيير وبناء الدولة. الحوار مع المسلحين واستيعابهم وعدم اقصائهم، وإدماجهم في مجتمعاتهم من خلال برامج علمية وخطط تتيح لهم فرص مواصلة تعليمهم وافساح المجالات الإقتصادية، كالمشروعات الصغرى والمتوسطة، والاستيعاب السياسي، فهذه هي أسلم الطرق لتحصين الشباب من اعتناق التطرف واستخدام العنف.

الحكمة تقتضي أن نحول هذا الجيل الشاب – الذي يعد الوقود المتأجج من الفكر والطاقة العنيفة – نحوله بحكمة وصبر وتوعية وتثقيف وتعليم، الى طاقة وزخم في اتجاه بناء دولنا ومؤسساتنا ومجتمعاتنا واقتصاداتنا.

إن الدعوة الى اقصاء هذه التيارات واستخدام العنف والقوة بدل الحوار، لا سيما من طرف أجهزة عسكرية وأمنية قمعية غير منضبطة بالقانون وبحقوق الانسان، لمكافحة التطرف العنيف، أثبت أن مساويه أكبر وأخطر من فوائده، بل ويعطي الحجج لهذه المجموعات العنيفة لكسب المزيد من الأنصار، لأنهم يحاربون أجهزة قمعية ظالمة مستبدة لا تفهم الا القوة والمقاومة العنيفة !

من أجل ذلك تأسس **البرنامج الليبي للإدماج والتنمية** برؤية واضحة تؤمن بأن بناء الدول يأتي من خلال إستيعاب كافة أبنائها وتأهيلهم والارتقاء بهم ليكونوا حماة وبناة للوطن.

إن البرنامج مؤسسة تُعنى بجميع المسلحين والمجموعات التابعة لهم، دون أي تمييز.. ويسعى إلى إعادة إدماجهم وتأهيلهم وتقديم الدعم والمساندة لهم من خلال برامج التعليم والتدريب والتمكين الإقتصادي والإجتماعي والإدماج في المؤسسات الأمنية والعسكرية، ليصبحوا مواطنين فاعلين، وليساهموا في بناء الوطن بعدما ساهموا في تحريره.

وفي عام 2014 قام السيد جوناثان باول بزيارة الي طرابلس بخصوص فض النزاع الليبي، وفي إطار عمله كممثل خاص للحكومة البريطانية الى ليبيا وفي حديث لي معه اقترحت عليه ترجمة كتابه القيم هذا الى العربية ونشره على أوسع نطاق ممكن، كي يتسنى للقارىء العربي أن يتعرف على ما فيه من أفكار وتجارب وأساليب وحوارات ونماذج وتفاوضات من مختلف التجارب في معالجة المنازعات المسلحة في العالم. وقد تقبل اقتراحنا مشكورا.

ونحن في **البرنامج الليبي للإدماج والتنمية** نرجو أن يلاقي هذا الكتاب ما يستحقه من اهتمام وتقدير وانتشار. والله الموفق.

مصطفي عبدالوهاب الساقزلي
المدير العام للبرنامج الليبي للإدماج والتنمية

مقدمة

لقد حقق السلام انتصاراته
وهي ليست أقلّ مجدا من انتصارات الحروب

جون ميلتون، السنوتية 16 *John Milton, Sonnet XVI*،
"إلى اللورد جنرال كروميل" *To the Lord General Cromwell*

يروى عن السيد هيو جيتسكيل Hugh Gaitskell، الزعيم السابق لحزب العمال البريطاني، أنه قال: "ينتهي التحاور مع جميع الإرهابيين، وبدعوة من الحكومات أنفسها، إلى تبادل الأنخاب في صالات الشراب بفندق الدورشيستور Dorchester".. وما يعنيه جيتسكيل هو أن الحكومات – في كل البلاد وبغض النظر عن أطيافها السياسية – تدّعي باستمرار أنها لا ولن تتحاور مع الجماعات الإرهابية ولكنها، في جميع الأحوال تقريبا تقوم بذلك، وعادة ما ينتهي بها المطاف إلى معاملة قادها كرجال دولة محترمين.

لقد وصفت حكومات بريطانيا مناحم بيجن Menachem Begin (إسرائيل)، إرهابيا وحاولت قتله، ووصفت جومو كينياتا Jomo Kenyatta (كينيا) بالإرهابي وسجنته، ووصفت الأسقف Archbishop Makarios مكاريوس (قبرص) إرهابيا ونفته إلى جزر السيشيل Seychelles.. ورغم ذلك كله فقد استقبلت كل واحد من هؤلاء في لندن رسميا كقائد بارز لبلاده.

كنت كبير المفاوضين البريطانيين الخاص بأيرلندا الشمالية من عام 1997 وحتى 2007. وعندما غادرت وظيفتي في ديوان مجلس الوزراء بداونينغ ستريت Downing Street عام 2007، وبناء على خبرتي في ذلك المجال، قدمت مذكرة أدعو فيها صراحة إلى التحاور مع منظمات مثل طالبان في أفغانستان وحماس في

فلسطين بل والقاعدة نفسها. وقد علق متحدث باسم الخارجية البريطانية على ذلك بقوله: من المستحيل أن تسعي حكومة صاحبة الجلالة إلى التوصل إلى تفاهم مشترك مع منظمة إرهابية كالقاعدة.

وما هي إلا بضع سنوات وإذا بدول منظمة حلف شمال الأطلسي North Atlantic Treaty Organisation-NATO تجري حوارا مع طالبان، والحكومة الأمريكية وإسرائيل تجريان محادثات مع حماس، غير مباشرة على الأقل. وفي بريطانيا دعت مديرة جهاز الاستخبارات البريطانية (أم أي 5 MI5) السيدة إلايزا مانينغهام – بوللر Eliza Manningham-Buller في محاضرتها الرائعة، ضمن محاضرات ريث لعام 2011، الحكومات للتحاور مع منظمة القاعدة.

لم يضيرني النفاق السياسي الذي تزاوله الحكومات بهذا الخصوص لكونه جزءا لا يتجزأ من اللعبة السياسية، ولكن ما يزعجني حقا أن الحكومات لا تتعلم أبدا من تجاربها السابقة، وعادة ما تكون لذلك نتائج مدمرة. فكلما التقينا بجماعة إرهابية جديدة.. بدأنا معها من الصفر. ذلك لأن التغييرات كثيرا ما تطرأ على الحكومات بينما تظل قيادات الجماعات الإرهابية في مواقعها لفترات أطول. ففي الوقت الذي ظل جيري آدمز Gerry Adams ومارتن ماغينس Martin McGuinness على قمة القيادة في حركة الجيش الأيرلندي الجمهوري (آي آر أيه IRA)، تبادل على رئاسة الحكومة في بريطانيا ثمانية عشر رئيس وزراء. وقال أحد المشاركين في المفاوضات الكارثية التي امتدت ما بين 1998 و2002 مع القوات المسلحة الثورية الكولومبية (أف أيه آر سي Fuerzas Armadas Revolucionarias de Colombia) Revolutionary Armed Forces of Colombia-FARC، الإرهابية في كولومبيا: "يصيب الإنسان شعور أحيانا بأن الإرهابيين يعتقدون أنه كل أربع سنوات ستأتي مجموعة أخرى للحكم في كولومبيا لتبدأ معهم بنفس الأسلوب من جديد".

نتيجة لذلك، عندما تقدم الحكومات على التعامل مع إرهابيين فغالبا ما يأتي ذلك متأخرا جدا. فقد أقر الجنرال الأمريكي دافيد بيتروس David Betraeus،

مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية سابقا، أن الحكومة الأمريكية تأخرت طويلا قبل الإقدام على التحاور مع "من تلطخت أيديهم بالدم الأمريكـــي" في العراق. وبالنسبة لحركة طالبان، فرغم المغازلات الأولية بـــين الطـــرفين إلا أن العملية السلمية الحقيقية مع الأمريكيين لم تبدأ بعد، رغم أن قوات الناتو NATO ستغادر أفغانستان خلال العام 2014. إن عملية الاشتباك مع هـــذه الجماعـــات المسلحة واكتساب ثقتها تستغرق وقتا أطول مما يعتقد البعض. إنهـــا تحتـــاج إلى مهلة للتأقلم مع العالم الخارجي وتفهم ما هو مطلوب وواقعي، وما هـــو غـــير ذلك. وعندما نشتبك فعلا ننسى الوسائل والأساليب والمهـــارات الـــتي كنـــا اكتسبناها في المرات السابقة. يقول تيرخي رود – لارسن Terje Road-Larsen المنسق النرويجي للحوار الإسرائيلي الفلسطيني في أوسلو Oslo: "أن ما يدهشـــني حقا هو أنه في كل جولة من المفاوضات يبدو المفاوضـــون وكـــأنهم يحـــاولون اختراع العجلة من جديد بينما هم يقعون في نفس الأخطاء". فحتى لو لم تستمر الحكومات نفسها في السلطة لمدة تكفي لاستيعاب تلك الـــدروس، فبالتأكيـــد بإمكاننا أن نحقق ذلك بشكل جماعي.

لقد أمضيت السنوات السبعة عشرة الماضية من عمري – بحكم المصادفة – في محادثات بشكل من الأشكال مع إرهابيين من فئات مختلفة. لم أكـــن دائمـــا أفضّل هذا النوع من الحوار، وكنت في أول لقاء لي مع إرهابـــي، مترددا. فقد أصيب والدي برصاصة في كمين للجيش الجمهوري الأيرلنـــدي عـــام 1940، وكان أخي الأكبر على رأس قائمة اغتيالات الجيش الأيرلندى لمدة ثمان سنوات عندما كان موظفا في فريق رئيسة الوزراء مارغريت تاتشر Margaret Thatcher. وعندما التقيت بجيري آدمز ومارتين ماغينيس عام 1997 رفضت مصـــافحتهما، وهي حركة لا معنى لها وأتأسف الآن لصدورها مني، إلا أنها تتكرر مـــرة تلـــو الأخرى في ما أرويه في هذا الكتاب.

فتوني بلير Tony Blair كان أكثر معقولية، وصافح الجميع بكـــل عفويـــة وكأنه يلتقي مع أي إنسان عادي. وعقب اجتماع لنا مرة في أيرلندا الشـــمالية ذهبنا مباشرة للتمشي في المركز التجاري في شـــرق مدينـــة بلفاســـط Belfast

البروتوستانتي، وكان الأمر هادئا وبعد لحظات قليلة التف حولنا جمع من النساء المسنات يلوحن بأيديهن ويرمين توني بلير بقفزات مطاطية. وكان بلير يستغرب لذلك وسألني عن مغزى القفزات المطاطية وعما إذا كن محتجّات عن غسل الأواني، فكنت أوضح له أنهن ينصحنه بأن يلبس قفزات مطاطية إذا كان ينوي مصافحة هؤلاء القتلة، أي الجمهوريين.

إن تجربتي غيرت من قناعاتي وأقنعتني أن الحوار هو السبيل الصحيح في هذا الصدد. وفي خلال أيام من اجتماعي بمارتين ماغينيس اتصل بي وطلب مني الحضور خفية إلى ديري Londonerry أو ديري Derry (وهي المدينة الثانية في أيرلندا الشمالية) والالتقاء به هناك. طلب مني ألاّ أخبر جماعة الأمن وأن آتي بمفردي. فطرت إلى ألديغروف Aldegrove، وأخذت تاكسي إلى ديري، ووقفت أنتظر على ناصية الطريق وقد انتابني شعور بشيء من العبط. وفي غضون عشر دقائق اقترب مني رجلان حليقان أخبراني أن "مارتين أرسلنا" ودفعا بي إلى المقعد الخلفي في تاكسي. وانطلقت بنا التاكسي في لف ودوران لمدة ساعة حتى تهت عن طريقي ثم قذفا بي حيث وصلنا أمام بيت أنيق حديث في حي سكني صغير. طرقت الباب وفتح مارتين ماغينيس.. وكان يمشي على عكازين وكأنها نكتة ركيكة عن "كسر الرُكب"، وهي طريقة العقاب المفضلة عند الجيش الجمهوري الأيرلندي آنذاك.

وهناك قضيت ثلاث ساعات في صحبة مارتين ماغينيس، أمام مدفأة على الحطب الطبيعي مع الشاي والسندويتشات التي تركها لنا صاحب البيت الكريم. لم ننجز المستحيل ولكن الرحلة فتحت لنا طريقا ظل، ولمدى العشر سنوات التالية، مفتوحا أمامنا لكي نتنقل عبر البحر الأيرلندي للالتقاء مع آدمز وماغينيس في بيوت آمنة في غرب بلفاست وديري ودبلان. كنا نذهب إليهم في أرضهم ولا نُصرّ على أن يأتوا إلينا في مكاتبنا الحكومية الفخمة. لم تكن تلك لقاءات خطيرة، والمرة الوحيدة التي أحسست فيها بشي من التهديد في الواقع كانت مرة في فوولز روود Falls Road، حيث كنت أتمشى على الرصيف أمام مكتب لمنظمة شين فين Sinn Fein (وهي حزب سياسي أيرلندي معناه "نحن أنفسنا"

أسس عام 1905 ويمثل الجناح السياسي للجيش الجمهوري الأيرلندي IRA آي آر أيه) منتظرا أن يفتح لي الباب. فقد تخوف قادة الجيش الأيرلندي آنــذاك أن أصبح هدفا سهلا لعناصر جمهورية أخرى مناوئة، فأخذوا احتياطهم أن ذلك لن يتكرر. ولكن المخاطر التي تشاركنا فيها هي التي أسست فيما بيننا علاقة الثقــة التي مكنتنا من التقدم إلى الأمام. وهذه الحقيقة هي التي تؤكد صحة الكثير ممــا يرويه هذا الكتاب.

كانت المفاوضات في أيرلندا الشمالية محبطة ومن أصعب التحديات الــتي واجهتها في حياتي، ولكنها أيضا، على الأقل بالنظر إليها الآن، كانت مرضــية للغاية ومن أهم إنجازاتي الشخصية. ومنذ أن تركت عملي في الحكومة واصلت الجهد لإنهاء النزاع بين الحكومات والجماعات المسلحة، عــبر مركــز الحــوار الإنساني ومقره في جنيــف Centre for Humanitarian Dialogue، والمعــروف كذلك باسم مركز هنري دونانت (أتش دي ســي) Henry Dunant Centre HDC، ثم كمؤسس لمنظمة **إنتر ماديات** Inter Mediate، وهي منظمــة غــير حكومية مقرها لندن تهدف لفتح قنوات اتصال لم تكن موجودة من قبل بــين الحكومات والجماعات المسلحة، والبحث عن سبل تحويل تلــك الاتصــالات والقنوات، كلما أمكن، إلى فرص للتفاوض.

أقنعتني تجربتي في أيرلندا الشمالية أنه لا يوجد صراع غير قابل للحل، مهما كان دمويا أو قديما أو صعبا. فبالصبر والمثابرة، وبالقيادة السياسية الحكيمة قبــل كل شيء، يمكن تجاوز كل الصراعات حتى وإن تكرر فشل محاولات ســابقة لإحلال السلام. فالسيدة إلايزا مانينغهام بوللر تذكر في محاضرتها ضمن سلســلة محاضرات ريث أن بعض الدروس التي تعلمناها في أيرلندا "مفيدة جدا للــتفكير حول المخاطر نفسها المتعلقة بالقاعدة. أحدها أن الانقسامات الموجودة في مجتمع أيرلندا الشمالية، والتي تتمثل في الإرهاب، لا يمكن حلها بالوسائل العســكرية. ولا يمكن حلها عن طريق أجهزة الاستخبارات أو البوليس مهما كان دورهــا فعالا في منع الهجومات أو توفير المعلومات.. ولربما استطاعت الحكومات شراء بعض الوقت لصالح العملية السياسية. فالمعلومات لعبت دورا أساسيا لمســاعدة

المسؤولين في إدارة العملية التي كانت تهدف إلى الوصول إلى حلول سياسية أبعد مع أولئك الذين كانوا وراء الحملات الإرهابية... والعبر قائمة في حالات أخرى كثيرة".

فأنا لا أدعي أن أيرلندا الشمالية تمثل "نموذجا" يمكن تطبيقه حرفيا في حالات أخرى، فهذا شيء غير مقبول أصلا. فلكل صراع أسبابه الخاصة، ولكل أيضا حلوله الخاصة. إلا أنه من المعيب أن نقول أن الدروس التي تعلمناها خلال مفاوضات أيرلندا الشمالية، الناجحة منها والفاشلة، لا يمكن الاستفادة منها في حالات أخرى. فإذا كان ولا بد من ارتكاب أخطاء في التفاوض مع الجماعات المسلحة أو الإرهابيين فمن حقنا أن نرتكب أخطاءنا نحن ولا نكرر أخطاء ارتكبها من سبقنا قبل ذلك.

كنت متشوقا لمعرفة ما هي الدروس التي أخذناها من تجربتنا في أيرلندا الشمالية وكان لها أثر مباشر في حالات أخرى لإحلال السلام في العالم. فأنا لست رجل نظريات ولا أكاديمي إنما أنا رجل عملي. وبرغم وجود كتب عديدة حول نظرية التفاوض، بل ونظريات التعامل مع الإرهابيين، إلا أن هناك القليل جدا حول الممارسة العملية للتفاوض المباشر مع الإرهابيين. وقد أعد هذا الكتاب خصيصا لملء هذا الفراغ.

من الواضح بطبيعة الحال أنني لا أستطيع الكتابة عن مفاوضات جارية أخوضها حاليا، وإن كتبت فسوف لن أجد من يتفاوض معي في المستقبل. وعليه يأتي هذا الكتاب يحمل تجارب شخصيات حكومية وزعماء جماعات مسلحة ووسطاء شاركوا فعلا في محادثات تهدف لإنهاء حالات صراع مسلح حول العالم على مدى عقدين من الزمن ونيف. ويحاول الكتاب تأكيد لماذا نجح بعضها (في السيلفادور وجنوب أفريقيا، وفي محادثات أوسلو حول الشرق الأوسط، وفي موزمبيق وأتشيه Aceh في أندونيسيا) وفشل الآخر (في سريلانكا وكولومبيا وأنغولا)، بالإضافة إلى النظر إلى تلك التي لا تزال بين بين (في حالة إيتا ETA واسمها بالإسبانية أوسكادي تا أسكاتاسونا ESUKADI TA ASKATASUNA أي أرض الباسك والحرية، باللغة الباسكية، في إسبانيا

والماويين في نيبال). كل هذه التجارب تبين أن هناك نمطا واضحا يميز بين الوسائل الفعالة وغير الفعالة.

الإرهاب ليس ظاهرة جديدة، حتى وإن تعاملنا معه كذلك. معظم التواريخ تحاول الرجوع بأصول قصة الإرهاب إلى "سيكاراي" Sicarii أي "رجال الخنجر" من يهوذا، في القرن الأول الميلادي، الذين حملوا خناجرهم الصغيرة للهجوم على الرومان، والقتلة (الحشاشين) The Assassins في فارس في العصور الوسطى، الذين أقدموا على قتل منافسيهم الدينيين مع يقينهم أنهم سيُقتلون في المقابل. ورغم أن القتل لأسباب سياسية أو دينية يظل حقيقة قديمة قدم الإنسان على البسيطة، إلا أنه من المبالغ فيه أن نذهب بالمعنى إلى ذلك المدى البعيد.

فمصطلح الإرهاب Terror برز إبان الثورة الفرنسية عندما أطلق على حملات الحكومة لحماية الثورة وكان يحمل إيحاءات ومعاني إيجابية بالكامل بالنسبة للذين يستعملونه (رغم أن إدموند بيرك Edmund Burke في ذلك الوقت كان يهاجم اليعقوبيين Jacobins ويصفهم بـ "كلاب جهنم الذي يسمون انفسهم إرهابين Terrorists"). ولعل أول استعمال لمصطلح "إرهابي" كان في وصف أولئك الذين هجموا على عربة نابليون في مناسبة عشية الميلاد عام 1800 في ما عرف بمؤامرة "الآلة الجهنمية Infernal Machine" (سميت على هجوم بالمفرقعات في فلاندرز Flanders إبان التمرد ضد الإسبان في القرن السادس عشر).

أول جماعة يمكن أن نعتبرها إرهابية بمصطلحنا الحديث هي حركة الفينيان Fenians في القرن التاسع عشر التي نشأت عن انتفاضة تقليدية مسلحة قديمة في أيرلندا. كان أكبر هجوم جريء قاموا به في مدينة تشيستر Chester في فبراير 1867 حيث أعدوا للاستيلاء على 30,000 بندقية ونقلها بالقطار إلى هوليهد Holyhead، ميناء بحري في غرب جزيرة أنغلسي Anglesey بمقاطعة وايلز Wales، ومن هناك بحرا إلى أيرلندا. كان المقرر أن ينفذ الهجوم مجموعة من رجال الحرب الأهلية الأيرلنديين الأمريكيين بالتعاون مع عدة مئات من الأيرلنديين في مدينة ليفربول Liverpool بإنجلترا. أُحبطت العملية بسهولة من

قبل الشرطة البريطانية التي تمكنت من اختراق الحركة. وفر المحاربون الأمريكيون المحنكون إلى الولايات المتحدة حيث استقبلوا استقبال الأبطال، بينما أسر من ألقي عليهم القبض من المجموعة في بريطانيا. وزمجرت صحيفة التايمز *The Times* اللندنية، قائلة أن "لا بد من طرد 'الإرهاب' بأشد الوسائل". بينما كتب فريدريخ إنجلز Friedrich Engles، الذي تعد زوجته من الفينيان، يقول كابحا مشاعره أن "ما ينقص الفينيان هو الشهداء، وقد أُهديت لهم مجموعة من هؤلاء في هذه العملية". فبأسرهم ومعاملتهم كمعتقلين سياسيين وشنق زعمائهم، أوجدت لهم الحكومة البريطانية قضية يموتون من أجلها.

ولأسلوب الفينيان هذا صفات كثيرة ليست بالغريبة عنا اليوم. فهدفهم هو بث الرعب والخوف لتهوين عزيمة "العدو الإمبراطوري". ونظرا لعدم وجود دعم كاف لانتفاضة في أيرلندا نفسها، كان عليهم اللجوء إلى الإرهاب في البلد الأم – بريطانيا – بقيادة "نخبة متفتحة". فجاؤوا بالسلاح والمتفجرات من الولايات المتحدة وأقاموا وحدات اغتيال لقتل عملاء ومخبرين. كما أن أهدافهم كانت معروفة أيضا بما في ذلك المباني الحكومية في شارع البرلمان ومنشآت الغاز في غلاسكو (سكوتلاندا)، وفي عام 1883 خط قطار الأنفاق ديستريكت لاين District Line، في لندن، في المحطة نفسها التي كانت هدفا لتفجيرات 7/7 (من شهر 7 عام 2008) بعد 125 عاما تقريبا. وكما هو الحال بالنسبة للإرهابيين المعاصرين كانت التقنية المتطورة هي محركهم الأساسي. ففي ديسمبر 1867 استخدموا البارود في برميل للبيرة سعته 36 غالونا في محاولة لتفجير حائط سجن كلاركنويل Clerckenwell وتحرير بعضا من رفاقهم المسجونين، إلا أنهم اضطروا إلى إشعال الفتيل ثلاث مرات وعندما لم تنفجر العبوة اضطروا إلى سحبها في عربة صغيرة إلى بيت قريب. وعادوا في اليوم التالي وعندما انفجرت العبوة أخيرا وذهب أثرها في الاتجاه المعاكس فدمر مجموعة شقق سكنية وأسفر عن مقتل مدنيين بينهم طفل صغير.

اكتشاف مادة النتروجلسرين nitroglycerine أي متفجر الديناميت هو الذي أعطى الفينيان دفعة قوية، كما فعل متفجر السيمتكس Semtex

بخلفائهم في منظمة (آي آر أيه IRA) بعد قرن من الزمان. فقد كانت مـــادة صغيرة الحجم وآمنة وقادرة على إحداث دمار واسع. وقد تمكن الفينيان من إنشاء مصانع للمتفجرات، ولُقب أحد قادهم وهو جاراميه أودونوفان روسنا Jeremiah O'Donovan Rossa باسم "أودايناميـــت" O'Dynamite لكثـــرة استعماله هذا المتفجر في حملات في الأراضي البريطانية في ثمانينـــات القـــرن الثامن عشر.

استخدَم الفينيان وخلفاؤهم متفجر الديناميت لتأثيره النفسي على النــاس لكي لا تفسر العمليات مجرد جرائم قتل عادية. وقد اختفى الفينيان من الساحة عندما شرع البرلمان في مناقشة قانون الحكم المحلي لمقاطعة أيرلنـــدا *Home Role Bill for Irland* في عام 1886 وصار الموضوع الرئيسي لقضيتهم يبدو وقد أوشك أن يحل سياسيا. إلا أنه في غضون عقدين من الزمن ولدت الحركة من جديـــد تحت اسم "الإخوان الأيرلنديين الجمهـــوريين Irish Republican Brotherhood" عندما أُحبطت تلك الآمال وانتهت إلى طريق مسدود في أروقة الحكومة البريطانية بويستمنستر.

ومن المجموعات القديمة التي يكمن أن نعتبرها إرهابية كذلك المجموعـــات الفوضوية والنيهيلية (العدمية) التي ظهرت في القرن التاسع عشر والـــتي رفعـــت شعار "بروبوغاندا (دعاية) الموتى" الذي أصبح مصدر إلهام لجميع الإرهابيين فيما بعد، فشدوا انتباه العالم لقضاياهم بتوظيف العنـــف الســـافر. يقـــول لـــويس ريتشاردسون Louise Richardson وهو من أبرز الكتاب في موضوع الإرهاب: "كان الهدف الأساسي أن يصبح الوقع النفسي للعمل أقوى من الأثر المـــادي أو الجسماني".

كانت أول عملية انتحارية التي قام بها أحد النيهيليين الروسي في عام 1881 لاغتيال قيصر روسيا. ويقول ضابط نجا في ذلك الحادث: "من خلال الثلـــوج والأنقاض والدماء يمكن رؤية أشلاء الملابس والنياشين والسيوف وكتل اللحـــم البشرية المغطاة بالدماء". لقد ولّد العنف الذي انتهجه النيهيليون والفوضـــويون قمعا قاسيا لدى السلطات... وهو بالضبط ما أراده الإرهابيون.

تقول شخصية الفوضوي في رواية جوزيف كونراد Joseph Cocrad بعنوان "المخبر السري *The Secret Agent*"... "لا شيء يسعدني أكثـر مـن أن أري حضرة الضابط هيت Heat وأمثاله ينهالون علينا ضربا بالرصـاص في واضـحة النهار وبتأييد من الجمهور. عندها نكون قد كسبنا نصف المعركـة وتكـون الأخلاقيات القديمة قد بدأت في الانهيار".

وفي عصرنا الحديث هناك الكثير مما يتطابق مع هذا السلوك بشكل مدهش. فلكم ولع النيهيليون بالحصول على أسلحة الدمار الشامل ليقتلوا ويصيبوا المزيد والمزيد من البشر، واستخدموا التفجيرات الانتحارية، ولجأوا للسـرقة لتمويـل أعمالهم، وأصبح نشاطهم يبدو عالميا وغير محدود بحدود بلد معين. لقد عمـدوا إلى حفر نفق أسفل محل لبيع الجبن يمر تحت شارع في سـانت بيتـرزبيرغ St Petersburg وحشوه بالمتفجرات في محاولة لقتل القيصر أثناء مروره في الشارع، وهو بالضبط ما قامت به منظمة حركة الباسك التحريرية (إيتا ETA) الإسبانية، بعد ذلك بمائة عام. فقد حفرت نفقا تحت شارع في العاصمة الإسبانية مدريـد وملأته بالمواد المتفجرة لقتل رئيس الوزراء الإسباني التابع فرانكو عند مروره من هناك.

لقد سعت الجماعات الإرهابية باستمرار أن تتعلم من بعضـها الـبعض. فالفينيان درسوا عن كتب وسائل النيهيليين، كما درس الجـيش الجمهـوري الأيرلندي الأصلي (أي آر أيه IRA) أساليب البور Boers في جنوب أفريقيـا. وحسب ما جاء على لسان المـؤرخ روري ميللـر Rory Miller أن منظمـة إرجون Irgun ومنظمة ستيرن غانغ Stern Gang اليهـوديتين الإرهـابيتين في فلسطين خلال الثلاثينيات والأربعينيات اعتبرتا الحالة الأيرلندية نموذجا تاريخيا هاما، ليس فقط لكونها دليلا قاطعا على إمكانية إجبار البريطانيين للدخول في مفاوضات مع المسؤولين على الخروج المسلح ضدهم. وانتحل آفراهام ستيرن Avraham Stern، زعيم منظمة ستيرن غانغ، لقب "يئر Yair" تيمنـا بقائـد جماعة سيكاري Sicarii اليهودية القديمة. أما مناحيم بيجن Menachem Begin قائد منظمة الإرغون في الأربعينيات فقد عكف على دراسة حملات الـ (أي

آر أيه) ما بين 1919 و1921 وحملات الفوضويين في روسيا. وعثر على نسخة من مذكراته، بعنوان "التمرد *The Revolt*"، في معسكر تدريب تابع للقاعدة في أفغانستان. وينقل لويس ريتشاردسون عن أسامة بن لادن قوله: "العاقل من اتعظ بغيره من تعلم من أخطاء غيره".

إن مصطلح "إرهابي" استخدم بشكل مبالغ فيه في العصر الحديث لدرجة الابتذال، وكاد يفقد معناه بالكامل. فالنازيون وصفوا المجمعات الحزبية في أوروبا إبان الحرب العالمية الثانية بأنها إرهابية. كما نعت السيد برنارد إنغهام Bernad Ingham، المتحدث الرسمي باسم رئيسة الحكومة البريطانية مارغريت تاتشر، حزب المؤتمر الوطني الأفريقي African National Congress ANC في جنوب أفريقيا بالإرهابي في عام 1987، كما ذكر أحد زعماء الحزب تابو إمبكي Thabo Mbeki. وفي عام 2000 ذكر نلسون مانديلا Nelson Mandela في برنامج لاري كينج لايف Larry King Live على قناة (سي أن أن CNN): "بالأمس وُصفت بأنني إرهابي، ولكنني عندما خرجت من السجن جاء كثيرون يأخذونني بالأحضان بمن فيهم أعدائي". وفي خطابه أمام الجمعية العمومية للأمم المتحدة عام 1974 قال ياسر عرفات:

> **"إن الجانب الذي يقف فيه حامل السلاح هو الذي يميز بين الثائر والإرهابي. فمن وقف إلى جانب قضية عادلة ومن قاتل من أجل حرية وطنه واستقلاله ضد الغزو والاحتلال والاستعمار لا يمكن أن تنطبق عليه بأي شكل من الأشكال صفة الإرهابي".**

إن سؤال منَ هو الإرهابي ومن هو المقاتل من أجل الحرية أرّق المحللين لعقود طويلة. ولكن العالم لا يمكن أن يتفق على تعريف واحد لما هو الإرهاب. وتطالب الأمم المتحدة أعضاءها "بأخذ الخطوات الضرورية لمنع ارتكاب أعمال إرهابية" دون أن يكون هناك إجماع عالمي عما يشكل عملا إرهابيا. فمنذ عام 1996 يسعى الدبلوماسيون إلى التوصل إلى اتفاقية دولية حول الإرهاب ولكن دون جدوى. كما أن فقه القانون الدولي قد أخفق في الوصول إلى صيغة تعريفية متفق عليها. والتعريفات الموجودة في روسيا والصين فضفاضة للغاية ويصعب

التمييز بينها وبين "أعداء الدولة". وبالتأكيد فإن تعريف الرئيس بشار الأسد ليس هو تعريفنا، بينما يتكون التعريف الرسمي البريطاني من ثلاثة أجزاء. العنف الخطير ضد الأفراد أو التدمير المحقق للممتلكات، وما هو مقصود للتأثير على الحكومة أو السلطة أو على منظمة دولية أو استفزاز الجمهور أو جزء من الجمهور، أو لغرض الدفع بقضية سياسية أو دينية أو عرقية أو أيديولوجية. ولكن هذا التعريف غير مقبول لدى آخرين ولذا فليس من المحتمل أن نحسم هذا الجدل في القريب. والأستاذ لورينس فريدمان Lawrence Freedman محق في ما ذهب إليه من أن "موضوع تعريف الإرهاب أصبح مكررا لدرجة الملل".

وهكذا، حتى وإن توصلنا إلى تعريف متفق عليه، فإن مصطلح "إرهابي" لن يفيدنا في تعريف أي مجموعة بأنها "إرهابية". فالإرهاب هو أداة تستخدمها الحكومات لبث الرعب على المستوي الداخلي أو لدعم خصوم أعدائهم في الخارج، وتستخدمه الجماعات المتمردة أو الخارجة على السلطة أو الانفصالية لجذب الانتباه، عندما يتجاهلها الناس، أو لإيجاد سبيل سلمي سياسي لتحقيق أهدافها أو للضغط على الحكومة أو السلطة لتخضع لمطالب الأقلية. يقول الأكاديميان دافيد مارتين جونز David Martin Jones وأم أل آر سميث MLR Smith أنه "من وجهة نظر المنظّر الاستراتيجي فإن فكرة الإرهاب لا وجود لها كمفهوم مستقل.. فهي اسم مجرد. أي بمعنى أدق هي مجرد تكتيك – أي وسيلة – لخلق الرعب لأغراض سياسية يمكن استخدامها من قبل أي فئة اجتماعية، تابعة للدولة أم لا، وفي أي سياق، دون أدخال أي قيمة أخلاقية عليها بالضرورة".

فعبارة "إرهابي" – في الواقع – عادة ما يقصد باستعمالها الانتقاص من شأن الخصم، ووسيلة لإضفاء صفات الشر والشيطانية عليه. والتأثير الأساسي لوصم أي مجموعة بأنها "إرهابية" هو بكل بساطة لكي يصعب التحاور أو التفاهم معها. فقد أضيف الماويون – على سبيل المثال – إلى قائمة المنظمات الإرهابية في الولايات المتحدة الأمريكية عام 2003 وأصبح من المستحيل على أي منظمة أمريكية أن تدخل معهم في حوار أو تفاهم (إلا أن ذلك لم يمنع الماويين

من الدخول كطرف في الحكومة عام 2008).

أحيانا يأخذ النقاش منحىً آخر، فيدخل في التمييز بين المتمردين أي العصابات وبين الإرهابيين. يذهب بروس هوفمان Bruce Hoffman الأستاذ بجامعة جورجتاون الأمريكية إلى القول أنه "غالبا ما يتم الخلط، أو المساواة، بين الإرهاب وبين حرب العصابات أو استعمالها كمترادفين". ولكن "هناك اختلافات جدرية بين المصطلحين. فـ "العصابات" تشير إلى مجموعة من الأفراد المسلحين كبيرة عدديا تتصرف كوحدة عسكرية تهاجم قوات عسكرية معادية وتستولي على أراض وتحتلها. أما الإرهابيون فلا يتحركون كوحدات مسلحة على المفتوح، ولا يسعون بشكل عام إلى الاستيلاء على أراض واحتلالها، ويتعمدون تفادي الاشتباك مع قوات عسكرية في مواجهات مسلحة، ونادرا ما يزاولون السيطرة أو السلطة على أراض أو على مدنيين". ونجد على الجانب المقابل دافيد كيلكالن David Kilcullen، وهو جندي أسترالي وخبير في الإرهاب عمل مستشارا للجنرال باتريوس Petraeus في العراق، يقول: "إن الإرهاب عنصر أساسي في جميع الحركات المسلحة الخارجة على السلطة تقريبا، وكل ما يهدف إلى التمرد (بمعنى الرغبة في تغيير الوضع الراهن باللجوء إلى التخريب أو العنف) هو جزء رئيسي وراء جميع حركات الإرهاب تقريبا". فحركة الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش)، مثلا، منظمة إرهابية، بما في ذلك من شك، ولكنها تستخدم وحدات عسكرية محترفة وتحتل أراض وتتحكم فيها كما لو كانت قوات حرب عصابات.

ورغم ذلك، وبينما الجدل الأكاديمي مستمر، فمصطلح "الإرهاب" هو المصطلح السائد ولا داعي للتحفظ عليه أو التحايل في استعماله. وعندما أستعملُ مصطلح "الإرهابيين" في هذا الكتاب فإني أقصد به الجماعات التي تتحرك خارج الدولة، والتي تستمتع بقدر من الدعم السياسي، والتي تلجأ بصورة متعمدة لاستعمال أسلوب الفزع والترويع للهجوم على أهداف مدنية وعسكرية لتحقيق مآربها السياسية. ولكن هذا النهج لا يعني أنني أبرر بأي شكل من الأشكال استعمال الإرهاب من قبل أي مجموعة. إن القتل الجماعي التي مارسته الكثير من

الجماعات التي أتناولها في هذا الكتاب هو عمل مروع، والتعود عليه مع مـــرور الزمن لا يجعله أمرا أكثر قبولا أو مُبررا من الهجمات التي نشهدها اليوم. وكمـــا أشار محافظ بلدية نيويورك رودي جيليـــاني Rudy Giuliani إذ قـــال: "ونحـــن نطالب كل من يقول أنه علينا أن نتفهم أسباب ذلك الإرهاب بـــأن يفســـروا الأسباب الجنونية المهووسة لذلك الإرهاب، لأولئك الأطفال الذين سيعيشـــون يتامى بلا آباء ولا أمهات!".

كثيرا ما ينظر المسؤولون في الدولة إلى الإرهاب من خلال منظار معروف هو الإرهاب المضاد أو التمرد المضاد. والتمرد المضاد فرع من فروع المعرفة قديم. وقد ألف العقيد سير تشارلز كولويل Sir Charles Callwell كتابا متميزا في هذا الموضوع عام 1896 بعنوان: "الحروب الصغيرة: مبادؤها وتطبيقاتها" معتمدا على دراسة حملات القرن التاسع عشر البريطانية في كل من الهنـــد وبورمـــا العليـــا وأفغانستان وجنوب أفريقيا. ويقول السير تشارلز إنه بخلاف الحروب التقليدية، "تقوم هذه الحروب على أسس مختلفة. فهي بالضرورة حملات داخلية وليســـت خارجية. ويخوض المتحاربون فيها كفاحا ضد عصابات وقطاع طرق، ولا تجد الجيوش النظامية أنفسها في مواجهة قوات محددة بل قوات غير محددة. فســـحق مجموعة من عامة الناس بالسلاح والقضاء على السخط الشعبـــي المنتشر علـــى نطاق واسع بالطرق العسكرية عملية منهكه حتى في البلدان المتحضرة التي تتمتع بنظام اجتماعي مستقر. أما في المناطق النائية المأهولة بأجناس نصف متحضرة أو قبائل متوحشة بالكامل فهذه الحملات هي من أصعب الحروب لتحقيق نتـــائج مرضية عوضا عن أنها دائما ما تكون شاقة جدا بالنسبة للجنود".

وهو كذلك اليوم، باستثناء أنه في أماكن كثيرة من العالم لم يعـــد ســـحق الجماعات المسلحة بهذه الصورة أمرا مقبولا في إطار مبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان.

لقد حاولت الحكومات، كما حاول الإرهابيون، الاستفادة من تجـــاربهم السابقة بتعديل وتطويع استراتيجياتهم الخاصة بالإرهاب المضاد ومواجهة التمرد. فالحملة في الملايو في الخمسينيات تعد كسبا باهرا للجيش البريطاني. فقد ســـلح

البريطانيون ودربوا الحزب الشيوعي الملاوي لمحاربة اليابانيين. إلا أنه عند انتهاء الحرب انقلب الحزب الشيوعي على البريطانيين. وفي عام 1948 أعلنت حالة الطوارئ وعانى الجيش في مواجهة ذلك الخطر. ولكن البريطانيين، بقيادة الفريق جيرالد تيمبلر Gerald Templer والجنرال هاري بريجز Harry Briggs، انتبهوا إلى أن الجواب "لا يكمن في الدفع بمزيد من الجنود إلى الغابات ولكنه يكمن في كسب قلوب الناس وعقولهم". وهكذا انطلقوا إلى دك إسافين بين المتمردين وعامة السكان... ليس بهدف حل مشكلة العنف ولكن للتخفيف منها.

وقد كانوا في هذا الصدد يتعظون بدروس الرئيس ماوتسي تونج Mao Tse-tung الذي كتب يقول: "أن المقاتل في حرب العصابات كالسمك خارج الماء، يلهث ليلقط أنفاسه حتى يموت" إذا ما عزل عن السكان المحليين الذين هم بمثابة الماء الذي يسبح فيه.

وهكذا وطّن البريطانيون سكان الأرياف في قرى جديدة لحمايتهم من تسرب المتمردين، واختاروا عمليات تقوم على الاستخبارات بدلا من الحشد العسكري ضد جماعات العصابات. ولا يزال دليل الاستراتيجية المضادة للتمرد بعنوان: "إدارة العمليات المضادة للإرهاب في الملاوي" مصدرا من مصادر العسكرية البريطانية حتى اليوم.

وقد اتبع هذا الأسلوب قائد الحملة الأمريكية في العراق الجنرال بيتروس في عام 2006 في مراجعته لـ "دليل الفرق البحرية للجيش الأمريكي للعمل المضاد للتمرد" (كوين COIN). ويخلص الدليل إلى القول بأنه لا يمكن هزم التمرد بالوسائل العسكرية فقط. ويدلل على أن العمل العسكري يحتاج إلى التركيز، كما هو الحال في ملاوي، على إزالة المساوئ والمظالم التي تخلق الدعم للمتمردين وإلى الفصل بين الأفراد والجماعات من خلال "المصالحات" و"رد الاعتبار". ويقول ريشتاردسون أن "نجاح العمل المضاد للتمرد يحتاج، في جميع الأحوال تقريبا، إلى مزيج من سياسة 'القوة' وسياسة 'المصالحة'. ومن المهم لنجاح ذلك الحرص على ألا تتضارب السياستان باستعمالهما ضد الجماعة غير المقصودة. فلا ينبغي اللجوء إلى سياسة القوة إلا ضد من يرتكبون أعمال عنف حقيقية، بينما

تتجه سياسة المصالحة للتركيز على المرشحين للتجنيد مع الجماعة".

ورغم أن هذا يعتبر تقدما جيدا، إلا أنه غير كاف. فهناك حاجة إلى جزء ثالث – في رأيي – يضاف إلى "كوين" بالإضافة إلى التجاوب الأمني وحملات "كسب القلوب والعقول" ألا وهو الحوار مع الجماعات المسلحة. إن خلاصة البحث في هذا الكتاب أننا كلما قابلنا جماعة إرهابية جديدة افترضنا أنها تختلف عن سابقاتها وأنه لا يمكننا أن نتحاور معها. ولكن عندما يتوفر لديها الدعم السياسي الجيد ينتهي بنا الأمر إلى الحوار وغالبا ما يكون ذلك عند فوات الأوان. وكنتيجة لذلك تزهق أرواح كثيرة من البشر وننسى نحن بدورنا المنهج الذي اتبعناه آخر مرة.

إنني – بدون أدني شك – لا أقول أن الوسائل الأمنية ليست ضرورية لمواجهة الإرهاب. فما لم يضعف وضع الجماعة الإرهابية حتى يصبح غير مريح، فلن يكون لديها حافز للحديث أو الحوار، خاصة إذا ما ظلت على اعتقاد بأنها منتصرة. وبنفس المنطق تظل الإجراءات الأمنية وحدها غير كافية. فإذا لم يكن هناك سوى الضغط العسكري، دون مخرج سياسي إلا الاستسلام، فالجماعة المسلحة ستقاوم حتى الموت. فاذا اتفقنا على أنك لا تستطيع قتلهم جميعا – وستجعل منهم في الوقت ذاته شهداء وستكسب لهم مزيدا من المنخرطين في صفوف المقاتلين – فحتما ستتحاور معهم في مرحلة ما، ومهما استمريت في القتال ستعود يوما ما إلى النقطة نفسها.

رغم اعتقادي في الحوار مع الإرهابيين، فمن المستبعد جدا أنني ممن يعادون الحرب. لقد ترعرعت في أسرة عسكرية، وشاركت في جميع قرارات الحروب التي خاضها توني بلير. وأنا لا أعتقد أن الحرب خطء في جميع الأحوال. فهي أحيانا ضرورية لإيقاف دكتاتور ما عند حده أو لمنع الإساءة الصارخة لحقوق الإنسان أو لطرد قوات محتلة، ولكنني ألاحظ أيضا أن الحروب الأهلية في العالم الحديث هي أعظم ما يهدد الأمن الإنساني. وإذا أردنا أن نحارب الجوع أو الاغتصاب الجماعي أو انتشار الأمراض الفتاكة أو رغبنا في مساعدة الأطفال الذين لا معين لهم، سواء الأطفال الجنود أم ضحايا

الحروب، فإن أهم شيء يمكننا القيام به هو المساهمة في إيقاف الصراع المسلح... وهذا ما جعلني أكرس بقية حياتي لهذا الهدف.

فمن خلال مؤسسة "إنتر ماديات Inter Mediate" التي أديرها، وهي مؤسسة غير حكومية (أن جي أو NGO)، نهدف إلى نشر الدروس والعبر التي نستقيها من خلال تسوية صراعات مختلفة، حتى لا تظل الحكومات والجماعات المسلحة تكرر الأخطاء ذاتها مرة بعد المرة.

ويحاول هذا الكتاب أن يستخلص بعض الدروس المشتركة من حالات الإخفاق وحالات النجاح في التفاوض على مستوى العالم لتسوية النزاعات مع الجماعات المسلحة خلال العقدين الماضيين، ثم النظر في تجارب سابقة عما إذا كانت الدروس نفسها قد طبقت آنذاك أيضا. فقد يكون من السهل على رجل حكومة ما أو زعيم جماعة مسلحة أن يركز حصريا على التفاصيل المملة لصراعه الراهن مصرا على أنه فريد في صعوبته ولا أحد يستطيع فهمه أو استيعابه. ولكن عندما يكون المرء يسعى للنجاح فمن المهم أن يرفع رأسه وينظر من حوله ليرى العبر والدروس في الماضي وفي صراعات أخرى في مختلف أنحاء العالم. وإذا هيء لهذا الكتاب أن يساهم، ولو بقدر بسيط، في استيعاب الناس لتجارب الآخرين في الحوار مع الإرهابيين والمسلحين، وكانت نتيجة ذلك أن تحقن الدماء، فسأكون شخصيا في غاية السعادة.

فالحوار مع الإرهابيين والمسلحين سيكون دائما صعبا عمليا، وأخلاقيا سيظل محفوفا بالمخاطر. ولكنني أعتقد جازما أنه السبيل الوحيد. وقد برر الرئيس الأمريكي فراكلين روزفيلت Franklin Roosevelt علاقة الحلفاء مع ستالين Stalin خلال الحرب العالمية الثانية بالإشارة إلى مثله البلقاني المفضل الذي يقول: "يجوز لك في ساعات الخطر المحيق أن تمشي برفقة الشيطان ريثما تجتاز الجسر". وهذا عين الصواب بالنسبة للحوار مع الإرهابيين.

الفصل الأول

ما هي الأسباب التي تدعونا إلى التحاور مع الإرهابيين

يجب ألاّ نفاوض من موقع الخوف، ولكن علينا ألا نخاف التفاوض....

جون أف. كينيدي *John F. Kennedy*

في أعقاب أحداث سبتمبر/أيلول 2011 قال الرئيس جورج دبليو بوش George W Bush: "لا يمكن لأي أمة أن تتفاوض مع إرهابيين، فليس هناك من سبيل للتوصل إلى سلام مع الذين كان هدفهم الوحيد هو القتل". وعبر عن ذلك نائبه ديك تشيني Dick Cheney بشكل أقوى حين قال: "نحن لا نتفاوض مع الشر، إنما نهزمه".

هذه الكلمات البسيطة تعبر عن صلب الموضوع. هل الحديث مع الإرهابيين عمل أخلاقي؟ هل هو عمل فعال؟ وهل هناك في نهاية المطاف من بديل لذلك؟

بوش وتشيني ليسا الوحيدين اللذين أخذا هذا الخط المتشدد. في عام 1901 وفي أعقاب اغتيال الرئيس الأمريكي ماكينللي McKinley على يد شخص مصنف فوضوفا Anarchist، دعا تيدي روزافيلت Teddy Roosevelt إلى حملة للقضاء قضاء مبرما على الإرهاب أين ما كان. وفي عام 1985 أصر الرئيس ريغان Regan على أن "أمريكا لن تقدم أي تنازلات للإرهابيين.. وإن قدمت فلن يؤدي ذلك إلا إلى مزيد من الإرهاب... وبمجرد أن ننزلق في هذا الطريق الذي لا نهاية له، لن تكون هناك نهاية لمعاناة الناس الأبرياء، أو نهاية للرهان الملطخ بالدماء الذي يجب على كل الأمم المتحضرة دفعه".

وحديثا قالت سوزان رايس Susan Rice مستشارة الأمن القومي الأمريكي في إدارة الرئيس أوباما Obama: "نحن لا نتفاوض مع الإرهابيين وهـــذه هـــي سياسة الولايات المتحدة". فليس الرؤساء الأمريكيون وحدهم بل رؤساء فرنسا وكولومبيا وسيرلانكا وبريطانيا وإسبانيا وإسرائيل وتركيا وغيرهم من زعمـــاء دول أخرى رددوا – المرة تلو الأخرى – أنهم لن يتفاوضـــوا مـــع الإرهـــابيين والجماعات المسلحة.

إن رفض التعامل مع الذين هم على استعداد للخوض في أعمال بربرية أمر مفروغ منه، من وجهة نظر عاطفية. ويبدو من الواضـــح أن الجـــواب الوحيد لذلك هو القوة وقمع من يرتكبون أعمالا إرهابية واستئصالهم. وليس بوسع أي سياسي يسعى للفوز في الانتخابات مجرد التفكير في أي شيء غير ذلك. ويقول مايكل بيرلي Michael Burleigh صاحب المؤلف المشوق عـــن الإرهـــاب *Blood and Rage: A Cultural History of Terrorism* 'دمـــاء وغضب: دراسة ثقافية لتاريخ الإرهاب': "إن بيئة الإرهابيين بيئة نتنة أخلاقيا بلا شك، إذا لم تكن بيئة إجرامية. واذا كان بإمكانك أن تتخيل أن أسامة بن لادن يتحول إلى نيلسون مانديلا فأنت في حاجة لطبيـــب نفســـاني ولـــيس لمؤرخ".

رد الفعل العاطفي هذا يتسع إلى مجالات أخرى. فهناك مسرحية بعنـــوان: حوار مع الإرهابيين *Talking to Terrorists*.. لصاحبها روبين ســـونز Robin Soans، التي كانت تعرض في لندن عندما شهدت المدينة ما عرف بتفجيرات 7/7 (أي 7 يوليو/تموز 2007)، تقول بفكرة أن مضادة الإرهاب بالقوة فقط لن تؤدي في المستقبل إلا إلى مزيد من الإرهاب. وفي اليوم التالي للعرض كتـــب الناقـــد المسرحي لصحيفة الديلي تيليغراف *The Daily Telegraph* دومينيك كافينديش Dominic Cavendish يقول: "من السهل الإعجاب بتلكما الساعتين من العمل المسرحي عندما يكون خطر الهجوم الإرهابـــي مجرد احتمال بعيد"... ولكن هذا العمل "جاء عندما عاد الإرهاب إلى هذه الديار ليسفر عن وجهه المكفهر المليء بالكره من جديد، ولا أعتقد أنه جاء هذه المرة يدعو إلى حديث ودّي".

ويلخص العسكري السابق جايمس ويذر James Wither الموقف الأخلاقي ضد الخوض في الحوار فيقول: "الحوار مع الإرهابيين يعد خيانة لقيمنا ومبادئنا الأصيلة لأنه يبدو وكأنه يسبغ الشرعية على العنف غير الشرعي ويدعو إلى الحديث مع أفراد رفضوا قواعد ومعايير المجتمع الدولي". أما رجل القانون الأمريكي والمناظر البارع آلن ديرشوفيتز Alan Dershowitz فيتخذ موقفا أكثر صلابة وتعنتا إذ يقول: "يجب ألاّ نتفاوض إطلاقا. فبمجرد استماعنا للإرهابيين نحقق لهم أهدافهم ونشجعهم. إن السبب في نجاح الإرهاب هو بالضبط اعتقاد أصحابه أنهم بقتلهم المدنيين الأبرياء سينجحون في جذب أنظار العالم إلى ما يعتقدون أنها مظالمهم... ولذا علينا أن نعاهد أنفسنا بألا نحاول على الإطلاق تفهم جذور الإرهاب المزعومة أو القضاء عليها، بل على العكس يجب علينا أن نضعها خارج نطاق الحوار والتفاوض. رسالتنا إليهم يجب أن تكون كما يلي: إذا كانت لكم مظالم شرعية ولجأتم إلى الإرهاب كوسيلة للقضاء عليها، فنحن بكل بساطة لن نستمع إليكم ولن نحاول تفهم موقفكم ولن نغير سياستنا تجاهكم.. بل على العكس من ذلك سنلاحقكم وسنحطم قدراتكم على القيام بمزيد من الإرهاب".

هذه الآراء غالبا ما تكون نتيجة ردود أفعال طبيعية تجاه الرعب الناتج عن الإرهاب. تقول الأكاديمية الأمريكية أُدري كرونين Audrey Cronin أن الجدال حول الحوار مع الإرهابيين "يولد حرارة شديدة ولكن قليلا من الضوء: أسمع جعجعة ولا أرى طحينا.. وكثيرا ما يكون في خضم العواقب العاطفية لهجوم إرهابي".. بدلا من التركيز عمليا على صلب الموضوع، وهو العمل لمنع هجمات إرهابية أخرى. ولكن من السهل جدا أن نصرف النظر عن ردود الأفعال هذه على أنها عاطفية محض. ولكن موضوع الحوار مع الإرهابيين والجماعات المسلحة يستحق النقاش بندا بندا وبهدوء وبالتفصيل.

فأول ما يقال في هذا الصدد هو أن الحوار مع الإرهابيين يعني الخضوع للابتزاز وتشجيع آخرين على القيام بحمل السلاح لتحقيق أهدافهم. فالحكومات المختارة ديمقراطيا لا يسعها أن تسمح للإرهاب أن يحقق أهدافه. ويلخص هذه

الحجة الأكاديمي المتخصص في حل الصراعات ويليام زارتمان William Zartman فيقول: "التفاوض في الواقع يشجع على الإرهاب، ومقولة الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون Richard Nixon، بخصوص التفاوض على الرهائن، أن 'إنقاذ حياة واحدة يضع مئات الأرواح الأخرى في خطر' يمكن مضاعفته من ناحية الحجم بالنسبة لمفاوضات مع منظمات سياسية إرهابية. ولذا فليس من المسؤولية بمكان أن السماح للإرهابيين أن يقنعوننا بالقوة ويدفعوا بنا، على جثث الضحايا المدنيين، إلى اتخاذ قرارات سياسية. فمكافأتهم على الابتزاز لن تزيدهم إلا تشجيعا للقيام بالمزيد من العمل نفسه".

ويذهب رجال السياسة إلى أبعد من ذلك فيقولون أن الحوار مع الجماعات الإرهابية أو المسلحة يعادل الاستسلام. وفي حديثه للكنيست الإسرائيلي في عام 2008 قال جورج دبليو بوش: "يبدو أن البعض يقترح أن نتفاوض مع الإرهابيين والمتشددين... وهذا هراء أحمق سمعناه من قبل. فعندما كانت دبابات النازية تعبر طريقها إلى احتلال بولندا عام 1939 كان علينا أن نسمي ذلك باسمه الحقيقي ألا وهو: سلوى الاستسلام الكاذبة".

هذا سوء فهم حقيقي لمصطلح الاستسلام. ففي عام 1938 لم تكن القضية هي ذهاب رئيس الوزراء البريطاني نيفيل تشامبرلين Neville Chamberlain إلى ميونخ لعقد محادثات مع هتلر - فقد كان الحديث آنذاك محاولة معقولة لتفادي حربا عالمية مبيدة أخرى - بل القضية هي إمكانية شراء هتلر مقابل جزء كبير من تشيكوسلوفاكيا.

فالمشكلة هي ليست مجرد الحوار مع الإرهابيين بل هي الاستسلام لهم، والأمران مختلفان. فمجرد الحديث إليهم يعني بلا شك مكافأة الابتزاز إذا كان يعني التنازل لكل مطالب الإرهابيين، ولو كان كذلك فلا يمكن لأي حكومة ديمقراطية الاستمرار ولو لحظة واحدة. فقد حاورت الحكومة البريطانية الجمهوريين الأيرلنديين ولكنها لم تسلم لهم الحصول على مطلبهم الأساسي، وهو أيرلندا الموحدة، من خلال فوهة البندقية. ويخلص زارتمان إلى القول: "إن التفاوض في حد ذاته ليس هو ما يشجع أو لا يشجع على المزيد من ابتزاز

الإرهابيين، ولكن شروط الاتفاق المبرم هي التي تحدد ذلك. فإذا مـا حصـل الإرهابيون على أهدافهم من خلال عملية التفاوض نفسها، وأعطـوا للدولـة الشيء اليسير أو لم يعطوا في المقابل أكثر من إنهاء الصراع، فسيأتي غيرهم بالفعل ويتجرأ لاتّباع السبيل نفسه". ويضيف نك بيرنز Nick Burns، وهو دبلوماسي أمريكي كبير سابق، قائلا: "الحديث إلى أعدائنا ليس مجرد عملية مسلية، وهـي ليست وصفة مضمونة النجاح في جميع الحالات. ولكن من البسـاطة، ومـن الخطأ، أن نتهم المفاوضات بأنها تعكس الضعف أو الاستسلام. فهي غالبا مـا تكون دليلا على قوة الدولة ومدي ثقتها بنفسها".

النقطة الثانية هي أن الإرهابيين مُختلون عقليا والحوار معهم، بالإضافة إلى أنه خطأ، لا فائدة منه. هناك بلا شك عناصر بين الإرهابيين يمكن وصفها مختلة عقليا، ولكن لويس ريتشاردسون يقول: "الإرهابيون بشكل عام ليسوا مجـانين على الإطلاق. فصفتهم الأساسية المشتركة هي طبيعتهم السوية من خلال الإطار الذي نفهمهم نحن عن طريقه، والدراسات النفسية حول الإرهاب مجمعة علـى هذه النقطة".

والعالم النفساني مارك سايجمان Marc Sageman الذي درس حيـاة 172 شخصية من المجاهدين الأفغان لم يجد إلا النزر اليسير من الأدلة في أسلافهم على السقم الشخصي. وتوكد مارثا كرينشو Martha Crenshaw الأستاذة بجامعـة ستانفورد، بكل وضوح أن "فكرة الإرهاب هي نتاج اضطراب عقلي أو مرض نفساني قد ثبت بطلانها". ويلخص ذلك ريتشاردسون فيقول: "الإرهابيون ليسوا بمجانين وليسوا بأسوياء، ولكنهم بشر عقلانيون يسعون إلى تحقيـق أهـداف معينة".

فللجماعات الإرهابية منطقهم الخاص، ولكنه منطق لا يسـتطيع فهمـه الأسوياء دائما بصورة مباشرة. والحديث معهم يتطلب قدرا كافيا من الوقـت والجهد حتى نتمكن من استيعاب الأسباب التي دفعت بهم لحمل السلاح، ومـا هو الشيء الذي يريدون تحقيقه. فمن المستحيل محاولة تفكيـك مـنطقهم دون الحديث معهم ومحاورتهم.

وأما **النقطة الثالثة** فهي القول بأن الحوار مع الإرهابيين هو عمل غير أخلاقي، وأنه بالاشتباك معهم في حوار فإننا نكافؤهم على أعمالهم. ونظرا إلى كونهم لا يمثلون أحدا وليست لديهم شرعية معينة فلا ينبغي لهم تحطيم القواعد التي يقوم عليها المجتمع. وقد تقدم زارتمان وزميله الفرنسي جاي فور Guy Faure بفكرة أن "الوسيلة التي يختارها الإرهابيون على المستوى الأخلاقي – وهي العنف ضد المدنيين – هي التي تجعل الاشتباك والتفاوض معهم أمرا غير أخلاقي. فموضوع التعامل مع الإرهابيين نفسه، وبالذات باعتبار ما تضفيه المفاوضات والمشاركة من سمعة ومكانة رفيعة، يسيء إلى سمعة الدولة لكونها تمثل أرفع قيم القانون والشرعية". ومع ذلك فنحن على استعداد للتحاور مع حكومات تستعمل العنف، بل العنف المروع، ضد مواطنيها، وعليه يكون من العجيب أن نرفض الحديث مع جماعات مسلحة خارج نطاق الدولة التي تنتهج النهج نفسه. زد على ذلك أنه لا يمكن أن نقوم نحن في حياتنا اليومية، على الأقل في عالم الأسوياء، باستعمال الحديث مع أحد كمكافأة له، ونرفض أن نتحدث إلى آخر كعقوبة. وكما تساءل وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل عندما كان بصدد تبرير التعامل مع حركة حماس الفلسطينية إذ قال: "إذا لم نتحاور معهم فكيف سنقنعهم بأن يغيروا موقفهم حيال السلام؟". وفي مسرحية "الحوار مع الإرهابيين" المشار إليها، نسمع على لسان شخصية وزير الدولة السابق لشؤون أيرلندا الشمالية (وزيرة حزب العمال مو موليم Mo Mowlam) قولها "الحديث إلى الإرهابيين هو السبيل الوحيد للتغلب عليهم.. فإذا كنا نهدف إلى تغيير آرائهم فلا بد من الحديث إليهم".

أما من الناحية النظرية فيقول روبرت منوكين Robert Mnookin رئيس برنامج البنتاغون (وزارة الدفاع الأمريكية) للتفاوض بجامعة هارفرد في كتابه "مساومة مع الشيطان" *Bargaining with the Devil*، أن التعصب المتأصل فينا بعمق كثيرا ما يدفعنا إلى رفض التفاوض مبكرا، وعلينا في تلك الحالة أن نؤسس افتراضا يمكن الدفع به لصالح التفاوض ولو مع الأشرار.

النقاش القائم على أخلاقيات مطلقة ضد التحاور مع الإرهابيين لا يصمد في الواقع، وبالتأكيد يتهاوى في وجه الحاجة العملية، التي ربما كانت غير مستساغة، للحديث إلى الإرهابيين إذا كنا نريد منهم التوقف عن القتل. فحتى أشد الجنرالات الأمريكيين يقبل في "الحرب ضد الإرهاب" بأن ليس باستطاعتنا القضاء على الإرهابيين، وأنه بكل إرهابي واحد نقتله نفسح المجال لاثنين آخرين، وعلينا في نهاية المطاف التحدث إليهم، ويبقى السؤال هو ليس "هل؟" وإنما "متى؟" و"كيف؟".

ويتذكر الجنرال باتريوس جيدا أن القضية المحورية في الاستراتيجية الأمريكية في العراق كانت هي "أننا لن نستطيع أن نشق طريقنا من خلال القتل أو الأسر عبر ذلك التمرد الاصطناعي القوي الذي كان ينهش في نسيج المجتمع العراقي". وكان "العنصر الأساسي" في تلك الاستراتيجية هو "قرار واضح بدعم جريء للتصالح مع المتمردين السّنة الذين كانوا على استعداد لأن يصبحوا جزءا من الحل في العراق بدلا من أن يظلوا مستمرين جزءا من المشكلة... ثم بعد ذلك علينا انتهاج نفس الأسلوب مع مقاتلي مليشيات الشيعة".

الحليف غير المتوقع في النقاش حول أخلاقيات الحوار مع الإرهابيين هو آمي أيلاون Ami Ayalon المدير السابق لوكالة الأمن الداخلي الإسرائيلي شين بيت Shin Bet، الذي يقول بأن "أي شيء يمكن القيام به لتقصير عمر الحرب هو أخلاقي". ويذهب وزير الخارجية الإسرائيلي السابق أبا إبان Abba Eban إلى أبعد من ذلك فيعتقد أن التفاوض ليس خيارا اعتباطيا ولكنه واجب غير مشروط، إذ يقول: "المسألة هي كيف تخمد النيران بدلا من الخوض في نقاش لا نهاية له حول من أشعلها باذئ ذي بدء... والتفاوض مع الإرهابيين ليس موضوع تسامح أو تناسي الماضي بل هو مسألة تمسّك بموقف واقعي حيال المستقبل. إنه وجهة نظر أخلاقية تقوم على أحاسيس إنسانية تضع إنقاذ الأرواح وحقن الدماء على قمة الأولويات".

هذا لا يعني أن الدخول في حوار مع أناس ارتكبوا جرائم قتل لا توصف هو أمر مريح أخلاقيا. فالحكومات عند دخولها في اشتباكات حوارية مع

الجماعات الإرهابية أو المسلحة تجد نفسها تمشي على حبل أخلاقي رفيع جدا. وعندما اشتبكنا نحن - الحكومة البريطانية - مع الجمهوريين الأيرلنديين في الحوار كنا على وعي كامل بهذا الهامش الضيق. فمن جهة لم نكن نريد أن ندفع خطأ بالجيش الجمهوري الأيرلندي (آي. آر. أيه) إلى تفجير آخر كتفجير كاناري وورلف Canary Wharf في لندن، كما فعل رئيس الوزراء البريطاني جون ميجر John Major، و لم نكن نرغب كذلك في أن نجد أنفسنا نتفاوض تحت تهديد العنف، أو أن نسمح لأنفسنا بأن نكون تحت تأثير ذلك التهديد. وهذا أمر غير أخلاقي وأسلوب سيء للغاية. وعلى الحكومات أن تظل دائما على وعي بخطورة العامل الأخلاقي الذي يتعرضون له عند الحوار مع الجماعات المسلحة، مع الاعتراف بأن ذلك هو غالبا السبيل الوحيد لإنقاذ الأرواح.

وتقول أنطونيا بوتر Antonia Potter، وهي خبيرة في العلوم الإنسانية، أن من واجب الوسطاء "أن يكونوا على استعداد أن يتعايشوا مع ما يمكن وصفه - بكل أريحية - بالازدواجية الأخلاقية. وعليهم أن يكونوا على استعداد أن يتحدثوا إلى بل ويصادقوا أولئك الذين تلطخت أيديهم بالدماء". وقال مارتي أهتيساراي Martti Ahtisaari الرئيس السابق لفنلندا وأحد الوسطاء الناجحين، في كلمته أثناء استلامه لجائزة نوبل للسلام: "لقد كونت حياتي المهنية في الحوار مع أولئك الذين وصفوا في وقت ما بأنهم إرهابيون. ومن وجهة نظري هذا هو السبيل الوحيد ليكون التوسط من أجل عملية للسلام ناجحة. والتوصل إلى حل ينهي الصراع يعني الحوار مع جميع أطراف ذلك الصراع".

ورغم أن الكثير من الأكاديميين والدبلوماسيين يعترف أنه رغم المخاطر الأخلاقية فإن الحديث إلى الإرهابيين أحيانا مقبول، هناك فريق متنامي من الكتابات الأكاديمية والسياسية يقول بأن ذلك يمكن أن تكون له نتائج عكسية أو يكون خطأ لأسباب عملية وليست أخلاقية. وقد اكتشف أحد دعاة هذا الأسلوب، ميتشل ريس Mitchell Reiss، مبعوث سابق للرئيس جورج دبليو بوش في أيرلندا الشمالية، وبتكاليف باهظة، ما مدى جدلية أسلوب معتدل كهذا الأسلوب. فقد جُر بكتابه، وعنوانه: "التفاوض مع الشر: متى نتحاور مع

الإرهـــابيين" *Negotiating with Evil: When to talk to Terrorists* إلى حملـــة الرئاسة لعام 2012. فالسيد رييس عمل كمستشار للسياسة الخارجية لمت رومني Mitt Romney وقد دافع في كتابه عن فكرة أن الحوار مع الإرهابيين في الأغلب فكرة خاطئة إلا أنها في حالة طالبان (أفغانستان) تستحق الأخذ بعين الاعتبـــار. وفي السجال التلفزيوني بين المرشحين الجمهوريين أثار هذه النقطة أحد منافسي رومني طالبا منه توضيح إذا كان موافقا على ذلك أم لا. وسارع رومني مباشرة إلى النأي بنفسه بعيدا عن الفكرة وعن مستشاره السيد رييس، وأكـــد أنـــه لا للتفاوض مع الطالبان ما داموا في حرب مع الجنود الأمريكيين.

يعتقد آلان ديرشوفتز Alan Dershowitz، وهو من اتباع هذه المدرسة، بأن الحوار مع الإرهابيين فكرة خاطئة في كل الحالات تقريبا، ولا ينبغي إعطاءهـــا أهمية إلا عندما يكون الإرهابيون على وشك الاستسلام، وهي المرحلة التي يجب فيها على الحكومة على أي حال التخلص منهم عسكريا بدلا من التحاور معهم. ويدعي ديرشوفتز أن الغرب هو الذي هول من الإرهاب، والإرهاب الفلسطيني على وجه الخصوص، وذلك بالتوسل إليه بدلا من القضاء عليه.

وهذه نسخة أخرى لفكرة: المحاولـــة أو 'التنهيـــدة الأخـــيرة' ' one last heave'،التي كانت سائدة إبان الاستعمار البريطاني، وظهرت أحيانا، بالنظر إلى الوراء، حول قضية أيرلندا الشمالية. وتقول النظرية ما يلي: الجماعة الإرهابيـــة مخترقة بشكل عميق وهي في الرمق الأخير نتيجة لنجاح القوات الأمنيـــة، فـــإذا انسحب السياسيون خطوة إلى الخلف وتركوا الفرصة للعســـكريين والبـــوليس ورجال المخابرات لتسديد الضربة الأخيرة، بدون تكتيف أيـــديهم باعتبـــارات سياسية، كاحترام حقوق الإنسان، فسيقضي على الجماعـــات الإرهابيـــة دون الحاجة إلى التفاوض معها. أما السياسيون الذين يسعون إلى إجراء حـــوار مـــع الإرهابيين، أو "الحمقى المفيدون" بلغة منظمة الشيوعي العـــالمي Communist International الكمنتيرن COMINTERN (وهي منظمة تضم الشيوعيين في كل أنحاء العالم أسسها لينين عام 1919 وحُلت في عام 1943)، الذين، رغم نيـــاتهم الحسنة، يقعون فريسة في قبضة الإرهابيين وينقذونهم من الهلاك.

يؤيد هذا الاتجاه رئيس الوزراء الإسباني المحافظ السابق خوسيه ماريا أثنـــار Jose Maria Aznar فيقول: "أسلوبـــي الشخصي يتلخص في أن أي سياسة في الواقع هي استسلام اذا كانت تعني التفاوض"، ويجب على الحكومة ألا تدخل في مفاوضات "إلا إذا كانت الجماعة الإرهابية في حالة فشل". وفي عام 1996 قال أن "سياسة المواجهة المباشرة ضد الإرهاب التي نقودها تعطينا نتائج جيدة، وليس أمامنا سبيل آخر.. ومسؤوليتي هي أن أضرب حركة الباسك التحريرية (إيتـــا) بكل ما أوتيت من قوة، وهذا ما سأفعله. فليس هناك تفاوض ممكن بين الحكومة و(إيتا)". وفي عام 2004 صرح مستشار أثنار الأمني خافير ثارثـــاليخوس Javier Zarzalejos قائلا: "نحن على قرب قوسين أو أدنى من القضاء على (إيتا)". وفي رأيه أن حكومة رئيس الوزراء خوزي لـــويس ثابـــاتيرو Jose Luis Zapatero الاشتراكية التي جاءت بعد أثنار هي التي أنقذت (إيتا) من الهزيمة وذلك بالموافقة على الدخول معها في حوار. لقد كانت منظمة (إيتا) في الرمق الأخير، وتحـــت ضغوط البوليس والمخابرات الفرنسية والإسبانية جرى القبض علـــى قياداتهـــا المتعاقبة (ثلاث مجموعات في سنة واحدة) وكان بالإمكان القضاء المبرم عليها لو ترك المجال للبوليس للقيام بواجبه. "ثاباتيرو هو الذي أنقذ (إيتا) عندما كانت في الوحل" حسب أحد السياسيين الباسك تيو أوريارته Teo Uriarte.

لا يوجد إلا النزر اليسير من الأدلة التجريبية التي تدعم نظريـــة "التنهيـــدة الأخير" هذه. ففي أيرلندا الشمالية كـــان الجـــيش الجمهـــوري الأيرلنـــدي (آي آر أيه)، وهذه حقيقة، مخترق بشكل مكثف من قبل المخابرات البريطانية في الثمانينات والتسعينات، وهذا جعل من الصعب عليه القيام بهجمات ناجحـــة. كما أنه كان منهكا، وهذه حقيقة أخرى، ومدفوعا إلى وسائل وعمليات أكثر يأسا. ولكنه لم يكن ليهزم بالوسائل العسكرية وحدها، كما أقر بـــذلك قـــادة الجيش والشرطة البريطانيون. وكان الأمر كذلك بالنسبة لحركة (إيتا) في إسبانيا. وهكذا كانت فكرة "التنهيدة الأخير" فكرة أقرب إلى الخيال.

أما المعارضة الأيديولوجية للحوار مع الإرهابيين فهي عميقة. يقول دافيـــد فرم David Frum وريتشارد بـــيرل Richard Perle مـــن المحـــافظين الجـــدد

الأمريكيين: "يظل الإرهاب الشر الأعظم في عصرنا الراهن، وتظل الحرب ضد هذا الشر هي القضية الكبرى لجيلنا الحاضر. فنحن لا نعتقد أن الأمريكيين يحاربون هذا الشر لتحجيمه أو السيطرة عليه. فليس أمامهم طريق وسط... إنه النصر أو المحرقة". وقد انتقد زميلهما الأيديولوجي أرفينج كريستول Irving Kristol "عمليات السلام" سواء في الشرق الأوسط أو أيرلندا الشمالية بأنها "'عمل لطيف' ولكنه شيء لا يذكر في الواقع"،.فإنه "من الصعب وجود أي عملية سلمية حققت أي نتائج في أي مكان، بناء على الاعتقاد "بأنه لو تمكنا من إقناع طرفي النزاع إلى أن يحاور أحدهما الآخر فإن درجة الشك عند كل منهما ستنخفض وأن درجة الفهم المشترك سترتفع حتى نصل إلى حد ما عنده يخمد الصراع".

ويذهب كريستول إلى أن عملية السلام في الشرق الأسط هي "عملية استسلام تقدم بموجبها إسرائيل تنازلات يطالب العرب بعدها بكل بساطة بالمزيد". والسبب في أن عمليات السلام تفشل هو، في رأيه، "عدم وجود وسيط بإمكانه أن يتصور أن هناك حلا نهائيا يرضى الطرفين. فالخبير في تسوية الصراعات يمكنه بسهولة إحداث إعادة تصور جذرية في الأحاسيس والتوجهات والعواطف لدى الجمهور المعني حتى تستطيع المشكلة أن تحل نفسها بنفسها. فالوسيط، مع كل أسف، لا يملك العلاج الذي يمكنه من صنع معجزة كهذه". فهذه أفكار تعتمد على الجزم والتأكيد أكثر منها على المنطق.

حاول ثلاثة أكاديميين هم جون بيو John Bew ومارتين فرامبتون Martyn Frampton وإنيجو غروتشاجا Inigo Gurruchaga في كتاب لهم عن بلاد الباسك وأيرلندا الشمالية أن يطوروا نظرية مراجعة أو تعديل التاريخ (revisionist) بناء عن أدلة وأفكار وآراء جديدة ولكن بطريقة أكثر براعة. فهم لا يحاولون أبدا رفض التفاوض مع الإرهابيين، حيث أنهم يعتبرون من المسلمات أن الحكومات فاوضت في الماضي وستفاوض في المستقبل ولكنهم يعتبرون الحوار في السياق الخطأ ربما جعل الأمر أكثر سوءا. وهم لا يقبلون، من حسن الحظ، بأن المفاوضات كانت العنصر الأساسي في إنهاء الصراع في أيرلندا أو الباسك،

ولكن العمل العسكري وتفوق الاستخبارات هو ما جعل انهـــزام الجماعـــات المسلحة ممكنا. وكتب جون بيو يقول: "إن الافتراض أن 'الحوار مع الإرهابيين' هو الذي وفر المتغير الرئيسي في البحث عن السلام في أيرلندا الشمالية، فيه تبسيط إلى أبعد الحدود لتاريخ ذلك الصراع هناك. فبريطانيا حاولت أولا أن تتحاور مع الجيش الجمهوري الأيرلندي في أوقات مختلفة ابتداء من عام 1972. وكان عرض الحوار مبسوطا على الطاولة أكثر مما لم يكن، مما شجع الإرهابيين على الإعتقاد في مراحل متعددة أن الزخم كان في صالحهم، وتزامن ذلك مع تصاعد في التوقعات وفي العنف كذلك". وينقل بيو عن رئيس وزراء جمهورية أيرلندا (الجنوبية) الأسبق غاريت فيتزجيرالد Garret FitzGerald قوله إنه كان على الحكومـــة ألاّ تحـــاور الـــ (آي آر أيه) ما دامت قد "أبدت استعدادها للاعتراف بالهزيمة".

ويقول إنيجو غوروشاجا زميل بيو أن قتل المشتبه فيهم كأعضاء في (إيتـــا) في فرنسا على يد فرق الاغتيال المدعومة من قبل الحكومة الإسبانية (جال GAL وهي مجموعة برلمانية أسسها أعضاء في وزارة الداخليـــة في فرنســـا لاغتيـــال شخصيات من إيتا)، غيّر المعادلة في صراع الباسك بإقناع الفرنسيين بالحاجة إلى تعاون أمني أوثق مع الإسبان. فلربما كان حقا أن التخوف من أن يأخذ الإسبان حقهم بالقوة قد أثر على السياسة الفرنسية، ولكنه من الخطر أن يدّعي أحدٌ أن استعمال الأساليب الوسخة يمكن أن ينجح على المدي الطويل. كما أنـــه مـــن الخطر الاعتقاد بأن القتل الانتقامي للأبرياء الكاثوليك في أيرلندا الشمالية موالاة لأيرلندا قد ساهم في إقناع الـــ (آي آر أيه) بأن تنهي الصراع بدلا من إطالـــة عمر العنف وتعقيده (وهذا ما حصل). ويذهب غوروشاجا إلى القول أنه "أصبح من الممكن أن يثار احتمال أن (إيتا) ربما تهزم فعلا بالإجراءات الأمنية وحدها". هذ الإقرار يبين مدى خطورة التوسع في نظريات تعتمد على النظر من خـــلال لقطات خاطفة لما يجري داخل الصراع. فعندما نشر الكتاب عام 2009 ظهـــر فعلا وكأن الحكومة الإسبانية اختارت حلا أمنيا صرفا بالفعل. ولكن، مالم يعرفه المؤلف، أن محادثات سرية كانت جارية آنذاك أدت بـــ (إيتا) أن تعلن في عـــام 2011 أنها ستنهي الصراع المسلح إلى الأبد.

يستنتج المؤلفون، بناء على قراءهم لهـذين الصـراعين، أن الحـوار مـع الإرهابيين ليس صوابا في كل الأحوال، إذ يقولون: "هناك فرق جوهري مهـم بين الحوار مع الإرهابيين الذين هم على قمة أمواج النصـر، بالدعايـة والثقـة والزخم، ومع الإرهابيين الذين وصلوا إلى قناعة، بالقوة الخشنة والقوة اللينة معا، بأن أهدافهم لا يمكن الوصول إليها بواسطة العنف". فمن حقهم أن يـدّعوا أن القوة الخشنة كان لها أن تلعب دورا هاما، ولكن فكرة أن تتحدث للإرهـابيين فقط عندما يكونوا في حالة انهزام معناه أن الإرهابيين يشاطرونك ما تشعر به من أنهم فعلا في الرمق الأخير. والمشكلة بالنسبة لنظرية المراجعة أو التعديل للأحداث التاريخية الأوسع هي أن الصراع في كل من أيرلندا الشمالية والباسـك انتـهى بوسائل سلمية، و لم يكن هناك أي دليل على إمكانية القضـاء علـى أي مـن الجماعتين بالوسائل العسكرية والاستخباراتية المحضة.

وكما يؤكد مارتن فن كريفيلد Martin ven Creveld في كتابه بعنوان 'تحولات الحروب' *The Transformation of War*.. "استنتاجا من فشل كل من الفرنسيين في الجزائر والصين الهندية، والبريطانيين في الهنـد وفلسـطين وكينيا وقبرص وعدن، والسوفيات في أفغانستان، والبلجيكيين في الكونغـو، والهولنديين في أندونيسيا، والبرتغاليين في أنجولا والموزمبيق، وأخـيرا ولـيس آخرا، الأمريكيين في فيتنام، لم تتمكن القوى التقليدية من شن حروب غـير متماثلة في صراع منخفض الحدة، بنجاح ضد مقاومة متدنية التقنية والتمويل والقدرة التنظيمية".

وأكثر وضوحا من ذلك يقول هيو أورد Hugh Orde، مدير عام الشـرطة البريطانية سابقا في أيرلندا الشمالية الذي حكم في أواخر الأحداث في أيرلندا، أنه لا يوجد "مثال واحد أعرفه عن الإرهاب الذي اختفى بقوة الشرطة" أو هـزم هزيمة كاملة بالقوة في أي مكان في العالم. ففي أيرلنـدا الشـمالية اضـطرت الحكومة أن تصل بالـ (آي آر أيه) إلى النقطة التي كان علـيهم أن يتفاوضـوا بضغط الشرطة والقوة العسكرية. ولكنه يعتقد أنهم ما كانوا ليهزموا الـ (آي آر أي) بالشرطة أو القوة العسكرية أو الاستخبارات وحدها..

طرح أصحاب نظرية مراجعة أو تعديل التاريخ سلسلة أفكار عملية يقترحون فيها أن التحاور مع الجماعات المسلحة يمكن في بعض الأوضاع والأوقات أن تكون له نتائج عكسية. **أولا:** هو أن عرض الحوار قد يدفع بالإرهابيين إلى الاعتقاد بأن الحكومة ضعيفة، وأنها بتصعيدها للعنف تستطيع التفوق.

إن اجتماع عضو الحكومة المحافظ، ويللي وايتلو Willie Whitelaw، تعيس الحظ، في عام 1972 مع الـ (آي آر أيه) بمنزل وزير أيرلندا الشمالية السيد بوول شانون Paul Channon في تشين ووك Cheyne Walk، يشار إليه كمثال لهذا الخطأ. فقد سبق الاجتماع أحداث "الجمعة الدامية" التي قامت فيها الـ (آي آر أيه) بمجموعة من الهجمات المذهلة ففجرت 26 قنبلة في مدينة بلفاسط خلال ثمانين دقيقة، وأردت أحد عشر قتيلا ومائة وثلاثين جريحا. ففي الوقت الذي كان من المؤكد أن السماح للاجتماع أن يصبح علنيا كان غلطة فادحة، مما بث الرعب في الاتحاديين، ولكن ليس من الواضح أن الاجتماع في حد ذاته أثار حملة الـ (آي آر أيه) الجديدة بالكشف عن ضعفها. إن الذي فجر الهجمات في الواقع هو الخط المتشدد الذي التزمه وايتلو في الاجتماع بالتأكيد على أن مطالب الـ (آي آر آيه) كانت غير مقبولة جملة وتفصيلا.

ثانيا: استمر الجدال حول ما إذا كانت الحكومة بتحاورها مع الإرهابيين تمنح منظمتهم الشرعية والدعاية التي يسعون إليها. زارتمان يفصل القضية كالتالي: "الاشتباك والتفاوض يحملان معهما الاعتراف بالمنظمة الإرهابية.. وهذا يمنحها درجة من الشرعية والمكانة وينطوي على حقيقة أن هذا الطرف يتحدث باسم الجمهور الذي يدعي تمثيله. ونظرا إلى أن الجماعات الإرهابية، كغيرها من الجماعات المتمردة، تسعى قبل كل شيء إلى الحصول على الاعتراف بالمكانة والتمثيل، فإن الاشتباك يرفعها إلى مكانة أرفع للوصول إلى أهدافهم".

يقول دانيال بايمان Daniel Byman من مؤسسة بروكينجز Brookings Institute في واشنطن: "أغلب الجماعات الإرهابية تحرص على الشرعية، لأن أساليبها تعزلها عن العالم وعن الكثير ممن يمكن أن يكونوا أنصارا موالين لها.

وحتى لو كانت المحادثات لا تنطوي على تنازلات من قبل الحكومة، فمجـــرد الاعتراف بالإرهابيين كمفاوضين جديرين بالاهتمام هو تسجيل نصر معتـــبر في نظر أتباعهم وفي نظر دول أخرى".

وقد درس الصحفي داوود خطاك Daud Khattak أثر محادثات الحكومة الباكستانية السلمية مع حركة طالبان الباكستانية واستنتج أنها زادت من قوة المتشددين إذ يقول: "من وجهة نظر طالبان فإن تسوية مستوى المطالب مـــع الحكومة ثم الدخول معها في مفاوضات يظهر للمدنيين في المناطق القبلية أن قادة طالبان أقوياء بدرجة تمكنهم من الجلوس على طاولة واحدة مع أكـــبر الشخصيات العسكرية في البلاد. وهذا يزيد من قوة الدعم لطالبـــان بـــين أتباعهم ويقمع أصوات المقاومة بين السكان المدنيين الذين يعيشـــون تحـــت سلطتهم".

في الوقت الذي من المؤكد أن الحرص على الشـــرعية والدعايـــة يجـــذب الجماعات المسلحة إلى التحاور، إلا أنه ليس من الواضح أنهم يستفيدون من تلك الشرعية عندما تفشل المحادثات. فعندما فشلت محادثات أتشيه (Aceh) في 2002 فقد متمردو حركة أتشيه الحرة (جي أيه أم GAM) في أندونيسيا الشرعية الـــتي كانوا شديدي الحرص على استعادتها. وفي كولومبيا كانت (أف أيـــه آر ســـي FARC) أقل شرعية من قبل بعد مسرحية محادثات كاخوان Caguan ما بـــين 1998 و2002. فالجمهور والمجتمع الدولي حكم عليهم بأنهم رفضوا عرضا سخيا للسلام تقدمت به الحكومة وأصبحوا مهمشين كـــ "إرهابيي مخدرات".

فإضفاء شرعية مؤقتة على جماعات إرهابية لا يعد بالضرورة ثمنـــا باهظـــا مقابل عملية سلمية، وهو في العادة ما يثبت أنه عملية مؤقتة بالكامـــل إذا مـــا فشلت المحادثات، وخاصة إذا حُمل الفشل للجماعة الإرهابية. وبطبيعة الحـــال فإن الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن تعمله الحكومة هـــو الاعتـــراف المطلـــق بالجماعات المسلحة على أنها "الممثل الشرعي الوحيد" لشعوبها، وهو غالبا مـــا يطالبون به، لأن الاعتراف بذلك هو إنكار أدوار جماعات أخرى ربما كان لهـــا دعم أكبر في المجتمع من الجماعات الإرهابية.

وثالثا: هناك فكرة أن تعامل الحكومة مع الإرهـابيين يضـعف موقـف المعتدلين الذين يصبحون متوجسين من أن الحكومة تقوم بإبرام اتفاقيات سـرية من خلفهم مع الإرهابيين. وهذه هي الحجة التي يسـتعملها شـيمس مـاللون Seamus Mallon زعم حزب الديمقراطيين الاشتراكيين والعمـال (أس دي أل بـي SDLP) الكاثوليكي المعتدل في أيرلندا الشمالية. وكان يشـتكي مـن أن الحكومة البريطانية تتحاور مع الشن فين Sinn Fien بدلا منهم لأن الجمهوريين يملكون السلاح.

وهذ أمر في عين الصواب. فإذا كنت تريد إيقاف العنـف.فـلا بـد أن تتحدث مع الذي بيده البندقية بدلا من الذي يتعامل سياسيا فقط. ولكنه لـيس صوابا أن يُفترض أننا ضحينا – نحن في الحكومة البريطانية – بالمعتدلين. كـان خيارنا من البداية أن نبدأ البناء من المركز بالتعاون مع الجنـاح المعتـدل وهـو اتحادي ألسترا Ulster Unionists وحزب الديمقراطيين الاشتراكيين والعمال (آس دي أل بـي)، إلا أن الـ (آس دي أل بـي) انفسهم وضحوا لنا أنهـم لـن يكونوا قادرين أن يتحركوا إلى الأمام بدون الجمهوريين، ولما كان معنا شـريك كاثوليكي فلم يكن عندنا خيار إلا التفاوض مع الشن فين. أي بمعنى من المعاني، ضحى الـ (آس دي أل بـي) بموقفهم السياسي في المستقبل في سبيل السلام. إن تفادي إضعاف مواقف المعتدلين يجب بطبيعة الحال أن يكون هدفا أساسـيا لأي تفاوض في حالة الاشتباك مع الإرهابيين.

ورابعا: هناك القول بأن التحادث مع الإرهابيين فيه خطر على الحكومـة نفسها، فيمكن أن يسقطها ويمكن أن يهدد استقرار النظام السياسي بأكملـه. يقول مايكل إيجناتيف Michael Ignatieff، زعيم حزب الأحـرار الكنـدي سابقا: "هناك أسباب وجيهة لعدم التفاوض مـع الجماعـات الإرهابيـة... فالإرهاب هو نوع من السياسة يهدف إلى القضاء على السياسة نفسها". فمن المؤكد أنه بالتحاور تجعل الحكومة نفسها معرضة للهجوم السياسي ولتعريضها لوضع الأمن القومي للخطر وتقديم الضحايا. فإذا اتضح أن زعيما ما كان في حاجة ملحة للسلام بأي ثمن فإنه يعرض موقفه سياسيا للهلاك، كما حصـل

للرئيس باسترانا Pastrana في كولومبيا في محادثات كـــاخوان Caguan مـــع جماعة الـــ (أف أيه آر سي).

فبمجرد دخول الحكومة في محادثات يصبح من الصعب عليها، في غالـــب الأحيان، أن تنسحب منها دون أن تظهر بأنها غير منطقية، وغالبا مـــا تكـــون مضطرة للمواصلة حتى تقطع الجماعة المسلحة الاتصال. ورغم وجـــود مخـــاطر سياسية واضحة إلا أنه من الممكن التحصن ضد هذه المخاطر بالإعـــداد الجيـــد للمحادثات. فإذا ما اتضح أن الحكومة متجهة في هذه العملية بجدية ولأســـباب غير أنانية فإن الجمهور غالبا ما يفترض في الحكومة حسن النية. ورفض الدخول في محادثات لوجود مخاطر سياسية فقط ربما يعد تخلٍ عن المسؤولية.

خامسا: هناك خطر الحاق الضرر بالعلاقات مع الحلفاء وإضعاف الجهـــود الدولية لمحاربة الإرهاب. فمثلا، عندما أصرت حكومة ما على دفع فدية مقابـــل إطلاق سراح رهائن وبذلك شجعت على احتجاز المزيد من الرهائن. فميتشـــل ريس Mitchell Reiss يقترح أن الالتقاء مع الإرهابيين "ربما أحـــبط الحلفـــاء الأجانب الذين خاطروا والتزموا بتخصيص إمكانيات وخسروا أرواحا جـــراء جهود مناوئة للإرهاب" إلا ليجدوا تلك الحكومة تمنح الإرهـــابيين الشـــرعية. ويقول بايمن Byman "إن الحوار مع الإرهابيين ربما يخفف كذلك من وصـــمة تصنيف الإرهابيين بأنهم جزء من منظمة إرهابية أجنبية... والاســـتثناءات الـــتي تضعها الولايات المتحدة في قوائم الإرهابيين الخاصة بها ربمـــا يضـــعف مـــن العقوبات ضد أي قوائم أخرى ويشجع دولا أخرى أن تقدم قوائم اســـتثناءات خاصة بها وبالتالي عرقلة أي تعاون".

الحلفاء عادة ما يتفهمون ما هي أسباب عملية السلام، وتكـــون لـــديهم الرغبة للمساعدة والدعم، كما فعلت إدارة الرئيس أوباما مع الرئيس ســـانتوس Santos في محادثاته مع جماعة الـــ (أف آيه آر سي) في كولومبيا.

سادسا: يقال أن التحاور مع الإرهابيين يعطيهم فرصة للاستراحة وتجميـــع القوي... استراحة محارب. ويخلص الخبيران الهولنـــديان إزابيـــل دويفيســـتين Isabelle Duyvesteyn وبارت شرمان Bart Schuurman إلى نتيجة أن "فـــرص

الحوار يمكن أن يستغل توظيفها من قبل خصوم غير نظاميين لكسب الوقت من أجل الإعداد لعمليات جديدة. وقد قدمت لنا العقود القليلة الماضية أمثلة كثيرة لفئات وجدت نفسها في أوضاع عصيبة، فأظهرت الرغبة في الحوار كمجرد خدعة لكسب الوقت لاستيعاد عافيتها من خسائر تكبدتها أو للاستعداد لعمليات جديدة". فهناك مفارقة عجيبة في النظر إلى وقف إطلاق النار كتهديد لحكومة أو مجتمع ما. فالحكومات هي التي تطالب بإيقاف العنف، والإرهابيون هم الذين يخشون أثر إيقاف النار على معنوياتهم وقدراتهم على مواصلة القتال. فكلما استمر وقف إطلاق النار كلما صعبت العودة إلى التقاتل من جديد، لأن إيقاف إطلاق النار يجعل الأوضاع أفضل للسكان المدنيين مع السماح للانتعاش الاقتصادي. والمفاوضات السياسية تكون أيسر إذا ما لم تعقد في أجواء من العنف المتواصل. فما دامت الجماعة المسلحة لم تحصل على ميزات غير معقولة تزيدها قوة على المدى الطويل، فإن إيقاف إطلاق النار غالبا ما يكون لصالح الحكومة.

وأخيرا، وربما الأهم، هو ما عرف بلعنة النتائج غير المقصودة. فبداية المفاوضات ربما أدت إلى اندلاع العنف. فقد جاءت أسوأ موجات (إيتا) للتفجيرات أثناء المحادثات السرية مع حكومة غونثاليث Gansalez في إسبانيا، عندما فجروا قنبلة في موقف للسيارات في أحد أسواق برشلونة الكبرى في يونيو 1987، ذهب ضحيته اثنان وعشرون شخصا. وبينما استمرت الحكومة في المحادثات فجرت (إيتا) ثكنات الحرس الوطني في مدينة ثاراكوثا Zaragoza في ديسمبر من العام نفسه لأنهم كانوا يريدون "التفاوض من موقف القوة". بل الأفظع من ذلك أن 'مارك Marc'، زعيم (إيتا) في المفاوضات، هدد أثناء الاجتماع الرئيسي السري مع الحكومة الإسبانية في لوزان بسويسرا في سبتمبر 2006 بأنه "سيكدس أجساد الموتى تكديسا فوق طاولة المفاوضات" ليزيد في قوته التفاوضية.

ولذلك فمن المهم أن يكون المرء واضحا جدا في ما يرسله من إشارات في هذه الظروف. فعندما كنا كحزب العمال في المعارضة في بريطانيا كانت لدينا

شكوك حادة حول الإشارات التي كانت حكومة جـــون ميجـــر John Major المحافظة ترسلها للطرف الآخر، عندما كانت تشير إلى أنها ما تـــزال مســـتعدة للحوار مع الجمهوريين (آي أر أيه) حتى بعدما فجروا كاناري وورف Canary Wharf، علما بأننا كنا ملتزمين بموقف موحد للحزبين المحافظ والعمـــال تجـــاه أيرلندا الشمالية. إلا أننا احتفظنا بالشكوك لأنفسنا و لم نبدها لأحد. وقد وضح توني بلير Tony Blair الأمر للجمهوريين (آي أر أيه) وضوحا كـــاملا خـــلال الشهور الأولى من وصولنا للسلطة عام 1997، بعدما قتلوا أحد رجال الشرطة، أنهم إذا عادوا للعنف فسوف لن يتحاور معهم مرة أخرى، وأنه هذه المرة مصر على الاستمرار في الحكم مدة طويله. ولذا فإن الحكومات تحتاج إلى أن تكـــون حريصة على تفادي توفير المحفزات الخاوية التي تشجع على مزيد من العنف بدلا من أن تساهم في إنهائه.

ورغم أنه لكل نقطة من تلك النقاط العملية ما يبررها، لكنها لا تشـــكل دليلا ضد الحوار نفسه. فهذه كلها في النهاية وسائل تكتيكية تضمن المضـــي في الحوار عبر طرق معقولة ومدروسة دراسة جيدة. طبعا وبلا شك من الممكـــن، كأي عمل سياسي آخر، إساءة إدارة عملية السلام، ولكن ذلك ليس ســـببا في عدم الدخول في عملية السلام أساسا. ويستنتج غاي فور Guy Faure في إطـــار اختطاف الرهائن أن "المسألة ليست هي التفاوض أو عدم التفاوض، ولكن المهم هو كيفية التفاوض بمهارة".

يذهب أصحاب نظرية المراجعة وتعديل التاريخ إلى القول بأنـــه يجـــب ألاّ يدخل المرء في مفاوضات إلا إذا كان واثقا أن الطرف الآخر جاد ومخلـــص في ذلك. ويعتقد منوكين أنه ليس من المعقول أن يتفاوض المرء اذا كان "مقتنعـــا أن الطرف الآخر لن يفي بوعوده وأنه لا وجود لميكانيكية فعالـــة تفـــرض الحـــل التفاوضي على الطرفين". وكتب المحلل الأمريكي جون أركـــيلا John Arquilla يقول: "إن المفتاح هو أن يكون المرء قادرا على التفريق بين الحالات التي يكـــون فيها الإرهابيون مجرد مستغلين لعملية التفاوض من أجل اللعب على عامل الوقت أو لتسجيل نقاط للدعاية، وبين الحالات التي يكون فيها هنالك أمل حقيقـــي في

تقدم جهود السلام". هذا بطبيعة الحال صحيح، ولكن في الوقت ذاته لا يمكن معرفة عما إذا كانِ الطرف الآخر مخلصا أم لا إلا بعد التحدث معهم. فإذا صدر منهم ما ينبئ عن سوء نية منذ بداية الحوار، عندها يمكن إنهاء المحادثات وكشف عدم إخلاصهم للتفاوض.

قوات الأمن بطبيعتها هي أكثر الأطراف شكا في حسن نيات الجماعات المسلحة. فهم غالبا ما يكونوا على إطلاع، من خلال التقارير الأمنية، على كلام الإرهابيين بعضهم لبعض، وقادة الجماعات المسلحة حريصون في السر على إقناع أتباعهم بأنهم رجال شديدو المراس وأنهم ليسوا بسذج. يقول ألفريدو روبالكابا Alfredo Rubalcaba وزير الداخلية الإسباني، أنه لم يكن متفائلا حول عملية السلام مع (إيتا) في 2005 لأنه كان يراهم من خلال تقارير المباحث يعدون للهجمات ويسرقون السيارات والمتفجرات في فرنسا في الوقت الذي كانوا منهمكين في التحاور في إسبانيا. ولربما كان السبب هو أن الجماعات المسلحة تستمر في نشاطات من هذا النوع لتحافظ على دعم المتشددين بينما في الوقت ذاته تشارك في التحاور. كل ما تقوله أجهزة الاستخبارات هو أن قادة الجماعات المسلحة يقولون شيئا لأتباعهم وشيئا آخر للعالم الخارجي. وليس بالغريب أن الحكومات تعمل الشيء نفسه. فالنيات الحقيقية للجماعات المسلحة غير معروفة لدينا، وهي ربما كانت غير معروفة لديهم كذلك. وهكذا فإن السبيل الوحيد للتعرف على ذلك هو أن نبدأ التحاور معهم وأن نحدد يقينا ما إذا كانوا جادين أم لا.

يقسم ريس الإرهابيين إلى الذين لا يقبلون المصالحة، والذين يمكن التفاهم معهم، والذين هم في منزلة بين المنزلتين. ويقول أن منظمة (إيتا) كان يبغي اعتبارها من الفئة الأولى إلا إذا تخلوا عن مطلب استقلال بلاد الباسك عن إسبانيا. وقد تخلت (إيتا) عن مطلب الاستقلال فعلا عقودا خلت مطالبة بدلا عن ذلك بحق تقرير المصير... وهذا يصل بنا إلى قضية أساسية ألا وهي أن الجماعات المسلحة لها القدرة على تغيير مواقفها إذا ما ووجهت بواقع صعب، والحديث إليهم يساعد في تغيير أفكارهم. المهم أن الفكرة هي أنه من الصعب

معرفة من الذين يقبلون المصالحة ومن الذين لا يقبلون إلا بعد الحوار معهم والتحدث إليهم. كما سنري في هذا البحث، من أتشيه (أندونيسيا) إلى موزمبيق إلى أيرلندا الشمالية، فإن موقف الجماعة المسلحة قابل للتحول والتغير أثناء المحادثات كما هو الحال بالنسبة لمواقف الحكومات والأطراف الأخرى. فلا توجد جماعة لا تقبل بالمصالحة إلى الأبد.

فالحجج العملية ضد التحاور مع الجماعات المسلحة إذاً ليست حاسمة أكثر من الحجج الأخلاقية. فهل هناك بديل آخر في هذا الصدد؟ يذهب بيرترام سبيكتور Bertram Spector، من مركز تحليل المفاوضات Center for Negotiation Analysis، إلى القول إنه "رغم المخاطر الكامنة في التحاور مع الإرهابيين والجماعات المسلحة، فإن مخاطر الذهاب إلى المفاوضات بدون خطة واضحة من المحتمل أن تكون مهلكة... فإن لم تكن هناك مفاوضات إذاً، ما العمل؟ مجرد التفاعل مع القضية قد يتحول إلى لعبة قاتلة من نوع 'هذه.. بتلك'، ويتصاعد الصراع إلى درجة يصعب فيها إيجاد أي مخرج فيتحتم آنذاك على أي من الطرفين إما الاستسلام أو الانسحاب".

ويوافق بايمن على ذلك إذ يكتب قائلا: "عدم التفاوض له مخاطر. والإرهاب ليس أمرا متجمدا. ورفض الاشتباك في محادثات قد يؤدي إلى تقوية المتطرفين بإظهار أن الوسائل السلمية غير مجدية. فحركة حماس، مثلا، وغيرها من الجماعات الإسلامية، كانت تكسب المزيد من التأييد، تاريخيا، كلما كانت محادثات السلام الفلسطينية الإسرائيلية متعثرة".

ويستنتج زارتمان، بعد أن تقدم بجميع الحجج المضادة للحوار، بقوله "ربما كان التفاوض ضرورة، والبديل الوحيد للهزيمة أو الصراع الباهظ الثمن الذي لا نهاية له. فقد يكون الصمود وسيلة لتفادي الاستسلام، ولكن هذا الصمود يجب أن يرجح كفة ثمن هذه السياسة".

وتستنتج أودري كرونين Audrey Cronin قائلة "الحكومات والجمهور يواجهون، المرة بعد المرة، الحقيقة التي لا يمكن قبولها وهي أن الجماعات التي تشارك في هجمات عنف ضد مدنيين أبرياء قد لا يمكن إيقافهم بأي وسيلة

أخرى... أي باختصار، إذا كان الهدف هو إنهاء هجمات العنف، فإن التاريخ يشهد أن هذه حالات قد لا يكون لها بديل عملي آخر سوى الدخول في محادثات".

هناك حشد كبير من القواعد النظرية حول السبل التي يمكن بها إنهاء الإرهاب بصورة عمليه. فقد أصدرت مؤسسة راند Rand Corporation دراسة مشهورة عام 2008 بعنوان "كيف تنتهي الجماعات الإرهابية" *How Terrorist Groups End* للمؤلفين سيث جونز Seth Jones ومارتين ليبيكي Martin Libicki تبحث في 648 منظمة إرهابية منذ عام 1968 وتخلص إلى أن 43 بالمائة منها انتهت إلى الانتقال إلى عمل سياسي، و40 بالمائة انتهت نتيجة لنشاط قوات الشرطة، و10 بالمائة انتهت بانتصار الإرهابيين، و7 بالمائة فقط انتهت نتيجة عمل عسكري. وقد كان المؤلفان يحاولان، وهما على حق، إثبات أن "الحرب على الإرهاب" التي أعلنها جورج دبليو بوش، على الأغلب لن يحالفها النجاح لأن انهزام الإرهابيين عسكريا نادر جدا. غير أن الأرقام التي توصلوا إليها تعكس انطباعا غير دقيق عن كيفية انتهاء الصراعات المسلحة في الواقع. (فمن بين الـ 648 جماعة التي أوردوها 244 لا تزال موجودة و136 انشطرت إلى جماعات أخرى... وبذا فإن أقل من النصف قد انتهى فعلا).

إن أكبر فخ وقعت فيه هذه الدراسات الأكاديمية وغيرها هو اعتبارها جماعات صغيرة مثل عصابة بادرماينهوف Baader-Meinhof في ألمانيا، وبريغيت روسّي Brigate Rosse في إيطاليا، وأفيش روج Affiche Rouge في فرنسا، وجيش التحرير السيمبيونازي Symbionese Liberation Army في الولايات المتحدة وكأنها على نفس المستوى مع حركات أكبر مثل نمور التاميل Tamil Tigers أو المؤتمر الوطني الأفريقي (أيه أن سي ANC) أو الجيش الجمهوري الأيرلندي (آي آر أيه IRA). فالأربعة الأولى من النوع الذي لا يقوم على قاعدة سياسية جادة، ويمكن القضاء عليها من قبل الشرطة، أو يتبخر تلقائيا بفعل تقدم النشطاء في السن وعدم قدرتهم على الصراع، أو بتغير الناس والأذواق. أما الثلاثة الآخرون كان وراءهم دعم كبير ويمثلون اتجاهات سياسية

لا بد من التعامل معها في مرحلة ما بغض النظر عـــن لجـــوئهم للعنـــف أم لا. فالسبب الذي يدعونا للتحاور من شين فين Sinn Fein في أيرلندا لـــيس هـــو امتلاكهم للسلاح، ولكن لوجود دعم سياسي حقيقي من ورائهم. فحتى في قمة الأحداث كانت شين فين تتمتع بثلث الأصوات الكاثوليكية في أيرلندا الشمالية. فكونها وبادر ماينهوف تستعملان الهجمات الإرهابية لجلب الأنظار لقضـــيتهم، لا يساعدنا هذا في كيفية إنهاء حملاتهم المختلفة. مـــاركوس وولـــف Markus Woolf جاسوس من الدرجة الأولى (سوبريمو) محنك من ألمانيا الشرقية، وعراب إرهاب سابق، يتجاهل هذه الجماعات الصغيرة لكونها تتكون – حسب قوله – من "أطفال مدلالين مصابين بالهيستيريا ينتمون لعائلات من أدنى الطبقة المتوسطة أو الطبقة العليا". وهذا الكتاب الذي بين يديك لا يتناول إلا الجماعات المسلحة التي تتمتع بدعم سياسي له قيمة، والتي، مع اختلافها في ما بينها، تشـــكل فئـــة واحدة متجانسة بعضها مع بعض إلى حد كبير.

وهناك طرح أكثر اعتدالا لأودري كرونان في كتابهـــا: كيـــف ينتـــهي الإرهاب *How Terrorism Ends*.. إذ تقول أن كل الجماعات الإرهابية تنتـــهي إلى واحدة من سبع فئات هي: **التفاوض** أو **النجاح** أو **الفشل** أو **تغيير الاتجـــاه** (غالبا نحو الجريمة) أو **الاستئصال** أو **القمع**. ولكن إذا ما نظرنـــا في التفاصـــيل لوجدنا أن الطريق الوحيدة التي يبدو في النهاية أنها عملية وناجحة هي التفاوض بالنسبة للحركات الإرهابية ذات الوزن الحقيقي. فأول فئة هي **النجاح**. صحيح أن عددا من الجماعات المسلحة نجح في إقصاء المحتلين إبان فترة الاستعمار، وجاء انسحاب المستعمر عادة من خلال التفاوض. وأثناء حقبة الحرب الباردة نجحت جماعات مسلحة مثل الفيات كـــونج Viet Cong في فيتنـــام وساندينســـتاس Sandinistas في أمريكا اللاتينية في إســـقاط حكومـــات في فيتنـــام Vietnam ونيكاراغوا Nicaragua (وإن جاء ذلك عادة بـــدعم خـــارجي). إلا أن هـــذه الانتصارات الكاسحة أصبحت في العصر الحديث نادرة أو لا وجود لها.

أما الفئة الثانية – وهي **الفشل** – فلا تنطبق على جماعات كبيرة مثل جبهة فارابندو مارتي للتحرير الـــوطني Farabundo Marti National Liberation Front

في السلفادور (FMLN)، أو الجبهة الإسلامية لتحريـــر مـــورو Moro Islamic Liberation Front في الفليبين (MILF) أو الجيش الجمهوري الأيرلندي (آي آر أيه IRA) في أيرلندا الشمالية. فهذه لا تنفجر ذاتيا أو تقضـــي عليهـــا قـــوات الشرطة. فبعض الجماعات التي تشير إليها كرونون أنها فشلت، تمكنـــت مـــن التفاوض من أجل السلام كما فعلت حركة أمـــ 19 M-19 في كولومبيـــا، أو استمرت في نشاطها مثل قوات أليستر التطوعية Ulster Volunteer Force (يـــو في آف UVF) ورابطة دفاع أليستر Ulster Defence Association (يو دي أيـــه UDA)، وكلتاهما في أيرلندا، وغيرها التي تعتبر جماعات صغيرة ليس لهـــا دعـــم سياسي يذكر.

أما الفئة التالية – وهي **تغيير الاتجاه** نحو الجريمة – فهذا تمويـــه لا أكثـــر. معظم الجماعات تجمع بين الإرهاب والجريمة.. لتمويل حملاتها علـــى الأقـــل. فجماعة إرهابية مثل حركة القوات المسلحة الثورية الكولومبية (أف آيه آر سي) Revolutionary Armed Forces of Colombia FARC تستطيع التركيـــز علـــى تجارة المخدرات التي تمول نشاطها، ولكن ذلك لا يعني أنها على استعداد للتخلي عن حملاتها الأيديولوجية أو طموحاتها السياسية.

أما الفئة ما قبل الأخيرة التي تعرضها كرونون، وهي **الاستئصال**، وذلـــك بقتل أو أسر زعيم الجماعة، فهي مثيرة جدا. ولكن الأمثلة التي تسوقها كرونون على ذلك تثير إشكاليات كثيرة (بغض النظر عن الجماعات الدينيـــة مثـــل أوم شينريكو Aum Shinrikyo في اليابان التي تشكل فئة مختلفة). فهي تذهب إلى أن اعتقال عبد الله أوجلان في تركيا كان نهاية حزب العمال الكردستاني (بـــي كيه كيـــه Partiya Karkerên Kurdistan (PKK أو Kudistan Worker's Party في تركيا. ففي الوقت الذي كان اختطاف زعـــيم الحركـــة ذي الشخصـــية الكارزمية في كينيا قد أدى عام 1999 إلى انخفاض مؤقت في العنف فإنه بالتأكيد لم يؤد إلى انتهاء الصراع المسلح. فعصابات الـــ (بـــي كيه كيـــه) في الواقـــع صعدت من وتيرة الحملات، وها هو الصراع قد بدأ أخيرا فقط يؤول إلى نهايته من خلال مفاوضات تتمحور حول أوجلان في زنزانة سجنه بجزيـــرة إمـــرالي

Imrali في بحر البوسفور. بالمنطق نفسه لم تنته حركة حماس الفلسطينية باغتيال مؤسسها الشيخ ياسين، بل على العكس من ذلك استمرت حماس أكثر عنفا وأكثر شعبية، وما زادها محاولة تسميم أحد قادتها وهو خالد مشعل، في عمّان عام 1997، إلا قوة ونشاطا.

الجماعة الوحيدة التي تبدو الاستثناء في هذا الصدد هي حركة سينديرو لومينوسو Sendero Luminoso أو Shining Path أي (شاينين باث) أو "الصراط المضيء" في بيرو بأمريكا الجنوبية. تأسست هذه الحركة الماوية على يد محاضر الفلسفة ذو الشخصية الكارزمية آبيمال غوزمان Abimael Guzman – أو الرفيق غونزالو Comrade Gonzalo كما كان يسمي نفسه – في أواخر الستينيات. وقد أسفرت حملاتها العنيفة عن مقتل ما يزيد عن 69 ألف شخص. بدأت تلك العمليات بهجوم على مركز للاقتراع في انتخابات 1980، بعد أن كانت بيرو قد خرجت من عشر سنوات من الدكتاتورية العسكرية، وتطورت إلى حملة حرب عصابات عمت البلاد بأكملها، وعزلت العاصمة ليما Lima بغطاء رمزي نتيجة تفجير أبراج الاتصالات في المدينة. ومع حلول عام 1991 كانت الجماعة تسيطر على أغلب مناطق الريف في البلاد.

ردت حكومة ألبرتو فوجيموري Alberto Fujimori على ذلك بتعليق الحقوق الدستورية وتحريك قوات الجيش وقوات الأمن في حملة شرسة من القمع، وعندما القي القبض على غوزمان Guzman عام 1992، ومعه زمرة من أغلبية القادة العليا الآخرين في شقة بأعلى ستوديو للرقص في ليما. وما إن ظهر في قفص على التلفزيون متراجعا عن موقفه وداعيا أتباعه لرمي أسلحتهم، حتى انحسر العنف بنسبة 50 بالمائة في السنة التالية دون أن يعود إطلاقا إلى ذلك المستوى فيما بعد.

هناك عدة أسباب للاعتقاد أن هذا النموذج للاستئصال غير قابل للتطبيق بصورة عامة. **أولا**: فإن (شاينينغ باث) كانت قائمة على طريقة دينية خارقة للعادة تتمحور حول شخصية غوزمان، بينما من الصعب وجود منظمات إرهابية قائمة بصورة كاملة على شخص واحد فقط. فكلما

اعتقلت مجموعة قيادية من (إيتا)، في إسبانيا، مثلا، حلت محلها مجموعة أخرى ببساطة. كما أنه من المشكوك فيه مدى الدعم السياسي الذي تتمتع به جماعة (الشايننغ باث) في البلاد، خاصة وأن نشاطها كان قائما على الرعب والإكراه والابتزاز. **ثانيا:** أن الوسائل التي كانت تتبع في قمع (الشايننغ باث) كان مبالغا فيها إلى حد بعيد، كتخريب القرى والمذابح المتكررة التي يقوم بها الجيش. فثلث الذين قُتلوا ماتوا على أيدى العسكريين، وأكثر من ذلك على أيدي الميليشيات التي شكلوها. وهذه الوسائل لا يمكن أن تتوفر لحكومة في دولة ديمقراطية في الغرب. وها هو الرئيس فوجيموري، رئيس بيرو، يتضور في سجنه نتيجة لاعتماده على هذه الوسائل. **وأخيرا:** فإن (الشايننغ باث) لم تنته بعد، فهناك حرب عصابات لا تزال مستعرة على مستوى منخفض في مقاطعتين من بيرو، والغريب أن الرفيق غونزالو يسعى إلى الحوار مع الحكومة من زنزانة سجنه.

وهكذا، فمعظم الأعمال الأكاديمية الصادرة حديثا تشير إلى أن محاولات "الاستئصال" للحركات المسلحة لا تفلح، أو أنها في الأغلب تحدث انتكاسة مؤقته في نشاط الجماعة المعنية لا غير.

ورغم أنه من شبه المستحيل دحر الجماعات الإرهابية بالوسائل العسكرية البحت فهناك البعض ممن لا يزالون يحتفون بالفئة الأخيرة التي تتبناها كرونين وهي القمع المطلق غير المقيّد. الدعاية المثلى لهذا التصنيف هي حالة سريلانكا، وحكومة غوتابايا راجاباكسا Gotabaya Rajapaksa النشطة بالفعل في الدعاية لنجاحها ضد نمور تحرير تاميل إيلام LTTE-Liberation Tigers of Tamil Eelam عام 2009 كدليل على وجود حل عسكري للمشكلة.

كانت أمام حكومة سريلانكا فرصة لإنهاء نمور التاميل قبل ذلك في عام 1987. فالجيش طرد النمور خارج قاعدتهم في فاني Vanni إلى شبه جزيرة جافنا Jaffna، وبدت الهزيمة وكأنها على وشك الوقوع. ولكن قصف الحكومة لجافنا بالقنابل وقتل المدنيين هو الذي أثار موجة السخط في تاميل نادو Tamil Nadu عبر المضيق في الهند. وتجاوبت الحكومة الهندية بتنظيم إنزال جوي دعما لجافنا

وكوسيلة للضغط السياسي، مما أدى إلى الاتفاقية الهندية السريلانكية واحتلال جزء من سريلانكا من قِبل قوات حفظ السلام الهندية.

سار غوتابايا راجاباكسا Gotabaya Rajapaksa يقود كتيبة لحصار جافنا وجرب بنفسه وبصورة مباشرة فضيحة التدخل الهندي الذي سرق من جيش سريلانكا انتصاره الذي صار شبه محقق. أما راجاباكسا فقد كاد أن يقتل في إحدى المعارك مع النمور، وتقاعد برتبة مقدم عام 1992 وانتقل إلى كاليفورنيا بالولايات المتحدة حيث واصل التدريب كمهندس كومبيوتر. وعندما تولى أخوه ماهيندا Mahinda الرئاسة في 2005 استدعي غوتابايا لاستلام وزارة الدفاع. لقد أعطى راجاباكسا للجيش روحا جديدة وعين زميله في الكلية العسكرية ساراث فونسيكا Sarath Fonseka قائدا للجيش. وانطلق الاثنان.. فجندا 75 ألف جندي جديد ووضعا برامج واسعة للتدريب وأعادوا تجهيز القوات المسلحة، بما في ذلك اقتناء طائرات بدون طيار. وشكلا فرق عمليات مشاة خاصة Special Infantry Operations. وقامت الهند والولايات المتُحدة بتوفير الدعم الاستخباراتي مما ساعد في إغراق ثمان سفن من نوع نمر البحر Sea Tiger كانت إحداها بالقرب من أستراليا على بعد 1700 ميل، وبذلك قطعوا خطوط الإمداد التي كانت تتمتع بها نمور التاميل. كان راجاباكسا يعتقد جازما أن الجيش تعرض لخيانات متكررة في الميدان من قبل قيادات سياسية ضعيفة حتى أصبح مكتوف الأيدي. وقد اخترع "نموذج راجاباكسا" الذي يتطلب إرادة سياسية لا تتذبذب، وعدم الانتباه للرأي العالمي، وعدم التفاوض، والسيطرة على تدفق المعلومات، وغياب التدخل السياسي، وحرية العمل الكاملة لقوات الأمن، واهتمام خاص بالقيادات الشابّة. والأهم من ذلك كله أنه قبِل بسقوط ضحايا مدنيين نتيجة لعمليات الجيش وأوضح للجميع أنه شخصيا يتحمل مسؤولية ذلك مما أعطي الجيش دفعة جديدة من الثقة.

قدر معظم المحللين أن الحرب خاسرة وقال الدبلوماسيون النرويج أن "كل المراقبين يظنون أن هذا صراع لا يمكن الانتصار فيه بالوسائل العسكرية، وأن الأكثرية ترى أن الحكومة غير قادرة على هزم (أل تي تي إي) عسكريا". وكانوا

متوقعين أن الأمر سيصل إلى طريق مسدود، إما بلجوء النمور إلى حرب العصابات أو بأن تسحب السلطات الحكومية الخط الأمامي للجيش كما فعلت من قبل. ولكن مع عام 2008 أصبح الزخم لصالح الحكومة، وانتظر المراقبون ضربة مضادة من فيلوبيلي براهاكاران Velupillai Prabhakaran قائد نمور التاميل ولكنها لم تأت. وبينما تراجعت نمور التاميل إلى سبخة على شط البحر، واستعملت مئات الآلاف من المدنيين التاميل كدروع بشرية. وأعلنت الحكومة عن "منطقة خالية من النيران" وطلبت من المدنيين الانتقال إليها حفظا على سلامتهم. ولكن النمور لم تسمح لهم بذلك فأطلق الجيش النيران، وأزهقت آلاف الأرواح وظلت نمور التاميل تنتظر معجزة في شكل تدخل دولي. فرفض براهاكاران كل العروض التي كان من شأنها إنقاذ أرواح أعلى القيادات والمدنيين. عزلت الحكومة المنطقة وعمدت إلى إنهاء المهمة بطريقة بشعة في بحيرة نانديكادال Nandikadal Lagoon. لم تصل تقارير المؤسسات الإعلامية الشهيرة مثل (سي أن أن CNN) أو (بي بي سي BBC) من خطوط الجبهة لأن تلك الوسائل الإعلامية كانت مشغولة في سوريا وليبيا، وكان الدعم السياسي الصيني في مجلس الأمن للأمم المتحدة يعني أن الحكومة بمقدورها أن تفلت من أي نقد فعال لأعمالها هناك.

وفي رأي المفاوض النرويجي في سريلانكا أريك سولهايم Erik Solheim انتصرت الحكومة انتصارا باهرا لأنها استعملت وسائل لا يمكن اعتبارها شرعية في أماكن أخرى من العالم، ونظرا لأن براهاكاران تحول من "عبقرية عسكرية إلى أداة عسكرية". فلو رجع براهاكاران إلى حرب العصابات لكان بإمكانه الاستمرار إلى ما لا نهاية. ولكن حركة نمور التاميل تطورت من قوات عصابات تقليدية إلى قوة محاربة مهنية قادرة على السيطرة على المواقع والدفاع عنها، وقادرة على التصدي لقوة الجيش الهندي الضخمة والحاق الهزائم بها.

إن براهاكاران يعاني من مرض الغرور. ففي عام 1990 حُذر من "الثقة الزائدة"، ولكنه في عام 2006 أخذ يصدق دعايته التي يبثها بأن التاميل أصبحوا دولة بحكم الأمر الواقع ومن المستحيل هزمها في ميادين المعركة. ومنذ وفاة رفيقه

السياسي أنتون بالاسنجهام Anton Balasingham فقَد الاتصال ببقية العالم. وقد نصحه زعماء التاميل المنفيون بالصمود، وأن الضغط الدولي سيوقف جيش سريلانكا كما أوقفه عام 1980.. غير أنهم كانوا على خطأ.

لذلك فأسلوب براهاكاران لا يقدم لنا بديلا جيدا يمكن تطبيقه في أماكن أخرى. وحسب ما جاء على لسان سولهايم فلا يستطيع المرء أبدا أن يعتمد على جيش عصابات يخوض حربا تقليدية، كما لا يمكن الاعتماد على المجتمع الدولي ليغض النظر عن إجراءات صارمة. ولا يمكن أبدا الاعتماد على قائد غائب عن العالم و لم يغادر منطقته منذ ثلاثين عاما من القتال المستبسل مع كل رفاقه ورجاله في حرب لا أمل فيها.

والأهم من ذلك كله أن الصراع في سريلانكا لم ينته بعد حتى وإن توقف الاقتتال (مؤقتا على الأقل). فالمظالم التي أججت حملات النمور لم تختف في بحيرة نانديكادال. وإذا كانت حكومة راجاباكسا قد عرضت على النمور مخرجا سياسيا على هيئة حكم ذاتي أو فدرالية في أعقاب هزيمة النمور ربما كان بإمكانهم حل الخلاف بصورة نهائية. ولكنها لم تفعل والخلاف مع التاميل يظل قائما دون تسوية، ومن المحتمل أن التاميل لن يقبلوا بوضعهم كمواطنين من الدرجة الثانية إلى ما لا نهاية. فالسخط يستعر من جديد في مناطق تاميل المجاورة، ورغم عدم وجود ما يدل على تجدد إرهاب التاميل في الوقت الحاضر، والحمد لله، من الصعب أن يجزم المرء بأنه لن يعود إذا ما لم تسوَ المشكلة السياسية. إن فرص نجاح حل راجاباكسا لن يكتب له الاستمرار إلا إذا قابلته تنازلات سياسية. أي بمعنى آخر، الجمع بين الضغط الأمني الشديد مع عرض للتاميل سياسي يدفع بهم إلى الأمام.

رغم أن الأساليب التي يستعملها راجاباكسا غير متوفرة في ظل الديمقراطيات المعروفة، فإنه من الممكن بطبيعة الحال أن يهزم حكم الفرد الواحد مجموعة مسلحة بالعنف المفرط وقمع كل الحقوق ولو بصورة مؤقتة على الأقل. فلم يصعب ذلك على ستالين في الاتحاد السوفياتي أو سوهارتو في أندونيسيا. الجماعات المسلحة يمكن سحقها سحقا كاملا كما فعلت الدكتاتوريات

العسكرية بمجموعة توباماروس Tupamaros في أرغواي وجماعة مونتونــاروس Montoneros في الأرجنتين بالاعتقالات الجماعية والإخفاء القسـري والقتـل. ومن الممكن تحقيق ذلك في المعارك ضد المتطـرفين الإسـلاميين في تشيشـنيا Chechnya والجزائر اذا ما اتُبعت معهم السياسية العسكرية: لا قيود ولا حدود، ولم يؤبه لانتهاكات حقوق الإنسان أو سيادة القـانون، وعزلـت الصـحافة ووسائل الإعلام عزلا كاملا. ولكن كل ما يمكن أن يحققـه ذلـك - كمـا اكتشفت روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي - هو أن المشاكل الحقيقيـة الـتي جمدت إلى ما تحت الصفر، تظهر بعد أن تهبط درجة القمع. ففي عام 1982 نزل حافظ الأسد بيد من حديد على انتفاضة للسنّة في سوريا فقتل ما بين 10 آلاف إلى 40 ألفا، واعتبر ذلك في حينه نجاحا باهرا، ولكن الثورة ظهرت من جديـد بعد حوالى ثلاثين سنة. فلا بد من حل المشاكل من أصولها وإلا رجعت الحيـاة من جديد.

كل هذا، ولا يمكن القول أن من السهل التعامل مع الإرهاب في غيـاب سياسات أمنية صارمة واستخبارات فعالة. فبدون نجاح الشرطة ضـد (إيتـا) واختراق أجهزت الاستخبارات لمنظمة (آي آر أيه)، وبدون الحملات العسكرية ضد (أجي أيه أم) فإن الصراعات في مواطن الباسك وأيرلندا الشمالية والأتشـيه في أندونيسيا لم تنته إطلاقا. ولكن هناك حاجة إلى شيء آخر غير الإجـراءات الأمنية الشديدة، وهذا ما دعى إلى مراجعة دليل (سي أو آي أن COIN) تحـت إشراف الجنرال بيتروس فأضيفت الحاجة إلى كسب عقـول وقلـوب ودعـم السكان المحليين الذين تعتمد عليهم الجماعات المسلحة كما أكتشف البريطانيون في ملاوي في الخمسينيات.

ولكن دليل (سي أو آي أن COIN) مع هذا يحتاج إلى ذراع ثالث ألا وهو الحاجة إلى الحوار مع الإرهابيين والجماعات المسلحة. فإذا سلّمنا بأن الجماعات المسلحة لن تستسلم أبدا، فاللجوء إلى العمل العسكري وحده لن يؤدي إلا إلى قتال حتى الموت. وقد عبر عن ذلك الرئيس الأمريكي روبرت كنيدي أحسـن تعبير إذ قال: "إن عدم الرغبة في مقاومة القوة لا تصحبها رغبة في الحوار يمكـن

أن تولد العداء، بينما رغبة في الحوار لا تصحبها رغبة في مقاومة القوة قد تؤدي إلى كارثة". فعندما يُمنح الإرهابيون مخرجا سياسيا يستطيع الضغط العسكري عندئذ أن يولد النتيجة المرجوة، خاصة إذا كان مصحوبا بجهد قوي لمعالجة القضايا الكامنة في جذور الصراع. فالمعادلة الناجحة في التعامل مع الجماعات المسلحة هي الجمع بين الضغط العسكري مع عرض مخرج سياسي من خلال الحوار بما يمكن أن يؤدي، مع مرور الوقت، إلى نهاية الصراع المسلح. ويقول زارتمان إن التعامل مع الإرهاب يحتاج إلى أدوات ثلاث هي: "**السيطرة** على وسائل العنف التي يستعملها، **وتحويل** أهدافه من التدمير إلى المشاركة، **والتخفيف** من المظالم التي يتوقف وجوده عليها".

فإذا خلصنا من البحث إلى أن الحجج الأخلاقية ضد الحوار مع المسلحين أو الإرهابيين لا ترجَح على الضرورات الأدبية لحقن الدماء.. وإذا افترضنا أن الحجج النفعية ضد الحوار إنما تعني أن يكون المرء شديد الحذر عند مفاتحة الجماعات المسلحة، بدلا من حجج ضد الحديث معهم أصلا، يكون السؤال عندئذ هو: هل هناك بديل للحوار أصلا؟

وبالنظر إلى الأدلة حول كيفية إنهاء الإرهاب، فلربما وجدنا أننا نستطيع الانتصار على مجموعات صغيرة مثل بادرماينهوف أو الألوية الحمراء بقوة الشرطة أو القدرة على الصمود.. إلا أن البدائل للحوار لا تعطينا إجابات راسخة بالنسبة لجماعات مسلحة جادة تتمتع بقدر كبير من الدعم السياسي. ففي الديمقراطيات لا يمكن أن تقضي على كل الإرهابيين أو المسلحين ولذا يكون لزاما علينا أن نتحاور معهم في مرحلة من المراحل.

هذا لا يعني أنه من المعقول أن نرمي بأنفسنا في مفاوضات كاملة وبصورة مباشرة مع كل جماعة تشهر في وجهنا السلاح. فلربما كان من الحكمة أن نتعلم من التجارب السابقة في كيفية الاتصال بهذه الجماعات، وكيف نبني عامل الثقة معها وكيف نزاوج بين استعمال القوة والحوار، كيف نستفيد من أطراف ثالثة تدخل في الحوار، وكيف ومتى ننتقل من الاتصال إلى المفاوضات، وكيف نصل بتلك المفاوضات إلى نتائج ناجحة، وكيف نتأكد أن الاتفاق دخل مرحلة

التنفيذ... حتى لا نستمر في ارتكاب الأخطاء نفسها.

فالمحصلة من دراسة هذه الصراعات التي تعرضنا إليها في هذا الكتاب أن قرار الحوار مع المسلحين والإرهابيين دائما هو الصواب، حتى وإن لم تكن اللحظة هي الأنسب للدخول في مفاوضات. وإذا كانت المجموعة المسلحة تتمتع بدعم سياسي كبير فيستبعد أن يكون من المحتمل أن نصل إلى إنهاء الصراع دون الدخول في مفاوضات. وتقول إلايزا مانينهام - بوللر في محاضرتها التي ألقتها ضمن سلسلة محاضرات ريث عن أحداث 11 سبتمبر 2001 أنه "رغم الحديث عن العمل العسكري كان هناك أمر مهم اتفقنا عليه جميعا ألا وهو أن الإرهاب لا بد من حله من خلال السياسة والاقتصاد وليس من خلال السلاح أو الاستخبارات مهما لعبت هذه من دور هام في ذلك".

فالسؤال الذي يطرحه هذا الكتاب، ويستحق أن نتمعن فيه، ليس هو: هل يجب أن نتحاور مع الجماعات المسلحة أم لا؟ وإنما هو متى نتحاور معها، وبصفة خاصة، كيف نتحاور.

الفصل الثاني

الاتصال بالعدو

ألقى الرئيس الأمريكي إبراهام لينكولن إبان الحرب الأهلية الأمريكية خطابا أشار فيه بلمسات ودية حيال المتمردين في جنوب الولايات المتحدة. وتعرضت له سيدة مسنة، وكانت الحادية حتى النخاع، بالتقريع لأنه ذكر أعداءه بلطف بينما كان عليه التفكير في كيف يدمرهم، فأجابها بقول: "لماذا يا سيدتي؟... لماذا أدمر أعدائي في حين أستطيع أن أحولهم إلى أصدقاء".

سكوت أتران *Scott Atran*: حوار مع العدو

كما هو واضح من التعريف فإن الاتصال بجماعة مسلحة سرية أمر صعب وخطير. فالجمعات المسلحة تعمل في عالم خفي عن قصد، قائم على تركيبة خلوية، ولا مركز لهم تستطيع أن تزورهم فيه وتعرفهم بنفسك. فالعثور عليهم وإقناعهم بالالتقاء بك، وترتيب ذلك بطريقة آمنة، يتطلب مهارة وشجاعة... وحسن الحظ.

كان مانويل مارولاندا Manuel Marulanda، زعيم القوات المسلحة الثورية الكولومبية (أف أيه آر سي) Revolutionary Armed Forces of Colombia، أكثر الجماعات المسلحة في العالم وحشية وعنادا، وكان في سنة 2000 شخصية شبه أسطورية، واسمه الحقيقي بدرو أنتونيو مارين Pedro Antonio Marin ولكنه انتحل الاسم المستعار 'مارولاندا' Marlulanda تفاخرا بزعيم لنقابات العمال الذي قتل، ولكنه معروف أيضا لأنصاره بكنية 'تايروفيخو' Tirofijo أو 'شورشوت' Sureshot أي 'رمية صائبة'. التحق مارولاندا بالعصابات المقاتلة في الثامنة عشرة من عمره كجزء من قوة الفلاحين للدفاع عن النفس التي تكونت في كولومبيا في الأربعينيات والخمسينيات، وأسس حركة (أف أيه آر سي) في

عام 1963 التي عاشت في الغابات تحارب الجيش الكولومبـــي منذ ذلك التاريخ.

ظل جايمس لوموين Jamed LeMoyne ويان إيغلاند Jan Egeland، مبعوثا الأمين العام للأمم المتحدة، ينتظران مقابلة مارولاندا لعدة شهور. كان لومـــوين شابا وسيما وأحد طلبة مدرسة رودس Rhodes وصحفي ســـابق في صـــحيفة نيويورك تايمز، وأصبح خبيرا في حركات العصابات المسلحة في أمريكا اللاتينية. وكان إيغلاند سياسيا ودبلوماسيا من النرويج اشـــتغل في شـــبابه متطوعـــا في الكنيسة الكولومبية، وقد لعب دورا هاما في محادثات أوسلو بين الفلســـطينيين والإسرائيليين.

طلب الاثنان مساعدة رئيس كولومبيا أندريس باسترانا الذي كان علـــى وشك عقد محادثات سلام مع المجموعة ولكنه أجاب بأنه ليس بإمكانه فـــرض الأمم المتحدة على (أف أيه آر سي). فلا بد أن يطلب مارولانـــدا شخصـــيا مقابلتهما. وفي النهاية رتب لوموين وإيغلاند الاجتماع مباشرة بمساعدة راؤول ريس Raul Reyes نائب زعيم (أف أيه آر سي) ومدير العمليـــات السياســـية الذي كان لوموين على معرفة به.

وكان مارولاندا كثير الشكوك. وحيثما ذهب كانت تحيطه من ســـت إلى عشر حلقات أمنية تمتد إلى مسافة ستين ميلا من قاعدته التي يتمركز فيها. طـــار مندوبا الأمم المتحدة إلى مدينة صغيرة تسمى سان فيســـنت ديـــلا كـــاخوان San Vicente del Caguan في أقاصي غابة الأمازون في منطقة برية لا طرق فيها، تمتد جنوبا نحو البرازيل. ومن هناك انطلقوا في سيارة يقودها موظف محلي تـــابع للأمم المتحدة مسافة عشرة أميال خارج المدينة. وعند نقطة متفق عليها قابلتهم سيارة نوع أجيب تغتص بعناصر من (أف أيه آر سي) باللباس العسكري كانوا في انتظارهم على حافة الطريق. فأخذوهما في خلف السيارة الجيب وانطلقوا بهما جنوبا لمدة أربع ساعات عبر طرق ترابية كادت تحطم ظهورهما إلى قرية صغيرة تسمى لا سومبرا La Sombra أي الظل.

وهناك استقبلهما نحو 200 عنصر آخرين باللباس العسكري، منهم آمرون ونواب آمرين، وأخذوهما إلى ساحة واسعة من أكواخ القش حيث مارولاندا في

انتظارهما. لم يصافحهما، ولكنه أومأ إليهما من مقعده، وهو عبارة عن منضـدة منصبية طويلة من الخشب لها مقاعد خشبية طويلة من حولها تحتـل وسـط الساحة. جلس مارولاندا على احد الجانبين وأشار للرجلين الغربيين بـالجلوس عند الجانب الآخر على بعد عشرين قدما من حيث هو جالس. كانت الطاولـة بينهما مصطفة بأربعين رجلا واثنين من جنود (أف أيه آر سي) مسلحين واقفان وفوهاتا الكلاشنكوف (أيه كيه – 47) مصوبتان نحـو صُـدغ كـل مـن الدبلوماسيين طوال الساعتين اللتين قضاهما في ذلك الاجتماع. ولكـي يعـبر لوموين بإيماءة معينة للتأكيد على فكرة كان يعرضها اضـطر إلى إزاحـة ذراع البندقية بعيدا بيديه قائلا: "عفوا! اسمح لي.. ممكن أشرح هذه النقطة". ووصف لوموين الموقف وكأنه "مشهد في فيلم". فالرجال المسلحون كـانوا هنـاك لأن مارولاندا لم يسبق له استقبال شخصيات دولية من قبل، وكان يأخذ احتياطات أمنية. فكولومبيا دولة عضو في الأمم المتحدة، والولايات المتحـدة الأمريكيـة كانت مسيطرة على مجلس الأمن في الأمم المتحدة، ولذا يكون من المعقول عدم الثقة في هذين الرجلين.

لاحظ لوموين أن كلا من القائدين التابعين لـ (أف أيه آر سي) له قواتـه الأمنية التابعة له. وعندما حضر اجتماعا للقادة الميدانيين في بيت في مزرعـة في أقصى الجبل، لاحظ أن راؤول رييس، الذي قتل على أيدي الجيش الكولومبـي فيما بعد، أرسل أفراد حرسه الخاص عند الوصول إلى زاوية في الساحة ووعدهم أن الطعام سيؤتى به إليهم. ظل الحرس في أماكنهم طوال فترة الاجتماع دون أن يختلطوا بحرس القادة الآخرين. وشرح له رييس ذلك فيما بعد بأن المنظمة لهـا قواعد صارمة تمنع أفراد الحرس من الاختلاط بعضهم بـبعض للتقليـل مـن احتمالات التآمر داخل صفوف الحرس.

شرع مارولاندا في التداول مع مبعوثي الأمم المتحدة رسميا بالترحيب بهما، وكانت المرة الأولى التي تستقبل فيها (أف أيه آر سي) رسميا ممثلين دبلوماسـيين دوليين. أخرجت قوارير الفودكا ووزعت الكؤوس وتناول الجميع جرعـات في وهج الشمس المحرقة. وأخبر مارولاندا لوموين فيما بعد بكل افتخار كيـف أن

جاكوبو أريناس Jacobo Arenas، الأيديولوجي اليساري الذي ساعد مارولاندا في إنشاء الحركة، كان يعتقد أن لوموين شيوعي.

لقد ولدت حركة (أف أيه آر سي) من رَحِم الحرب الطويلة في كولوميا بين الليبراليين والمحافظين، ويسمون 'لا فيولينشيا La Violencia'، في الأربعينيات والخمسينيات. وكان مارولاندا شابا ليبراليا من الفلاحين المقاتلين. وعندما هدأت الحرب الأهلية في أوائل الستينيات احتفظ بعض الفلاحين بأسلحتهم وحافظوا على قواتهم دفاعا عن انفسهم. وشرع الحزب الشيوعي في تجنيدهم كجيش ثوري من الفلاحين. تكونت (أف أيه آر سي) من احدى هذه التشكيلات، وكان المسؤول على نشر أيدولوجيتها المفوض السياسي الشيوعي صاحب الشخصية الكارزمية، آرناس Arenas. ويقدر عدد الذين قتلوا في أحداث العنف بنحو 250 ألفا خلال الخمسين سنة التالية.

أدرك لوموين أن مارولندا دعا عددا كبيرا من القادة لحضور الاجتماع حتى يبرهن لقيادة المنظمة أن المجتمع الدولي يتعامل مع (أف أيه آر سي) بقدر كبير من الجدية، وها هي الأمم المتحدة بجلالها وعظمتها قادمة لمقابلتهم. وكان بذلك يريد أن يبعث برسالة مفادها أن لا مجال للاجتماعات السرية أو لصفقات خفية غير مشروعة.

وقال مارولاندا للوموين: "أنت أول غرينغو gringo (وهي عبارة للازدراء بالإسبانية تعني الأمريكي أو الأنجلوساكسوني) أقابله"، فأجابه لوموين، في محاولة لكسر البرود بينهما وتلطيف الأجواء بقوله: "على الأقل الأول الذي نجا".. وكان في ذهنه ستة أمريكيين على الأقل وقعوا في قبضة (أف أيه آر سي) وانقطعت أخبارهم إلى الأبد. هبط على المكان سكون كامل قبل أن ينظر مارولاندا إلى ساعته ويقول ضاحكا: "ولكن النهار قصير". وعندها غرق القادة والمسؤولون وغيرهم من الجنود في الضحك كذلك.

كانت (أف أيه آر سي) في ذلك الوقت على وشك الشروع في الجولة الرابعة لعملية السلام مع الحكومة الكولومبية. فالجماعات المسلحة الكولومبية الأخرى توصلت إلى اتفاق سلام ولكن (أف أيه آر سي) هي أكبر الحركات

وأكثرها استعصاء. وكانت الحكومة ترغب في إشراك المجتمع الدولي في العملية، وكانت الأمم المتحدة على استعداد للمساعدة، إلا أن المقاتلين لم يكونوا مطمئنين للأمم المتحدة وفضلوا أن يتفاوضوا مع الحكومة بصورة مباشرة. وأكد كل من لوميون وآيجلاندا لمارولاندا أن الأمر متروك له إذا كان يرغب في مشاركة الأمم المتحدة. وطلب منهما مارولاندا أن يخبروا الأمين العام بأن (أف أيه آر سي) راغبة في أن تُسهِم في السلام. ويقول لوميون أن جوابه على جميع أسئلتهم كان "نعم، نعم، نعم..." بينما كانت عيناه تقولان "لا، لا، لا..". وفي النهاية لم تسمح الحركة أو الحكومة الكولومبية للأمم المتحدة بالمشاركة الكاملة حتى بدأت عملية كاخوان للسلام في الانهيار، بعد سنتين تقريبا، وفات وقت المساعدة.

التقي لوميون ومارولاندا مع مجموعة (أف أيه آر سي) عدة مرات خلال السنة التالية قبل أن يسمح له بالالتقاء على انفراد أو أن يصافحه. وكان القائد العسكري لمنظمة (أف أيه آر سي) مونو خوخوي Mono Jojoy على نفس الدرجة من الحذر. وعندما سأله لوميون عن السبب الذي يجعله هو ومارولاندا مترددين في استقباله بالطريقة التقليدية المعروفة، كان جواب مونو خوخوي هو: "السبب هو احتمال أن يكون في يدك سم". فرد عليه لوميون قائلا: "إنك تعاني من حالة شك لا تصدق". فرد مونو خوخوي قائلا: "نعم، ولكنني حي أرزق". ولمونو خوخوي فتاة من المقاتلين وظيفتها أن تجرب الأكل قبل أن يقدم له. وقد علق لوميون على ذلك قائلا أن هذا يذكره بالمسلسل الدرامي التلفزيوني عن أسرة البورجياس Borgias، التي عاشت في القرن السادس عشر، وكان لهم خدم يجربون الطعام قبل أن يقدم لهم. فسأله مونو خوخوي دون أن تتحرك له شعرة واحدة: "وهل يا ترى ما زالوا أحياء؟".

بمواجهة هذه المخاطر فقط يستطيع المرء أن يشرع في تأسيس بناء الثقة مع الجماعات المسلحة. فمن الخطر عليهم أن يظهروا على المكشوف، وعليك أن تذهب إليهم في عقر دارهم وتضع حياتك في أيديهم من أجل أن يتحقق اللقاء معهم. مبادرة الثقة هذه تجعلهم يشعرون بالثقة فيك، وهذا شيء مبدئي وفطري

في النفس الإنسانية. يشير لورانس فريدمان Lawrance Freedman إلى دراسة لفرانس دو فال Frans de Waal، خبير في السلوك الحيواني، تدل على أن الشيمبانزي يتصرف بنفس السلوك. فالشيمبانزي، لكي يعبر عن الثقة في شيمبانزي آخر، يظهر القابلية للضعف والحساسية، ويستطيع إدراك الحاجة إلى التوفيق والتصالح بين الأفراد بصورة لا تتصورها حيوانات أخرى.

فحسب القواعد المتبعة في الأمم المتحدة كان على لومين وإيجلاند أن يرتديا ملابس ضد الرصاص وأن يسافرا في سيارات مصفحة وبصحبة حرس خاص تابع للأمم المتحدة، ولكن، كما يقول لومين، الطريقة الوحيدة لضمان سلامتهما كانت هي أن يضعا حياتهما في أيدي الـ (أف أيه آر سي). فقبل الاجتماع قال لومين لرييس أنهما على ثقة تامة في (أف أيه آر سي)، وأجابه رييس "ستكونا أكثر الناس أمنا في كولومبيا".

بالطبع لا يتيسر لمفاوضي الحكومة الذهاب إلى أراضي الإرهابيين. فغالبا ما يبدأ الحديث بين قادة الجماعات المتمردة وممثلي الحكومة في السجون، لأن ذلك هو المكان الوحيد الآمن الذي تعلم الحكومات جيدا أنها ستلقاهم فيه. ولكن إذا كان السجن هو السبيل الأسهل للقاء مع قادة الجماعات المسلحة، فهو ليس بالضرورة المكان الأفضل أن يكون اللقاء سهلا لاعتبارات سياسية.

فإقناع بي دبليو بوتا P W Botha، رئيس دولة جنوب أفريقيا المحافظ بأن يجتمع مع السجين نلسون مانديلا عام 1989 لم يكن باليسير. فها هو نيل برنارد Niel Bernard، رئيس الجهاز القومي للاستخبارات National Intelligence Service، الذي نجح في ترتيب ذلك الاجتماع، يضع حيثيات ذلك الاجتماع في سياقها المناسب بعد خمس عشرة سنة فيقول: "دعني أعطي المقارنة التالية... الوضع الأمني في جنوب أفريقيا في ذلك الوقت جعل لقاء بي دبليو بوتا بنلسون مانديلا كدعوة الرئيس جورج دبليو بوش الآن لأسامة بن لادن أن يزور البيت الأبيض".

بدأت الاتصالات المبدئية التي أدت إلى هذا اللقاء بنلسون مانديلا في السجن بمجرد الصدفة. فقد كانت لوزير العدل، كوبي كوتسي Kobie Coetsee،

مزرعة بالقرب من مدينة صغيرة تسمى براندفورت Brandfort في ولاية أورينج (البرتقال) الحرة Orange Free State حيث يعيش صديقه القديم من أيام الجامعة وزميله في لعبة التنس، بيات دو فال Biet de Wall، وحيث يـــزاول مهنتـــه في القانون. كانت مدينة براندفورد قد اختيرت لتكون المكان الذي نفيت إليه زوجة مانديلا ويني Winnie في عام 1977 في أعقاب أحداث سويتو Soweto. وبما أن دو فال كان المحامي الوحيد في المدينة فقد اختير بحكم الواقع ممثلا قانونيا لها. في نوفمبر/تشرين الثاني 1985 سمح لها بالسفر جوا لزيارة زوجها الذي كان آنذاك داخل المستشفى في كيب تاون Cape Town. كانت ويني بمحض الصدفة على متن الطائرة نفسها التي كان عليها كوتسي فذهبت إليه في قسم الدرجـــة الأولى لتناقشه في وضع زوجها، مستغلة علاقة صديقهما المشترك – بيات دو فال – من مدينة براندفورت. في سياق الحديث عرضت ويني على كوتسي فكرة زيـــارة ماندلا في المستشفى. في الأسبوع اللاحق ذهب كوتسي – دون أن يعلن عـــن الزيارة – ليعود مانديلا في الطابق الثالث من مستشفى فولكس Volks بمدينـــة كايب تاون. قوات الأمن عزلت طابق المستشفى لأسباب أمنية حيـــث كـــان السجين رقم 466/64 بإزاره الأزرق هو المريض الوحيد في الطابق.

لقد تهيأ لمانديلا أن كوتسي يختلف عن سابقه، كروجر Kruger، المغـــرور المتغطرس. وتبادل الرجلان الحديث في أمور عادية إلا أنهمـــا علـــى المســـتوى الشخصي انسجم كل منها مع الآخر. زيارة كوتسي هذه لم تكن أكثـــر مـــن زيارة ودية دافعها حب الاستطلاع ليس إلا، ولكن مانديلا ظل لفترة طويلة من الزمن في انتظار اجتماع مع وزير من الحكومة لمناقشة احتمالات السلام معـــه، وقد سبق بالفعل أن كتب لكوتسي نفسه مرتين دون أن يستلم أي رد.

بمجرد أن نقل مانديلا من جزيرة روبن Robben إلى سجن بوللوسمـــور Ballsmoor طالب أن يقابل وزراء في الحكومة. وافق كوتسي على اللقاء مرة ثانية، وفي هذه المرة بمنزله الرسمي المسمى سفرنايك Savernake، وهو قصـــر هولندي في كيب تاون. قدم كوتسي لمانديلا كأسا من الشيري، وهـــو أول شراب يتناوله منذ اثنتين وعشرين سنة. واستمر الرجلان في عقد لقاءات على

مدى الثلاث سنوات اللاحقة ونشأت بينهما تدريجيا رابطة شخصية قائمة على الثقة المتبادلة. يقول فان دير ميرفا Van der Merwe، مدير عام قسم السجون، أن: "كوتسي ذهب لمقابلة الرئيس (بي دبليو بوتا) وقال لنا أنه من الممكن أن نتكلم مع مانديلا، ويجب أن يجري ذلك في سرية تامة. فإذا ما عرف أن الحكومة تتحدث مع العدو فستترتب على ذلك مشاكل سياسية كبيرة".

وبمجرد أن أصبح نيل برنارد، رئيس الجهاز القومي للاستخبارات، مشاركا في الاتصالات، تطور الموضوع من مجرد اتصالات إلى عملية استراتيجية. فقد كان محاضرا سابقا في العلوم السياسية بجامعة ولاية أورينج الحرة، وعينه الرئيس بوتا وهو في سن الثلاثين لإعادة تنظيم جهاز جنوب أفريقيا للمخابرات بعد الفضيحة إلى حلت بسلفه سيء السمعة المعروف باسم (بوس BOSS). أول اجتماع له مع مانديلا عقد في مايو/مايس 1988، وقد فوضه بوتا أن يعرف إذا ما كانت التسوية السلمية ممكنة، وأن يتأكد من أفكار مانديلا حول الشيوعية وحول دور الحزب الشيوعي في جنوب أفريقيا، وهو هاجس يؤرق بوتا باستمرار. ويقول بوتا أنه كان يريد أن يبحث في "ما هو موقف مانديلا من الإرهاب وكيف يتسنى لنا أن نفهم عما إذا كان مستعدا لنبذ العنف؟ هل سيستخدم المؤتمر الوطني الأفريقي (آيه أن سي) الأسلوب الثوري الشيوعي إذا ما تحقق تحول في سلطة الدولة عبر التفاوض؟". كان مانديلا متعودا على جلساته وأحاديثه مع كوتسي ولكنه لم يكن مطمئنا إلى برنارد. وعلق مانديلا على ذلك فيما بعد بقوله: "كان الأمر بمثابة دعوة آندري ساخاروف Andrei Sakharov (المعارض الروسي) إلى الحديث مع مدير الـ (كيه أجي بي)، جهاز المخابرات الروسي".

تم اللقاء في مكتب الآمر في بولسمور وكان مانديلا مرتديا معطفا وحذاء عمل طويل الرقبة. ودخل رئيس المخابرات وهذا السجين السياسي الأسطوري في حديث مؤدب بدون هدف محدد، وكان بيرنارد يتكلم أحيانا بالأفريكانا ومانديلا يتحدث بالإنجليزية. واتفقا على أن يلتقيا مرة أخرى لوضع أجنده

للحوار. ويقول بيرنارد أنه رتب لمانديلا ملابس مناسبة في اللقـــاءات القادمـــة ليلتقيا على قدم سواء. بيرنارد يعتبر أن احترام الآخرين أمر هام جدا.

في بداية عام 1989 أصيب بوتا بجلطة واستقال كرئيس للحزب الـــوطني ولكنه واصل عمله كرئيس للدولة. وحاول بيرنارد إقناع "التمساح العظـــيم"، كما كان بوتا يعرف وديا بين مؤيديه، أنه سيدخل التاريخ كالرجل الذي بـــدأ العملية السلمية إن هو التقى بمانديلا. إن عملية السلام هذه، بحسابات بيرنـــارد، ستواجه من يخلف بوتا بأمر واقع سياسي لا تراجع فيه. وقال بيرنارد لبوتا إنـــه حتى في حالة فشل المشروع فإن بوتا سيظل يُذكر بأنه الرجل الذي حاول على الأقل أن يحقق شيئا من التقدم. وهكذا وافق بوتا على الالتقاء بمانديلا.

مانديلا، الذي نقل الآن وأصبح في سجن فيكتور فيرستر Victor Verster، ظهر في أحسن ملابسه لحضور ذلك الاجتماع السري في يوم 5 يوليـــو/تمـــوز 1989. أُخذت مقاييسه وكُلف خياط السجن بتجهيز الملابس واستعمل جهـــاز المخابرات القومي أمواله السرية لتغطية المصاريف، فاشتروا لمانديلا بدلة وقميصا وربطة عنق. وطُلب من مانديلا أن يكون جاهزا عند الساعة الخامسة والنصف صباحا للانطلاق من السجن إلى كيب تاون. اتخذت كافة الإجراءات الأمنيـــة، وكان من الضروري تفادي حتى الشرطي المكلف بحراسة بيته في سجن فيكتور فيرستر. كان جهاز المخابرات القومي حريصا على سلامة مانـــديلا، ولكنـــهم كانوا أحرص على ضمان أن الاستخبارات العســـكرية Military Intellligence التابعة لماجنس مالان Magnus Malan وشرطة أمن جنـــوب أفريقيـــا South African Security Police، الذين كانوا يعتبرونهم في حكم الأعداء، ألاّ يتسرب إليهم شيء عن خبر الاجتماع. ويقول مانديلا أنه اســـتعد لـــذلك الاجتمـــاع استعدادا كاملا. فدون ملاحظاته، وقرأ من الصحف والأخبار بقدر ما يستطيع، تحسبا لما سيعرضه بوتا من قضايا ومواضيع، وحضّر الإجابات المناسبة لها.

وفي هدوء تام وصل موكب من خمس سيارات أمام البوابة الأمامية لمـــبنى تينهايس Tuynhuys، (بيت الحدائق)، المنزل الرسمي للرئيس، وقد سبق أن أخبر الحرس بأن السيارات تحمل "شخصية سياسية من دولة أفريقية". حتى المقربـــون

من المساعدين الخاصين لبوتا لم يخبروا بالاجتماع. أخذ مانديلا في مصعد من موقف السيارات في الطابق تحت الأرضي إلى الجناح الخاص. وفي الطريق إلى مكتب بوتا انصرمت خيوط حذاء مانديلا، ولاحظ ذلك بيرنارد فانحنى على ركبتيه ليربطها. كان مانديلا متوقعا معركة في انتظاره عند ملاقاة الرئيس، ولكن بوتا أقبل عليه بذراعين مفتوحتين وصافحه بحرارة، وبادر بتقديم كأس من الشاي. لقد كان كلا من الرجلين صعب المراس، فخورا، ولكنه كان بروح من الأريحية عتيقة وأصيلة.

ظل مانديلا لسنوات طويلة يطالب بالاجتماع ببوتا، وقد حضر لذلك مذكرة قبل الاجتماع طرح فيها موضوع التسوية السلمية عن طريق المفاوضات، ولكن الرجلين لم يتطرقا للسياسة. فقد تبادلا حديثا حول الأسرة بل وحول حرب البور Boer War. وقال بيرنارد يصف الاجتماع وكأنه مبارزة ملاكمين من الوزن الثقيل، يلف ويدور كل واحد منهما حول الآخر داخل الحلبة دون أن يسدد لكمات. ولكن مانديلا وبعد ساعة من اللقاء طلب من بوتا إطلاق سراح زميله القديم والتر سيزولو Walter Sisulu لأسباب إنسانية. (أجاب بوتا أن بيرنارد سيتولى هذا الموضوع، ولكن بيرنارد وضح لمنديلا أثناء العودة في السيارة أنه من المستحيل تنفيذ ذلك في تلك المرحلة... فاشتاط مانديلا غضبا كالمعتاد بسبب ذلك).

في أعقاب حفل الشاي وقف بوتا وبقية الحاضرين لالتقاط الصور التذكارية. وفي ذلك المساء، في الأرض المخصصة للحيوانات البرية في شمال البلاد، أخبر بوتا مجموعة من أصدقائه بأنه يحمل لهم مفاجأة مذهلة وسحب الصورة من جيبه. صدم الحاضرون لرؤية الصورة. وقال أحدهم في وقت لاحق لأستاذ الأفريكانا ويلي آستيرهيس Willie Esterhuyse "بينما كنا نحن نحارب الإرهابيين كان بوتا يتبادل الحديث مع زعيمهم في أجواء مريحة". كان بوتا قلقا عن ماذا سيكون رد فعل "جماعته" إذا انكشف الاجتماع، وأصر أن يقوم بيرنارد بتسجيله حرفيا، كما تم في تسجيلات الرئيس الأمريكي نيكسون، ليحمي نفسه في حالة أي هجوم عليه. لم يخبر بيرنارد مانديلا عن هذا التسجيل الذي تخلص

منه بإتلاف التسجيلات فيما بعد دون أن يخبر أحدا بـالأمر. (أدى ذلـك إلى خصومة حادة بين بوتا وخلفه أف دبليـو دي كلـيرك FW de Klerk. لقـد اعترض بوتا بشدة لادعاء ديكليرك بأنه إنما يسير على خطى بوتا ويتبع سياسـة للتوصل إلى حل سلمي، وأصر على أنه وظف اجتماعه بمانديلا ليحـذره مـن الشيوعية. وادعي أن التسجيلات السرية دليل على حقيقة ما يقول.. وعنـدها فقط كشف بيرنارد أنه شخصيا الذي قرر إتلاف التسجيلات).

لقد عمدت حكومة جنوب أفريقيا من طرفها إلى تشكيل لجنة من الوزراء وكبار المسؤولين لإدارة المحادثات الخاصة مع مانديلا حتى قبل اجتماع بوتا المشار إليه، وحصل أن عقدت ثمانية وأربعين جلسة في المجموع. ويقول الأستاذ منوكين Mnookin أن مانديلا سعى إلى تأسيس علاقات خاصة مـع كـل عضـو في اللجنة... وأن أحدهم وهو فاني فان دير ميرفا Fanie van der Merwe "فـوجئ وكان مسرورا أن مانديلا تذكره بعد ثلاثين سنة عندما كانا يدافعان في نفـس القضية ضد بعضهما البعض. لقد كسب مانديلا من وراء هذه اللفتات البسـطة أكثر بكثير مما كسبه من السياسات الذي اتبعها حول أي قضية من القضايا".

كان موقف المؤتمر الوطني الأفريقي هو أنه على الحكومة، وليس الحزب، أن تشرع في ابتداء المحادثات. فقد سعى مانديلا إلى الحوار مع الحكومة منذ وقـت طويل، وكتب للرئيس عدة مرات وأرسل إليه عروضا متعددة. وقد قال فيمـا بعد "لقد اخترت ألا أسرّ لأي أحد بما كنت سأفعله. لا لزملائـي في الطـابق العلوي (من السجن) ولا لأولئك الذين في لوساكا Lusaka (عاصـمة زامبيـا والمقر الرسمي لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي). فهناك أوقات يجب فيها على القائد أن يتحرك لوحده وأن ينطلق في اتجاه جديد واثقا بأنه يقود شـعبه في الطريـق الصحيح". فقد مكنه انعزاله في السجن من الاحتفاظ بالاتصالات مع الحكومـة سرية مخفية عن الناس ومن باب أولى عن الذين في صفه. فبدلا مـن الخضـوع للغيظ والاستياء بسبب الطريقة المروعة التي عومل بها من قبل خصومه، اختار أنه "إن كان يريد التوصل إلى حل سلمي مع عدوه فعليه أن يعمـل سـويا مـع عدوه... وبذلك يتحول ذلك العدو إلى شريك". فانطلق مانديلا يقنع حكـام

جنوب أفريقيا البيض أن السلام أمر يمكن أن يتحقق مع المؤتمر الوطني الأفريقي. وكما ذكر وزير الحزب الوطني (حزب البيض) غيريت فيلهون Gerrit Viljoen، أنه أثناء محادثات منديلا مع لجنة الحكومة "بدت لنا المعقولية وغياب المرارة لدى أعضاء حزب المؤتمر الوطني الأفريقي بكل وضوح، وكان من الواضح أن أولوياتهم ليست هي القضاء على خصومهم". كانت تلك المناقشات التي دارت بين مانديلا والحكومة داخل السجن هي الخطوات الأولى في المفاوضات التي أدت إلى انتهاء النظام العنصري وبناء دولة جنوب أفريقيا الديمقراطية.

إذا كان زعيم الجماعة المسلحة يصعب الوصول إليه، فلربما اعتمدت الحكومة على وسيط يتولى الاتصالات المبدئية معه. في عام 1999 كان زعيم نمور التاميل في سريلانكا فيلوبيلي براهاكاران Velupillai Prabhakaran يواجه حكما بالسجن لمدة 200 سنة لتفجيره البنك المركزي في العاصمة كولومبو، وكان مطلوبا في جريمة قتل رئيس سريلانكا بريماداسا Premadasa ورئيس وزراء الهند راجيف غاندي Rajiv Gandhi بالإضافة إلى عدد آخر من الجرائم.

إريك سولهايم Erik Solheim، سياسي نرويجي سابق، سافر شمالا من كولومبو في طائرة مروحية تابعة للجيش السريلانكي لمقابلة براهاكاران. لم تقع عينٌ أجنبي على هذا الزعيم من زعماء النمور منذ أواخر الثمانينيات. كانت المروحية تحلق على ارتفاع منخفض لتفادى أجهزة الرادار. لم يعلم بالزيارة سوى الرئيس كوماراتونجا Kumaratunga ووزير الخارجية، ولم يعلم بها حتى رئيس الوزراء الذي اشتاط غضبا عندما اكتشف الموضوع. كما أن قوات نمور التاميل لم يكن لها أن تعرف عن هذه الزيارة السرية، ولذا فقد كان هناك خطر حقيقي أن تقصف الطائرة من قبل العصابات المسلحة. وعندما هبطت الطائرة عند الخط الأمامي الفاصل بين قوات التمرد والجيش، استُقبل سولهايم بسيارة تابعة للسفارة النرويجية يقودها سائق مسلم. لقد تملك النرويجيين قلق لو كان السائق من التاميل لأنه سيقع تحت ضغوط لا تقاوم لكشف ما قد يسمعه مما يقال خلفه في داخل السيارة، بينما لا يمكن تأمين سائق من السينهاليز أن يقود السيارة في مناطق يتحكم فيها نمور التاميل.

أخذت السيارة سولهايم إلى الأراضي المتنازع عليها عند الخطوط الأمامية، والقت به عند كنيسة كاثوليكية على حافة الأراضي التابعة لقوات النمور المحررين لتاميل إيلام (أل تي تي إي) Liberation Tigers of Tamil Eelam حيث جاء جنود نمور التاميل فأخذوه في سيارة انطلقت عبر الطرق الجانبية في منطقة فاني Vanni حيث الجزيرة التي تشكل معقلهم المحصن، حرصا ألا تطلق عليهم النار من قبل القوات الجوية السريلانكية. وعندما وصل سولهايم إلى المقر الرئيسي لنمور التاميل في مالافي Mallavi أنزل سولهايم في بيت ريفي صغير. وفي اليوم التالي ظهر برابهاكاران في موكب كبير من الحرس الخاص، ولاحظ سولهايم أنه يمتلك قوة أمن تفوق تلك التي يمتلكها رئيس الوزراء الهندي، وكان يحمل قارورة زجاجية صغيرة حول عنقه بها مادة سم السيانيد كما هي عادة نمور التاميل.

لربما كان نمور التاميل من أخطر الجماعات المسلحة في العالم في ذلك الوقت. وكان النمور من أول من طوّر أسلوب العمليات الانتحارية بأول هجوم في عام 1987 تلته 272 عملية أخرى نفذ نحو خمسين منها نساء قبل أن يتوقف العنف. جاء أكثر الهجمات ترويعا في عام 2006 على يد امرأة من التاميل تدعى أنوجا كوجنثيراراسا Anoja Kugenthirarasah التي، حسب ما تقول التقارير، حملت من جندي صغير واستغلت علاقتها به للدخول إلى القاعدة التي تؤوي مكتب قائد الجيش للتردد على قسم الولادة هناك. ويوما ما أخذت مكانا عند بوابة المعسكر وفجرت نفسها وجنينها الذي في بطنها فذهبت فُتاتا أثناء مرور موكب الجنرال فونسيكا Fonseka. لم يقتل الجنرال ولكنه أصيب إصابات بليغة وأفلحت في قتل تسعة أشخاص آخرين.

وفي عام 1972 شكل بضع عشرات من الشباب منظمة نمور التاميل الجدد Tamil New Tigers واختاروا شعار إمبراطورية تامل تشولا Tamil Chola القديمة، وهو نمر على خلفية حمراء دموية، كرمز لهم. وجاءت أولى هجمات قتل معلنة يشارك فيها برابهاكاران في فجر يوم 27 يوليو/تموز 1975. غادر برابهاكاران بيت صديقه في جافنا Jaffna ذاهبا إلى معبد بالقرب من البيت.

وهناك أطلق وابلا من الرصاص المصنوع محليا من مسدس قد أكل عليه الزمـــان وشرب فقتل عمدة جافنا وهو يصلي.

كان هناك نحو ثلاثين مجموعة مـــن التاميـــل المتطـــرفين في الســـبعينيات والثمانينيات، ولكن برابهاكاران استطاع أن يسحق كل خصومه، وضم كـــل المجموعات تحت جماعة واحدة مع أواخر الثمانينيات. وانطلقت حركة التمـــرد التاملية من تنظيم هامشي لتصبح حركة شعبية بمعنى الكلمة بعد "شـــغب تمـــوز الأسود Black July Riot" عام 1983 التي جُر فيها التامليون جرا علـــى الأرض وأخذوا من بيوتهم وسياراتهم وذبحوا بلا هوادة على أيدي الغوغاء من السنهاليز. حفز الغضب العرقي الذي أثاره هذا العمل دعم الهند للتاميـــل وقـــام جهـــاز الاستخبارات الخارجية الهندية (آر أيه دبليـــو) -External Intellignce Services RAW بتدريب نحو 15 ألفا من المتشددين التاميل في حرب الغابات والتفجيرات وأعمال التخريب والتدمير. كما درب مئات النمور أيضا في بيروت على يـــد منظمة التحرير الفلسطينية (فتح). كان عدوهم الرئيسي الشباب وذوو الدخول المتدنية من جنود السنهاليز الذي كانوا يحرسون مناطق التاميل والذين وجـــدوا أنفسهم في مناطق غريبة لا يتكلمون لغتها. كان رد فعلـــهم لمقتـــل زملائهـــم ورفاقهم هو إحراق القري واغتصاب المدنيين وقتلهم، والثأر ولد الثـــأر حـــتى أصبحت البلاد في قبضة حرب أهلية شاملة راح ضحيتها أكثر من 100 ألف من البشر.

في عام 1997 استقال إريك سولهايم بعد عشر سنوات كـــزعيم للحـــزب الاشتراكي اليســـاري Socialst Left Party في النـــرويج، وقضـــى شـــهري يناير/كانون الثاني وفبراير/شباط 1998 في سريلانكا يكتب مذكراته. كان مقيما في بيت آرن فيورتوفت Arne Fjortoft، أحد ســـكان ســـريلانكا النـــرويجيين القدامى ورئيس سابق لحزب الأحرار الذي كان منافسا لسولهايم على الصـــوت "الإخضر" في النرويج، وهو الآن صديق له. إن حب الاطلاع السياســـي هـــو الذي دفع سولهايم إلى الالتقاء بسياسيين من مخلف المشارب أثناء وجوده هناك. وعندما عاد إلى النرويج اتصل به ممثلون للجالية السريلانكية هنـــاك وطلبـــوا أن

يجتمعوا به في أكتوبر 1998. هناك ما يزيد عن مليون تامل يعيشون في أمـــاكن مختلفة من العالم، وهؤلاء المهاجرون، أو الشتات Diasporas – هـــم العمـــود الفقري في دعم حركة (نمور تحرير تاميل إيــــلام) Liberation Tigers of Tamil Eelam-LTTE.

(الشتات – أو الدياسبرا – هم عادة "الأبــواب الأماميــة" للجماعـــات المسلحة، ومن الممكن أن يكون لها دور خاص في عملية السلام – كمــا هـــو الحال بالنسبة لحزب العمال الكردستاني (بـــي كيه كيـــه) في تركيـــا، حيـــث أجرت القيادات الكردية المهاجرة في أوروبا مفاوضات منفصلة مـــع الحكومـــة التركية.-أما في حالة أيرلندا الشمالية فقد كان للجالية الأيرلندية الأمريكية تـــأثير كبير على مسار الصراع وعلى عملية السلام. فقد ساهم قادة شـــبكة الـــدعم السابقة التابعة للجيش الجمهوري الأيرلندي في الولايات المتحدة في تحفيز قـــادة منظمة الـــ (شين فين) للتوصل إلى اتفاقية. والمهم بالنسبة للمفاوض هو تخطـــي المهاجرين والوصول إلى القادة الفعليين للجماعة المسلحة. فالدياسبرا عادة مـــا يكونوا متصلبين أكثر من المجموعة المسلحة التي يدعموها، فيعارضـــوا الحلـــول الوسط حتى وإن كان الناس الذين يعيشون الصراع يوما بعد يـــوم راغـــبين في تسوية الوضع).

أخبر التاميل في أوسلو سولهايم بأنهم اتصلوا بالخارجية النرويجية وطلبوا منها أن تساعد في إخراج الزعيم السياسي لنمور التاميل، أنتون بالاســـينجهام، مـــن سيرلانكا لإجراء عملية جراحية. وككثير من التاميل فإن بالاسينجهام يعاني من مرض السكري وفي حاجة ماسة لكلية جديدة. اتصل سولهايم بوزير الخارجيـــة فقام الأخير بتكليف نائبه بالموضوع.

بدأ بالاسينجهام حياته كمترجم في المفوضية السامية البريطانية في كولومبو، واشتغل بعد ذلك بالصحافة. التقى أول مرة ببرابهاكاران في مدراس بالهند في عام 1979 عندما كان كلاهما فارا من السلطات في سريلانكا، وتكونت بينما علاقة حميمة. وصف سولهايم تلك الرابطة كعلاقة "زوجين قديمين". كانا لا يفترقـــان أبدا – رغم أنهما يقضيان الشهور دون أن يتكلم أحدهما مع الآخر – واعتمـــد

براهاكاران على بالاسينجهام في الأيديولوجية السياسية لتكمـــل روح التمـــرد العسكري الذي يتمتع به. أما بالاسينجهام، على العكس من براهاكاران، فقـــد انفتح على العالم وله قدرة على فهم المشهد السياسي الدولي. فقد كان بإمكـــان براهاكاران تهريب جهاز غسل الكلى إلى الأراضي التي يحتلها التاميل لمســـاعدة صديقه وعلاجه، ولكنه لم يكن ليستطيع أن يبرر لبقية أتباعه صرف هذه الأموال كلها على شخص واحد.

ردت الحكومة النرويجية على التاميل إنها على استعداد للمســـاعدة إذا مـــا كانت الفكرة مقبولة لدى الحكومة في كولومبو. ورغم أن حكومة سريلانكا لم تكن مقتنعة أن الزيارة لاعتبارات إنسانية بحت، إلا أنها كانت تود لعملية السلام أن تتحرك وكانت تعي جيدا أن بالاسينجهام هو المفتاح لذلك. توصل الطرفان إلى التفاوض حول خطة لتمريره خلسة على متن طائرة مروحية ثم باخرة، ولكن الحكومة كانت تخشى من التكاليف السياسية اذا ما انكشف الأمـــر، وعلـــى الأخص ماذا سيكون رد فعل حزب (يو أن بـــي) المعارض، التي طغت علـــى حماسهم للفكرة.

فرضوا كمية هائلة من الشروط التي لا يمكن القبول بها بالنســـبة للنمـــور، وقرروا إخراج باللاسينجهام بوسائلهم الخاصة، فقضى ثلاثة أشهر في تايلانـــدا للنقاهة إتجه بعدها إلى بريطانيا حيث استقر فيها بحكم أنه مواطن بريطاني. زاره سولهايم في يوليو 1999 في بيته بمنطقة منهكه في جنوب لندن. كان لا يزال يعالج على آلة غسيل الكلي ولا يستطيع العمل إلا لفترات قصـــيرة مـــن النـــهار. في مارس/آذار عام 2000 رتب له سولهايم عملية زرع كلي في أوسلو، فـــذهب إلى هناك يصحبه المتبرع بالكلية الذي ادعى أنه أحد أقربائه.. وكان هـــذا أساســـا لعلاقة ثقة دائمة بين الرجلين.

شعرت وزارة الخارجية النرويجية أنه ليس بإمكانهم التحدث مباشرة مع نمور التاميل دون أن يتسبب في تدمير علاقاتهم مع حكومة سريلانكا، وعليه كلفـــوا سولهايم أن يكون نقطة الوصل مع نمور التاميل بينما أنشأ ســـفير النـــرويج في كولومبو علاقة مماثلة مع حكومة سريلانكا. بالاسينجهام طلـــب رسميـــا مـــن

سولهايم أن يتولى هو دور الوسيط بين الجماعة والحكومة في سريلانكا، فواصل سولهايم السفر إلى لندن للاجتماع به، وكانت الاجتماعات دائما تتم بنفس الطريقة. كانت تشاركهم في الاجتماعات آديل Adele زوجة بالاسينجهام وهي سيدة من الطبقة العاملة في أستراليا من منطقة بالقرب من ميلبورن Melbourne التي التقت به في لندن حيث كانت طالبة تمريض. كانت تربطهما علاقة حميمة للغاية. كانا لا يفارق أحدهما الآخر، حرفيا ومجازيا، ولا يمكن أن تبتعد عنه لأكثر من عشرة أقدام. ورغم أنها لم تكن مثقفة، فقد كان لها تأثير حقيقي عليه. كانا يذهبان إلى تناول وجبة حادة بالفلفل والبهارات في مطعم هندي أو صيني بالقرب من البيت، وكان بالاسينجهام يتناول مع الأكل قارورة من النبيذ الأبيض الذي كان يفضله برغم فرض النمور التاميل منعا على المشروبات الكحولية. وهناك يبهج جلساءه بجاذبيته الفاتنة التي لازمته منذ أيام شبابه عندما كانت الفتيات يتجمعن من حوله (وهي القصص التي لا تسعد لها زوجته كثيرا). واستمع سولهايم لمئات الساعات لروايات بالاسينجهام عن مشاهد لتاريخ سريلانكا من وجهة نظر التاميل وهو يتناول طعامه بأصابعه بطريقة التاميل التقليدية في الأكل. وبعد تناول الطعام يأتي أحد تامل الحي فيسدد فاتورة الحساب. إن الساعات التي قضاها سولهايم في الاستماع لقصص بالاسينجهام جعلته مكان ثقة عند بالاسينجهام لدرجة أنه عندما جاءت حكومة الحزب المركزي واستلمت الحكم من الاشتراكيين في النرويج عام 2000 جاء وزير الدولة للشؤون الخارجية فيدار هيلجيسن Vidar Helgesen شخصيا إلى لندن ليخبر بالاسينجهام أن الحكومة الجديدة قررت الإبقاء على سولهايم في وظيفته رغم أنها تحتفظ بحق تغيير مفاوض الحكومة في أي لحظة.

اجتماع سولهايم مع براباكاران في عام 1999 كان من ترتيب بالاسينجهام الذي كان العضو الوحيد في المنظمة القادر على التحدث مع الزعيم على مستوى واحد. كان اللقاء حول طاولة في الهواء الطلق بمدينة مالاوي، وكان براباكاران في ذلك الوقت قد أصبح ما يشبه الشخصية الأسطورية. فهو الشيطان الرجيم بالنسبة للسينهاليز، وما يشبه الإله عند أغلبية التاميل. ولكن

انطباع سولهايم الأول كان مخيبا للآمال. فقد ظهر براهاكاران، هذا الرجل الصغير الحجم ضعيف القبضة بدى وكأنه مدير مدرسة من مدارس القرية بدلا من قائد إرهابي يهاب. فقد كان خجولا ومتحفظا و لم يكن يتكلم الإنجليزية. وقد سأل الرئيس كاموراتونكا سولهايم فيما بعد، بشيء من السخرية، كيف تيقن أنه هو فعلا براهاكاران.. فهو رجل لم يره أحد منذ فترة طويلة تكفي للتعرف عليه بين جمع من الناس. وطالب براهاكاران في الاجتماع أن تتراجع الحكومة في قرارها بحظر منظمة نمور التاميل كمنظمة إرهابية، وأنه لن يشرع في عقد أي محادثات قبل أن يتم ذلك.

سنتان بعد وقف إطلاق نار سافر فيدار هيلجيسن وسولهايم للاجتماع ببراهاكاران، واستقلا طائرة مروحية من كولومبو لتحط بهما في ملعب للكريكت في الأرض التي يحتلها النمور. لقد تُركا للانتظار هناك ثم أُخذا إلى المركز الرئيسي للقاء براهاكاران ومستشارية حيث قدم الشاي والفاكهة الطازجة من قبل خدم يلبسون قفازات بيضاء. انطباع هيلجيسن المباشر، وسولهايم أيضا، كان انطباعا يغلب عليه التثبيط وخيبة الأمل. لم يكن براهاكاران أنسانا يملك الجاذبية أو الكارزما الفطرية، وكان صوته منخفضا ويداه نديتان. وكان براهاكاران أثناء المفاوضات متعنتا حول كثير من القضايا مع التركيز على تنفيذ وقف إطلاق النار ولا شيء آخر. وكان يطالب باستعادة الوضع الطبيعي للمناطق المسيطر عليها من قبل التاميل، ورفع الحظر التجاري وإعادة فتح الطريق رقم أيه 9 A9 وهو الطريق المؤدي إلى الشمال. وكان النرويجيون من طرفهم راغبين أن يتكلموا عن التفاوض حول القضايا السياسية، ولكن براهاكاران لم يبدِ أي اهتمام لذلك وكان يريد التركيز على موضوع التنفيذ فقط.

التقى النرويجيون مع براهاكاران خلال الخمس سنوات التالية خمسة عشر لقاء، وكان هذا أكثر من أي قائد آخر من غير التاميل. كانت تقدم لهم أفضل وجبات الغداء وأشهى أنواع الأسماك، وكانوا يتسامرون حول "الطعام وأفلام براهاكاران المفضلة" حول التاريخ. ويروي مؤلف مذكرات براهاكاران أنه

مهوس بأفلام رعاة البقر، الكاوبوي، الأمريكية، وقد كان "يمشي بخطوات وئيدة والمسدس مثبت في قميصه ثم يلتفت لفة مفاجئة فيسحب مسدسه بسرعة ويطلق الرصاص في اتجاه عدو غير موجود... وهكذا، دون أن يمل من استعراض هذ المشهد". واكتشف النرويجيون أن الرجل يلتزم بما يعد، وأنه عندما التزم في وقت لاحق بوقف القتال، أوقفه. ووجدوا أيضا أن بالاسينجهام لا يكذب أبدا. فعندما كان يسأل عن الهجمات الإرهابية كان يقدم لهم شروحا وافية عن الأسباب التي دفعت براهاكاران إلى الأمر بها، بينما كان أس بي تاميلسلفان S P Tamilselvan، رئيس القسم السياسي لحركة تحرير نمور تاميل إيلام (أل تي تي إي)، أقل صراحة وكان ينحو إلى إعطاء إجابات دعائية مدعيا، لأسباب غير منطقية، أنها قد نفذت من قبل الجيش كي يُلقي باللوم على (أل تي تي إي).

وقد أثبت سوهايم وهيلجيسن كيف يتمكن طرف ثالث من اتخاذ الخطوة الأولى – وهي الأصعب – في الأتصال بين جماعة مسلحة والحكومة. فبناء الثقة على مدى فترة طويلة من الزمن، وبالاستعداد للاستماع لمظالمهم وشكاواهم واحترامها.. كسبوا النمور إلى صفهم، وجعلوا أنفسهم – النرويجيين – طرفا أساسيا لا استغناء عنه من الطرفين.

أصبح الأفراد والمنظمات غير الحكومية في السنوات الأخيرة يتبنون دور الوسيط، عوضا عن الأمم المتحدة أو الحكومات. ليؤخذوا بجدية من قبل المجموعة المسلحة، بدلا من اعتبارهم مجرد وسيلة اتصال لجهاز مخابرات، من المهم جدا أن يتولى شخص أو جماعة موثقة تقديمهم للجماعة المسلحة.

فمنظمة أوسكادي تا أسكاتاسونا أو (إي تي أيه – إيتا) Auskadi Ta Askatasuna ETA التي عرفت عن طريق شريط مصور ظهر فيه زعماؤها وعلي رؤوسهم برنس أبيض من حرير، وثوب أسود، وبيريه أو برنيطه باسكيه ناعمة رافعين أيديهم اليسرى بقوة في الهواء كلما أرادوا أن يعلنوا عن شيء هام. علق على الحائط خلفهم علم (إي تي أيه) وشعارهم الذي هو عبارة عن ثعبان ملتو حول فأس يعبر عن العمل السياسي والعنف، كتبت عليه جملة (بيتان خارّي

Bietan jarri) باللغة الباسكوية ومعناها "كن على مستوى الاثنين". فقد تأسست حركة (إيتا) عام 1959 لمقاومة حاكم إسبانيا فرانسيسكو فرانكو Francisco Franco. وعندما استمروا في استعمال العنف، بل وزادوا في استعماله بعد تحول إسبانيا إلى الديمقراطية عام 1974، أصبح كفاح (إيتا) وحملاقم غير مفهوم لدى المواطن الإسباني العادي. وشعر أنصار (إيتا) من طرفهم أنهم خدعوا بالتحول الديمقراطي حيث أنهم كانوا يتوقون إلى أن تحقق الديمقراطية لهم حق تقرير المصير. ولكن الحركة شهدت انشقاقات كثيرة واستمر العنف على مدى أربعة عقود أزهقت فيه أرواح 800 من البشر.

لقد عاشت حركة (إيتا) ما يزيد عن خمسين سنة، رغم الجهود المضنية التي بذلتها الشرطة الإسبانية والفرنسية وأجهزة استخباراقم، التي كانت تلتزم دائما بسياسة العمليات الأمنية. ولذلك عندما اقترحت مساعدة مستشار الأمن القومي الأمريكي السابق للرئيس بيل كلينتون Bill Clinton، نانسي سويربيرغ Nancy Sodersberg، مؤسس مركز هنري دونانت Henry Dunant Centre في جنيف، مارتين غريفيثس Martin Griffiths، في عام 2003 أن يقوم بالاتصال بـ (إيتا)، لم تكن لدى مارتين غريفيثس أدنى فكرة كيف يمكنه أن يحقق ذلك. وكما تقول تيريزا ويتفيلد Teresa Whitfield في كتابها بعنوان: 'إيتا... نهاية اللعب: السلام الغائب في أرض الباسك Endgame for ETA: Elusive Peace in the Basque Country، "أن غريفيثس ذهب يبحث في الإنترنت وعثر على بيل دوجلاس Bill Douglass وهو خبير أكاديمي في موضوع (إيتا)"، الذي تقاعد حديثا من مدير مركز الباسك للدراسات في مدينة رينو Reno بولاية نيفادا Nevada بالولايات المتحدة، وأقنعه بالحضور إلى جنيف. فعند وصول بيل دوجلاس إلى جنيف انهال مارتين غريفيثس وزملاؤه على ضيفهم بالأسئلة للحصول على أكبر قدر من المعلومات منه، ثم طلبوا منه أن يذهب إلى منطقة الباسك ليتحدث مع من يعرف هناك. ويقول دوجلاس: "عبرت عما يمكن أن يطالني اذا أنا ذهبت واحتجزت السلطات الإسبانية، حيث أن الاتصال بعناصر (إيتا) يعد غير قانوني بحكم قوانين محاربة الإرهاب الإسبانية، وكذلك القوانين

الأمريكية فيما يتعلق بذلك. ساد جو من المزاح من الطرفين حول ما إذا تركت لقدري في هذه العملية. فالمركز، في ظروف غير واضحة يمكن يساعد بقدر المستطاع، ولكن علينا تقييم الوضع على الأرض في حينه. وباختصار... سوف أكون بمفردي لمواجهة النتائج".

شارك دوجلاس من قبل في محاولة فاشلة للتوسط مع (إيتا) رتبها مركز كارتر Cater Center في منتصف التسعينيات، ولكنه عاد من إسبانيا هذه المرة ليقول أن التفاوض ممكن أن يحصل. وأقنعه غريفيثس أن يرجع ويبحث احتمالات أن يلعب مركز هنري دونانت دور الوسيط... فاتصل دوجلاس بأحد رجال اتحاد العمال في (إيتا).. وها هو يروي بقية القصة...

نزلت في فندق في منطقة البحث والتطور (آر أند دي R&D) الصناعية في ثامو ديو Zamudio على مقربة من مطار بيلباو Bilbao. قمت بذلك لأنني غير معروف لإدارة الفندق، وأنه في الليلة الواحدة غالبا ما يكون نصف النزلاء أو أكثر، على أية حال، أجانبا، ولذا فإن وجودي هناك لن يلفت النظر. كان عليّ أن أعود إلى غرفتي في الفندق لانتظار الرد.. وبعد ساعات استلمت مكالمة تلفونية أُخبرت فيها بلقاء في غرفتي بالفندق صباح الغد مع مبعوث (إيتا). لقد بدا لي الانتظار طويلا جدا حيث أنني كنت أتوقع شخصا غريبا يمكن أن يكون أحد رجال الشرطة أو أسوأ من ذلك. ومما زاد في توجسي الغريب هذا أن (إيتا) لم تكن منظمة واحدة بالمعنى الصحيح، وبها عناصر متشددة على استعداد لمواصلة طريق العنف مهما كان الثمن، وبذلك ليكونوا ميالين لاستقبال رجل غريب من أي فئة كان.

جاءت الدقات على الباب، وكانت هي دقات الرجل الذي انتظره. كان رجلا حاد الملامح فدخل معي مباشرة في نقاش حول السياسة الباسكية الإسبانية. وعندما أخبرته بموقف المركز ودوره ظهرت عليه ملامح الشك. فما هي الأسباب التي تدفع بـ (إيتا) إلى الدخول في مفاوضات تصل لمستوى الاستسلام بل إلى درجة الرفض لتاريخها والتخلي عن أهدافها التي ناضلت طويلا من أجلها؟ إلا أنه وافق على توصيل المقترح شخصيا ثم الرجوع برد في اليوم التالي.

لقد كان رد (إيتا) مفاجأة كبيرة بالنسبة له، الذي جاء فيه أن هناك اهتماما بالموضوع، ولكن لا يوجد أحد على استعداد لأخذ مزاعم رجل أكاديمي

لعرض مركز هنري دونانت. (إيتا) تريد رسالة من مارتين تحدد التفاصيل وتبين حدود التزام المركز.

في يناير/كانون الثاني 2004 اتجه غريفيثس وإحدى زميلاته التي تتحدث الإسبانية، برفقة ابنها المراهق، بالطائرة إلى بيالباو. كانوا يعتقدون أن سفرهم كأسرة سيبعد عنهم شكوك السلطات الأمنية. وهناك، في الفندق نفسه، قابلوا أحد شخصيات اتحاد العمال فأعطوه رسالة توضح الدور الذي بإمكان المركز أن يلعبه في هذا الخصوص.

حصل كل هذا بينما كان خوسيه موريا أثنار Jose Maria Aznar المحافظ لا يزال رئيسا للوزراء في إسبانيا، وأن فرص نجاح المحادثات مع (إيتا) كانت ضئيلة. ولكن بدون علم غريفيثس كانت (إيتا) تبحث جاهدة عن وسيط يعتمد عليه للتوسط مع الحكومة الإسبانية للشروع في محاولة أخرى للتفاوض، وكان مركز هنري دونانت الرجل المناسب في المكان المناسب. وعندما انتخبت حكومة اشتراكية في أواخر تلك السنة، 2004، وضعت (إيتا) مجموعة خيارات من المتوسطين أمام الإدارة الجديدة من بينهم مركز هنري دونانت وجامعة أوبسالا بالسويد... فاختير المركز.

وقبل أن يتم اختيار المركز كان ولا بد من إجراء عملية فحص وتدقيق. واتضح مؤخرا أن (إيتا) أجرت أبحاثا دقيقة عن المركز لتتأكد من أنه ليس واجهة لمنظمة أخرى، لدرجة أنهم عرفوا مَن مِن موظفي المركز يتحدث الإسبانية. وفي الربيع من تلك السنة ظهر فجأة وبدون سابق إعلان اثنان من الباسك أمام تلك الفيلا على ضفة البحيرة حيث المقر الرئيسي للمكتب ادعيا أنهما يمثلان منظمة لحقوق الإنسان. سلم الرجلان ردا مكتوبا على رسالة غريفيثس ممهورا في أسفله بختم (إيتا) الرسمي. وصف أندرو مارشال Andrew Marshall، نائب غريفيثس، تلك الرسالة بأنها "رسالة ثقيلة جدا جدا".

كتب غريفيثس إلى بيل دوجلاس ليقول أن المركز اضطر إلى عدم المشاركة في صراع الباسك حيث أنه مشغول جدا بقضايا أخرى في أماكن أخرى، وأصيب دوجلاس بخيبة أمل كبيرة. كانت هذه "الكذبة البيضاء" ضرورية

للمحافظة على سرية قناة الاتصال، ولكن تم الاتصال فعلا وجرى ترتيب لقـاء بين الطرفين. تمت ترتيبات اللقاء الأول بين المركز وجماعة (إيتا) عـن طريـق شخص ظهر فجأة وبدون سابق إعلان أمام المكتب في جنيف ومعه تعليمـات محددة جدا. سيظهر ممثل المركز في يوم ما أمام كنيسة ما في قرية ما في فرنسـا. وعليه أن يرتدي شالا أحمر وأن يحمل في يده دفترا أزرق وأن يستعمل كلمة سر كشخصية في رواية جاسوسية، وإذا لم يظهر له أحد فعليه أن يرجع في خـلال ساعة واحدة، في ست ساعات، في أربع وعشرين ساعة وأسبوع بعد ذلك. لم يظهر لهم أحد، في المرة الأولى عندما ذهبوا، وكانت (إيتا) تراقبهم. ولكن بعـد أسبوع عندما هموا بالوقوف بسيارتهم عند المكان المحدد قفز رجـل إلى داخـل السيارة. لم يكن أحد يعرف ماذا عليهم أن يفعلوا بعد ذلك، فـاقترح آنـدرو مارشال تناول وجبة الغداء في المدينة المجاورة. وسأل مارتين غريفيثس ممثل (إيتا) عن اسمه فأجاب: "اختر ما تشاء"، فمنحه غريفيثس الاسم الحركي 'جـورج'، وانهمك الجميع في تناول وجبة غداء استمرت طويلا واستغرق اللقاء نحو سـت ساعات. في هذه الفترة حدد 'جورج' ما تريده المنظمة وحدد ممثل المركز الخطة التي وضعوها للترتيب للحوار. بلا شك أن ترتيبات معقدة بهذا الشكل يمكن أن تتعثر بطبيعة الحال. فمثلا أول اجتماع حدد كان بتاريخ 2 يناير/كانون الثـاني، وهو اليوم الذي يعود فيه الناس للعمل بعد عطلة رأس السنة، فهطل الثلج بشدة في ذلك اليوم، وكانت جميع المحال والمكاتب في جنيف مقفلة، فقرر ممثل مركز هنري دونانت ألاّ يذهب إلى فرنسا بالسيارة ريثما تتحسن الأحـوال الجويـة. ولكنهم اكتشفوا بعد ذلك أن 'جورج'، الذي انتظرهم ثلاثة أيام في الثلج قبل أن يفقد الأمل تماما، قد كان مهتاجا للغاية.

أعطي رئيس الوزراء الجديد خوسيه لويس ثاباتيرو الإذن بانطلاق للحـوار وعين خيسوس إيغويغورين Jesus Eguiguren لتمثيـل "حـزب الحكومـة". إيجيغورين رجل يتمتع بصفات الشخصية الفالستافية الشكسبيرية (نسبة لشخصية سير جون فولستاف في مسرحية هنري الرابع لشكسبير) التي منها السمنة المفرطة والمرح والمزاح والجدال والولع بالأكل والشراب.. وهو الشخص الـذي ظـل

يحاول طويلا تحقيق السلام ولكنه لم يكن يحتل منصبا حكوميا عدا أنه كان رئيس الحزب الاشتراكي في مناطق الباسك. كانت لديه أسباب كثيرة تدعوه إلى كراهية (إيتا). وقد كان حامل النعش لكثير من أصدقائه الذين اغتالتهم الحركة ابتداءً، من زميله جيرمان رودريجس German Rodriguez الذي قتل عام 1978. ويقول إيغويغورين: "اعرف كل الكنائس في بلاد الباسك، لأنه لا يوجد أحد مشى في جنائز أكثر مني". واضطر شخصيا في وقت ما أن يكون له حرس شخصي خاص يحرسونه من هجمات محتملة من قبل (إيتا). ولكنه كان يدرك أن الصراع "لن يحل بالإقصاء لأن ما نسميه اليسار الوطني لا يمكن أن يختفي".

كان إيجيغورين في ديسمبر/كانون الأول 2004 يقضي إجازة في باداخوث Badajoz عندما أخبر بأن رسالة قد وصلته من (إيتا). ركب يقود سيارته مسافة 500 كيلومترا ليستلمها من أحد أصدقائه في فرنسا الذي استلمها بدوره من أحد القساوسة الباسك الفرنسيين. فقفل راجعا في سيارته ليسلم الرسالة للمتحدث باسم برلمان الحكومة الاشتراكية، ألفريدو روبالكابا Alfredo Rubalcaba، وكان في مدينة سانتاندير Santander. وهذا بدوره سلمها لثاباتيرو، رئيس الحكومة. كانت الرسالة من ثلاثة أسطر فقط، ممهورة في أسفلها بختم (إيتا)، وتعرض أن تبدأ المنظمة والحكومة في حوار يؤدي لحل النزاع المسلح.

وصلت رسالة ثانية في فبراير/شباط 2005 عبر نفس القناة تقول أن (إيتا) تريد اجتماعا يعقد تحت رعاية منظمة دولية. ورسالة ثالثة تعطلت طويلا لأسباب لوجستية، فالمراسلات مع مجموعة إرهابية ليست دائما مباشرة. اقترحت الرسالة اجتماعا في جنيف وطلبت من الحكومة أن تؤكد لمدير مركز هنري دونانت أن الحكومة راضية. وعندما لم يستلموا ردا من الحكومة، افترض إيغويغورين أنه لم يعد جزءا من العملية واستغرب عندما أخبر من قبل روبالكابا أن يستمر في عقد الاجتماع في التاريخ الذي اقترحته (إيتا) وأن يتولى هو تمثيل الحكومة. وكما عبر هو عن ذلك بأن "ساعي البريد أصبح هو المحاور".

في 21 يونيو/حزيران 2005 اتجه إيغويغورين إلى جنيف لأول اجتماع له مع (إيتا) بصحبة صديقه بيللو روبيو Pello Rubio. كان إيغويغورين يألف المدينة

لأنه اشتغل في مطبخ أحد المطاعم على مشارف المدينة قبل ثلاثين عاما. وأخبر بأن يحضر عند العاشرة صباحا أمام الاستقبال في فندق الرئيس ويلسون President Wilson. وهناك سيتقدم له شخص عن مركز هنري دونانت يسمي نفسه السيد سكوت Mr Scott وسوف يسأل عن السيد فيليب مارتينيز Felipe Martinez. السيد سكوت سيأخذه إلى محل الاجتماع. وفي حالة أن أحدا لم يأت فعليه أن يعود بعد ساعة أخرى، وإن لم يأت أحد هذه المرة فعلية العودة بعد يوم آخر.

جلس إيغويغورين عند الاستقبال ثم استغرق في النوم. وعندما لم يأت أحد يسأل عن فيليب مارتينيز قرر أن يتصل تلفونيا بمركز هنري دونانت الذين أخبروه بأن ذلك ربما كان لأسباب أمنية. فأخبرهم إيغويغورين أنه مضطر إلى السفر في اليوم التالي إلى بلاد الباسك للتصويت في انتخابات الوزير الأول في برلمان الباسك. فصديقه باتكسي لوبيز Patxi Lopez، المرشح الاشتراكي، قد قال له أنه سوف يقتله رميا بالرصاص إن هو تركه يخسر لصالح مرشح الحزب الوطني (بي أن في) PNV بسبب تغيبه عن التصويت. أسرع المركز مباشرة في إعادة ترتيب موعد الاجتماع، من فندق ويلسون إلى فندق بوو - ريفاج Beau-Rivage في نفس الشارع، أرقى فنادق ضفاف البحيرة حيث مقر رابع شركة مزاد علني في العالم، سوثابيز Sotheby's، في الدور الأسفل حيث تباع أغلى ساعات العالم.

أول اجتماع بين عدوين عادة ما يتحول إلى لقاء بين أشخاص يعرف بعضهم البعض حق المعرفة. فلا (إيتا) ولا الحكومة أخبرت مقدما من سيمثل الطرف الآخر في اجتماع جنيف. وعندما جلس الطرفان في إحدى غرف فندق بوو - ريفاج قام غريفيثس بتقديم إيغويغورين باسمه الحركي 'ميغيل Miguel' إلى 'جورج' الذي تعرف عليه إيغويغورين مباشرة حيث كان كلاهما عضوا في برلمان الباسك معا. فممثل (إيتا) كان في الحقيقة خوسيه أنتونيو أوروتيكوإتشيا Jose Antonio Urrutikoetxea المعروف باسم خوسو تيرنيرا Josu Ternera أحد القادة التاريخيين للمجموعة. من المعروف عن تيرنيرا أنه شارك في أهم الهجمات التي

قامت بها (إيتا) وهي اغتيال رئيس وزراء فرانكو الأميرال كاريرو بلانكو Admiral Carrero Blanco في عام 1973. فقد حفر فريق (إيتا) نفقا عبر أحد شوارع مدريد ووضعوا فيه كميات ضخمة من المتفجرات، وبينما كان الأميرال مارا في طريق العودة من قداس فجروا العبوات وقذفوا بالسيارة في الهواء إلى ارتفاع أعلي من خمسة طوابق فاستقرت في فناء كلية يسوعية Jesuit فقتل بلانكو وسائقه وأحد حراسه. وقضى تيرنيرا مدة في السجن وفي عام 2002 اختفى قبل ظهروه أمام المحكمة الوطنية متهما بالمشاركة في هجوم على قادة الحرس المدني في ثاراغوثا Zaragoza عام 1987 حيث قتل أحد عشر شخصا منهم خمسة أطفال. كان عمره آنذاك أربعة وخمسين سنة وشعر إيغويغورين أن سنوات السجن قد أثقلته وأنه يرغب في إنهاء الصراع. كان 'روبرت Robert'، خون يورياسو Jon Yurrebaso، يصحب 'جورج' في الاجتماع، وهو رجل من رجال (إيتا) المخضرمين في الخمسين من عمره، خرج من السجن عام 1991 وتدرب في معسكر لحركة التحرير الفلسطينية - الجبهة الشعبية في اليمن الجنوبي. 'روبرت' لم ينبس ببنت شفة طوال المفاوضات، واكتفي بتدوين ملاحظاته والدق على كمبيوتر محمول (لاب توب) أمامه والهمس في أذن 'جورج' من حين لآخر.

كان الاجتماع الأول منقبضا ورسميا. أعلن إيغويغورين أنه مضطر إلى أن يذهب إلى فيكتوريا في أرض الباسك للتصويت، مما فهمه 'جورج' خطأ حيث أنه كان يتوقع أنهما سيخوضان في مفاوضات مكثفة. لكن الاجتماع لم يستمر أكثر من ساعتين وانتهي عند الثامنة مساءً، ولكنه على أقل تقدير أذاب الجليد بين الطرفين. وذهب إيغويغورين يقود سيارته أثناء الليل فوصل بيته عند الخامسة صباحا. أخلد إلى النوم لمدة ثلاث ساعات ثم ذهب للتصويت في فيكتوريا ثم واصل الرحلة عائدا إلى جنيف.

اقترح جورج أن يجتمعا يوما بعد يوم في الصباح أو بعد الظهر ولكن ليس طوال اليوم، لأن جماعة (إيتا) يودون بعض الوقت لكتابة ملاحظاتهم حول الاجتماع وللتشاور. قَبِل إيغويغورين بالاقتراح ولكنه لم يكن في حاجة للتشاور أو لتدوين أي ملاحظات "فأنا أحتفظ بكل شيء في رأسي" على حدّ قوله. فلم

تكن له تعليمات معينة و لم يكن معه مستشارون من مدريد، ولا حتى جهاز (لاب توب). كما أن جنيف ليست بالنسبة له هي أكثر مدن العالم إثارة، فقضي معظم الصيف متجولا في شوارعها، يرتاد السينمات، وكانت زوجته تزوره لبعض الوقت. لم تكن معه كميات كثيرة من النقود، وطُلب منه استعمال كارت الائتمان الخاص به ولكنه كان يعيش على الأكلات الخفيفة من المطاعم التركية. أعطته مدريد هاتفا نقالا للاتصال بهم عند الحاجة ولكنه ضيعه بمجرد حصوله عليه تقريبا حيث نسيه فوق أحد الكراسي. لم يأخذ إيغويغورين معه ملابس كافية وأصبح مظهره يبدو أشعث.

أصبح الطرفان يجتمعان كل يوم، كل مرة في فندق، وكان يحضر معهم الاجتماع شهود من مركز هنري دونانت. كانت الاجتماعات تتم خلسة لأن ممثلي (إيتا) لم يكونوا مطمئنين أنهم لن يقبض عليهم في أي لحظة. فقد كان جورج شاعرا بعامل الأمن بشكل كبير، وكان يعطي تعليماته لغريفيثس حسب الترتيب المضبوط: من سيصل الأول ومن سيغادر الأول.. من يجب أن يعرف مكان الاجتماع مسبقا... الخ. لأمر ما ظل جورج تحت المطاردة لمدة خمسة عشر عاما، وهو لا يزال طليقا اليوم رغم أقصى ما تبذله الشرطة الفرنسية والإسبانية من جهود.

إن المنظمات غير الحكومية من أمثال مركز هنري دونانت يمكنها العمل تحت الرادار، على عكس الوسطاء من ذوي الأسماء الفخمة. كما أن بإمكانها الاتصال بالجماعات المسلحة التي تعمل في الخفاء وتقوم بتسهيل عملية النقاش الهادئ معها بطريقة لا يمكن أن تتحقق بواسطة الأمم المتحدة أو الحكومات. فبإدارة المحادثات مع (إيتا)، كان غريفتس يبني على ما تحقق من نجاح سابق في الاتصال مع حركة أتشيه الحرة بأندونيسيا المعروفة باسم (غيراكان أتشيه ميرديكا – جي أيه أم) Gerakan Aceh Merdeka-GAM حيث رتب لأول محادثات بين المنظمة والحكومة الأندونيسية.

قيادة (جي أيه أم) عاشت في ستوكهولم بالسويد منذ عام 1979 بمن فيهم القائد الأعلى حسن داي تايرو. وعقد أول اجتماع لهم مع ممثلي الحكومة

الأندونيسية في 27 يناير/كانون الثاني 2000 في بيت ريفي فسيح في بافوا Bavois شمالي لوزان بسويسرا. وبافوا هي موطن تييري لومبارد Thierry Lombard الشريك الرئيسي للومبارد أودير Lombard Odier أقدم البنوك الخاصة في سويسرا، وهو القيّم على مركز هنري دونانت المؤسس حديثا. كانت الحكومة الأندونيسية ممثلة من قبل حسن ويراجودا Hassan Wirajuda سفيرها لدى الأمم المتحدة ووزير خارجية أندونيسيا فيما بعد. وكان ويراجودا قد شهد المحادثات بين حكومة الفليبين وحركة التمرد المعروفة باسم الجبهة الوطنية لتحرير مورو Moro National Liberation Front في عام 1990 وكان يتمتع بقدر كبير من الثقة في النفس. طلب المركز موافقة الحكومة الأندونيسية على المضي في عقد الاجتماعات وعندما لم تصل الموافقة قال ويراجودا "هيا بنا نجتمع...".

تقع أتشيه في قمة الشمال الغربي من سوماطرا، أكبر جزر أندونيسيا، وكانت سلطنة مستقلة في عهود الاستعمار، وقاومت الهولنديين أكثر من بقية أجزاء الأرخبيل الأخرى. ولقد لعب أهالي أتشيه في وقت الاستقلال دورا شجاعا متميزا في طرد الهولنديين إلى خارج أندونيسيا، ولكنهم لم يعطوا نصيبهم من الاستقلال الموعود بل بالعكس واجهوا الاحتلال العسكري والغي القانون المبدئي الذي منحوا بموجبه الحكم الذاتي عام 1956. في عام 1976 أعلن حسن داي تيرو الاستقلال وقاد ثورة مع تشكيل منظمة (جي أيه أم). وحسن داي تيرو ينحدر من أسرة عريقة من العلماء الذين قادوا المقاومة ضد الهولنديين في القرن التاسع عشر. قُمع ذلك التمرد في مواجهات دموية مع النظام العسكري الدكتاتوري، ولجأ داي تايرو ومجموعة من أنصاره إلى السويد. في خلال الثلاثين سنة التالية قتل ما يزيد عن ثلاثة وثلاثين ألفا من أهالي المنطقة. كادت المنظمة تدمر بالكامل في 1979 ولكن التصرفات الوحشية التي لجأت إليها قوات الحكومة والدعم بالمال والتدريب من ليبيا وإيران في أواخر الثمانينات أدى إلى تجدد حملات العصابات المسلحة. في عام 1989 أعلنت المنطقة "أرضا للعمليات العسكرية الخاصة" ارتكبت القوات الأندونيسية انتهاكات لحقوق الإنسان فظيعة في محاولاتها لقمع ذلك التمرد.

عند انتهاء الدكتاتورية العسكرية الأندونيسية بسقوط سوهارتو عام 1998 ظهرت فرصة جديدة لحل الصراع سلميا. قدم الرئيس المؤقت بي جيه حبيبي BJ Habibie اعتذارا علنيا عن الحملات العسكرية ورفع الحكم العسكري الخاص عن أتشيه. وأرسل غريفيثس من طرفه باحثة شابة من أصول صينية أمريكية إلى تيمور الشرقية التي كانت في طريقها إلى الاستقلال عن أندونيسيا. وعند وصولها هناك قيل لها أن لديهم أعدادا من المنظمات أكثر من حاجتهم وتقدمت للمساعدة كوسطاء وعليها أن تذهب إلى أتشيه لوجود حاجة لأمثالها. وفي جاكارتا التقت بشاب بلجيكي وجندته للعمل معها وقد نُشر له كتاب عن الإسلام لفت اهتمام الرئيس الجديد عبدالرحمن وحيد (المعروف محليا باسم غوص دور) وهو يعتبر شخصية قيادية دينية محترمة تلقى دراسته في جامع الأزهر بالقاهرة وأصيب بعدد من الجلطات الصحية تركته يكاد يفقد بصره. (عندما زاره غريفيثس في قصره الرئاسي فيما بعد أخذه العجب لما رأي في مكتبه. هناك دراجة هوائية معلقة في الحائط خلفه مكتبه الذي كان يعج بأكداس من الأشرطة الصوتية للموسيقى الكلاسيكية وعلى كرسيه تتأرجح ملابس مغسولة). وطلب "غوص دور" مقابلة الباحثة التي كانت قد تعرفت على إحدى بنات الرئيس وأقرب مستشاريه إليه. التقوا بالرئيس في شهر نوفمبر/تشرين الثاني ودعوه لزيارة مركز هنري دونانت في جنيف.

لقد سبق للرئيس، بدون علم غريفيثس، أن حاول الاتصال بقادة (جي أيه أم) في ستوكهولم ولكن جهوده أدت إلى لا شيء. كان يود إجراء استفتاء عام في أتشيه ولكن النخب الأندونيسية كانت معارضة لذلك. وجاء الاتصال من قبل مركز هنري دونانت بفرصة جديدة لإنهاء دورة العنف في البلاد برغم المعارضة من داخل حكومته نفسها. وفي طريقه إلى المؤتمر السنوي في دافوس في يناير/كانون الثاني عام 2000 عرج الرئيس على جنيف وأصر على زيارة المركز لإلقاء كلمة هناك دعما لعملية السلام. وقال لغريفيثس، وهو جالس في مكتبه، وبصره ممتد نحو ذلك المنظر الساحر لجبل مونت بلانك Mont Blanc، أنه أتى إلى هناك تعبيرا عن موقف سياسي.. ليُري العالم، وعلى وجه الخصوص أعضاء

حكومته الذي رافقوه في تلك الرحلة، أنه يدعم رسالة مركز هنري دونانت. وفي مناسبة تالية أسر الرئيس إلى غريفيثس أن من إحدى أبطاله المفضلين فلورنس نايتنجايل وأحد أبطاله كذلك هو هنري دونانت مؤسس منظمة الصليب الأحمر وكان هذا هو السبب في اختياره للمركز. وقد استغل كلمته تلك ليعلن، في حضور مسؤولين أندونيسيين أخذهم المفاجأة، أنه قرر أن تأسيس قناة لحل الصراع القائم في بلاده. وأصبح الجميع، مسلحين بهذا التفويض الرئاسي، في موقف يجعلهم على ثقة من الاتصال بقيادة (جي أيه أم).

لم تكن لغريفيثس وسيلة مباشرة للاتصال بحسن.داي تايرو، ولكنه كان يعلم أنه يعيش في ستوكهولم، فأخذا دليل التلفون وبدأ بالاتصال بكل شخص يحمل ذلك الاسم. وأخيرا عثر على الشخص المطلوب وطلب من أن يذهب لزيارته، ولحسن الحظ رحب داي تيرو بالزيارة. وهكذا فالجماعات المسلحة في الغالب، وعلى عكس ما هو متوقع، تبدي الترحيب باللقاء نتيجة لتلهفهم على الشرعية والاعتراف. والأهم أنهم في أمس الحاجة لمن يستمع إليهم. ثم التقى غريفيثس بمالك محمود المفاوض الرئيسي للجماعة بفندق في سنغافورة. كان محمود مراقبا من قبل ضابط هزيل في جهاز المخابرات السري الأندونيسي بينما كان كل من غريفيثس، ونائبه مارشال، مراقبين من قبل الجهاز السنغفوري الأعلى كفاءة. وكان غريفيثس قد قرر عن قصد أن يكون عقد الاجتماع معروفا للجميع نظرا إلى أنه قد أخبر السلطات الأندونيسية أنه سيعقد لقاء مع جماعة (جي أيه أم).

وذكر محمود لغريفيثس أنه هو أول شخص في منظمة دولية يعبر له عن أي اهتمام بأوضاعهم أو يحاول الاتصال بهم خلال عقدين من الاقتتال. وبين لغريفيثس أن (جي أيه أم) ليست منظمة إسلامية متطرفة. كانت سياستهم عدم الالتقاء بالحكومة ولكنهم على استعداد للالتقاء مع وسطاء. وأكد غريفيثس من طرفه على خلفيته في الأمم المتحدة واهتمامه بالجوانب الإنسانية للصراع. لقد كانت (جي أيه أم) حريصة منذ فترة طويلة على تدويل مطالبها على أمل أن تمارس الولايات المتحدة أو الاتحاد الأوروبي ضغوطا على الحكومة الأندونيسية

لإنهاء انتهاكات حقوق الإنسان التي تمارسها في أتشه. وكانوا يودون رفع قضيتهم إلى مجلس الأمن بالأمم المتحدة كالممثل الشرعي والوحيد للشعب الأتشي. وكانت الأمم المتحدة نفسها، أو دولة ما، خيارهم المفضل كوسيط ولكن لم تقبل أي دولة أن تلعب ذلك الدور، وبدا لهم أن مركز هنري دونانت به من العديد من الشخصيات الذين اشتغلوا في الأمم المتحدة وموالين ولهم اتصالات واسعة.

في سنغافورة التقي غريفيثس بقائد آخر من قواد (جي أيه أم ممن يَدعي أنه صوت رسمي للحركة، واتضح فيما بعد أنه يرأس مجموعة منشقة عن الحركة الأصلية اسمها (أم بي – جي أيه أم MP-GAM) ومعروفة كـ (جي أيه أم) الماليزية. كان قادة المجموعتين مقيمين في السويد، ورغم أنه لا اختلاط بينهما إلا أنهم كانوا يلتقون أحيانا في ممرات أسواق السوبر ماركت في ضواحي ستوكهولم. وأول خطوة أخذها غريفيثس كشفت عن إشكال سيواجهه أي وسيط وفي جميع الأحوال. وهي: كيف يتأكد المرء من أنه يتحدث مع شخصيات حقيقية. ففي حالة الفوضى التي تخلقها كل حرب يتقدم أناس كثيرون ولأسباب ودوافع كثيرة، منها أسباب ودوافع مالية لانتزاع السلطة، ممن يدعون أنهم يتكلمون باسم الجماعة المسلحة. ولإثبات ذلك للطرف الحكومي إلى مستوى لا يصله أدنى شك بأن هؤلاء هم القادة الحقيقيون للجماعة يشك تحدّيا كبيرا. كتب كل من نايجل كوِيني Nigel Quinney وهيذر كوين Heather Coyne حول حالة غريبة جدا من هذا القبيل في العراق حيث كان على المفاوض العسكري الأمريكي "أن يثبت أن صوت الشخص الذي على الطرف الآخر من التلفون هو فعلا صوت المتحدث باسم المجموعة المتمردة... واختبروا ذلك بقولهم 'أطلق صاروخا الآن'، فإن هو أطلق صاروخا تأكدوا من أنهم يتخاطبون مع المجموعة الصحيحة".

دعا غريفيثس (أم بي – جي أيه أم) أيضا إلى اجتماع جنيف، فكان هناك في واقع الأمر اجتماعان متلاحقان في عام 2000 في البيت الذي في بافوا، وسار الاجتماعان حسب الخطة. لقد سبق أن التقى حسان ويراجودا مع قيادة

(جي أيه أم) عرضا في مناسبة عامة في أوروبا، ولكنه ظهر هذه المرة بروح طيبة معتذرا على الأعمال القاسية للجيش الأندونيسي في أتشه على مدى الخمس وعشرين سنة الماضية، ومشيرا إلى (جي أيه أم) بالإخوة. أما الـ (جي أيه أم) فتكلموا عن كفاحهم التاريخي، ولكن الوفدين أخذا بالأسلوب التصالحي الذي اتبعه السفير في الحديث. وبالنظر إلى أن سياسة (جي أيه أم) هي رفض الاجتماع مع الحكومة الأندونيسية، فيكون مجرد الاجتماع في حد ذاته إنجازا لا بأس به.

افتتح غريفيثس المداولات بتهنئة الطرفين على شجاعتهما في تحقيق هذا الاجتماع. وأكد أن الاجتماع سري ولا يتعدى القضايا الإنسانية. هز الطرفان رؤوسهم بأدب واستطرد الجميع بعد ذلك للخوض في حديث حول قضايا أخرى ما عدا القضايا الإنسانية. واتفقا على نص بيان عام يصدر عن الاجتماع. عقب الاجتماع أوضحت مجموعة (جي أيه أم) التي يقودها حسان داي تايرو أنها لن تواصل عملية السلام إلا إذا أنهى الأندونيسيون صلاتهم بمجموعة (جي أيه أم) الماليزية. وسأل ويراجودا غريفيثس عن وجهة نظره في الاختلاف بين المجموعتين فأجاب غريفيثس يبدو أن مجموعة تايرو تتمتع بنفوذ اكبر على المقاتلين في قطاع أتشيه ونظرا لذلك يصبح من المعقول جدا إتباعهم (؟). بعد أشهر قليلة فقط اجتمع ويراجودا مرة أخرى بمجموعة (جي أيه أم) التابعة لداي تايرو في بافوا في سلسلة اجتماعات مشحونة بالعواطف للاتفاق على وقف القتال لاعتبارات إنسانية وعلى الشروع في العملية السلمية.

الاجتماعات الأولى بطبيعة الحال تكون شديدة التوتر إن كانت بين أناس كانوا أطرافا مباشرة في صراع بين بعضهم البعض، وخاصة إذا كان كلا الطرفين مستعدا لأن ينسى الماضي على الأقل (إن لم يكن مستعدا ليصفح). أول لقاء بين قيادة حركة الجمهوريين الأيرلنديين وقيادة شرطة أيرلندا الشمالية عقد في مكتب رئيس الوزراء البريطاني في 10 داونينغ ستريت في عام 2004. طلبت من مأمور الشرطة هيو أورد Hugh Orde أن يحضر، وهو بدوره استدعى بيتر شيريدان Peter Sheridan، وهو مساعد مأمور شرطة وأعلى ضابط كاثوليكي في جهاز

الشرطة. ونشأ شيريدان واشتغل كضابط شرطة في ديـــري Derry. وفجــرت سيارته على أيدي الـــ (آي آر أيه IRA) مرتين وقتل جميع من فيهـــا في كـــلا المرتين إلا هو. وقد اضطرته تهديدات الـــ (آي آر أيه) هو وعائلته أن يغير مكان سكنه ثلاث مرات. كان قائد الـــ (آي آر أيه) في ديري في ذلك الوقت مارتين ماغينيس، ولكن شيريدان كان مستعدا للحضور إلى داونينغ ستريت في لنـــدن لمقابلته ومصافحته ليبرهن على شهامة نادرة.

في ذات يوم، قبل أن يتلقى تلك المكالمة مـــن آورد، كـــان شـــيريدان في اجتماع في ديري مع الصحفية نيل ماكافيرتي التي قدمت له صحنا من الشوربة. وبعد أن انتهى من تناولها طلبت منه نيل أن يخمن من الذي حضر تلك الشوربة، وعندما عجز عن تسمية صاحبتها قال نيل: "إنهـــا بيغـــي Peggy"، فتســـاءل شيريدان: "ومن تكون هذه البيغي؟" فأجابتـــه نيـــل: "إنهـــا والـــدة مـــارتين ماغينيس"... وهنا تساءل شيريدان عما اذا كانت تريد تسميمه، وأخذ قســـيمة ورق وكتب عليها "شكرا على هذه الشوربة الممتازة" وسلمها لنيل كي تعطيها لبيغي. وعند نهاية ذلك الاجتماع في صالة الحكومة في داونينغ ستريت وقـــف شيريدان إلى جانب الباب يصافح مودعا كلا من جيري كيللـــي Gerry Kelly وجيري آدمز ومارتين ماغينيس. كان ماغينيس آخر المغادرين فشد علـــى يـــده وقال: "أمك طباخة شوربة ممتازة.. وقد تناولت صحنا منها يوم السبت". فقال ماغينيس مستغربا: "وأين تحصلت على صحن من شـــوربة أمـــي؟". فأجابـــه شيريدان: "أحرص على العودة لاجتماع آخر.. وعندها سوف أخبرك".

الوصول إلى اجتماع بهذه الأهمية البالغة، حيث يتصـــافح الأعـــداء، أمـــر يتطلب سنوات من الإعداد، وغالبا أطول مما يعيه المراقبون. فعندما أعلنت للعالم النتائج المذهلة للمحادثات السرية في أوسلو بين منظمة التحريـــر الفلســـطينية والحكومة الإسرائيلية عام 1993، ظن الكثيرون أن الاتصالات بـــين إســـرائيل والفلسطينيين قد بدأت في 1992 فقط. فقد سبق وأن أعلـــن رئـــيس الـــوزراء إسحاق رابين: "إننا لن نتحاور مع من يسمون فتح". ولكن الخيـــوط الأولى في الواقع تمتد بعيدا وتعود إلى سنوات من البناء وتأسيس العلاقات.

يائير هيرشفيلد Yair Hirschfeld، الذي بدأ أول اتصال مع فـــتح، هـــو رجل يشبه الدب، وقد وصفه زميله يوري سافير Uri Savir بأنه يشبه "أحـــد مفكري فينا في العشرينيات.. بلحيته السمراء المتوحشة، وشعره المبعثر وملامحه الشاردة". وهو في الحقيقة شخصية حساسة وأستاذ كريم في جامعة حيفـــا في إسرائيل، الذي عمل طويلا كمستشار مقرب لحزب العمال الإسرائيلي، وهو الذي مثل إسرائيل في محادثات أوسلو السرية. وهو الذي تابع خط البدايات في 1979 بعد أن ظهر على التلفزيون النمساوي معلقا على بروز آية الله خميني في إيران. فقد استدعاه المستشار النمساوي برونو كرايســـكي Bruno Kreisky، المعروف بعلاقاته بالعالم العربـــي، للحضور والالتقاء به لمناقشـــة العلاقـــات الإسرائيلية الفلسطينية. اقترح هيرشفيلد أن يقـــدم النمســـاويون مســـاعدات اقتصادية لغزة والضفة الغربية، وأن يتحدثوا مع ياسر عرفات لإقناعـــه بـــأن يفوض القادة الفلسطينيين في الأراضي المحتلة للتحدث مع الإســـرائيليين. قـــام كرايسكي كما اقترح عليه هيرشفيلد، وفي السنوات التالية طلب كـــل مـــن إسحاق بيريز وإسحاق رابين أو شمعون بيريز ونائبه يوسي بيلين إلى هيرشفيلد أن يبدأ في تطوير اتصالات مع اثنين من أبرز القيادات المحليـــة للفلســـطينيين، حنان عشراوي وفيصل الحسيني.

مبدئيا حاول الإسرائيليون أسلوب من القاعدة إلى القمة، والذي يتطلـــب تأسيس القدرة الاقتصادية، بل وإجراء انتخابات ليمنحوا القيادة مصداقية أكثر. ولكن القيادة المحلية الفلسطينية بينت للإسرائيليين باستمرار أنهم لا بد أن يتصلوا بفتح نفسها اذا كانت الأمور ستتقدم إلى الأمام. في عام 1991 سلم هيرشـــفيلد إلى حنان عشراوي قطعة ورقة صفراء انتزعها من كراسة مدرسية وكتب عليها فكرة خاصة بالضفة الغربية. قامت عشراوي بتغييرها تحريريـــا باليـــد، ذهـــب هيرشفيلد بها إلى بيريز الذي وافق على الفور على ما جاء فيها. ولكن عندما عاد هيرشفيلد إلى حنان عشراوي لم تقبل بالموافقة قائلة أن عليها أن تستشـــير أولا. ولم يستلم الإسرائيليون ردا لمدة أسبوع رغم محاولات هيرشفيلد الاتصال تلفونيا ثلاث مرات كل يوم.

ظهر أسامة الباز، أحد مستشاري الرئيس المصري حسني مبارك، فجأة في القدس ومعه عرض أفضل ومُجاز بوضوح من قبل ياسر عرفات الـذي كـان حريصا على أن يثبت أنه صاحب الكلمة الأخيرة وبإمكانه أن يتقدم للإسرائيليين بصفقة أفضل إذا ما كانوا مسعدين أن يخاطبوه هو مباشرة بدلا من التفاوض مع القيادة المحلية في الداخل. توصل الإسرائيليون في النهاية إلى نتيجة واحدة وهي إذا لم يتحاوروا مع فتح سيقفل عرفات الطريق أمام أي مجهود. الرد سيكون بـالنفي حتى وإن كانت القيادة المحلية موافقة وأجابت بنعم. ولذا فإنه من الضروري فتح قنوات خلفية للدفع بالموضوع إلى الأمام. وكان لزاما أن يظل الاتصال عن طريق قناة خلفية لأن الحكومة الإسرائيلية ليس بإمكانها الاعتراف بفتح.

لكي يتضح ما الذي يمكن الحصول عليه في المقابل. قال بيريز: "عرفات هو السطر الأخير.. فإذا لم نتصل مباشرة بياسر عرفات، فستظل المفاوضات تتحرك في 'محلك سر'".

حاول بيلين وهيرشفيلد القنوات الخلفية من قبل. فقد اقترحت عليهم حنان عشراوي عام 1989 استعمال ماكس فان دير ستول Max van der Stoel وزير خارجية هولاندا (عمال) السابق كوسيط. وحسب اقتراحه هو عقـد بـيلين وهيرشفلد محادثات تقاربية بينهم وبين فتح لمدة يومين في لاهاي. جلس الوفدان في فندقين مختلفين وقام فان دير ستول برحلات مكوكية بينما. لم يحققوا تقدما يذكر، ولكن العملية استمرت بفان دير ستول يجتمع ببيلين وهيرشفلد من حين إلى آخر لإعلامهما بما يجري من تطورات. واقترحـت حنـان عشـراوي أن يستعملوا كغطاء فكرة أن فان دير ستول يقوم بزيارة وزير الماليـة الإسـرائيلي خاصة وأن بيلين كان نائبا لوزير المالية في تلك الفترة. لم يفصح عن أمر هـذه المفاوضات ولكن عندما انكشف أمرها للحكومة الإسرائيلية طالب أحد الوزراء باستقالة بيلين ولكن بيريز رفض ذلك.

بمجرد أن بدأت عملية السلام رسميا في واشنطن بعد انعقاد مؤتمر مدريد في 1991، أخذ الإسرائيليون في البحث بجد عن قناة خلفية للتفاوض. في مايو/مايس 1992 التقى تيرخي رود – لارسن Terje Roed-Larsen ببيلين وعرض عليه أن

يرتب اجتماعا مع فيصل الحسيني أحد قادة فتح في الداخل. وتيرخي رود - لارسن هو مدير معهد العلوم الاجتماعية التطبيقية النرويجية Norwegian Institute of Applied Social Sciences وكان يقوم بدراسة عن الأوضاع المعيشية في غزة والضفة الغربية وكانت له صلات جيدة مع الجانب الفلسطيني. وبُعث هيرشفيلد في يونيو/حزيران 1992 ليوضح لرود - لارسن أن الإسرائيليين سبق لهم وأن اتصلوا مع الحسيني ولكن الحسيني حافظ على الاتصال برود - لارسن. وفي صباح اليوم نفسه الذي كان فيه هيرشفيلد يستعد للقاء فتح في لندن في ديسمبر/كانون الأول قرر أن يخاطر بإخبار رود - لارسن بأنه على وشك اللقاء في نفس ذلك اليوم بأبي علاء (أحمد علي محمد قريع) وزير الاقتصاد في فتح. عرض رود - لارسن استضافة الاتصالات في النرويج قائلا أن حكومة العمال الجديدة في النرويج ستغطي كل التكاليف وستوفر أماكن آمنة للاجتماعات.

هيرشفيلد تعهد شخصيا بترتيب قناة خلفية دون تكليف من الحكومة. وقد اختار أبا علاء محاورا ممتازا بعد أن اطلع على وثيقة أرسلها إليه دبلوماسيون أوروبيون كان أبو العلاء قد قدمها إليهم عن إنماء وتطوير الاقتصاد الوطني في الأراضي المحتلة. واعتقد هيرشفيلد بأنه وجد لغة مشتركه بينه وبين أبي علاء عن مواضيع الاقتصاد والتطور. كان لقاؤهما الأول في لندن في ٤ ديسمبر/كانون الأول 1992 في المحيط اللطيف لفندق كافيندش Cavendish بشارع جيرمان Germyn. وكان هيرشفيلد يود أن يستأجر غرفة خاصة للاجتماع ولكن لم تكن معه نقود فاكتفيا بالاجتماع في مقهى عام.

كان الاجتماع مخالفا للقوانين الإسرائيلية الذي تمنع اللقاء مع فتح. حزب العمال الإسرائيلي كان قد فاز في الانتخابات وتعهد بتغيير هذه القوانين، ولكن لأن المنع لم يرفع بعد، فلم يتمكن هيرشفيلد من طلب إذن السلطات بعقد الاجتماع. ويقول رون بونداك Ron Pundak، الذي التحق بهيرشفليد في ما بعد، أنهما لم يخبرا بيلين أيضا "لأننا لم نرد أن نضعه في موقف محرج". وكان هيرشفيلد صريحا للغاية مع أبي علاء في لندن ونتيجة لذلك فهو لا يمثل أحدا.

هُيء للاجتماع من قبل فيصل الحسيني وحنان عشراوي، وأخبرهما هيرشفيلد أنه سيكون في بيت قريبه بمنطقة إيست فينتشلي East Finchley بشمال لنـــدن في حالة ما إذا كان أبو علاء يرغب في الاجتماع به. يبدو أن أبـــا عـــلاء كـــان متحمسا للقاء، فقد اتصل بالتلفون أكثر من عشر مرات قبل أن يـــتمكن مـــن الحصول على هيرشفيلد والاتفاق على اللقـــاء في فنـــدق كافينـــدش. ذهـــب هيرشفيلد للاجتماع بمفرده، بينما صاحب أبا علاء عفيف صافية ممثل فـــتح في لندن. أبو علاء تمسك بخط فتح المعتاد، الذي بدا لهيرشفيلد بعيدا عن الحقيقـــة، فقال إن حكومة إسرائيل الجديدة ترغب في التقدم إلى الأمام وإنهاء الاحـــتلال، ولتحقيق ذلك فهي في حاجة إلى معادلة متفق عليها.

كان ذلك أول اجتماع لأبـــي علاء مع إسرائيلي وكان انطباعه جيـــدا. بينما كان انطباع عفيف صافية، الذي حضر اجتماعات كثيرة من هذا النـــوع، على غير ذلك. فقال لأبـــي علاء إن ما قاله هيرشفيلد لا يعني شيئا ونصحه بألاّ يجتمع مع هيرشفيلد مرة أخرى. كان هدف هيرشفيلد الأساسي هو أن يـــؤمن الحصول على اجتماع ثان، لكي يتمكن من الحصول على دعم رسمي للسير إلى الأمام بعملية المحادثات. وكان يعلم أن بيلين، صديقه ووزير الخارجية الجديـــد موجود في لندن، فبمجرد انتهاء الاجتماع انطلق إلى التشـــاور معـــه. أُعطـــي هيرشفيلد الضوء الأخضر لمواصلة الجهود وترتيب اجتماع ثاني في فندق الريتـــز Ritz في اليوم التالي.

لم يكن أبو علاء وهيرشفيلد يدركان أن من عادة فندق الريتز تنظيم حفلة "رقص الشاي" كل يوم بعد الظهر لزبائنه، فاضطرا إلى رفع أصواتهما حتى يمكن لأحدهما سماع الآخر في خضم موسيقي الأوركسترا والراقصين مـــن حـــولهم. وكشف هيرشفيلد عن حصوله على دعم بيلين الكامل، واقترح أن يـــدخلوا في مفاوضات ثنائية في النرويج. فالمفاوضات الرسمية الجاريـــة في واشـــنطن بـــين الإسرائيليين وفريق مفاوض فليسطيني من الضفة الغربية وغزة يمكن أن تســـتمر لمائة سنة دون إيجاد حل، وليس هذا بسبب الفيتو فقط الذي أعلنه شامير علـــى حضور فتح للمحادثات، ولكن المفاوضات السرية قد تؤدي إلى نتيجة ما. أُخذ

أبو علاء بهذا الأسلوب إلى حد بعيد، وسلم هيرشفيلد ورقة للنقاش غير رسمية من ثلاثين نقطة. قرأها هيرشفيلد بسرعة قائلا لا يستطيع أن يوافق حتى على نقطة واحدة منها، ولكن فكرة الحكومة الذاتية مسألة معروضة. هيرشفيلد يرغب في حوار عميق، وجاء رد أبي علاء: "يائير، مهما تطلب الأمر.. ومهما كانت مطالبكم منا.. فلا بد من أن نصل إلى اتفاق...".

هيرشفيلد على علم بخلفية أبي علاء ويعرف أنه كان مسؤولا على مفاوضات عديدة الجوانب، وكان يعلم أنه يحتاج إلى ضوء أخضر من ياسر عرفات في أي عمل يتولاه. كان عرفات يضع يده على كل التفاصيل، وكان على المسؤولين الحصول على توقيعه للحصول حتى على تذاكر سفرهم، ولهذا كان على يقين بأن هذا الحوار موافق عليه. كان عرفات محتاجا لهذه القناة الخلفية. لقد اختار عرفات الجانب الخطأ في حرب الخليج الأولى، وبعد هزيمة صدام حسين خسر عرفات دعم العالم العربي. وصل السعوديون إلى درجة عرض على فيصل الحسيني صكا على بياض ليبدأ في تكوين تنظيم مناوئ للحركة الفلسطينية، ولكنه رفض. و لم يتمكن عرفات من التحكم فيما يجري في المفاوضات الدائرة في واشنطن، كما أنه ليس في وسعه أن يترك الأمور في يد القيادة في الداخل. والإسرائيليون أيضا كانوا في حاجة لقناة خلفية. سنتان بعد مؤتمر مدريد في عام 1991 والمفاوضات في واشنطن أصبحت في خبيصة.

تكلم كل من أبي علاء وهيرشفيلد مع رود – لارسن قبل أن يتلاقيا. كلاهما كان يعلم أن رود – لارسن كان ينتظر في الاجتماعات على أحر من الجمر وكان مستعدا لاستضافتها في النرويج. وكان هيرشفيلد على علم بأن الحكومة الجديدة سترفع حظر الاتصال بفتح في يناير/كانون الثاني، وعليه اتفقوا على اللقاء في النرويج بمجرد تغيير القانون. في اليوم التالي التقي هيرشفيلد بدان كورتزر Dan Kurtzer، أهم شخصية أمريكية في لندن، ووضعه في الصورة. منح الأمريكيون دعمهم للقناة الخلفية. بعد عدة أيام من اجتماعات لندن أنهيت المفاوضات في واشنطن وجاء ذلك بعد اختطاف شرطي إسرائيلي وإلقاء رابين بخمسمائة من اتباع حماس في المنطقة المنعزلة على الحدود مع لبنان. كلا الطرفين

كان في حاجة إلى حوار سري من شأنه أن يعيد المحادثات الرسمية إلى مسارها الصحيح.

لم يخطر بعلم هيرشفيلد أن العملية التي بدأها ستنتهي في عشرة أشهر باتفاقية موقع عليها فوق أعشاب حديقة البيت الأبيض الخضراء وبحضور الرئيس بيل كلينتون Bill Clinton، ولكن راوده الانطباع أن أبا علاء سيبذل المستحيل من أجل أن تتم الصفقة. عندما التقى الجميع في واشنطن، عقب الانتهاء من معاهدة أوسلو، قال رئيس الوزراء رابين، وهو أكثر القادة الذين قابلتهم إثارة للإعجاب، أنه بينما كان يتقدم بخطوات مترددة لمصافحة عرفات: "لا يحقق الإنسان السلام مع أصدقائه، وإنما مع أعدائه". وفي كلمة ألقاها عام 1993، أوضح رابين ذلك بقوله: "كنت أعلم علم اليقين أن اليد التي امتدت إلى لتصافحني من أقصى المنصة هي اليد ذاتها التي كانت تمسك السكين، وهي اليد التي كانت تمسك البندقية، وهي اليد التي كانت تعطي الإشارة لإطلاق الرصاص بالقتل... ومن بين كل الأيادي في العالم، لم تك هي اليد التي كنت أود أو أحلم أن ألامسها... لطالما كنت أود أنني أوقع على اتفاقية سلام مع هولندا أو لوكسمبرج أو نيوزلندا... ولكن لم تكن هناك حاجة إلى ذلك كله. وهذا هو سبب وقوفي على تلك المنصة كممثل لدولة تريد السلام مع أقسى وأخس أعدائها".

بعد سنتين قتل رابين لأنه حاول تحقيق السلام. ويا ليت لو أن في العالم اليوم قادة لهم من الشجاعة والاستعداد بأن يخاطروا، بما خاطر به رابين، من أجل إنهاء صراعاتهم المسلحة.

الفصل الثالث

بناء القنوات

أسهل الأمور هو شجب فاعل الشر، وأصعبها هو أن تفهمه

فيودور دوستوفيسكي *Fyodor Dostoevsky*:
الشياطين *Demons*

ليس من الممكن أو من المعقول أن يقفز المرء من تقديم نفسه لزعيم من زعماء مجموعة مسلحة إلى التفاوض معه. فالحوار، وهو أمر مقبول ومعقول في جميع الأحوال، يختلف عن التفاوض، وهناك مراحل عدة يجب عبورها قبل أن يصبح التفاوض فكرة يمكن مجرد تخيلها.

يحدد أف دبليو دي كليرك، الرئيس السابق لجنوب أفريقيا، ثلاث مراحل للمفاوضات في جنوب أفريقيا من وجهة نظر الحكومة. **الأولى**: مرحلة الاستكشاف مع نلسون مانديلا وحزب المؤتمر الوطني الأفريقي في المنفى. **الثانية**: محادثات غير رسمية لإزالة المعوقات والتهيئة لمفاوضات قائمة على أرضية صلبة. أما **الثالثة** والأخيرة: مفاوضات رسمية تمثيلية تؤدى إلى وضع دستور جديد.

نيل بيرنارد، مدير جهاز المخابرات الوطني بجنوب أفريقيا National Intelligence Service، يرى أن هناك ست مراحل. **الأولى**: الاتصال وجمع المعلومات. **الثانية**: بناء الثقة. **الثالثة**: التعرف على مجال الفرص والخيارات. **الرابعة**: نقل العملية إلى قاعدة أوسع، تضم حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. **والخامسة**: رجوع المنفيين وترسيخ وقف إطلاق النار. بعدها فقط تأتي المرحلة **السادسة** وهي المفاوضات الرسمية المعلنة المؤدية إلى اتفاق سياسي.

بدأ يائير هيرشفيلد Yair Hirschfeld المراحل المختلفة لمفاوضاته مع فتح في اجتماعهم الأول عندما سلم أبا علاء ورقة منزوعة من دفتر تمرينات مدرسي عليها أربع قضايا مكتوبة باليد، وهي: تقصي الحقائق، وتفويض لعقد محادثات، وشرعية القناة، ومن ثم اختراق حاجز الصمت والانتقال من القناة الخلفية إلى المحادثات الرسمية على الجانب الإسرائيلي. وكان أبو علاء، عندما انطلقت المحادثات، يسأل هيرشفيلد بين الفينة والأخرى عما إذا كانت المحادثات انتقلت من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية. فقد خلقت الخطة قدرة ذاتية على التنبؤ بمراحل السير من داخل العملية نفسها.

يصف خوكوين بجالوبوس Joaquin Villalobos، أحد القادة المتمردين الرئيسيين العسكريين في الحرب الأهلية الدموية في السلفادور ما بين 1980 و1992، المراحل الثلاثة لعملية السلام هناك من وجهة نظر الجماعة المسلحة فيقول: "**أولا**: استعمال المفاوضات كوسيلة لدعم المجهود الحربي. **ثانيا**: استعمال الحرب لدعم المفاوضات. وبعد ذلك فقط تأتي المرحلة **الثالثة** والأخيرة وهي النقطة المركزية في المفاوضات حيث لم تعد الحرب بعدها ممكنة".

هناك عدة مراحل مختلفة باختلاف عمليات السلام، ولكن هناك دائما سلسلة من مراحل متباينة. فبعد الاتصال تأتي في المرحلة الثانية عملية تأسيس القناة التي يستطيع الطرفان عبرها أن يتواصلا في أمن ووضوح. ويقول العقيد مباي فاي Mbaye Faye، وهو ضابط من السينغال اشتغل لمدة عشر سنوات على الصراع في بوروندي، "أول ضحية للصراع هي الثقة"، ولذا يكون الهدف الأساسي في المحادثات هو بناء الثقة، واستيعاب المصالح الحقيقية للجماعة ومساعدتها على فهم أهدافها بشكل أفضل.

ويرى الأكاديمي الأمريكي دين برويت Dean Bruitt أن هذا النوع من الاتصالات "قد يتغلب على معظم الهواجس التي تجعل الأطراف المعنية (الحكومات والجماعات المسلحة) مترددة في الدخول في مفاوضات مفتوحة مع بعضهم البعض. فهو يسمح باستكشاف هادئ منخفض التكلفة لمدى مرونة الطرف الآخر ومدى مصداقيته. فاذا ما لم تُقابل التنازلات إلى أُعطيت من قبل

أيٍ من الطرفين عبر القنوات الخلفية فيمكن بسهولة نكرانها أو التملص منها ويعود كلٌ من الطرفين إلى موضعه الأصلي... ونظرا لأن المداولات من خلال هذه القنوات أيضا غير معلنة فإنها لا تضفي أي شرعية على مظالم الإرهابيين أو مطالبهم. وزيادة على هذا، فهناك خطر نسبي بسيط أن المتشددين سيكتشفون أمر هذه القنوات وعليه سيحاولون التشكيك في ثقة وصدق المسؤولين الذين شاركوا فيها".

عادة ما يتم تأسيس قناة سرية نيابة عن الحكومة في المقام الأول، من قبل رجال في جهاز الاستخبارات. فهم يملكون المهارات الضرورية للقيام بذلك في أمان، ويملكون القدرة على الإنكار عند الضرورة. كانت هناك قناة خلفية لدى الحكومة البريطانية مع الجيش الجمهوري الأيرلندي (آي آر أيه) منذ عام 1972 رغم أن الصراع الدموي استمر لمدة خمس وعشرين سنة أخرى. فبمجرد أن اندلعت الأحداث فتحت الحكومة البريطانية مكتبا لها في ضواحي بلفاست حيث السكان من الطبقة الوسطي أغلبيتهم بروتستانت، وهي لذلك آمنة، ووضعت فيه دبلوماسيين بريطانيين. وقام فرانك ستيل Frank Steele، الذي كانت تجربته السابقة في كينيا وبلاد أخرى أثناء تحولها نحو الاستقلال، بترتيب أول اجتماع بين الحكومة البريطانية والجيش الجمهوري والتي كان يمثلها دايثي أو كونيل Daithi O Conaill، رئيس الأركان، في بيت على الحدود مع مقاطعة دونغول Donegal بأيرلندا الشمالية. وضم الوفد الجمهوري شابا في الثالثة والعشرين يدعى جيري آدمز الذي أذن له بالخروج من معسكر الاعتقال لونغ كيش Long Kesh للمشاركة في اجتماع يونيو/حزيران 1972. ومن الغريب أن الجمهوريين أصروا على أن يحمل ممثلو الحكومة معهم رسائل من ويللي وايتلو Willie Whitelaw، الوزير البريطاني لشؤون أيرلندا الشمالية آنذاك، تشهد بهوياتهم وتفويضهم أن يتحدثوا نيابة عن الحكومة. وقد أحضروا معهم محاميا محليا ليقوم بالتأكد من صحة الرسائل. عرض الجانب البريطاني في هذا اللقاء عقد اجتماع بين الجمهوريين وويللي وايتلو مقابل وقف لإطلاق النار لمدة عشرة أيام. وأقيم خط تلفون مباشر بين الطرفين لتفادي أي سوء فهم في المستقبل. بعد الانتهاء

من هذه الأمور التفصيلية، اتجه النقاش إلى أحاديث عادية بهدف استدراج ممثلي الجمهوريين في الكلام. وكان ستيل مستغربا إذ اكتشف أن آدمــز "رجــل ذو شخصية جذابة، ذكي، يحسن التعبير، ومنضبط".. وكــان بوســعه أن يختــار الدراسة في الجامعة لولا أنه شعر بالحاجة إلى التخلص من البريطانيين أولا.

التقى الأشخاص و لم تلتق العقول في اللقاءات اللاحقة مع وايتلو في بيــت بول شانون Paul Channon في تشاين ووك Cheyne Walk في أوائل يوليو/تموز. طالب الجمهوريون بأن يغادر البريطانيون أيرلندا مع عام 1975، ولكن وايتلــو أوضح بكل صراحة أن ذلك غير ممكن. وفيما بعد كشف الجمهوريون عن هذا الاجتماع، وكان ذلك سببا في بث الرعب بين أوساط المجتمــع الاتحــادي في أيرلندا (المؤيد للاتحاد مع بريطانيا) وألحق بوايتلو شخصيا ضررا سياسيا حقيقيا. كما انهار وقف إطلاق النار مؤديا إلى أفظع حقبة في تاريخ الأحداث في أيرلندا الشمالية بما في ذلك (الجمعة الحزينة أو جمعة الآلام Good Friday) بعد أسبوعين من ذاك الاجتماع، وإعادة احتلال المناطق الممنوعة في بلفاست ودري من قبــل الجيش البريطاني في عملية موتورمــان Operation Motorman، أكــبر تحشــيد للجيش البريطاني منذ حرب السويس في عام 1956. وبعد شهرين فقــط مــن انهيار وقف إطلاق النار، تلقى فرانك ستيل إشارة من برنــدن دادي Brendan Duddy، وسيط من دري وصديق لرويرا أو براديخ Ruaira O Bradaigh رئيس شين فاين الجمهورية، طالبا منه الالتقاء به لأنه يحمل له رســالة مــن الجــيش الجمهوري. وقال له دادي أن هناك انقساما في الــ (آي آر أيه) بين العسكريين والجناح السياسي وأن الاتصالات مع البريطانيين ستساعد في تقويــة الجنــاح المعتدل.

بعد ستيل تولى مايكل أوتلي Michael Oatley في أبريل/نيسان 1973، وبدأ أوتلي يغامر بالدخول بنفسه إلى معاقل الــ (آي آر أيه) في غــرب بلفاســت، واضعا روحه على كفه. لم يطلب إذنا لذلك من أحد لعلمه أنه سيرفض. وقال: "يجد الإنسان نفسه يمشي على قدميه في الأماكن إلى يعبرها المسؤولون والجنــود في سياراتهم المصفحة.. وأنا أمشي على رجلي آملا في ألا أثير انتباه أحد. هناك

أناس كنت أود أن ألقاهم، وأناس زكاهم لي آخرون، وأناس يريدون السلام ولكنهم على صلة مع الـ (آي آر أيه)... هؤلاء لم يكونوا يجرؤون على مقابلتي ولذلك كان عليّ أن أخرج أنا لمقابلتهم". وفي أحدى المناسبات كان "يتحدث معي أحد المقربين لقائد عام سابق في الـ (آي آر أيه) وفي نهاية الاجتماع قال لي: 'بالله عليك لا تخبرنا متى ستعود، حتى لا نلام نحن على قتلك عندما يقتلونك'".

أوتلي هو الذي انتبه إلى إمكانيات دادي... رجل أعمال ناجح من دري وجمهوري أصيل ولكنه ضد العنف، وبدأ في رعايته واحتوائه. وحسب قول أوتلي كان دادي "قلقا أن لا أحد على استعداد لاحتضان الفكر السياسي لأولئك المنخرطين في العنف... وأنه كان يبحث عن حلقة وصل مع الحكومة البريطانية". كان الرجلان يجتمعان في بيت آمن في الجبال بالقرب من مدينة دري وكان كل منهما يحاول أن يثقف الآخر حول أفكاره السياسية.

فرض الطرف البريطاني حظرا على أي اتصال بالـ (آي آر أيه) نتيجة كارثة العلاقات العامة التي تسبب فيها اجتماع التشي ووك. دادي أخبر أوتلي أن الـ (آي آر أيه) من العادة كانوا محافظين على الأسرار وقتلوا أناسا لم يحافظوا عليها. وقال أنهم لم يستوعبوا الحاجة إلى الحفاظ على سرية اجتماع تشيلسي، ولكن إذا ما أعيد الاتصال بهم من جديد سيحافظون على سرية العقد. فقد كانت حلقة الوصل معهم سرية في الواقع لدرجة إن جود دادي أخفاها على وزير أيرلندا الشمالية الجديد ميرلن ريس Merlyn Rees. ذهب أوتلي لمقابلة فرانك كوبر Frank Cooper، السكرتير الدائم في مكتب أيرلندا الشمالية، وقال له أنه كوّن "انبوبة خيزرانية" بينه وبين أو برايديخ. وقال إن "الأنبوبة ممسوكة بيد دادي.. ولم أفصح لك بشيء لأنه غير مسموح لنا بالتحدث إلى الـ (آي آر أيه).. لكني إذا قلت بف بف عند نهاية الأنبوبة فيمكنه الشعور بوجودي، وإذا قال هو بف بف عند النهاية الأخرى فسأشعر به، وهكذا يحس الواحد منا أن الآخر موجود. والآن، بما أننا نمتلك هذه الأنبوبة فهل نستطيع ارسال بعض المعلومات عبرها لكي تتحول إلى علاقة أو حوار؟".

تحصل كوبر على موافقة رئيسة الوزراء تاتشر وبدأوا في توفير بعض المعلومات، كتاريخ إطلاق سراح شخصيات ذات مكانة عالية في الـ (آي آر أيه)، مثلا، معتقلة لتعطي دفعة دعم 'للحمائم' في القيادة. وهكذا فقد حافظوا على هذه الوسيلة تعمل على هذا المنوال لعدة أشهر.

ويقول دادي "تدريجيا أصبحت العلاقة بيني وبين أوتلي ودية"، وأصبح دادي الوسيط الذي يعتمد عليه أكثر من غيره. تخلت الحكومة البريطانية عن قناتين أخريين مع الـ (آي آر أيه) كانتا موجودتين ورفضت قنوات أخرى كانت معروضة عليها. فرغم أنه من المعقول محاولة تجريب أكثر من طريق للتواصل مع الجماعة المسلحة في البداية للتعرف على أيها أكثر تأثيرا وفاعلية، إلا أنه من المهم بمجرد تحديد القناة الأنفع أن تقفل كل القنوات الأخرى لتفادي أي تداخل بين القنوات.

حافظ أوتلي على القناة مفتوحة حتى بعد أن غادر أيرلندا الشمالية. واستمر في اللقاء مع دادي ومخاطبته بالتلفون من حين إلى آخر رغم الأمر الصادر عن روي مايسون Roy Mason، خليفة ميرلين رييس كوزير لشؤون أيرلندا الشمالية، بمنع أي اتصالات مباشرة أو غير مباشرة. وافق أوتلي أن يقوم دادي بإخبار قادة الـ (آيَ آر أيه) الجدد ليضعهم في الصورة، بمن فيهم مارتين ماغينيس، حول وجود القناة وإعلام ماغينيس أنها يمكن أن تُفتح من جديد في أي وقت يرغبون أو حيثما كان أوتلي في العالم. وانطلقت القناة للعمل من جديد في فترة الإضرابات عن الطعام في عام 1980 عندما اتصل دادي تلفونيا بأوتلي في لندن في آخر الليل وأخبره عن طريقة لحل الموضوع قبل وفاة أول المضربين عن الطعام. وذهب أوتلي لمقابلة السكرتير الدائم الذي سعى بدوره للحصول على موافقة السيدة تاتشر. طار أوتلي إلى بلفاست مسلحا بإذن السيدة تاتشر وقابل دادي والأب ميغر Father Meagher، ساعي البريد مع سجناء الـ (آي آر أيه)، في صالة الوصول الخالية بمطار أولدغروف Aldegrove وسلمهم وثيقة تحتوى على قائمة تنازلات الحكومة على استعداد أن تقدمها. نتيجة لذلك أُلغي أول اضطراب عن الطعام، ولكن – وبكل أسف

- انهار الاتفاق وأسفر الإضراب الثاني عن عدة وفيات وساءت حالة العنف.
في عام 1991 عادت القناة إلى العمل من جديد والتقى أوتلي بمارتن ماغينيس قبيل تقاعد أوتلي من جهاز المخابرات الخاص (أس آي أس SIS). وأسفر اللقاء عن بداية عملية تبادل الأسرى مع رئيس الوزراء جون ميجر التي أدت أخيرًا إلى وقف إطلاق النار مع الـ (آي آر أيه) في عام 1994.

أسست القناة في حالة أيرلندا الشمالية منذ البداية واستمرت فعالة لمعظم الوقت أثناء الصراع. وتأخذ القنوات، في الأغلب، فترة طويلة للتأسيس والتطوير، وتعتورها مطبات عديدة على الطريق. في الحرب الأهلية في السلفادور اجتمع ائتلاف من خمس جماعات مسلحة، يتكون من شيوعيين إلى مسيحيين ديمقراطيين، في مؤتمر لمدة أسبوعين في ماناغوا Managua بنيكارغوا في سنة 1980. ورفض قائد مجموعة قوات التحرير الشعبية Popular Liberation Forces-FPL الشيوعية، سيلفادور كاياتانو كاربيو Salvador Cayetano Carpio، الذي وصفه فيديل كاسترو Fedal Castro بأنه "هُو تشي منّه Ho Chi Minh أمريكا اللاتينية"، قبول اندماج المجموعات إلا إذا كانت موافقة على تسمية الحركة الجديدة على اسم الزعيم الشيوعي الذي برز في الثلاثينيات من القرن الماضي فرابوندا مارتي Farabunda Marti. تلقى كاربيو تدريبه في معهد لاهوتي ثم في موسكو أيام ستالين.. ولا جرم أنه تبنى حياة لا تعرف إلا لونين: الأبيض والأسود.

كان خوكوين بجالوبوس زعيم جيش الشعب الثوري People's Revolutionary Army-ERP، وهي مجموعة تابعة للحركة المندمجة المعروفة باسم جبهة فرابوندا مارتي للتحرير الوطني Farabunda Marti National Liberation Front-FMLN، وهو شخص ذو همة عالية وله طاقة عصبية ومشهور بأعماله العسكرية الجريئة. في عام 1984 نصب فخا للمقدم دومينجو مونتيروسّا Domingo Monterrosa، قائد القوات الخاصة المعروفة باسم كتيبة أتلاكاتل Atlacatl Battalion التابعة للجيش السلفادوري، الذي كان مهووسا بمحطة إذاعية تابعة للمتمردين تسمى راديو بينسريموس Radio Venceremos. ونقل عنه

بعض زملاء مونتيروسّا أنه قال: "طالما أننا غير قادرين على التخلص من إذاعة بينسريموس، سنظل نعاني دائما من وجود عقرب في مؤخرتنا". وكان مونتيروسّا الشخصية المحورية في كثير من المذابح الوحشية، ولاحظ بيلالوبوس أنه دائما يأتي شخصيا لتفحص ما يغتنمه الجيش من مواد من العصابات المتمردة، بما في ذلك النموذج المجسم الجغرافي الصغير الذي استعمله المتمردن للتخطيط لأحدى الهجمات. وعليه رتب بيلالوبوس أن يترك جهاز الإرسال الأصلي لإذاعة بينيريموس مهملا بالقرب من المدينة التي يقوم فيها مونتيروسّا بعملياته. وبعد أن عثر عليه بعض جنوده في إحدى المقابر وأخبروا زعيمهم، فأراد مونتيروسّا أن يوثّق الغنيمة، وأرسل إلى فريق تلفزيوني لكي يأتي لتصوير الحدث. كانت الغنيمة ضربة دعائية من الطراز الأول، ورتب مونتيروسّا أن تؤخذ إلى سان سالفادور على متن طائرة مروحية من نوع هويئي Huey الأمريكية المجهزة حديثا. وبينما أقلعت الهوائية كان المتمردون يراقبون من على مرتفع شمال غربي المدينة. وبعد أن أقلعت بقليل وجه المتمردون جهاز التحكم عن بعد إلى المروحية وضغطوا على الزر. لم يحدث شيء فأصابهم الارتباك. وعندما أقلعت مروحية ثانية وضغطوا على الزر للمرة الثانية تحولت المروحية فجأة إلى كتلة من النيران. وهكذا، زرع المتمردون مادة متفجرة في جهاز الإرسال الإذاعي للقضاء على مونتيروسّا.

خلال فترة الثمانينيات ظل موضوع: نفاوض أو لا نفاوض محل جدال بين المشاركين في حروب العصابات، وكان كاربيو معارضا للتفاوض. وفي عام 1982 التقي زعماء الجماعات المختلفة التي تتكون منها جبهة فارابوندو مارتي للتحرير الوطني (أف أم أل أن) في كوبا في محاولة لفض الخلاف نهائيا في هذا الموضوع. ووصف بيلالوبوس اللقاء بأنه كالذهاب إلى الفاتيكان للفض في مسألة عقائدية... ولا أحد يستطيع أن يناقش البابا في ذلك، والبابا في هذه الحالة هو كاسترو. جلس خمسة عشر من زعماء (أف أم أل أن) إلى جانب من طاولة في أحد مكاتب الحكومة في هافانا، وجلس إلى الجانب الآخر كاسترو ومساعدوه. وقف كاستروا وأخذ يقرأ من وثيقة تحمل نص موقف الداعمين

للتفاوض الذي كان كاستروا يريد أن يتبناه الحاضرون. أما كاربيو، الذي كانت نيته الرجوع إلى السلفادور والقيام بصراع عنيف على السلطة داخل الـــ (أف أم أل أن)، قال إنه يحتاج إلى 'استشارة القاعدة'. أصر كاسترو أن يوقع إلى الوثيقة مباشرة. اجتاح الصالة توتر شديد. وهنا استأذن كاربيو أن يذهب إلى الحمام، وظن بيلالوبوس أن كاربيو قد ينتحر. ولما عاد من الحمام ظهرت على كاربيو علامات الجدية وواصل محاولة المقاومة ولكن كاسترو أصر أن يوقع الوثيقة قبل أن يتحرك من مكانه. لم يكن أمام كابيرو إلا أن يرضخ للأمر، وكانت إهانة كبرى بالنسبة له.

رضخ كاربيو ولكن الجدال استمر داخل الـــ (أف أم أل أن) مع الشخص الثاني في القيادة وهي آنا ماريا Ana Maria، التي تعارض رأيه وتدعم المفاوضات. الاسم الحقيقي لآنا ماريا هو مليدا آنايا مونتيس Melida Anaya Montes وهي أستاذة اعتقلت وعذبت على يد السلطات الأمنية قبل أن تلتحق بالعصابات المقاتلة. عثر عليها مقتولة في بيتها في ماناغوا يوم 6 أبريل/نيسان عام 1983 مطعونة ثماني طعنات بآلة كسر الجليد. ولتشويش الصورة أكثر حاول قاتلوها أن تظهر الجريمة وكأنها من فعل القوات الخاصة السلفادورية، ولمزيد من التمويه تركوا قفازات ملطخة بالدم في بيت لجماعة بيلالوبوس المعروفة باسم (إي آر بي) People's Revolutionary Army وبالإسبانية باسم *Ejército Revolucionario del Pueblo*، في محاولة لتوريطهم في الجريمة كذلك. أما كاربيو فرتب أموره على أن يكون في ليبيا لجلب السلاح في نفس الوقت الذي ارتكبت فيه الجريمة ليوفر لنفسه الغطاء المطلوب. قامت سلطات نيكاراغوا بالتحقيق في الأمر وأعترف أحد جماعة كاربيو وكان كاربيو قد عاد إلى البلاد. وقامت الشرطة بتطويق بيته في ماناغوا ودخل أحد ضباط كاسترو المكلف بدعم كوبا لحركات العصابات، مانويل بينيرو Manuel Pinero، للتحدث إليه. غادر مانويل بعد نصف ساعة وقام كاربيو على ما يبدو بإطلاق الرصاص على نفسه، رغم وجود آراء أخرى تقول بأنه أعدم من قبل السلطات في نيكاراغوا أو من قبل أعضاء

في منظمة (أف أم أل أن). وترك كاربيو وراءه رسالة تحث على استمرار الثورة.

حتى عندما تقرر جماعة مسلحة أنها تريد الحوار، الأسلوب والطريقة المتبعة عادة هي وجود سلسلة من المحاولات الفاشلة لتأسيس قناة ناجحة مرة ثانية فقط. فمنذ الثمانينات، مثلا، بذلت جهود كثيرة للجمع بين طرفي النزاع في السلفادور. ويذكر بيلالوبوس مسؤولا ألمانيا مقربا إلى المستشار السابق ويللي برانت اسمه هانس يورجان فيشنوسكي Hans-Jurgan Wischnewski، الذي سبق وأن توسط مع مجموعة الجيش الأحمر Red Army Faction عام 1977، ثم شارك فيما بعد في نيكاراجوا ولبنان وصار يقوم برحلات مكوكية بين الطرفين نيابة عن منظمة الاشتراكية العالمية Socialist International في عام 1980. وكان كاربيو قد 'فقد' الوثيقة الرئيسية التي جاء بها فيشنوسكي إلى منظمة (أف أم أل أن) والتي ظهرت بطريقة غامضة في أيدي جيش السلفادور ومعها وثيقة أخرى من كاربيو، لم يتشاور حولها مع الجماعات الأخرى، توحي بأن التوسط الدولي ليس إلا مناورة تكتيكية. عندما عاد فيشنوسكي للاجتماع بخوسيه نابوليون دوارتي Jose Napoleon Duarte، الذي كان آنذاك رئيس الدولة تحت الجونتا أي الزمرة العسكرية الحاكمة، كان الرئيس قد اطلع على وثيقة كاربيو والتي كان تأثيرها أنها سحبت الثقة تماما من عروض السلام الألمانية. وقال دوارتيه لفيشنوسكي أنه أصبح مستعملا من قبل المتمردين، وذهب الألماني من سان سالفادور مباشرة إلى كوبا ليقدم شكواه. طالب كاسترو أن يعرف ما جرى، واعتذر زعماء منظمة (أف أم أل أن) عما حصل قائلين أنهم لم يكونوا على علم بوثيقة كاربيو.. ولكن هذا جاء بعد فوات الأوان لإعادة الحياة في العملية من جديد.

في عام 1984 سافر الأسقف إيميليو لورينزو ستاهل Emilio Lorenzo Stahle من الإكوادور إلى جبال السالفادور يحمل رسالة من دوارتيه لزعماء العصابات المسلحة. وأخبرهم بأن الرئيس وافق على برنامجهم السياسي ويعرض حلّ فرق الاغتيالات اليمينية، وأنه يسعى للتوصل إلى حل سياسي للصراع. لكن

العصابات المسلحة أصابها الشك في أن دوارتيه لديه السلطة أن يكبح جماح الشرطة والقوة العسكرية، و لم تؤد المحادثات إلى أي نتيجة.

بعد انتخابه رئيسا في عام 1984 أعلن دوارتيه أنه سينهي الحرب الأهلية "بحوار بدون سلاح" وعرض على المتمردين أن يجتمعوا داخل البلاد. قبل المتمردون العرض، واقترحوا مدينة لا بالما La Palma على بعد خمسة وأربعين ميلا عن العاصمة وفي وسط المنطقة التي تجرى فيها عملياتهم، وحيث لا يسافر مسؤولو الحكومة بدون مرافقين عسكريين. أعلن دوارتيه أنه سيذهب هناك مجردا من السلاح، وقطع مئات الأمتار الأخيرة سيرا على الأقدام إلى الكنيسة حيث عقد الاجتماع. بمجرد وصوله هناك وقفت ثلاث سيارات تابعة لمنظمة الصليب الأحمر حاملة زعماء العصابات المقاتلة في ملابسهم العسكرية. توصل الفريقان لاتفاقية بعد أربع ساعات ونصف وظهر الأسقف ليقرأها على الحاضرين. ولكن قبل الاجتماع المكمل قامت مجموعة قوات التحرير الشعبية (أف بي أل) Popular Liberation Forces-*Fuerzas Populares de Liberacion*-FPL باختطاف إنيس Ines ابنة الرئيس، فانشغل الرئيس بالمفاوضات في الأشهر اللاحقة لإخلاء سبيلها مقابل إطلاق سراح 126 سجينا من سجناء (أف أم أل أن). المحاولة التالية للوصول إلى تحقيق السلام انتهت إلى نتائج عكسية. فدوارتيه وبيلالوبوس كانا على وشك أن يجتمعا في مدينة سيسوري Sesori بالقرب من الحدود مع هندوراس، ولكن في آخر لحظة استولى الجيش على المنطقة ليمنع انعقاد الاجتماع. وظهر دوارتيه في حالة من اليأس على راديو الموجة القصيرة ليعلن أنه ما زال على استعداد للاجتماع لكن الوقت قد فات.

في عام 1986 نجح دبلوماسي بريطاني في مدينة المكسيك في الاتصال مع (أف أم أل أن) بمساعدة أحد المثقفين المكسيك خورج كاستانيدا Jorge Castaneda الذي قدمه إلى سالفادور سامايو Salvador Samayoa وهو شخص قيادي في مجموعة (أف بي أل)، دمث، في منتصف الثلاثين من العمر، ويتمتع بروح فكاهية جافة. سامايو كان محاضرا في مادة الفلسفة في الجامعة الأمريكية

المركزية اليسوعية Jesuit Central American University في سان سلفادور ووزيرا للتعليم لفترة قصيرة قبل التحاقه بالمتمردين بعد أن أرعبه ما رآه من التشدد الإجرامي لليمين المتطرف. والآن هو وزير خارجية المتمردين غير الرسمي.

أول اجتماع بين الرجلين عقد في أمسية شديدة الرطوبة في الهواء الطلق في مقهى عام بمدينة ماناغوا. سامايو كان متوجسا في البداية من الاتصال مع المسؤولين البريطانيين، نظرا لعلاقة بريطانيا بالولايات المتحدة، ولكنه قدر أنه نظرا لأن الاتصالات المباشرة مستحيلة فلربما هنالك جدوى في الحوار مع حكومة مقربة من واشنطن. وكذلك كان الدبلوماسي البريطاني مغامرا لأنه لم يحصل على تفويض للالتقاء بممثلين عن (أف أم أل أن)، ولكنه كان يرغب في السعي وراء فكرة حل تفاوضي للنزاع القائم. واتفق الطرفان بعد عدة أشهر من الاجتماعات، أغلبها في مدينة المكسيك، على الاستمرار في استكشاف احتمال أن تستضيف الحكومة البريطانية محادثات السلام بين (أف أم أل أن) والجيش السلفادوري – أي محادثات "جيش جيش" كما وصفها سامايو – في بيليث Belize.

كان تفكيرهم يدور حول إمكانية جلوس القوتين وجها لوجه، وإذا تم ذلك فسيكون من الصعب على أطراف أخرى مثل حزب الائتلاف الجمهوري الوطني (أرينا Nationalist Republican Alliance-*Alianza Republicana* *Nacionalista*-ARENA السياسي اليميني أن يفسد المحادثات. وبعد عدة تبادلات أعدت (أف أم أل أن) مسودة مذكرة وقع عليها شفيق هاندل Schafik Handal، الزعيم الجديد لمجموعة (أف بي أل) الشيوعية المنبثقة عن (أف أم أل أن) كأساس لمناقشات مقبلة. عند هذه النقطة قررت الخارجية البريطانية عدم الاستمرار في هذه المبادرة بحجة أنها ستُستقبل استقبالا سيئا في واشنطن التي كانت لا تزال تعتقد أنه يمكن هزم (أف أم أل أن) عسكريا.

رغم كل الإخفاقات، في السلفادور وغيرها، إلا أنه بمجرد تحقيق الاتصال فالخطوة الأولى بعد ذلك أن يكون المرء على استعداد للاستماع إلى الطرف

الآخر وأن يعامله بكل احترام. وكما قال وزير الخارجية الأمريكية السابق دين رسك Dean Rusk: "أفضل الطرق لإقناع الآخرين هو عبر آذانك – أن تستمع إليهم". وهناك حاجة للاستماع بدرجة كبيرة. كنت في أيرلندا الشمالية أمزح وأقول إننا يوم أن نقطع اجتماعا مع إحدى الجماعات بعد نصف ساعة نكون قد وصلنا إلى عام 1689 ويبقى أمامنا ثلاثة قرون من المظالم نحتاج إلى البث فيها. ويقول يوري سافير Uri Savir كان "كلا الفريقين يعتبر نفسه هو الضحية" في الصراع العربي الإسرائيلي، وكان يصر على التعبير عن ما وقع عليه هو من ظلم وإجحاف، في الوقت الذي يتجاهل فيه كل ما وقع على الطرف الآخر.

كان الاستماع هو العمود الفقري في القناة غير الرسمية، بين المؤتمر الوطني الأفريقي في المنفى والمثقفين من الأفريكانا البيض، التي أسسها مايكل يونج Michael Young عام 1987. وكان يونج رئيس شؤون الشركات في شركة كونصولاداتد جولدفيليدز Consolidated Goldfields، وهي شركة تعدين مقرها لندن ولها مصالح واسعة في جنوب أفريقيا. وكان يونج مستشارا سياسيا لإدوارد هيث Edward Heath، رئيس الوزراء البريطاني السابق، ولأليك دغلاس هيوم Alec Douglas-Home، رئيس الوزراء السابق أيضا، ومختصا بقضايا جنوب أفريقيا. ذهب يونج إلى أولفر تامبو، رئيس المؤتمر الوطني الأفريقي، في أعقاب اجتماع عام ليسأله ما الذي بإمكان قطاع العمل التجاري المساهمة به في حل النزاع في جنوب أفريقيا. أمسك تامبو بيد يونج وسرح بنظر في الفضاء البعيد قبل أن يقول له: "أود أن تساعدني في بناء جسر مع بريتوريا Pretoria (مقر حكومة جنوب أفريقيا) لأني لا أظن أن بوسعي التعرف على الإشارات عندما ترسل.. إننا نحتاج إلى قناة اتصال لا تكون ميكروفونا ولا مكبر صوت عبر وسائل الإعلام، لكنها أداة اتصال مباشرة وشخصية بقدر الإمكان". كانت هناك عدة لقاءات رفيعة المستوى بين شخصيات جنوب أفريقية بيض من أصول إنجليزية ذات اتجاه ليبرالي وأعضاء من المؤتمر الوطني الأفريقي في داكار Dakar ولوساكا Lusaka في منتصف الثمانينيات، ولكن لم تكن هناك اتصالات جادة مع أفريكانا يمثلون الاتجاه العام في البلاد. إن إقناع شخصيات أعضاء في

بروداربوند Broederbond، تلك الجمعية الخاصة بالأفريكانا المنظمة على تقاليد المحافل الماسونية، بالاجتماع سرا في إنجلترا مع أعضاء المؤتمر الوطني الأفريقي في المنفي من أجل "محادثات حول محادثات حول محادثات" كان يعتبر فكرة جريئة.

عقد أول اجتماع في مكان غير لائق في الطابق تحت الأرضي في حانة تسمي كومبليت أنجلار Compleat Angler في نقطة نائية بالقرب من مدينة مارلو Marlow على ضفاف نهر التيمز البريطاني، 33 ميلا غرب لندن، في نوفمبر/تشرين الثاني عام 1987. وصل إلى المكان ثلاثة أكاديميين من جامعة ستالينبوش Stellenbosch University، جنوب كيب تاون في جنوب أفريقيا، أعضاء وفد الأفريكانا، في موقف للسيارات في انتظار الوفد المشارك من حزب المؤتمر الوطني الأفريقي، في سيارة ليموزين فخمة جدا سوداء بسائقها الخاص. وبمجرد نزولهم من السيارة بادر عزيز باهاد Aziz Pahad، رئيس وفد المؤتمر الوطني الأفريقي، بتحية الأكاديميين الأفريكان في محاولة لتذوب الجليد وسألهم عن شمس جنوب أفريقيا التي افتقدوها بمجيئهم إلى خريف إنجلترا البارد وضبابها.

كان الفريقان في توتر. ضم وفد المؤتمر الأفريقي هارولد وولب Harold Wolpe، الشيوعي الذي نفذ عملية هروب مثيرة من السجن عقب محاكمة ريفونيا Revonia Trail الشهيرة في الستينيات وأعتبره الأفريكان 'الشيطان الرجيم'. افتتحت الجلسة الرسمية على استحياء وبدون جدول أعمال محدد، كلا الفريقين متردد ينتظر الآخر ليبدأ الحديث في موضوع محدد. من حسن الحظ أن كانت هناك فترات راحة متسعة للاختلاط جانبيا وتبادل الأحاديث الخاصة عن تجاربهم وحياتهم الشخصية. واكتشف أحد الأكاديميين، وهو ويللي إسترهوس Willie Esterhuyse، أن بينه وبين باهاد معارف وتجارب مشتركة.

بعَيد الموافقة على المشاركة في الحوار، استُدعي ويللي إسترهوس إلى جهاز المخابرات الوطني National Intelligence Service في بريتوريا. جاء إلى باب بيته رجلان وقالت له زوجته "يظهر أنهما رجال شرطة أمن، فاحذر ماذا تقول". أخبر أعضاء جهاز المخابرات ويللي إسترهوس أن الجهاز يريد من ويللي أن يكون عيونهم وآذانهم في الحوار مع المؤتمر الوطني الأفريقي. أعطوه اسما مستعارا

- 'جيرت Gert' - وقيل له عليه ألا ينبس ببنت شفة حول مهمته هــذه حــتى لأقرب أصدقائه. وعندما تساءل عن سر كل هذه الاحتياطيات الأمنية قيل له أنها ليست لحمايته ضد المؤتمر الوطني الأفريقي ولكنها لحمايته ضد مجموعة 'القمصان السمراء' المزروعين في نظامهم. وهكذا أصبح ويللي وســيلة اتصــال جهــاز المخابرات مع تامبو إمبيكي وغيره من زعماء المؤتمر في المنفي خــارج جنــوب أفريقيا.

رغم أن إمبيكي لم يحضر الاجتماع الأول إلا أنه أتى إلى الاجتماع الثـاني في فدق إيستويل مانور Eastwell Manor بمقاطعة كِينــت Kent الإنجليزيــة في فبراير/شباط 1988. واستغل إسترهوس أول فرصة كانا فيها على انفراد ليخــبر إمبيكي بدوره الذي كلفه به جهاز الاستخبارات الجنوب أفريقي. وأضاف أنــه لم يخبر مايكل يونج أو أي من المشاركين الآخرين. أصاب إمبيكــي، بطبيعــة الحال، شيء من الشك، وظل ينفث في غليونه ويشعله مرة تلو الأخرى، لكسب الوقت ريثما يرتب أفكاره ثم سأله: "تعلم بالتأكيد أنك تخاطر بإخبــاري بهــذا الأمر؟ لماذا تفعل هذا؟". ووضح إسترهوس أنه يتعقد أن عدم إخبــار إمبيكــي يجعل الخطر أكبر. لقد كان واضحا له أن إمبيكي كان يبحث عن قنــاة مــع بريتوريا منذ فترة، لكنه كان هدفا للنقد من قبيل زملائــه في المــؤتمر بســبب المشاركة في الجلسات. فقد استغل كريس هــاني Chris Hani، القائــد العــام للجناح العسكري للمؤتمر الوطني الأفريقي، أومخونتو وي سيزوي Umkhonto We Sizwe-MK، اجتماعا تنفيذيا للمؤتمر الوطني الأفريقي تزامن مع الاجتمــاع المنعقد في كينت، للهجوم على إمبيكي في أن يسمح لنفسه بالاتصــال بمثقفــي الأفريكانا بدون تفويض أو تشاورات مسبقة. ويقول عزيز باهاد: "كان لــدى البعض إحساس بأن الذين اختاروا الحديث مع الطرف الآخر قــد أصــبحوا في عداد المنخرطين مع ذلك الطرف ومتهمين بأنهم قد باعوا القضــية"، ولكنــهم كانوا محميين بوجود أوليفر تامبو.

ومع اللقاء الثالث، الذي انعقد في أغسطس/آب 1988، انتقلــت العمليــة برمتها إلى مقرها الدائم في بيت ضخم من الطراز اللوتينس فخم في منطقة ميللز

بارك Mells Park بالقرب من مدينة باث Bath الشهيرة على بعد 156 كيلومترا غرب لندن، تملكه شركة كونصولداتد غولدفيلدس. حضر الاجتماع هذه المرة ويمبي Wimpie أخو الرئيس أف دبليو دي كلارك، وأصبح محط اهتمام المشاركين من المؤتمر الوطني الأفريقي في ذاك الاجتماع والاجتماعات اللاحقة. سأله إمبيكي عن الاتجاه الذي سيأخذه أخوه عندما يستلم منصبه، فأجابه أنه من وجهة نظره سيكون اتجاهه محافظا. وذكر ويمبي فيما بعد أنه قدم لأخية نبذه عن الاتصالات مع حزب المؤتمر الوطني الأفريقي فحواها: "زبدة رسالتي إليكم هي: 'شوفو يا أولاد.. كل شيء على ما يرام. نحن بإمكاننا أن نتعامل مع المؤتمر الوطني الأفريقي. فهو ليس راديكلي إلى هذه الدرجة. ولديهم رغبة في التفاوض والوصول إلى حلول وسط. إنهم يرون الأفريكانا كجزء من أهل جنوب أفريقيا. فهم ليسوا بتلك الخطورة التي تتصورها'".

لم يُنجز شيء محدد في تلك الاجتماعات، ولكن ذلك كان هو الغرض منها. فالهدف كان هو بناء الثقة وتأسيس قناة تتبادل من خلالها الرسائل بين حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في المنفى والحكومة في بريتوريا. فالجلسات الرسمية لم تكن بذات الأهمية كاللقاءات والجلسات المسائية حول نار هادئة في غرفة المكتبة. وكما عبر عنها مايكل يونج فقال: "كنت بين الفينة والأخرى أتركهم على انفراد بصحبة قارورة نبيذ من نوع غلين فيدك. كانوا لا يتباحثون في أمور رسمية، ولكن كل الذي كانوا يفعلوه هو التعرف على بعضهم البعض... ما هو - يا ترى - مدي تسامح أحدهم الحقيقي مع الآخر.. لماذا هذا الأمر مقبول وهذا غير مقبول". لقد سمع إسترهوس ما قاله المفاوض الأمريكي تشستر كروكر Chester Crocker عن دور العامل البشري الحاسم في محادثات نامبيا. اكتشف المفاوضون هناك أنه بإمكانهم إن يثق بعضهم في بعض، وأن فان دونيم Van-Dunem، وزير العدل الأنغولي وأستاذ القانون سابقا، كان يتكلم مع الأفريكانا على الطرف المقابل باللغة الهولندية. وصف نيل بيرنارد العملية فيما بعد بقوله: "إن كان همك بالفعل هو التفاوض فعليك أن تبدأ بتوضيح خاص لمواقف كل من الطرفين، والطرق التي من شأنها أن تحل العقد أو المآزق

الاستراتيجية التي تعرقل التقدم. إنها عملية بطيئة، والصبر فيها أهم من الشهرة".

في مايو/مايس 1989 اتصل أحد رجال جهاز الاستخبارات الوطني بإسترهوس وطلب منه السفر إلى لندن للالتقاء مع إمبيكي بصورة شخصية. ويجب ألاّ يعرف أحد ما الذي دار بينهما. وكانت الرسالة التي حملها هي أن جهاز الاستخبارات الوطني يريد أن يشرع رسميا في محادثات مع حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. وأنهم يريدون الحصول على رقم تلفون لإمبيكي وسوف يتصل به شخص باسم حركي هو جون كامبيل John Campell، وأن الاسم الحركي لإمبيكي سيكون جون سيميلين John Semelane. اتصل إسترهوس بمايكل يونغ ورتب لقاء مع إمبيكي في مكتب شركة توباكو البريطانية الأمريكية British American Tobacco حيث يعمل مايل يونج في ذلك الوقت. حيا يونج الرجلين وتركهما على انفراد في غرفة الاجتماعات. قدم إمبيكي الشاي لنفسه ولضيفه وجلسا يتبدلان الحديث. بعد فترة أصاب إمبيكي الملل فسأل جليسه: "ما الذي جاء بك؟ أراك تتحدث عن مواضيع سبق لنا وأن تطرقنا إليها". لقد حذر جهاز المخابرات إسترهوس بألا يوصل الرسالة لإمبيكي في مكان ربما تكون فيه أجهزة تنصت، وجاء إسترهوس يحمل مذكرتين مكتوبتين. تقول إحداهما 'للحائط آذان' والأخرى موجهة إلى إمبيكي تخبره أن رجلا على مستو عال في الجهاز سيتصل به ليناقش احتمال إجراء محادثات في المستقبل، "ويطلبون رقم تلفون مضمون وآمن ليتصلوا بك". سلم إسترهوس المذكرتين لإمبيكي وذهب إلى دورة المياه، وعندما رجع غادر الاثنان مبني الشركة وتصافحا ثم ذهب كلٌ في طريقه. وبعد فترة قصيرة التقيا مرة أخرى في حانة ألبيرت Albert على طاولة في الزاوية. أعطى إمبيكي لإسترهوس رقم التلفون وسأله: "كيف لي أن أعرف أن العمية ليست فخا لي؟". حاول إسترهوس طمأنته وذكره للمرة الثانية بالاسم الحركي وحياه مودعا. وفي المساء ذهب لمشاهدة مسرحية في حي المسارح بلندن، الويست إند West End، بعنوان 'مشوار في الغابة' *A Walk in the Woods* بطولة أليك جينيس Alec Guinness تحكي قصة متفاوضين أمريكيين وروس في محادثات حول الأسلحة النووية المعروفة باسم اتفاقية الحد من الأسلحة الاستراتيجية (سالت)

SALT، وفيها كيف يبني المتفاوضون الثقة بعضهم ببعض كأفراد للدفع بالمفاوضات إلى الأمام.. وهكذا بدى موضوع المسرحية مناسبا جدا.

ويقول إسترهوس أنه تعلم من تجربته أن "الثقة تبنى بين الخصوم السياسيين أيضا كنتيجة للمخاطر المشتركة بينهم" وهذا ينطبق على جميع الحالات. وقد كانت هذه المخاطر هي التي ربطت المشاركين في الاتصالات السرية التي تمت في بلاد الباسك وأدت أخيرا إلى مفاوضات بين الحكومة الاشتراكية و(إيتا) عام 2004. السياسي الاشتراكي الباسكي، خيسوس إيغويغورين Jesus Eguiguren، رجل غير عادي. قصير وممتلئ الجسم، مهمل ولا يهتم بمظهره وغير منظم، يعشق الشراب، ضد العنف بالكامل. وكما هو الحال بالنسبة لعضو الحزب الاجتماعي الديمقراطي والعمل Social Democratic and Labour Party-SDLP في أيرلندا الشمالية، السياسي جون هيوم John Hume، فقد سعى للالتحاق بالجماعة المسلحة في محاولة لتحقيق السلام في بلده الأم ومنطقته، بدلا من أن ينتقم من أحد.

في عام 2001 بدأ إيغويغورين في الاجتماع بأورلندو أوتيغي Orlando Otegi زعيم الباتاسونا Batasuna، الجناح السياسي لحركة (إيتا)، سرا في بيت بمزرعة نائية في مكان يؤدي إليه طريق ريفي غير معبد من قرية إلجوبار Elgoibar في أعماق ريف بلاد الباسك. يعود البيت لصديق مقرب لإيغويغورين في الحزب الاشتراكي يدعى بيللو روبيو Pello Rubio. كان روبيو شيوعيا تروسكي النزعة وعضوا في لجان العمال Workers' Committees وتعرف على قائد الجناح السياسي باتاسونا من خلال ماضيهما الراديكالي المشترك. فهو الذي جمع بين إيغويغورين وأوتيغي الذين تربيا في هذه القري الريفية. مخاطرة كبرى، سياسيا وجسديا، تلك التي أقدم عليها إيغويغورين بمجرد اجتماعه بأوتيغي. كانت (إيتا) آنذاك في خضم حملة قاسية قتل فيها ستة وأربعون بمن فيهم أحد زملائه الاشتراكيون في سان سيباستيان San Sebastian. كما مُنع جناح (إيتا) السياسي باتاسونا، والحزب الاشتراكي كان لتوه قد وقع اتفاقا ضد الإرهاب مع حكومة أثنار Aznar المحافظة وحزبه، حزب الشعب People's Party-PP. وكما يقول

لسان حال إيغويغورين: "كان من الممكن أنني أُقتل ويودع أوتيغي السجن".

فيما يشبه المعجزة، استطاع الرجلان، في رقعة صغيرة مثل بلاد الباسك، أن يخفيا خبر الاجتماعات عن الجميع تقريبا في حزبيهما. وفي مرة من المرات جاءت سيدة تقيم في أحد بيوت المزارع المجاورة لتخبرهم بوجود شخص متخف وراء شجرة بجوار البيت يراقبهم، وأضافت أن وجود شخص بمفرده وراء الأشجار أثناء الشتاء لا بد إلا أن يكون له غرض مشبوه. فتسلل الرجلان في مركبة خفيفة أخذتهما وراء الأشجار حيث وجدوا سيارة واقفة تحمل رقما من خارج المنطقة. فقررا الانتقال إلى مكان آخر لمواصلة الاجتماع وهما مرتاحان نفسيا لدحض تلك المحاولة للتجسس عليهما لذكائهما وسرعة تصرفهما.

ناقش الرجلان الدروس التي يمكن أخذها من فشل المحاولات الماضية لتحقيق السلام في أرض الباسك ومن عملية السلام في أيرلندا الشمالية. كان الجناح السياسي لـ (إيتا)، باتاسونا، دائما يتصرف بطريقة رسمية، ويفضل أن يكون هناك اتفاق على جدول أعمال للاجتماعات. وقال إيغويغورين "كنت أنا وأويتغي على علم بانتمائنا إلى عالمين متباينين يعملان بمبادئ مختلفة". فأوتيغي كان هدفه تقرير المصير، وهو ما قدمته الحكومة البريطانية لأيرلندا في إعلان داونينغ ستريت، أما إيغويغورين كان يفضل العمل في داخل قوانين ودستور إسبانيا التي لا تعترف بذلك الحق لأحد.

كان أثنار، رئيس وزراء إسبانيا، في تلك الفترة لا يزال على رأس السلطة. واعتقد الرجلان أنه من الممكن تجهيز مجموعة أفكار يمكن طرحها مع حكومة محافظة بعد الانتخابات في 14 مارس/أذار2004. لكن ذلك كله ذهب أدراج الرياح في 11 مارس/أذار عندما فجر إسلاميون متطرفون مجموعة قطارات في ضواحي مدريد فقتلوا 191 شخصا وأصابوا 1,841 آخرين. في نفس اليوم اتصل أوتيغي بإيغويغورين ليعلمه أن (إيتا) ليس لها علاقة بالموضوع. ولكن رئيس الوزراء أثنار ارتكب خطأ أساسيا بإصراره في بيان عام أن (إيتا) هي المسؤولة، ودعا مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة إلى إصدار قرار يدين فيه (إيتا)

لمسؤوليتها على الهجوم، برغم أن مسؤولي الأمن الإسبانيين وضحوا له أنه ليس من عمل الإرهابيين الباسك. بسبب هذا خسر أثنار ثقة المنتخبين الإسبان ومن ثم الانتخابات. يوم واحد بعد الانتخابات حاول إيغويغورين أن يتصل تلفونيا برئيس الوزراء الجديد الاشتراكي، ثاباتيرو Zapatero، لإعطائه فكرة عما دار بينه وبين أوتيغي ولكن لم يوفق في الاتصال به.

من الجدير بالملاحظة في موضوع المفاوضات مع (إيتا) أن إيغويغورين لم يلتق مع ثاباتيرو لمناقشة المحادثات معه طوال المدة التي استغرقتها عملية السلام. ورغم ذلك فإن التخلص من تعنت أثنار واستبدال حكومته بحكومة اشتراكية فسح المجال لذلك الحوار، في بيت المزرعة إياه، أن يقود إلى عملية شاملة للسلام. ويعتقد إيغويغورين أن مذبحة مدريد سارعت بنهاية (إيتا). فما كان في إمكان (إيتا) التنافس مع الإسلاميين المتطرفين الذين كانوا مستعدين لقتل أعداد لا حدود لها من البشر. لقد أسست تلك الاجتماعات عِلاقة خاصة بين أوتيغي وإيغويغورين الذي تحمّل مخاطرة سياسية كبري للظهور شخصيا فيما بعد في محاكمة أوتيغي والشهادة لصالحه.

تكونت علاقة ثقة شخصية شبيهة بين الإسرائيلي يائير هيرشفيلد والفلسطيني أبي علاء لبناء عملية أسلو للسلام. في اليوم التالي لقرار الكنيست بإبطال القانون القاضي بحضر الاتصال مع فتح في يناير 1993 اجتمع هيرشفيلد مع أبي علاء في النرويج للشروع في التفاوض. كان الهدف من هذا الاجتماع الأول هو تقصي الحقائق، ولذلك لم يكن هيرشلفيد في حاجة لإعطاء شمعون بيريز، وزير الخارجية، وإسحاق رابين، رئيس الوزراء، فكرة عما دار فيه. أخذ هيرشفيلد في صحبته زميله الأكاديمي، رجل التاريخ، رون بونداك Ron Pundak ليرافقه. هيأ لهم النرويجيون أن يجتمعوا سرا في بيت فخم مؤجر من رجل أعمال في ساربسبورج Sarpsborg، تلك المدينة الصناعية الصغيرة الخالية من الجمال على بعد مائة كيلومتر جنوب أوسلو (رغم أن الاجتماعات كان من الممكن أنها لن تعقد... فعندما وصل أبو علاء مطار أوسلو رفضت سلطات الجوازات السماح له بالدخول لأنه لا يحمل تأشيرة دخول.. فاضطر تيرو رود لارسان

وزملاؤه أن يسعوا مذعورين لتلافي الموضوع). عند الوصول إلى أوسلو وضح كل من أبو علاء وهيرشفيلد للمضيف أنهما لا يرغبان في حضور أحد النرويجيين في الغرفة. هذه محادثات ثنائية ويجب أن تبقى كذلك.. فبالنسبة لهيرشفيلد كانت النقطة أيديولوجية، وأما بالنسبة لأبي علاء فقد كانت نقطة عملية.

لقد حرص المنظمون النرويجيون على عدم استعمال الفنادق أو الأماكن العامة أو الأسماء الحقيقية للمشاركين. وبعد عملية التأشيرة المحرجة في الزيارة الأولى أخذوا يستخدمون صالة كبار الزوار في مطار أوسلو. وعندما استعاروا مبنى هيفتي هاوس Heftye House من حكومة المدينة في أوسلو قالوا أنهم سيستعملونه "لندوات وزارة الخارجية". فهيرفشلد كان يعتقد جازما أنه من المهم جدا أن تظل المحادثات سرية. وكان لزاما على كلا الطرفين أن يقدم تنازلات بدون أن يعرف ما الذي سيحصل عليه في المقابل. لو تم هذا علنا فكل من أعتقد أنه يعرف أكثر من الآخرين لكان عبر عن رأيه، وكل من كان لا يريد اتفاقية لانتهز الفرصة للقضاء عليها. ويتذكر يوري سافير، الذي التحق بالمحادثات لاحقا، كيف اضطروا إلى المراوغة والنفاق طوال فترة المحادثات في أوسلو فيقول: "كذبنا على زملائنا، وكذبنا على الصحافين، وكذبنا، وهذا أصعب شيء، على أصدقائنا وأسرنا". ولكن كانت هناك مكاسب مشتركة لهذا الكذب المشترك، كما حصل حين "وصلنا أوسلو وأتحفنا الفلسطينين بقصص حول كيف نجح كل منا في خداع زملائه. وشعرنا كأننا أعضاءٌ في نادي للجواسيس، نخرج خارج غرف المفاوضات لتناول وجبات الأكل أو للاستراحة أو للتمشي، ونحن نتآلف أكثر في مجموعة سماها تيرخي، الأستاذ في تنمية العلاقات، 'نادي أوسلو'".

اتفق هيرشفيليد وأبو علاء في إجماعهما الأول في النرويج على ألا يعيشا في الماضي. فقد كان كل منهما خبيرا في الاقتصاد والتنمية، ويكاد يكون كل منهما براغماتيا حتى النخاع. وحول مائدة العشاء في اليوم الأول قارن أبو علاء بين الفلسطينيين تحت الاحتلال الإسرائيلي والنرويج تحت الحكم النازي. اشتاط هيرشفيلد غضبا وقال بإصرار: "لا تقارن بيننا وبين النازيين... وإذا لم تحترم

حساسياتي فلن أستمر في الحديث معك". و لم يسمع تعليقا مثل هذا بعد ذلك اليوم.

إذا أريد للمحادثات أن تنجح فإن بناء العلاقات الشخصية الحميمة أمر مهم للغاية، رغم أن ذلك ليس معناه أن يصبح الأشخاص المشاركون أصدقاء. فمن المهم في التفاوض إقناع الآخرين أن يقوموا بأعمال لا يرغبون القيام بها، وإذا كانوا حريصين على المحافظة على علاقات طيبة معك فلربما يدفعهم ذلك إلى بذل مجهود خاص للقيام بالعمل نيابة عنك. لقد لجأ هيرشفيلد إلى استخدام الفكاهة كثيرا في محاولة لكسر الجليد في أوسلو. ففي بداية الجلسة قال للفلسطينيين نكتة ولكنها تحمل معنى معين. قال أن الله سبحانه وتعالى وافق على استقبال مجموعة من زعماء العالم، ليخبرهم أن العالم سينتهي في يومين. شامير، رئيس وزراء إسرائيل، رجع وأخبر حكومته بأن معه خبرا سيئا، ولكن لديه خبران آخران طيبان. الخبر السيء أن العالم سينتهي في يومين، وأن الخبرين الطيبين هما الأول أن الله موجود والثاني، وهذا الأحسن، أنه لن تقوم دولة فلسطينية. والمعنى الذي أراد أن يوصله، دون أن يضعه رسميا في جدول الأعمال، هو أنه مع حكومة حزب العمل الجديدة في إسرائيل، بعكس حكومة شامير الراحلة، سيكون هناك حل لدولة بحكومتين في إسرائيل. وحاول هيرشفيلد باستمرار أن يحافظ على خفة روح الاجتماعات وجوها غير الرسمي، ولكنه لم يحرص على تكوين صداقات شخصية مع نظرائه الفلسطينيين. لقد كانت لهم قيم ومعايير تختلف عن قيمه ومعاييره، و لم يجد من الضروري أن يصبح الجو حميميا أكثر من اللازم. لكنه أيقن أنه من المهم أن يكون دائما عند كلمته. في إحدى المرات أعطاه بيريز تعليمات بعدم حضور اجتماع مرتب مسبقا مع أبي علاء، إلا أن هيرشفيلد تعهد بالحضور، فشعر بأن عليه الحضور إذا أراد المحافظة على حسن النية. وهنا طلب منه بيريز أن يذهب إلى النرويج ويخبر أبا العلاء أنه "لن يأتي لاجتماع عادي" وأنه يحتاج إلى دلائل إضافية تعبر عن حسن النية من قِبل فتح.

أخبر يوري سافير الرئيس بيريز أن العلاقة بين أعضاء الوفدين في تحسن ملحوظ، في عزلتهم تلك التي يعيشون فيها بعيدا عن العالم الخارجي. وردد بيريز

مقالة الشاعر الهندي: 'أنا وحدي، وأنت لوحدك.. فدعنا نكون لوحدنا معـــا'. وأضاف سافير يقول: "كلما قضيت فترة أطول مع شركائنا، كلما اتضح لي أنه ربما عرفنا عنهم الكثير ولكن ما نفهمه عنهم يظل قليلا جدا..". ومــن أهــم الأهداف الرئيسية لمثل هذه الاجتماعات هو أن نفهم وجهة نظر الطرف الآخر فهما أفضل، حتى وإن كنا لا نتفق معهم.

يقول الأكاديمي أنتوني ونيس – سانت جون Anthony Wanis-St John أنه كان لقناة أوسلو الخلفية فائدة استراتيجية لإسرائيل وفتح معـــا. "وكانـــت أول فرصة استراتيجية ظهرت تلك التي تتعلق بقضية القدس الشرقية... فهل ستدخل ضمن المنطقة النهائيه للحكم الذاتي الفلسطيني خلال الفترة الانتقالية أم لا؟ فبينما تنازلت فتح على هذه النقطة في قناة أوسلو، أصدرت تعليمات موازية ومعاكسة للوفد المفاوض في واشنطن. فكانت النتيجة ارتباكا تاما... فأي القناتين تعبر عن موقف فتح الحقيقي؟ هل لدى فتح موقف واحد؟ بعد ذلك الارتباك، اتضحت الصورة وفسرت الرسالة بشكل صحيح فاستنتجت إسرائيل إنه بإمكانها توقـــع اعتدالا في موقف فتح فقط من خلال القناة التي تشارك فيها فتح مباشرة وهـــي قناة أوسلو". ويواصل أنتوني ونيس – سانت جون، ناقلا عن أبـــي علاء قولـــه "علمنا ما هو جدي وما هو غير جدي.. ما هو حقيقي وما غير حقيقـــي عـــن الإسرائيليين". ووافقه سافير بقوله "جزء من المفاوضات السرية هو في الواقع أن تتعلم ما هو حقيقي وما هو مزيف.. وأين تكمن الحساسيات الحقيقية والقضايا الهامة".

إن التخطيط والتنفيذ لأجل بناء قناة مع جماعة مسلحة سرية أمـــر معقـــد ويستغرق قدرا طويلا من الزمن ويتطلب – أحيانا – الخروج عـــن القـــوانين، ولكنه أيضا يدل على مدي الثقة فيك. فحتى أسهل الأمور يستنفد كمية غـــير عادية من الزمن. قد تحتاج ليومين كاملين لتصل إلى مكان اجتمـــاع يســـتمر ساعتين.. بعد تغيير السيارات والتلفونات النقالة، وبعد الكثير من اللف والدوران والطرق المنعرجة والملتوية لتفادى العيون والمتعقبين. ومجرد توصيل رســـالة قـــد يشكل تحديا حقيقيا. صدرت تعليمات لأحد وسطاء مركز هنـــري دونانـــت

لاستقبال مبعوث عن (إيتا) في محطة شاحنات على طريق سريع في فرنسا. وبينما كان ينتظر هناك اقتربت منه سيارة وخرج من رجل فجلس إلى إحدى الطاولات وبقي آخر في السيارة. أخرج الرجل منديلا من ورق وبصق فيه ثم دفعه أمام المبعوث قائلا "افتح". في داخل المنديل وجد شفرة إلكترونية مصغرة كان الرجل يحملها تحت لسانه، وكان مستعدا لبلعها إذا ما اعترض سبيله أحد. وعندما عاد الوسيط إلى جنيف وجد الشفرة تحتوي مسودة بيان من (إيتا) ومقترح لجدول أعمال الاجتماع المقبل.

ويأتي الاختبار الحقيقي للثقة عندما تكون الأمور صعبة. هل يستمر الوسيط في أخذ مصالح الجماعة في الاعتبار أم لا؟ عندما فشلت المحادثات بين (إيتا) والحكومة الإسبانية في 2007، طلب 'مارك Marc' (فرانكو خافير لوبيث بينا Franco Jevier Lopez Pena الزعيم السياسي لـ (إيتا) من ممثل مركز هنري دونانت إخراجه من جنيف عند الساعة الرابعة صباحا، مصرا على وجود عملية للشرطة جاهزة لاعتقاله. حاول ممثل المركز أن يقنعه إنهم إن خرجوا في ذلك الوقت فستكون سيارتهم السيارة الوحيدة في الشارع وعليه فهم عرضة لإثارة الشكوك. ولكن 'مارك' أصر أن يغادروا عند الرابعة. وعند السابعة صباحا، وهم بالقرب من مرتفعات جورا Jura، قال 'مارك' أنه في حاجة لفنجان قهوة مصرا على أن يأخذ السائق منعطفا في الطريق في اتجاه قرية صغيرة والوقوف عند مقهى هناك. كان هناك ثلاثة من أهالي القرية جالسين إلى طاولة مجاورة وكانت أنظارهم مصوبة باهتمام تجاه الزوار الغرباء الذين حلوا على المقهى. أخذ 'مارك'، ولهول صاحبه ممثل مركز هنري دونانت، في الحديث عن (إيتا) بصوت عال، فغادر أحد الثلاثة المقهى. تظاهر ممثل المركز بالذهاب إلى دورة المياه فشاهد الرجل يدخل صندوق تلفونات للاتصال تلفونا. قفل راجعا وقال لمارك لا بد من مغادرة المقهى حالا. وعندما انطلقت السيارة رأوا في المرآة الخلفية الرجال الثلاثة واقفين على قارعة الطريق وهم يسجلون رقم السيارة. وحسب تعليمات 'مارك' أخذ ممثل المركز اتجاه الطريق الجبلي إلى خارج القرية، وما إن انتهي عبر الأشجار إلى

قمة فوق القرية، إذا بسيارتين للشرطة تدخلان الطريق نفسه. واستمرا لمــدة ساعات قبل أن يراودهما الأمن والطمأنينة.

من أهم الوسائل لبناء الثقة أن تبدأ بمعاملة أعضاء الجماعة المسلحة كبشــر عاديين. فهم تحكمهم ظروف وصدمات خاصة كالتعذيب حين يقعوا في أيدي السلطة.. .كما أن العيش في حالة من الفرار الدائم أمر قــاس. فالإرهــابيون لا يزورون أطفالهم ولا يعرفون الحياة العادية. وأول ما يتحدث أحدهم عن أسرته أو عن العيش في الخفاء تحت الأرض تأخذه العاطفة وتغرورق عيناه بالدموع. في المراحل الأولى لبناء القناة بين (إيتا) والحكومة الإسبانية اضطر أحد موظفي مركز هنري دونانت أن يسكن اثنين من المفاوضين، 'جورج' و'روبرت'، في الطابق ما تحت الأرضي من بيته لمدة شهرين كاملين حتى يتبين ما الذي سيفعله بهما. لقد قضوا الاحتفال بعيد الميلاد مع جدة الموظف التي جاءت لزيارة العائلــة. لقــد انبسط جورج وروبرت أيما انبساط... فلعبوا مع الأطفال وشــاركوا في طــبخ الطعام، وشربوا وتحدثوا عن عائلتيهما وأطفالهما وعن الحياة التي كانا يعيشــانها قبل أن يهربا.. بل وأن يلقيا دروسا للوالدين عن مخاطر ترك الأطفــال الصــغار وحدهم مع الكلاب داخل البيت. وكما قال أحد المشــاركين.. "وإن رأيــت أطفالك يلعبون فوق ركبة إرهابــي مطلوب للقانون فكن على يقــين أنهــم يعتقدون أنك تثق فيه".

هناك، بطبيعة الحال، خطر من نوع 'متلازمة ستوكهولم'، حيث يتعــاطف الضحية مع من أساء إليه، ويجد الفرد نفسه قد غمرته شخصية الإرهابــــي أو الإثارة النابعة من العمل السري الذي يؤديه. ولكن عادة ما يكون هناك حــاجز مرتفع لا بد من تخطيه قبل أن يبدأ بناء الثقة. فبالنسبة لزعيم متمرد خارج علــى السلطة، اللقاء وجها لوجه مع شخص يمثل الحكومة لا يأتي إلا بعد عقود مــن القتال الدموي. أخبرني زعيم إسلامي متمرد من تاجيكستان أنه لم يكن يعتــبر ممثلي الحكومة بشرا إلا بعد جلس إليهم لأول مرة في أواخر التسعينيات، وأنــه بعد أن قابلهم وتحدث إليهم أصبح من الصعب عليه أن يتراجع ويعود إلى قتالهم. هذه الاجتماعات ليست دائما مريحة لممثلي الحكومة أيضا. فعندما قابل ممثلــو

(إيتا) وفد الحكومة الاشتراكية في الجزائر عام 1986 قـــال زعـــيمهم أوغينيـــو 'أنتكسون' إتكسبست Eugenio 'Antxon' Etxebeste لسكرتير الدولة للأمـــن، رافئيل بيرا Rafael Vera "أنت على قائمة اغتيالاتنا"، ولكن بيرا تجاهل ما قالـــه إتكسبست وأعتبر الخطر جزءا من عمله. وقـــال عضـــو الباســـك السياســـي الاشتراكي الذي كان يرافقـــه، خـــوان مانويـــل أيغـــويغري Juan Manuel Eguiagaray، أن الموضوع كان في غاية الصعوبة. فقد قضى حياته كلها في بلاد الباسك، وأصدقاؤه وزملاؤه قتلوا على أيدي (إيتا)، فلم يكن من السهل عليه أن يلتقي معهم خاصة العضوين التابعين لفرقة مدريد والذين ارتكبا أعمالا إجرامية 'وتلطخت أيديهما بالدماء'. وقـــال خـــبير ثارثـــاليخوس Javier Zarzallejos، المستشار الأمني لأثنار الذي التقي مع زعماء (إيتا) في جنيف بعد ذلك بثلاثـــة عشر عاما: "كان من الصعوبة بمكان أن يتكلم المرء مع أولئك النـــاس. كـــانوا يعيشون في عالم آخر بعيد عن الواقع.. يعيشون في سرية تامة، وفي عالم من صنع خيالهم". ويقول رون بونداك أنه ما كان لينسى أن ياسر عرفات كان مســـؤولا عن قتل اليهود "ولكنني في الوقت نفسه احترمت. التغير المثير الذي طرأ عليه بعد عام 1988 وخاصة في عام 1993 – من رجل كان يتزعم حركة وطنية ومنظمة إرهابية معا، إلى رجل قرر أن يتفاوض ويوقع على السلام مع إسرائيل، ويقبـــل بحلول وسط حول مطالب أمته التاريخية. لقد كان رأيي تجاهه دائما في داخـــل هذا الإطار المزدوج...".

الهدف من هذه الاجتماعات هو جزئيا لطمأنة الطرف الآخـــر. يصـــف خوكوين بيجالوبوس Goaquin Villalobos اجتماعا مع بيوليتا تشامورو Violeta Chamorro، الرئيسة المنتخبة الجديدة لنيكاراجوا، في أبريل/نيسان 1990، فيقول لقد كان دور نيكاراغوا محوريا للمجهود الحربـــي للمتمردين لأنها كانت المكان الذي اتخذت منه جبهة التحرير الوطني (أف أم أل أن) قاعدة للإيواء والتمـــوين ونقل المقاتلين، واعتمدوا على إمدادهم بالأسلحة من الساندينيستا الذين انتصرت عليهم تشامورو في الانتخابات. ولذا دخل المتمردون الاجتماع بشـــيء مـــن التوجس، فقرروا أن يخبروها أنهم على استعداد للشروع في وقف إطلاق النـــار،

وهو ما لم يفصحوا عنه من قبل. لقد ظهروا في بدلات مدنية وربطات عنق بدلا من البزات العسكرية التي ما كان من عادتهم ارتداؤها عندما كانوا يجتمعون بسلفها دانيال أورتيغا. وقررت تشامورو الاستفادة من الاجتماع للتدليل على ثقتها فيهم، وكانت خطتها افتتاح الاجتماع باختبار ذكائهم لمضايقتهم بعض الشيء، فقالت: "خوكوين... مظهرك يوحي بأنك قد وصلت مباشرة من باريس.. لكن هناك مشكلة في زر السترة التي ترتديها". حاول بيلالوبوس أن يواصل الحديث في الموضوع المهم وهو وقف إطلاق النار، ولكنها قاطعته للمرة الثانية وطلبت منه أن ينزع السترة حتى تتمكن من تثبيت الزر فيها من جديد. فرفض وواصل الحديث إلا أنها بادرته وقالت: "هل تحمل مسدسا تحت السترة؟ هل هذا هو السبب في أنك لا تريد خلع السترة؟". فأصرت على أن يخلع السترة وطلبت إلى أحد مساعديها أن يأتوا بإبرة وخيط حتى تخيط زر السرة بشكل أحسن. ولذا حاول بيلالوبوس شرح موقفهم وهو يرتدي قميصه بينما واصلت هي خياطة الزر في السترة. لقد أرادت تشامورو التدليل على أنها ليست معادية لهم. وكانت أول مكالمة تلفونية من بيلالوبوس بعد التوصل إلى اتفاقية نهائية في وقت متأخر من الليل في نيويورك يوم 31 ديسمبر/كانون الأول، لأنتونيو لاكايو Antonio Lacayo، زوج ابنة تشامورو، الذي كان المسير الفعلي للحكومة بصفته وزير الرئاسة، ليقول له أنهم قد توصلوا إلى اتفاق.

الاتصال المباشر ليس دائما سهلا حتى وإن كانت القناة قد تأسست. الاتحاديون في أليستر وزعيمهم دافيد تريمبل David Trimble التقوا مع جماعة الشن فين لأول مرة في سبتمبر/أيلول 1996. ويقول أحد قياديي شين فين، جيري كيللي Gerry Kelly، أنه كان حذرا، لأن لقاء الجمهوريين مع العدو كان محفوفا بالخطر، خاصة وأنهم لخبطوا الموضوع كثيرا في الماضي. عقد الاجتماع في ستورمونت Stormont، مبنى البرلمان في أيرلندا الشمالية، و لم يتعود الاتحاديون على رؤية الجمهوريين في معقل الاتحاديين هذا، و لم تكن لديهم رغبة في الظهور معهم جنبا لجنب. هذا الشعور نفسه كان لدى أنصار كيللي، الجمهوريين، أيضا. وعندما دخلوا غرفة الاجتماعات قرر الاتحاديون عدم الحديث بشكل

مباشر إلى ممثلي شين فين ولكنهم اكتفوا بتوجه الحديث لجورج ميتشل، الوسيط الأمريكي الذي ترأس المحادثات، فقط. أثار هذا الموقف جـيري آدمـز، مـن الجمهوريين، فدعاه إلى تصرف غير معهود ألا وهو محاولة الاشـتباك بـالكلام مباشرة مع الاتحاديين. وحسب دافيد تريمبل، كان جيري آدمز يترصد في الممـر وعندما يظهر أحد الاتحاديين في طريقه لدورة المياه يتبعه ويقف على المبولة الـتي بجانبه محاولا الدخول معه في حديث عابر. وحدث أن شابا من الاتحاديين يدعي بيتر ويير Peter Weir دخل المبولة مرة ليجد آدمز قد سبقه هنـاك فـأهرع إلى المقصورة وأقفل الباب مما جعل آدمز يصيح قائلا: "مشكلتكم أنكم لا تزالـوا تعانون من عقدة الحصار".

مما يساعد في بناء القنوات أن يؤتى بجماعة مسلحة سبق وأن جربت عملية السلام وعبرت الطرق نفسه: فهؤلاء غالبا ما تكون لديهم مصداقية فاعلة أكثر من الدبلوماسيين أو المنظمات غير الحكومية. فالجيش الجمهوري الأيرلندي تأثر كثيرا بما تعلمه حزب المؤتمر الوطني الأفريقي في جنوب أفريقيا، وأثـر الجـيش الجمهوري الأيرلندي بدوره في (إيتا) في إسبانيا. اسـتقبل مـارتين غـريفيثس Martin Griffiths، المدير التنفيذي لمركز هنري دونانت، اثنين من الجمهـوريين الأيرلنديين لدى هبوطهما في المطار. وأخذهما بالسيارة إلى موقف سيارات تحت الفندق إلى سيعقد فيه الاجتماع. أوقف غريفيثس السيارة فجـأة فصـرخت عجلاتها وخرج منها بسرعة هائلة وانطلق إلى السلم المؤدي إلى داخل الفنـدق. وهنا خرج الجمهوريون من السيارة في ذهول ظانين أنها اللحظات الأخيرة مـن حياتهما. في الواقع غريفيثس نزل مسرعا ليتأكد أن كل الترتيبات على ما يـرام. ويقول 'مارك' أنه قادر في خلال عشر دقائق من بدء الاجتماع على تحديد ما إذا كان الذين أرسلوا إليه من نوع 'العم توم (أي من الخدم السود المطعين للبيض)' أم أشخاص ذوو رجولة حقيقية يعتمد عليهم. وخرج بعد ثلاث ساعات مـن غرفة الاجتماعات يقول أنه راض على ما تم.

. وبالاستطراد في هذا القياس نستطيع القول أن تزكية جيدة مـن جماعـة مسلحة أخرى، وسجل من السلوك المنصف والعادل، له وزن في هذا الصـدد.

ففي عام 1977 بحثت منظمة القوات المسلحة الثورية الكولومبية (أف أيه آر سي) عن جايمس لوميون James LeMoyne بالتحديد، رغم أنه أمريكي، كأحد رجال الأمم المتحدة له سجل حافل في فض المنازعات. فقد زكاه الكوبيون ومجموعة فارابوندو مارتي للتحرير الوطني (أف أم أل أن) في السلفادور والساندينيستا. اتصل أحد زعماء السندينيستا بلوموين ليقول له أن أحد زعماء (أف أيه آر سي)، راؤول رايس Raul Reyes، يريد مقابلته لأنه كان أحد رجال الأمم المتحدة الذين شاركوا في جهود سلام ناجحة في السابق. واتفقوا على أن يلتقوا في مقهى في مدينة المكسيك. وكان واضحا أن راؤول قد زود بمعلومات كافية حول خلفية لوميون. وكانت (أف أيه آر سي) تبحث عن قناة اتصال خلفية للحكومة الأمريكية، لتقنع الأمريكيين بأن كفاحهم قضية شرعية تحل بالمفاوضات وبتسوية سياسية. وكانت، فوق هذا كله، تريد أن يتوقف الأمريكيون على وصفهم بالإرهابيين، لأن الجماعات المسلحة يغضون بأن يوصفوا كذلك. فإن تجاوب الأمريكيون لذلك، فإن جماعة (أف أيه آر سي) مستعدة للدخول معهم في محادثات. كان لوميون يعرف السكرتير المساعد للخارجية الأمريكية لشؤون الأمريكيتين واستطاع أن ينشئ قناة بين الطرفين. بعد ذلك بوقت قصير قامت منظمة (أف أيه آر سي) باختطاف مجموعة أمريكيين من هواة مراقبة الطيور في الغابات واستخدمت القناة لإطلاق سراحهم. طالبت (أف أيه آر سي) مقابل ذلك أن تصدر الإدارة الأمريكية بيانا رسميا عن الحادثة، فألقت مدلين أولبرايت Madeleine Albright، وزيرة الخارجية الأمريكية، كلمة في قمة الأمريكيتين في سانتياغو بالمناسبة واتفق على عقد اجتماع بين مبعوث عن الولايات المتحدة وراؤول رييس في كوستا ريكا Costa Rica.

وعندما اختطف، بعد ذلك بعدة أشهر، ثلاثة أمريكيين يعملون في مجال حقوق السكان الأمريكيين الأصليين في شمال شرق كولومبيا أكدت قيادة (أف أيه آر سي) أنهم عندها وتعهدت بالعمل على إطلاق سراهم. بعد ذلك بأيام وجدت جثامين امرأتين ورجل مرمية على القرب من حدود فنزويلا

بطلقات في خلف الرأس. وقع الشك في 'غرانوبلز Granobles' أخي أحد قيادي (أف أيه آر سي) الرئيسين مونو خوخوي Mono Jojoy الذي يعتقد أنه خارج نطاق سيطرة المجموعة. ادعى راؤول رييس أن الذي قام بعملية القتل هو أحد المعرقلين للاتفاق وأنه بذل قصارى جهده لتأمين إطلاق سراح الضحايا. وعليه قطع الأمريكيون تلك القناة.

جزء من الفكرة خلف بناء هذه القنوات هو تعليمي. فالجماعات السرية المسلحة بصفة عامة عاشت، وتعيش، في بيئتها الخاصة بها (الغيتو Ghetto)، إما حقيقة أو مجازا، لفترات طويلة. وعادة ما يتحدث أعضاء هذه الجماعات مع أناس يشاطرونهم نفس الآراء. وقادتهم هم أولئك الذين لديهم الاستعداد أن يكونوا الأكثر تطرفا وراديكالية. والاتصال بهم قد يساعد في فتح أعينهم على نظرة العالم الخارجي إليهم، وعلى ما يمكن الوصول إليه – واقعيا – في المفاوضات وما هو غير قابل للتحقيق أصلا. كما أن ذلك يساعد الطرف الحكومي أن يستوعب بشكل أفضل ما الذي يريدون تحقيقه فعلا. وعلى هذا يوافق مركز بيرغوف في برلين Berghof Center، وهو مركز متخصص في عمليات السلام، إذ يقول: "الاتصال والتحاور السابق للتفاوض مع الجماعة المسلحة يمكن أن يلعب دورا 'اجتماعيا' في المساعدة على بناء الثقة ويرعى الإرادة السياسية الضرورية لإعطاء تنازلات والتخفيف من المطالب أو تلطيف الأجواء. كما يساعد هذا التواصل أيضا في تهيئة الجماعة المسلحة للتفاوض وتشجيعهم على التفكير في متطلبات العملية السلمية وأن تكون هناك أجندة سياسية للتفاوض".

في عام 2002 دعي وفد خاص من (أف أيه آر سي) لجولة في أوروبا كجزء من عملية كاخوان Caguan للسلام في كولومبيا، لتعريفهم بالعالم الخارجي، وتهيئة توقعاتهم، وإعطاءهم الفرصة للاحتكاك بممثلي الحكومة الكولومبية الذين كانوا يرافقونهم في الجولة. في خلال أربعة أسابيع غطوا أوروبا من شمالها إلى جنوبها وتنقلوا من درجة حرارة 10 تحت الصفر إلى 30 درجة مئوية. في أول مساء لهم في أوسلو دعوا إلى عشاء دبلوماسي رسمي وكان على المضيفين أن

يزودوهم ببدل رسمية للمناسبة. جلس فابين راميريز Fabien Ramirez، من أعتى المقاتلين، إلى جانب لوميون على المائدة. كان ينظر بتحير وانبـــهار إلى الكميـــة الهائلة من الأدوات الفضية وكؤوس النبيذ، وعندما أخذ لوميون يشرح له كيف يتعامل مع أدوات الأكل التي أمامه وبأيها يبدأ وبأيها يختتم بدأت ملامح الارتياح تظهر على وجهه. (فيليب رينكون Felipe Rincon، زعم آخــــر مـــن زعمـــاء الخارجين عن السلطة، لم يتأثر كثيرا بمظاهر الإسراف البرجوازي المبـــالغ فيـــه. فرفض أن يشرب النبيذ مصرا على أن يحضروا له قارورة من نبيذ ستوليتشـــنايا. والتفت إلى لوميون قائلا: "أنا شيوعي، تعلمت في موسكو، وأشتاق إلى الاتحاد السوفياتي... وغورباتشوف خائن". كان مصيره بعد ذلك أن قتل على أيـــدي الجيش الكولومبـــي).

أخذوا في تلك الجولة إلى مزرعة في الجنوب من ستوكهولم، وقد راعهم أن جاءهم صاحب المزرعة من وراء البوابة في سيارة مرسيدس ضـــخمة، وازدادوا ذهولا عندما دخلوا إلى غرفة التحكم الزجاجية وأخذ يدوس على الأزرار أمامه ليحلب البقر بصورة أوتوماتيكية ويوزع الأكل على الحيوانات، وما إلى ذلـــك بنفس الطريقة. كان رجال (أف أيه آر سي) على قناعة تامة أن العملية كلـــها مرتبة مسبقا وأن المنظمين هدفهم أن يوهموهم أن المزارعين الرأسماليين يعيشـــون هذا النوع من الحياة المرفهة.

لم تمر الأمور في سويسرا كما مرت عليه في ستوكهولم. فقد شوهد أحـــد المشاركين من طرف (أف أيه آر سي) يحمل حقيبة بها نقـــود كـــان يودعهـــا مصرفا سويسريا. وانهمك آخرون في فورة من التسوق في محـــلات سويســـرا. طرق أحد أعضاء (أف أيه آر سي) باب غرفة لوميون عند الساعة الثانية صباحا وطلب منه مرافقته إلى غرفته في آخر الممر ليجد الأرضية مغطاة بكـــل أنـــواع الأجهزة الإلكترونية بما فيها الجهاز العالمي لتحديد المواقـــع (جـــي بـــــي أس Global Positionig System GPS)، فسأل كيف يربطه بمدفع هـــاون ليصـــبح دقيقا كالأسلحة الأمريكية. واضطر لوميون أن يبين له أن الأسلحة الدقيقة أكثر تعقيدا من مجرد ربطها بجهاز (جي بـــي أس). وعندما رجع أعضاء الوفـــد إلى

كولومبيا طلبت منهم منظمة (أف أيه آر سي) تسليم كل ما اشتروه في أوروبا وجعلته أكداسا في الغابة وأحرقته. وأرسل جميع من شارك في تلك الجولة في دورات إعادة تأهيل وتعليم للتأكد من أنهم تطهروا بالكامل من جميع المساوئ والرذائل التي اكتسبوها في أوروبا الرأسمالية.

في الغالب أن بناء وتطوير قناة اتصال مع جماعة مسلحة سيكلل بالنجاح إذا كانت الجماعة متحدة ولا تعاني انشقاقات كثيرة. يقول خبير الإرهاب والتشدد الراديكالي بيتر نيومان Peter Neumann: "إن مستوى التجانس داخل الجماعة يعتبر عاملا هاما في تحديد عما إذا كان التفاوض معها ممكنا أم لا". ويقول محمد يوسف كاللا، نائب الرئيس الأندونيسي الذي فاوض مع حركة أتشيه الحرة (جي أيه أم)، أن الحركة كان لها تنظيم رأسي هرمي قوي وأن الجناحين السياسي والعسكري كانا متحدين. وذهب هو شخصيا إلى منطقة أتشيه ليستفسر من قادة الجماعة على الأرض إذا كانوا سيحترمون التنازلات التي تقدم بها زعماؤهم السياسيون في ستوكهولم. وعندما أكدوا له أنهم سيفعلون ذلك انطلق في محادثات هيلسنكي. ولكن بعض الجماعات المسلحة منقسمة بشكل كبير بحيث من الصعب التفاوض معهم بصورة فعالة، فكلهم واقعون تحت تأثير 'الانقسام'. لقد انقسمت (إيتا) عدة مرات منذ عام 1974 وما بعده، وحاولت الحكومة البريطانية كعادتها إحداث انقسامات داخل حركة الجمهوريين في أيرلندا الشمالية بمختلف الطرق والوسائل لتسهل هزيمتهم. وكانت النكتة المتداولة هي أن أول بند في جدول أعمال اجتماعات الجيش الجمهوري الأيرلندي (آي آر إيه) هو 'الانقسام'، حيث انفصل الجيش الجمهوري الأيرلندي المؤقت Provisional IRA عن (آي آر أيه) الرسمية، وانفصل جيش التحرير الوطني الأيرلندي Irish National Liberation Army-INLA عن الحركة الأصلية.. وهكذا. وفي نهاية أول اجتماع لتوني بلير، رئيس الوزراء البريطاني، مع القيادات الجمهورية الأيرلندية في ديوان رئيس الوزراء بداونينغ ستريت عام 1977، أخذنا جيري آدمر جنبا في غرفة مجلس الوزراء وقال إن هدفه الذي سيسعى إليه هو جذب أكبر عدد ممكن من الحركة الجمهورية إلى عملية السلام

بدلا من شقها. هذا الأمر سيحتاج إلى وقت، وناشدنا لإعطائه فرصة عامل الزمن كلما أمكن ذلك لتحقيق هذا الهدف. وقد كان رهان توني بلير الأكبر في عملية السلام هو بالضرورة الموافقة على المشروع حتى يتحقق السلام مرة واحدة بدلا من توقيع سلام مع عدة فرق مختلفة. فسياسة 'فرق تسد' كتلك التي انتهجتها إسرائيل في تضخيم دور حركة حماس على حساب منظمة فتح، قليلا ما تنجح وغالبا ما يكون لها رد فعل معاكس يرتد على الحكومة فتخلق لنفسها أعداءً جددا. فهدف الحكومة يجب أن يكون هو المحافظة على المعتدلين في الجماعة المسلحة. وهناك دائما معتدلون ومتشددون في أي منظمة أو جماعة، ومن المهم تسليح المعتدلين وإعطاؤهم فرص النجاح لكي يكسبوا النقاش والمواقف الداخلية.

أسهل طريقة لتحطيم الثقة الذي بنيت بجهود مضنية لتأسيس قناة اتصال هي عدم الوفاء بالوعود. ألقي القبض على رجل (إيتا) 'روبرت' زميل 'جورج' في جنيف، يوم 29 مارس/آذار 2007 محاولا اختراق نقطة تفتيش فرنسية بالقرب من بيريجو Perigueux في جنوب غربي فرنسا. كان روبرت يحمل مسدسا 9 مم نوع هيرستل Herstel، واعترف للشرطة بأنه عضو في فريق (إيتا) المفاوض، وأعطاهم رقم هاتف مسؤول كبير في وزارة الداخلية في باريس، ولكن الأمر لم يقنع الشرطة. لم يكن بيد الحكومة الإسبانية شيئا تفعله ولكن (إيتا) شعرت بالخيانة حيث أنهم وعدوا بسلامة المرور. وفي أندونيسيا اعتلقت الحكومة ستة مفاوضين من حركة أتشيه الحرة في فندق باندا أتشيه Banda Aceh الذي كان يستخدم كمقر رسمي للمحادثات في يوليو/تموز 2001. كانت الحركة تشبهه "بشركة الهند الشرقية الهولندية (سيئة السمعة) التي اعتقلت المفاوضين الأندونيسيين" أثناء مفاوضات الاستقلال. نجح مركز هنري دانت في التفاوض لإطلاق سراحهم بمساعدة السفارة الأمريكية، ولكن الحكومة أعادت اعتقال المفاوضين مرة أخرى في 2003 وأودعتهم الحبس.

حتى وإن تمكنا من المحافظة على الثقة، تيأس الجماعات المسلحة من الحوار غير الرسمي وتعرب عن رغبتها في التقدم نحو المحادثات الرسمية مع الحكومات.

فمانديلا مثلا طفح به الكيل من الأحاديث مع بارنارد وكوتسي، وقال لبارنارد بكل صراحة أنه غير مرتاح بمناقشات تمهيدية معه "وأن بوتا - وليس أنت - هو الشخص التي بيده القوة الحقيقة". وفي يناير/كانون الثاني 1989 وجه مانـــديلا مذكرة إلى بوتا يشرح فيها آراءه حول المستقبل وطريق التقدم بالمحادثات، معترفا بتخوفات البيض مما قد ينتج عن التحول إلى سلطة الأغلبية السوداء. كما ضاق ذرعا تابو إمبيكي بسبب الحوار غير الرسمي الذي دار في ميلز بارك، وطالب أن يعرف من إسترهوس إن كانت المحادثات بينـــهما رسميـــة أم لا، ممـــا اضـــطر إسترهوس إلى الرد بأنها غير رسمية وما هو إلا رسول خير بين الطرفين. وعندها انتقل إمبيكي إلى المرحلة التالية وهي المحادثات الرسمية مع جهاز الاســتخبارات الوطني لجنوب أفريقيا في سويسرا. وكذلك الحـــال بالنســـبة لـــــ 'روبـــرت' و'جورج'، في إسبانيا، اللذين أصابتهما خيبة أمل جراء غموض دور إيغويغورين غير الرسمي، وشكوا في أنه يتشاور مع مدريد أصـــلا. أخـــيرا صـــرح لهمـــا إيغويغورين أنه بمجرد أن تصدر (إيتا) بيانا حول وقف إطلاق النار وقبل صدور البيان الحكومي المتوقع حول المحادثات، فسيتحول هـــو إلى ممثـــل للحكومـــة وسينضم إليه شخص آخر. الهدف من المحادثات السرية هو الاتفاق على خارطة طريق تؤدي إلى 'نقطة الصفر' التي تبدأ منها عملية رسمية للحوار يراها الطرفان، كإعلان داونينغ ستريت الذي أصدره رئيس وزراء بريطانيا عام 1993 وحـــرك عملية السلام التي تمت في أيرلندا الشمالية.

كان هيرشفيلد واعيا لعدم تساوي قوة الطرفين في محادثات أســولو منـــذ بداية مبكرة. فالمفاوضون الفلسطينيون كانوا رسميين بينما هو لم يكـــن رسميـــا. وقال زميله رون بونداك أنه "كان على الطرف الآخر أن يتعود - لفتـــرة مـــن الوقت - أن يعيش في شك ما إذا كانوا يتفاوضون مع إسرائيل رابين حقا أم مع رجلين مخادعين". (يبدو أن الفلسطينيين كانوا يشيرون للإسرائيليْين، هيرشـــفيلد وبونداك، بـــ 'الدب' و'الفأر'). ولمعالجة هذه المشكلة دعا بيريز كلا من فيصـــل الحسيني وحنان عشراوي لمحادثات في نزله الرسمي. وكان أبو علاء يستلم محاضر هذه الاجتماعات وكان يري أن النقاط التي تثار في أوسلو هي نفس النقاط التي

تثار من قبل بيريز في القدس. صار عند هيرشفيلد، في مرحلة ما، شعور قوي أن الحكومة لا بد أن تصبح مشاركة مباشرة في الاجتماعات - وكالعادة أطلق نكتة من نكته السمجة فقال أن إمبراطورة روسيا (أواخر القرن الثامن عشر) كاثرين كانت تطلب من رفيقها القوزاقي أن يأتيها مائة مرة في كل ليلة. وذات صباح احتلفا كم مرة أتاها الليلة الفائتة، فأجاب القوزاق أنه أتاها أربعا وتسعين مرة.. ولكن الإمبراطورة أصرت على ثمان وثمانين.. وبعد جدال قالت الإمبراطورة "لا علينا.. هيا بنا نبدأ من جديد، وأمرنا لله". فالنقطة التي حرص هيرشفيلد على توضيحها هي أنه إذا ما شرعت الحكومة في المشاركة رسميا فلن تحتاج إلى تكرار كثير من عملها.. وهو ما اتضح أنه صحيح. وكتب يوسي بيلين Yossi Beilin، السياسي الإسرائيلي، يقول "كان دور أولئك الذين بدأوا المحادثات في أوسلو هو دور المستكشف. وكان عليهم اختبار جدية أولئك الذين أرسلوا للحوار معهم وجدية الذين أرسلوهم. فبمجرد أن أصبح من الواضح أن المحادثات أخذت في التحول إلى مفاوضات حقيقية، وجب علينا إرسال شخصيات رسمية للتفاوض".

مع نهاية أبريل/نيسان 1993 أمر ياسر عرفات الوفد الفلسطيني من الضفة الغربية وغزة أن يبدأ المفاوضات الرسمية من جديد في واشنطن، ومنذ ذلك الحين تولى إسحاق رابين التحكم في سير عمليتي التفاوض معا. كانت رغبة شمعون بيريز البقاء في تسيير عملية أوسلو، وهو ما لم يرضاه رابين، الذي وافق على أن يرافق كل من يوري سافير، المدير العام في وزارة الخارجية، وجول سنجر Joel Singer، المحامي الذي قضى عشرين سنة في القسم القانوني لقوات الدفاع الإسرائيلية، كلا من هيرشفيلد وبونداك في رحلات نهاية الأسبوع إلى أوسلو. كان سافير هو رجل بيريز في المفاوضات بينما كان سينجر رجل رابين. وبما أن أبا علاء كان يرفع في تقاريره لياسر عرفات فقد تأسس بذلك خط اتصال غير مباشر بين القدس ومقر فتح الرئيسي في تونس.

ويتذكر سافير ما حصل أول دخوله عملية السلام فيقول: "بدأت الحكاية بالنسبة لي من بعد ظهر يوم سبت منعش هو 14 مايو/مايس 1993 عندما طلبني

رئيسي شمعون بيريز إلى سكنه الرسمي في القدس. ودخلت غرفة الجلوس وكان بيريز متراخيا. كان أفي جيل Avi Gil مدير مكتبه الحكيم جالسا على أحد الكراسي المريحة، وجلست أنا مقابله. وقدم لي بيريز شرابا قائلا: 'كأسا من نبيذ؟'. وأشرت برأسي فسكب لي نبيذا، وبينما كان يمده لي سألني بطريقة جافة قائلا: 'ما رأيك في أن تقضي إجازة أسبوع في أوسلو' وواصل يقول.. 'وكن واثقا أنه إذا تسربت كلمة واحدة عن الاجتماع فستكون تلك نهاية قناة أوسلو'". قبل الفلسطينيون بالشروط، وبناء على 'أوامر بيريز' قمت بكل ترتيبات سفري خلال مكتب بيلين وأخبرت موظفي الخاصين أنني ذاهب لعقد محادثات اقتصادية في باريس.. وغالبا سألتحق بزوجتي إلايزا Aliza في مهرجان كان للأفلام بفرنسا. وفي أوسلو بالنرويج وهما في طريقهما إلى الجبال لقن Cannes ترخيه روود – لارسين Terje Roed-Larsen سافير محاضرة عن 'روح أوسلو'.. وقال لارسن فيما كتب بعد ذلك: "طبعا بالتأكيد اعتبرني سافير موظفا رزينا تكنوقراطيا صغير السن، وربما رسميا أكثر من اللازم لمثل هذه المهمة. فأخذ يشرح لي كيف أن روح النكتة عامل مهم في هذه المحادثات، وأن تبادل الآراء ينبغي ألا يكون رسميا كما هو الحال إلى الآن مع الأستاذين. فالأصل في محادثات أوسلو بالنسبة لترخيه هو الخروج بحلول خلاقة بطريقة التفكير الحر وليس بالمساومات التقليدية الخشنة".

وأخيرا التقى سافير وأبو علاء... وقال سافير: "لقد فوجئت بمظهر الرجل.. من الطبقة الوسطى بحق.. كان يرتدي نظارات طبية سميكة لم تُخف نظراته الثاقبة. كان أشبه ما يكون برجل أعمال أوروبي بدلا من قائد يعمل في الخفاء كما كنت أتوقعه. وذاب الجليد بيننا قليلا عندما قام رون بونداك ويائير هيرشفيلد بمعانقة الفلسطينيين الثلاثة الذي أصبحوا شركاءهم على مدى ثلاثة أشهر". ومنذ ذلك التاريخ لم تعد القناة قناة وإنما دخلنا إلى عالم المفاوضات.

الفصل الرابع

كيف تسعى الحكومات إلى إغراء المسلحين للدخول في المحادثات

لقد اضطررت إلى ابتلاع الضفادع... فما أسهل – وما أكثر شعبية – أن تخوض الحروب من أن تجنح إلى السلم*.

الرئيس الكولومبي خوان مانويل سانتوس

تجد الحكومات المنتخبة ديموقراطيا من الصعب جدا عليها أن تُرى في حوار مع مجموعات مسلحة ضالعة في قتل وإصابة مواطنين مدنيين. فمن الأسهل سياسيا أن تنتهج مسلكا أمنيا حازما. ولهذا السبب تبدأ الحكومات عادة بافتراض أن هزم الإرهابيين ممكن خاصة لو أنها استعملت القوة الكافية وأصدرت تقييدات أكثر على حرية الحركة وحرية التعبير وتشكيل الجماعات، أو خفضت من سقف قدرتهم على المناورة. وعندما تبرهن الجماعات المسلحة على قدر من المرونة أكبر من المتوقع، تنزلق الحكومات أحيانا إلى إنزال إجراءات قضائية أكثر صرامة، اعتقادا منها أن الغاية تبرر الواسطة.

ولكن الأدلة واهية جدا على أن هذه "الحروب القذرة"، تحت وضع ديموقراطي، تساهم فعلا في حل المشكلة. في آخر التسعينيات تكشف أن حكومة الرئيس فيليب غونثاليث.الاشتراكية في إسبانيا كانت متعاونة مع فرق الاغتيال المعروفة باسم مجموعات التحرير من الإرهاب Grupos Antiterroristas de Liberación, Antiterrorist Liberation Groups، (جي أيه أل) أي المجموعات العسكرية التي كونها أعضاء في وزارة الداخلية لتتولي اغتيال أعضاء

من (إيتا) في فرنسا. ونجحت الحملة فعلا في التخلص من عدد من ناشطي (إيتا)، وبعض الأبرياء أيضا، ولكنها لم تساهم بشيء يذكر للتسريع بحل للصراع وإنما زادت أكثر من شعور (إيتا) بأنها الضحية. وذهب عدد من الوزراء الاشتراكيين إلى السجن لدورهم في تلك الحملة. كما فشلت محاولات التعاون من قبل بعض عناصر قوات الأمن البريطانية مع القتلة الموالين لبريطانيا في أيرلندا الشمالية. إلا أنه حتى هذا التاريخ هناك إيحاءات سيئة تتسرب أحيانا في بعض التعليقات والآراء التي تقول أن عمليات القتل الثأرية - هذه بتلك - لها عامل مثبط يثني الإرهابيين عن المضي في نشاطهم. وهذا رأي مخطئ مائة بالمائة. فلربما كان من المغري أن نثأر من الإرهابيين القتلة انتقاما منهم، ولكن النتيجة الوحيدة لذلك هي تصاعد عمليات العنف. فوجود فرق الاغتيالات شبه العسكرية في السلفادور وكولومبيا، مثلا، أطال عمر الصراع وجعل من الصعب تسويته، بدلا من اختصار الطريق نحو حل له.

يدعي القادة العسكريون، عندما تطول الحملة العسكرية لفترة أكثر مما هو متوقع، أنه لو توفرت لهم الإمكانيات والطاقات وتنحى السياسيون جانبا لكان بإمكانهم إنهاء المهمة بأكمل وجه. هذا ما استعمل في أفغانستان عندما أقنع الرئيس أوباما بحشد قوات للمرة الأخيرة ضد طالبان في عام 2009. وحسب جوشوا لاستيغ Joshua Lustig في النشرة الدورية 'التاريخ الجاري' *Current History* أن الجنرالات الأمريكيين كانوا، أثناء فترة أخذ القرار في واشنطن، "منهمكين في قراءة كتاب لويس سورلي Lewis Sorley 'حرب أفضل' A Better War، وهو مراجعة تاريخية تقول أنه كان من الممكن لأمريكا كسب الحرب الفيتنامية لولا تعثر الدعم الداخلي"، بينما كان موظفو البيت الأبيض يتداولون دراسة أخرى بعنوان 'دروس في الكارثة' *Lessons in Disaster* التي أعدها ماكجورج بندي McGeorge Bundy، مستشار الأمن الوطني للرئيسين جون كنيدي وليندن جونسون. من المغري دائما الاعتقاد أنه ممكن، ببذل مجهود أكبر، القضاء على الإرهابيين، ولكن كما بينا في الفصل الأول من هذا الكتاب، ليس هناك دليل على أن هذا الأسلوب ناجع إطلاقا (إلا في دراسات التاريخ

المراجع) بما في ذلك في أفغانستان، حيث عملية الحشد العسكري التي قامت بها أمريكا في 2011 لم تحقق نجاحا يذكر.

الملجأ الآخر هو 'المصالحة' و'إعادة الدمج' التي جربت أيضا في أفغانستان والعراق. واستعمال مصطلح 'المصالحة' هنا غريب بعض الشيء لأنه لا توجد محاولة للوصول إلى اتفاق أو التوفيق بين طرفين متخاصمين، لكن الهدف هو برنامج لكسب مؤيدي الجماعة المسلحة أولا بأول، بالتكرم عليكم بحياة وأمن جديدين بقدر ما يمكن تحقيقه من الحياة والأمن. ففي أفغانستان، حسب ما أورده مراسل صحيفة الغارديان *Guardian* الإنجليزية جاسون بورك Jason Burke، بدأ البرنامج بـ 'الطبقة الثالثة من طالبان'، 'المقاتلين البسطاء'، الذين شجعتهم الحكومة الأفغانية على تسليم أسلحتهم مقابل حصانة ضد المتابعة القانونية. ثم هناك "الجهود لإشراك طبقة أعلى شيئا ما من طالبان، خصوصا قادة المجموعات التي ما بين عشرين إلى المائتين مقاتل.. وهؤلاء هم 'طالبان الطبقة الثانية' الذين انخرطوا عبر مجموعات من الوسطاء في عدد من المبادرات المحلية. وقد لاقت هذه الجهود شيئا من النجاح". ولكن في الوقت الذي قد تساهم فيه برامج المصالحة هذه في تخفيض أعداد المقاتلين، فإنها لا تؤثر إذا كان الهدف هو تسوية المشكلة التي هي أساس الصراع المسلح.

عند هذه النقطة، عادة، ما تكتشف الحكومات من جديد دروس حملات ملاوي التي أشرنا إليها سابقا، وخاصة أهمية معالجة القضايا والمظالم التي تغذي الصراع القائم. ففي أيرلندا الشمالية كان الجيش هو أول من لاحظ الحاجة إلى معالجة التعصب الطائفي في مجالي السكن والعمالة وذلك قبل ن ينتبه السياسيون لها. ومع ذلك فإن الاعتراف بضرورة معالجة المظالم أمر ضروري ولكنه غير كاف لتسوية الصراع.

وحتى عندما تتوصل الحكومات إلى استيعاب الفكرة من وراء المحادثات مع الإرهابيين، تواجهها حقيقة أخرى وهي أنه، قبل كل شيء، كان عليهم أن تكون لهم اليد الطولى عسكريا لضمان الحصول على مواقع أقوى أثناء المفاوضات. يتذكر أف دبليو ديكلارك أن قوات الأمن في جنوب أفريقيا قالت

له: "إننا نحتاج أن نرطب خصومنا قبل أن نشرع في الحديث معهم". ويكتب كل من كروكر Crocker وهامبسون Hampson وعال Aall فيقولوا أن رئيس وزراء إسرائيل أرييل شارون قال في مارس/آذار 2002 أنه "إذا كانت هزيمة الفلسطينيين ممكنة، فلا حاجة إلى المفاوضات... بعد أن يهزموا فقط يمكننا أن نبدأ في إجراء محادثات معهم". وسمعنا كلاما مثل هذا قيل في أفغانستان، حيث قال الجيش الأمريكي أنه في حاجة إلى إحراز انتصار على طالبان قبل أن يكون من حقنا الحوار معهم من موقع القوة. وحيث أنه في الواقع من الأمور النادرة بل الصعبة، جدا، تحقيق انتصارات ساحقة.. فمن المتعذر أن يتيقن المرء متى يكون استخدام ما يكفي من الضغط العسكري قد يمكنه من احتلال موقع القوة. فبالنسبة للجمعات المسلحة قد يكون مجرد البقاء على قيد الحياة هو الكافي والمطلوب. فيظل متى يحتل المرء موقع القوة هو في الحقيقة أمر خيالي، وربما كان له أثر محدود على نتائج المفاوضات، ولعله كان من الأولى الدخول في محادثات منذ فترة مبكرة، وأجدر أن تحقن الدماء.

وأخيرا ما تدرك الحكومات الأسلوب الأمني الصرف لن ينجح، ولا مفر من الحديث وجها لوجه. وحسب المختص الإيطالي في شؤون تسوية الصراعات أندريه بارتولي Andrea Bartoli، أن تشيسانو Chissano رئيس موزمبيق، بعد استلامه السلطة هناك، عقد مناقشات مع القيادة العسكرية حول الاتجاه الذي تسير فيه الحرب مع حركة المقاومة الموزمبيقية (رينامو) RENAMO المتمردة. القادة العسكريون قالوا أن المشكلة مالية، وأن بإمكانهم الانتصار في الحرب لو أن تشيسانو وفر لهم المزيد من الأموال، وهذا ما فعله تشيسانو. وهكذا استطاع الجيش إحراز بعض المكاسب في البداية ولكن ضغوط الميزانية استمرت بسبب انحسار الدعم من حلفاء الكتلة السوفياتية. وهذا دعا بالجيش أن يطالب بمزيد من الأموال، ووعدوا بهزيمة (رينامو) وحددوا موعدا نهائيا لذلك. لبى تشيسانو مطلبهم ولكن بشرط أنه سيسعى إلى التوصل إلى حل سياسي إن لم يلتزموا بوعدهم. وعندما حان الموعد الذي حددوه و لم يتحقق انتصارهم العسكري، انحسرت المقاومة العسكرية ضد

المفاوضات وانطلق تشيسانو إلى إيجاد وسائل واتصالات غير مباشـــرة مـــع المتمردين.

ويبقى موضوع الضجة السياسية التي ستواجهها الحكومـــات اذا مـــا ذاع خبر تحاورها مع جماعات مسلحة. وغالبا ما تبدأ هذه المشاركة مع الإرهـــابيين عن طريق 'دبلوماسية الميكروفونات' وليس عن طريق محادثات مباشرة. في عـــام 1990 القى بيتر بروك Peter Brooke، سكرتير الدولة لشؤون أيرلندا الشـــمالية، سلسلة خطب تعرض فيها أولا للمفاوضات مع قبرص كنموذج للمحادثات في أيرلندا الشمالية، ثم قال، وهذا الأهم، أن بريطانيا "ليس لديها استراتيجية خاصة أو مصلحة اقتصادية" في أيرلندا الشمالية، أي أنه صـــرح فعليـــا أن الحكومـــة البريطانية موقفها محايد في تلك المقاطعة. الكلام كان مقصودا لتســـمعه قيـــادة الجيش الجمهوري الأيرلندي (آي آر يه) وأقل عدد من البريطانيين، ولذلك جاء تصريح بروك في خطاب أمام جمعية مستوردي الأطعمة المعلبة Association of Canned Food Importers. قوبلت تلك التصريحات بإجابات على نفس الموجة من قبل جيري آدمز ومارتن ماغينس مشيرين إلى اهتمامهما بما تعرضه الحكومة من أفكار. واصل باتريك ماهيو Patrick Mayhew، خليفة بروك، الرقص علـــى نفس النغمة، ملمحا أنه في حالة توقف العنف فمن الممكن التوصـــل إلى حـــل وسط سياسي. هذه الخطب كانت تتم بناء بالتنسيق، إلى حد كبير، من خـــلال القنوات السرية التي كانت قد فتحت بين الطرفين: الحكومة البريطانية والجـــيش الجمهوري الأيرلندي.

خطب وتصريحات من هذا النوع عندما تصدر في بداية عملية التواصـــل يمكن أن تساعد الحكومة في وضع المفاوضات في إطار تستطيع أن تكسب فيـــه قصب السبق أكثر من لو أنها استعملت أي قدر من القـــوة العســـكرية. في 2٠ فبراير/شباط 1990 فاجأ أف دبليو ديكليرك العالم كله بمـــا جـــاء في خطابـــه الافتتاحي أمام البرلمان في جنوب أفريقيا. فقد كان متوقعا أن يكون رئيسا محافظا نسبة لسابقه بـــي دبليو بوتا، ولكنه دلل بوضوح على أن لديه رغبـــة جامحـــة لطرح مشروع إصلاحي لا عودة فيه. لقد كتب ذلك الخطاب بخط يده علـــى

منضدة المطبخ في استراحته على شاطئ البحر، وأكمله على مائدتـــه في ســكنه الرسمي (لأن زوجته كانت ترغب في مشاهدة التلفزيون في غرفة الجلــوس). لم يخبر ديكليرك المؤتمر الوطني الأفريقي، ولا مؤتمر الحزب الوطني، و لم يخبر حــتى زوجته بما احتواه ذلك الخطاب.. وكان يعتقد جازما أنه "سيكون من الضروري تحديد كل العقبات الباقية في طريق المفاوضات، والتعرض إليهم جميعا في جملــة واحدة.. وحاولت، بصفة خاصة، تفادي الانطباع أنني أقدم التنازل تلو التنازل بفعل الضغوط". وفكر "أنه من الضروري أن نقفز على كل التوقعات وأن نضع الحزمة بالكامل على مائدة المفاوضات جملة واحدة كخطوة أولى نفتــتح بهــا العملية. فسبقنا التوقعات، وأخذ المؤتمر الوطني الأفريقي على حين غرة، وتمكنــا من وضع أنفسنا، في نظر العالم، في موقع الشريك المعقول والجدي في البحــث عن تسوية دستورية متوازنة".

حافظ ديكليرك على عنصر المفاجأة بحرص شديد "وفي 2 فبرايــر/شــباط 1990 كان هناك حشد كبير من الإعلام العالمي في جنوب أفريقيا لم يسبق لــه مثيل في تاريخنا. ولكن ذلك الحشد جاء لأنه كان يتوقع إطلاق سراح نيلســون مانديلا، لا ليستمع إلى خطابــي. لقد كان من الأهمية بمكان أن نؤجل إطلاق سراح مانديلا أسبوعا من الزمن، حيث ستكون كرة الاتصالات تحت تصرفنا، والفرق الإعلامية عليها أن تركز على ما قلناه نحن". جُمع الصحفيون في غرفــة مقفلة بجوار مبني البرلمان للاطلاع على خطاب الرئيس نصف ساعة قبل الموعد المحدد لإلقائه من قبل الرئيس مباشرة. وبينما هم يقرأون الخطاب سرت همهمــة في أركان الغرفة، وهمس الصحفي من جنوب أفريقيا أليستر سباركس Allister Sparks لزميله من صحيفة الواشنطن بوست Washington Post قائلا: "يا الله، لقد حقق كل ما في مبتغاه". فلأنه كان شجاعا و لم يجزئ القضايا، وألزم نفســه بإخراج نلسون مانديلا من السجن ورفع الحضر على المؤتمر الوطني الأفريقــي، أشار ديكليرك في الوقت نفسه للطرف الآخر أنه راغب في التحــرك قــدما إلى الأمام نحو المفاوضات وحدد الأطر والطريق التي ينبغي أن تســير فيــه تلــك المفاوضات. ويقول ديكليرك: "لقد أدركت أننا إذا لم نمسك بخيوط المبادرة منذ

البداية ونقنع اللاعبين المهمين أننا لا نتفاوض بحكم ضغوط تمارس علينـــا وإنمـــا نتفاوض انطلاقا من قوة قناعاتنا، فإن فرص نجاحنـــا في المفاوضـــات القادمـــة ستكون ضعيفة جدا".

ولكن في النهاية، الخطب وحدها لا تكفي. الحكومة واقعة تحت خيـــارين أحلاهما مر. إذا هي لم تتحاور مع الجماعات المسلحة وتقنعها بوجـــود طريـــق سياسي سلمي للتقدم إلى الأمام، فإن العنف في هذه الحالة لن يتوقف. وفي آخر المطاف تقرر الجماعات أن تدخل في محادثات ولكن عليها التغلب على عقبات كبيرة حتى تتمكن من ذلك. في بعض البلاد أي اتصال من أي نوع بالجماعات المسلحة يعد جريمة يعاقب عليها. في عام 2010 صوتت أغلبية من المحـــافظين في المحكمة العليا في الولايات المتحدة على تأييد القانون الوطني Patriot Act الـــذي يجرم توفير أي دعم للإرهابيين بما في ذلـــك تقـــديم "استشـــارات الخـــبرة أو المساعدة"، أو "لتدريب" أو "الخدمات" حتى في حالة ما يكون الهدف من هـــذه المساعدة إحلال السلام. فإذا علمنا أن الخارجية الأمريكية لديها قائمة بثمانيـــة وخمسين منظمة إرهابية أجنبية، وأن وزارة المالية الأمريكية لديها عددا أكبر من هذه المنظمات على قوائمها، فإن هذا القانون يجعل من المستحيل نظريا على أي مواطن أمريكي أن يجلس على طاولة واحدة مع أي ممثلين لجماعات مسلحة في أغلب أنحاء العالم. ونظرا لأن للقانون الأمريكي تأثيرا خارج الولايات المتحـــدة، فمن الممكن في الواقع أن ينطبق هذا القانون على أي إنسان يقوم بهذا النوع من العمل في أي مكان من العالم. لقد أدى هذا الأمر، كما قال الرئيس الأمريكـــي السابق جيمي كارتر Jimmy Carter: "إلى وضع يمكن فيه لشخص يعمل مـــن أجل بناء السلام ولكنه يقدم تمرينات حول التفاوض أو يعطي دورة دراســـية في مجال القانون الإنساني لجماعة مسلحة مسجلة في القوائم، أن ينتهي به الأمر إلى غياهب السجون".

وكذلك الحال بالنسبة إلى وصم بعض الجماعات المسلحة بأنها إرهابية من قبل الاتحاد الأوروبـــي، يجعل من المستحيل عقد اجتماعـــات معهمـــا في دول الاتحاد (مما يزيد في أهمية بلاد مثل النرويج وسويسرا التي يمكن أن يـــتم فيهـــا

تصرف كهذا). يقول مركز برغوف Berghof Center: "رغم أن الآثار القانونية لما أصدره الاتحاد الأوروبـــي من قانون مضاد للإرهاب بالنسبة للتوسط محدودة جدا، فإن المؤثرات السياسية لقرار الاتحاد بإقصاء الجماعات المســلحة وغيرهـــا ذات أثر بعيد. فقد زادت من المخاطر السياسية على مبعوثي الاتحاد الأوروبـــي ودوله الأعضاء، وقلصت من مصداقية الأعضاء وحياديتهم المعروفة عند بعـــض أطراف النزاعات". فبعض الجماعات "تعتقد أنها أصبحت في القوائم لمدى الحياة. وهذا – واقعيا – يزيح أي حوافز تشجع على تغيير في السلوك، ويؤدي بدلا من ذلك إلى مزيد من الإقصاء والتشدد والراديكالية لدى الجماعات بما يقلل مـــن فرص التسويات عبر التفاوض في المستقبل".

رد الحكومات على كل هذه الصعوبات غالبا هو نفي كونهم يتحادثون مع إرهابيين حتى وإن كانوا على اتصال بهم. في نوفمبر/تشرين الثـــاني 1993 قـــال رئيس الوزراء البريطاني جون ميجر: "أن أجلس وأتحدث إلى السيد جيري آدمز والجيش الجمهوري الأيرلندي... يصبني بمغص في معدتي، ولا يمكن أن أفعلـــه أبدا". ومع هذا كان ميجر في ذلك الوقت يتبادل الرسائل ســـرا مـــع مـــارتن ماغينيس. وفي مارس/آذار 1993، وفي خضم المراسلات، أقدم الجيش الجمهوري الأيرلندي على تنفيذ تفجيرات في وارينجتن Warrington وقتل طفلـــين. فلـــو كانت اتصالات جون ميجر مع الجيش الجمهوري في ذلـــك الوقـــت معلنـــة لواجهت الحكومة البريطانية مطالب شديدة بإنهائها فورا بعد التفجيرات، ولكان من المستحيل في تلك الظروف إقناع الجيش الجمهوري بإعلان وقف إطـــلاق النار عام 1994. وردا على مساءلات في البرلمان، نفى رئيس الوزراء الإســـباني ثاباتيرو ووزير داخليته ألفريدو روبالكابا Alfredo Rubalcaba بـــأن محادثـــات تجري مع (إيتا). كان هذا جزءا من أسلوب طويل المدي لنفي أمـــور مشـــابهه يرجع إلى وفاة الرئيس فرانكو. ففي عام 1980 نفى رئيس الـــوزراء المحـــافظ، أدولفو سواريث Adolfo Suarez، أمام البرلمان بأن هناك مفاوضات مع (إيتـــا) قائلا: "أن الحكومة لم يسبق لها في أي وقت من الأوقات الاجتماع مع (إيتـــا) للتفاوض". وتحداه زعيم المعارضة الاشتراكي فليبـــي كونثالث قائلا إنهما ناقشا

الموضوع سويا بصفة شخصية، إلا أن سواريث استمر في نكران الأمر رغم أنه حصل فعلا. وهنا تلجأ الحكومات إلى التفريق بين استخدام لفظ 'محادثات' ولفظ 'مفاوضات' كي تكون اقتصادية جدا في تصريحها بالحقيقة.

كما تسعي الحكومات إلى أبعد ما يمكن لتضمن إنكار أي اتصالات مع إرهابيين. ويقول دين برويت Dean Pruitt "من السهل أن يتحقق" التقدم في السر باستخدام وسطاء "لأنه من الصعب بالنسبة للذين هم خارج العملية أن يتتبعوا الخطوط السرية بينما يسهل عمن هم داخلها إنكار وجود تلك الخيوط". لقد رتبت حكومة ثاباتيرو لمفاوضاتها أن تكون قابلة للإنكار بتعمدها استعمال قنوات غير رسمية. لقد اختار الإسبان منظمة غير حكومية مقرها سويسرا ومتحفظة كوسيط دولي، و لم يكلف رئيس الوزراء بالأمر وزير الداخلية، خوزيه أنتونيو ألونسو Jose Antonio Alonso المسؤول على الإرهاب، وإنما أحاله برمته إلى ألفريدو روبالاكابا المتحدث باسم الحزب الاشتراكي في البرلمان والذي لم يكن، من الناحية الفنية، عضوا في الحكومة. هذا الترتيب سمح لرئيس الوزراء أن يحافظ على الحبكة الروائية أن أي اتصال مع (إيتا) هو غير رسمي وأن يحافظ على مسافة فاصلة بينهما لأطوال مدة ممكنة. و لم يقدم ثاباتيرو على تحويل روبالاكابا إلى وزارة الداخلية إلا بعد إعلان وقف إطلاق النار في 2006 ليصبح رسميا مسؤولا على المحادثات التي كان هو في الواقع الذي يديرها لمدة سنة قبل ذلك. كل الاتصالات التي كانت تتم وجها لوجه مع (إيتا) في جيف لم تكن مع ممثل للحكومة وإنما مع إيجويجورن رئيس الحزب الاشتراكي في بلاد الباسك الذي لم تكن له صفة رسمية أو منصب حكومي. ويقر إيجويجورن أنه وضح الأمر أثناء الاجتماعات مع (إيتا) بأنه لا يمثل الحكومة ولا الحزب الاشتراكي على مستوى إسبانيا. وثاباتيرو من طرفه أجاز المحادثات ولكنه وضح بما لا شك فيه أنه سينكر وجودها إن انكشف أمرها.

كما أن عملية أوسلو كانت مصممة لتكون قابلة للنكران. ياعير هيرشفيلد اختير بالتحديد لكونه أكاديميا وليس شخصية رسمية، واختار هو زميلا أكاديميا آخر يصاحبه، رون بنداك. وكما قال هيرشفيلد: "لم يكن ليخطر على بال

صحفي إسرائيلي أن ما كان يجري هو حوار رسمي". لقد كان هيرشفيلد مقربا من يوسي بايلين الذي كان بحكم موقعه كنائب لوزير الخارجية قادر علـــى أن تظل المناقشات تسير على الطريق المستقيم من وجهة النظر الإسرائيلية. أما على الجانب الآخر فقد كان الفريق الفلسطيني في أوسلو - بحكم مرتبته الأدنى نسبيا - قابل للتملص منها ونكرانها كذلك. وتنتهي وقائع المحادثات إلى القـــول "إن دور أبـــي علاء ليس هو الذي جعل أوسلو مهمة، ولكن أوسلو هـــي الـــتي صنعت أبا علاء". فقد اعتمد أبو علاء على أبـــي مازن في تونس تمامـــا كمـــا اعتمد هيرشفيلد على بيلين. وكانت مساهمة النرويجيين كذلك عن بعد بمســـافة كافية. فلم تنظم المحادثات من قبل الحكومة النرويجية وإنما تولاها المعهد التطبيقي للعلوم الاجتماعية، وهو مؤسسة غير معروفة تابعة لحركة اتحاد العمال النرويجيين تقوم بإعداد دراسات عن مستوى المعيشة في الأراضي الفلسطينية (الضفة الغربية وغزة)، مما وفر غطاءً ممتازا لنشاطاتهم. وكانت خلاصة ما قالـــه بـــيلين قبـــل انتخابات 1992 أنه "لو كانت لا توجد محادثات سرية بيننا وبين الفلســـطينيين، فإن شيئا لن يتحقق".

أبو علاء يوافق على ذلك إذ يقول: "السرية كانت الشرط المسبق الأساسي لنجاح المفاوضات. اعترف الطرفان بهذه الحقيقـــة منـــذ البدايـــة. وإلا كـــان المعارضون للمفاوضات من كلا الطرفين في موقف يمكنهم من تقويضها في أي لحظة". يقدم الكاتبان جـــولي بـــراون Julie Browne وإرك ديكســـون Eric Dickson من جامعة نيويورك تفسيرا للذريعة التي استخدمت فيقولا: "في صيف عام 1993 ظهر رئيس الوزراء الإسرائيلي إســـحاق رابـــين علـــى التلفزيـــون الإسرائيلي ونفى أن يكون هناك احتمال إجراء مفاوضات بينه وبـــين قيـــادات منظمة التحرير الفلسطينية.. ولكن على بعد آلاف الأميال نحو الشمال في منزل ريفي عتيق في إحدى الغابات النرويجية كانت شخصـــيات إســـرائيلية رسميـــة منهمكة في محادثات سرية مع قادة فتح. كان رابين علـــى علـــم تـــام بهـــذه المفاوضات وهو يتحدث أمام عدسة التلفزيون. ومع ذلك اســـتمر في التنديـــد بمستقبل التفاوض مع فتح في اللحظة التي كانت المفاوضات قائمة علـــى قـــدم

وساق". في يوليو/تموز 1993 أصر متحدثون باسم الحكومة الإسرائيلية "أن رفض الإسرائيليين للتفاوض مباشرة مع الجماعة الفلسطينية، التي تتخذ من تونس مقرا لها، لا يزال قائما على أساس أنها جماعة إرهابية ملتزمة بالقضاء على دولة إسرائيل". لم يكن هؤلاء المتحدثون كاذبين، ولكن، وبكل بساطة، أحدا لم يخبرهم بمحادثات أوسلو. كتب يوري درومي Uri Dromey، المتحدث باسم وزارة الخارجية الإسرائيلية في ذلك الوقت، في صحيفة هيرالد تريبيون *Herald Tribune* الأمريكية، بعد عشرين سنة من ذلك التاريخ يوضح: "أن أقول أن اتفاقية أوسلو كانت مفاجأة بالنسبة لي فهو أمر يجانب الحقيقة بكثير... فهي في الوقع كانت صدمة. وأسوة بكل الشخصيات الإسرائيلية الأخرى كنت أردد التسبيحة المعتادة وهي أننا لن نستطيع التحدث مع فتح تحت أي ظرف من الظروف".

النكران جاء في جنوب أفريقيا في شكل جهاز الاستخبارات الوطني الذي يديره نيل بارنارد، الذي تولي ترتيب الاجتماعات السرية من المؤتمر الوطني الأفريقي في المنفي في سويسرا. فحسب ما ذكره أليستر سباركس، عقد أول اجتماع 'لعملية القدرة الفطرية' Operation Flair في فندق بالاس في مدينة لوسيرن يوم 12 سبتمبر/أيلول 1989 متعمدا أن يكون انعقاده بين انتخاب ديكليرك للرئاسة وتنصيبه كرئيس. اختار بارنارد سويسرا لأن مواطني جنوب أفريقيا لا يحتاجون إلى تأشيرات للدخول لسويسرا، وأرسل نائبه مايك لو Mike Louw ورجاله الآخرين بجوازات سفر مزورة. وذهب مايك لو للتسجيل في الفندق بينما بقي جزء من الفريق في مطار جنيف ينتظر وصول عضوي المؤتمر الأفريقي، تابو إمبيكي وجاكوب زوما Jacob Zuma، ثم تتبعهما في خفية وهما في سيارة يسوقها أحد أعضاء المؤتمر الوطني الأفريقي المقيمين في سويسرا. وصل الرجلان إلى فندق بالاس بعد الظهر. ويتذكر إمبيكي ما قاله لزوما بلغة الزولو وهما في الممر متجهان إلى الغرف: "يصيبني مغص بمجرد أن أشعر أننا بعد لحظات سنلتقي مع رجلين من أعدى أعدائنا". واعترف زوما فيما بعد "أنه كان وتابو في رعب بينما كانا متجهين إلى غرف في الفندق فيها عملاء جهاز

المخابرات الوطني في لوسيرن... وكان يراودنا السؤال: ماذا لو كانت العملية كلها فخا؟". ودخلا باب الغرفة الذي تركه مايك لو مفتوحا وصاح إمبيكي لرجال المخابرات "ها نحن قد وصلنا.. الإرهابيون اللعناء.. وفوق ذلك، حسب رأيكم، الشيوعيون الحقراء". هذه الكلمات ذوبت الجليد وأتاحت للرجال أن يستمروا في الكلام حتى الثالثة صباحا.

في السابع عشر من سبتمبر/أيلول قدم مايك لو تقريره عن الاجتماع إلى الرئيس الجديد ديكليرك الذي أُخذ بما سمع في البداية، ثم بعد ذلك انزعج. فطالب بأن يعرف من أين حصلوا على التفويض بإجراء محادثات. وأطلعه بارنارد على المذكرة (أس أس سي 13) SSC Memo 13 التي قدمها بارنارد إلى المجلس الأمني للدولة State Security Council في اليوم التالي لليوم الذي أدى فيه ديكليرك القسم، والتي اقترح فيها بذل مجهود أكبر لجمع معلومات أكثر عن المؤتمر الوطني الأفريقي والتعامل معه، دون أن يذكر له شيئا عن الاجتماعات المعتزم عقدها. وكان ديكليرك مؤيدا للاقتراح الذي اعتقد جهاز الاستخبارات الوطني أنه يعطيهم التفويض للاتصال بإمبيكي وزوما. وادعى بارنارد فيما بعد أنه كان يريد ليّ ذراع ديكليرك بهذه الطريقة ولكن ديكليرك يقول: "لم يضغط عليّ أحدا إطلاقا... لم يكن ضروريا أن نتلاعب بفكرة الاجتماعات بين الحكومة والمؤتمر الوطني الأفريقي. ولكن الذي أزعجني هو أنني كرئيس دولة مؤقت لم أستشر كما يجب في موضوع الاجتماعات في سويسرا.. ولكنني بالتأكيد لم أكن لأعارض لو أنني أخبرت مسبقا بالموضوع".

بينما توظيف أجهزة المخابرات والمنظمات المحايدة والأكاديمية في هذا الصدد يمكن أن يسمح للحكومات بهامش من الحرية للنكران والتملص من المسؤولية التي تحتاجها لتأسيس الاجتماعات الأولية مع الجماعات الخارجة عن القانون، وبالتالي حماية المواقع السياسية للوزراء، فمن شأنه كذلك أن يؤدي إلى تضارب الرسائل واحتمال سوء الفهم. يقول برويت "رغم أن الوسطاء عادة ما يكونوا من ذوي الثقة والمعروفين جيدا لدى الفرقاء، مما يسهل عملية الاتصال، فإن وجود سلسلة من الوسطاء يشكل في حد ذاته مشكلة من تضارب الرسائل

والأجندات الخاصة لدى الوسطاء أنفسهم". فقد اتفق إجويجورين على خريطة طريق لعملية السلام مع (إيتا) الإسبانية وبأقل قدر من التشاور مع مدريد، ولكن عندما دخلت العملية مرحلة الجد وبدأ الطرفان في تنفيذ المشروع بدأ الغموض في التفسيرات وعدم توفر التزام حقيقي من طرف الحكومة مما يؤدي إلى تفكك الاتفاق. وفي أيرلندا الشمالية لا يزال مارتن ماغينيس ينكر إرسال رسائل تقول "حربنا انتهت" مما أدى إلى مراسلات مع رئيس الوزراء البريطاني جون ميجر، وأنه من الواضح الآن، وبالنظر إلى الوراء، أن أحد الوسطاء في سلسلة الاتصال بين الحكومة الجيش الجمهوري قد قام بتلميع الرسالة شيئا ما.

كما أن إمكانية نكران الاتصالات لا تحصن الحكومات ضد التسريبات العفوية أو المتعمدة. في مايو/مايس 1993 عندما كانت محادثات أوسلو الفلسطينية في خضمها، وبينما كان يان إيجلاند Jan Egeland في طريقه من وزارة الخارجية إلى هيفتي هاوس Heftye House في النرويج حيث تعقد المحادثات، سارع المتحدث الصحفي إلى مكتبه وبيده تقرير من وكالة الأنباء الفرنسية في واشنطن ينقل عن مصدر مجهول كلاما لوزارة الخارجية الأمريكية يؤكد وجود قناة نرويجية سرية بين الإسرائيليين والفلسطينيين. أصدر إيجلاند تعليماتها للمتحدث باسم الخارجية ليقول أن القصة أصلها سوء فهم وربما تشير إلى مؤتمر كبير معلن ومتعدد الجنسيات حول اللاجئين الفلسطينيين قد اختتم أعماله في أوسلو كجزء من عملية السلام التي ترعاها الولايات المتحدة. عند الوصول إلى هيفتي هاوس، اطلع إيجلاند الوفد الإسرائيلي على الخبر الذي قالوا أنهم يعتقدون أنهم قادرون على التعامل معه ولكن ينبغي حجب الموضوع على الفلسطينيين لأن المحادثات تمر بمرحلة حرجة جدا. وبعد عشر دقائق أطلع على القصة أبو علاء الذي وصله الخبر عن طريق تونس وأصدر تعليمات للتعامل معه، ولكنه نصح بعدم إطلاع الإسرائيليين عليه لأن المحادثات تحقق تقدما جيدا. واتضح بشكل سريع أن مصدر الخبر هو دان كيرتزر Dan Kurtzer في الخارجية الأمريكية. كيرتزر أحيط بتفاصيل الموضوع ولكن نائبه لم يخبر بشيء حول المحادثات. فقد كان النائب في زيارة للنرويج والتقى صدفة برووود لارسن فأخبره

عن علمه بأن شيئا ما يطبخ في أوسلو وإذا لم يوافيه بالتفاصيل فسيقوم بكل ما وسعه لإيقافه. روود لارس أصابه الرعب فما كان منه إلا أخبره بكل شيء. واشتاط شمعون بيريز غضبا لما أكتشف القصة وأصر على أن يتوقف الطرف الإسرائيلي على إعطاء واشنطن أي معلومات لمدة أربعة أشهر.

الخطر الأكبر على الحكومات هو التسريب المقصود للمعلومات. ففي عام 2007 قررت (إيتا) تسريب القصة مع الحكومة الإسبانية من وجهة نظرهم إلى صحيفة غارا Gara الناطقة باسمهم في بلاد الباسك. لقد نشروا محاضر الاجتماعات بطريقة وبتوقيت متعمدين لإحداث أكبر قدر ممكن من الضرر للحكومة الاشتراكية، التي كانت تترنح من جراء سلسلة من الكوارث السياسية والاقتصادية. بعد التسريب استخدم زعيم المعارضة، ماريانو راخوي Mariano Rajoy، نقاشا في الجمعية التشريعية ليطالب الحكومة بنشر المحاضر الرسمية لتلك الاجتماعات، وهو بطبيعة حال، ما رفضت الحكومة أن تستجيب له. أما في أيرلندا الشمالية فقد قرر الجيش الجمهوري الأيرلندي تسريب مراسلاتهم مع حكومة جون ميجر البريطانية لصحيفة الأوبزرفر اللندنية، عندما أوقفت الحكومة الاتصال في 1993. استجابت الحكومة ردا على ذلك بنشر سجلاتهم عن المراسلات، فما كان من الجمهوريين إلا تكذيبها ونشر ما لديهم من مراسلات. وهكذا وجدت الحكومة نفسها تعترف بأن نسختها من المراسلات تحتوي على مجموعة أخطاء... وبينما كان سكرتير الدولة بادي ميهيو Paddy Mayhew يستعد للظهور أمام البرلمان، كان على قناعة تامة أنه سيطالب بالاستقالة بسبب الاتصالات بالجمهوريين التي طالما نفتها الحكومة بكل صراحة أمام البرلمان. ولكن بالعكس من ذلك وجد سكرتير الدولة نفسه محل إكبار ودعم من الطرفين، الحكومة والمعارضة، في البرلمان، حيث استوعب أعضاء البرلمان جيدا ضرورة أسلوب الاتصالات والسرية التي صاحبته.

إن الذي يثبط الحكومات ويهون من حماسها ليس هو النقد الشديد أو الكلام القاسي المحتمل الذي يقال حول محادثات من هذا النوع، ولكنها الصعوبات العملية التي يمكن أن تخلقها في الواقع. فلكي تنجح الحكومة عليها أن

تكسب إلى صفها العسكريين، ولكن 'رجال الأمن' أحيانا يصرون على تخريب العملية من أساسها. فالشرطة في جنوب أفريقيا وقوة دفاع جنوب أفريقيا South African Defence Force SADF استمرت في تنفيذ عمليات سرية من وراء ظهر الرئيس ديكليرك، مما أجج عنف السود ضد السود المروع الذي كان على وشك أن يغير اتجاه عملية السلام برمتها، حتى اكتشفته هيئة جولدستون مما أدى إلى إيقاف ثلاثة وعشرين من الضباط الكبار عن أعمالهم. ويقول ديكليرك أن معظم كبار ضباط جهاز الأمن كانوا مخلصين في أداء أعمالهم ولكن "كان من الواضح أيضا أن هناك عناصر خارجة كانت مشاركة في نشاط معادٍ، هدفها تخريب عملية السلام".

لا بد أحيانا من أن تخاطر الحكومات بتحرك أمني للدفع بالمحادثات إلى الأمام في مرحلة من المراحل الحاسمة. ظلت ساوث أرماه South Armagh، وهي منطقة المرتفعات الحدودية العازلة بين أيرلندا الشمالية وجمهورية أيرلندا، مركزا للتهريب والجريمة قبل أن بدأت الأحداث في أيرلندا الشمالية. وكانت قاعدة لأقوى لواء عسكري للجيش الجمهوري الأيرلندي. كانت رؤوس المرتفعات مرشقة بأبراج ومنصات يديرها عناصر من الجيش البريطاني لمراقبة ورصد ما يدور في الوديان، بالإضافة إلى مواقع استراتيجية تطل مباشرة على الأبواب الرئيسية لبيوت بعض القيادات الرئيسية في الجيش الجمهوري. وقد حثنا آدمز وماغينيس على إزالة تلك الأبراج بحجة لو أن أعضاء لواء أرماه الجنوبية الجمهوريين يلاحظون تغيرا حقيقيا في حياتهم اليومية فسيدعمون عملية السلام بكل حماس. ولكن العسكريين، على الطرف الآخر، يدعون أن الأبراج ضرورية لمنع أي هجومات يقوم بها الجمهوريون المنشقون الذي خرجوا عن سيطرة الجيش الجمهوري. وعندما عرضنا هذه الفكرة على آدمز وماغينيس كان ردهم أن أكبر ضربة تصيب المنشقين هي كسب لواء أرماه الجنوبية بالكامل إلى صفنا. قبلنا بهذه الحجة رغم الخطر الكبير – فإن حصل هجوم كنتيجة لذلك فسنكون دفعنا ثمنا في الأرواح وثمنا سياسيا في آن واحد، ولكن بدون الإقدام على تلك المخاطرة فإنه من شبه المستحيل أن ننجح في تحقيق السلام.

هناك عدد من الجماعات في مجتمعنا هذا متعدد الطوائف والفرق والنحل الذين بإمكانهم تثبيط وتخريب قدرة الحكومات على فتح اتصالات علنية مع الإرهابيين، حتى وإن قرروا أن هذا العمل صحيح وصائب. فتنشأ جمعيات للضحايا لتقدم المساعدات والدعم إلى أولئك الذين أصيبوا في هجمات إرهابية وإلي الذين قتلت فلذات أكبادهم. ويقوم هؤلاء بأعمال جيدة لتخفيف آلام بعض من هم في أمس الحاجة لذلك. والجدير بالذكر أن بعض الضحايا أنفسهم أيضا يبذلون جهودا كبيرة في محاولات من أجل المساهمة في إنهاء الصراع حتى لا تذهب حياة من قتلوا هباء، كما فعل كولن ووندي باري Colin and Wendy Parry بعد أن قتل ابنهما تيم Tim ذو الاثنتي عشرة سنة على أيدي الجيش الجمهوري في تفجير مدينة وارينجتون Warrington. ولكن أحيانا تستعمل هذه الجمعيات لأغراض سياسية حزبية وتصبح مجموعات للضغط مناهضة لإشراك جماعات مسلحة في عملية السلام أصلا.

ففي إسبانيا أصبحت جمعية ضحايا الإرهاب The Association of Victims of Terrorism AVT إحدى هذه الجماعات، فقامت بتنظيم المسيرات والاحتجاجات بالتعاون مع حزب الشعب PP المحافظ ضد الحكومة الاشتراكية. والقضاة كذلك يمكن أن يشكلوا معضلة. فالمحاكم الإسبانية مسيسة إلى درجة عالية. وقد دارت معارك حامية حول السياسة حيال (إيتا) من قبل رجال ونساء في أثوابهم القضائية الرسمية كما دارت في ممرات وردهات الحكومة أو البرلمان. فالقضاة دوما على استعداد وفي اللحظات الحاسمة أن يضربوا بعملية السلام عرض الحائط. يقول خيسوس إجويجورين بتحسر أنه كان يعتقد أن العالم بأسره سيدعم عملية السلام، ولكن القضاة المنضمين إلى PP المحافظ، على العكس من ذلك، جعلوا من المستحيل على باتاسونا Batasuna، الجناح (إيتا) السياسي، أن يمشي على الخط السياسي بفرض حظر على الحزب. فبدلا من أن يظهر رجال القضاء مرونة أكثر بعد وقف إطلاق النار من قبل (إيتا)، الأمور ازدادت سوءا.

رغم كل هذه الصعوبات لا يمكن لأي حكومة على درجة من المسؤولية أن ترفض فرصة حقيقية جادة اذا سنحت للحوار إلى مجموعة إرهابية. صرح

رئيس كولومبيا، سانتوس، عندما أعلن عن المحادثات مع منظمة القوات المسلحة الثورية الكولومبية (أف أيه آر سي) في عام 2012 أنه مهما كانت المهمة صعبة، فلا يمكن لحكومة مسؤولة أن ترفض فرصة إنهاء الصراع المسلح. ثاباتيرو برر موقف إسبانيا بقوله: "إنها ستكون جريمة في حق الدولة إذا ما لم نحاول التفاوض مع (إيتا) التي يبدو أنها قدمت لنا التفاوض على طبق من فضة". فالحكومات المسؤولة في النهاية تقبل بخيار الحوار. وعندما تخوض الحكومات تجربة ثم تفشل، كما في حالة أثنار في إسبانيا، فتصبح ضد الحوار بالكامل ثم تشجب وتدين، بكل صفاقة، كل محاولات خلفائهم أن يخوضوا التجربة نفسها. هذا النفاق يمتد إلى الحوار مع إرهابيين من بلاد أخرى، حتى وهم يرفضون الحوار مع إرهابيين من بلدهم. فلم يتردد أثنار في السماح لوزرائه أن يستقبلوا في إسبانيا وفدا من (أف أيه آر سي) الكولومبية، بمن فيهم زعيمهم رؤول رييس، دون أن يجد في ذلك حرجا أو تناقضا مع رفضه الحوار مع (إيتا). ومن سخرية التاريخ أن رييس عندما قتل بعد سنوات في الإكوادور في قصف بالطيران الكولومبي، وعثر على جهاز الكومبيوتر الشخصي الخاص به وجد فيه ما يؤكد التعاون القريب بين (أف أيه آر سي) و(إيتا).

هدف الحكومات في الاتصالات المبدئية الخاصة هو غالبا إقناع الجماعة المسلحة للدخول في وقف إطلاق للنار حتى يمكن الشروع في مفاوضات معلنة. فمن الصعب المحافظة على الدعم الشعبي للمحادثات للمدة كلها الضرورية لنجاح المحادثات في ظل انتهاكات عنف متواصلة. فوقف إطلاق النار وحده لا يكفي أحيانا. جون ميجر، رئيس وزراء بريطانيا، كان يرغب أن يستمر وقف إطلاق النار الذي أعلنته الجيش الجمهوري الأيرلندي بصفة دائمة حتى يكون واضحا أنه لا يتفاوض تحت تهديدات تجدد اندلاع العنف، ولكن الجمهوريين لم يوافقوا. في مفاوضات إستيللا ليثارا Estella-Lizarra لعام 1998 أعلنت (إيتا) "وقف إطلاق نار لأجل غير مسمي" ولكنها رجعت للقتال عندما فشلت المحادثات. وفي المحادثات التالية مع الحكومة الاشتراكية في عام 2005 لم يقبل إغوغورين بإعلان آخر "لوقف إطلاق النار لأجل غير مسمى" وطالب "بوقف

محدد لأعمال العنف". وأنتهي في آخر المطاف إلى القبول "بوقف إطلاق نار دائم" ولكن دون محاولات من (إيتا) بإدخال عبارة "غير محدد" مرة أخرى في الدورة الأخيرة من المفاوضات.

حتى وإن تمكنت الحكومات من إقناع الجماعات المسلحة في الدخول في وقف إطلاق النار، فإنها لا تستطيع دائما أن تبدأ معها في مفاوضات مباشرة، وأحيانا لا بد من فترة "اختبار الطهارة" تبرهن فيها الجماعة على أنها تخلت عن العنف نهائيا. ففي إسبانيا عام 2012 عرض القائد المحلي لحزب الشعب (بي بي)، أنتونيو باساغوتي Antonio Basagoiti أن يوضع القسم السياسي لحركة الباسك التحريرية (إيتا) في حالة "حجر صحي" لمدة أربع سنوات لاختبار مدى التزامهم بالدمقراطية. ولكن المشكلة إذا طالت فترة المكوث في "سلة الخطيئة" هذه دون الشروع في مفاوضات، فالشك يبدأ يتسرب إلى الجماعة أن هناك محاولة للمماطلة واللعب على الوقت، فتعود إلى العنف، كما فعل الجيش الجمهوري في تفجيرات الكناري وورف في لندن عام 1996. كان رئيس الوزراء توني بلير على استعداد ليتحرك بسرعة لإشراك منظمة شين فين في المحادثات بعد وقف إطلاق النار، ولكنه طالب بأن يلتزم الجيش الجمهوري بمبادئ ميتشل للتخلي عن العنف كشرط للدخول في المحادثات. هذه المبادئ الستة وضعها السناتور جورج ميتشل لإلزام الأطراف "بوسائل ديمقراطية وسلمية صرفة لحل القضايا السياسية". الجيش الجمهوري نفسه لم يوقع على هذه المبادئ حيث أن ذلك يتنافى مع وجوده أصلا، ولكن قبول شين فين لها كان كافيا لإقناع الاتحاديين الموالين لبريطانيا للدخول معهم في محادثات. (باتاسونا الإسبانية تبنت مبادئ ميتشل نفسها في إعلان غيرنيكا عام 2011 على أمل إقناع الحكومة الإسبانية أن تدخل في محادثات، ولكن دون جدوى).

الانتخابات كذلك يمكن أن تلعب دورا في عملية التطهر للتدليل عما إذا كانت الجماعة المسلحة تملك دعما شعبيا كافيا يؤهلها للمشاركة في المفاوضات. ويجب تخفيض الحد الأدنى للشروط والمواصفات لضمان تمثيل مختلف الأطراف المعنية على طاولة المفاوضات. فإذا حازت الجماعة المسلحة على

أصوات كافية للمشاركة، فإن الحكومة في هذه الحالة ستواجه إشكالية جديدة وهي ما العمل إذا ما عادت الجماعة إلى العنف أثناء انعقاد المحادثات. ففي محادثات أيرلندا الشمالية اضطررنا إلى طرد الجمهوريين ثم الاتحاديين الموالين في فترات مختلفة بعد أن ارتكب جناحهم العسكري جرائم قتل. ولكن بعد طردهم هذه المرة تواجه الحكومة إشكالية جديدة وهي كيف السبيل إلى إعادتهم إلى المحادثات – فما هي المدة الكافية للتكفير عن إزهاق روح إنسانية؟ إذا طال الانتظار أكثر مما يجب ضاعت المحادثات، ولربما قضي عليها، وأما إذا قصر فتظهر الحكومة بمظهر القاسي عديم الرحمة وربما شجعت الجماعة على مزيد من القتل. الشيء الوحيد الذي على الحكومات أن تتفاداه هو أن تقول أنها ستسمح للجماعة بالمشاركة إذا نجحت في الانتخابات ثم تغير موقفها. فشمعون بيريز قال في عام 1992 أن الإسرائيليين "على استعداد للتفاوض مع المتطرفين في حماس إذا فازوا في انتخابات حرة في الأراضي المحتلة"، ولكن بعد أن انتخبوا في عام 2006 لم يكن هناك أحد على استعداد للتفاوض معهم، مما جعلهم متأكدين متمسكين بوضعهم كضحايا.

يتحدث بعض الخبراء وكأن التفاوض مع الجماعات المسلحة أمر لا علاقة له بالسياسة العادية. والأمر ليس كذلك. فالمحادثات في حد ذاتها عملية سياسية، والتذمر من دخول السياسية على سير العملية وتضاربها مع نقاء عملية السلام هو قصر في فهم الموضوع. فمن الضروري جدا الوعي بأن المفاوضات عمل سياسي محض يتأثر بالسياسة ويؤثر فيها. فلطالما دفع رجال السياسة ثمنا غاليا بسبب حديثهم مع الإرهابيين. فالرئيس الأمريكي رونالد ريغان Ronald Reagan لم يكن مشهورا بتساهله مع الإرهاب ولكنه عندما سمح باللقاء مع سام نجوما Sam Nujoma زعيم منظمة سوابو SWAPO، في ناميبيا، هوجم من قبل المعلقين اليمينيين "لاعترافه ضمنيا بمجرم شيوعي كان أحرى أن يقدم للمحاكمة في مجتمع حضاري لقتل المئات من الموطنين الأبرياء في جرائم إرهابية". فهذه التوترات السياسية الناتجة بسبب التعامل مع الصراعات دائما موجودة ومن شأنها أن تمزق الحكومات من داخلها.

ولذلك فإنه من الأيسر أن تفتح الحكومات الديمقراطية قنوات اتصال مع الجماعات المسلحة مباشرة بعد انتخابها وهي لا تزال محل دعم واسع. استعمل توني بلير رئيس الوزراء البريطاني زخم فوزه الكاسح في الانتخابات عام 1997 للضغط على الجمهوريين في أيرلندا الشمالية لإعلان وقف إطلاق نار سريع والشروع في محادثات مع شين فين. كما مهّد فوز رانيل فيكرماسينج Ranil Wickremasinge للرئاسة في سريلانكا عام 2001 بأجندة واضحة لتقدم عاجل في التعامل مع منظمة نمور تحرير تاميل إيلام (أل تي تي إي) وكانت الهدنة من طرف واحد قائمة خلال شهر من الزمن. كانت غالبية السكان في سريلانكا مبتهجين بوقف إطلاق النار وحيوا الرئيس كبطل، ولكنه فشل في أن يستخدم الفوز في التقدم نحو اتفاق سياسي وفقدت المفاوضات الدعم الشعبي تدريجيا في عامي 2002 و2003. فبدلا من أن تكون عملية السلام رصيدا هاما أصبحت عبئا ثقيلا استغلته المعارضة في الهجوم على الحكومة. وعلى العكس من ذلك، اذا كانت الحكومة في السلطة لمدة طويلة وفي وضع ضعيف فمن الصعب أن تحرز أي تقدم. فجون ميجر، رئيس الوزراء البريطاني، واجه صعوبة في المحافظة على مبادراته في أيرلندا الشمالية عندما ضعفت أغلبيته في البرلمان في عام 1996 وكان يخوض معركة يائسة من أجل البقاء سياسيا. وعندما تكون الانتخابات على الأبواب كذلك يكون لها تأثير مشابه في تجميد المفاوضات. فعندما قاربت جلوريا أرّويو Glaria Arroyo نهاية فترة رئاستها في 2010 في الفليبين وتضاعفت مشاكلها، وضعت الجبهة الإسلامية لتحرير مورو (أم آي أل أف) أسلحتها في المفاوضات في انتظار الرئيس الجديد. فالسؤال الذي تحاول الجماعات المسلحة الإجابة عليه هو هل من مصلحتها أن تعطي تنازلات لحكومة على حافة الموت أم تنتظر مجيء حكومة جديدة. فعندما جاء غوس دور Gus Dur إلى الحكم في أندونيسيا عام 1999 كان بعض وزرائه الذين جاءوا من مناصب في منظمات غير حكومية حريصين على تسوية سلمية في إقليم أتشيه رغم معارضة العسكر والنخب في جاكارتا. فتصرف غوس دور في الوقت الذي كان الجيش ما زال يترنح من هزيمته في تيمور الشرقية. وفي 2001 بينما كان هو يصارع من أجل

بقائه سياسيا وكان قرار الطعن في رئاسته على وشك أن يؤخذ، اتجه في حالة يأس إلى كل اتجاه بحثا عن حلفاء فلم يجد أحدا، فوجد العسكر فرصة سانحة للانقضاض على السلطة. وفي أبريل/نيسان توقف في اللحظة الأخيرة عن أن يفرض حالة طوارئ كاملة في إقليم أتشيه؛ ولجأ إلى توقيع مرسوم لأمر قوات الأمن لاستعادة سلطة القانون والنظام في محاولة للبقاء في السلطة.

فتغير الحكومة من شأنه أن يخرج عملية السلام عن مسارها، خاصة اذا كان الرئيس الجديد ليس له مصلحة في مفاوضات بدأت تحت حكم سلفه. وأخيرا في يوليو/تموز 2001 عزل غوس دور بسبب الفساد وانعدام الكفاءة، و لم يكن لدى الرئيسة ميجاواتي سوكارنوبوتري Megawati التي خلفته نفس الاهتمام والحماس والشعور بالمسؤولية تجاه الحوار. وعندما سألها الصحفيون عن المفاوضات أوضحت بكل صراحة في الواقع ازدراءها للعملية قائلة: "لا أدري. ليس لي علاقة بالموضوع، واسألوه هو" وتقصد الوزير المنسق، سوسيلو بانبانغ يودهونو Yudhoyono، الواقف إلى جنبها. وهكذا انطلقت للسماح للعسكر بزيادة عدد الجنود والشرطة في إقليم أتشيه وأخيرا أعلنت أن الحكومة قد عملت كل ما تستطيع عمله بخصوص الحوار.

حتى وإن استمر الزعماء في السلطة مدة أطول فإن وزراءهم لا يستقرون في مناصبهم، وكلما جاء وزير جديد احتاج إلى فترة لتعلم الحرفة مما يسبب فجوة انقطاع في المفاوضات. فحكومة الفلبيين عينت تسعة فرق مفاوضين على مدى خمسة عشر سنة من المفاوضات مع الجبهة الإسلامية لتحرير مورو، بينما استمر الفريق الممثل للجبهة كما هو عليه تقريبا. فقد اشتبكت الجبهة مع مفاوضين متشددين ومفاوضين معتدلين، ومع أصحاب مبادئ ومع واقعيين براغماتيين، وعملت مع الجميع إلى أبعد مدى. كما أن تغير الحكومات قد يؤدي، على الطرف الآخر، إلى تغير مفيد في الأجواء السياسية. لم تكن هناك شخصيات سياسية أفضل وأكثر اختلافا من الشخصيتين التقليديتين الأرستقراطيتين صاحبتي المشية العسكرية، سكرتيري الدولة في أيرلندا الشمالية في حكومة المحافظين السابقة، بيتر بروك Peter Brooke وبادي ماهيو Paddy

Mayhew، من وزيرة حزب العمال مو مولام Mo Mowlam، خليفتـــهما ذات الشخصية الفوضوية الساحرة التي تمكنت من إقناع القـــوميين الجمهـــوريين أن الحكومة البريطانية ربما كانت على استعداد لعقد صفقة معهم.

عمليات السلام يمكن أن تحبط عندما تشوش على الزعمـــاء السياســـيين برامج الانتخابات وأهدافها، أو عندما يدخل هؤلاء الأشـــخاص في عمليـــة السلام لغايات انتخابية بحتة، فتكون النتيجة كارثية. في عام 1998 كان المرشح المحافظ أندريه باسترانا Andres Pastrana يحاول اللحاق بمنافسه مـــن حـــزب الأحرار هورايشو سيربا Horacio Serpa في الدورة الأولى في انتخابات الرئاسة في كولومبيا. لم يُبد باسترانا إي اهتمام في قضية القـــوات المســـلحة الثوريـــة الكولومبية (أف أيه آر سي) ولكنه كان يبحث في كل اتجاه عن عملية سياسية تبعث الروح في حملة الانتخابات، عندما مرر إليه أحد مؤيديه ورقـــة تتنـــاول طرح برنامج قوي للسلام يمكن أن يساعده على الفوز في الانتخابات. صدرت الورقة عن مناقشات مع الزعيم السياسي لحركة (أف أيه آر سي) راؤول ريس في مدينة المكسيك. كتب باسترانا في هامش تلك الورقة أنه "لو وجد إنســـان يتسلق الجبال لتحقيق السلام... فأنا مستعد لذلك". بعد بضعة أسابيع التقـــى أحد حلفائه السياسيين خيرو روخـــاس Jairo Rojas بقائـــدين مـــن قـــواد (أف أيه آر سي) هما مانويل مارولاندا Manuel Marulanda وألمونو خوخوي El Mono Jojoy في الغابة، حيث شاهدوا معا المناظرات التلفزيونية للـــرئيس. وفي النهاية قال مونو خوخوي أن باسترانا "يمكن أن يكون الرجل الذي نجلس معه وجها لوجه". وهنا تساءل ماورولاندا عما إذا كان باسترانا على اســـتعداد لمقابلته، فقال روخاس سيتقصي الأمر. ردا على ذلك أرسل باســـترانا مـــدير حملته الانتخابيـــة، فيكتـــور ريكـــاردو Victor Ricardo، لمقابلـــة زعمـــاء (أف أيه آر سي). وانطلق ريكاردو، حاملا روحه على كفه، فاستقل طـــائرة وطار إلى مهبط صغير في الغابة فاستقبلوه وأخذوه لمقابلة ماورلاندا. وفي هـــذا الاجتماع وافق ريكاردو على أن يلتقي باسترانا، في حال فوزه في الانتخابات، مع ماورولاندا من أجل محادثات في يناير/كانون الثاني 1992. لم تكـــن هنـــاك

ترتيبات مسبقه لوضع شكل معين لمفاوضات أو ما شابه. وإنما كانت تلك وسيلة لكسب الانتخابات. أصبح باسترانا بعدها رهينة لعملية السلام، فراهن برئاسته على علمية السلام و لم يتمكن من التخلي عنها. إن مكانه في التاريخ مرهون بنجاح المفاوضات أو فشلها، ونتيجة لذلك حافظ على استمرارها لمدة أطول حتى رفض الجمهور مصداقيتها. فمن المهم أن تحافظ الحكومة على قدرتها بأن تنسحب من المفاوضات، لأنها بامتلاك ذلك الخيار فقط تستطيع أن تفرض على الجماعة المسلحة أن تتفاوض بجدية، فلا بد من وجود خطة بديلة مقنعة – خطة (ب).

بدون شك، مواقف الزعماء السياسيين تجاه المحادثات مع الجماعات المسلحة تتأثر بوقع الإرهاب على حياتهم الخاصة. فعندما نجا زعيم المعارضة الإسباني، أثنار، في حادث تفجير سيارة عام 1995 وجد من الصعب أن يسامح (إيتا) على محاولة قتله. لقد أنقذه أن السيارة كانت مصفحة، ولكن قتلت امرأة وجرح خمسة عشر آخرون. وفي كولومبيا قتل والد الرئيس يوريب Uribe، صاحب أراضي، على أيدي عناصر من منظمة (أف أيه آر أس) في محاولة اختطاف فاشلة عام 1983، وحاولوا قتل يوريب نفسه خلال حملة الانتخابات عام 2003 بوضع متفجرات تحت جسر على الطريق السريع أثناء مرور موكبه من فوقه. دمرت سيارته المصفحة ولكنه خرج من الحادث سالما. قتل أحد المارة وجرح خمسة عشر آخرون. هذه الهجمات جعلت من أثنار ويوريب معارضين أشداء للمحادثات في ظل من خلفهم، رغم أنهم حاولوا أن يفسحوا المجال للحوار مع الجماعات المسلحة نفسها عندما كانوا هم في السلطة. ولكن الهجمات لا تصنع من الزعماء معارضين للحوار في كل الحالات. فجون ميجر، رئيس الوزراء البريطاني، نجا من هجوم الجيش الأيرلندي على مبنى رئاسة الوزراء في 10 داونينغ ستريت، ومع ذلك أقدم على مخاطرة سياسية كبرى بفتح خط اتصال سري مع (آي أر أيه) في غضون أقل من سنة بعد ذلك. كما نجت الرئيسة كوماراتونجا من محاولة لاغتيالها على أيدي النمور في سريلانكا عام 1999 فقدت فيها إحدى عينيها، ولكن بدلا من التخلي على الحوار أعطت

تعليمات لقوات الأمن للتأكيد على عدم رغبتها للأقدام على عمليات انتقامية ضد نمور التاميل وظهرت على تلفزيون هيئة الإذاعة البريطانية (بـي بـي سي BBC) لتعلن أنها قد اتصلت بالذين حاولوا اغتيالها وطلبت من النرويجيين التوسط لتحقيق السلام معهم.

من المفارقات العجيبة أحيانا أنه من الأسهل على الفرق السياسية المتطرفة أن تتوصل إلى سلام دائم أكثر من الأطراف التي في الوسط لأنه لا أحد يستطيع الالتفاف على الآخر أو المزايدة عليه، أو يهاجم التنازلات التي يقدمها. فقد حاولنا في أيرلندا الشمالية أن نبني السلام من الوسط، ولكن الحزب الاجتماعي الديمقراطي والعمل، القومي المعتدل، (أس دي أل بـي SDLP)، لم يكن راضيا على الدخول في أي اتفاقية بدون وجود الشين فين، ولذا لم يكن أمامنا من خيار إلا التفاوض مع الجمهورين. على الطرف الآخر، أصر توني بلير التمسك بزعيم الاتحادين الموالين، دافيد تريمبل David Trimble، لفترة طويلة حتى بعد أن يأس منه الناخبون الاتحاديون، لأن بلير لم يكن يري أن خصيم تريمبل المتشدد، إيان بيزلي Ian Paisley، مستعد بأي حال من الأحوال لقبول اتفاقية سلام. ولكن الذي حدث أننا وقعنا اتفاقية سلام دائم مع الحزبين المتطرفين، حزب إيان بيزلي، الحزب الاتحادي الديمقراطي Democratic Unionist Party DUP، وشين فين. في السلفادور، حاول الديمقراطي المسيحي، خوسي نابليون دورات، إنهاء الحرب الأهلية عدة مرات ولكنه لم يفلح في إقناع المقاتلين أنه قادر على أن يجر معه العسكريين الأقوياء ومناصريهم المدنيين من اليمين المغالي. ولكن ألفريدو كريستياني Alfredo Cristiani، مرشح حزب التحالف الجمهوري الوطني Nationalist Republican Alliance *Alianza Republicana Nacionalista* or ARENA (أرينا) اليميني المتطرف الذي حل محل خوسي نابليون كرئيس، على الطرف الآخر، استطاع أن يحقق السلام رغم انحداره من 'أوليغاركية' من أغني الأسر في السلفادور. فهو "الشيء الأصلي"، كما ورد على لسان زعيم المقاتلين خوكين بيلالوبوس. فقد استطاع أن يأتي بالعسكر و لم يكن بإمكان القوى اليمينية داخل السلفادور أن تزايد عليه أو تحتويه.

إن من السهل كذلك التوصل إلى اتفاقيات سلام إذا كان هنـــاك وفـــاق جماعي في البلاد. ففي بريطانيا كنا ننعم بأسلوب تجاه أيرلندا الشمالية متفق عليه من قبل أكبر الحزبين في البلد. فتوني بلير عندما كان في المغارضة قدم لجون ميجر دعما كاملا حتى عندما لم يكن موافقا على ما تفعله الحكومة. فقد أسرّ إليّ بأننا ليس بإمكاننا أن نعرف ما يجري وراء الكواليس، وأنه لا فائدة من تخمين ما قد تقدم عليه الحكومة. ولما أصبحنا في السلطة كان التنسيق الثنائي مجازيا أكثر منه عمليا، وحاولت معارضة المحافظين أن تخلق لنا صعوبات في عملية المفاوضـــات. وعلى أي حال، لم تكن قضية أيرلندا الشمالية في السياســـة البريطانيـــة قضـــية رئيسية. و لم تكن هناك أصـــوات في المقاطعـــات الرئيســـية (إنجلتـــرا وويلـــز وسكوتلاندا) تهدف للتأثير في عملية السلام، كما لم تكن هناك، في الوقت ذاته، معارضة شديدة لها.

ولكن الواقع ليس كذلك في كل الأحوال. ففي إسبانيا قضية الباسك دائما قضية فاصلة. فهناك غالبية كبيرة من الإسبان معارضة لإعطـــاء أي تنـــازلات لحركة الباسك التحريرية (إيتا). فالتنسيق أو الوفاق الثنائي كان بإمكانه أن يعطي الحكومة الاشتراكية فرصة نجاح في محاولتها لتحقيق السلام ولكن ذلك لم يكن ضمن برنامج الحزب الشعبـــي (بـــي بـــي). لقد قدم الحزب الاشتراكي دعما سياسيا للحكومة طوال الفترة 1998 و1999 عندما كان أثنار (المحافظ) يســـعى إلى حوار مع (إيتا). ولكن عندما أصبح حزب (بـــي بـــي) في المعارضة، مـــا بين 2004 و2011، لم يقدم دعما مماثلا لحكومة ثاباتيرو الاشتراكية. واشـــتكى روبالكابا فيما بعد قائلا: "لا توجد دولة في العالم الديمقراطي تحاول حكومتـــها إنهاء صراع ما، وتجد المعارضة تتصرف بهذا الشكل من الخيانة الواضـــحة". وفي اجتماعهم الأول بعد الانتخابات بادر ثاباتيرو بإعطاء زعيم المعارضـــة ماريـــانو روخاي، فكرة كاملة عن نتائج الاجتماعات مع (إيتا) في جنيف التي عقدت في صيف 2005، وبصورة خاصة، ولكن المعلومات سربت مباشرة للصحيفة ذات الميول اليمينية إلموندو *El Mundo*. ولذلك لم يتبادل ثاباتيرو أي معلومات سرية مع راخوي وشرع حزب (بـــي بـــي) في حملة 'التوتر' التي عمـــد فيهـــا إلى

توظيف القضية لإحداث أعلى درجات التوتر السياسي. وكانت الخطوة الأولى التي اتخذها راخوي هي إعلان أن (بــي بــي) سيقطع رسميا "كل العلاقات مع الحكومة" احتجاجا على "الخزي الذي أصاب الحكومة بموافقتها على اللقاء مــع باتاسونا". فعندما قررت الحكومة تحويل احد سجناء (إيتا) إلى مقاطعة الباســك ليكمل إضرابه على الطعام وتفادي أن يصبح 'شهيدا'، دعا (بــي بــــي) إلى مظاهرة ضخمة في مدريد 'للدفاع عن إسبانيا'. أخذ أثنار الموضوع بجدية كاملة وقال في 2007: "أي ناخب لا يصوت إلى صف (بــي بــي) يعــد مؤيــدا لــ (إيتا)".

المشكلة السياسية التي تواجه الحكومات الديمقراطية ليست هي فقط أنهــم يتعاملون مع إرهابيين، ولكنها طبيعة القضية التي من أجلها أو بســببها تتــأجج الصراعات. وهي أحيانا تدور حول طبيعة الدولة نفسها، كما هــي الحــال في الصراعات الأيديولوجية القائمة مع القوات المسلحة الثورية (أف أيه آر سي) في كولومبيا أو الماويين في نيبال، أو الصراعات حول انفصال جزء من الدولة كما هو الوضع مع الــ (آي آر أيه) في أيرلندا الشمالية أو (إيتا) في إسبانيا أو حزب العمال الكردستاني (بــي كيه كيه) Kurdistan Workers Pary في تركيا. أما موضوع حق تقرير المصير فهو أشد تعقيدا من جميع القضايا ويثير تضاربا فيمــا يتعلق بالحقوق. ولعل حالة ميندانو في الفليبين تعطينا المثل الكلاسيكي في هــذا الصدد. ففئة البانجسامورو Bangsamoro المسلمة تتميز تميزا واضحا عــن بقيــة السكان في البلاد، ولكنها حتى عندما كانت الأغلبية في الجزر الجنوبية كان هناك أيضا مسيحيون وبعض السكان الأصليين لا يزالون يعيشون معهــم جنبــا إلى جنب. فكيف يمكن تحديد أراضي بعينها كي تكون ضمن المناطق الجديدة الــتي تتمتع بالحكم الذاتي... أم لا؟

إن الحل الذي اخترناه في أيرلندا الشمالية كان الحل القــائم علــى مبــدأ الوفاق، بمعنى أن الأغلبية في المنطقة هي صاحبة القرار في ما يتعلــق بوضــعهم السياسي. ولكن هذا لا يتسنى لكل الحكومات. فإسبانيا هي البلد التي ربما تجــد نفسها في حقل مليء بأصعب العقد في هذا الصدد. فالإســبان ليســوا علــى

استعداد للقبول بمبدأ تقرير المصير بالنسبة لأي منطقة من المناطقة بسبب التوازن الدستوري الحساس الذي توصلت إليه البلاد بعد وفاة جنرال فرانكـــو في 1975 أثناء فترة التحول إلى الديمقراطية. فبعد تاريخ مليء بالقلاقل اعتبر الجيش نفســـه هو الحارس على وحدة إسبانيا. و لم يقبل بأن ينفصل أي جزء من أجزاء إسبانيا، وكان لزاما على الحكومة أن تقاوم بشدة أي مطالبة باستفتاء عام في كاتالونيا أو بلاد الباسك حتى وإن كان غالبية السكان تريد ذلك. ولعل المحكمة العليـــا في كندا جاءت بالحكم الأمثل في الموضوع بعد صراعها مع قضية انفصال منطقـــة كوبيك الناطقة بالفرنسية عام 1995 في أعقاب تصويت على الاستقلال وحملة من الإرهاب. فقد حكمت المحكمة بأن قرار الانفصال من طرف واحد قرار غير قانوني حسب القانون المحلي والقانون الدولي. وأما في حالة ما أجابت الأغلبيـــة بالإيجاب على سؤال واضح في استفتاء عام حول الانفصال، فإن المفاوضات بين الكوبيك والحكومة الفدرالية يجب أن تتم. أي بمعنى آخر، مهما كـــان الوضـــع الدستوري أو القانوني، لا يمكن التوصل إلى توازن مرضي إلا إذا كان إجمـــاع الناس قد أخذ في الاعتبار.

المشاكل التي تواجهها الحكومات التي تحاول تسوية الصراعات ممكن تنشأ أيضا من المصالح الراسخة، من ناحيتين مختلفتين.. الأولى: أن يشعر الناس بأنهم لم يحصلوا على نصيبهم العادل من المواد الأولية التي تستخرج من أراضيهم. ففـــي إقليم أتشه الأندونيسي مثلا، أعطيت وعود للسكان المحليين بسبعين بالمائة مـــن دخل النفط والغاز المستخرج من المنطقة، لكنهم لم يروا منه شيئا. والثانية: كون الجيش غالبا ما يعتبر الصراع مصدرا رئيسيا للدخل بالنسبة له. ففي أندونيســـيا غطي الجيش ثلاثين بالمائة من مصروفاته من ميزانية الحكومة واضطر إلى تـــوفير الباقي من مصادر أخرى كقطع الأخشاب غير القانوني أو رسوم عبور الطرقات السريعة. هذا الوضع يؤدي إلى نشأة مصلحة رئيسية في استمرارية الصزاع لدى الطرفين، حيث أن زعماء الجماعات المسلحة والجيش يتحصلون علـــى أربـــاح هائلة من اقتصاد الحرب. فالتغلب على هذه المصالح وتوفير سيطرة أكبر علـــى مواردهم الخاصة بالنسبة للمناطق المعنية تعتبر تحديات كبرى أمام أي نوع مـــن

المفاوضات. فالاتفاق ينبغي أن ينص على التشارك في الأرباح بين المركز والإقليم، ليضمن الطرفان أنهما راضين بالدخل الاقتصادي للسلام، وأن هناك تعويضا قصير المدى لأولئك الذين خسروا كنتيجة لتحقيق السلام.

والحكومات معرضة للضغوط من قبل حكومات أخرى كذلك، خاصة من قبل الولايات المتحدة أو جارات كبرى، حول تسوية صراعاتها الداخلية. تدخلت الحكومة الهندية في الفترة ما بين 1987 و1990 مباشرة – وبشكل كارثي – في سريلانكا بقوة حفظ سلام ضخمة، ولكنها حتى عندما لم يكن لها جنود على الأرض أو دور مباشر في عملية السلام، أبقت على وجودها الضخم. لقد حرص النرويجيون دائما على إعطاء فكرة وافية للهند أولا وأخذ مشورتها قبل الأمريكان أو أي من حلفائهم الأوروبيين. الزعماء السريلانكيون، من جميع الأطياف، يحسبون للهند كل حساب، وكما عبر عن ذلك أحد المفاوضين "إذا أشرقت الشمس في الصباح، اعتبر السريلانكيون أن الهند كانت من ورائها". ولربما كان النفوذ الخارجي إيجابيا كذلك، كما هو صعب بطبيعة الحال. في جنوب أفريقيا كان المؤتمر الوطني الأفريقي يريد أن تظل العقوبات الدولية قائمة حتى تمر فترة التحول ويصبحوا ثابتين في الحكومة، لكى يقوى نفوذهم في التفاوض مع الحزب الوطني. وكان على الرئيس ديكليرك أن يكسب الدعم الدولي بسرعة للتدليل لأنصاره أن سياسته الإصلاحية أصبحت تجني ثمارها. لقد دفع ديكليرك بمن يجس النبض حتى قبل أن يتولى الرئاسة ليعلم إمكانية أن يجتمع مع رئيسة الحكومة البريطانية، مارغريت تاتشر، دون علم الرئيس آنذاك بي دبليو بوتا. وبعكس ما يصوره البعض لها من شخصية كرتونية، فإن ديكليرك يتذكر أن تاتشر كانت تصغي بكل اهتمام لما كان يقول لها بدلا من أن تقاطعه طول فترة الاجتماع. لقد شعر بأنها تقيم شخصيته لتقرر إن كان أهلا لثقتها. وعندما انتهى من كلامه نصحته بالسير قدما في الإصلاحات بأقصى سرعة وقالت أنها ستسانده إلى أبعد مدى. كما عرض عليه الرئيس الأمريكي جورج آتش دبليو بوش الدعم الكامل، رغم النصيحة الرسمية الحذرة إلى استلمها من الخارجية الأمريكية، فأعلن في المؤتمر الصحفي المشترك مع جورج بوش في روز

غاردن Rose Garden* اعتقاده الجازم بأن التحولات في جنوب أفريقيا لا رجوع فيها، مما يسر رفع العقوبات.

أكبر تأثير تحدثه حكومة مجاورة يكون في مجال التعاون الأمني. فإذا كان لجماعة مسلحة ملاذ آمن في بلد مجاور تستطيع منه تنفيذ هجمات ثم تنسحب، فبإمكانها مواصلة عملها لوقت غير محدد. وإذا أزيل الملاذ الآمن تقوى محفزات الحوار. فالضغط على منظمة (إيتا) في إسبانيا لتفاوض ارتفع بشكل ملحوظ بمجرد أن بدأ الفرنسيون في التعاون الكامل مع السلطات الإسبانية في محاربة المنظمة. فقد كان الفرنسيون متذبذبين بعد نهاية نظام فرانكو، بنظرتهم لمنظمة (إيتا) كحركة تحرير ولا يريدون إثارة مشاكل مع أناسها من المدنيين الباسك. وتغيرت هذه النظرة تدريجيا ومع بداية الألفية بدأوا يعتقلون زعماء (إيتا) بالجملة. وفي فنزويلا، فقد وجد عناصر (أف أيه آر سي) ملجأ في معسكرات هناك مما جعل من المستحيل على الحكومة الكولومبية القضاء عليهم. ويقول الرئيس أوريب أنه فكر في الهجوم على جارته من أجل القضاء على المقاتلين. ولكن الرئيس سانتو بعد أن حل محل أوريب مد يد التعاون لرئيس فنزويلا، تشافيز Chaves، الذي تحول إلى مدافع قوي على تسوية الصراع بعد أن كان لسنوات عديدة يؤوي المقاتلين من (أف أيه آر سي) في بلده.

ظل للبيت الأبيض الأمريكي، ولمدى طويل، اهتمام بما يجري في أيرلندا الشمالية. ونتيجة لضغط الجالية الأيرلندية الأمريكية الكبيرة والقوية سياسيا هناك، أقدم الرئيس بيل كلنتون إلى اتخاذ المخاطرة الكبيرة بمنح جيري آدمز زعيم الجمهوريين في أيرلندا الشمالية تأشيرة لدخول الولايات المتحدة عام 1994 حتى قبل أن يعلن الجيش الجمهوري عن وقف إطلاق النار. وبهذه الخطوة اهتزت علاقته بحكومة جون ميجر في بريطانيا، ولو لفترة مؤقتة على الأقل، ولو أن الجيش الجمهوري الأيرلندي عاد إلى العنف من جديد لدفع بيل كلينتون ثمنا سياسيا محليا عاليا نتيجة هذه الحركة غير الموفقة. لقد قضيت سنة كاملة في السفارة البريطانية في واشنطن أحاول إقناع السياسيين الأمريكيين بالعدول عن ذلك القرار. ولكنني الآن، وبعد تأمل في الموضوع، أرى أنه كان فعلا رأيا

صائبا، لأنه أعطى لجيري آدمز وسيلة لإقناع المتشددين في الجيش الجمهوري أنهم إذا ما تخلوا عن العنف فلربما يمكن إيجاد سبيل آخر سياسي للمضي إلى الأمام. فالحكومات الأجنبية نادرا ما تكون حازمة سواء في دعمها للمتمردين أو في المساهمة في عملية السلام في الدول الأخرى، ولكنها يمكن أن تساعد أو تعرقل عملية السلام. فالرئيس كلينتون لم يضغط على توني بلير للتوصل إلى تسوية لأنه كان يعلم أنه يبذل قصارى جهده في لتحقيق تسوية سلمية، ولكنه قدم مساعدة بحثّه وبإلحاحه على الطرفين الجمهوريين والاتحاديين أن يجنحوا للسلم.

الحكومات التي تواجه تهديدا إرهابيا داخليا عادة ما تحاول القضاء على الجماعة المسلحة أولا بدلا من الدخول في مفاوضات معها. وعندما تستنفذ جميع الخيارات تتجه في الأخير إلى فكرة الحوار. ولكن باتخاذها هذا السبيل، تواجه الحكومات عراقيل هائلة وخاصة لدى الرأي العام. فيحاولن البدء بمحادثات سرية وقابلة للإنكار، وعليها التغلب على سلسلة من الصعوبات قبل الانتقال إلى مفاوضات معلنة أو رسمية. ومن المفهوم تماما أن الحكومات ترغب في عدم تدخل أطراف خارجية في هذه العملية الحساسة والداخلية. ولكن التاريخ يرينا أن التسوية الناجحة لأي صراع تكون أيسر إذا ما تغلبت الحكومة المعنية على اهتمامها بفكرة السيادة وأشركت أطرافا ثالثة في المفاوضات.

الشريك الثالث

لقد نمت وتطورت مهنتي من خلال الحوار مع أناس كانوا في وقت ما يوصمون بالإرهابيين. وفي رأيي، هذا هو الطريق الوحيد إلى عملية سلام تفاوضية ناجحة. فالوصول إلى حل ينهي الصراع، يعني الحوار مع كل الذين يعتبرون طرفا في ذاك الصراع.

مارتي أهتيساري *Martti Ahtisaari*

تذهب الحكومات إلى أقصى مدى لتحول دون تدخل الأجانب في شؤونها الداخلية. فالنسبة للبعض هي مسألة سيادة، وبالنسبة لآخرين مسألة عزة وكرامة، وبالنسبة لآخرين لأنهم غير واثقين في قوة قضيتهم، ويخشون أن طرفا ثالثا قد يتدخل وينحاز إلى صف الجماعة المسلحة. أما الجماعات المسلحة فهي غالبا ما تكون أحرص على تدويل صراعاتها على أمل أن تجد اهتماما عالميا.

ظلت الهند دائما عنيفة جدا في حرصها على أن يظل الطرف الثالث الدولي بعيدا عن قضية كشمير المؤلمة. كما حرصت الهند كذلك على إبعاد الأطراف المتلاعبة بقضية الجارة النيبال إلى الأمد الأقصى. فقد اندلعت "حرب الشعب" عام 1996 عندما رفضت الحكومة النيبالية الأربعين نقطة التي تقدم بها الماويون ورفع جيش التحرير الشعبي People's Liberation Army السلاح. انتشرت الحركة بسرعة من رؤوس المرتفعات على الحدود الهندية نزولا إلى أغلبية البلاد. مع حلول عام 2002 بلغ عدد القتلى 13 ألفا، ثمانية آلاف منهم على يد قوات الحكومة. كان للماويين قيادة من شخصين أحدهما القائد العسكري بوشبا كمال داهال Pushpa Kamal Dahal المعروف باسمه الحركي براشاندا

Prachanda، والثاني القائد السياسي الدكتور بـــابورام بمتـــاراي Dr Baburam Bhattarai الذين كان يعملان سرا في الخفاء.

كان مركز هنري دونانت أول منظمة دولية تتصل بالمقـــاتلين المـــاويين في النيبال وذلك في أغسطس/آب سنة 2000. طار مارتن غريفيثس ونائبه آنـــدرو مارشال إلى كتماندو والتقيا بمفوض الحكومة الرئيسي ووسيط محلي نيبالي اسمـــه بادما راتنا تولدهار Pada Ranta Tuladhar الذي كان منهمكا في محاولة ترتيب محادثات بين الطرفين. وذكر له غريفيثس أنه ونائبه يرغبان في الالتقـــاء بقيـــادة الماويين، ولكنه لم يكن بوسعه مساعدتهم. فلجأ غريفيثس ومارشال إلى شـــبكة الإنترنت. وكان الماويون قد أسموا موقعهم على الإنترنت 'شاينينجباث.كـــوم shiningpath.com' (الدرب المضيء) وفاء للمقاتلين الماويين من بيرو في أمريكـــا الجنوبية. فبادر مارشال، وهو كندي مقدام، بإرسال رسالة إلكترونية للموقـــع الإلكتروني وإذا به يستلم، لاستغرابه الشديد، الرّد مباشرة.

استغرقت العملية نحو سنتين قبل أن يتمكن ممثلو المركز في جنيف مـــن مقابلة أحد من أعضاء المكتب السياسي. استلم مارشال توجيها بالذهاب إلى ناروندا في الهند، حيث التقطته عربة ريكاشة هندية من على قارعة الطريـــق وأخذته عبر طرق وأزقة ضيقة ضمانا لئلا يتتبعهم أحد. وأعتبر مارشـــال أن يكون على علم بالتحديد بما كان الماويون يقومون به من تحركات. وأخـــيرا أُخذ إلى مبني عال جدا لا يزال قيد البناء ووضع في شقة لم يكتمل بناؤهـــا. هناك جاء عضو من المكتب السياسي ليقابله. وكان هدف مارشال هو إعطاء الماويين فكرة عن تصور العالم الخارجي لقضيتهم. فقد كان زعماؤهم مـــن تلال نيبال الواقعة على السفوح الجبلية الغربية ولم يكن لهم اتصال يذكر مع المجتمع الدولي. فعرض عليهم أن يأتي بشخصيات من الخارج تلتقي بهـــم في الهند وأن يدعو ثلاثة منهم إلى جنيف لمقابلة مسؤولين في الحكومة السويسرية ولزيارة مركز هنري دونانت. أصاب الماويين الشك. ولكنهم وافقوا على أن يستجيبوا للدعوة واعتبروا الزيارة زيارة اختبار لهم لا أكثر ولا أقل. لم يكونوا في الواقع يريدون أن يكون الوسطاء إلى جانبهم ولكنهم حريصين علـــى أن

يكونوا محايدين، ولكنهم تساءلوا إن كان من بين موظفي مركز هنري دونانت أشخاص أمريكيون.

في عام 2003 تمكن مارشال من الحصول على اتفاق لعقد سلسلة من الاجتماعات في جنيف بين اثنين من زعماء الماويين وممثلين اثنين عن الحكومة النيبالية. وكان الترتيب أن يمكث الماويون في جنيف لمدة ثلاثة أشهر وأن يتردد الممثلان للحكومة النيبالية بالطائرة لجلسات المفاوضات. ختمت السلطات السويسرية تأشيرات دخول إلى سويسرا على جوازي سفر لممثلي الحكومة بدون أي بيانات شخصية، أصدرتهما الحكومة النيبالية، وصورتين شمسيتين أتي بهما مارشال، وطائرة خاصة في مدرج مطار كتماندو جاهزة للإقلاع. وكانت هناك طائرة مروحية بها مسؤول قانوني نيبالي جاهزة للهبوط على الحدود الهندية النيبالية لأخذ اثنين من زعماء المقاتلين. في اللحظات الأخيرة، في حفل شراب في كتماندو، تطوع أحد السفراء الأجانب بذكر تفاصيل الخطة لوزير الخارجية النيبالي، الذي كان أحد المسؤولين الحكوميين الذين على علم بالسر، وإذا بالحكومة، التي وضعت سرية العملية شرطا أساسيا، تلغي الاجتماع في جنيف. هذا التصرف، قضى على ما تبقى من ذلك الاتصال مع الزعماء الماويين. العملية السلمية واصلت التحرك أماما في تعثر ولكن بدون مشاركة مركز هنري دونانت.

وأخيرا، عندما بدأت المحادثات أراد الماويون أن يشارك مركز هنري دونانت شاهدا في مفاوضاتهم مع الحكومة، ولكن الهنود أشاروا على حزب المؤتمر النيبالي أن يعارض مشاركة المركز بناء على عدم السماح للأجانب بحضور المحادثات. وقد عبر عن رأيهم هذا بوضوح أحد المسؤولين الهنود لم يفصح عن اسمه بقوله لقد كانت الهند "ضد توسط اطراف ثالثة سواء الأمم المتحدة أو غيرها... وبغض النظر عن المنغصات، فالهند والنيبال يفهم بعضهم البعض جيدا، وغيرهم قد يأتي ويتدخل بينمها... ولكن عندما تفشل المحادثات يسارع الجميع للهروب بتذاكرهم من فئة الدرجة الأولى. فنحن ليست لنا ثقة في أحد غيرنا لكي يرعى مصالحنا".

هذا الرفض امتد حتى شمل الأمم المتحدة. وأعلن كوفي عنان، أمين عام المنظمة، في خطاب عام 2002 أن الأمم المتحدة على استعداد لاستخدام مساعيها الحميدة في نيبال إذا لزم الأمر. استلم باندما راتنا تولادهار مكالمة تلفونية بعد ذلك مباشرة من زعيم الماويين، براتشاندا، يطلب نسخة من ذلك الخطاب وقد رأى في ذلك فرصة لتدويل الصراع. كان منزل تولادهار في كاتماندو على بعد أمتار من السفارة الهندية، و لم يمض وقت طويل حتى مثل نائب رئيس البعثة الدبلوماسية أمام المنزل لتسليم رسالة مفادها أن الهند لا ترى أي حاجة لإشراك طرف ثالث في القضية. كما اتصلت الأمم المتحدة بالسفارة الهندية في نيويورك تقترح إرسال مسؤول من الأمم المتحدة متوسط المستوى إلى النيبال ليرى الاحتمالات الموجودة هناك. فسر السفير هذا الاتصال كطلب إذن، فرفضه. وبرغم ذلك أرسلت الأمم المتحدة موظفا ذا رتبة أدنى إلى حد ما، وهو تامرات ساموبل Tamrat Samuel. وعندما وصل هناك تمكن من الاتصال بالزعيم السياسي للماويين، بهاتاراي، وهكذا أصبح ساموبل يتلقى مكالمة تلفونية مرة كل شهرين. كان أحيانا يخرج من الاجتماعات ليرد على التلفون ويأخذ من بهاتاراي Bhattarai، على الطرف الآخر، أسئلة يلقيها بلغته الإنجليزية السريعة والمشوشة بسبب سوء الاستقبال على خط التلفون. وفي آخر المطاف اضطرت الهند بالقبول بدور للأمم المتحدة في تجريد الماويين من السلاح ومراقبة الجيش النيبالي. ووضح رئيس الوزراء النيبالي لحكومة الهند أنه ما لم توافق للأمم المتحدة فإن عليها أن تتولى بنفسها مسؤولية قضية السلاح في نيبال.

كان موقف الهند مفهوما تماما، حيث أنها كانت تشاهد تزاحم الأطراف الثالثة في النيبال بشكل ملحوظ.. من مركز كارتر Carter Center، إلى مجموعة سانت إيغيديو الكاثوليكية Community of Sant'Egidio غير الاكليركية، إلى مارتي أهتيساري Martti Ahtisaari، إلى الحكومة السويسرية، بالإضافة إلى مركز هنري دونانت نفسه. كلها تتسابق على العمل هناك. واشتكى أحد المعلقين النيباليين من وجود عدد كبير من المنظمات غير الحكومية لدرجة يخيل للمرء أن "موسم الصراع السياحي" قد بدأ فعلا. وبما أن الهند هي القوة العظمى في

المنطقة، فهى تعتبر أساسية لكل ما يحدث في النيبال، وبعد مراقبة العملية لمدة ثلاث سنوات قررت الهند أخذ زمام المبادرة عام 2005 لتصبح هي نفسها طرفا ثالثا، بل والقوي أيضا. كان حزب المؤتمر قد عاد للسلطة من جديد في الهند، وقامت الحكومة بالاتصال، عبر شريكهم الأصغر في التحالف، الحزب الشيوعي، بزعماء الماويين، الذين كان عدد كبير منهم من خريجي جامعة جواهرلال نيهرو الهندية في الوقت الذي كان بعض زعماء الجزب الشيوعي الهندي طلابا فيها كذلك. وسرعان ما ظهرت في الصحافة إشارات إلى أن الماويين "كانوا تحت رعاية المخابرات الهندية الخاصة التي تحرسهم وترعاهم بعيون يقظة". إن اتفاقية التفاهم المكونة من اثنتي عشرة نقطة، التي صدرت في نوفمبر/تشرين الثاني 2005 بين الماويين وتحالف الأحزاب السبعة المعارضة في نيبال، لم تبرم في دلهي فحسب بل وُصفت بأنها "حررت في الساوث بلوك South Block" مركز ديوان الحكومة الهندية.

ليس الهنود وحدهم هم الذين لديهم حساسيات تجاه التدخل الخارجي. فالحكومة البريطانية قاومت، ولمدى طويل، كل المحاولات لتدويل الصراع في أيرلندا الشمالية، وتجاهلت باستمرار قرارات الأمم المتحدة بخصوص القضية. تغير هذا الموقف عام 1991 بمجيء جون ميجر رئيسا للوزراء عندما دعا سير نينيان ستيفن Sir Ninian Stephen، الحاكم العام لأستراليا سابقا، لترأس جلسات المحادثات بين الأحزاب. وبعد ذلك أرسل الرئيس بل كلينتون عضو مجلس الشيوخ الأسبق جورج ميتشل George Mitchell لأول مرة إلى أيرلندا الشمالية كمبعوث اقتصادي، ليصبح بعد ذلك الرئيس الصبور لتلك الجلسات.

وكذلك ظل حكام جنوب أفريقيا حريصين بشدة على المحافظة على الفضوليين خارج الصراع في بلادهم. وفي عام 1986 أرسلت مجموعة من سبعة أعضاء عرفت بمجموعة شخصيات الكومنولث البارزة Commonwealth Eminent Persons Group إلى جنوب أفريقيا برئاسة شخصين هما الأسترالي مالكولم فرايزر Malcolm Frases والنيجيري أوليسغون أوباسانجو Olusegun Obasanjo للشروع في محادثات تقاربية بين الطرفين. وأقصى ما وصلت إليه هذه

المجموعة هو وضع 'تصور ممكن للتفاوض' يقوم على نفس الإجـراءات الـتي سيطرحها الرئيس دوكلاريك أربع سنوات بعد ذلك. ولكن، في اليوم الـذي كانت المجموعة ستلتقي فيه مع بـي دبليو بوتا وحكومته، أمرت وزارة دفـاع جنوب أفريقيا غارات قبيل الفجر بالقنابل على قواعد للمؤتمر الوطني الأفريقي في كل من زمبابوي وزامبيا وبتسوانا. في ذلك اليوم أيضا ألغت المجموعة مهمتـها وغادرت البلاد جوا من جوهانزبيج.. وذلك هو ما كان يريده بوتا.

وبمجرد ما انطلقت المفاوضات تأكدت الحكومة من كـل المـستطلعين لأن يكونوا طرفا ثالثا قد طردوا من البلاد. ويدعي نيل بارنارد أنه "منذ اليـوم الأول توصلتُ إلى اتفاق مع نلسون مانديلا، وبإيعاز مني شخصيا، أننا نحـن، أبنـاء جنوب أفريقيا، سنجري مفاوضاتنا لوحدنا وبدون تدخل من أحد. فلن نشـرك الكومنويلث ولا البريطانيين ولا الأمريكيين ولا الأمم المتحدة ولا أفريقيـا ولا مجموعة الشخصيات البارزة... ولا أي طرف آخر". وعنـدما تقابـل جهـاز المخابرات الوطني والمؤتمر الوطني الأفريقي وجها لوجه في سويسرا كان أول بند اتفقا عليه هو إبعاد أي طرف ثالث عن الحوار. ويقول بارنارد: "فكلما حاولت عناصر من العالم الخارجي أن يفرضوا أنفسهم كشركاء، كلما ازددنا نحن عنادا كي لا ندع لهم فرصة ليشاركوا معنا بأي شكل من الأشكال. ولذا كان أمثالي يصارعون بكل الوسائل لإقناع بوتا بألا يسمح لأي وسطاء أو مساع حسـنة، وألا يكون هناك أي تدخل أو مشاركة أجنبية. فنحن بمفردنا وبصورة مباشـرة سوف نتحاور مع المؤتمر الوطني الأفريقي. فليس هناك مجـال أننـا كحكومـة سنخضع لأوامر أو تعليمات رجال الدين أو الأكاديميين أو رجال الأعمال فيما يتعلق بإدارة أو تسير سياسة البلاد".

ورغم مواقف الحكومات، وغالبا في مواجهة الاستنكار الشديد، هناك أفراد شجعان كانوا دائما على استعداد للمخاطرة بسمعتهم السياسية في محاولة لفـتح قنوات اتصال مع الجماعات المسلحة. وافق جون هيوم John Hume على اللقاء مع جيري آدمز في خضم حملة 1988 التي كانت يخوضها الجيش الجمهـوري الأيرلندي، وعندما شوهد آدمز يدخل باب بيت هيوم وانكشف أمـر اللقـاء،

تعرض هيوم لحملة هجوم شرسة في وسائل الإعلام. ولكنه فاز بالضحكة الأخيرة عندما منح جائزة نوبل للسلام، رغم الثمن السياسي الباهض الذي دفعه في العملية. وفي جنوب أفريقيا كان الرئيس بوتا يريد إلقاء القبض على كل من شارك في لقاء داكار عام 1985 من أعضاء المؤتمر الوطني الأفريقي بمجرد عودتهم إلى البلاد. عومل تمونس إلوف Theuns Eloff، القس بالكنيسة المُصلَحة الهولندية، بالذات بطريقة قاسية مقصودة. فقد قوطع شخصيا وشنع به، ولم يسمح له بإنهاء دراسته في الدكتوراه بجامعة أورنج فري ستايت، وطرد من وظيفته. والأسوأ من ذلك، أن أطفاله أهينوا ووبخوا في مدارسهم. ولكن عاد من جديد كمشارك في اتفاق السلام الوطني National Peace Accord وفي مؤتمرات السلام إلى نظمها مؤتمر جنوب أفريقيا الديمقراطية (كوديسا) Convention for a Democratic South Africa-CODESA. وقد أشار ويللي إسترهوس، الذي قاد الحوار الخاص بين المثقفين الأفريكانا والمؤتمر الوطني الأفريقي، إلى ما قاله له الرئيس بوتا في وقت ما وهو "إنني أعرف عن صلاتك مع المؤتمر الوطني الأفريقي.. ولو تسربت أخبارها فسأجرك جرا فوق الجمر، وعلي مرأي ومسمع الجمهور".

لكن هذه المبادرات المبنية على حسن النية عرضة لعدة مشاكل حيث أنها تفقد قيمتها ومصداقيتها بمجرد أن يعلن عنها، لأنها بطبيعتها تصبح بعد ذلك وسيلة غير مناسبة لتفاوضات خلفية ذات طبيعة سرية. وغالبا ما يجد القادة السياسيون هذا النوع من المجهودات غير مريح للأسباب التي بينها مايكل إغناتياف Michael Ignatieff في تعليقه عندما قال: "أن صانعي السلام، بحكم وجودهم على خط الحدود الفاصل بين الطرفين، هم في الحقيقة يصادقون على انتصارات الطرف الغالب ويعرقلون محاولات المغلوب لاسترداد أي مجالات قد اكتسبها". وبعض الهجوم الذي يصدر أحيانا ضد الوسطاء هو هجوم سياسي صرف، كما حصل عندما عبر ماريانو راخوي Mariano Rajoy عن 'خجله' للجوء الحكومة الإسبانية إلى وسطاء من الخارج للحديث مع الحركة الوطنية لتحرير الباسك (إيتا) Basque Nationalist Liberation Movement-*Euskadi*

ETA *Ta Askatasuna*، واقمم ثاباتيرو 'بالسذاجة' و'العبث' لاعتماده عليهم.

أما لماذا ترفض الحكومات الأطراف الثالثة فأمر مفهوم تماما لاعتبارات السيادة، ومن باب أولى، لأنها تخشى فقدان السيطرة على المفاوضات ومواجهة حلول وسط هي في غنى عنها. وهناك وجاهة للرأي القائل بأن الاتفاقية التي تنبع من أطراف في الداخل فقط تعطيهم شعورا أقوى بالملكية والانتماء من اتفاقية يصممها ويهندسها أجانب. وكما قال رئيس جنوب أفريقيا الأسبق، أف دبليو ديكليرك، "إن قوة عملية السلام في جنوب أفريقيا تكمن في أنها لم تكن في حاجة – ولم تسعَ – إلى الوساطة الأجنبية. وكان من عوامل نجاحها أنها 'إنتاج محلي' بالكامل".

وعلى الطرف الآخر، قد يكون من الصعب التوصل إلى اتفاق دون وجود طرف ثالث. وتفيد الدراسات أن الصراعات التي توسطت فيها أطراف ثالثة قد انتهت إلى حلول مرضية بمقدار ضعف تلك التي لم تتوسط فيها هذه الأطراف. فوجود شريك ثالث، مقبول لدى الطرفين، يترأس المحادثات، يمكن أن يكون حكما فعالا، ويمكن طبعا أن يساهم بأكثر من مجرد التأكد من احترام الطرفين لقواعد اللعبة. فالأطراف الثالثة يمكنها أن تقود العملية إلى الأمام وأن تحدد جداول الأعمال وأن تنظم الجلسات وتطرح حلول وسط معقولة وتساهم بذلك في إزاحة أي عقبات في الطريق. وهناك أنواع مختلفة من الأطراف الثالثة تتراوح من الوسيط القوي، كدور الولايات المتحدة الأمريكية بين الإسرائيليين والفلسطينيين، إلى وسيط متواضع حميد كمنظمة غير حكومية تكون شاهدا أثناء المفاوضات. وهذا النوع من الوسطاء يؤدي إلى جدل عقيم لا نهاية له حول التمييز فنيا بين دور التسهيل والتوسط والتحكيم. ففي نهاية الأمر هدف كل الوسطاء هو السعي إلى تحقيق الغاية نفسها، وهي مساعدة الطرفين في الوصول إلى اتفاق دائم. ويقول نيكولاس 'فينك' هيسوم Nicholas 'Fink' Haysom، المستشار القانوني لنلسون مانديلا الذي لعب دورا محوريا في مفاوضات جنوب أفريقيا (ومحادثات أخرى عديدة في أماكن أخرى)، عن الأطراف الثالثة أن "الصراعات المختلفة تحتاج إلى أساليب مختلفة... فبعضها يحتاج إلى إمكانيات

ونفوذ لا تملكه إلا الحكومات أو المؤسسات المتعددة الأطـراف وتسـتطيع أن توظفه، أما في حالات أخرى فإن الضعف في حد ذاته يعتبر مصدر قوة وأساسا لبناء الثقة بالنفس وبالآخرين".

النقطة المهمة بخصوص الأطراف الثالثة ليست هي قدرتهم علـى فـرض الاتفاق ولكن قدرتهم على تسهيل الوصول إليه بإزاحة ما يمكن أن يكـون في الطريق من عراقيل. ويقول الأكاديمي الأمريكي جي مايكل كريـغ J Michael Greig أنه "بإمكان الأطراف الثالثة أن تساعد الأطراف المتنازعة علـى تفـادي 'أزمة المساومة' بلعب دور مفيد في 'تهوين مخاوف المتنازعين' من استغلال بعضهم لبعض وتوفير الغطاء السياسي اللازم لتقديم تنازلات". أما وجهة نظر زارتمـان Zartman وفيور Faure في "الوظيفة الأساسية للوسيط هي أن يكون جسرا من الثقة بين المتنازعين. لا أحد منهما يثق في الآخر ولكن كلاهما لا بد أن يثـق في الوسيط لكي ينجح في وظيفته". ويقول أوليفر رامسبوتام Oliver Ramsbotham وتوم وودهاوس Tom Woodhouse وهيو ميال Hugh Miall، في كتيبهم عـن المفاوضات مع الجماعات المسلحة، أن الأطراف الثالثة "تساعد الأطراف المتنازعة في التواصل بعضهم مع البعض، مكتسبة بذلك ثقتهم، وقائمـة علـى ترتيـب جداول أعمالهم، وموضحة لما يعنّ من قضايا وجاهدة في صياغة الاتفاق بينهما. فباستطاعتهم تسيير الاجتماعات واختيار المواقع المناسبة وتخفيف درجات التوتر بين الأطراف واكتشاف اهتماماتهم، وأحيانا توجيه تفكيرهم إلى ما لم يتم تحقيقه من احتمالات. وهذه مهمات غالبا ما تكون مثيرة للجدل والخـلاف، وربمـا محرجة للزعماء المتحاورين أنفسهم أن يقوموا بها". ومارتي أهتيسـاري يقـول: "الوسيط الجيد كملاح الميناء الماهر، ينبه الآخرين إلى الأماكن التي يجب تفاديها كي لا تغرق السفينة".

تحت ظروف معينة يمكن أن تكون الحكومة وسيطا وهي طرف مفاوض في آن واحد. بعد خطاب بيتر بروك Peter Brooke عام 1990 الذي أشار فيـه إلى أن بريطانيا ليس لديها مصلحة استراتيجية أو اقتصادية في أيرلنـدا الشـمالية، صارت الحكومة البريطانية في حكم الطرف المحايد تقريبا. فهي علـى اسـتعداد

للتعايش مع أي نتيجة مرضية يتوصل إليها الاتحاديون الموالون لبريطانيا وخصومهم من الجمهوريين والقوميين، فيما بينهم. وهكذا وجدنا أنفسنا في الحكومة البريطانية مع حكومة جمهورية أيرلندا (الجنوبية) نتنقل بين المعسكرين للتوصل إلى اتفاق، وترأسنا الجلسات الخاصة الحاسمة في المحادثات. وكانت الحكومتان، بحكم الواقع، وسطاء أقوياء لأنه بإمكانهما تحريك الأمور من خلال الأجهزة التنفيذية والقضائية التي تحت تصرفهما. وكذلك الحال بالنسبة لدور الحكومة الأمريكية في عملية السلام في الشرق الأوسط التي بإمكانها تغيير الحقائق على الأرض اقتصاديا وأمنيا، مما يجعلها وسيطا ذا نفوذ قوي. ولتفعيل هذا الدور فلا تحتاج الحكومة الأمريكية إلى أن تكون محايدة حيادا كاملا. يشير جورج تينيت George Tenet مدير وكالة الاستخبارات المركزية (سي آي أيه) أن أحد المفاوضين الفلسطينيين قال له في عقب إحدى الجلسات في مؤتمر نهر واي Wye River عام 1998 "نحن نعلم أن لديكم علاقات حميمة واستراتيجية مع الإسرائيليين لا نستطيع أبدا نحن أن نكونها معكم.. ولكن كل الذي نرجوه أن تكونوا منصفين". لقد نجحت الولايات المتحدة كوسيط عدة مرات ولكن هناك، كما يقول رامسبوتوم وودهاوس وميال، "أطراف ثالثة لا يؤثر دخولها على تركيبة الاتصالات بين الأطراف المعنية فقط، وإنما على ميزان القوى في الصراع نفسه". أي بمعنى آخر، هناك خطورة في أن يصبح الطرف الثالث القوي لاعبا في الصراع الذي أمتُص فيه كما حصل للهند في سريلانكا في الثمانينيات. ويعلق تشسير كروكر Chester Crocker على ذلك فيقول إن دور الهند كراعٍ للسلام "تماهى مع أدوار أخرى مما زاد في تشويش المشهد مع اندماج القوات الهندية في القتال جديا مما جعلها بالضرورة طرفا في النزاع". فدور الوسيط القوي له سلبياته كذلك.

في كثير من البلدان الكاثوليكية يتجه الطرفان إلى الكنيسة بشكل تلقائي لترتيب الاتصالات وتوفير الأماكن الآمنة للاجتماعات. فقد اتجه الرئيس كريستياني في السلفادور أولا إلى الكنيسة الكاثوليكية لتكون وسيطا و لم يوافق على استعمال الأمم المتحدة إلا بعدما فشلت تلك المحاولة. في بلد كاثوليكي

شديد التمسك بالكنيسة كبلاد الباسك لعبت الكنيسة دورا في تنظيم الاجتماعات بين الحركة الوطنية لتحرير الباسك (إيتا) Basque Nationalist Liberation Movement ETA والحكومة الإسبانية عدة مرات. القس أريارتي Bishop Uriarte الذي ينتمي لثامورا Zamora في شمال غربي إسبانيا، التحق بفريق الرئيس أثنار المفاوض في الاجتماع الذي عقد مع الجماعة المسلحة في مدينة فيفي بسويسرا في مايو/مايس 1999. نصب الأب الك ريد Alec Reid، وهو قسيس أيرلندي كان له الفضل في ترتيب الاجتماع بين جيري آدمز وجون هيوم في أيرلندا الشمالية، نفسه في دير في بلباو وأبدى استعداده للمساعدة. وقابل ميكيل أنتثا Mikel Antza، الزعيم السياسي للحركة الوطنية لتحرير الباسك، وذهبت المنظمة إلى درجة أنها منحته اسما حركيا وهو "أريليو" ولكنهم في النهاية قرروا عدم الاستفادة من خدماته كوسيط. لقد أصبحت الكنيسة في السنوات الأخيرة قلقة إلى حد كبير لتورطها في قضايا الخلافات السياسية. وقد بادر خيسوس إيغويغورين بالاتصال بالكنيسة بعد حديثه مع أيرلندو أوتيغي، وكان أثنار ما يزال رئيس وزراء إسبانيا آنذاك، ورأي إيغويغورين أن الكنيسة لها فرصة أكبر للنجاح من أي وسيط آخر لإقناع حزب الشعب المحافظ للمشاركة في حوار مع (إيتا). ذهب إيغويغورين إلى روما لمقابلة الكاردينال إتشيغري Etchegaray، وهو من الباسك الفرنسيين كان رئيسا للمجلس البابوي للعدالة والسلام، وكان مبعوث البابا لصدام حسين عام 2003 في محاولة لإقناع العراقيين للتعاون مع الأمم المتحدة وتفادي الغزو. الكاردينال قدم لإيغويغورين كأسا من الأنيسون فلم يعجبه، وقال له أن النزاع قضية داخلية تتدخل فيها الكنيسة المحلية وليس الفاتيكان. وفي طريق عودته إلى بلاد الباسك عرج لزيارة الكاردينال المحلي الذي قال له أن الكنيسة لا تستطيع التدخل في قضية حساسة كهذه. وهنا ساورت إيغويغورين شكوك بأنهم قلقون أن تدخلهم في القضية سيؤثر على علاقتهم مع حزب الشعب الحاكم آنذاك.

تكونت الأمم المتحدة جزئيا لتقوم بدور الوسيط في النزاعات، ولكنها طوال فترة الحرب الباردة وجدت من الصعب القيام بذلك لأن كل نزاع بين

الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة كان عبارة عن معادلة صفرية بين الطرفين، إما غالب أو مغلوب. في آخر الثمانينيات ظهر انفراج بسيط ببروز سياسة البيروستريكا والغلاسنوست (إعادة البناء والشفافية) في الاتحاد السوفياتي. ومع سنة 1989 كانت الأمم المتحدة المنظمة الوحيدة التي يمكن أن تلعب دور الوسيط في السلفادور. فقد تلاشت مجموعة الكونترادورا Contradora Group التي جمعت بين رؤساء كل من المكسيك وكولومبيا وفنزويلا وبنما والتي تأسست عام 1983 للفصل في تنازعات أمريكا اللاتينية. ولم يكن بوسع منظمة الدول الأمريكية Organisation of American States أن تلعب هذا الدور لأن حكومة السلفادور كانت عضوا فيها. والكنيسة حاولت وفشلت. وبمجرد انتخابه رئيسا في مارس/آذار 1989 ذهب كريستياني لزيارة خافيير بيريز دي كويّارJavier Perez de Cuellar الذي أعطى الضوء الأخضر لتدخل الأمم المتحدة. في اليوم التالي طار ألفيرو دو سوتو Alvaro de Soto، وهو دبلوماسي دمث المعشر من بيرو ومستشار سابق لخافيير بيريز دي كويّار، جوا للمكسيك لملاقاة جبهة فارابوندو مارتي للتحرير الوطني Farabundo Martí National Liberation Front - FMLN (أف أم أل أن). ورغم أن الحكومة كانت ترغب في أن تلعب الأمم المتحدة دورا مساعدا محدودا، بينما كان المتمردون يرغبون في أن تقوم بدور الوسيط، إلا أن كلا الطرفين كان مدركا للحاجة إلى طرف ثالث.

كانت الأمم المتحدة تحضر لهذه الدعوة منذ فترة. أخذ فرانسيسك فيندريل Francesc Vendrell، وهو أرستقراطي من كاتالان في شمال شرق إسبانيا يتقن الإنجليزية بمهارة وموظف في المكتب السياسي بالأمم المتحدة، بزمام المبادرة للاتصال بالمقاتلين على الفور. فقد أقنع نفسه بأنه إذا كان من المقبول أن تتحاور الأمم المتحدة مع المجاهدين الذين يحاربون الاتحاد السوفياتي في أفغانستان فمن المسموح أن تحاور القوات المقاتلة في أمريكا اللاتينية. وحزم فيندريل أمره على عدم طلب الإذن من رؤسائه لأنهم حتما سيرفضونه، واستغل فرصة الاجتماع السنوي لوزراء خارجية دول عدم الانحياز ('السوق الدبلوماسي العالمي الكبير'

كما يصفه)، للاتصال بقائد (أف أم أل أن) العسكري آنا موريا Ana María-Mélida Anaya Montes. وكان الرئيس كاسترو كذلك حريصا على تقديم الأمم المتحدة لحركة (أف أم أل أن) فاستغل فرصة زيارة رسمية كان يقوم بها خافيير بيريز دي كويّار إلى كوبا عام 1985 لعقد اجتماع، بغير ترتيب مسبق، بين اثنين من زعماء (أف أم أل أن) واثنين من شخصيات الأمم المتحدة، دوسوتو وفيندريل. أخذ كاسترو أعضاء الفريق الرسمي في رحلة جانبية إلى 'جزيرة الشباب' Island of Youth التي كان مسجونا فيها. وعندما وصلوا الجزيرة، بواسطة قارب عتيق وبطيء جدا، أخذهم إلى بيت فخم كان يملكه ثري من أثرياء أمريكا، وقال لهم: "عندي هنا بعض ممثلي (أف أم أل أن) موجودين بالصدفة في كوبا، فهل لديكم مانع من مقابلتهم؟". أما دي كويّار فصافحهم وغادر، وأما دوسوتو وفيندريل. فبقيا وقضيا ثماني ساعات في حديث مع كل من فيرمان سانفيوقوس Ferman Cienfuegos، زعيم مجموعة المقاومة الوطنية National Resistance-RN التابعة لحركة (أف أم أل أن) وآنا جوادلوب مارتينيز Ana Guadalupe Martinez عن الجيش الشعبي الثوري People's Revolutionary Army-ERP (إي آر بي). كانت آنا مارتينيز ضحية اختطاف على أيدي الجيش عام 1976 حيث تعرضت للاغتصاب والضرب والتعذيب ولكنها بودلت فيما بعد برجل أعمال اختطفته المجموعة المقاتلة. وأخيرا، مع نوفمبر/تشرين الثاني عام 1988 تأسس رصيد كاف من الثقة بحيث دعا المتحدث السياسي لجبهة فارابوندو مارتي للتحرير الوطني سالفادور سامايوا Salvador Samayoa ألفارو دوسوتو إلى المكسيك لمقابلته. قدم دوسوتو عرضا مقابلا بأن طلب منه المجيئ إلى نيويورك، ولكن ممثل (أف أم أل أن) لم يتمكن من الحصول على تأشيرة أمريكية. أتفقا على لقاء في مونتريال بكندا على هامش مؤتمر عالمي للطيران كان يرأسه دوسوتو... وبدأت المفاوضات على أشدها بعد ذلك بقليل.

يعتقد كروكر وهامبسون وآل أن الأمم المتحدة تعطي ميزات محددة لدور الوسيط، إذ يقولوا: "تضفي الأمم المتحدة شرعية دولية على تدخلها في الصراع،

وذلك بفصل دور الوسيط عن اعتبارات السياسة الخارجية لأي دولة، وتحريره من مهمة إقناع زملائه في الحكومة وإقناع الحلفاء الدوليين بحكمة الاعتماد باستمرار على جهود الوسيط". ولكن توسط الأمم المتحدة عملية مشتركة بين الحكومات ولذا تصاحبها قيود معينة مثل النزاعات بين الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن، والأجندات المتنافسة بين مجلس الأمن ومكتب الأمين العام، والبيروقراطية الضخمة، والموارد المحدودة جدا.

تمتعت الأمم المتحدة بعصر ذهبي فترة محدودة كوسيط في ناميبيا وجواتيمالا والسلفادور، وكان ذلك فجرا قصيرا. ومع مرور التسعينيات ازدادت الحكومات في رفضها لحضور الأمم المتحدة في شؤونهم الداخلية واعتبرته تهديدا لسيادتها. وفي مثل هذه الحالات برهنت حكومات الدول الصغيرة على أنهم وسطاء أقل خطورة وتهديدا. فمن المؤكد أن الأمم المتحدة لم تكن مقبولة لدى إسرائيل عندما فتحت قنوات اتصال خلفية مع فتح عام 1992. أما النرويج فتحتل موقعا فريدا لعلاقاتها الحميمة مع إسرائيل ولصلتها بياسر عرفات في تونس. ولذا أصبح النرويجيون مأذونا مثاليا بعد أن انتخبت حكومة حزب العمل في النرويج التحقت بها حكومة حزب العمل في إسرائيل في يونيو/حزيران 1992. وقد كانت فتح قد سبق لها وأن طلبت من النرويجيين إذا كان بإمكانهم ترتيب اتصال مع الإسرائيليين، وعندما ذهب يان إيغلاد Jan Egeland، نائب وزير الخارجية الجديد، إلى تل أبيب انتهز فرصة جلسة شراب في آخر الليل في غرفة بأحد الفنادق بعد عشاء رسمي ليسأل نظيره يوسي بيلين Yossi Beilin عما إذا كان بوسعه ترتيب اتصالات مع جبهة التحرير الفلسطينية. كان حاضرا في الغرفة تلك تيرخي رود لارسن Terje Road-Larsen وقرينته مونا إيول Mona Juul، مسؤولة نرويجية، بالإضافة إلى إيير هيرشفيلد Yair Hirschfeld. جاء العرض النرويجي في أوانه، فعملية مدريد لا زالت في محلك سر وبدأ الإسرائيليون يدركون في حاجهم للحديث مباشرة من فتح إذا كان ولا بد مع التقدم بالعملية إلى الأمام. وهكذا أصبح النرويجيون وسيطا في الاجتماعات السرية بين إيير هيرشفيلد ورون بنداك Rob Pundak ونظرائهم أبي علاء وحسن عصفور

وماهر الكرد. واستضاف النرويجيون الاجتماعات ورتبوا الاحتياجات اللوجستية وتكفلوا بجميع المصاريف ومولوا الجانب الفلسطيني.

ويذهب إيغلاند إلى القول أن "دولة صغيرة مثل النـــرويج اســـتطاعت أن تلعب دور الطرف الثالث الوسيط لأن الأطراف الأخرى أدركت مدى حياديتها وعدم تحيزها. فالنرويج لم تسع لتتقمص دور 'الوسيط' بالمعنى الكامل و لم تســـع للحصول على تفويض للقيام بذلك". ويضيف إيغلاند يقول: "كنا في أوســـلو على درجة جيدة جدا من الدقة في إعطاء الطرفين نفس المستوى في المعاملـــة... نفس حجم الغرف، نفس السيارة، واستقبلناهم في المطار بغض النظر مـــن أي الطرفين هم. ولكننا لم نكن حاضرين في غرفة المفاوضات. لقد تعمدنا ذلـــك، لشعورنا أنه من المهم ألا نكون شركاء في العملية نفسها".

في يوليو/تموز 1993 استأجرت وزارة الخارجية النرويجية بيتا آخر ضخما في الريف يبعد عن أوسلو 150 ميلا إلى الشمال، عن طريق أحد زمـــلاء زوجـــة إيغلاند، وجاءت بعدد كبير من شرطة الأمن النرويجـــي لحراســـته. وأخـــبروا أصحاب البيت أنهم يحتاجونه لاستضافة مجموعة من الأكاديميين من ذوي الفكر الغريب من الشرق الأوسط الذين يجتمعون على إنهاء كتاب يؤلفونه. وقضى رود لارسان وأيول وإيغلاند الليل يصارعون النوم على الكراسي خارج الغرفة الـــتي كانت تجري فيها المفاوضات على أمل إن ينبلج الصبح على إنجاز مفاجئ. ولكن على العكس، انتهت المحادثات عند الخامسة والنصف صباحا وطلب الفريقان أن يذهبا إلى المطار فورا. فمن الساعات الأربعة والأربعين التي قضـــوها في البيـــت الريفي، ثلاثة وثلاثون منها قضوها في المفاوضات. وعندما اســـتيقظ أصـــحاب البيت في الصباح لتحضير الفطور اكتشفوا أن ضيوفهم قد غادروا المكان.

حاول النرويجيون تسيير الأمور في ما بين الاجتماعات بواسطة التلفونـــات المحمولة التي كانت مع المشاركين على مدار الساعة. وفي الاجتماع الأول اتفقوا على شفرة بدائية حيث 'العراب' يعني رابين أو عرفات حسب الفريـــق، 'الأب' يعني بيريز، وبيلين 'الابن'، وأبو مازن 'الروح القدس'، وأبو علاء 'رقم واحد'... وهكذا. وعلى أمل زيادة الضغط على الجانب الفلسطيني، تعمد هيرشفيلد عدم

تحديد موعد الجلسة التالية عند الانتهاء من الاجتماعات ليترك الأمر مفتوحا بأن العملية قد لا تستمر بعد ذلك. وكان يخبر روود لارسن بصفة شخصية أين يستطيع الفلسطينيون أن يضغطوا عليه للمضي إلى الأمام في المفاوضات أو النقاط التي ليس بها مرونة فيتجنبها.

وتنقل النرويجيون جيئة وذهابا بين تونس والقدس حاملين رسائل بين المعسكرين ويساهمون في تحديد مواعيد الاجتماعات. شكك الجانب الإسرائيلي في قدرة أبي علاء، والنرويجيون كانوا حريصين على اللقاء مع ياسر عرفات لطمأنة الإسرائيليين بأنه يدعم كل صفقة ليوافق رابين على مواصلة المحادثات. إن دور النروجيين كوسيط محايد يتمتع بثقة الجميع كان أساسيا لنجاح عملية أوسلو.

لقد استطاع النرويجيون البناء على هذا النجاح في سريلانكا في أواخر التسعينيات. كان النرويجيون في هذه الحالة، على عكس ما كانوا عليه في أوسلو، وسطاء رغم أنهم كانوا يصفون أنفسهم طوال الفترة بمساعدين. طلبت الرئيس كوماراتونجا من نمور التاميل أن يختاروا طرفا ثالثا وردوا بقائمة من خمسة مرشحين. اختارت الرئيس النرويج، باعتبار كل من المملكة المتحدة وكندا دولة ذات نفوذ قوي وظهور بارز. وفاجأت الجميع، بما في ذلك الحكومة النرويجية، بإعلانها دور النرويج في مقابلة تذاع مباشرة مع البي بي سي في أواخر ديسمبر/كانون الأول 1999. لقد جربت سريلانكا خيارات أخرى كثيرة بدون نجاح يذكر. فقد كانت الهند وسيطا قويا ما بين 1987 و1990 بجنود يحافظون على السلام فوق الأرض، ولكن حركة نمور تحرير تاميل إيلام (أل تي تي إي) لم تقبل بوجدهم واضطروا أخيرا إلى الانسحاب تحت هجمات النمور الشرسة المتواصلة. وحاولت الحكومة السريلانكية عام 1994 أن تتفاوض مع حركة النمور مباشرة وبدون مساعدة طرف ثالث ولكن تلك المحاولة فشلت خلال عدة أشهر. وأخيرا جربت أسلوب 'الانفجار الهائل' بعرض تنازلات سياسية، بما فيها الحكم الذاتي، مقترن بهجوم عسكري جديد عرف باسم 'استراتيجية الحرب من أجل السلام'. ولكن هذه الخيارات كلها فشلت.

في البداية تحقق تقدم بسيط في عملية السلام التي قادتها النرويج وذلك حتى تاريخ انتخاب رانيل فيكريماسنغ Ranil Wickremasinghe رئيسا للوزراء عام 2001، عندما بدأت الأمور تتحرك بسرعة. ذهب أولا المفاوضان النرويجيان، فيدار هيلجيسن Vidar Helgesen سكرتير الدولة للشؤون الخارجية وإريك سولهايم Erik Solheim، لزيارة زعيم نمور التاميل بالاسينجهام في لندن ومنها إلى العاصمة كولومبو للاجتماع بالرئيس ورئيس الوزراء، وأخيرا إلى الريف الشمالي للالتقاء براباكاران. أتفق على وقف إطلاق النار من الطرفين مع حلول أعياد المسيح، وبدأت المفاوضات حول اتفاقية مشتركة لإيقاف إطلاق النار. وجرت أول محادثات مباشرة في تايلندا في سبتمبر/أيلول 2002 في جو من الهدوء والسلم، وذلك نسبيا لأن الحديث كان مركزا على قضايا هينه كتنفيذ اتفاقية إيقاف إطلاق النار والتنمية الاقتصادية والتطبيع. أما القضايا السياسية الصعبة فقد أجلت إلى وقت لاحق.. إلا لتعود إلى الميدان لتهدد العملية من جديد. ظهر براباكاران، زعيم النمور، في مؤتمر صحفي لأول مرة بعد خمس عشرة سنة وقال إنه على استعداد أن يشارك في محادثات للسلام بمجرد أن يرفع الحظر المفروض على نمور التاميل. حاولت الرئيسة كوماراتونجا منع الحكومة من رفع الحظر ولكن الحكومة رفعته على أي حال.

وفي رأي سولهايم أن عملية السلام الجادة أمر صعب بدون وجود طرف ثالث، لأن شغل الأطراف المعنية الشاغل هو مصالحهم السياسية الضيقة. فالوسيط لا بد له أن يحوز على ثقة الجميع منذ البداية. ويقول سولهايم: "لم نكذب على أي من الطرفين، و لم نقم بأي عمل من ورائهم، لأنه لو حصل ذلك لكانت تلك نهايتنا"، مع علمهم بأن كلا الطرفي كان يكذب عليهم. ويعتقد سولهايم جازما بأن بلدا صغيرا كالنرويج لا يمكن لها أن تفرض أجندة معينة على طرفي النزاع.

لقد كان لدى حركة نمور التاميل وحكومة سريلانكا رأيان مختلفان جدا حول ما هو دور النرويج بالتحديد. فقال بالاسينجهام أن "دورهم هو دور مستشار محايد ومراقب" وان عليهم "المشاركة في المفاوضات لتفادي أي سوء

فهم يطرأ بين الأطراف المتحاورة، وأن تساعد على الدفع بالحوار إلى الأمام بدون فرض 'حلول متحيزة' على الأطراف المعنية. وفي رأينا المفاوضات بين أعداء تاريخيين ستنتهي إلى صعوبات حقيقةِ دون حضور ومساهمة طرف ثالث من ذوي خبرة معتبرة". ويري وزير خارجية سريلانكا، لاكشمان كاديرقمر Lakshman Kadirgamar، أنه "بوصول المفاوضات إلى النقاط الأساسية في الحوار، لم يعد للنرويجيين دور يذكر". فدور النرويج، حسب قوله، "مقتصر على إحضار الطرفين معا في مكان واحد، ثم التنقل لتوصيل الرسائل فيما بينهما، ووضع الأساس الذي عليه يلتقيان. فهي لا تملك تفويضا بفرض حلول، وهي بكل تأكيد لا تملك تفويضا-لاتخاذ قرارات تنطوي على أهداف مسبقة. وبهذا المعنى فهي ليست حكما، ولا قاضيا، وليست وسيطا كذلك". واستطرد يقول أن سريلانكا استلمت ستة عشر عرضا من أطراف ثالثة لتلعب هذا الدور ولكنها اختارت النرويج "حيث كنا نتصور – أولا – أن النرويج بلد صغير وليس لديه أجندة خاصة إلا فيما يتعلق بالبلد نفسه؛ سريلانكا، وبإقليم جنوب آسيا ككل. كما أن النرويج – ثانيا – بعيدة جغرافيا عن سريلانكا، والمسافة لها ميزاتها في مثل هذه الحالات. وثالثا، فإن النرويج ليس لها خلفية استعمارية على الإطلاق ولذا فهي لا تحمل تبعات سلبية تجرها معها إلى عمل من هذا القبيل. والنرويج – رابعا – لها تجربة سابقة في هذا المجال، فيما يتعلق ببعض النزاعات الشبيهة إلى حد ما رغم أنها ليست متطابقة تماما". فالحكومات والجماعات المسلحة تختلف في كل الحالات تقريبا حول الدور الذي ينبغي أن يلعبه الطرف الثالث في عملية السلام، حيث تود الجماعات المسلحة أن يكون هذا الدور أكبر وأكثر شمولية مما تفضل الحكومات.

وهناك خلاف واضح في وجهات النظر حول الحد الذي ينبغي أن يذهب إليه الوسطاء في تنمية علاقات حميمة مع ممثلي الجماعات المسلحة لأجل المساعدة في التقدم في المفاوضات. ويقول الأخضر إبراهيمي، مفاوض الأمم المتحدة المخضرم، "لا بد من خلق جو خاص بينك وبينهم، وربما كانت عبارة 'صداقة' قوية نوعا ما. فبالتأكيد ستسألهم عن أحوال أطفالهم وعما إذا كانت

الوالدة لا تزال على قيد الحياة، وما إلى ذلك. ولكنني لا أعتقد أنــه ينبغـــي أن تذهب إلى أبعد من ذلك. فهؤلاء الناس لهم مصالح كذلك، ولن ينسوا أبدا أنك في الواقع تسعى لانتزاعها منهم". ويعتقد سولهايم كذلك أنه من المهم خلق جو خاص ولكن ينبغي ألا تتغلب الصداقة على الهدف الأساسي نفسه. ففي حالــة سريلانكا مثلا كان سولهايم لا يري بأسا في أن يحرص الوســطاء علــى بنــاء صداقات مع الزعماء من الطرفين، وذلك بأن يلتقوا معهم اجتماعيا للشراب أو للراحة والترفيه، وأن يتحدثوا معهم عن اهتمامات أخرى مختلفة. ويؤكد سولهايم أن صداقة نشأت بينه وبين بالاسينجهام في الوقت الذي لم تنشــأ فيــه نفــس الصداقة بينه وبين براهاكاران لأنه لم يشرب الخمر ولم يتعــود علــى الراحــة والترفيه.

يحاول زعماء الجماعات المسلحة بطبيعة الحال أن يبالغوا في صداقاتهم مــع الوسطاء. ففي سريلانكا قدم كلا الطرفين هدايا لفيدار هيلجيسن بمناسبة زفافــه عندما تزوج في يونيو/حزيران 2004. وأرسل نمور التاميل إكليلا من الزهور إلى جنازة والدته عند وفاتها، فعلق على ذلك بعبارات ساخرة على لسان والدته لــو أنها شهدت الحدث. هذه القصة لها في الحقيقة صدى في نفسي شخصيا. فقــد كانت والدتي، التي ترجع إلى أصول أنغلو أيرلندية، تقول بشيء من التعــاطف عندما كنت أذهب لمقابلة جيري آدمز ومارتن ماغينس: "أوه... إني متأسفة جدا يا عزيزي". وقد أرسل إلى مارتن ماغينس رسالة تعزية عندما توفيت، ولكنني لا أستطيع أن أتخيل ما كان يمكن أن يجول بذهنها.

هنا يقع الوسطاء في مأزق صعب لا يحسدون عليه. فمن ناحية لا يريدون أن يتهموا بأنهم 'أدوات طيعة' للإرهابيين.. ومن ناحية أخرى فالإرهــابيون في الغالب اجتماعيون أكثر من نظرائهم على الطرف الآخر. فزعمــاء الجماعــات المسلحة أقل تقيدا بالرسميات، ومن السهل الانسجام معهم، مقارنــة بمــوظفي الحكومة البيروقراط. ولديهم الرغبة في تكوين علاقات وصلات مع الوســطاء. ولقد قابلت في تجربتي بعض الوسطاء الذين خطوا خطوات هادئة تدريجية مــن كونهم شخصيات محايدة إلى أن أصبحوا أبطالا مدافعين عن الضحايا المغبونين.

وهنا للحكومات الحق في أن تتساءل عن من الذي فوض هــؤلاء للتــدخل في شؤون بلادهم. وبعض الوسطاء يفتخر - مهنيا - ببناء علاقات ثقة مع زعمــاء الجماعات المسلحة لدرجة تصرفهم عن هدفهم الأساسي الذي جاءوا من أجله. فالمطلوب هو تكوين علاقات جيدة وهادئة تقوم على أكبر قــدر ممكــن مــن المعرفة، ليس بالصراع فحسب، ولكن بالشخصيات المشاركة فيه كذلك. فأكثر الجماعات لا تتوقع من الوسطاء أن يوافقوهم في آرائهم، فهذا لــيس هــو دور الوسطاء، وإنما يريدون بكل بساطة أن يجدوا آذانا صاغية وأناســا منصــفين. وهكذا فإن المفاوضين يعانون الكثير من أجل الوصول إلى توازن معقول ينصف الجميع.

وقد وجد سولهايم نفسه ضحية لهذا الوضع حيث أتهم بغير حق بوقوعه في هذا المأزق. في يونيو/حزيران 2001 أصدرت الرئيسة كامراتونجا دعوة مستعجلة لوزير خارجية النــرويج، ثوربيــورن ياغلانــد Thorbjorn Jagland، لزيــارة سريلانكا. عرج الوزير على العاصمة كولومبو وكان معه من الوقت أربع عشرة ساعة فقط يقضيها على الأرض في أول زيارة له للجزيرة. دعته الرئيسة للعشــاء ولكنها تعمدت ألاّ تدعو سولهايم ولا السفير النرويجي. وأسرت إلى ياغلاند أنها غير مرتاحة لسولهايم وتريد سحبه أو استبداله بشخص أعلى منه مرتبة ليحــرك المحادثات. وافق ياغلاند وقال إنه سيحيل سولهايم جانبا وسيتولى الــدور هــو شخصيا. وكان رد فعل نمور التاميل عنيفا وأصدروا بيانا أشاروا في إلى 'حيــاده الراسخ' واشتكوا من المعاملة "الدنيئة وغير المنصفة والمهينة" التي عومل بها والقرار الذي اتخذ "للحط من قدره وتهميش" دوره. وقالوا أنهم لم يستشاروا، وقطعــوا جميع الصلات مع النرويج لمدة ستة أشهر. وحسب ما جاء في تقرير النرويج عن جهودهم في سريلانكا، فإن خليفة ياغلاند كان شاكا في فائدة مواصلة النرويج لدورها في سريلانكا، حتى زار واشنطن واكتشف أن الأمريكيين كانوا مهتمين أكثر بما لديه عن الأوضاع في سريلانكا مما عن الوضع في النرويج.. وكان ذلك سببا آخر في كيف أن دولا صغيرة لها القدرة في أن تأخذ على عاتقهــا أدوارا كبيرة وشاقة.

عندما تمشي الأمور على غير ما يرام في المفاوضات يصبح الوسطاء هـــدفا للوم والنقد. انقلب رأي السنهاليز في النرويجين، الذي كان مدعما للدور الذي لعبوه في البداية، ضدهم فيما بعد وركز على سولهايم بصفة خاصة متهما إيـــاه بالتحيز إلى جانب نمور التاميل. ونادى السنهاليز القوميون باعتباره شخصية غير مرغوب فيها في سيرلانكا. واتهمت الرئيسة كوماراتونجا النرويج "بالـــذهاب إلى أبعد من دور الوسيط" ووصفت دورها بأنه "لا يتناسب مع الوضع الســـيادي لدولة سريلانكا". وأحرق تمثال صوري لسولهايم في مظاهرة للســـنهاليز، بـــل كانت هناك محاولة انتحارية في السفار النرويجية وتهديد بتفجير موكـــب يضـــم سولهايم. وفي عام 2004 سار حشد من الجماهير الغاضبة إلى السفارة النرويجيـــة في كولومبو تحمل نعشا لجثة زعيم المعارضة التاميليـــة، فلايـــادون رافينـــدران Velayadun Ravindran، الذي قتل على أيدي حركة نمور التاميـــل (أل تي تي إي) وتركوا جثته أمام بوابة مجمع السفارة.

تتوقع الحكومات أن يكون الوسطاء إلى صفهم، ولكن على الوســـطاء أن يحافظوا على حياديتهم. فهم لا يستطيعون أن يعطـــوهم تفاصـــيل تحركـــاتهم وترتيباتهم العملية، وبمن اجتمعوا وأين اجتمعوا بهم، خوفا من توظيف المعلومات لأغراض استخباراتية. فإن حصل وأخبر الوسطاء الطـــرف الحكـــومي بمكـــان اجتماع لهم مع أعضاء من الجماعات المسلحة، فهناك خطر أن تسعي الحكومـــة إلى اعتقالهم أو اغتيالهم. فعندما زارت مجموعة من الوسطاء في إحـــدى المـــرات قيادة حزب العمل الكردستاني (البـــي كيه كيه) في جبل قنديل المطـــل علـــى الحدود العراقية التركية لوحظ أن موكبهم كان مراقبا بوســـائل الاستكشـــاف الجوية. لم يمسوا الموكب بسوء أثناء وجودهم في المعسكر، ولكـــن بمجـــرد أن غادروه، قصف المكان ولقي ستة من المضيفين حتفهم.

بالإضافة إلى ما تعرضوا إليه من نقد من السريلانكيين على عدم حياديتهم، اتهم النرويجيون أيضا من قبل بعض الجهات في المجتمع الدولي بفقدانهم القـــدرة اللازمة لتحريك الأمور، وحاولت أطراف أخرى أن تحشر نفسها في الموضوع. ففي عام 2003 أعلنت اليابان، كأكبر مصدر للإعانات بالنسبة لسريلانكا، عن

نيتها في لعب دور محوري في حل الصراع، فاشتركت مع الولايـات المتحـدة والاتحاد الأوروبـي والنرويج في ترأس إدارة عملية السلام. فمن المعروف جدا أن يحاول وسطاء آخرون اختطاف المفاوضات. فبعد ما يقرب من ستة أشـهر حاولت البرتغال التدخل في مفاوضات الموزمبيق بالدعوة إلى نقلها إلى لشـبونة بسبب ضعف المفاوضين الإيطاليين وعدم قدرتهم، مشـيرة إلى سـرعة نجـاح المفاوضات الأنجولية التي جرت في إفورا Evora تحت رئاسة البرتغال. ولكن كلا الطرفين المتنازعين كان متشبثا بالمسار الإيطالي، ونجح فريق سـانت إيجيـديو Sant'Egdio في إبعاد ذلك الخطر بدعوة الولايات المتحدة والبرتغال ودول أخرى للانضمام كمراقبين إلى المحادثات في العاصمة الإيطالية روما، حيث استطاعوا أن يقدموا الخبرات خاصة في الجانب العسكري للمحادثات. وعنـدما تعطلـت محادثات السلفادور في بداية صيف 1991، حاول رئيس فنزويلا، كارلوس بيريز Carlos Perez، اختطافها بإرسال دعـوات خفيـة للشخصـيات الهامـة في المفاوضات للقدوم إلى عاصمة فنزويلا، كاراكس، في محاولة لإبعاد الأنظار عن مشاكله في البيت الداخلي. فقدم للطرفين عرضا باتفاقية هزيلة، رفضته حركـة جبهة فارابوندو مارتي للتحرير الوطني (أف أم أل أن) بمجرد اسـتلامها، كمـا رفضت أن تلتقي بالحكومة تحت أي رعاية أي طرف غير الأمم المتحدة. ويصر مفاوض الأمم المتحدة في السلفادور، ألفارو دي سـوتو Alvaro de Soto، أن أحد عوامل نجاحه في التوسط هناك "أنه بغض النظر عن حادث فاشل اختطاف دبلوماسي، لم تكن هناك أي مشكلة بالنسبة لوحدة الطرف الثالـث ونزاهتـه كوسيط، أو من كان سيد الموقف".

بل إن الدول المحايدة الصغيرة يمكن أن تشكل تهديدا للحكومات كطـرف ثالث، فها هو الرئيس الأمريكي السابق جمي كارتر يلاحظ "أنه مـن الثابـت تقريبا في حالة الحروب الأهلية فإن آخر ما تريده الأحزاب الحاكمة وآخر مـا تصبو إليه أن تأتي دولة كالولايات المتحدة أو منظمة كالأمم المتحدة أو أي هيئة أو مجموعة معروفة على نطاق واسع كوسيط، لأن ذلك في الواقع يعطي شرعية مبكرة جدا للمجموعات الثورية في البلاد". فالحكومات لا تريـد حكومـات

أجنبية تتولى دور الوسطاء لأنه لا يسعها أن تعاملهم بشدة إذا مـــا أصـــبحت المفاوضات صعبة، وذلك بالنظر إلى تأثير نتائج ذلك على العلاقات الثنائية بـــين الحكومتين. وهنا يمكن أن يقدم الأفراد حلا وسطا بين ما يطمح إليه الطرفـــان. فبالنسبة للجماعات المسلحة تضمن الأطراف الثالثة تدويل قضية النزاع ووجود حكم مستقل مما يجعل من الصعب على الحكومة أن تلجأ بحصانة إلى الخداع أو الغش. وأما بالنسبة إلى الحكومات فهو يوفر وسيطا لا يسعي للســيطرة علـــى المشهد وبإمكانه أن يتعامل بأسلوب 'الإنكار المعقـــول' ممـــا يســـهل إجـــراء الاتصالات المبدئية في سرية وهدوء وبدون ضجة، وإلا تعرضت الخطوات الأولى إلى مؤثرات سياسية باهظة الثمن.

عندما انهارت الجهود التي بذلت لإحلال السلام في إقليم أتشيه بأندونيسيا، بقيادة مركز هنري دونانت، في عام 2003، حاولت الحكومة الأندونيســـية في البداية أن تسوي الأوضاع فيما بينها داخليا. فبـــدأ الـــوزيران المشـــاركان في المفاوضات السابقة، سوسيلو بامبانج يودهويونو Susilo Bambang Yudhoyono ومحمد يوسف كاللا Muhammad Jusuf Kalla، بمبادرة شخصية من عنـــدهما. فاتصلا بزعيم حركة تحرير أتشيه (أدجي آيه أو) الميداني، بمساعدة رجل أعمال من الآتشيه، روسلي بنتانج Rusli Bintang، كوسيط. عقد يوسف كاللا، الذي كان آنذاك نائبا للرئيس، محادثات سرية مع حركة تحريـــر أتشـــيه في هولنـــدا وبريطانيا وماليزيا، دون إخبار العسكر أو وزارة الخارجية، بل وقابل أخا القائد الأعلى للحركة في منزله الرسمي. وتوصلوا إلى حد توقيع اتفاق حول تعـــويض مقاتلي حركة تحرير أتشيه اقتصاديا بما في ذلك منحهم طائرتين من نوع بـــوينج 737، وهو ما أسماه يوسف كاللا... "مهر العروسة الحقيقي". وعندما استنفذت تلك المبادرة، بدأ يوسف كاللا ويودهويونو، الذي أصبح الآن رئيسا، في البحث عن وسيط جديد. كانت الحكومة الأندونيسية واضحة منذ البداية أنها لن تقبـــل بالأمم المتحدة كوسيط بعد تجربتهم في تيمور الشرقية. أما حركة تحرير أتشـــيه ففضلت أن تختار حكومة أجنبية كوسيط وفي عام 2000 اتصلت فرقة (أم بـــي ادجي آيه أم) الماليزية التابعة للحركة بالرئيس الفنلندي ماريتي أهتيساري بعـــد

إبعادها عن المفاوضات التي كان يقودها مركز هنري دونانت. كان أهتيساري آنذاك غير مقبول سياسيا لدى الحكومة الأندونيسية لكونه لا يزال رئيسا لفنلندا، ولكنه بعد أن ترك المنصب وأصبح مواطنا عاديا، اتصل به يوسف كالا في أواخر 2004 وطلب منه أن يتولى رئاسة المحادثات. كل هذا و لم يخبر مركز هنري دونانت، الذي ما زال يشتغل على الموضوع، فتأثروا بدون شك عندما تولي أهتيساري إدارة المفاوضات في عام 2005.

شهد العقد الأخير ثورة ملموسة في عالم الدبلوماسية حيث بدأ الأفراد والمنظمات غير الحكومية يلعبون دور المسهلين والوسطاء بشكل أكبر في الصراعات المسلحة الداخلية بدلا من الأمم المتحدة والحكومات الأجنبية. وصف تيرخي رود لارسن ذلك بأنه."رأس المال الاستثماري لأجل السلام". فالتكاليف محدودة جدا، والأرباح المحتملة عالية جدا لدرجة أن النجاح مرة واحدة من مائة مرة فشل يعتبرا ممتازا.

إحدى المنظمات غير الحكومية التي كانت الأولى في لعب دور الوسيط هي مجموعة سانت إيغيدو، ومقرها مقاطعة تراستيفير البوهيمية Trastevere في العاصمة الإيطالية روما. لقد كرست الجماعة أغلب جهودها في الثمانينات لمساعدات إنسانية في موزمبيق، أفقر بلد في العالم آنذاك، ليلتهم الصراع نتائجها. فقد كانت البلاد في قبضة حرب أهلية شرسة بين جبهة تحرير موزمبيق (فريليمو) Mozambique Liberation Front-FRELIMO الحاكمة والمقاومة الوطنية الموزمبيقية (رينامو) Mozambican National Resistance-RENAMO المتمردة والخارجة عن السلطة، منذ استقلال البلاد عن البرتغال في عام 1975... ذهب ضحية تلك الحرب مليون نسمه وأربعة ملاين ونصف المليون من النازحين الذين رُحلوا عنوة من منازلهم. تلقتْ (رينامو) في البداية المساندة من منظمة روديسيا للاستخبارات المركزية Rhodesian Cenral Intelligence Organisatin وفيما بعد من جنوب أفريقيا كجزء من رد الجميل للدولة الجارة مقابل مساندة البلد لمقاتلي اتحاد زيمبابوي الوطني الأفريقي (زانو) Zimbabwi African National Union-ZANU والمؤتمر الوطني الأفريقي (أيه أن سي) African

National Congress. ويقول أحد الغربيين المشاركين في الأحداث آنـذاك أن العسكريين في جنوب أفريقيا قد صنعوا من (رينامو) "أكبر وأشرس قوة للقتل في أفريقيا". فهي مشهورة بتشويه المدنيين، بما فيهم الأطفال، بقطع آذانهم وأنوفهم وأصابعهم وأعضائهم الجنسية. وفي أعقاب صراع دموي على السلطة أصبح أفونسو دهلاكاما Afonso Dhlakama القائد الأعلى للحركة وقتل منافسه في تلك المعارك. لقد كان أفونسو قائدا يفتقد الثقة في نفسه، ورغم عدم حاجته – طبيا – لنظارات كان يرتديها حتى يظهر بمظهر المثقف.

مجموعة سانت إيغيدو عملت عن كثب مع كبير أساقفة بيرا Beira الكاثوليكي، جايمي جونكالفيز Jaime Goncalves، في محاولة لإنشاء قناة اتصال مع (رينامو). وأخيرا، في مايو/مايس 1988 عرض على جونكالفيز الالتقاء مع دهلاكاما، واختار أن يحضر في زيه الرسمي الكامل، وقبل الرحيل ذهب إلى الجلوس على كرسي الاعتراف أمام الكاهن مرتين احتياطا. طار على متن طائرة صغيرة أقلعت من مملكة ليسوتو Lesotho، وكان في رفقته راكبان غريبان متجهان إلى زايير Zaire، ليجد الطائرة فجأة تتجه إلى جوروبجوسه Gorongosa، المقر الرسمي لجماعة (رينامو) في إقليم سوفالا Sofala بالموزامبيق. حطت الطائرة في منتصف الليل على طريق من التراب بين الأشجار. استقبله دهلاكاما في الغابة بالقرب من نار مصطلاه، وقضوا مدة ساعتين في حديث متواصل. كان كبير الأساقفة يسعى إلى إيقاف إطلاق النار عند زيارة البابا جون بول الثاني إلى الموزامبيق كخطوة أولى. لم يحصل على ذلك ولكنه نجح في تحريك عملة السلام التي أدت في نهاية المطاف إلى اتفاقية نهائية. لقد كان دهلاكاما مرتاحا للتعامل مع كبير الأساقفة جونكالفيز أكثر من ارتياحه للتعامل مع كبير أساقفة مابوتو الكاثوليكي، أليكساندر دوس سانتوس، الذي اعتبره صديقا لـ (فريليمو). إضافة إلى ذلك فإن جونكالفيز ينحدر في الأصل من نفس الإقليم في البلاد الذي منه دهلاكاما ونائبه المتحدث باسم الشؤون الخارجية، آرثر دا فونسيكا Artur da Fonseca، وتربطهما علاقة عائلية بعيدة. لقد تأسف دوس سانتوس أسفا بالغا "لروح القبلية عند (رينامو)".

لم يكن بوسع حكومة موزمبيق اللقاء مع (رينامو) وجها لوجه خوفا من أن تسبغ عليها الشرعية، فحاول رجال كنيسة موزمبيق، بما فيهم جونكالفيز، التنقل بين الطرفين جيئة وذهابا في كينيا. وفي أغسطس/آب عام 1989 طلب منهم رئيس موزمبيق، جوكيم تشيسانو Joaquim Chissano، تسليم المهمة إلى حكومتي كينيا وزمبابوي، وعندما فشلت تلك المحاولة كتب دا فونسيكا للكاردينال كاسارولي Casaroli، وزير خارجية الفاتيكان، يطلب منه أن تتولي الكنيسة استلام دور الوسيط. لكن الفاتيكان كان قلقا حول اشتباك المطارنة وتورطهم في أمور سياسية فأوضح رغبته في أن تتولى الحكومات التعامل مع هذه القضايا بدلا من الكنيسة. وموازاة مع ذلك كانت مجموعة سانت إيغيدو قد بدأت في وضع خطة لزيارة دهلاكاما إلى روما. كانت الحكومة الإيطالية قلقة لذلك لأنها لم تكن تريد الإساءة إلى علاقاتها الحسنة مع حكومة موزمبيق في مبوتو، ولكنها وافقت على الزيارة ما دامت سرية وغير رسمية.

في الوقف نفسه تسلمت مجموعة سانت إغيدو رسالة من (فريليمو) مباشرة عندما جاء إلى روما وزير العمل في حكومة موزمبيق، أغويار مازولا Aguiar Mazula، ليجس نبضهم حول إمكانية لقاء سري بين الطرفين في إيطاليا بدون شروط مسبقة. ويبدو أنه كان مقتنعا بأن مجموعة سانت إيغيدو تستطيع أن تضمن جو الحياد الضروري لذلك. عقد أول اجتماع في يوليو/تموز 1990 على هامش أول مباراة كأس العالم بين الأرجنتين والكاميرون. جاءت تذاكر المباريات للضيوف مع تحيات الحكومة الإيطالية، التي، حسب أندريه بارتولي Andrea Bartoli، تكفلت طوال فترة المفاوضات كذلك "بكل مصاريف الضيافة بما فيها رحلات التسوق إلى محلات الموضة الراقية في روما حيث اقتنى مندوبو (رينامو) بدل وأحذية مصممة خصيصا. كما سدد الإيطاليون فواتير المكالمات التلفونية إلى بلغت 60 ألف دولار ما بين يناير/كانون الثاني ويوليو/تموز 1992 فقط. ومع موعد توقيع اتفاقية روما كبدت عملية السلام الحكومة الإيطالية مبلغا قدره 20 مليون دولار".

عقد أول اجتماع رسمي بين الطرفين سرا في روما في 8 يوليو/تموز، بحضور كلا من ماريو رفايللي Mario Raffaelli (نيابة عن الحكومة الإيطالية)، ورئيس مجموعة سانت إيغيدو أندريه ريكاردي Andea Riccardi، والقس ذو الشخصية الجذابة ماتيو زوبي Matteo Zuppi، وجونكالفيز... كمراقبين. لم تكن حكومة موزمبيق ترغب في وجود وسطاء، وإنما شهودا فقط يقومون بدور الضامن لسير المناقشات. وكانت مجموعة سانت إيغيدو مقتنعة أنه لا يمكن تسوية قضية موزمبيق بمشاركة مفاوض "قوي" يفرض السلام بالقوة على الطرفين. وكتب زوبي عن "رسل الشؤم الكثيرين" الذين "ظهروا طوال تلك الشهور مصرين على إثبات أننا كنا نضيع الوقت. لقد أصبح ضعفنا هو سر قوتنا". ويقول بارتولي أن مجموعة سانت إيغيدو "كانت قادرة على النجاح كقناة للمفاوضات بسبب ضعفها الذي هو نفسه جعل منها قائدا غير متوقع، فعوزها للشخصية الدولية والقوة هو ما حال دونهما ودون أن توضع في قالب يكبلها من رسميات الجهود التقليدية".

برز مركز هنري دونانت في فترة مبكرة كأول عنصر ديناميكي في مجال المنظمات غير الحكومية العالمية للعب دور في تحقيق السلام. كان ذلك منذ عام 1999عندما اهتدى مارتن غريفيثس إلى فكرة تحويل تلك المنظمة غير الحكومية الميتة في جنيف إلى جهاز يستطيع خلق قنوات بين الجماعات المسلحة والحكومات بهدف إنهاء الصراعات وتخفيف المآسي الإنسانية في العالم. فانطلق المركز بقدر كبير من الحظ المبارك إلى الدخول مباشرة بأدوار هامة في الصراع في أتشيه ونيبال. كما أن دخوله في الصراع الطويل في بلاد الباسك تطلب حنكة وقدرا من الحظ الطيب.

بادر غريفيثس بالاتصال بالحركة الوطنية لتحرير الباسك (إيتا) Basque Nationalist Liberation Movement ETA ولكن حالفه الحظ بأن مبادرته جاءت في الوقت الذي كانت (إيتا) تبحث عن وسيط جديد. لقد كانت (إيتا) ترغب في مشاركة الحكومة السويسرية كوسيط ولكن الأخيرة كانت مترددة في القيام بالدور بعد المحادثات الفاشلة مع أثنار، رئيس الوزراء الإسباني.

فكان مركز هنري دونانت افضل خيار بعد ذلك. ووصف تقرير داخلي لمنظمة (إيتا)، استولت عليه الشرطة الإسبانية فيما بعد، ممثل المركز بأنه "رجل محترف جدا... ليس لديهم تعصب، وليس لديهم موقف مسبق ضدنا، ولا يعبرون بملاحظات غير مناسبة حول العمل المسلح (إلا ليعلموا إذا وقع فعلا أم لا)، ولا يحاولون 'تسويق' العملية السلمية لنا مقدما". وأرادت (إيتا) أن يتولى المركز الشؤون العملية والترتيبات الأمنية المتعلقة بالاجتماع، وأن يتولى دورا فنيا بتسجيل المحاضر وتوجيه النقاش كلما دعت الحاجة. لم تشعر الحكومة ولا (إيتا) أنه من المناسب أن يتولي المركز دورا سياسيا وكانوا ممنوعين من الاتصال مع منظمات وهيئات مشاركة بما فيها باتاسونا Batasuna القسم السياسي لمنظمة (إيتا).

لهذه المنظمات غير الحكومية ميزاتها بدون شك، ولكن هناك حدود لما يمكن أن تحققه. وتقول خبيرة العمل الإنساني أنتونيا بوتر Antonia Potter "كلما كانت المنظمة التي تدعم الوسيط صغيرة وغير رسمية، كانت حرية حركتها أسهل وأسرع خاصة في المراحل الأولى من العملية السلمية، ولكن لجوءها إلى أسلوب الجزرة والعصا يكون أقل كفاءة وتأثيرا في اللحظات الحرجة". ويري كروكر وهامسون وآل أنه "إذا كان الوسيط ممثلا لمنظمة غير حكومية، فربما كانت له أو لها حرية أكبر للحركة مع نقاط محدودة على القدرة على التأثير وعدم قدرة كاملة تقريبا أن يستحث أطراف النزاع أو يلزمها بتغيير تصرفاتها وأساليبها". فالمنظمات غير الحكومية تفتقر للقدرة التحليلية التي تملكها الحكومات أو القدرة للتعامل مع مشاكل التمثيل والتجانس للأطراف المعنية، أو لتسخير دعم المجتمع الدولي لمصلحة العملية بصورة كاملة. كما أنها تفتقر بشكل كبير إلى الوزن الحقيقي الذي يمكنها من الاحتجاج بقوة وفاعلية إذا حدث وأن لجأ أحد الجانبين إلى الغش أو التلاعب.

أصل دور الوسيط أن يكون حكما نزيها. يقول الأخضر الإبراهيمي: "من وجهة نظري، عندما تجد نفسك في موقف يوقع فيه الناس على شيء ويعملون عكسه في اليوم التالي، فمن واجبك أن تقوم بشيء يعبر عن عدم رضاك بذلك".

وهذا أمر يصعب على منظمة غير حكومية أن تقوم به. في نهاية مفاوضات طوكيو حول أتشيه في عام 2003 كان مارتن غريفيثس غاضبا جدا من تصرف الحكومة الأندونيسية. لقد كان هدفها على ما يبدو هو مجرد التظاهر بالالتزام بالرسميات لتبرهن للجمهور المحلي والعالمي أنهم قد استنفذوا كل الجهود في المفاوضات بدون التجاوب مع أي من حلول الوسط الكبرى الثلاثة التي طرحتها حركة تحرير أتشيه Free Aceh Movement-GAM. وعند منتصف الليل في آخر يوم في المفاوضات انطلق الجيش الأندونيسي لمواصلة عمله وكان من الواضح أنه تحرك دبر بليل وكان بناء على خطة مسبقة. كان غريفيثس متحمسا للحديث علنا بعد فشل المفاوضات لتعرية ما جرى ولكن الأمريكيين واليابانيين وآخرين من مساندي المحادثات تغلبوا عليه واقنعوه بالتزام الصمت. وفي الواقع، فإن هجومه على الأندونيسيين لم يكن ليؤدي إلى نتيجة سوى تجريده من التأهل لحضور المزيد من جلسات تلك المحادثات.

وأحيانا يحتاج الوسطاء أنفسهم إلى دعم. يقول أهتيساري: "إنه من المهم في العموم أن يدرك الوسطاء أنهم لا يستطيعون القيام بكل المهام لوحدهم، وأنهم يحتاجون إلى دعم على نطاق واسع". ففي السلفادور استخدم ألفارو دو سوتو 'مجموعة أصدقاء الأمين العام' التي تتكون من الحكومات المهتمة كوسيلة لتجاوز مجلس الأمن. وكان مصرا على المحافظة على بقاء الأصدقاء خارج دائرة عملية المفاوضات، موضحا لهم جميعا أن هناك وسيطا واحدا فقط، مع اللجوء إلى مساعدتهم عند الحاجة. ويقول دو سوتو: "إنه أساسي في الوسيط الجيد أن تكون هناك جهة واحدة لا خلاف عليها ولا لبس في كونها هي المسؤول مسؤولية كاملة". فإذا كان هناك أكثر من وسيط واحد بين الأطراف فإنها قد تستهوى استغلال أحدهم ضد الآخر. ويقول كذلك: "ما كنت أعمله هو أن أقول لحكومات البلاد التي أثبتت أنها قادر على المساعدة ولها نفوذ مع واحد أو أكثر من الأطراف المعنية.. 'هذا ما أريده منهم، وهذه الحجة التي استخدمها، فهل باستطاعتك أن تدفع بهم إلى هذا الاتجاه؟'. ولا أسألهم كيف سيمضون في تحقيق ذلك".

إن إحدى مفرزات الدبلوماسية الجديدة هي الحشد الهائل من المنظمات غير الحكومة الذي يبرز عندما يرفع تجميد الصراع. عشرات المتطوعين يظهرون على السطح ويقدمون خدماتهم. والخطر في هذه الحالات أن الجماعات المسلحة يستهويها الأمر وتدخل 'سوق المنتديات' بحثا عن المنظمة غير الحكومية التي تبدو الأنسب بالنسبة إليها. يقول الأخضر الإبراهيمي: "عندما تكون هناك أكثر من جهة واحدة في الميدان يتحركون هنا وهناك وفي كل اتجاه، الخطر الحقيقي في هذه الحالة هو الإساءة إلى العملية بأكملها". إن التنافس في حد ذاته ليس عيبا ولا مضرا، لأن الحكومات نفسها تبحث باستمرار على وسطاء مختلفين، والسوق غالبا هو الذي يعالج هذه الأمور ذاتيا. وفي الحقيقة بروز وسطاء كثيرين يساعد في ابتداء عملية الحوار نفسها، ولكن عندما تتطور العملية وتنتقل من مراحل بناء الثقة وإنشاء القنوات إلى الشروع في التفاوض، فلا بد أن تكون هناك قناة واضحة ويسقط جميع المنافسين الآخرين.

المنظمات غير الحكومية ليست هي الجواب الوحيد. فهناك هيئات ومنظمات إقليمية كالاتحاد الأفريقي African Union والمجموعة الاقتصادية لدول غرب أفريقية (إكواس) -Economic Community of West African States ECOWAS التي يمكن أن تلعب دور الوسيط. يقول إيمانويل بومباندي Emmanuel Bombande، من منظمة شبكة غرب أفريقيا لبناء السلام West African Network for Peacebuilding، "إن الوسطاء المطلعين والملمين حقيقة يهتمون بنتائج الأمور. فهؤلاء يتابعون الوصول إلى اتفاق، وهم سيظلون هناك لمدى طويل بعد انتهاء الصراع". في المرحلة الأخيرة للمفاوضات لإطلاق سراح الجندي الإسرائيلي الذي اعتقلته حركة حماس لمدة خمس سنوات، العريف جلعاد شاليت Gilad Shalit، فقد استبدل الوسيط الألماني الخارجي بوسيطين محليين يعملان معا. فكان على الجانب الإسرائيلي جيرشون باسكين Gershon Baskin ناشط سلام قديم ذو علاقات مباشرة مع دايفيد ميدان David Meidan، رجل الموساد الذي عينه نتنياهو لتأمين إطلاق سراح شاليت، وعلى الجانب الآخر الدكتور غازي حمد، أحد مسؤولي حماس على علاقات مباشرة مع أحمد

جابري، القائد العسكري لحماس (قتل بعد ذلك على أيدي الإسرائيليين)، الذي كان يحتجز شاليت. لقد استطاع باسكين وحمد أن يبنيا علاقات من الثقة على مدى سبع سنوات ومئات الساعات من المحادثات التي مكنتهما معا من السير بخطوات وئيدة نحو إطلاق سراح شاليت أخيرا من الحبس تحت الأرض.

دور الوسيط، كيف ما جري تجسيده أو التعبير عنه، عمل يحتاج إلى توازن دقيق. قال مارتي أهتيساري في خطابه لدى استلامه جائزة نوبل: "مهمة الوسيط هي مساعدة الأطراف المعنية فتح المسائل الصعبة والدفع بنا نحو الأمام في عملية السلام. ويجمع دوره بين كابتن السفينة، وطبيب مستشار، والمولدة، والمعلم". فعلى الوسيط التشاور مع الجميع دون التحيز لأي منهم.

وهناك اختلاف في الرأي بين الوسطاء حول مدى حياد الوسيط. فبينما التوازن بين الطرفين أمر ضروري، فهذا لا يعني بالضرورة أن الوسيط لا رأي له حول النتيجة النهائية. يقول أهتيساري أنه "في مجال التوسط، يجب ألا يكون المرء محايدا. فإذا ادعى الحياد، فمعنى هذا أنه سيأتي للمفاوضات لكي يستمع لوجهتي رأي الطرفين. فهذه الطريقة يمكن أن تأخذ عدة سنوات، إن لم نقل عقودا، لأنه ليس هناك أحد يدفع بالعملية إلى الأمام. ولذا فإن تجربتي وممارستي العملية جعلتني حساسا تجاه مصطلحي 'النزاهة' و'الحياد'. فأنا أفضل كثيرا استخدام مصطلح 'الوسيط الصادق'. فالوسيط يجب عليه معرفة النتيجة، إلى حد ما، ومن ثم توضيحها للطرفين". ويقول إن في قضية أتشيه بأندونيسيا كان "الحكم الذاتي الخاص هو الهدف.. وأنه كان من واجبي أن أخبر ممثلي حركة تحرير أتشيه (دجي آيه أم) أنني سأنسحب إذا هم أصروا على الاستقلال. وقلت لهم: 'لو كنت في موقفكم فلن أخسر شيئا.. سنلتقي جميعا أثناء المحادثات لنقرر ماذا يعني الحكم الذاتي الخاص، ثم بعد ذلك يكون الأمر لكم لتقرروا ما إذا كان ذلك كافيا ومقبولا من طرفكم عوضا عن الاستقلال. ولكننا لن نتكلم عن الاستقلال أثناء المفاوضات'".

ولذلك لا ينبغي أن يكون الوسيط عبارة عن مستمع سلبي يسعى إلى الوصول إلى القاسم المشترك الأعظم، ولكن يحتاج إلى أن يكون إيجابيا في طرح

الأفكار والدفع بالعملية إلى الأمام. وعلى الوسيط أن يكون طموحـا. يقـول الأخضر الإبراهيمي: "طبعا الوسيط يرنو بعينيه إلى القمر، ولِـمَ لا؟ ولكنـه لا يقول إنه سيصل إلى القمر اليوم، إن كان الأمر يتطلب بضع خطوات للوصـول إلى القمر. يجب أن يضع لنفسه أهدافا يمكن تحقيقها". هناك نموذجان متناقضان لهذا الأسلوب. الأول هو ريتشـارد هلـبروك Richard Holbrooke وأسـلوبه المتعجرف الصاخب مقتحما مفاوضات دايتون Dayton عام 1995 بين أطراف الصراع في البوسنة للوصول إلى اتفاقية ناجحة، والآخر جورج ميتشل George Mitchell بأسلوبه الصابر المتريث للملمة أطراف الصفقة، الـتي لم تـنجح في النهاية، في الشرق الأوسط عام 2002. فمن الأفضل عادة أن يكـبح الوسـيط جماح أنانيته، لأن آخر ما تتطلبه المفاوضات هو المزيد من التعقيد، ولكنها أحيانا تحتاج إلى شخص متغطرس نوعا ما. يصف أحد المسؤولين في مجلـس الأمـن الوطني أسلوب هلبروك فيقول: "كان في وسعه أن يظهر ظريفا مليحا مادام الجو يستدعي ذلك، ووحشيا قاسيا اذا تطلب الأمر". الخطورة في أسلوب الفتوة هذا أنه يولد اتفاقيات لا تعيش طويلا. يقول دو سوتو "إذا وصل طرف ما إلى طاولة التوقيع وذراعه تتدلى من كتفه – بغض النظر عن صعوبة التوقيع عمليا – فيكون من الصعب عليه أن يلتزم بما وقع على المدى البعيد". وبالرغم أن الوسيط النشط مرغوب فيه، إلا أن الوسيط الحريص أكثر من اللازم على التوصل إلى اتفاقيـة مهما كان الثمن، تحركه الرغبة في تحقيق نجاح ما وما يتبعه من رصيد وسمعـة، يمكن أن يكون كارثيا حقا.

على الوسيط أن يكون سبّاقا وسريعا ولكن بدون أجندة خاصة على طاولة المفاوضات. يقول مايكل يونج أن المرء "كمفاوض من أجل السـلام عليـه أن يتحدى الآخرين ولكن لا يأتي للمفاوضات بأمور خاصة به أو غير موضوعية... فالمشهد خاص بأطراف النزاع وإن لم يتفقوا فسـتكون تلـك مشـكلتهم". وللوسطاء، كأفراد، أن يدعموا بقوة حماية حقوق الإنسـان أو عـرض نظـام ديمقراطي، ولكن عليهم أن يتركوا قيمهم ومبادئهم وراءهـم. فقـد انتقـدت النرويج بسبب فشلها في عدم الإصرار على تكون حقوق الإنسان جـزءا مـن

اتفاقية سريلانكا للسلام. ويقدم فيدار هيلجسن ردا يعد شافيا في كل الحـــالات المشابهة، فيقول: "نحن ليس لدينا نموذج نشعر بأنه الحل الأمثل. فنحن نعمل بناء على الافتراض الأساسي أن الحرب هي أكبر منتهك لحقـــوق الإنســـان". وفي الوقت نفسه، هدف الوسيط هو اتفاق دائم، تتوقف استمراريته نفســـها علـــى معالجته لقضايا أساسية منها منع الإساءة لحقوق الإنسان وإيجاد نظام يرتكز على رضا الجماهير.

الوسيط الناجح يتطلب مهارات خاصة. يقول كروكر وهامبسون وآل أن الوسيط الجيد يولد بقدر ما هو يُصنع، وأن "الصفات الخاصة كسرعة البديهـــة، والحزم، والمرونة، وقبول الغموض والالتباس، والقدرة على معرفة ما هي المشاعر التي تحفز الناس... كل هذه صفات يولد بها الإنسان. أما الفهم العميق للصراع وتاريخ شخصي خاص أو وضع يجعل المرء ينتزع الثقة من أطراف الصراع، فهي مجموعة خواص شخصية... والتعليم والتجربة المهنية والظروف المحيطة والحـــظ الأعمى".

المهارات اللغوية لها أهمية قصوى.. فإذا كان الوسيط لا يتكلم لغة الطرفين فإن الإيحاءات السياسية 'تضيع في الترجمة'. تقول أنتونيا بوتر Antonia Potter أن الوسيط المتميز "قد يضع ذراعه حول زعيم الجماعة المقاتلة وهما يتمشيان معا في الحديقة، أو يتحدث عن شؤون الأسرة مع زعيم آخر أثناء حمـــام الســـاونا أو الجاكوزي.. وبإمكانه وضع المتفاوضين في غرفة وتحديد موعـــد نهـــائي لهـــم للخروج باتفاق. وربما دعا الفريقين بدون ملل ولا كلل إلى عشاء بعد عشـــاء، وربما أرسلهم إلى رحلات قصيرة في الغابات كما يرسل الآباء أطفالهم. ويستطع أن يشجعهم على التنفيس عن مشاعرهم وخيبة آمالهم وكأنه طبيب نفســـاني. وربما يفقدون صوابهم، إما عمدا وإما بدون خجل، أو يرفضـــوا أن يتـــأثروا أو ينزعجوا... كالثعلب في مكره، لقد فكروا في الزوايا المختلفة التي يحافظون مـــن خلالها على سرية العملية ونكرانها إذا دعت الضرورة".

ومن الميزات الضرورية لدى الوسيط الناجح الضرف والجاذبيـــة. ويقـــول مارتن غريفيثس، الذي يجسد الجاذبية في أجمل صورها، إن "الزوبعة المثارة حول

الجاذبية إنما هي مناورة لا أكثر ولا أقل". فبالجاذبية استطاع توني بلير أن يجر الاتحاديين الموالين إلى المحادثات في أيرلندا الشمالية. لقد اعتبروها ضربا من السحر، ولكن لم تزد في الواقع عن القدرة على تقمص أحاسيسهم والتعاطف مع موقفهم وإقناعهم بالاتجاه إلى الأمام.

ومن مهام الوسيط أن يقوم بعمل المترجم، فينقل الرسائل بأمانة من طرف إلى آخر ويفصل ويشرح ما تعنيه محتويات تلك الرسائل. فإذا لجأوا إلى الكذب أو قبض عليهم متلبسين بتضليل الطرف الآخر، فلم يعد لهم دور مفيد. ولكنني شاهدت وسطاء حرفيين جدا فيما ينقلون الكلام لدرجة أنهم يوصلون السباب والشتائم بحذافيرها، من طرف إلى آخر، وبمتعة نفسية ظاهرة عليهم. فالنتيجة الوحيدة لذلك هي زيادة تعبئة الطرف المستلِم للرسالة ورفع درجة حرارة الجو عموما بدلا من المساهمة في البحث عن مخرج أو حل. فالوسيط الفعال عليه تكييف وتهذيب الرسالة وتشذيبها وإزالة ما بها من أشواك.. فكما أن المطلوب منه توصيل الرفض أو عدم الرضا، عليه أن يقترح بدائل أو حلول وسط يرى أنها قد تكون مقبولة. هذه المعادلة المركبة بين المهارة والتعقل نادرة وتوضح كيف أن الوسطاء الممتازين نادرون أيضا.

لكن المطلوب من الوسيط أولا وقبل كل شيء هو الصبر. وتصف بوتر مثلا رائعا على القدرة على الانتظار في محادثات عن أفغانستان في بون بألمانيا عام 2002، حيث ظل الأخضر البراهيمي في كرسيه لم يتحرك، حتى للذهاب لقضاء الحاجة، لمدة سبع ساعات ونصف، ليجبر الوفود إلى الجلوس أيضا والعمل للتوصل إلى اتفاق. وبينما ساعات الليل تمضي أصبح المجتمعون أقل اهتماما بالرسميات والتفاصيل، وأخذوا يتوقون إلى الانتهاء من الموضوع في أقرب وقت. سأل جازوانت سينج Jaswant Singh، وزير الخارجية الهندي، المبعوثين النرويجيين في سريلانكا عندما التقيا به أول مرة، بكل حصافة قائلا: "هل لديكما قدرة على الصبر؟". أجاب سولهايم، وفي ذهنه المعاناة التي يخوضها شعب سريلانكا، بأن ليس لديه صبر. فرد عليه سينج أنه في هذه الحالة الحل الوحيد هو الرجوع مباشرة إلى المطار وشراء تذكرة لرحلة واحدة فقط إلى خارج جنوب

آسيا... ولا تعودا ثانية. وأضاف يقول: "إن لم يكن لديك قدرة على الصبر، فستخلق فوضى في هذا الإقليم من العالم". ويقول سولهايم الآن: "كان سينج على حق وكنت على باطل. ولكن تعلمنا بأصعب الطرق".

أما جورج ميتشيل فهو أحسن مثال للرجل الصبور قابلته في حياتي. كان لديه الاستعداد للجلوس إلى النهاية مستمعا إلى أردأ الأحاديث وأسوأ الأفكار والأطروحات من جميع الأطراف في محادثات أيرلندا الشمالية، ومع هذا يظل متماسكا نفسه، محتفظا بروح النكتة الحلوة المصاحبة له باستمرار، محافظا على علاقاته الدافئة مع الجميع.

من الطبيعي بلا شك أن تكون لدى الحكومات تحفظات من دعوة الغرباء للتدخل في صراعاتهم الداخلية، ولكن الدلائل تشير إلى أن الأطراف الثالثة بإمكانها أن تجعل التوصل إلى اتفاق وتنفيذه أمرا أسهل ويحتمل النجاح على المدى البعيد.

وفي النهاية ليس الوسطاء هم من يستحق أن تعطى لهم جوائز نوبل للسلام، ولكن زعماء الحكومات والجماعات المسلحة أنفسهم الذين يخاطرون بمستقبلهم السياسي – وبحياتهم أحيانا – في سبيل القبول بحلول وسط يجب أن يتبناها الجميع من أجل الوصول إلى سلام دائم. يقول أهتيساري: "هناك اتجاه إلى التركيز أكثر من اللازم على الوسطاء. وبذلك نكون قد نزعنا القوة والقرار من أطراف النزاع، وأعطينا الانطباع الخطأ بأن السلام يأتي من الخارج. الناس الوحيدون القادرون على صناعة السلام هم أطراف النزاع أنفسهم، وبقدر ما هم مسؤولون عن النزاع ونتائجه، بقدر ما يعترف لهم بالمسؤولية عن صناعة السلام".

الدخول في المفاوضات

هناك من يعتقد أنه ما دام العنف مستمرا في الشرق الأوسط، فلا فائدة من الحوار. وأنا شخصيا لا أوافق على ذلك، بل إنني أعتقد أن العنف هو سبب آخر للحوار، ويؤكد الحاجة الملحة إلى إقناع الطرفين بذلك وجلبهما معا إلى مائدة المحادثات.

كوفي أنان *Kofi Annan*، الأمين العام السابق للأمم المتحدة
أبريل/نيسان 2001

ربما كان من الصواب ومن الملائم التحدث للإرهابيين في أي وقت، لكن ذلك لا يعني أن الوقت مناسب للدخول معهم في مفاوضات. فحتى بعد أن تنشأ قناة اتصال بهم ويتكون أساس للثقة فيهم، تظل هناك شروط معينة يجب أن تتحقق إن أريد للمفاوضات أن تنجح.

يقترح الكتّاب كروكر وهامبسون وآل أن "هناك عددا محدودا من نقاط الدخول في صراع متقد عنيف بهدف التعامل معه.. حيث طينة الصراع لم تجف والطريق ميسر وناعم". من ذلك التحول الجويبوليتكي (السياسي الجغرافي)، أي تحول في الديناميكية الداخلية للصراع. ومن ذلك تغير رئيسي في زعامة وقيادات واحد أو أكثر من الأطراف، وبروز وسيط جديد على السطح. فالبحث هنا هو عن لحظة تحول وتغير في عناصر الصراع سواء داخل البلاد أو خارجها.

ولنأخذ نقطة الدخول الأولى، التحول الجيوبوليتكي. هناك اتجاه لإعطاء أهمية أكبر للأحداث الخارجية في التأثير على التسويات السلمية وتفعيلها. ويقول بعض المعلقين، مثلا، أن أحداث سبتمبر/أيلول 2001 المروعة جعلت من المستحيل على الجيش الجمهوري الأيرلندي (آي آر أيه) أن يستمر في حملاته

العنيفة، وأن السلام الدائم في أيرلندا الشمالية أصبح أمرا لا بد أن يتحقق. فهذا الطرح يبالغ في أثر الأحداث الخارجية في مجتمعات مغلقة كالمجتمع الأيرلنـــدي. فإذا كنت ممن يعيش في فولز روود Falls Road أو في بالفاست الغربيـــة West Belfast أو في حي البوغسايد Bogside بمدينة لندنديري Londoderry، تبدو لك نيويورك بعيدة كل البعد، وأن تأثير ما يحدث فيها هناك أقل بكثير عن التطورات التي تجري من حولك. ومع ذلك، فإن بروز العنف الجهادي له أثـــار حقيقيـــة، إيجابية وسلبية، على المجموعات الإرهابية وعمليات التسويات السلمية في كـــل أنحاء العالم. فكثير من الجماعات المسلحة الموجودة في العالم لم تستطع، بكـــل بساطة، أن تنافس الجهاديين المتطرفين في أساليبهم وما يقومون بـــه. فرغبتـــهم التلقائية في قتل أنفسهم وقتل الآخرين ارتقت بهذا العمل إلى مستويات مختلفـــة تماما عن مستوى الاغتيالات الفردية وتفجير السيارات وعن مستوي ما يقوم به الجيش الأيرلندي أو (إيتا) في إسبانيا. إن ردود الفعل الشعبية القوية في إســـبانيا على تفجيرات القطار العام في مدريد عام 2004 جعلت من الصعب على (إيتا) أن تعود من جديد إلى ممارسة العنف على نطاق واسع. ذكر 'جورج'، رجـــل (إيتا) في المحادثات السرية في جنيف، لرجل مركز هنـــري دونانـــت، مـــارتن غريفيثس، أنه "أصبح من المعيب أن تكون إرهابيا بعد الذي حدث". وعنـــدما وقعت للتفجيرات في لندن في 7/7 (يوليو/تموز 2007)، قال خيسوس إغويغورين أن جورج أصبح يدرك أن الإرهابيين الإسلاميين المتطرفين "شفطوا أخر قطـــرة أوكسجين، وآخر فرصة، وشرعية، ومبرر، وتفســـير... تركـــه الإرهـــابيون الأوروبيون من الماضي".

لقد ضيق رد الفعل الأمني للهجوم على ناطحتي الســـحاب في نيويـــورك، الذي وحد غالبية العالم لبعض الوقت، وكذلك "الحرب ضد الإرهـــاب" الـــتي نتجت عن ذلك الهجوم، ضيق المجال الذي تتحرك فيه الجماعات المسلحة مـــع زيادة التضييق على الكثير من تلك الجماعات. فقد قلل، بكل تأكيد، من الدعم الدولي لنمور التاميل، وسهل على حكومة سريلانكا التعامل معهم كمشـــكلة أمنية ليس إلا. أما حرب العراق في عام 2003 فذهبت إلى أبعد من ذلك ووفرت

الغطاء للحكومة الأندونيسية لتجديد حملاتها العسكرية ضد حركة أتشيه الحـــرة (جي أيه أم) دون أن تتعرض لتشنيع دولي. ويقول الكاتبان الأكاديميان أنيسه فان إنجلند Anisseh Van Engeland وراكيل ردولف Rachael Rudolph أنه منـــذ سبتمبر/أيلول 2001 "فالعنف السياسي لم تعد له أي قيمة 'مصـــرفية' ولم يعـــد 'مقبولا' كما كان من قبل.. فكل عمل إرهابـــي صار قضية أمن عالمية".

كان انتهاء الحرب الباردة هو الحدث الجيوبوليتيكي الذي كان لـــه أكـــبر الأثر في تحسين فرص نجاح المفاوضات السلمية. وحسب إيير هيرشفيلد كـــان أحد العوامل التي ساعدت على تحقيق اتفاق أوسلو. ويعتقد رئيس جنوب أفريقيا السابق أف دبليو ديكلارك، أنه بالنسبة لجنوب أفريقيا "فسقوط حائط بـــرلين وانهيار الاتحاد السوفياتي أزالا قلقلنا الجيواستراتيجي المتعلق بالخطر الشيوعي".

عقب انتهاء الحرب الباردة ارتفعت نسبة الحروب الأهلية الـــتي ســـويت بالتفاوض من 10% إلى 40%، فيما استمرت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي تستحثان الأطراف المختلفة على تسوية خلافاتها بدلا من مواصلة التقاتـــل. وفي الواقع فإن الصراعات التي سويت خلال الخمس عشرة سنة التي أعقبت نهايـــة الحرب.الباردة أكثر بكثير من تلك التي حلت خلال الخمسين ســـنة الســـابقة لذلك. فقد كان أثر نهاية الحرب الباردة بلا شك مهم للغاية، ولكن علينـــا ألا نبالغ فيه. ويعتقد إيير هيرشفيلد أن القرار الكارثي الذي أخذه ياســـر عرفـــات بالوقوف إلى جانب صدام حسين في حرب الخلـــيج الأولى (1990)، وفقـــدان الدعم العربـــي الذي أعقب ذلك، كان لا يقل أهمية. وفي جنوب أفريقيا، نجد آف دبليو ديكليرك يذهب إلى أن نجاح عملية السلام التي جـــرت في ناميبيـــا، كانت أساسية لإقناع العسكريين بأن الحل من خلال المفاوضات كان ممكنا في جنوب أفريقيا. ويقول زعيم المقاتلين خوكين بيجالوبوس إن نجـــاح محادثـــات السلم في أنغولا وفي نيكاراغوا ومع منظمة أم – 19 في كولومبيا كان أثره عليه شخصيا أكثر من الحرب، بعد انتهاء الحرب الباردة.

والكوارث الطبيعية لها تأثير في التســـريع بالاتفاقيـــات الســـلمية. في 26 ديسمبر/كانون الأول 2004 ضرب زلزال بالقرب من شاطئ أتشيه بأندونيسيا،

وتسبب في تسونامي بارتفاع عشرة أمتار سوت بنصف العاصمة، باندار أتشيه Bandar Aceh، الأرض وأودت بأرواح 170 ألف نسمة. وصل شواطئ أتشيه عقب ذلك أسطول من سفن من دول مختلفة محملة بمساعدات الطوارئ، وعلى أهبة الاستعداد لتوصيلها للمنكوبين، ولكنها لم تتمكن من ذلك لأن الجزيرة كانت في خضم صراع مسلح. لقد فقدت حركة تحرير أتشيه (جي أيه أم) Free Aceh Movement GAM-*Gerakan Aceh Merdeka*-GAM أعدادا كثيرة من كوادرها في التسونامي، وكانت قبل ذلك قد ضعفت إلى حد كبير بسبب الحملة العسكرية التي سبقت الزلزال ودفعت بالكثير منهم إلى المرتفعات. فأنشأت معسكرات في الكثير من القرى، وأعيد توطين الآلاف من سكان القرى على غرار النموذج الذي استخدمه البريطانيون إبّان التمرد المالاوي في الخمسينيات. فالمقاتلون الذين عاشوا في رفاهية في ماليزيا طوال العقود السابقة و لم يعودوا إلى أتشيه إلا بعد اتفاق وقف الأعمال العدوانية لعام 2002 اكتشفوا أن صعوبة الهزيمة غير مستساغة بالنسبة لهم. فأمل الاستقلال، الذي ادعت حركة تحرير أتشيه أنه 'كان قاب قوسين أو أدنى' في عام 2002، قد تلاشى. لقد اعتقدوا بالفعل أن "أندونيسيا - جاوة" ستنقسم كما انقسمت يوغوسلافيا أو الاتحاد السوفياتي تحت وطأة التناقض الذاتي الذي تقوم عليه بعد سقوط سوكارنو واستقلال تيمور الشرقية. ولكن بعد 2004 فقدوا كل أمل في أن يتحقق أي من ذلك. لقد شهدت أندونيسيا إصلاحات مهمة من ضمنها اللامركزية والرئيس يودهيونو فاز اصواتا كثيرة في أتشيه. كانت حركة تحرير أتشيه في البداية تعتقد أن عامل الوقت في صالحها ولكنها الآن قبلت بأن الأمر ليس كذلك.

ورغم أن الاستعدادات لعقد محادثات جديدة بدأت قبل نهاية 2004، إلا أن الأثار التدميرية للتسونامي سمحت للحكومة الأندونيسية أن تتقدم بالدخول في المفاوضات تجاوبا مع كارثة إنسانية وليس نتيجة لتراجع في الموقف السياسي. كما أنها سمحت لحركة تحرير أتشيه أن تطرح مشاركتها في المحادثات كقرار لمساعدة لشعب أتشيه وليس كضعف في موقف الحركة. وكان الرئيسي

الفنلندي، أهتيساري، قاسٍ للغاية في الشروط التي فرضها على الحركة، وخاصة بإصراره على القبول بوحدة أراضي أندونيسيا. ولو أنه كان على نفس الدرجة من الحزم والإصرار سنة قبل التسونامي أو سنة بعدها، لرفضت طلباته على أغلب الظنون. لم تكن أمام الحركة من خيارات محدودة في أعقاب الكارثة سوى القبول بما فرضه أهتيساري. وتقول ماري ماريا ياربا Meeri-Maria Jaarva عن المنظمة غير الحكومية التابعة لأهتيساري المسماة مبادرة إدارة الأزمات Crisis Management Initiative-CMI، "إن التسونامي كانت مأساة ضخمة بالنسبة لأتشيه، لدرجة أنها جعلت حركة تحرير أتشيه أكثر ليونة للشروع في محادثات مع الحكومة. وفي داخل الحكومة نفسها، فيما عدا الرئيس ونائب الرئيس، لم يكن الحماس للمحادثات واسعا، ولكن التسونامي ساهمت في توسيع رقعة الدعم داخل الحكومة. كما أن التسونامي أثرت في رغبة المجتمع الدولي أن يشارك في الأزمة، خاصة فيما يتعلق بالاتحاد الأوروبي حيث جعلت التسونامي قضية أتشيه أولوية بارزة للاتحاد، رغم أنه كان يركز على جيرانها. كما كان للتسونامي أثر على مدة المحادثات السلمية. ولا أعتقد أننا بدون الكارثة الطبيعية كان بإمكاننا أن نصل إلى نهاية المحادثات بهذه السرعة. فقد خلقت التسونامي شعورا بالإلحاح لدى جميع الأطراف". ويضيف أهتيساري القول بأن: "المجتمع الدولي تبرع بمبالغ مالية سخية لصالح إعادة إعمار إقليم أتشيه. وأدرك الطرفان لو أن الاقتتال استمر لم يكن بالإمكان الاستفادة من تلك الأموال. فقد ساعدنا ذلك وصار بإمكاننا أن ننهي المحادثات في أقل من ستة أشهر".

التسونامي نفسه أيضا أثر في المفاوضات على الجانب الآخر من المحيط الهندي في سريلانكا، بشكل مؤقت على الأقل. ثلاثون ألفا لقوا حتفهم نتيجة المأساة في الجزيرة و550 ألفا هُجروا. وحسب النروجيين، فإن آثار هذه المأساة التي حلت بأهله وأبناء شعبه قد "دمرت" برابهاكاران "وحطمته" و"على مستوى آخر، عاطفيا، أكثر من ذي قبل". وهنا سنحت فرصة للتقدم إلى الأمام. فبعد آثار الكارثة تقدم جيش سريلانكا لمساعدة حركة نمور تحرير التاميل إيلام Liberation Tigers of Tamel Eelam LTTE، وطرح النمور ميكانيكية للعمل

مع الحكومة لتوصيل الإعانات إلى المناطق المنكوبة. كانت تلك المـــرة الأولى في العملية بأكملها يظهر فيها النمور هذا النوع من المرونة. ودفعت جمعيات الإغاثة الدولية نحو التعاون لكي تصل المساعدات إلى الأهـــالي المنكـــوبين. في خــــلال أسبوعين اتفق الطرفان على تطوير "ميكانيكيـــة مشـــتركة" أو جهـــاز لإدارة عمليات مـــا بعـــد التســـونامي Post-Tsunami Operational Management Structure الذي بإمكانه توفير الإطار لحل سياسي بعيد المدى. ولكن الرئيســـة كوماراتونغدا ظلت تماطل في التجاوب مع هذه المبادرة. ورغم دعمها لاتفاقية لم تفلح في إقناع أغلبية من حزب جبهة التحرير الشعبـــــي People's Liberation Front أو Janathā Vimukthi Peramuṇa بأخذ خطوات ربما تعطـــي شـــرعية لنمور التاميل فانسحبوا من الحكومة. أما الأقلية المســـلمة في الحـــزب، الـــذين تضرروا أكثر من غيرهم في الكارثة، كانوا قلقين تجاه تسوية مع نمـــور التاميـــل تعطيهم أي قدر من التحكم أو السيطرة. زادت الحكومة من شروطها ومنعـــت إرسال ممثلين حكوميين كبار إلى أقاليم النمور. فكل ما كان ميسرا تحقيقـــه في فبراير/شباط لم يعد ممكنا في يونيو/تموز عندما كانت الحكومة جـــاهزة لتقـــديم استقالتها. استنتج براهاكاران من هذا أن المجتمع الدولي غير قادر على الـــدفاع على حقوق شعب التاميل، واندلع العنف من جديد حتى أطلقت رصاصة الرحمة على الاتفاقية بحكم المحكمة العليا الذي نص على أنها غير قانونية.

فالعوامل الخارجية إذاً لها تأثيرها الواضح طبعا، ولكنه ليس تأثيرا حاسمـــا. فالذي يجعل المفاوضات ممكنة هو التطورات الداخلية وخاصة المآزق أو الأزمات العسكرية. وتعتبر السلفادور مثلا كلاسيكيا في هذا الصدد. في نوفمبر/تشـــرين الثاني 1989 نشرت جبهة فارابوندو مارتي للتحرير الـــوطني Farabundo Martí National Liberation Front FMLN سبعة آلاف مقاتل ليحتلوا مدينـــة ســـان سالفادور في عملية "الهجوم النهائي" تحت شعار "حتى النهاية". واعتقد بعـــض زعمائها أنهم يستطيعوا بهجمة واحدة أخيرة أن يكســـبوا الحـــرب ويهزمـــوا الحكومة. وأراد آخرون أن يثبتوا للجميع أن القوات متكافئـــة وأن الصـــراع لا يمكن أن يحل إلا بالتفاوض. وحتى ذلك التاريخ كانت الحرب تدور غالبـــا في

الريف، وأرادت الجبهة أن تجر الجيش إلى القتال في المدن حيث محطات التلفزيون ووسائل الإعلام تغطي سفك الدماء والأحداث مباشرة.

وكان لها ما تمنت. فكانت المعركة الشهيرة التي دارت رحاها في فندق الشيراتون بمدينة سان سلفادور حيث الجيش والمقاتلون يتقاتلون من طابق إلى آخر مباشرة على قنوات التلفزيون. وحاصر المقاتلون تسعة من القوات البحرية الأمريكية في الفندق، وأرسلت رسالة إلى الحكومة الأمريكية أنهم على استعداد لتسليمهم تفاديا للدخول في حرب مع الأمريكيين أيضا. وأكتشف المقاتلون أن الحكومة الأمريكية كانت على وشك إرسال قوات دلتا الخاصة لإنقاذهم. وأرسل كبير الأساقفة إيمليو لورينزو ستاهل Archbishop Emilio Lorenzo Stahle في سيارة مصفحة مغطاة بعلم كبير للصليب الأحمر لاستلامهم في الفندق. وعندما أطلق سراح الضباط الأمريكيون أرسلت الولايات المتحدة رسالة أخرى تقول مدير محطة وكالة الاستخبارات الأمريكية كذلك كان محاصرا في بيته من قبل المقاتلين ولا يستطيع التحرك. وردت جبهة فارابوندو مارتي للتحرير الوطني بأنها لا علم لها بمكان وجوده، فأعطتهم الولايات المتحدة عنوانه فسحب المقاتلون قواهم ومكنوه من الهروب.

في البداية، عندما احتل مقاتلو الجبهة الشق الغربي من المدينة لم يستقبلوا بالانتفاضة الشعبية التي كانوا يأملون. ولكن الجيش وقع في فخهم بضربه أحياء سكانية بالقنابل مما تسبب في ضحايا مدنيين. وردا على ذلك تقدم المقاتلون في اتجاه الشق الشرقي من المدينة الثري ووصلوا إلى 200 متر من منزل رئيس الدولة. وأقر الرئيس كريستياني فيما بعد أنه عند تلك اللحظة أعترف بعدم جدوى الجيش. وحسب ما ذكره خوكيان بيجالوبوس فإن الرئيس كريستياني كان في تلك الفترة قد فتح اتصالات سرية مع زعماء المقاتلين في ماناغوا من خلال أغناثيو إلاكيوريا Ignacio Ellacurio، القسيس اليسوعي ورئيس جامعة أمريكا الوسطى University of Central America. وأعلنت جبهة فارابوندو مارتي للتحرير الوطني عن استعدادها للاتفاق على وقف إطلاق النار. ولكن العسكر اعتبروا أن وقف إطلاق النار بينما لا تزال أجزاء من العاصمة محتلة سيفسر على

أنه هزيمة، فاغتالوا أغناثيو إلاكيوريا وخمسة قساوسة آخرين. وفصلت هذه الجريمة بين كريستياني والعسكر وأقنعت الحكومة الأمريكية بإيقاف دعمها لحل عسكري في السلفادور.

هنا أدركت الحكومة أنها غير قادرة على هزيمة المتمردين، الذين انسحبوا من المدينة على كل حال، اعترافا منهم بأنهم لا قدرة لهم على الاستمرار في احتلال المدينة أو كسب الحرب. وبعد فشل هذا الهجوم أصبح كلا من الطرفين على استعداد للدخول في مفاوضات جادة. فدعي إلى مؤتمر لرؤساء أمريكا الوسطى في كوستا ريكا حيث اتفق الجميع على دعوة الأمم المتحدة للتدخل وقيادة المفاوضات.

كاد الهجوم ألا يتم إطلاقا، ولكن هذا لم يكن معروفا لأحد. قامت قوات جبهة فارابوندو مارتي للتحرير الوطني بتسريب مقاتليها في العاصمة، وكان الهجوم على وشك الوقوع عندما جلس المتمردون مع الحكومة للشروع في الحوار برئاسة الكنيسة الكاثوليكية في كوستا ريكا، في أكتوبر/تشرين الأول 1989. فلو أن الحكومة قبلت بمسودة اتفاقية حقوق الإنسان التي كانت مطرحة على مائدة الاجتماع، لوقع المتمردون في مأزق حقيقي حول كيفية إيقاف الهجوم في تلك اللحظة المتأخرة من الوقت. فقد استمرت الجلسة طول الليل، وفي النهاية أعد الطرفان ورقة تحدد نقاط الخلاف فيما بينهما، واتفقوا على اللقاء مرة أخرى. وكان الطرف الحكومي راغبا في إنهاء الاجتماع دون اتفاق لأسباب خاصة بهم. أما بيجالوبوس الذي كان مرتاحا لفشل الاجتماع، فقد طار إلى نيكاراغوا للترتيب للمرحلة المقبلة، ولكن الأمور لم تسر حسب المطلوب. في تلك الأثناء كان وزير خارجية الاتحاد السوفياتي، إدوارد شفرنادزه Eduard Shevardnadze، في زيارة لماناغوا وطلب الاجتماع بزعماء جبهة فارابوندو مارتي للتحرير الوطني. كان بيجالوبوس قلقا أن شيفارنادزه سيطلب منهم إيقاف الهجوم، وقد قال زعيم الجناح الشيوعي للجبهة أنه إذا ما طلب منهم الاتحاد السوفياتي إيقاف العدوان فعليهم الامتثال لذلك الطلب. فقرروا أن الخيار الوحيد هو أن يختفوا عن الأنظار. وفي حفل الاستقبال الرسمي الذي أقيم لشيفارنادزه،

اعترف دانيل أورتيغا أنه لم يفلح في العثور على زعماء جبهة فارابوندو مـــارتي للتحرير الوطني. ولكن القائد العسكري لنيكاراغوا، هومبارتو Humberto، وهو أخو أورتيجا، استطاع أن يعثر على بيجـــالوبوس ويســـأله في حالـــة إيقـــاف المساعدات اللوجستية للجبهة فهل يضع ذلك حدا للهجوم. فأجاب بيجالوبوس أهم ماضون في الهجوم على كل حال. وقال له أورتيغا في تلك الحالة عليهم أن يستمروا ووعدهم بالدعم. مبكرا في اليوم التالي بدأت جبهة فارابوندو مـــارتي للتحرير الوطني في العملية.

طلب بيجالوبوس، زعيم المقاتلين، من وحدة نيكاراغوا صـــواريخ أرض – جو أن تتولى القوات الجوية للسلفادور. ولكن زعماء نيكاراغوا كـــانوا قلقـــين بسبب التجاوب الأمريكي وعرضوا على المقاتلين الخيار بين إعطائهم مجموعـــة صواريخ أو مئات من بنادق كلاشينكوف – 47. اختار بيجالوبوس البنـــادق. فيما بعد، وفي خضم الفوضى إلى تبعت هزيمة أورتيغا في الانتخابات، اســـتدعي قائد القوات الجوية بيجالوبوس إلى مكتبه الرئيسي وأعطاه اثنا عشر صـــاروخا أرض – جو. اقترب من بيجالوبوس، وهو في طريقه خارج من المكتب، ضابط صغير يوشك أن يطرد من العسكرية، نتيجة التغير في الحكومة، في حاجة لمبلـــغ من المال لشراء مزرعة. عرض الضابط أن يبيع المقاتلين المزيد مـــن الصـــواريخ فاشتري منه بيجالوبوس أكثر من مائة صاروخ سي 2 أم أس C2Ms ســـوفياتية الصنع. واستخدمت جبهة فارابوندو مارتي للتحرير الوطني تلـــك الصـــواريخ لإسقاط إحدى طائرات القوات الجوية من نوع دراجونفلاي أيه 37 Dragonfly A37 في نوفمبر/تشرين الثاني 1990. وبعد أيام استهدفت طائرة أخرى ولكن بعد أن منعت القوات الجوية من الطيران. حث رئيس السلفادور الطيارين علـــى أن يكونوا شجعانا كشجاعة الجيش، ولكن الطيارين كانوا يختلقون كل الأعـــذار كي لا يخرجوا بطائراتهم. وبمجرد أن منعت القوات الجوية من الطيران، أصبحت أزمة العسكر واضحة للجميع.

يقول ألفيرو دو سوتوا، مفاوض الأمم المتحدة في ألسلفادور، إن "هجـــوم نوفمبر/تشرين الثاني 1989 جعل الحكومة والنخب في السلفادور تصل إلى قناعة

بأنهم لا يستطيعون هزيمة المقاتلين عسكريا.. وكانت تلك هي **أزمـــة الضـــرر التبادلي**" بينما "الأحزاب المعارضة تدرك أن تكاليف الوصول إلى اتفاق أصبحت أقل من تكاليف الاستمرار في القتال". وليام زارتمان هو المفكر الذي ابتكر وطور فكرة "أزمة الضرر التبادلي" mutually hurting stalemate MHS وهـــو الـــذي يعرفها كما يلي: "تنشأ الفكرة عندما يجد الطرفان أنهما مشتبكين في نـــزاع لا يمكن لأي منهما أن يخرج منه بنصر، وأن هذه العقدة مؤلمة لكليهما على حـــد سواء (وإن لم تكن بنفس الدرجة أو لنفس الأسباب) فيشرعا في البحث عـــن سياسة بديلة أو مخرج من الأزمة". ويكتب زارتمان وزميله غاي فوور فيقولان: "عندما تصبح الأزمة ضارة للطرفين فمن الطبيعي ومن المعقول أن يحاول الطرفان الوصول إلى طريق للخروج منها. فإن كان الطرفان يسيران نحو طريق مسدود، تكون الأوضاع مهيئة لمفاوضات توفر جوا أو مخرجا لصالح الطرفين. هذا الوضع لا يضمن نتائج إيجابية ولكنه يوفر أقل قدر ممكن من الأوضاع للوصول إلى حل معقول". ويستطرد الكاتبان فيفسران أن تلك الأزمة، قبل أن تكون مؤثرة فعلا، لا بد أن يعيها أو يعترف بها كلا الطرفين. إنه "الإحساس بالحالة الموضـــوعية، وليست الحالة نفسها، هو الذي يولد حالة 'أزمة الضرر التبادلي'. فـــإذا لم يقـــر الطرفان بناء على 'دليل بين' (في رأي طرف آخر) بأنهما في طريق مسدود، فإن حالة 'أزمة الضرر التبادلي' لم توجد (بعد). أما إذا شعر الطرفان أنهما في مثـــل هذه الحالة، فإن حالة 'أزمة الضرر التبادلي' تكون قد ظهرت، مهما كان 'الدليل' على ذلك واهيا أو ضعيفا".

وكثيرا ما نجد الأزمات العسكرية هي أصل نجاح أي مفاوضات. فقـــد كانت هي الأصل في أيرلندا الشمالية، إذ نجد التقرير النـــهائي لهيئـــة نـــزع السلاح الدوليـــة المســـتقلة Independent International Commission on Decommissioning IICD يخلص إلى ملاحظات عامة تقوم علـــى تجربتـــهم الخاصة حول الصراعات المسلحة، وهي "اعتقادنا أنه على الأغلب لن يكون هناك وقف إطلاق نار دائم حتى يقبل الزعماء الرئيسيون وعدد كـــبير مـــن المناصرين على الجانبين بأنه يمكن تجميد المعارضة حتى تتوقف تماما، ولكن لا

يمكن القضاء عليها بشكل نهائي، بدون اتخاذ إجراءات لا يمكن التفكير في اللجوء إليها في ظل مجتمع ديمقراطي حر... على أقل تقدير".

كانت موزمبيق في منتصف الثمانينيات حالة كلاسيكية بالمعنى الحقيقي للكلمة. كانت الحكومة تسيطر على المدن بينما كانت منظمة المقاومة الوطنية الموزمبيقية (رينامو) Mozambican National Resistance RENAMO تسيطر على المناطق الريفية. وكان للجيش خمسون ألف مقاتل منهم خمسة آلاف فقط مجهزون للمعركة. كانت الحكومات قد ألغت برنامج التجنيد الإجباري، لكنها لم تزل تطوق الرجال في القرى، وتأخذ أولئك الذين تجندهم كتائب التجنيد بالقوة والمعروفين بلقب 'تيرا قميص' *tira camis* أي 'اخلع قميصك'، لأنهم كانوا يخلعون قمصانهم ويربطونهم بها. أما منظمة (رينامو) من طرفها كان لديها اثنا عشر ألف مقاتل، حالتهم التجهيزية مؤسف للغاية ويعيشون أوضاعا حياتية مزرية. ثلث قوتهم العسكرية تقريبا من الأطفال. وفي عام 1990 أعلن زعيمهم دهلاكاما أن: "(رينامو) منهكة.. وجبهة حرير موزمبيق (فريليمو) Mozambique Liberation Front منهكة كذلك". وعند تلك المرحلة أصبحت المفاوضات الجدية ممكنة.

لم يكن تشكيل حَربة الأمة (أم كيه) Umkhonto we Sizwe أو Spear of the Nation – الجناح العسكري للمؤتمر الوطني الأفريقي – ذا فاعلية حقيقية. وحسب ما جاء على لسان الزعيم بوتيليزي Chief Buthelezi، قائد حزب حرية التاج Inkatha Freedom Party في جنوب أفريقيا، أن (أم كيه) لم يفجر جسرا واحدا و لم يحتل هكتارا واحد من الأرض. وقال نلسون مانديلا أن مع الثمانينيات "أصبح من الواضح عندي أن الانتصار العسكري صار حلما بعيد المنال إذا لم يكن مستحيلا... وحان الوقت للحوار". بعض العناصر الراديكالية في الحزب الوطني الأفريقي ظلت تعتقد أنه بإمكانهم الاستيلاء على السلطة بالقوة، وأن التحرير كان قاب قوسين أو أدنى، وأنهم اعتبروا أي حديث حول المفاوضات مرادف للخيانة. ولكنهم مع صدور إعلان هراري Harare Declaration في أغسطس/آب 1989 كانت للحمائم اليد العليا ونجحوا في إقناع

الحزب بالالتزام بالمفاوضات. وحسب تعبير تابو إمبيكي، أحد زعماء الحــزب الأفريقي، فلم تعد "الورقة الرابحة لدى الحزب هي الكفــاح المســلح، ولكنــه الكفاح السياسي دوليا وداخليا". وعلى الجانب الآخر أدركت حكومة الحزب الوطني الحاكم أنها هي الأخرى لا تستطيع تحقيق النصر بالوسائل العســكرية. وكما عبر عن ذلك مايك لوو Mike Louw بقوله أن جنوب أفريقيــا كانــت تملك ست أسلحة نووية ولا تملك حلا لمشاكلها. فلم يكن أمام الجميع إلا طريق واحد وهو تسوية النزاع عبر المفاوضات.

إذا كانت هناك أزمة عسكرية، وكان الوضع الراهن مريحا لطرح أو لآخر، كما هو الحال في القسم اليوناني في قبرص بعد الانضمام للاتحاد الأوروبــــي، فإن ذلك الطرف لن يتزحزح عن موقفه في المفاوضات. وحيث أن المفاوضات شرط ضروري وسابق لنجاح الحوار، فإذا شعر أي من الطرفين أثناء المحادثــات السلمية الجارية أنه كاسب على أي حال، فهناك فرصة حقيقية أن القتال سيندلع من جديد. بعد التوصل إلى اتفاق حول استقلال ناميبيــا في عــام 1988 أرادت حكومة أنغولا فرصة أخرى للقضاء على (يونيتا) الاتحاد الوطني لاستقلال أنغولا الكامــل National Union for the Total Independence of Angola UNITA، ثاني أكبر حزب سياسي في أنغولا، فقامت بشن هجوم عسكري ضدها. إلا أن حشد المعونات العسكرية من الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا مكن (يونيتا) من المقاومة في معركة كر وفر في مدينة مافينغا Mavinga. وبحلول عام 1990 عــاد الوضع إلى أزمة، فدعت البرتغال، في أبريل/نيسان من تلك السنة، زعيم يونيتــا الكارزمي جوشوا سافيمبــي Joshua Savimbi في زيارة لمحادثات في البرتغــال برئاسة وزير الخارجية وبدعم من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. بدا اتفاق بيسيس Bicesse، وهي مكان بالقرب من عاصمة البرتغــال لشــبونا، الــتي تم الوصول إليه في وقت قصير نسبيا، بدا وكأنه نهاية للحرب الطاحنة في أنغــولا. ولكن عندما اتضح لسافيمبــي أنه لن يكسب الانتخابات انفصلت (يونيتا) من منطقة التجمع حيث كانت قواها محصورة واستأنفت القتال، واستولت على نحو 70% من مساحة البلاد. وتجاوبا مع ذلك حشدت الحكومة قواها للــرد علــى

اعتداءات (يونيتا) وعاد الوضع إلى حالة الأزمة السابقة. توصلت جولة أخـــرى من المفاوضات في لوساكا، عاصمة زامبيا، بإشراف الأمم المتحدة إلى اتفاق آخر ولكن سافيمبـــي رفض حضور حفل التوقيع لاعتبارات أمنية وقرر بعد ذلـــك بوقت قصير الرجوع إلى القتال. لقد شعر سافيمبـــي أنه بمناجم الألمـــاس الـــتي يسيطر عليها وبالدعم من الغرب، يستطيع مواصلة الحرب إلى ما لا نهايـــة. إن مجرد الإحساس إذاً بحلول "أزمة ضرر تبادلي" ليس حالة راهنة بصفة دائمة، فهي قابلة للتبدد والظهور بنفس السرعة.

إن مفهوم "أزمة الضرر التبادلي" مفيد في فهم متى يمكن للمفاوضـــات أن تنجح، ولكن نظرية "النضج"، التي ابتدعها زارتمان كذلك، أقل فائدة للمهنـــيين المحترفين. فالصراع المسلح ليس كفاكهة الكمثرى في إبانها، إذا قبضت عليهـــا بأصابعك عرفت إذا ما قد حان قطافها. فحتى إن لم يكن الصراع "ناضـــجا"، فإنه ليس بوسعك أن تتجاهله وتدع التقاتل يستمر دون أن تحـــاول إيقافـــه أو تسوية الوضع.

ويعرف زارتمان "النضج" بأنه تسوية الأطراف لنزاعاتهم "فقـــط عنـــدما يكون الوقت مناسبا لهم لتسويته، أي عندما تسد أمامهم الوسائل البديلة، والتي عادة ما تكون من جهة طرف واحد، لتحقيق نتائج مرضية.. وعندما يشـــعر الأطراف بأنهم في أوضاع غير مريحة وفي أزمة مكلفة. عند نقطة النضج هـــذه يتسابقون لاختطاف أي حلول ربما كانت مطروحة في السابق لمـــدة طويلـــة ولكنها تظهر الآن أكثر جاذبية". ينتقد الأكاديميون هذه النظرية بأنها "حشو لا فائدة منه"... بمعنى يفسر الماء بعد الجهد بالماء! فأنت ليس بإمكانك معرفة إذا كان الوقت مُهيأ إلا بعد حصول الحدث أي بعد أن تنجح المحادثات. ويعترف زارتمان نفسه بأن "النضج" ليس "عملا ذاتي التحقيق أو ذاتي التطبيق.. أي أنه لا يتحقق أو يُطبق ذاتيا من تلقاء نفسه. فلا بد أن يُنتزع انتزاعـــا، بصـــورة مباشرة أو بواسطة الأطراف المعنية أو من خلال قدرة الوسيط على الإقناع". أي بمعنى آخر، الأمر في أيدي المفاوضين ولا تتحكم فيـــه عمليـــة إنضـــاجية غامضة.

حتى لو كانت هذه النظرية صحيحة، فهذا لا يعني أن المشغولين بأمور الصراعات يمكنهم الانتظار ولا غير. يقول كروكر: "إن غياب 'النضج' لا يحتم علينا أن نتجاهل الأمر تماما وألاّ نعمل شيئا. بالعكس فهو يساعدنا على تحديد العراقيل واقتراح وسائل للتعامل معهم، وإدارة المشكلة، ريثما يصبح الحل في عالم الممكن". والوسيط عليه أن تحديد كيف "يُنضج الصراع" وألا "يقف مكتوف الأيدي في انتظار اللحظة السحرية أن تأتي". ويعتقد الإبراهيمي وزميله من الأمم المتحدة سلمان أحمد أنه "في بعض الأحيان يكون من الصعب تفادي التسرع (لإنهاء المحادثات)... لإيقاف القتال وتفادي منع سفك دماء الآلاف أو عشرات الآلاف من الأرواح".

يعتبر وقف إطلاق النار في الكثير من الدول الديمقراطية شرطا أساسا قبل الشروع في محادثات علنية. يقول أف دبليو ديكليرك أنه في جنوب أفريقيا "كان تعليق الكفاح المسلح شرطا لا بد منه لبداية المفاوضات". وفي بريطانيا لا يمكن تخيل الدخول في مفاوضات مع الجيش الجمهوري الأيرلندي مادام الجيش يقتل المواطنين. ولكن، أحيانا، حتى وإن كانت الأوضاع غير مهيأة، لا بد من العمل على الشروع في التفاوض أملا في تغيير الجو العام. وكما قال الرئيس جون كينيدي أنه "ليس مبكرا أبدا أن تحاول، وليس متأخرا أن تتحاور". فالتقاتل والحوار يمكن في أغلب الأحيان أن يسيرا جنبا إلى جنبا إلى جنب. يقول كارل هاك Karl Hack، المحاضر في الجامعة المفتوحة ببريطانيا، إنه "لا ينبغي النظر للمفاوضات على أنها مجرد البديل الإيجابي للقتال وللقضاء على العدو. وهذا ما يرغب العسكريون في وصفه بالنشاط 'الديناميكي'، أي الحركي، وهو رديف ملاصق جدا للحوار". وفي محادثات ميلز بارك Mells Park قال الزعيم الأفريقي تابو إمبيكي: "نحن لا نريد السلام لكي نتحدث عن السلام. فالمرء يحاور من أجل السلام لأن السلام غير موجود".

إذا كان أحد الطرفين ضد فكرة المفاوضات من الناحية المبدئية، فلا بد من البحث عن طريق لتلافي هذا الموقف. فمن ضمن سياسية حركة تحرير أتشيه عدم التفاوض مع الحكومة الأندونيسية. فاضطر مارتن غريفيثس، عن مركز

هنري دونانت، بذكائه ودهائه، أن يلطف الأجواء بقوله أن المحادثات غير رسمية وسيكون الحديث عن تخفيف المعاناة الإنسانية. أما في السلفادور فقد كان الأمر بالعكس تماما. فجبهة فارابوندو مارتن للتحرير الوطني (أف أم أل أن) التمردية كان موقفها الموافقة على أي اجتماعات تقترح، ولكن الحكومة كانت مترددة في التفاوض. عرض الرئيس كريستيني "حوارا" مع الجبهة، ولكن أصر على أن ذلك ليس مفاوضات. فمن الضروري للتغلب على هذا التردد أحيانا إقحام الطرفين بسرعة في المحادثات. فالتعبير المجازي الذي استعملناه في أيرلندا الشمالية، واستخدم على نطاق واسع بعد ذلك، هو: "قطار التسوية على وشك مغادرة المحطة". وكل من لا يصعد الآن فسيفوته القطار. فالأطراف كثيرا ما تستغرقهم مناورات لا نهاية لها، ومن الضروري حثهم للبداية حتى يتعرى نفاق خصومهم. فقد تحدي توني بلير، رئيس وزراء بريطانيا، الاتحاديين الموالين في أيرلندا الشمالية بالبدء في المفاوضات كي يكشفوا حقيقة أن الشن فين غير صادقين. وبمجرد التدليل على ذلك يصبح من الممكن إبرام اتفاق مع الحزب الاجتماعي الدمقراطي والعمل (أس دي أل بي) المعتدلين وحدهم. وكان من الواضح آنذاك أن جيري آدمز، الزعيم الجمهوري، يقوم بنفس العمل بحثّ الجمهوريين على المضي قدما لكشف البريطانيين على أنهم لا نية لهم في السلام في أيرلندا الشمالية.

لعل القيادة السياسية هي من أهم العوامل التي تساهم في احتمال الوصول إلى مفاوضات ناجحة. فإذا كانت لكل من الطرفين قيادة قوية وبارعة وعلى استعداد للمخاطرة، فعندئذ تصبح التسوية أكثر احتمالا، وإذا لم يكن القادة أقوياء فإن احتمال الوصول إلى اتفاق يكون بالمقابل ضعيفا. لقد كنا محظوظين في أيرلندا الشمالية بوجود جيري آدمز ومارتن ماغينيس قادة للطرف الجمهوري. وكما علق توني بلير إذ قال أنه كان بإمكانهم بكل جدارة أن يلعبوا دورا قياديا على الساحة الأكبر في السياسة البريطانية. فقد اظهروا شجاعة نادرة في قيادة مجتمعهم، بسرعة متعثرة كسرعة سرطان البر، نحو تسوية سلمية، إذ كانت خطوة واحدة في الاتجاه الخطأ كفيلة أن يخسروا بسببها حياتهم وليس

وظائفهم فحسب. وعلى الجانب الاتحادي كان هناك دفيد تريمبل الـذي يعد غريبا كرجل سياسي. فهو إنسان نظري وخجول أكثر من كونه شخصية كاريزمية أو جذابه، ولكنه كان شجاعا فضحي بحزبه ووظيفته ومستقبله السياسي في سبيل تحقيق السلام. وتوني بلير وبيرتي أهيرن Bertie Ahern، التاوسيخ Taoiseach أي رئيس البرلمان الأيرلندي، اللذان شكلا معا فريقا رائعا واستمرا في الحكم لعقد كامل مما أعطاهما الفرصة للسير بعملية السلام إلى هدفها النهائي وهو النجاح. ويتهمني توني بلير في مذكراته بأنني قلت عنه في سياق المفاوضات أنه نجح لأنه يملك "عقدة المخلّص" (في الواقع، مو مولام، وزيرة شؤون أيرلندا الشمالية، هي التي قالت لي مرة أن توني بلير يعتقد أنه "يسوع المسيح"، وإن كان المعنى ليس واحدا). ولكنه لو لم يكن بلير يملك الاعتقاد الجازم بأن الصراع يمكن أن يسوى، وأنه يملك الثقة الشخصية العالية بنفسه بأنه قادر هو على تسويته، لما كان بالإمكان أن توجد اتفاقية للسلام. أما سابقوه، كمارغريت تاتشر، إما أنهم اعتقدوا أن المشكلة لا تقبل الحل، وإما شكوا في قدرتهم على حلها، كجون ميجر.

الإيمان والقناعة لدى القائد أمر ضروري. فإذا كان لا يؤمن بوجود اتفاق أو كان عنده شك في قدرته على تحقيقه، فهذه هي النبوءة الذاتية بعينها. أنتقد وزير الخارجية الإسرائيلي وزير الخارجية الأمريكي، جون كيري John Kerry، بأنه قد أتي إلى موضوع السلام في الشرق الأوسط "بأسلوب عاطفي ومن باب المخلّص". ولكن كما يقول جرالد ستاينبرج Gerald Steinberg الأستاذ بجامعة بار – إيلان Bar-Ilan، فإن "عملية تحقيق السلام هي عملية تحتاج إلى مخلّصين تقريبا بحكم تعريفها. إن فكرة تغيير مجري التاريخ الإنساني خلال شهور، أو حتى سنوات، قليلة بما فيه من عنف متأصل بين القبائل والأمم والديانات، وخلق الثقة وروح التعاون، يحتاج إلى إيمان عميق. إن الجهود لإقناع الجماعات المتقاتلة بإلقاء أسلحتهم، والاتفاق على تسويات وسطية، والدخول في مغامرة يجد المرء نفسه هدفا، على غير استعداد، لعدو مخاتل... هذه كلها جهود يكمن أصلها في الاعتقاد الديني وليس في الواقعية السياسية".

نلسون مانديلا هو المثل الرائع للقيادة الفطرية الطبيعية التي تجعل التفاوض ممكنا. كان شامخا في توحيد المؤتمر الوطني الأفريقي، الذي كان من الممكن أن ينقسم على نفسه بعد الانتصار، وفي رغبته في التسامح مع من أساءوا إليه، وفي تفهمه لمخاوف البيض في جنوب أفريقيا.. كان غير مسبوق في كل هذا. اتخذ سلسلة من الخطوات الرمزية لطمأنة أعدائه، فتعلم لغتهم لغة الأفريكانا داخل السجن، وزار أرملة مؤسس النظام العنصري، الدكتور هندريك فرينش فوروورد Dr Hendrik Frensch Verwoerd، لتناول الشاي بعيد خروجه من السجن، وارتدى قميص رقم 6 لفريق رجبي جنوب أفريقيا تشجيعا للفريق القومي حيث اللعبة تضاهي الدين لبيض جنوب أفريقيا. لقد كان كريما دمثا في كل الأوقات ولكنه عنيدا صلبا في المفاوضات. قام بهجوم كاسح على أف دبليو ديكليرك في بداية مؤتمر (كوديسا CODESA) وأهداه ربطة عنق في اليوم التالي. كما اصطدم ثانية بديكليرك في المناظرة التلفزيونية إبان الانتخابات، ثم سار نحوه ليصافحه في نهاية البرنامج. كان مانديلا في الواحد والسبعين من العمر عندما أطلق سراحه، و لم تعد له أي طموحات سياسية، ولكنه ظل سياسيا محنكا وعلى خبر وعلم بصناعةِ الأحداث. ولكن النجاح في جنوب أفريقيا يتطلب أيضا قيادة حكيمة من الحزب الوطني، وأخبر مانديلا زملاءه بأن ديكليرك "رجل يمكننا التعامل معه". كما اعترف لبعض أصدقائه أن "أسوأ كابوس في حياتي هو أن أستيقظ ليلة ما فأجد أن ديكليريك لم يعد موجودا. أنا لا أستغنى عنه.. وهذا ليس له علاقة بأنني أحبه أم لا، ولكنني في حاجة إليه". وكان ديكليرك واضحا منذ الأيام الأولى أن عليه أن يغامر. فمذ كان زعما للحزب الوطني في ترانسفال Transvaal قال للسفير البريطاني روبن رينويك Robin Renwick، "لو كان لي من الأمر شيء فلن نرتكب نفس الخطأ الذي ارتكبنا في روديسيا" وهو أن نتأخر أكثر مما يجب في حوار زعماء السود. فالقيادة عنصر هام جدا في المفاوضات الناجحة لدرجة لا يمكن تصور نجاح المفاوضات بدونها، ولكن لا يمكن الانتظار حتى تظهر هذه القيادة الملهمة الجسورة، أو حتى يكتشف القادة الموجودون في أنفسهم القدرة على هذه الجرأة.

يعد تغير الأجيال عنصرا مشتركا في كثير من التسويات السلمية. يقـول الأكاديمي الألماني جونر هاينسون Gunnar Heinsohn إن "الانتفاخية الشـبابية" هي أحسن مؤشر على احتمال نشأة الإرهاب. فإذا بلغ حجم الذكور ما بـين سن الخامسة عشرة وسن التاسعة والعشرين في مجتمع ما، أكثر من 30 إلى40 في المائة من عدد السكان، فهذا مؤذن بالإرهاب... في الجزء الكردي من تركيـا مثلا، حيث يقاتل حزب العمال الكردستاني، يشكل الشباب من هـذه السـن أكثر من ستين في المائة من السكان. وبالمقارنة، كلما تقدم زعماء الجماعـات المسلحة في السن، كلما زادت فرص السلام. التحق كل مـن جـيري أدميـز ومارتن ماغينيس بحركة الجمهورين الأيرلنديين في سن مبكرة في السـبعينيات. ومع حلول الثمانينيات تعديا سن القتال وبدءا يشاهدان أبناء وبنـاة إخوانهمـا وأخواتهما يعتقلون ويقتلون. وبإدراكهم أن الصراع يمكن أن يستمر إلى الأبـد، أخذا الخطوات الأولى على طريق إنهائه.

في بلاد الباسك شعر خيسوس إيغويغورين أيضا بوجود عامل الأجيـال في المبادرة التي أخذها مع أرلاندو أوتيغي. إذ لاحظ أن كلاهما في الخمسينات من العمر، وأن كلا منهما اشتغل بالسياسة نحو عشرين سنة، وأن كلا منهما تحمل تضحيات كثيرة. فسأل نفسه: "هل الوضع سيستمر هكذا طـوال حياتنـا؟". ولربما كان أحد الأسباب التي دفعت القـوات المسـلحة الثوريـة الأولمبيـة (أف أيه آر سي)، للموافقة على الدخول في محادثات مع حكومة سـانتوس في كولومبيا له صلة بالأعمار والأجيال. فسكرتارية الحركة وقيادتها العامة تتكـون من رجال في الخمسينات والستينات من العمر قضوا أغلب حياتهم في الغابات، حيث الحياة ممتعة وسهلة إذا كان الإنسان في سن الشباب. إنهـم يشـاهدون الصراع مستمرا إلى أجل غير مسمى، ولكنهم يدركون جيدا أنهـم إن ودعـوا هذه الحياة فإن روح أيديولوجية الصراع ستضعف بشدة. ويخشى هؤلاء أنهـم ستخلفهم في الغالب عناصر ضغيرة في السن همها الوحيد هـو الأربـاح الـتي يتحصلون عليها من المتاجرة في المخدرات ليس بهدف تمويل الثورة بـل لمـلء جيوبهم والمحافظة على مستويات حياتهم العالية. ولذا فهذا ما يدفعهم أن يصـلوا

إلى اتفاق مع خصومهم الآن وقبل فوات الأوان حتى يرفعوا من قيمـــة تلـــك الدوافع والمبادئ الأصلية التي قام عليها كفاحهم الذي استمر حياتهم كلها، بدلا من توريث النضال لجيل هو في حقيقة الأمر لا يعدو إلا أن يكـــون عصـــابات مخدرات ضخمة ومسلحة أفضل تسليح.

يقول يوري سافير أن شمعون بيريز وإسحاق رابين تبادلا حديثا بينـــهما في بداية عملية أوسلو جاء فيه: "لقد جاوزنا سن السبعين، فدعنا الآن نأخذ القرار التاريخي الصعب لكي نوفر على الأجيال القادمة أن يأخذوا ذات القرار يومـــا ما".

كما أن للمرض العضال أثر كذلك في الإسراع بعملية السلام. فقد كـــان لرئيس فنزويلا، هيجو جافيز، نفوذ كبير للتأثير على القوات المســـلحة الثوريـــة الأولمبية (أف أيه آر سي) في السلفادور لاعتماذهم عليه بالسماح لهـــم بإقامـــة قواعدهم الخلفية على أراضي فنزويلا. أي تهديد، ولو ضمني، يؤثر على هـــذه العلاقة كان سيلفت انتباههم. تغير موقف جافيز تجاه الحركة في السلفادور بعض الشيء نتيجة مغازلات سياسية من سانتوس رئيس كولومبيا، ولكن أيضا كـــرد فعل لإصابته بسرطان مزمن. فقرر بحزم أنه يريد المساهمة في تسوية الصـــراع في كولومبيا كجزء في تراثه في الإقليم "البوليفي"، بدلا من الاستمرار في أن يكون عنصر إزعاج لجارته. وهذا ما حدث لزعيم الحزب الـــديمقراطي الاتحـــادي في أيرلندا الشمالية، إيان بيزلي. فقد لعب دورا أساسيا في تأجيج الصـــراع الـــديني الذي أدي إلى ما عرف بـــ "الأحداث" في أيرلندا الشمالية، ولكنه بعد أن دخل المستشفى عام 2004 وهو على فراش الموت، وخرج منه شخصية متغيرة. وذكر لتوني بلير بعد ذلك أنه كان على وشك اللقاء بخالقه وقرر أن ينهي حياته وهـــو "الدكتور نعم" وليس "الدكتور لا". وانطلق ليساهم بكل قوته في الوصـــول إلى تسوية نهائية للصراع وإن ووجه بمعارضة من داخل حزبه نفسه.

ومن الممكن أن تنطلق المفاوضات بشكل سريع إذا ما كانـــت الظـــروف المناسبة مهيأة. فمن الأمثلة المثيرة حقا آثار التوافق بين أزمة الضرر التبادلي، الناتجة عن انتهاء الحرب الباردة، والقيادة الموحدة الرائعة وهي تقود إلى تسوية ســـلمية،

كان في نهاية حركة 19 أبريل/نيسان (أم 19) Movimiento 19 de Abril M-19 في كولومبيا عام 1990. وهي حركة ضمت في عصرها الذهبي ألفين مقاتل، كان أغلبية زعمائهم من الشباب المتعلم من سكان المدن. تشكلت هذه الحركة أيام الجنرال روخاس General Rojas، الشخصية اليسارية الشعبية، الذي خاض انتخابات الرئاسة والديكتاتور العسكري السابق، الذي سرقت منه نتائج الانتخابات (كما يقول أنصاره) من قبل خصومه المحافظين في 19 أبريل 1970. كانت نشاطات الحركة في البداية مقتصرة على عمليات مسرحية رمزية هزلية مثل سرقة سيف سيمون بوليفار Simon Bolivar (أحد شخصيات أواخر القرن الثامن عشر العسكرية في فنزويلا) من متحف عام 1974 كتعبير عن الانتفاضة المدنية ضد نظام ظالم. ولكن سرعان ما تحولت الحملة إلى سفك الدماء. في عام 1978 قام أعضاء الحركة بحفر نفق تحت الأرض يؤدي إلى مخزن سلاح للجيش الكولومبي وسرقوا خمسة آلاف قطعة سلاح. وفي عام 1980 اقتحموا سفارة دومينيكا أثناء إقامة السفير حفل كوكتيل فاحتجزوا أربعة عشر سفيرا بما فيهم سفير دومينيكا رهائن. استمرت المفاوضات واحدا وستين يوما أطلق بعدها سراح الرهائن وسمح للمختطفين بالذهاب إلى كوبا. في عام 1985 هاجمت الحركة قصر العدالة في بوغوتا Bogota، المقر الرئيسي للمحكمة العليا، وأخذت ثلاثمائة رهينة ما بين قضاة ومحامين وموظفين. اقتحمت القوات العسكرية الكولومبية المبنى وأضرمت فيه النيران، وقتل مائة شخص في تبادل إطلاق النار الذي تبع ذلك، كان من بينهم أحد عشر من قضاة المحكمة العليا في البلاد البالغ عددهم واحدا وعشرين قاضيا. أصاب الحدث البلاد كلها بصدمة عنيفة ولا يزال حتى اليوم مثارا للجدل والخلاف. لقد كان لمنظمة أم – 19 علاقة متأرجحة ومتناقضة مع كارتيلات تجار المخدرات، فحاربتهم في البداية ثم قامت بتنفيذ مهماتهم نيابة عنهم. وحيث أن حرق قصر العدالة كان غالبا نتيجة لاستخدام الجيش لصواريخ مرتفعة الحرارة، يتكهن البعض أن أم – 19 هي التي أشعلت النار في المبنى عمدا لتدمير أوراق وملفات تورط صاحبهم وشريكهم المزعوم بابلو إسكوبار Bablo Escobar الزعيم الأكبر لكارتيل المخدرات بمدينة

ميدلين Medellin. لقد اتضح للمقاتلين إنهم غير قادرين على تأسيس ثورتهم بقوة السلاح، كما اتضح للجيش أنه لا يمكنه القضاء عليهم.

أخفقت محاولات عقد مفاوضات مع أم – 19 في أوائل الثمانينيات عندما قتل زعيم المجموعة، جايمي باتمان Jaime Bateman في حادث طائرة. ولكن مع انتهاء الحرب الباردة في أواخر الثمانينيات ظهرت فرصة أخرى للتفاوض. كان ريكاردو سانتاماريا Ricardo Santamaria أحد أعضاء مفوضية السلام التابعة للرئيس فيرجيليو باركو Virgilio Barco عام 1989 عندما استلموا أتصالا من جماعة أم – 19. طلبوا في تلك المكالمة التلفونية ثمانية من الممثلين عن الحكومة أن يسافروا، اثنين اثنين، للقاء بالمقاتلين. وقالت التعليمات أن هو، ريكاردو سانتاماريا، وأحد زملائه يجب أن يسافر إلى مدينة كالي Cali وينتظر هناك حتى يتم الاتصال به. بعد ذلك طلب منه السفر جوا إلى مدينة أخرى وأن ينتظر هناك ريثما تصله تعليمات جديدة. وأخيرا طلب منه الذهاب إلى فتحة غير مشجرة في الغابة حيث التقى بالقائد العام للمجموعة، كارلوس بيزارو Carlos Pizarro، محاط بأربعين من رجاله المسلحين. ويقول سانتاماريا أنه أعجب مباشرة بالمظهر الذي جاء به بيزارو حيث ظهر أنيقا في بزته القتالية كابن أميرٍ من أمراء البحر.. وقد كان فعلا كذلك. وقال بيزارو أن الحركة ترغب في حوار مع الحكومة، واقترح أن تتركز قواتها في منطقة واحدة حتى يتسنى لها التشاور مع كوادرها لتبدأ الحوار مع الحكومة. اختاروا منطقة مرتفعة في الأدغال تقع في شِعب سانتا دومينيجو Santo Domingo Gap في جبال ألكوكا Cauca في الجنوب الغربي من البلاد. وسرعان ما تجمع خمسمائة رجل في تلك المنطقة محاطين بمنطقة منزوعة السلاح ومن حول ذلك نطاق من العساكر الكولومبيين لحمايتهم. وهناك شكلوا "مجموعات عمل"، واستقبال الزوار القادمين من الخارج، وهيأوا أنفسهم للمصالحة. وكان مفاوضو الحكومة يترددون عليهم جيئة وذهابا بواسطة الطائرات العمودية، ومع شهر مارس/آذار وقعوا إعلان كوكا الذي بموجبه بدأ الحوار. ومع شهر يوليو/تموز وقعت الحكومة والجماعة المقاتلة على ميثاق سلام. كان ذلك بعد أربع سنوات فقط

بعد حصار قصر العدالة الدموي، ولكن الرأي العام دعم الاتفاقية السلمية بكل قوة.

قدمت الخطة الأصلية، بما فيها إصلاحات دستورية، إلى الكونغرس، أعلى هيئة تشريعية في البلاد، ولكنها رفضت. اضطر سانتاماريا وزملاؤه إلى الذهاب ثانية إلى شِعب سانتو دومينغو لمقابلة بيزارو وإخباره باعتبار الصفقة ميته وأن ما بأيديهم حيلة كي يقوموا بإحيائها. فبدلا من أن يعودوا إلى الإرهاب رد بيزارو ونائبه أنهم على استعداد للذهاب إلى بوغوتا لإقناع الكونغرس. منحتهم الحكومة وثائق سفر وانتقلوا إلى العاصمة ومعهم مائة من الحرس الخاص، ستون منهم من رجال بيزارو الذين منحوا رخص كرجال شرطة. قضي بيزارو شهرين في محادثات مع الكونغرس عاد بعدها إلى أدغال الغابة لإقناع المقاتلين بأن ينزعوا أسلحتهم مقابل عفو عام وتشكيل هيئة تأسيسية لمراجعة وتعديل دستور 1886. خاض بيزارو شخصيا انتخابات الرئاسة لعام 1990 وكانت الحملة تسير في صالحه عندما أطلق عليه الرصاص وقتل على متن رحلة جوية داخلية في خضم الحملة الانتخابية، ربما بأوامر من بابلو إسكوبار، عراب كارتيل المخدرات. في الوقت نفسه، أعادت الحركة سيف بوليفار، وأصبحت حزبا سياسيا سمي تحالف أم – 19 الدمقراطي Alianza Democratica M-19، وفازت بعدد كبير من المقاعد في انتخابات الهيئة التأسيسية. وأصبح أنتونيو نابارو Antonio Navarro، خليفة بيزارو، عضوا في الترويكا التي ترأست الهيئة ولعب دورا أساسيا في صياغة الدستور الجديد. كانت تلك هي قمة نجاح المجموعة سياسيا، ثم اغتيل في وقت لاحق 20% من مقاتليها السابقين على أيدي العصابات اليمينة شبه العسكرية. استمر الحزب وتولى أحد مقاتليه السابقين عمدة بوغوتا. وهكذا... حينما تجتمع الشروط والمعطيات كلها بهذا النسق الإيجابي، أي القيادة الكاريزمية، والأزمة، ونهاية الحرب الباردة، وتحول الصراع من السياق المدمر للعبة الصفرية بين القويتين العظمتين في العالم... عندها يكون التقدم سريعا.

ولكن حالة أم – 19 تعتبر حالة استثنائية. فأهم ما يجب أن نتذكره عندما تبدأ المفاوضات هو أنها ستستغرق وقتا أطول مما نتوقع، وأحيانا أطول بكثير.

فالبدايات الفاشلة أكثر شيوعا من البدايات السريعة. فقد شهدت سريلانكا عدة محاولات فاشلة قبل أن تنطلق المحادثات في طريقها الصحيح. كان هناك شعور غامر بالحماس عندما انتخبت الرئيسة كوماراتونجا عام 1994 وأنهت سبعة عشر عاما من حكم الحزب الوطني المتحد United National Party. فقد صوت لها 90% من شعب التاميل وظهرت بوادر حقيقة للسلام. فاستهلت حكمها بإجراءات تصالحية مباشرة تجاه حركة نمور تحرير التاميل إيلام Liberation Tigers of Tamil Eelam LTTE، وسمحت بوقف إطلاق النار وزيارة من قبل وفد لمنظمة مجتمع مدني لقاعدة نمور التاميل بمقاطعة فاني Vanni في شمال سريلانكا. ويقول واحد من أقرب مستشاريها، رام مانيكالينجم Ram Manikkalingam، أنه بالنظر إلى الخلف يشعرون أنهم كانت تملؤهم سذاجة الحماس، وكان أولى بهم أن أنصتوا لرجال النمور ممن كانوا أكثر منهم خبرة وتجربة. فالرئيسة كوماراتونجا لم تختر الحوار المباشر وإنما اكتفت بتبادل اثنتي عشرة رسالة مع براباكاران، زعيم النمور، تناولت موضوع الاجتماعات. وكانت تقول لمانيكالينجم كلما جاء إلى مكتبها أنها استلمت "رسالة أخرى من عشيقي". ولكنها لم تتعد مرحلة الحديث عن المحادثات، بينما تواصل العنف انتشارا.

وفي دورتها الثانية كرئيس، وعلى خلفية التفويض الجديد الذي حصلت عليه، حاولت كوماراتونجا اختبار عدة طرق جمعت بين الأسلوب العسكري القوي للضغط على النمور، وعروض غير مسبوقة بفدرالية للتاميل في شمال وشرق البلاد، وصفها أنتون بالاسينجهام بأنها "أفضل خطة قدمت على الإطلاق". وكما قال مانيكالينجم، أن الرئيسة كوماراتونجا كانت تملك الزخم السياسي الضروري للتقدم إلى الأمام ولكنها كانت تفتقر إلى الأسلوب الصحيح لتفعيل ذلك الزخم، وعندها الإرادة السياسية وتعزوها الطريقة السليمة للوصول إلى تفاهم مع براباكاران.

وجرت في السلفادور محاولات متعددة للتفاوض قبل أن تبدأ عملية الأمم المتحدة. عقد أول اجتماع تحت رعاية الكنيسة بتجهيزات هزيلة أشرفت عليها

مؤسسة الأمن الاجتماعي Institution for Social Security في مدينة المكسيك في سبتمبر/أيلول 1989 وبرئاسة كبير أساقفة سان سالفادور. سادت الاجتماع فوضى عارمة. تراشق الجانبان بالشتائم، وتعمد المقاتلون تسجيل المداولات علنا فلم تكن المناقشات صريحة. كان مئات الموظفين يمشون في كل اتجاه أمام باب صالة الاجتماعات في شغلهم اليومي في التأمين الصحي. لم يكن هناك مقصف لبيع الطعام وكان المقاتلون يتضورون جوعا كلما تواصل الاجتماع.

أما الأسقف فلم يكن على مستوى الوساطة في مناقشة هامة من هذا القبيل، وحصر عمله في تنظيم الاستراحات وتوزيع القهوة وغير ذلك من الإجراءات الإدارية الأخرى. جاء كبير الأساقفة إميليو لورينزو ستاهل Archbishop Emilio Lorenzo Stehle من إكوادور، وهو الأسقف الألماني الذي سبق وأن شارك في محاولات جهوده سلمية سابقة، مبعوثا من الفاتيكان وبدأ في الدور الرئيسي وهو تنظم المناقشات. لم يسمح له بالدخول إلى غرفة الاجتماعات ابتداء، ولكنه تمكن من التسرب شيئا فشيئا بإحضار القهوة للجميع، ثم جلس على كرسي بالقرب من الباب، ثم نقل كرسيه إلى الطرف الآخر من الطاولة، ثم بدأ في المشاركة الفعلية في الاجتماع. كان حصيفا واستطاع أن يوجه المناقشات. وظهر اختلاف واضح بين الجانبين حول القضية الأساسية وهي: لماذا الاجتماع؟ أصر جانب الحكومة على أنهم حضروا من أجل فتح حوار مع المقاتلين، بينما أصر هؤلاء على أن اهتمامهم الوحيد هو المفاوضات. فمشكلة الحكومة أن الطرف اليميني في السلفادور لا يقبل بفعل "يفاوض"، لأنهم يقولون أنه تفوح منه رائحة الخيانة وأنه استسلام للمقاتلين. وفي النهاية خرج الشاعر دافيد إسكوبار غاليندو David Escobar Galindo، أحد مفاوضي الحكومة، بحل وسط وهو "تفاهم متفاوض عليه" '*entendimiento negociado*' أي بالإنجليزية 'negotiated undestanding'. ويذكر بيلالوبوس أن الاجتماع كان صعبا والمناقشات حادة، ولكنها لم تكن مناسبة عاطفية. وهو يرى أن الجانبين يكره أحدهما الآخر في الصراعات العرقية والدينية. أما في الخصومات الاقتصادية والاجتماعية، كما في حالة السلفادور، حتى وإن سالت

دماء كثيرة، فإنه يمكن غالبا التحكم في العواطف. فالبلد تملك نخبــة صــغيرة، والناس، على كلا الجانبين، يعرفون الكثير عن بعضهم البعض، ولربما التقــوا في وقت ما.

ساد شعور عاطفي قوي في الاجتماع الثاني الذي قادتــه الكنيســة بــين الحكومة وجبهة فارابوندو مارتي للتحرير الوطني (أف أم أل أن) لمناقشة اتفاقيــة حول حقوق الإنسان. في الصف الخلفي على الجانب الحكومي جلس الجنــرال موريشيو بارغاس Mauricio Vargas قائد الجنود المسؤولين عن قتل الكثير مــن رفاق بيلالوبوس. وهو معروف بتشدده وأرسل إلى الاجتماع ليمثــل مصــالح الجيش. وكان بارغاس جزءا من ترقية خاصة من كلية عسكرية تشــبه كليــة ساندهيرست في بريطانيا، مع دزينة من الضباط الذين ترقوا في المناصب ســويا، بما فيهم رئيس أركان الجيش، وكانوا معــروفين 'بالفرقــة الفيلهارمونيــة' the philharmonic orchestra، وكانوا مسيطرين على المجموعــة الــتي في النظــام الحاكم. عندما اندلعت الحرب الأهلية كانوا برتبة رائد ونقيب وتلقوا الضــربة الكبرى من الهجومات وقتل أحدهم. وأصبحوا من ضمن اليمين المتطرف وضد الشيوعية، ولكنهم، بعكس الدفعات التي سبقتهم، بمن فيهم وزير الداخلية، عانوا الكثير وصارت لديهم رغبة في السلام. لقد كان ضباط الجيل السابق في الواقــع من ذوي الرتب العالية الذين لم يشاركوا في القتال. كانت تجربتهم قد تكونــت في ظل الحكم العسكري السابق الذي بدأ الحرب القذرة ضد أحزاب المعارضة، وكانت نقاوتهم الأيديولوجية لم تلطخ بالمعاناة والتماس المباشرة مــع القتــال، ولذلك فقد كانوا أقل رغبة في تقديم تنازلات والرضا بالتسويات.

تعمد المقاتلون أن يصروا على أن يترك بارغاس مقعده في الصف الخلفــي وأن يأتي ليجلس حول الطاولة، فهو قبل كل شيء الرجل الذي يملــك زمــام الأمور. وبينما كان يتحدث إلى بيجالوبوس في الاستراحة، كشف بارغاس لــه عن ذراعه ليريه آثار جرح من رصاصة أصابته في كمين كان قد نصبه له رجال بيلالوبوس. وتحدث الجنرال عن اجتماع لشخصيات هامة في الجيش عام 1948 قرروا فيه الحاجة إلى تسوية للصراع عن طريق المفاوضات. وقال بيجالوبوس إنها

مفارقة غريبة أن يصل المقاتلون إلى القرار نفسه في العاصمة الكوبية هافانا في عام 1982.

تحولت المناقشات حول مائدة الحوار إلى مجادلات لفظية نابية عن الماضي. على الأخص بين الشيخين اللذين حضرا المحادثات قائد الفرقة الشيوعية شفيق هاندال Schafik Handal، ووزير الداخلية العقيد أوغوستن مارتينز Agustin Martinez. كان الجدال حول ما حدث في بداية القرن العشرين وبالتحديد في 'المذبحة' 'Matanza' الشهيرة عام 1932 حين ارتكب الجيش مذبحة جماعية راح ضحيتها آلاف من الفلاحين السلفادوريين... وكان بقية الحاضرين يتململون في كراسيهم من الخجل. فمن البداية استخدم مارتينيز عبارة التكبر بالإسبانية '*chusma*'، 'الرعاع'، في الإشارة إلى الفلاحين الذين قتلوا في المذبحة. وفي لحظة درامية رد عليه هاندل بقوله: "إن الرعاع موجودن هنا الآن.. وأمام عينيك". وجاءت هذه المواجهة كتنفيس عن العواطف مما أدى بالطرفين إلى الانتقال إلى مناقشة المستقبل. وكما هو الغالب في مثل هذه الحالات، لم تبدأ المفاوضات الحقيقية حول المائدة بلْ في الاستراحات وفي النقاشات الجانبية غير الرسمية. قرر بيجالوبوس وزملاؤه أن الشخصيتين الهامتين في جانب الحكومة هما الجنرال بارغاس والشاعر دافيد إسكوبار غاليندو الرجل المستقل الذي لم يكن رسميا ممثلا للحكومة. فهو رجل علم أكاديمي اكتسب ثقة الرئيس كريستياني، وأدرك أنه رغم أن الرئيس محسوب علنيا على اليمين المتطرف، إلا أنه كان في الواقع يبحث عن تسويات عملية.

الاجتماع الثاني عقد في دير للراهبات في كوستا ريكا. كان الجو العام داخل الغرفة مريحا، وجلس الجانبان يتبادلان النكات بعضهم مع بعض. أثناء الاستراحات كانت تأتيهم الراهبات لتأخذهم إلى غرفة أخرى حيث تنتظرهم قوارير النبيذ والفودكا والويسكي. كان المقاتلون ينظرون إلى الشراب بانبهار، إلا واحدا من وفد الحكومة همز بيجالوبوس في جنبه وقال: "لا تمد يدك إليه.. فهذا خاص بأكابر القساوسة". ويعتقد بيجالوبوس أن هذه العلاقات الحميمة ضرورية لنجاح أي مفاوضات. وبدون مهارات أجتماعية لدى الطرفين

فستوقف عجلة المحادثات. ولكن بغض النظر عن الجو العام، فلم تـنجح هـذه الحوارات التي قادتها الكنيسة، و لم تتقدم الجهود إلا بعد أن أخذت الأمم المتحدة بزمام الأمور.

بمجرد أن ينجح الوسيط في حشر الأطراف وتطـويقهم داخـل سـياج المفاوضات، هناك مجموعة نقاط تفاهم سابقة للاتفاق لا بد من التوصل إليهـا. ويضع الدبلوماسي الأمريكي السابق، هارولد سوندرز Harold Saunders، قائمة بتلك الأمور الضرورية التي يجب التفاهم حولها قبل الاتفاق كالآتي: الاتفاق على تعريف مشترك للمشكلة؛ الخروج بالتزام مشترك بتسوية موضوع المفاوضـات؛ وترتيب إجراءات وشكليات وشروط مرجعية (بيان لهيكلية المشروع وأهدافـه) للمفاوضات الرسمية نفسها. وهذه التفاصيل ليس من السهل الاتفاق عليهـا في كل الأحوال. ويقول ريتشارد هولبروك في حالة البلقان كانت المجادلات حول مكان واستضافة الاجتماعات "عنصرا ثابتا لاستنفاد الوقت والتآمر الخفـي في المفاوضات. ونادرا ما كان الخلاف حول الموضوع الأساسي، في الواقع، شديدا كشدته حول الإجراءات والبروتوكولات". وتحدث عن مفاوضات شارك فيها من قبل فقال: "خلال محادثات السلام مع الفيتناميين في باريس في الثمانينيـات، ضيعنا، ولا فخر في ذلك، ما يزيد عن شهرين نتجادل حول شكل المائدة، بينما الحرب مستعرة".

الاتفاق على مكان الاجتماعات عملية مربكة. فلا بد أن يكـون المكـان آمنا. يقول إيميلي إسوهو Eemali Isoaho وسوفي تولي Suvi Tuuli من مركـز مبادرة إدارة الأزماتCentre of Crisis Management Initiative CMI، وهـو منظمة غير حكومية تابعة لمارتي أهتيساري (المؤسس) الرئيس السابق لفنلنـدا: "بالرغم من أن نقل محادثات السلام بعيدا عن مواقع الصراع في بعض الأحيـان يكون ضروريا لأسباب أمنية، إلا أنه على الوسـطاء أن ينتبـهوا ألاّ تنفصـل المحادثات انفصالا كاملا عما يجري على أرض الواقع. أي بمعـنى آخـر، أن لا تصبح محادثات السلام حدثا خارجيا يسير على منوال مخالف لما يدور داخـل فضاء الصراع". الحكومات عادة ما تشترط أن تعقد المحادثات خارج الـبلاد؛

حتى لا تتحول إلى مشهد للفرجة والتسلية أولا، وثانيا لأن ذلك أسهل طريقة للتغلب على الموضوع المنغص ألا وهو التحاور مع أشخاص مطلوبين من قبل الشرطة لارتكابهم جرائم فظيعة في بلادهم نفسها. ففي حالة أتشيه، حسب قول ميري ماريا ياربا Meeri-Maria Jaarva من مركز مبادرة إدارة الأزمات، كون "مكان المحادثات كان خارج أندونيسيا، في فنلندا، كان له أهمية خاصة بالنسبة لحركة أتشيه الحرة، لأن معظم ممثلي الحركة كانوا يعيشون في المنفى وليس بإمكانهم السفر إلى أندونيسيا". لقد كان يوسف كاللا يفضل أن تعقد المحادثات في هيلسنكي، ليس فقط بسبب بعدها عن أندونيسيا، بل أملا في أن يقف الأوروبيون في صف الحكومة ويدينوا الحركة في حالة ما إذا تعثرت المحادثات.

في بعض الأحيان يكون الأمر بالعكس. كانت حكومة سريلانكا تريد المفاوضات أن تعقد مع نمور التاميل في داخل البلاد، لكن حركة النمور أصرت على أن تُجري في الخارج، وعقدت المواجهة الأولى في سبتمبر/أيلول 2002، في قاعدة ساتاهيب Sattahip البحرية في تايلاند. كل الضباط من مرتبة أدميرال فما تحت أخلوا بيوتهم في القاعدة لصالح الوفدين. كانت هناك مشكلة تحديد الموقع المناسب. وقرر النرويجيون أن تكون الحكومة أول المتكلمين، وفي المقابل سُمح للنمور الجلوس في وسط الحاضرين، ولكن التايلنديين اعترضوا لأن قواعد البروتوكول تتطلب أن ممثلي الحكومة لهم صدارة المجلس. وفي نهاية المطاف قبل التايلنديون أن يغضو النظر عن الموضوع، عندما قام سولهايم بتحول لافتات الأسماء حول المائدة قبل أن تبدأ المحادثات.

يحتاج الوسيط إلى موافقة الطرفين على قواعد سير الاجتماعات قبل البدء في المفاوضات، حيث أنه من الصعب تغييرها إذا ما انطلقت المفاوضات. وفي العادة تكون الجماعة المسلحة أكثر حرصا على البروتوكول. ففرقهم تتكون من محامين تدربوا في غرف ثكنات بسيطة فتجدهم يطالبون بجداول أعمال متفق عليها ويتخاصمون حول كل كلمة. وخطورة هذا الشرط تكمن في أن أحد الفريقين سيسرب جداول الأعمال في الوقت المناسب أو أن الجداول ستختفي. في إسبانيا أصرت حركة الباسك التحريرية (إيتا) منذ البداية على كتابة محاضر

كل اجتماعاتها مع الحكومة من قبل مركز هنري دونانت وأن يصادق عليها. (احتفظ المركز بالمحاضر في خزينته في جنيف، ولما تعرض المركز يوما للسرقة أصيب الموظفون بالرعب، ولكن بمحض الصدفة كان أحد الموظفين قد أخذ الأوراق معه إلى بيته ذلك المساء). والخطورة الأخرى تكمن في كمية الوقت المجحفة التي يستهلكها الوصول إلى اتفاق حول المحاضر بدلا من التركيز على موضع المفاوضات نفسه. ولذا فمن الأفضل أن يسجل كل طرف محضرا خاصا بهم، ويكتفي الجميع فقط بكتابة الاتفاقيات المشتركة المتعلقة بالمواضيع الرئيسية التي تحفظ بعد ذلك.

وعندما تولت الأمم المتحدة مفاوضات السلفادور عام 1989 كان ألبارو دو سوتو مثلا في أسلوب معالجة ما يسبق الاتفاق. لقد كان حريصا في تفادي الأخطاء التي ارتكبت سابقا من قبل مجموعة الكونتادورا (مجموعة تضم رؤساء كلا من كولومبيا والمكسيك وفنزويلا وبنما اجتمعت أولا في جزيرة كونتادورا في بنما) والكنيسة التي كانت تفتقد إلى قواعد أساسية. وبما أن الجانبين قد رفضا اللقاء وجها لوجه اضطر ألبارو "إلى تنظيم رحلات مكوكية بين مدينة المكسيك، حيث التقيت بأعضاء القيادة العامة الخمسة لجبهة التحرير الوطني (أف أم أل أن)، واحدا واحدا، (والذين قيموني تقييما دقيقا)، وبين مدينة سان سالفادور حيث التقيت بالرئيس كريستياني لتجهيز الإطار العام والقواعد الأساسية للمفاوضات. كان الاتفاق ضمنيا صعبا خاصة، ولا غرابة في ذلك، أن وجهات النظر المتباينة حول بعض النقاط الإجرائية الطفيفة الحساسة قد غطت على خلافات عميقة ومتجذرة حول الاستراتيجية وجوهر الموضوع". ويضيف ألبارو أن "صلاحياته في جدولة وتيرة الاجتماعات وأماكنها والسفر بين الفريقين كانت أقل بكثير من دكتاتورية، وأن قرارات اتخذت في الواقع بعد مناكفات متعبة ومضيعة للوقت حول الأمكنة والتواريخ وطول الاجتماعات، كان كريستياني شخصيا جزءا منها. وكما يقول مخرج هوليوود الشهير، وودي آلن Woody Allen، أن نصف مهمة الوساطة هي التأكد من أن الوسطاء يصلون إلى الاجتماعات".

جبهة التحرير الوطني، من طرفها، كانت لديهم رغبة أن يكون طرف ثالث ذا سلطة وموثوق فيه حاضرا في الاجتماعات "كي يتمكن من ضمان جدية الأطراف بصورة مستقلة". أما الحكومة فكانت ترى أن "يكون دور الطرف الثالث محدوداً جدا". كريستياني كان يريد إجراء حوار وجبهة التحرير كانت رغبتها المفاوضات التي تعطيهم شرعية. لقد "أصرت الجبهة على فترات استراحة بين الجلسات تمتد لأسابيع كي يتسنى لها التشاور مع جمهورها، الذين هم في أعماق الغابات أو مختبئون في المدن في السلفادور" في الوقت الذي تفضل الحكومة جلسات تفاوضية مفتوحة بدون انقطاع. رفض كريستياني أن يؤيد انعقاد الاجتماعات داخل السلفادور، فعقدت في الخارج. ونظرا إلى أن كريستياني لم يشارك في الجلسات شخصيا، اضطر دو سوتو أن يقوم بثلاثين رحلة إلى السلفادور لمقابلته، غالبا أثناء جلسة مفاوضات أخرى في مكان آخر للاتفاق على نقاط هامة كذلك. أتفق على التفاصيل النهائية لقواعد اللعبة في خلال ساعات قليلة في اجتماع سري عقد في مدينة المكسيك يوم 27 مارس/آذار 1990. ورأى دو سوتو أن يوقع نص الاتفاق علنا حتى يكون ملزما للطرفين، وأقنع الأمين العام للأمم المتحدة بيريز دي كويلار أن يتوقف في جنيف لمدة ساعتين في طريقه من عاصمة أوروبية إلى أخرى وأن يوقع ما عرف باتفاقية جنيف. وافق الجانبان على أن تكون المحادثات سرية وأنها ستعقد بناء على شروط معينة. ومن الضروري التوصل إلى اتفاقية واضحة حول هدف المحادثات، وتمكن دو سوتو بلباقته أن يقنع جبهة التحرير والحكومة بالاتفاق على أن "الهدف من العملية هو إنهاء الصراع المسلح، وترسيخ الديمقراطية في البلاد، وضمان الاحترام الكامل وغير المشروط لحقوق الإنسان، وإعادة توحيد المجتمع السلفادوري".

أما وقد اتفق الجميع حول أين ومتى وكيف ستعقد المفاوضات، وأهدافها، كان من اللازم أن يتفق دو سوتو على جدول أعمال المفاوضات مع الطرفين. وفي شهر مايو/مايس صاحب دو سوتو الفريقين في زيارة لأحد بيوت الخبرة في أعالي مرتفعات كراكس. وقبل أن يشرعوا في المفاوضات نفسها عبر دو سوتو

عن أسفه أنهم اضطروا إلى "قضاء ساعات طويلة في محاضرات عن التاريخ والتحليل السياسي". فبالنسبة للوسطاء، محاولة إقتناع الطرفين بعدم النظر إلى الماضي والتركيز على المستقبل تشكل تحديا كبيرا. اقترحت جبهة التحرير أن جدول الأعمال يجب أن يشمل القوات المسلحة، وحقوق الإنسان، والنظام القضائي، ونظام الانتخابات، والإصلاحات الدستورية، وقضايا اقتصادية واجتماعية ثم بعد ذلك تحقيق الأمم المتحدة. بوضع الجبهة للقضايا الاقتصادية والاجتماعية في آخر القائمة فإنها تشير إلى أنها أقل أهمية بالنسبة إليهم من قضايا الإصلاحات في قطاع الأمن. ومن خلال المحادثات لم يقدموا أي قضايا أو مقترحات راديكالية اقتصادية أو اجتماعية واكتفوا بقضية إعادة دمج المحاربين السابقين كمكسب أساسي لهم تحت هذا البند. فقد أصروا على مناقشة مستقبل الجيش أولا، نظرا إلى أنه هو الموضوع الأساسي وأن لا فائدة من مناقشة أي شيء حتى يتفق عليه. ورغم أن الحكومة ظلت تؤكد على رغبتها في الحوار وليس المفاوضات، إلا أنهم لم يعترضوا على الأجندة، رغم أن العكس كان منتظرا منهم، التي اقترحتها جبهة التحرير، ولم يصروا على وقف إطلاق النار، وهو ما كان متوقعا أن يكون سبب اهتمامهم في هذه المحادثات. فبدلا من ذلك وافقوا على حل على مرحلتين، الأولى التوصل إلى اتفاق سياسي وبعد ذلك فقط إلى وقف لإطلاق النار بنزع سلاح الجبهة وتسريح مجنديها. استمر الاجتماع لأسبوع واحد، وهي أطول مدة قضاها الطرفان معا تحت سقف واحد منذ بداية الحرب. بذلك أصبح دو سوتو جاهزا للشروع في المفاوضات الحقيقية وقد تسلح بهذين الاتفاقين لما قبل المفاوضات.

في أغلب الأحيان تصر الحكومة أو المجموعة المسلحة (أو كلاهما) على شروط مسبقة. وفيما عدى الإصرار على نهاية العنف قبل أن تبدأ المفاوضات، فهذه الشروط لا تعدو إلا أن تكون أفكارا غير محبذة. ويقول زارتمان أن "الشروط المسبقة الصارمة بشكل عام ما هي إلا ذريعة لعدم الرغبة في التفاوض". في موزمبيق عرض الطرفان شروطا مسبقة كانت سببا في عدم ابتداء المحادثات. اتهم الرئيس تشسانو حزب المقاومة الوطنية الموزمبيقية (رينامو) أنها

تطالب بتعديل الدستور كشرط لعقد المحادثات، ولكنه هو نفسه طالبهم بقبـــول الإطار الدستوري القائم والاعتراف بشرعية نظام حـــزب تحريـــر موزامبيـــق (فريليمو) قبل الدخول في المحادثات. ولم تبدأ المحادثات فعلا إلا بعد أن تخلـــى الطرفان عن هذه الشروط.

كما حصل شيء مشابه لهذا في الشرق الأوسط. الرئيس الأمريكي أوباما، في دورة رئاسته الأولى، جعل تجميد إسرائيل للمستوطنات اليهوديـــة تجميـــدا كاملا، شرطا للمحادثات. ربما كان أوباما على حق من الناحية الجوهريـــة، إلا أن رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، الذي وافق أخيرا على التجميد لمدة عشرة شهور، أصبح بعد ذلك تحت ضغوط سياسية داخليـــة ألا يرضـــخ لأي تنازلات جوهرية أخرى، مهما كانت الضرورة للشروع في المفاوضات. وعلى الجانب الآخر، فإن مطلب الغرب كشرط أساسي أن تعترف حماس بإســـرائيل، أمر غير حكيم كذلك. هذا الشرط يشبه طلب الحكومة البريطانية من الجـــيش الجمهوري الأيرلندي (آي آر أيه) أن يعترف بوجود أيرلندا الشمالية في بدايـــة المحادثات بدلا من القبول به كنتيجة للمفاوضات. فهذه القضـــايا يفضـــل أن تتضمن كبند في المحادثات نفسها بدلا من أن تُنصب كسدود اعتراضية في طريق المحادثات أصلا. يقول فينك هايسوم Fink Haysom: "الشروط المسبقة غالبا ما تكون معرقلة للطرف الذي يقدمها، خاصة إذا رفضت ولم تتحقق المفاوضات. فليس هناك فرصة لتطوير شروط جديدة بصيغة جديدة. والأطراف التي تصـــر على شروط مسبقة عادة ما تجد نفسها مضطرة أن ترضخ وتتخلى عنهم، ولـــو لمجرد أن تسمح للمفاوضات أن تتحرك. فلا يمكن التعامل مع ما يسمى بشروط مسبقة إلا مفاوضات وجها لوجه. وقد اتعظ أوباما مـــن الـــدرس في دورتـــه الرئاسية الثانية فتخلى عن الشروط المسبقة وقال: "إذا كانت التوقعات هي الفوز بمفاوضات مباشرة عندما تسوى كل المواضيع قبل أوانها، فلن يكون هناك هدف للمفاوضات".

إذا كان من الممكن تفادى فخ الشروط المسبقة، فهناك التحدي الكبير بعد ذلك وهو التحول من المحادثات السرية إلى المفاوضات العلنية. فهي اللحظة التي

يظهر فيها الطرفان على حقيقتهما. يقول زارتمان أن "المفاوض المحتمل سيضطر، عند لحظة معينة، أن يظهر للجميع، ولكن ظهوره قبل الوقت المناسب يجعله لقمة سائغة لخصومه المتطرفين بينما تأخره يعرقل العملية السلمية. وعند هذه اللحظة بالضبط يكونون معرضين تماما للهجوم من قبل المعطلين والمرجفين، ويجدوا صعوبة في شرح مواقفهم وأعمالهم والدفاع عن أنفسهم من أصحاب نظرية المؤامرة المقتنعين طوال الوقت بوجود تسويات خفية سرية". لقد تحطمت عملية السلام بين حركة الباسك التحريرية (إيتا) والحكومة الإسبانية عام 2006، في التحول من المرحلة السرية التي سبقت المفاوضات إلى المحادثات المعلنة. اتفقوا في أوسلو، عاصمة النرويج، على جدول الأعمال وقواعد المفاوضات الرسمية. المفروض أن يكون هناك ثلاثة مفاوضين، كحد أعلى، من كل جانب، ومعهم أربعة مستشارين. لم ينشر شيء من ذلك، وقبل توقف المحادثات كان المفروض أن يتشاور الفريق الذي سيتولى إعلان العملية أن يجتمع ويتشاور مع الطرف الآخر. أي حوادث أو مشاكل يجب أن تناقش على مائدة الاجتماعات. واتفق على أن أمن الوفود من اختصاص الحكومات الكفوءة. أرسلت الحكومة الإسبانية المحامي الأرستقراطي، من نباريه Navarre الذي كان عضوا في حكومة فيليبي غونثاليث، خابير موسكوسو Javier Moscoso لمصاحبة إغويغورين إذ أصبحت الأمور جدية. كما أن وفد (إيتا) تغير أيضا حيث أضيف إليه فرانسيسكو خابير لوبيث بينا Francisco Javier Lopez Pena، أو 'مارك' Marc، الزعيم السياسي للمنظمة. وكان 'مارك' قد فاز في صراع على السلطة داخل (إيتا) واكتسح جميع منافسيه من قيادة الحركة بالانتخاب، وتبنى، نتيجة لذلك، موقفا متشددا جدا. وقبل أن يتم التحول، فجرت (إيتا) مطار مدريد حيث قتل اثنان من الإكوادور. الضحية الأخرى للانفجار كانت عملية السلام.

حتى بدون وجود شروط مسبقة، الاتصال المباشر إما أن يكون مستحيلا أو تكون له نتائج عكسية. ومن ثم يصبح ضروريا للوسطاء أن يبدأوا رحلات مكوكية بين الطرفين خاصة عند بداية المفاوضات. فعندما بدأت المفاوضات الموزمبيقية في كينيا عام 1989 لم يوافق الطرفان على اللقاء لأن (فريليمو) رفضت

الاعتراف بـــ (رينامو) كطرف سياسي محاور، ولذا قبلت الكنيسة ومن بعـــدها حكومتا كينيا وزمبابوي أن يتنقلا بين الطرفين عبر نايروبـــي لتســـليم الأوراق من طرف إلى الطرف الآخر. وحصل تضارب في الكلام فيما بينهما. قدم فريق الحكومة خطة من اثني عشر بندا حول العودة إلى الوضع الطبيعي، ولكنه رفض استعمال لفظ (رينامو). وفي المقابل قررت (رينامو) عدم الاهتمام بخطة تشيسانو إطلاقا وقدمت بدلا منها عرضا مقابلا وهو عبار عن خطة من ستة عشر بنـــدا لتحقيق "مصالحة وطنية دون الحاجة إلى منتصرين ومهزومين" يتبعها إصلاحات دستورية. و لم يتفقوا على اللقاء وجها لوجه إلا بعد أن تبـــدأ المفاوضـــات في العاصمة الإيطالية روما. وفي أيرلندا لم يلتق إيان بيزلي مع جيري آدمز إلاّ بعـــد الوصول إلى اتفاق. لقد اضطررنا إلى السعي جيئة وذهابا بين الجانبين لمدة أربـــع سنوات للتفاوض حول نص الاتفاق. فكانوا أحيانا يوافقون على محادثات غـــير مباشرة ما داموا ليسوا تحت سقف واحد. وفي إحدى المرات وضعتُ الحـــزب الديمقراطي الاتحادي (إيان بيزلي) في ديوان مجلس الوزراء، في شارع وايتـــهول Whitehall، موقع مكاتب الحكومة، والشين فين في مكتب رئيس الوزراء في 10 داونينغ ستريت، ثم أخذت أتنقل بينهما. فمن الناحية الفنية هما مبنيان متميزان، غير أنهما متصلان بباب مكسو بنسيج أخضر، بيّز، لامتصاص الصوت، الـــذي اشتهر في المسلسل التلفزيوني البريطاني الشهير: "أمرُك، يا رئيس الـــوزراء" *Yes, Prime Minister*. في منتصف النهار من كل يوم كنت ألقي ببصري عبر النافذة من الصالة الكبرى في ديوان مجلس الوزراء لأرى جيري آدمز ومارتن مـــاغينيس يلعبان على لوح التزلج مع أطفال توني بلير في حديقة الورود التابعـــة لـــرقم 10 داونينغ ستريت. وكان لا بد من أسرع إلى الطابق الأسفل لآخذ أيان بيـــزلي في الداخل قبل أن يلقي ببصره من النافذة فينفضح السر.

طبعا الرحلات المكوكية يمكن أن تنجح، ولكن إذا لم تكن اللقاءات وجها لوجه، فالخطر هو أن تظل القضايا غير واضحة تماما، ويصعب التأكـــد إلى أي حد الطرفان متفقان. كما أنه لا يستطيع الطرفان بناء الثقة الضرورية للوصول إلى اتفاق عملي. في سنة 2000 كانت الأمور تسير على ما يرام في بدايـــة أول

مفاوضات في قضية أتشيه بأندونيسيا، لأن الطرفين كانا يلتقيان وجها لوجه. كان سفير أندونيسيا في جنيف، حسن ويراجودا، لم يصطحب معه إلا شخصا واحدا من الحكومة، وتجاهل وزير الخارجية و لم يبق أحدا آخر في الصورة غير الرئيس بخصوص المواضع الجوهرية للمفاوضات. وفي الاجتماعات المباشرة في المبنى الفخم في بافواس Bavois بسويسرا، في مارس/آذار وأبريل/نيسان عام 2000 توصل ويراجودا وزعماء حركة أتشيه الحرة (جي أيه أم) إلى اتفاقية سريعة لتوقف القتال لأسباب إنسانية. فالحكومة لم تصفها باتفاقية وقف لإطلاق النار لأن ذلك سيعني ضمنيا أن حركة أتشيه الحرة كانت عدوا مساويا للجيش الأندونيسي في الحرب، وإن كانت كذلك من ناحية الجوهر. لكن الأمور أخذت منحى آخر في عام 2001 عندما انقطعت الاتصالات من الطرفين. ورغم استئناف العملية في 2002 ظل الطرفان رافضين للاتصال. وكانت للوزير المسؤول يدهويونو، طموحات في الرئاسة و لم يكن يرغب أن يظهر في الصور بجانب حركة أتشيه. وكان على مارتن غريفيثس أن يدير المفاوضات على أساس اتفاقية وقف العدوان (كوها COHA)، فأخذ يتنقل جيئة وذهابا ليقابل الحكومة في جاكارتا ثم لزيارة زعماء حركة أتشيه في أماكن مختلفة في أوروبا، بما فيها مرة بجوار مركز السياسة الفرنسية التاريخي، قصر فارساي Versailles Palace.

عندما شارفت المفاوضات على الانتهاء وكان الطرفان على قاب قوسين أو أدنى من التوصل إلى اتفاق. ذهب غريفيثس إلى يدهويونو في فندق أنترناشيونال في جاكارتا في الأسبوع الأول من شهر رمضان لوضع اللمسات الأخيرة على الوثيقة. التفت يدهويونو إلى الحاضرين من حوله يسأل العسكريين منهم وقادة الشرطة إن كانوا موافقين.. وأخذت الأمور في التدهور. كان الوقت يدنو من المغرب، فأمر يدهويونو باستراحة للصلاة، واقترح مواصلة الحديث على مائدة الإفطار. بدأت المحادثات في جو أطيب بينما هم يتناولون الطعام. كُلف فريق مركز هنري دونانت بالعمل على نص الاتفاقية ثم الرجوع بمسودة جديدة مع الصباح. في اليوم التالي وقع الطرفان على اتفاقية قوبلت بابتهاج في إقليم أتشيه.

بدأ الاتهام يتفسخ تقريبا في الحال. بدأ ديفيد غورمـــان David Gorman في ترقيع الوضع مباشرة فأعد في عجالة خطة للتنفيذ بالتعـــاون مـــع العســـكريين الأندونيسيين في عضون ثلاث ساعات على أن تدخل حيز التنفيذ على الأرض خلال أسبوعين اثنين بالتعاون مع المحافظين للســـلام التايلنـــديين والفليبينـــيين والنرويجيين. لقد التقى بيودهويونو في أتشيه بعد ذلك بقليل واستغرب لموقـــف الوزير. اعتقد غورمان أن الأمور تسير على ما يرام. ففي يوم توقيع الاتفاق قتل في أتشه أكثر من عشرة أشخاص، وقبل ذلك كان هناك معدل تسعة إلى عشرة حوادث عنف يوميا بينما وصلت هذه الحوادث الآن إلى اثنين فقـــط في اليـــوم الواحد. إلا أن يدهويونو كان يشتكي من حركة أتشيه الحرة لعدم وفائها بمـــا وعدت به من احتواء قواها في معسكرات خاصة. فرد غورمان بأن العســـاكر الأندونيسيين أيضا لم ينشروا قواهم كما وعدوا. كانت النبرة التي تكلـــم بهـــا الوزير لا تبعث على الارتياح. ما جرى على الأرض كان يختلف تماما عما أتفق عليه في غرفة المفاوضات. كان الحركة تقول لكل الناس في أتشيه أن الاتفاق تم على الاستقلال، بينما الحكومة الأندونيسية كانت تطالب مركز هنري دونانت أن يوضح أن الأمر ليس كذلك. وفي خلال ثلاثة أشهر انهارت اتفاقية وقـــف العدوان (كوها). ويعتقد يوسف كالا أن سبب فشلها هو أن الطرفين لم يتقابلا وجها لوجه، ولم يتوصلا فعلا لاتفاق. ويقول أن المرء يحتاج إلى اللقاء المباشـــر لكي يحكم على أفكار الطرف المقابل ومشاعره وتعبيراته مـــن خـــلال قراءتـــه لحركات جسده ونظرات عيونه وملامح وجهه. فربما كانت المباحثات عاطفيـــة أكثر كنتيجة للقاء المباشر، ولكن سيكون لها تأثير نفسي ســـيكولوجي يجعـــل الاتفاق أدوم وأقوى وأثبت.

عندما يلتقي الطرفاء في النهاية، فتشكيل وتركيبة الوفود يمكن أن تحـــدث خلافا كبيرا. الوفد الصغير خير من الوفد الكبير، لأن ذلك يخفف من احتمـــال بزوغ اختلافات داخلية وتسرب المعلومات، ولكن لا بد من تـــوفر الخـــبرات الكافية لمعالجة مواضع فنية قد تظهر فيما بعد. وعادة ما يختار الزعماء شخصيات على مستوى عال من مختلف أجزاء الطيف السياسي لضمان مشاركة كل قطاع

من قطاعات المجتمع في العملية السلمية. ولكن في هذه الحالة يكثر الرعاة ولا رعية، والذين يختارون لانتماءاتهم السياسية ليسوا، عادة، هم أفضل المتفاوضين. فالزعماء في حاجة لشخصية تقود الوفد وتفكر على نفس الموجة وفي انسجام تام معهم، وتتكلم بتخويل كامل منهم، وتستشيرهم في كل صغيرة وكبيرة.. وفي كل وقت وإن كان في أواخر الليل. كنتُ أتصل بتوني بلير، رئيس الوزراء، في الثانية صباحا لآخذ تعليماته. وكنت عادة ما يقول لي عد إلى مائدة المفاوضات واستمر حتى الوصول إلى اتفاق. في الجولة الثانية من المحادثات يقول نائب الرئيس الأندونيسي يوسف كالا، المعروف باسم شخصية 'سوبر ماريو Super Mario' السياسة الأندونيسية، نسبة لألعاب نينتاندو الإلكترونية، لما يملك من الطاقة والرغبة، على ما يبدو، غير المحدودة لإقحام نفسه في كل صغرة وكبيرة، أنه كان متحكما في وفد الحكومة بشكل يومي وعلى اتصال بهم على الأقل مرة كل ساعتين. ويقول الرئيس يودهويونو، الذي منح يوسف كالا صلاحيات كاملة في المحادثات، أنه تعلم الكثير عن فشل المفاوضات من أستاذه ميغاواتي Megawati فكان عليه أن يلعب دورا هاما لتوفير 'الغطاء السياسي' الذي يحمي المفاوضات. لقد اتفق الرجلان على المعالم الأساسية للاتفاق المحتمل قبل أن تبدأ المحادثات، وترك الرئيس نائبه يوسف كالا يتولى الموضوع. ولم يحتج يوسف كالا أن يشاور الرئيس إلا مرتين، إحداهما في آخر الليل حول الموضوع الحيوي الخاص بالأحزاب السياسية المحلية. ولما كان يوسف كالا في جاكارتا طلب من الوفد أن يضعوا هاتفا نقالا على المائدة في هلسنكي كي يتمكن من متابعة التطورات وأرسل تعليماته عن طريق الرسائل النصية عبر الهاتف. ويقول رئيس الوفد أنهم في النهاية كلفتهم فاتورة الهاتف 2000 دولارا. واستعمل يوسف كالا جهاز فاكس في غرفة نومه ليتمكن من التعليق كتابيا على مسودات وثائق المفاوضات في أوقات متأخرة من الليل.

غالبا ما يقرر القادة عدم حضور المفاوضات محتفظين بمواقعهم في الصفوف الخلفية ليكونوا الفاصل الأخير في الأمر. يقول يوذهويونو: "لم أحرص على الظهور في الواجهة دائما. فكنت اختار المواقع الخلفية في بعض الأحيان وأعطي

آخرين الفرصة ليستلموا القيادة وأحتفظ بالرصيد السياسي إلى وقت الحاجة إليه فعلا". فالقائد قد يختار شخصية متشددة لرئاسة الوفد على أساس أنه إذا تم إبرام اتفاق يكون من الصعب معارضته ويكون القائد على ثقة بدعم الأغلبيـة لـه. والخطورة طبعا أنه من الصعوبة الوصول إلى اتفاق إذا لم كان رئـيس الوفـد المتشدد مصرا على ذلك.

على الحكومة والجماعة المسلحة قبول أن أحدهما لا يستطيع اختيار تشكيلة الفريق المقابل. فالجماعات المقاتلة يفضلون أن يكون هناك جنرالات وضـباط عاملون على الجانب الآخر من مائدة المفاوضات. فهذا يشـعرهم بالتكـافؤ، ووجود عناصر من الجيش في الوفد يعطيهم شعورا بالاطمئنان إلى أن القطـاع العسكري يؤيد الاتفاق، ولكن ذلك ليس باختيارهم. حاولت حكومة جنـوب أفريقيا أن تمنع جو سلوفو Joe Slovo أن يكون عضوا في وفد المـؤتمر الـوطني الأفريقي عند بداية المحادثات. كان جو سلوفو شخصية مكروهة من قبل البيض في الحزب الوطني بحكم أنه الشخصية الوحيدة من البيض الذي تـولي زعامـة الحزب الشيوعي لجنوب أفريقيا، ولكن المؤتمر الوطني الأفريقي أصـر اصـرارا شديدا على مشاركته كشخصية هامة في قيادتهم، واضطر ديكليرك إن يتراجـع في الأمر. أما في سريلانكا فقد أصرت الحكومة على إدخال أحد رجال التاميل، الذي كان النمور يعتبرونه خائنا لصلاته العرقية، في وفد الحكومة. لم يسـتطع النمور أن يمنعوا انضمامه ولكنه عاش تحت التهديد خوفا على حياته، واضطر إلى تغيير مكان سكناه كل بضعة أشهر. وتمكن نمور التاميل أخيرا من قتـل وزيـر خارجية سريلانكا، وهو من التاميل أيضا.

مما يثر الاستغراب حقا عدد المرات التي تبدأ فيها الحكومات والجماعـات المسلحة مفاوضات بدون أدنى ترتيب. يقول فينك هايسـم Fink Haysom أن الزعماء "يعتبرون الاشتباكات السياسة والعسكرية عملا مهنينا ولكنهم ينظرون للمفاوضات وكأنها عمل للهواة غير المحترفين. ولكن المفاوضات هي أهم عنصر حاسم في نتائج أي كفاح من أجل الحرية والدمقراطية". وتقـول التجربـة أن الطرف المستعد استعدادا ممتازا هو الكاسب في المفاوضات لأنه يتحـرك بخطـة

وليس اعتباطا. لقد أخذوا العبرة من تجارب مفاوضات شبيهة في أماكن أخرى، ولماذا فشلت محاولات التوصل إلى حل لصراعهم (وعادة ما يكون هناك فشل سابق يستحق الدراسة). يقول يوسف كالا أنه أمضى عشرة أيام لتدريب مفاوضيه للاستعداد لمحادثات هيلسنكي. فدرسوا خلفية وضع أتشيه، وشخصيات شركائهم المفاوضين في حركة أتشيه الحرة (جي أيه أم) بالتفصيل، فدربوهم على طريقة الكلام بأدب، وعلى تركيز نظرهم على المتحاورين معهم أثناء التفاوض. ويعتقد أن ذلك الإعداد هو السر في نجاح المفاوضات في هيلسنكي.

في هذا النوع من المفاوضات لا يريد المرء أن يكون الطرف الآخر كذلك غير مستعد. ربما يخيل للبعض أنه سيكون من مصلحة الحكومة إذا كانت الجماعة المسلحة غير مهيأة، ولكن إذا لم يكن الطرف الآخر على معرفة جيدة بجوهر المفاوضات، و لم يفكر جيدا في نتائج كل خطوة، و لم يستطع مجرد استيعاب عملية التنازل والأخذ والعطاء.. فالمحادثات ستأتي إلى طريق مسدود في وقت قصير. فمن مصلحة الحكومة إذاً أن تتأكد أن يكون للجماعة المسلحة طريقة للوصول إلى مستشارين موثوق فيهم. يقول هايسوم: "أمر مشكوك فيه أن يعتقد أن من البركات الإلهية أن يكون المفاوضون على الطرف الآخر غير ماهرين أو غير مهيئين للتفاوض. نعم، إنه من الممكن على المدى القصير أن يستغل الإنسان الفوضى والجهل وعدم الخبرة لدى الخصم، ولكن المشكلة في هؤلاء أنهم في الغالب لا يلتزمون بقواعد التفاوض. فلربما تنكروا لما التزموا به أو وافقوا عليه. وستجد خصومك غالبا، إذا لم يكونوا على ثقة بأنفسم، فلن تكون لديهم روح الجرأة والمخاطرة، وسيكونون غير مرتاحين طوال عملية التفاوض، ومترددين في الدخول مفاوضات جدية". ويضيف قائلا أن المؤتمر الوطني الأفريقي في جنوب أفريقيا كان مستعدا ومهيأ أكثر من الحكومة وكان ذلك، جزئيا، بسبب أن الحكومة لم تكن لها خبرة في المفاوضات.

الطريق للتحول من قناة اتصال سرية إلى مفاوضات رسمية طريق محفوف بالمخاطر. ولكي ينجح هذا التحول هناك شروط معينة يجب أن تتوفر، خاصة

وجود أزمة ضرر تبادلي وقيادة سياسية قوية. ولكن لا فائدة من مجرد الانتظار حتى يصبح الصراع "ناضجا" للتسوية. فالمفاوضون غالبا يكونوا في حاجة للدفع بعجلة العملية إلى الأمام مهما كانت الظروف غير مواتية. فالمداولات التي تسبق المفاوضات حول مكان المحادثات، وقواعد الطريق، واختيار الوفود سيكون لها أثر بالغ على فرص النجاح بينما الشروط المسبقة يمكنها القضاء على مستقبل الدخول في مفاوضات أولا وقبل كل شيء. فأحيانا على الوسيط التنقل بين الفريقين قبل أن يلتقيا وجها لوجه. ولكن حتى بعد هذا لا يستطيع المرء أن يكون على يقين تام أن الطرفين قد توصلا إلى اتفاق في واقع الأمر. فإذا تمكن المرء، بلباقته ودهائه، من زحزحة الفريقين إلى المفاوضات، عندها يصبح الوسطاء في حاجة إلى التفكير جيدا وبعناية في تصميم إطار المحادثات وأساليب المفاوضات... وأولا وقبل كل شيء، في استراتيجيتها. فالمفاوضات فن، ولا يحصل الاتفاق إلا إذا ما استوعب الطرفان هذا الفن وأصوله.

فن التفاوض

إذا كان الإنسان لا يعرف إلى أي مَرْفأ سيبحر، فلا رياح تسعفه.

سينيكا الأصغر *Seneca the Younger*

لم أتلق أي إعداد أو تدريب في التفاوض أو الاستعدادات النظرية، لمدة نصف حياتي التي قضيتها في هذا العمل، أولا كدبلوماسي ثم بعد ذلك في العمل مع الحكومات والجماعات المسلحة. في الحقيقة تلقيت تدريبا لمدة يوم واحد عند التحاقي بالسلك الدبلوماسي البريطاني سنة 1979 وهي السنة الأولى لحكومة السيدة مارغريت تاتشر. أُعطينا نسخة من كتاب هارولد نيكلسون Harold Nicolson بعنوان: الدبلوماسية: الدليل الأساسي لمزاولة الشؤون الخارجية المعاصرة *Diplomacy: A Basic Guide to the Conduct of Contemporary Foreign Affairs*، المنشور لأول مرة سنة 1939 وأعيد طبعه سنة 1949. (في أول سطر من الكتاب نجد أحسن مثل للتقليل من قيمة الكتاب، كما هي عادة البريطانيين في التحفظ في تقديم أي شيء بعبارات أخف مما هو الواقع، عندما يقول الكاتب: "منذ صدور الطبعة الأولى لهذا الكتاب، طرأت على العالم أحداث كثيرة هامة"). كما أعطينا كتيبا عن 'المواقع'، وهو كيفية توزيع الدبلوماسيين على الكراسي في حفلات العشاء، ولكننا لم نتلق شيئا عن التفاوض أو المفاوضات. أما الآن فهناك فرع كامل عن التفاوض يدرس في كليات إدارة الأعمال والجامعات، وهناك مشروع هارفرد للمفاوضات Harvard Negotiation Project الذي يجمع بين المحامين وعلماء النفس والدبلوماسيين وضباط الشرطة المختصين في التفاوض على الرهائن، ويدّرس كل ما يمكن تدريسه من جميع هذه الفروع من علم المفاوضات.

الكثير من المواد التعليمية والبحوث الأكاديمية ممتازة وتستحق الإكبار، ولكن التفاوض يظل فنا وليس بعلم. يصف ريتشارد هولبروك تجربته في البلقان بأنها "في الوقت نفسه، تجربة فكرية وبدنية، وعملا تجريديا وذاتيا.. فلكأنها أمر يجمع بين الشطرنج وتسلق الجبال". ويقول دايمن كينكزبري Damien Kingsbury، وهو أسترالي اشتغل مستشارا لحركة أتشيه الحرة في أندونيسيا، "إن الفرق الأساسي بين التفاوض والشطرنج هو أنه، من الناحية العملية، لا توجد قواعد للتفاوض إلا تلك التي يفرضها أحد الطرفين المعنيين على اللعبة".

فالمفاوضات يختلف بعضها عن بعض، وهي تجري بين بشر فيهم سوء السمعة وصعوبة التنبؤ بتصرفاتهم. وبالرغم من وجود تشابه بين المفاوضات الدبلوماسية التقليدية والتفاوض مع الإرهابين، فهناك أيضا اختلافات كبيرة. ويصف غاي فوور Guy Faure التفاوض مع الإرهابيين بأنه "نوع من الدبلوماسية ذو خاصية مميزة إلى حد بعيد" لأنه "يعود إلى أساليب غريبة أصلا في الدبلوماسية التقليدية، وذلك بسبب طبيعة النظير المقابل، والقضية الراهنة، والسياق، والنموذج الأساسي الذي يحكم ذلك النوع من الأوضاع. فالنظير (الآخر) لا يفهم على أنه مطابق للأصل بل إنه صفة أو ذات أخرى. فهناك عنصر تماثل أو تناسق نفساني يحدد ويصبغ العلاقة، ولذا فإن النتيجة هي بقاء مضمون الاتصالات على مستوى ضعيف نسبيا. فالإرهابي ينظر إليه كنظير (ذاتٌ أخرى غريبة) يفرض نفسه فرضا على العلاقة، ويقحم نفسه بقوة في العملية دون احترام أو اعتبار للآخر".

في المفاوضات مع الإرهابيين، كما هو الحال في المفاوضات الدبلوماسية، نحتاج إلى شكل أو بنية معينة نبدأ منها. أولى قواعد ذلك البنيان هي مضمون أو فحوى أو أهمية العملية. عند الإعداد لكتابي: 'غرفة صغيرة... وضغينة هائلة' *Great Hatred, Little Room*، *وهو كتابي عن عملية السلام في أيرلندا الشمالية، تفضل سكرتير الحكومة البريطانية وسمح لي بالاطلاع على جميع الملفات السرية في ديوان رئيس الوزراء من* 1997 وحتى 2007. جلست في غرفة

صغيرة بردها قارص تحت مكتبه، تطل على مكان استعراض حـــرس الخيالـــة Horse Guards Parade. وأهم ما جذبني من بين تلك الصفحات، قبـــل كـــل شيء آخر، هو فكرة مركزية وجود 'عملية'. فلطالما كانت هناك عملية ســـلام قائمة ومفاوضات جارية، يمكن التفاؤل بأن الأمور ستسير إلى الأفضل. أمـــا إذا انهارت عملية السلام، فسرعان ما ينشأ فراغ يملؤه العنف. وكتـــب هـــولبروك يقول: "في الدبلوماسية، الطريقة، أو الأسلوب، مهمة بقدر أهمية الموضـــوع أو الجوهر، خاصة في الفترات المبكرة عندما تجد الخصوم القدامى ينحون نحو تهويل الخلافات بدلا من السعي إلى التسويات".

ويحاول الجانب الحكومي أحيانا أن يقفز إلى مرحلة نهاية المفاوضـــات مباشرة دون تأسيس عملية أو أسلوب أو دون العبور من خلالهمـــا. هـــذا أسلوب مصيره الفشل في جميع الأحوال. يقول شمعون بيريز أن الكل يعرف الإطار العام للتسوية السلمية النهائية في الشرق الأوسط فيما يتعلق بالأرض، واللاجئين، بل وحتى وضع مدينة القدس، ولكن المشكلة هي عدم وجـــود طريقة أو عملية توصلنا إلى هناك. ويلخص ذلك المتحدث البارع وأســـتاذ التعبير البليغ فكرته في هذه الكلمات: "هناك ضوء في آخر النفق.. وهذا خبر طيب، ولكن الخبر المزعج أنه لا وجود لذلك النفق". ومهمة المفاوض هـــي بناء ذلك النفق المفقود.

فالسلام إذاً ليس حدثا ولكنه عملية بناء ثقة متبادلة بين طرفين متحـــاربين على مدى من الزمن. وليس المهم هو التوقيع على التسوية أو الاتفاق بحد ذاتـــه، ولكن الأهم هو كيف يصل الطرفان إلى تلك النقطة، وهل يستطيعا، من خلال ذلك، بناء الثقة فيما ما بينهما. كان ذلك واضحا كل الوضوح في مفاوضـــات جنوب أفريقيا. يقول ويللي إسترهوس Willie Esterhuyse، أســـتاذ الفلســـفة بجامعة ستالينبوش بجنوب أفريقيا، أنهم قرروا في جنوب أفريقيا، عن سبق الإصرار والتعمد، منذ البداية "أن نختار الدخول في **عملية** بدلا من أن نشارك في **حـــدث** مثير". وكان يوما في عام 1990 يصعد الطائرة في مطار كيب تـــاون ذاهبـــا إلى لندن، إذ سُحب من الطائرة وأخبر أنه مطلوب في عجالـــة في صـــالة كبـــار

المسافرين. فلما وصل الصالة إذا به يجد بيكِ بوتا Pik Botha، وزيـــر خارجيـــة جنوب أفريقيا، على الهاتف من أمريكا. كان بوتا يسعد للظهـــور في برنـــامج الصحفي تيد كوبل Ted Koppel الشهير واسمه نايتلاين Nightline بصحبة تابو إمبيكي، أحد زعماء المؤتمر الوطني الأفريقي، وطلب من إسترهوس أن يتحـــدث مع تابو إمبيكي ويؤكد عليه أن يتصرف بأسلوب حضاري أثنـــاء البرنـــامج. وطلب بوتا منه يتحدث مع إمبيكي حالا وأن مساعده سيتأكد من أن الطـــائرة ستنتظره. قبِل إمبيكي بالنصيحة على الفور وقال أنـــه ســـوف ينـــادي بوتـــا بـــ 'السيد الوزير'، وأضاف بضحكة مخفية: "أرجو أن تخبره أنه عندما يســـتلم المؤتمر الوطني الأفريقي الحكومة، فسأعينه نائبا لي". نقل إســـترهوس الرســـالة وشاهد البرنامج في المساء الذي قال فيه إمبيكي عبارة لا تنسي وهي: "نحـــن في بداية عملية" هدفها "تسوية سياسية لإنهاء عهد التفرقة العنصرية".

بمجرد الشروع في المفاوضات وانطلاق العملية، الهدف الأهم بعد ذلك هو المحافظة على العملية ومساندتها وتعزيزها. فهي في رأيـــي 'كنظريـــة الدراجـــة الهوائية'. بمجرد آن تتحرك الدراجة إلى الأمام، فإن تركتـــها تتوقـــف فســـترتد وتسقط ويصعب تحريكها من جديد. وكذلك المحادثات، مهما كانت صعبة فلا ينبغي أن تسمح لها بالتعثر أو التراجع. حاول دائما أن تجد موضـــوعا جديـــدا للمناقشة، أو أسلوبا جديدا للتفكير. وعليك ألا تجعل من السهل على أي مـــن الطرفين أن يحيد عن العملية وهو يعتقد أنه هو سبب فشلها أو أنه يتحمل الذنب في الوصول بنجاح العملية إلى الخطر. ووصف جم بيكر Jim Baker، عنـــدما كان يلملم أطراف مؤتمر مدريد حول الشرق الأوسط في 1991، الحالـــة بأنهـــا 'كالقط الميت'... فلا أحد يريد القط الميت، أي الإخفاق، مرميا على عتبة داره!

كلا الطرفين يأمل في حالة تصرفه بصورة مهينة لا تطاق فسوف يســـتفز الطرف الآخر إلى الانسحاب. ولكن على الحكومات ألا تســـمح بـــالأمور أن تصل لهذا الحد. وها هو ديكليريك يصف الجهد المطلوب للحفاظ على التوازن في حالة جنوب أفريقيا، فيقول: "لقد كان بإمكـــان الأطـــراف الأخـــرى أن تستعرض عضلاتها أو تنسحب من عملية التفاوض. ولأسباب واضحة لم يستطع

الحزب الوطني أو الحكومة ذلك. كان ضروريا بالنسبة لنا أن نُرجع المؤتمر الوطني الأفريقي إلى مائدة المفاوضات في سبتمبر/أيلول 1992".

لأجل أن يحافظ المرء على الدراجة تسير، من المهم أن يتفادى تكرر انقطاع المفاوضات. يقول فنك هايسوم Fink Haysom أنه "قد يكون هناك دائما سبب مقنع لتعليق المفاوضات، ربما أحيانا لاستعراض العضلات تنظيميا أو سياسيا، ولكن هذا القرار يجب أن يؤخذ مع علم تام بنتائجه وما يترتب عليه. ففي جنوب أفريقيا ادركوا مؤخرا أن تعليق المباحثات بعد مؤتمر كوديسا كان خطأ أدى لتدهور الأوضاع الأمنية والسياسية في البلاد تدهورا خطيرا". وفي كاغوان في كولومبيا أعلنت القوات المسلحة الثورية الكولومبية بتاريخ 19 يناير/كانون الثاني 1998، بعد أيام قليلة فقط من بداية العملية السلمية، أنها ستجمد المفاوضات إلا إذا منعت الحكومة المذابح المستمرة التي يقوم بها اليمينيون أعضاء القوات شبه العسكرية. كانت تلك المرة الأولى من أربع مرات جمدت فيها حركة القوات المسلحة المحادثات، وقد ساهم أسلوب التعثر هذا في إفشال العملية بالكامل. أما في سريلانكا فقد جمد نمور التاميل المفاوضات في 2003. وكتب بالاسنجهام، زعيم النمور، إلى رئيس الوزراء، ويكرماسنجه، يشرح له أن سبب إقدامهم على ذلك هو عدم تنفيذ الحكومة لقواعد وشروط وثيقة الهدنة، وأن المحادثات لا يمكن أن تستمر إلا إذا عالجت الحكومة هذه النقاط. وأثبت هذا الانقطاع في العملية السلمية أنه مهلك لها. وينصح هايسوم بألا "يهوّن أحد من أهمية المحافظة على زخم المفاوضات. فالتقدم في المفاوضات يؤدي إلى مزيد من التقدم، والاتفاق يولّد الاتفاق. وكلما استمرت بعض الأطراف بالمشاركة في المفاوضات بنجاح، فستلتحق أطراف أخرى بالعملية. والعكس صحيح. فعندما تعلق المفاوضات، فإن العملية السلمية لا تبقى جامدة... وعادة ما تتحرك إلى الخلف.

طبعا، عندما تتواصل المفاوضات بدون توقف وهي لم تحقق شيئا، والوضع على الأرض يزداد سوءا يوما بعد يوم، فسيكون الجو معرضا لتفشي الشعور 'بإجهاد العملية'. وتظهر العملية ليست أكثر من كونها مجرد إدارة نمطية للصراع.

وأذكر أنني قابلت مجموعة من الفلسطينيين عدة سنوات مضت فذكروا لي أنهم قد ملوا من عمليات السلام. إنهم يريدون اتفاقا وليس مزيدا من عمليات السلام. وعلى رأي الصحفي توم فريدمان Tom Friedman في صحيفة نيويورك تايمز أنه في الشرق الأوسط "الإسرائيليون يريدون مفاوضات بدون اتفاقية سلمية، والفلسطينيون يردون اتفاقا سلميا بدون مفاوضات". ولكن مهما أصاب المرء من ملل وسخط، لزم عليه أن يواصل العملية السلمية إذا كان الهدف هو الوصول إلى اتفاق.

والحقيقة أن عمليات السلام لا تنتهي. وحتى عندما تصل إلى اتفاق يصبح لزاما عليك أن تنفذه. فبناء الثقة، وغالبا إعادة بنائها، يحتاج إلى أجيال. تقول أودري كرونن Audrey Cronin: "من الحكمة ومن الأفضل أن تُعامل المفاوضات مع المجموعات الإرهابية على أساس المدى الطويل، وباعتبار أنها عمليات تدار وتتطلب الصبر والمرونة والذكاء الواسع والمثابرة المستمرة، وليس كنوع من الاجتماعات المكثفة وحفلات التوقيع التي يعلن عنها في وسائل الإعلام التي تتبع وقف إطلاق النار في الحروب الأهلية أو إنهاء الحروب التقليدية". فإذاً، المهارة المطلوبة، أولا وقبل كل شيء، لدى المفاوضين والوسطاء هي الصبر. إنه من الصعب أن يتحمل المرء سنوات من المجادلات المفرغة والمعاملة الفظة التي لا تحتمل، والمفاوضات التي تستمر إلى آخر ساعات الليل بدون ضرورة، وأشخاص لا يقدمون أي مساهمة تذكر وليس لهم شغل إلا الطعن في كرامتك وقدراتك... ولكن لا مفر للمرء من أن يؤدي هذه المهمة على أحسن ما يرام. وهذه ليست ملاحظة جديدة. فقد كتب فرانسوا دو كاليير Francois de Callieres، الدبلوماسي وعضو حكومة لويس الرابع عشر في فرنسا في القرن السابع عشر، في كتابه 'في أسلوب التفاوض مع الأمراء' *On the Matter of Negotiating with Princes*، أن المفاوض يجب أن يمتلك "ضبط النفس، واتجاها لا يحيد عنه، وصبرا كالصخر لا تحطمه المحن".

من الضروري أحيانا امتصاص الألم السياسي والشخصي كي تستمر الدراجة في حركتها. في إحدى الجلسات المشحونة في مفاوضات حركة الباسك

التحريرية (إيتا)، صرخ 'مارك' بخيسوس إغويغورين قائلا: "كلامك هذا هو دعاية الحكومة المعروفة. لهذا السبب قتلنا من قتلنا من الناس. وإذا كان هذا ما تريدون فلننهي الاجتماع ولنعد إلى نفس العمل من جديد". ورد إغويغورين على ذلك بقوله: "كما تعلم فأنا دفنت عددا من المقربين من أصدقائي الذين ماتوا بالرصاص. وقبل أن أحضر إلى هنا ألقيت نظرة في المرآة وقلت لنفسي أن السلم مهم جدا لدرجة أني لن أسمح لما حصل في الماضي أو لمشاعري الشخصية أن تؤثر علي. ولذلك فأنا لن أرد على ما قلته الآن. يداك ملطختان بالدم ومهمتنا أن نوقف هذا الدم". وفي عام 2001 كان على مارتن غريفيثس، ممثل مركز هنري دونانت، بمفرده تقريبا أن يحافظ على وتيرة عملية السلام في أتشيه بأندونيسيا. فقام بثلاثة عشر رحلة من ستوكهلم إلى جاكارتا في خلال ستة أشهر. وكان أحيانا يهبط في جاكارتا بعد رحلة استغرقت اثنتي عشرة ساعة ليقال له أن الاجتماع مع الحكومة الذي جاء من أجله قد ألغي. اجتمع بالرئيس وأحيد بصورة منتظمة لمناقشة موضوع المفاوضات، في الفترة الأولى، ولكنه لم يلتق بخليفته، الرئيس ميجاواتي، ولو مرة واحدة. لكن إصرار غريفيثس نجح، وفي السنة التالية استؤنفت المفاوضات من جديد.

عند إنشاء عملية السلام، يكون لزاما على المرء أن يؤسس لبنية تساعد وليست بنية تعيق التقدم في المحادثات. إذا اتفق الطرفان على أن الطريق إلى العملية السلمية سيكون بشكل تعاقبي، وبالعمل بناء على أجندة معينة وجدول بنود منطقي، نقطة نقطة، ودون الانتقال إلى نقطة قبل الاتفاق على ما سبقها، فإن التوصل إلى اتفاق سيكون من صعبا. فلا يمكن تسوية كل القضايا في البند الأول، لأن كلا الطرفين غير مستعد لإعطاء تنازلات معينة في جوانب مهمة غير مطلوبة قبل أن يعرف ما يمكن له أن يضمن الحصول عليه في جوانب أخرى في المقابل. فالمفاوضات إذاً لا بد أن تتحرك في خطوط متوازية، وأن تكون مبنية بطريقة تسمح بالمقايضة بين التنازلات في جوانب مختلفة. ففي أيرلندا الشمالية سلكت المفاوضات ثلاثة اتجاهات. **الأول** حول القضايا الداخلية لأيرلندا الشمالية. **والثاني** عن الأمور المتعلقة بالأيرلنديتين الشمالية والجنوبية.

والثالث يختص بالمسائل المتعلقة بالشرق والغرب ما بين الحكومتين الأيرلندية والبريطانية كإعادة صياغة دستور أيرلندا والقوانين البريطانية. مكنا هذا من تحقيق تقدم على مسالك متوازية في مواضيع عدة. يقول هايسم أنه "يجب أن تتعدى المفاوضات الجوانب التي لا يمكن الوصول فيها إلى إجماع بدلا من فرض متوالية متخشبة أو نظام تسلسلي للمواضيع يتفق عليه. فإذا كانت أجندا المفاوضات عبارة عن مسائل تعالج بطريقة متوالية (أو مفصول بعضها عن بعض)، فلربما كانت في العملية إشكاليات. فالطريقة الوحيدة لتحرك المفاوضات هي الانطلاق بناء على شروط معينة. معظم المفاوضات تجرى تحت عنوان: "لن نتفق على شيء إذا ما لم نتفق على كل شيء". هذه القاعدة تسمح لكلا الطرفين أن يزن ويقيم مختلف الاقتراحات والحلول دون الالتزام بشيء حتى تظهر لهما الصورة كاملة. وبمجرد أن تنطلق المفاوضات وتأخذ مأخذا جديا، فأفضل طريقة لتحقيق التقدم المتوازي في هذه الحالة هي بإحالة المناقشات التفصيلية إلى مجموعات عمل من الخبراء تجتمع في تزامن مع بعضها البعض، بدلاً من الإصرار على مناقشة كل موضوع على مائدة المفاوضات الرئيسية.

عندما تُمنى المفاوضات بالإخفاق، يكون ذلك غالبا نتيجة لغياب البنية الصحيحة، وهذا يعني أن المفاوضات لم تدخل إطلاقا في جوهر القضية، ولكنها لا تزال غارقة في مناقشة نقاط النظام. فإذا كانت المفاوضات ارتجالية بحتة فلن تتقدم وستظل عند حد تبادل المكالمات الهاتفية ولن تنتقل إلى العمل الجدي وهو الاتفاق على نصوص معينة. ويتذكر مايكل فاتيكيوتس Michael Vatikiotis، رئيس مركز هنري دونانت في آسيا، محاولاته لإخلال السلام بين منظمة القمصان الحمر Red Shirts وبين قوات حكومة بانكوك عام 2010. احتل أتباع القمصان الحمر المدينة احتجاجا على معاملة أحد أبطالهم، وهو الرئيس السابق ثاكسين Thaksin، من قبل العسكريين والنخب السياسية. هذا الوضع المتشنج أصبح خطرا يهدد باندلاع هرب أهلية في أي لحظة. فقد أزهقت الأرواح. أُخذ فاتيكيوتس في رحلة عبر مستويات مختلفة من الترتيبات الأمنية في طريق يتعرج بين نقاط التفتيش والوحدات العسكرية حتى وصل إلى المنصة الواقعة في مركز

احتجاج القمصان الحمر. كانت وراء المنصة ثلاجة في مؤخرة شاحنة حيث كان زعماء القمصان الحمر في حالة استرخاء بينما كان البقية على وشك أن يصابوا بالإغماء من شدة الحر. كان أحد هؤلاء الزعماء يرتدي قمصا أحمر، تي شيرت، تزينه صورة البطل الهندي، مهاتما غادي، فيما بدا أنه خارج السياق في قلب احتجاج عنيف، وكان الكثير منهم الحاضرين يرتدون تمائم بوذية وملابس غربية. كاد الجو أن يكون حفل سحر فودو Voodoo. جلس فاتيكيوتس بينهم وسألهم ماذا يفعلون. قالوا إنهم كانوا يتحدثون بالهواتف النقالة مع وزراء الحكومة. فسأل إن كانوا قد سجلوا مطالبهم على الورق، فقالوا له لم يفعلوا. فجلسوا ولأول مرة أخذوا يصيغون مطالبهم ويكتبونها، وهو ما مكن المفاوضات الحقيقة أن تبدأ.

وإذا كانت المحادثات ستنجح فمن المهم أن تكون شاملة، وذلك يعني أن يسعى المرء إلى ضم جميع الأطراف المعنية كلها وليس تلك التي تروق له فقط. فليس من المعقول أن يسعى المرء إلى تحقيق السلام ويقصى أحد أطراف الصراع. وقد اكتشفت بريطانيا في أيرلندا الشمالية هذا العيب حيث أنها أمضت عقودا في مفاوضات غير مثمرة مع كل الأطراف في أيرلندا الشمالية ما عدا شين فين. ولكن عندما تختار أطراف معينة إقصاء نفسها بنفسها فهذه مسألة أخرى، ويمكن في الواقع أن ذلك قد يسهل الأمور. فقد كان جورج ميتشل قلقا كيف يمكن الوصول إلى اتفاق في أيرلندا الشمالية في المحادثات التي ترأسها إذا أصر إيان بيزلي على الحضور، ولكن قرار الحزب الديمقراطي الاتحادي، حزب بيزلي، بالانسحاب أنقذه من الإحراج.

إحراز تقدم في العمليات المنظمة يكون أصعب لو أن عدد الموجودين على مائدة التفاوض كان أكثر من المطلوب. لن يقدم القادة تنازلات على مرأى ومسمع من الناس الغرباء لأن ذلك يعرضهم للهجوم من قبل أعضاء فريقهم. والسرية تكاد تكون مستحيلة في المؤتمرات الكبيرة فتأخذ المفاوضات منحى آخر، عادة ما تتجه إلى ما وراء الكواليس وهذا يؤدي إلى السخط والاستياء. كانت مو مولام، وزيرة شؤون أيرلندا الشمالية في الحكومة البريطانية، كانت

تلح عليّ أن أشراك منظمات مثل تحالف المرأة Women's Coalition والأحزاب الأصغر الموالية لبريطانيا في المفاوضات الحساسة بين الجمهوريين والاتحـــاديين في أيرلندا الشمالية. ولكن ذلك كان مستحيلا إلا إذا جمدنا عملية السلام برمتـــها. ففي الواقع، كلما كان عدد المشاركين في الغرفة أكبر، كلما كانت فرص نجاح المفاوضات أقل. فكل من يأتي ومعه وفد أكثر من خمسة أعضاء فهو شـــخص ليست له نية صادقة أو جدية في المفاوضات.

المحادثات متعددة الأحزاب أكثر تعقيدا من المحادثات الثنائية. في جنـــوب أفريقيا نظمت إجراءات مؤتمر الديمقراطيـــة في جنـــوب أفريقيـــا (كوديســـا) Convention for a Democratic South Africa CODESA لتشـــمل جميـــع الأحزاب في البلاد مهما كان حجمها. كان هناك أربعـــون منـــدوبا في كـــل مجموعة عمل من المجموعات الخمس، ولو سمح لكل حزب أن يتكلم (وكلـــهم يريد أن يتكلم) لضاع اليوم كله. وبما أن الوفود قد عبروا عن آرائهم شـــفويا، فقد أصبحوا بعد ذلك متصلبين في مواقفهم. المحـــاولات الأولى في (كوديســـا) أخفقت بسبب كثرة الأحزاب المشاركة وعدم وجود عملية فعالة للتوصـــل إلى قرارات، فانتهت اللقاءات إلى مجادلات بدلا من مفاوضات. في المحاولة الثانيـــة سمح للفريق الفني أن يقترح صياغة حلول للمسائل المستعصية لحفظ ماء الوجـــه بالنسبة لكل الأحزاب لدى قبولها اقتراحات من خصومهم وخاصة، وهو الأهم، القرارات الرئيسية التي صدرت عبر المفاوضات الثنائية بين الحكومـــة والمـــؤتمر الوطني الأفريقي في اللجنة التسييرية التنفيذية للمؤتمر التي تضم كلا من رولـــف ماير Roelf Mayer وسيرل رامافوزا Cyril Ramaphosa المفاوضين الرئيسيين عن الحكومة والمؤتمر الأفريقي، على التوالي.

كانت عملية صنع القرار هي المشكلة الأساسية. لو كان المطلـــوب هـــو الإجماع لما كان هناك اتفاق أصلا لأن كل حزب، مهما كان حجمه، له حـــق النقض. وعلى الطرف الآخر، لو كان القرار بالأغلبية فلن يقبل لدى الآخـــرين لأن المؤتمر الأفريقي كان يمكنه أن يقرر كل شيء بمفرده. وهكذا أقترح مبـــدأ "الإجماع الكافي" والذي يعني أن المؤتمر الأفريقي والحزب الوطني كانا مشاركين

وموافقين على أي بند أعتبر متفقا عليه. ويقول هاسوم أن الإجماع الكافي هو في الحقيقة "ضمان للاعبين الرئيسيين أن موافقتهما شرط مسبق قبل اتخاذ القرار ولكنه ينزع حق النقض من الأطراف الصغيرة والأشخاص". ويوضح ماير عملية صنع القرار بالطريقة التي توصلوا بها إلى الاتفاق حول عَلم جنوب أفريقيا. طلبت الحكومة أولا اقتراحات من الشعب فاستلمت أكثر من سبعة آلاف اقتراح. لم يستطع المشاركون في (كوديسا) أن يختاروا واحدا منها، فأحيل الموضوع إلى ماير ورامافوزا في اللجنة التيسيرية. كان قرار الرجلين هو عدم القبول بأي منها وأحيل الأمر على الموظف المسؤول عن الابتكارات والشعارات في الدولة State Herald الذي اقترح تصميما قررا أن يعرضاه على (كوديسا). وافقت (كوديسا) على التصميم تحت مبدأ "الإجماع الكافي" لأن كلا من المؤتمر الأفريقي والحزب الوطني قد صدّقا عليه. آمنّا من طرفنا نحن بالقاعدة نفسها بعد ذلك في أيرلندا الشمالية فلم يعد أي قرار يوافق عليه إلا إذا وافقت عليه أغلبية من الطرفين، الكاثوليك والبروتستانت معا.

هناك أحيانا دعوة للمجتمع المدني أن يشترك في المفاوضات، ولكن الغريب في الأمر أن الجماعات المسلحة هي التي غالبا ما تعارض ذلك. فقد اعترضت حركة تحرير أتشيه في أندونيسيا على منظمة غير حكومية بأنها منحازة "لأنها عاشت مدة طويلة بين الجاويين". أما في جنوب أفريقيا فلم يسمح لمنظمات المجتمع المدني أو عالم التجارة والأعمال بالمشاركة في المفاوضات نفسها ولكنهم دعوا للمشاركة في "اتفاق سلام" منفصل. ولربما كان في مفاوضات غواتيمالا أكثر نظام محكم بمشاركة تجمع للمجتمع المدني موسع تحت قيادة الكنيسة الكاثوليكية، الذي قدم مقترحات للأطراف المشاركة حول جميع بنود جدول الأعمال، وبعد مناقشة كل منها وُقّع على اتفاق يصدق عليها على أنها "التزام وطني". ولكن حتى هذا النظام المعقد نوعا ما، لم يكن كافيا بالنسبة لبعض الناشطين. بعد توقيع الاتفاق بدأت منظمات عالمية غير حكومية في سلسلة "حوارات وطنية" على غرار العمل السابق، مما أصاب جين أرنولت Jèan Arnault، وسيط الأمم المتحدة، بالإحباط الشديد.

من المهم أن يدرك المرء أن المفاوضات ليست مناقشات أو مجادلات. فلربما يسجل المفاوض ضد خصمه نقطة أو يقدم حجة يكسب بها الموقف على الطاولة، وتعطيه شعورا بالارتياح النفسي شخصيا، فلن يكون لها أثر يذكر في الدفع نحو التسوية. وها هو دافيد بوهم David Bohm، عالم الطبيعة الفزيائي الذي له مساهمات مهمة في علم الفلسفة، يلخص الفرق بين النقاش والحوار، فيقول:

النقاش هو مناظرة بين متضادين، أي أن هناك طرفين يعارض أحدهما الآخر ويحاول كل منهما إثبات بطلان آراء الآخر. والحوار يكون بين طرفين أو أكثر يحاولون جميعا الوصول إلى فهم مشترك. في النقاش الهدف هو الكسب، أما في الحوار فالوصول إلى أرضية واحدة مشتركة هو الهدف. في الحوار يستمع الإنسان إلى الطرف الآخر كي يفهمه، ويبحث عن المعنى ونقاط الاتفاق. أما في النقاش فيستمع المرء إلى الطرف الآخر بحثا عن الثغرات ليرد على أفكاره ويدحضها. الحوار قد يغير الآراء، أما النقاش فيعززها. والحوار يكشف عن افتراضات ومسلمات لكي يُعاد تقييمها، أما في النقاش فيدافع المرء عن الافتراضات كحقائق. والحوار يخلق مواقف بعقول منفتحة، أما النقاش يغلق العقول.

ليس من الممكن أن تقنع الطرف الآخر ليغيروا أفكارهم بالخطب البليغة أو تهزمهم بمجرد أن تتحايل عليهم أو تخدعهم. يقول نيل بارنارد، من جنوب أفريقيا، أن القاعدة التي اكتسبها من تجربته العملية هي أن "الحذلقة هي عين الغباء". مهما حاولت أن تفوق خصمك بالحيلة أو الدهاء فالنتائج لا تدوم، وتكون المحصلة هي إضعاف مصداقيتك. كان شفيق هاندل، زعيم المجموعة الشيوعية في جبهة فارابوندو مارتي للتحرير الوطني في السلفادور Frente Farabundo Martí para la Liberación Nacional FMLN، دائما شغوفا بالجدال حول الماضي أثناء جلسات المفاوضات، محددا على من يقع اللوم في أحداثه الفظيعة، بدلا من التركيز على بناء أسس الاتفاق. وفي إحدى الجلسات التي ترأستها الأمم المتحدة، رتب خوكوين بيجالوبوس Joaquin Villalobos، عن طريق قناة خلفية، بأن تضع الحكومة عرضا ما على مائدة المفاوضات

بخصوص موضوع كانت جبهة التحرير الوطني ترغب في طرحه بشدة. المطلوب من جبهة التحرير أن تجلس وتصمت لا غير. بيلالوبوس دفع بمنديل ورقي أمام هاندل مكتوب عليها ملاحظة أن أسكت ولا تتكلم. ولكن هاندل لم يتمالك نفسه ودخل في النقاش مباشرة معترضا على العرض مما أفسد خطة بيجالوبوس التي رتبت لها بكل حرص. ما يزال بيجالوبوس محتفظا بالمنديل الورقي.

الهدف من المفاوضات هو الاتفاق على كلام يكتب على الورق، وليس الهدف أن تقنع الحكومة الجماعة المسلحة بالقبول بوجهة نظر شاملة مشتركة. وحتى بعد إبرام الاتفاق يستمر الطرفان على اتفاق. فالقوات المسلحة الثورية الكولومبية (أف أيه آر سي) ظلت على مدى طويل تطالب بتغير جذري في طبيعة تركيبة الدولة وفي النظام الرأسمالي. ومن الغريب أن الحكومة في محادثات كاغوان وافقت غلى بنود جدول أعمال للمفاوضات يتكون من اثنتي عشرة نقطة رئيسية وأكثر من مائة نقطة ثانوية بما فيها الحفاظ على الموارد الطبيعية والعلاقات الدولية والإصلاحات السياسية وإصلاح النظام القضائي وملكية صناعة المناجم. كانت القوات الثورية راغبة في الاتفاق عليها جميعا قبل حتى الاتفاق على وقف إطلاق النار عوضا عن مطلب إنهاء الصراع المسلح. تقدمت الحكومة بالموافقة على هذه الأجندة كإنجاز للشهور الأربعة الأولى من المفاوضات، ولكن لم يكن هناك من سبيل ليتفق الطرفان على تغيير النظام الرأسمالي أو التركيبة الاقتصادية والاجتماعية للدولة. فجدول أعمال مفتوح كهذا، بكل بساطة، سيورط الطرفين في مفاوضات لا نهاية لها. فالهدف من أي عملية سلمية هو ليس اتفاق الطرفين على موقف مشترك تجاه الرأسمالية أو غيرها، ولكنه مجرد إزاحة العراقيل التي تشعر الجماعة المسلحة أنها كانت تمنعهم من السعي إلى تحقيق أهدافهم بإنصاف عبر السياسية. إن تضارب الأفكار سوف يستمر، ولكن عبر صناديق الاقتراع وليس من فوهات البنادق.

ورغم ذلك فمن الغريب أن الوصول إلى مرحلة صياغة نص الاتفاق أمر صعب. فإذا تقدمت الحكومة بورقة حول موضوع معين لمناقشتها في المفاوضات، فأغلب الظن أن الجماعة المسلحة سترفضها على أساس أنها مشوهة

مهما كان محتواها. كما أن الورقة المقدمة من الجماعة المسلحة ستعامل بكثير من الشك والريبة من قبل الحكومة. وقد اكتشف دو سوتو في مفاوضات السلفادور أن أي عرض مقدم من أي من الطرفين يرفض ثلقائيا من قبل الطرف الآخر. لم يحصل أن كانت هناك تنازلات متبادلة بين الطرفين الجالسين وجها لوجه في تلك الغرفة. وكان أغلب عمل دو سوتو هو التنقل بين الطرفين لتسليم الرسائل من الواحد إلى الآخر. وقد استفاد من خبرته في عمله كمنسق في مؤتمر القانون والبحار لمجموعة (جي – 77G) حيث كان الخروج بصيغة واحدة هو السبيل الوحيد للوصول إلى إجماع بين عدد كبير من الدول المختلفة بمصالح مختلفة جدا. وفي مفاوضات السلفادور كان يتشاور مع الطرفين حول كل موضوع ثم يخرج بصيغة أولية يعرضها للنقاش مع الطرفين كل على حدة ويراجعها في ضوء ملاحظات كل منهما، عوضا عن مناقشة النص على مائدة المفاوضات نفسها. وكان مستشاره القانوني الفنزويلي يجلس إلى جانبه في كل جلسة أثناء المفاوضات للخروج بعدة صياغات مختلفة على حاسوبه المحمول (اللاب توب) ثم يعرضها للمناقشة مع دو سوتو "بينما المفاوضات تدندن"، كما قال. ثم يعرضون الصياغة للطرفين للموافقة عليها. ويقول هايسم موضحا، إن أهم دور يقوم به الطرف الثالث هو تحديدا "تقديم عروض ومقترحات تحت ظروف لا يمكن للأطراف الأخرى إطلاقا، ولا تسمح لنفسها أن تُري أنها تقبل، عرضها أو اقتراحها لأنها مقدّمَة من العدو، أو المساومة بمقترحاتهم أو أفكارهم".

وفي حالة عدم وجود طرف ثالث فالطريقة الأفضل لتفادي تزاحم النصوص أن يتقدم الطرفان بمقترحاتهم شفويا ثم يتولى أحمد المفاوضين انتقاء النقاط التي يتفق عليها الطرفان حتى يتسنى تهذيب نص واحد بصورة أفضل. في أيرلندا الشمالية لجأنا إلى ما يسمى "الورقات الملائكية"، أي ورقات غير رسمية يمكن تقديمها بدون أن يتبنى أحد من الطرفين المسؤولية عن صياغتها وكأنها نزلت من السماء. بهذه الطريقة يستطيع الطرفان أن يصلا إلى نص مشترك يكون هو محور النقاش، والنقاط والجمل غير المتفق عليها يمكن أن توضع بين قوسين أو تترك فراغات للأمور التي يمكن أن تضاف في وقت لاحق. ومن الخطأ المزمن أن

يسمح المرء للأفكار التي يعارضها بشدة أن تسجل على الورق، والسبب أنها إذا حصل ودونت فسيكون من الصعب التخلص منها أو شطبها فيما بعد، ويصبح عليه أن يدفع ثمنا باهضا في مواقع أخرى، للتخلص منها بصورة كاملة. ووضع العروض الصعبة لفترة "في الثلاجة" لتأجيل التعامل معها يمكن أن ينجح، خاصة إذا كانت النية هي التخلي منها جميعا في مرحلة لاحقة من المفاوضات. وعند البدء في مرحلة الاتفاق على النصوص هنالك منطق صلب للعملية تصعب مقاومته. فهو كالصعود بالسلم الكهربائي؛ إذا صعدت تعذر عليك الرجوع إلى الخلف. ونادرا ما تدخل الجماعات المسلحة والحكومات مفاوضات تكون نيتها الوصول إلى مكان هو الذي تقصده في النهاية، ولكن زخم المحادثات يمكن أن يأخذهم إلى نهايات غير متوقعة.

الكلمات هي عملة المفاوضات، ولربما رفض أحد الطرفين أو الآخر عرضا بسبب الطريقة التي صيغ بها وليس لفحواه أو موضوعه. كتب اثنان من مفاوضي حركة تحرير أتشيه (جي أيه أم) بأندونيسيا يقولان: "إذا كانت عبارتا 'الاستقلال' و'الاستفتاء' محظورتين عند أندونيسيا، فإن مصطلح 'الاستقلال الذاتي' هو ما يثر حساسيتنا، وهو يمثل بالنسبة لنا نظاما مكروها للظلم البغيض وللحصانة ضد القتل والاغتصاب والاختفاء القسري والمذابح وغيرها من الجرائم الوحشية". ولكنهم كانوا على استعداد للتعامل مع تعبير "حكومة ذاتيه لإقليم أتشيه" لأنه كان "مصطلحا يسمح لوفدنا أن يجازف للدخول في فضاءات أخرى في العلاقات مع أندونيسيا بدون قبول قانون الحكم الذاتي الظالم". فتعبير الحكومة الذاتية كان، من زوايا عديدة، مطابقا لتعبير الحكم الذاتي ولكن بدون الإيحاءات البغيضة.

ولهذا السبب بالذات، وهو أهمية الكلمات والعبارات في المفاوضات، صار من الأهمية بمكان كسب السيطرة على القلم. حرَص الحزب الشيوعي في جنوب أفريقيا بصورة صارمة على أنهم هم الذين يتولون جميع مهام الكتابة والتدوين في المفاوضات بما جعلهم المسؤولين على تحضير وإعداد الصياغات الأولى لجميع الاتفاقيات. فالمفاوض الناجح يحتاج لعقل فطن بإمكانه أن ينتبه بسرعة لأي فخ

محتمل يدسه الطرف الآخر في تعبير بريء ظاهريا، وأن يصيغ عرضا مقابلا قد لا يختلف كثيرا عن عباراته ولكنه مختلف في جوهره وفحواه. أي أن المفاوضات، في معنى من معانيها، هي لعبة سرعة البديهة، ومن المثير حقا مدى مهارة الإرهابيين فيها في أغلب الأحيان. أغلب وقت مفاوضات أيرلندا الشمالية أستُغرق في اقتراح صياغات لبيانات الجيش الجمهوري من قبل الحكومة، ولكن يظهر أن المجلس العسكري التابع للجيش الجمهوري (آي آر أيه) يغص بعلماء الألفاظ واللغة. فكلما قدمنا اقتراحا في لغة إنجليزية واضحة، يعودوا إلينا بمقالة إنشاء معقدة بتعابير ملتوية محشوة حشوا في أطنان من الجمل الشرطية والاشتراطية. إيغويغورين يروي قصة شبيهة في مناقشاته مع 'جورج'، ممثل الحكومة الإسبانية، فيما يتعلق بصياغة بيانات حركة الباسك التحريرية (إيتا). فكان إيغويغورين يبحث عن تعبيرات يفهمها الجمهور على أنها ترسم خطوات كبيرة إلى الأمام بينما كان جورج راغبا في الاستغناء عنهم. ويقول إيغويغورين أن الموقفين أصبحا في سجال بين تعبير جورج أن "حق شعب الباسك في اتخاذ القرار" واقتراح إيغويغورين حول "احترام القرار" الذي يرضاه شعب الباسك. فبالنسبة للشخص العادي ليس هناك فارق يميز بين هذين التعبيرين، ولكن أحدهما كان مقبولا بحكم الدستور الإسباني بينما الآخر غير مقبول. وأصر إيغويغورين على صياغة تتمشى مع القوانين المعمول بها في إسبانيا بينما كانت نية (إيتا)، بطبيعة الحال، هي تغيير القوانين والدستور. وتصل معركة الكلمات والتعبيرات أحيانا إلى حد الطوطمية، وغالبا ما يكون موقف الحكومة أسوء من موقف الجماعة المقابلة. ففي أيرلندا الشمالية، أصرت شين فين أن تبحث موضوع 'نزع السلاح' بينما أصرت الحكومة البريطانية أن تناقش موضوع 'تطبيع الوضع الأمني'، رغم أن الموضوع واحد.

الطريقة الوحيدة لإحراز تقدم سريع في الصياغات هي عبر مفاوضات مكثفة بدلا من اجتماعات خاملة ومتقطعة. يلاحظ الكاردينال ريشيليو Cardinal Richelieu في كتابه 'الميثاق السياسي' *Political Testament* أن "المفاوضات المهمة يجب ألا تقطع للحظة واحدة. ومن الضروري أن يتابع المرء

المهمة التي أخذها على عاتقه ببرنامج متواصل وعمل منظم بحيث لا يتوقف أبدا عن العمل بذكاء وفطنة وبراعة، ولا يصبح غير مبال ولا متذبذبا ولا متـــرددا". بلا شك تحتاج الجماعات المسلحة إلى وقت كاف للتشاور مع مؤيديهم، وهذا صعب لوجودهم في أعماق الغابات أو تحت الأرض، ولكن إذا طالت فتـــرات الانقطاع فهناك احتمال أكبر أن يكون مآل المفاوضات الفشل.

لكي يقطع المرء خطوات حقيقة على طريق المفاوضات لا بد أن يلجأ مـــا أطلق عليه المتفاوضون في أيرلندا الشمالية اسم "الإسكان الدافئ" وهـــو وضـــع جميع المتفاوضين في مكان ناء لا يغادرونه إلا وقد وصلوا إلى اتفـــاق. ويقـــول مايكل يونج: "السر هو أن نأخذهم بعيدا عن مسرح الأحداث، حيث الكـــل يرفع صوته ليسكت الآخرين، وحيث وسائل الإعلام تلتقط كل شيء، وحيث كل صغيرة وكبيرة تُشرّح تشريحا". في عام 1995 ريتشارد هولبروك أخذ جميع أطراف النزاع في بوسنيا إلى قاعدة جوية في دايتون بولاية أوهايو. وقد وصـــف ذلك بأنه "وسيلة الانفجار العظيم للتفاوض، وهي حجز الجميع حتى يتوصـــلوا إلى اتفاق". لم يسمح لأي من الطرفين أن يغادر المكان، واستمر المتفاوضون في العمل لمدة ثمانية وأربعين ساعة بدون نوم حتى الجلسة الأخيرة. ولكنـــه يقـــدم النصيحة التالية: "أقول لمن يفكر تكرار تجربة دايتون عليه أن يحذر. فهـــي لعبـــة مشي على الحبال بدون شبكة نجاة. هناك ترتيبات مسبقة كثيرة لا بد منها قبـــل أن يجازف المرء ويقفز في دائرة إما كل شيء أو لا شيء. فالمكان يجب أن يكون ممتازا. الأهداف يجب أن تكون واضحة. دولة واحدة مضيفة تتحكم في كـــل شيء. وإن كان في هذا خطر على الدولة المضيفة التي تضع سمعتها وهيبتها على المقصلة. فنتائج الفشل ضخمة. أما إذا كانت الظروف مواتية فإن دايتون يمكـــن أن تأتي بنتائج دراماتيكية مثيرة".

كل المفاوضات تقريبا لا بد أن تمر بهذه المرحلة. الوسيط بـــين الســـودان والسودان الجنوبـــي كان لازارو سامبيو Lazaro Sumbeiywo، مسيحي متدين وجنرال من كينيا، عينه الرئيس موي Moi. أمضي سامبيو ســـنوات يســـتمع لشكاوى وآلام الجانبين، وفي عام 2004 كاد يوشك أن يحقق إنجازا مثيرا. ولكن

نائب الرئيس السوداني على عثمان طه هدد بالانسحاب من المحادثات قائلا أنـــه لم يبق شيء للنقاش، واقم قائد السودان الجنوبـــي جون غارانغ John Garang بأنه رجل ليس فيه أي معقولية إطلاقا. لقد سبق وأن شاهدَ سامبيو هذا النـــوع من التحدي الذي يدفع بالأمور إلى حافة الهاوية عندما يحزم أحد الطرفين حقائبه ويرسل بها إلى ساحة الفندق معلنا استعداده للمغادرة. ولكنه سرعان ما يرجـــع إلى مائدة المفاوضات. ولكن يبدو أن على عثمان طه كان جادا هذه المرة. لقـــد سمح لطائرته بالهبوط في المطار. وألمّ بسامبيو وأعوانه اليأس. فلجأوا إلى استخدام أي قناة لتوسط، وأخيرا أقنعوا وزير الخارجية الأمريكي، كولن باول، ليتحدث للطرفين. نجحت الخطة، ولكنه لم يتمكن من إقناعهم بالوصول إلى اتفاق فقـــرر نقل المفاوضين من رفاهة فندق الإنتركونتيننتال في نيروبـــي، عاصمة كينيا، إلى مركز تدريب تابع للمصرف التجاري يقع في منطقة ريفية خارج المدينة حيـــث نزلوا في ثلاثة مباني خرسانية كبيرة بنيت بعد الحرب حول ساحة دائرية لما يشبه الأكاديمية العسكرية. وصف المشاركون المكان بأن "سجن مفتوح"، وهذه هي الفكرة تماما. لم يسمح للصحافة بالوصول إلى أي نقطة بالقرب من المكان. هذه النقلة هيأت لباول أن يحرك المفاوضات إلى الأمام وتمكن الجانبان من الوصل إلى اتفاق نهائي في يناير/كانون الثاني، وإنهاء صراع حصد مليوني نسمه وتســبب في ملايين الآخرين من اللاجئين.

يقول إسوهو وتوللي: "إن حسن اختيار مكان الاجتماع يكون لـــه أثـــر إيجابـــي كبير على بناء الثقة. إن توفير بيئة مريحة يكون في الغالب من شـــأنه أن ينتج محادثات صادقة. ولذا، ففي عدة حالات، كلما كان المكان أقل رسميات، كلما يكون المشاركون مهيئين للدخول في المفاوضات". في الجلســـات الأولى للمحادثات في سبتمبر/أيلول 2002 بين حكومة سريلانكا ونمور التاميل كـــان الوفدان يتناولان الطعام على مائدتين منفصلتين في المطعم ويتفادى بعضهم بعضا في الاستراحات. ولكن هذا الوضع تغير مع استمرار المفاوضات. وقد عبر أحد المشاركين فقال: "مع حلول موعد اجتماع برلين (في فبراير/شباط 2003) كانوا على 'مستوى الأصدقاء الأحبة' بل خرجوا في المساء للأكـــل ســـوية خـــارج

الفندق. ومع الدورة السابعة كنا نشترك في حمامات الجاكوزي معا". فالتخلص من الرسميات والاختلاط المفتوح أمر ضروري إذا كان الهدف بناء ألفة ووئام بين الطرفين والتقدم في المفاوضات. ولكن على الطرف الآخر إذا بدى أن الجانبين مستمتعان بالعلاقة بينهما أكثر من اللازم، وتصبح جلسات المفاوضات كأنها حفلات على حساب السفارة ونخب الشامبانيا، فهذا قد ينفر بعض اتباع أحد الفريقين أو الآخر، لأنهم يرون المفاوضات عملية حياة أو موت.

مع سير المحادثات ودخول الوفدين في مفاوضات رسمية، فالحقيقة الحوار لم يعد، بشكل عام، سرا، ولكن ما يزال من الضروري أن تظل تفاصيل المحادثات في طي الكتمان. هناك شد وجذب بين مطلب الشفافية الطبيعي وبين فرص التقدم بالمفاوضات. بدأ الرئيس الأمريكي وودرو ويلسن حياته بطلا من أبطال الأنفتاح. في نقاطه "الأربعة عشرة" التي وضعها في المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الأولى حين دعا إلى فكرة أن تكون "العهود المفتوحة عهودا يتوصل إليها بحرية". أخذت الصحافة الأمريكية هذا الوعد حرفيا، وعندما وصل الوفد الأمريكي إلى باريس لمفاوضات السلام طالب الصحفيون بالاطلاع على اجتماعات المجلس الأعلى للقادة المتفاوضين على معاهدة فرساي. وعلق جورج كليمنصو George Clemenceau، زعيم الحزب الراديكالي الفرنسي ورئيس وزراء فرنسا 1906-1909، على ذلك فقال: "سيكون انتحارا محققا" أن نسمح لهم بالدخول. وقال لويد جورج، وهو شخصية سياسية بريطانية من حزب الأحرار، إن ذلك لو تم فإن مؤتمر السلام سيستمر إلى الأبد. وفي نهاية المطاف وافق ويلسون زملاءه وبقي الصحفيون خارج المؤتمر. أما الصحفيون فقد اشتكوا من سرية المداولات واتهموا ويلسن بأنه منافق وهددوا بمغادرة باريس والعودة إلى الولايات المتحدة.

المفاوضات تشبه تحضير النقانق: فهي صناعة غير طيبة ومن الأفضل ممارستها بعيدا عن الناس. نيل برنارد، من جنوب أفريقيا، يقول: "لا يمكنك أن تتفاوض على مرأى ومسمع من الناس لأنك في خطر إن لم تحفظ ماء وجهك". فمداولات لجنة جنوب أفريقيا الديمقراطية (أوديسا) في دورتها الثانية كانت

تحكمها قواعد الكتمان، وقال أحد أمنائها، وهو تيونس إلــوف Theuns Eloff "إنك لا تستطيع أن تتفاوض حول مستقبل بلد أمام أعين وســائل الإعــلام". ويعتقد هنري كيسنجر، وزير الخارجية الأمريكي سابقا، أن الكتمان ضــروري في التفاوض لأنه يسمح لك بأن تتفادى الضغوط الداخلية ويحميك من أجنــدة وسائل الإعلام ومنتقديك. ويوافقه سلفه (روحيا على الأقل) الكاردينال ريشيليو في أن "الكتمان هو أول الأمور الضرورية في شؤون الدولة".

لا يمكن تجاهل الصحافة بطبيعة الحال. والتعامل مع وسائل الإعلام جانب هام لضمان نجاح المفاوضات. هناك حاجة إلى التوصل إلى تفاهم بين الطــرفين المتفاوضين بألا يتحدث أيّ منهما علنا عن مجرى المفاوضات، ولكــن عليهمــا الاتفاق كذلك على ما يمكن التصريح به للإعلام. بينما يكون غياب بيان متفق عليه قد يؤدي إلى تكهنات الإعلام وتخرصاته، فإعداد نص هــذا البيــان قــد يستغرق وقتا وجهدا لا يستهان بهما. والأسوأ من ذلك أن أي اختلافات ولــو طفيفة بين بيان وبيان آخر يصدر بعده قد تفسر على أنها تطور هام في المحادثات. ففي إحدى جلسات المحادثات حول هونج كونج عام 1984 اعترض الصــينيون على إدراج كلمة "بنّاء" التي ظهرت في كل البيانات السابقة بعد كلمة "حوار". نتيجة لقبول ذلك الاعتراض سوق الأسهم والأوراق المالية تراجع 5% خــلال الساعتين التاليتين.

لا مفر من أن أحد الطرفين سوف يسرب أخبارا ومعلومــات للإعــلام طمعا في كسب ميزات لصالحه. فأثناء مفاوضات كاغوان ســربت القــوات المسلحة الثورية الكولومبية (أف أيه آر سي) معلومات عدة مرات. ففي شهر يوليو/تموز 2000 تبادل الطرفان عروضا لوقف إطلاق النار في مظاريف مغلقة المفروض أنها تظل سرية، ولكن القوات المسلحة الثورية سربت عرضها مباشرة وبذلك قضت على أي احتمال لوقف إطلاق النار. ومن الجدير بالملاحظة في محادثات أوسلو حول الشرق الأوسط أنه لم تكن هناك أي تسريبات حتى ثلاثة أيام قبل إعلان الاتفاق. ويري أيير هرشفيلد أن الســبب في الكميــة الهائلــة للتسريبات في الأيام الأخيرة من المفاوضات هو حرص الأشخاص المشــاركين

على أن يكون لهم شخصيا شرف نجاح تلك المفاوضات. ويقول أهتيساري، رئيس فنلندا السابق، أنه "من الممكن أن تنجح إذا كان الأطراف أنفسهم منضبطين. ففي هذه الحالة – محادثات هيلسنكي حول أتشيه في أندونيسيا – تصرف الجميع بشكل جيدا. لم يكن هناك "تسريب" معلومات وكان هناك قدر من الجدية واحترام الموقف. وهذا التحفظ هو، قبل كل شيء، إشارة إلى ما إذا كانت المفاوضات تعتبر فعلا وسيلة إلى غاية أكبر (وهي القضاء على العنف والخروج بنتيجة سلمية) أم أنها مجرد أداة للمزايدة وتسجيل النقاط ومزيد من التقاتل".

أحيانا يصبح أحد القادة السياسيين مهووسا بالتغطية الإعلامية، ولهذا تبعات كارثية. جعل رئيس كولومبيا، أندريه باسترانا، من نفسه متحدثا رسميا عن محادثات كاغوان، يقدم تعليقات حية عن تطور المفاوضات ساعة بعد ساعة. وكان يصدر بيانات حية وهو في انتظار العروض والاقتراحات من القوات المسلحة الثورية الكولومبية (أف أيه آر سي). ووصف زملاء وزير خارجية سريلانكا، جي أل بيريس GL Peiris، علاقته بوسائل الإعلام على أنها "تشبه الإدمان". كان المفروض أن يكون أول اجتماع بين الحكومة ونمور التاميل في قاعدة بحرية في تايلندا، لقاء خاصا ومغلقا، إلا أن بيريس أصر على السفر إلى مدينة قريبة ليتحدث للصحفيين. فإذا كان المرء يهتم لهذا الحد بالتعامل اليومي مع الإعلام، فمن المستحيل أن يكون مفاوضا فعالا.

من الطبيعي الاتصال بالناس وإعطاؤهم فكرة عما يجري في المحادثات من خلال البيانات الصحفية أمر ضروري، ولكن من الضروري أيضا أن تدرك أنك لا تخاطب جمهور الناخبين فقط وإنما أعضاء الجماعة المسلحة كذلك. فإن حاولت أن تستعرض قوتك تجاه الإرهابيين، فلربما طمأنت جمهورك المحلي ولكنك في الوقت نفسه تكون قد أرسلت إشارة للمجموعة المسلحة بأنك غير جاد في الوصول إلى اتفاق وربما فقدوا الأمل. من المفيد التحدث بصفة خاصة مع الجماعة المسلحة وتوضيح الأسباب التي أدت إلى الإدلاء بالمعلومات وما هو الهدف من ذلك حتى يمكن تفادي سوء الفهم الذي قد ينشأ. ومن المهم أخذ

الحذر من أن يصبح المرء رهينة كلامه وتصريحاته. في ديسمبر/كانون الأول 2006 في مقابلة صحفية مع رئيس وزراء إسبانيا ثاباتيرو قال فيها أنه يعتقد "أننا في بداية النهاية بالنسبة لحركة الباسك التحريرية (إيتا)". في اليوم التالي نفذت (إيتا) تفجيرا في مطار مدريد دمر عملية السلام.

من المهم أن كل جانب من جوانب البناء الهيكلي للمفاوضات يكون متقنا وسليما، ولكن، والحق يقال، المحادثات الرسمية نادرا ما تأتي بنتائج طيبة. إن المفاوضات عادة لا تجري أبدا عبر مائدة المفاوضات، لأن حتى ذلك المنبر المحدود مكشوف أكثر من اللازم بالنسبة للمفاوضين لكي يكشفوا عن نياهم الحقيقية. وغالب الحال يحرز التقدم من خلال مجموعات صغيرة في جلسات غير رسمية أو تمشيا أثناء الاستراحات في الحدائق وبين الأشجار، في أحاديث جانبية هادئة بين أفراد يثق بعضهم في بعض. فالفكرة الأساسية التي قام عليها هيكل الاتفاق الذي أبرم بين جبهة تحرير مورو الإسلامية والحكومة في الفليبين لم تبرز وتتداول على مائدة المفاوضات ولكنها جاءت في حديث عابر بين اثنين من المتفاوضين على متن رحلة بالطائرة من مانيلا إلى كوتاباتو في جزيرة ميندناناوا. حدد، منذ البداية، فيجلوبوس وزملاؤه الرجلين الاثنين الجنرال فارغاس ودافيد إسكوبار غاليندو، الجالسين في المقاعد الخلفية للوفد الحكومي، كرجلين يمكن التعامل معهما. ثم قرروا أن يعملوا سويا لإنهاء الصفقة معهما. وقال الرئيس كريستاني أن غاليندو كان "فيلسوفا، وعنده تفاؤل قوي، وشخص يرفع المعنويات" بينما اختير الجنرال فارغاس "لطمأنة القوات المسلحة وإشعارهم بأهم لن يخدعوا على مائدة المفاوضات". في يوليو/تموز 1993 أضيف للوفد الإسرائيلي في أوسلو جول سينجر Joel Singer، وهو محام في واشنطن وكان محامٍ الحكومة الإسرائيلية في محادثات كامب دافيد الأصلية مع جيمي كارتر عام 1978. جول سينجر تقدم إلى أبي علاء بعشرين سؤالا تتعلق بالنص الذي أتفق عليه مع هيرشفيلد، وبناءً على إجاباته أعاد صياغة الاتفاق. انزعج الوفد الفلسطيني، بداية الأمر، للأسئلة، ثم أصيبوا بحالة استياء عميقة لنص الاتفاق المعدل. إلا أنه بعد أن اقترح الدبلوماسي ورئيس الوفد الإسرائيلي، يوري سافير، استراحة رافق خلالها أبا

علاء في مشوار طويل سيرا على الأقدام بين الأشجار، استطاعا أن يعيدا بناء الثقة بينهما ووافق أبو علاء أن يناقشوا النص المعدل سطرا سطرا.

قنوات الاتصال الخلفية مهمة للغاية بمجرد ما تنطلق المفاوضات الرسمية كأهميتها في المراحل الابتدائية، وتعتمد أهمية تفعيلها على الثقة الشخصية بين الأفراد. فقد أثبتت العلاقة أهميتها بين سيرل رامافوزا ورولف ماير عندما تعطلت الاتصالات الرسمية في جنوب أفريقيا بين المؤتمر الوطني الأفريقي والحزب الوطني عام 1992. أول لقاء للرجلين كان في صالة المغادرة بمطار هيثرو في لندن عام 1989. كانا على طرفي النزاع في إضراب عمال المناجم في جنوب أفريقيا. كان رامافوزا سكرتير عام الاتحاد الوطني لعمال المناجم، بينما كان ماير نائبا لوزير الشرطة. وكما جاء على لسان ماير إن رامافوزا "قاد أكبر إضراب في التاريخ. وكانت مهمتي بحكم وظيفتي كنائب لوزير الشرطة أن أسيطر على الإضراب". وفي هيثرو اتفقا على التحدث معا، ولكن لم تتكون الثقة بينهما إلا نتيجة لقاء جمعهما صدفة في ربيع عام 1991. لبىّ ماير دعوة من صديق له يدعى سيدني فرانكيل Sidney Frankel، عميل أسهم وسندات من مدينة جوهانزبيرغ، لقضاء عطلة أسبوعية لصيد السمك في مزرعة هافلوك تراوت Havelock Trout على بعد 170 ميلا عن المدينة. وكان فرانكيل قد دعا رامافوزا وزوجته كذلك ولكن لم يخبر رامافوزا بأن ماير من المدعوين إلا قبيل وصول الوزير، مما أزعج رامافوزا بعض الشيء. وأثناء نزول طائرة مروحية بماير وابنه في المطار، كانت ابنة فرانكيل قد وقعت وهي تلعب في الحديقة فكسرت ذراعها فأخذها فرانكيل وأسرته إلى المستشفى فورا. ظل ابن ماير يلح على أبيه أن يأخذه للصيد، ولكن ماير لا يجيد تلك الهواية. وهنا عرض رامافوزا، وهو صياد ماهر، خدماته ليريهما أسرار المهنة. وبينما يحاول ماير أن يرمي صنارته إذا بها تدخل بعمق في أحد أصابعه. رجعوا إلى البيت حيث زوجة رامافوزا، الممرضة المتمرسة، حاولت إخراج الصنارة من إصبع ماير. بعد أكثر من ساعة، وبينما أخذت تظهر على ماير علامات الإغماء، أعلن رامافوزا أن هناك طريقة واحدة لحل المعضل. قدم لماير كأسا من الويسكي وأمسك بكماشة، وأحكم قبضته على الصنارة ثم

سحبها بقوة. بعد عشرة أشهر تولى ماير وزارة تطوير الدستور ورئاسة فريق الحكومة في المفاوضات، وتمكن هو ورامافوزا، الذي كان سكرتير عام المؤتمر الوطني الأفريقي وكبير مفاوضيه، أن يؤسسا قناة خلفية لعملة السلام.

في يونيو 1992 أكثر من أربعين شخصا (من ضمنهم طفل عمره تسعة أشهر) لقوا حتفهم ذبحا في بوباتونج Boipatong، إحدى مدن السود جنوب جوهانزبيرج. وتجاوبا مع ذلك أعلن نلسون مانديلا أن المؤتمر الوطني الأفريقي سيقطع المحادثات رسميا مع الحكومة. ووضع مانديلا قائمة بأربعة عشر مطلبا على الحكومة أن تلبيهم قبل الاستئناف في المحادثات. كان ماير جالسا في مكتبه وأصابته صدمة عندما شاهد إعلان مانديلا على التلفزيون. بعد عشر دقائق رن جرس التلفون، رفع السماعة وإذا برامافوزا على الطرف الآخر. "ماذا تعملون؟ ما الذي دهاكم؟" صاح ماير. وأجاب رامافوزا: "متى يمكن أن نلتقي ونتكلم؟". خلال فترة تعليق المحادثات كان دو كليرك ومانديلا لا يتخاطبان إلا عن طريق الرسائل، ونغمة الرسائل دائما ما تكون ذات نتائج عكسية. أما الأمور الجوهرية كان يبت فيها بالتفاوض بين ماير ورامافوزا، عبر ما أصبح يعرف باسم "**القناة**". لم يكونا يرغبان أن يعلم الناس أنهما يتفاوضان ولذلك لم يستطيعا الاجتماع في مركز المؤتمر الوطني الأفريقي ولا في أي مبنى للحكومة. كما اتفقا على عدم اللقاء في نفس المكان أكثر من مرة واحدة. فكانا في البداية يلتقيان في بيوت تابعة لهيئة الاستخبارات الوطنية، وأخيرا في غرف الفنادق. بعد أكثر من أربعين لقاء ومفاوضات بين يونيو/حزيران وسبتمبر/أيلول توصلا إلى صيغة نهائية لما سمي "**سجل التفاهم**" Record of Understanding الذي وضع المحادثات على السكة من جديد. وحسب ما يقول ماير، فإن الثقة إلى نمت بينه وبين رامافوزا كانت "ضرورية للوصول إلى اتفاق على كيفية التحرك إلى الأمام وأثناء عملية بناء الدستور كذلك.

بينما كان بناء هيكل المفاوضات أمر هام للغاية، هناك أيضا وسائل صعبة المنال للتفاوض قد تكون الفاصل بين النجاح والإخفاق. في تقدير الأستاذ منوكين، يعد نلسون مانديلا "أعظم مفاوضي القرن العشرين". فهو "يملك الصبر

والتماسك. فعند تفاوضه مع خصومه كان مانديلا يحترمهم ولكن بدون تملق أو نفاق. وكان مطلبه الاحترام في المقابل". كان عمليا واقعيا، "وكان على استعداد لتقديم تنازلات، ولكن ليس في الأمور الهامة بالنسبة لـه. فبالنسبة للمبادئ السياسية الأساسية، فهو لا يتزحزح قيد أنملة". ويعتقد منوكين أن مانديلا كان مقنعا لأنه "كان مفاوضا يمكن أن يتنازل له الخصم وفي الوقت نفسه يحتفظ باحترام نفسه. وبذل مانيلا جهدا كبيرا لبناء صلة إنسانية شخصية مع زعماء الأفريكانا والمحافظة عليها لأن تجاربهم ومواقفهم في الحياة كانت مختلفة تماما عن تجاربه ومواقفه. فهم الذين رأوا في مانديلا رجلا يؤمن بالتصالح العرقي، ورأوا أن تصوره لجنوب أفريقيا كان يضمهم أيضا".

يقول أف دبليو ديكليرك عن مانديلا أنه "عرفه مستمعا ممتازا، ورجل بعقل قانوني ونماذج للتفكير تأخذ كل الحقائق في الحسبان. فهو يقدم لك، متحدثا في العادة، إجابات معقولة وردود أفعال لطلبيات واقتراحات. يبحث دائما عن الحلول. عندما يتكلم ضد بعض الأفكار فيقول: 'وهناك آمر آخر يمكن أخذه في الاعتبار'. ولذا فهو مفاوض جيد. وسرعان ما عرفته أيضا كسياسي ماهر. وعرفته كإنسان لديه القدرة الرائعة أن يستولي على الاهتمام. إنه مروّج جيد جدا. لديه قدرات هائلة في العلاقات العامة وهي جزء من سجيته. يملك قدرا كبيرا من الجاذبية الشخصية. وكلما طالت المعرفة بيني وبينه، كلما صرت أعرف جزءا آخر عن شخصيته.. وهو أنه قادر على أن يكون مستعصيا للغاية في بعض الأحيان. إنه ينحو أحيانا، من وجهة نظري، إلى العاطفية المفرطة. فبإمكانه أن يفقد صوابه وأن ويصبح عنيفا وأن يكون شخصية أخرى تماما". لقد كان مانديلا مفاوضا ناجحا ليس لكونه أيقونة عالمية بل لأنه أيضا سياسي ممتاز له قدرة على التأثير على الآخرين... فعرف متى يرخي ومتى يقبض. كل هذه مهارات عملية لا يمكن الاستغناء عليها.

ربما كان واضحا أن الحلول الوسط هي لب المفاوضات الناجحة. فمصطلح الحل الوسط اصبح رديفا للضعف وانعدام المبادئ. في عام 1998 كان عليّ أن أنظم محادثات غير مباشرة بين جماعة أورنج أوردر Orange Order،

وهو مجموعة اتحادية مغالية في التشدد، وسكان شارع غارفاخي Garvaghy Road القوميين الأيرلنديين حول القضية المستعصية، وهي المسيرة السنوية للأورنج أوردر عبر هذا الشارع الكاثوليكي الخاص، والذي تسبب في أحداث عنف حقيقية سنة بعد سنة. بدأتُ بالاتصال بمجموعة أورنج أوردر الذين شرحوا لي موقفهم. فذهبت في ممر إلى الغرفة حيث تجمع سكان غارفاخي لأطلعهم على ما قاله جماعة أورنج أوردر. وكما هو متوقع فقد رفضوا موقف الأورنج أوردر وتقدموا بموقفهم هم. أخذت العرض وذهبت عبر نفس الممر إلى حيث الأورنج أوردر، وشرحت موقف السكان وطرحت عدة حلول وسط قد تفتح المجال للمفاوضات. كان رد فعلهم البغض والازدراء وقالوا: "كلا". يبدو، كما قالوا، أنني لم أفهم ما قالوا لي قبل ذلك. لقد سبق وأن بينوا لي موقفهم. ولكنني حاولت أن أشرح أن الفكرة عبارة عن أخذ وعطاء للوصول إلى حل وسط، ولكن من وجهة نظرهم كان التنازل موقفا غير أخلاقي. لقد وضحوا لي موقفهم بأمانة وتغييره يعني أنهم كانوا كاذبين.

فاختيار الحل الوسط لا يعني التنازل عن الموقف الأساسي، ولكنه يعني محاولة فهم مصالح الجانب الآخر والنظر في ما أذا كان من الممكن الأخذ بها دون التضحية بموقفك أنت. يقول خبير المفاوضات غافين كينيدي إن "التفاوض له علاقة بالتجارة، وهذا يميزه عن أشكال أخرى لصناعة القرار. ففي التفاوض الجانب التجاري واضح جدا: أي أنا أحصل على شيء مما أريد، وأنت تحصل على شيء مما تريد". ويعتقد هنري كيسنجر أن المفاوضات كلها تختص "بالتنازلات التجارية". ولكي تنجح فلا بد من تحقيق "توازن التنازلات المتبادلة".

في كتابهما، ذي النفوذ الواسع الذي صدر عام 1981 بعنوان 'الطريق إلى.. نعم' Getting to Yes، يحث المؤلفان ويليام أوري William Ury وروجر فيشر Roger Fisher المتفاوضين على التمييز بين المواقف والمصالح. المواقف تؤدي إلى انسداد، ولكن إذا تجاوزت المواقف إلى المصالح التي تحرك تلك المصالح، عندها تصل إلى حلول. "فموقفك هو قرارك الذي اتخذت، ومصلحتك هي التي أدت بك إلى ذلك القرار". والتقريب بين المصالح أسهل بكثير من مقايضة المواقف،

لأن "لكل مصلحة في العادة يوجد مواقف متعددة تلبـــي تلـــك المصـــلحة".
ويلحان على المتفاوضين أن يضعوا أنفسهم في موقع الجانب الآخر. "فلا يكفي أن تدرك أنه يرى الأمور بصورة مختلفة. إن أردت أن تؤثر على الطرف الآخر، فإنك تحتاج إلى أن تستوعب تلك الطاقة التي تمثلها وجهة نظره وكأنك هو، قلبا وقالبا.. وعليك أن تحس بالقوة العاطفية إلى تجعله يؤمن بتلك النظرة". إنه مـــن الغريب حقا أن يردد الناس هذه المقولة ولكن قليلا منهم من يطبقونهـــا وهـــي: لكي تحقق ما تريد فإن عليك أن تكون مستعدا لأن تستمع ولا تكتفـــي بـــأن تنصت فقط. لا بد أن يلتقط المرء إيحاءات وظلال ما يقوله الطرف الآخر وما لا يقول، والفواصل التي تشير إلى ما يتفادى قوله. فإذا لم يركز الطرف الآخر الآن على فكرة ركز عليها سابقا، فهل معنى هذا أنه أستغنى عنها؟ ما هي الضـــغوط السياسية التي يتعرض لها؟ كيف بإمكانه أن يسوّق لحل وسط لمؤيديـــه، ومـــا مستوي النجاح المطلوب منه ليبرهن على أنه أهل للإطراء؟ إذا استطعت الإجابة على هذه الأسئلة فبإمكانك أن تستنتج ما الذي تستطيع عمله لمساعدة الطـــرف الآخر في تحقيق ما هو يصبو إليه.

أن تفهم ما يريده الطرف الآخر ليس كالاتفاق معه، ولكنـــه يمكـــن أن يساعد في إيجاد حلول يقبل بها الطرفان. يقول هايسوم: "أكبر عقبـــة معرقلـــة للمفاوضات الفعالة هو الخلط في الفهم ما بين المصالح والمواقف. فالأطراف غالبا ما تتجاهل المصالح والأهداف عند تحديد مواقفها. فيصبحوا مهووسين بالـــدفاع عن أفكارهم ومقترحاتهم (أي مواقفهم) التي هي في الواقع مجرد وسائل. وتـــبرز هذه المشكلة في الغالب بسبب أن شعارات الحملة أو الكفاح غالبا مـــا تكـــون لصيقة بالموقف أو التكتيك عوضا عن المصالح أو المبادئ الطويلة المدى". فعندما يواجهك موقف في المفاوضات فيجب عليك أن تسأل 'لماذا' ولا تســـأل عـــن 'ماذا'. فبدلا من الانزلاق في افتراضات حول سبب تبني الطرف الآخر لموقـــف ما، عليك أن تكتشف الأسباب التي من وراء ذلك. وعندما تفكر في المصـــالح فيجب ألا تفكر في مصالح أولئك الجالسين على المائدة بل مصالح آخرين أيضا، بما في ذلك الدول المجاورة.

عليك أن تقدم كل المستحيل لتسهيل العملية على شـــركائك المفاوضـــين للتوصل إلى اتفاق وأن تُقيم لهم جسورا للعودة عند التراجع من فوقها. وأفضـــل من ذلك، حاول أن تجعل من المفاوضات مشروعا مشتركا نحو تسوية مشـــاكل مشتركة بدلا من صدام عدواني يكسب فيه واحد من الطرفين فقـــط. شـــعر خسوس إغويغورن في مفاوضات (إيتا) بإسبانيا، أنـــه بعـــد فتـــرة اســـتحالت اجتماعاته مع 'جورج' إلى عمل مشترك أو تعاوني وكأنهما يبحثا عن مخـــرج إلى الأمام. ويقول هيرشفيلد وأبو غلاء أيضا أنهما شعرا وكأنهما يعملان معا نحـــو هدف واحد في أوسلو، علما بأن كلا منهما كان يســـعى لتحقيـــق مصـــالحة الوطنية. في البداية كانت التعليمات التي تصلهما تعليمات عامة و لم يكن مطلوبا منهما إتباعها حرفيا. وضعا في غرفة المفاوضات سلة للمهملات واتفقـــا علـــى رمي الأفكار التي لم يؤخذ بها فيها. وقال رون بوندك: "جلسنا حـــول مائـــدة مستديرة، بدلا من مائدة مستطيلة، كلما استطعنا. وكنا نعتبر أنفســـنا فريقـــا واحدا له هدف واحد، ممثلين مصالح فريقين، لكنهما مشتركين".

التفاوض مع جماعة مسلحة عملية تعارض وتضاد في النهاية وتفرض علـــى المشاركين تحقيق توازنا صعبا بين أن تكون متشددا أو تكون خصما سهلا. فأن تكون صارما فهذا يجعلك محبوبا لدى أنصارك وقد يكون كارثيا لبناء الثقة مـــع الطرف الآخر. وأن تكون سهلا رخوا يجعلك عرضة للاستغلال. وزير خارجية سريلانكا، جي أل بيريس، اتهم رئيس وزرائه بالوقوع في الفخ الثاني قـــائلا أن ويكريماسينج "كان مستعدا للتملق والاستسلام لبراباكاران (زعيم نمور التاميل). فكلما خرق وقف إطلاق النار رفضنا مواجهته وجها لوجه". وفي كولومبيا سمح الرئيس باسترانا لنفسه أن يظهر سهلا ضعيفا. فكلما حل الموعد النهائي سمـــح الرئيس لمنطقة نزع السلاح الواسعة التي تنازل عنها كي تظل كذلك من طرف واحد، دون أي تنازلات في المقابل من القوات المسلحة الثوريـــة الكولومبيـــة (أف أيه آر سي) *Fuerzas Armadas Revolucionarias de Colombia*. كـــان أمله أن ذلك سيزيد من حسن النوايا، ولكن كل ما حصل هو إقناع القـــوات الثورية بأنه ضعيف. وفي مساء يوم الموعد النهائي لإنهاء منطقة نزع الســـلاح في

يناير/كانون الثاني 2001 أعلن الرئيس باسترانا "أنه إذا كان مارولانـــدا (زعـــيم الثوار) يرغب في تمديد آخر للمنطقة الآمنة فعلية أن يأتي ويجلـــس إلى مائـــدة المفاوضات". وفي يوم الموعد النهائي بالتحديد مدد الرئيس موعد المنطقة الآمنـــة لمدة أربعة أيام أُخر مقابل اجتماع وجها لوجه مع مارولاندا. وكانت تلك أول مرة تصر فيها الحكومة على تنازل من القوات الثورية قبل تمديد موعد المنطقـــة الآمنة. انبثق الاجتماع عن اتفاق لوس بوزوس Los Pozos الذي التـــزم فيـــه الطرفان باستئناف الحوار، وتشكيل هيئة من شخصيات وطنية لدراسة خارطـــة الطريق، بالإضافة إلى اتفاقية إنسانية عن إطلاق سراح مرضى الجنود والمقاتلين، وكانت تلك من إنجازات عملية المفاوضات بأكملها.

على الطرف الآخر، أولئك الذين يتخذون موقفا متشددا باستمرار هم في العادة مفاوضون غير ناجحين في النهاية. إنهم عناصر هشة، وأن يكـــون هنـــاك اتفاق لا بد أن ينهار موقفهم في المراحل الأخيرة من المفاوضات، ممـــا يجعـــل الطرف الآخر في شك حول ما هو مطلبهم الأساسي. فهم يخشون إن دفعـــوا بالعملية - ولو بمقدار بسيط - فقد يؤدي هذا إلى انهيار أكبر لـــدى الطـــرف الآخر. ومن تجربتي الشخصية فإن من الأفضل قطع المطـــاردة في المفاوضـــات والوصول إلى الهدف الرئيسي بسرعة بدلا من أن تحاول التمســـك بالتنـــازلات لتعرضها فيما بعد. فإذا تبنيت هذا الموقف بوضوح وباستمرار، فسيفهم الـــذي يحاورك إشاراتك، وستكون لديه الرغبة بأن يسوى الموضوع بشكل أسرع.

إن إقناع الطرف المحاور بأنك لا تخادع امر صعب، ويمكن أن يســـاعد في وضع اللوم على رؤسائك الذين هم ليسوا في غرفة المفاوضات. ففـــي معظـــم المفاوضات، على كل الأحوال، ليس لديك الحرية الكاملة في اتخاذ القرار، وإنما عليك الرجوع إلى سلطة عليا للتشاور والإرشاد والتزود بالمعلومات. وقد كـــان جيري آدمز ومارتن ماغينيس يقولان بأنهما غير قادرين للتحرك إلى الأمـــام لأن المجلس العسكري Army Council للجيش الجمهوري لا يسمح لهما. وكانـــت مو مولام، وزيرة شؤون أيرلندا الشمالية في الحكومة البريطانية، تقول مازحـــة كلما أراد آدمز وماغينيس التشاور مع الجيش الجمهوري (آي آر أيه)، هو مجرد

أن يخرجا من الغرفة ويلقيا نظرة في المرآة ثم يعودا. ولكن واقع الحال كان معقدا أكثر من ذلك. كنت غالبا ما أشير إلى ذلك بمناورة 'الزوجة المتسلطة'، حيث يضع المرء تبعة العجز عن عمل أي شيء على 'زوجته' الذي أرغمته على ذلك... وكانت تلك المناورة هي إحدى الميزات التي استخدمها كل من تفاوض نيابة عن رئيسة الوزراء القوية، السيدة تاتشر. فالكل كان يدرك أنها امرأة تحركها العاطفة أحيانا، ولذا كان من الممكن تفسير أي غياب للمرونة كنتيجة لتعليماتها. وبالعكس من ذلك، فإن الضعف ربما كان قوة في المفاوضات. إذا كان موقفك السياسي ضعيفا، فإن الذين يحاورونك يعرفون أنك لست في وضع يهيؤك لإعطاء تنازلات أكثر دون أن تفقد وظيفتك، وعليهم أن يقبلوا بوجود حدود لما يمكنك أن تقدمه.

كونك تتفاوض مع بشر لهم مشاعر وعواطف يجب أن تكون أهم شيء تأخذه في اعتبارك في أسلوب إقبالك على المفاوضات. يقال المؤلفان يوري وفيشر: "أفضل أسلوب لدى بنجامين فرانكلن، الرئيس الأمريكي السابق، هو أن يستعير كتابا من أحد خصومه. هذا التصرف يكبر من قيمة المرء عند نفسه ويبث فيه شعور بالارتياح لعلمه أن فرانكلن مدين له بمعروف". الغريب أنك بتفضلك على شخص آخر يجعلك تثق فيه أكثر. اللقاءات العابرة والاختلاط غير الرسمي بين أفراد الطرفين تُسهم في خلق جو من شأنه أن يؤدي إلى اتفاق. يصف هولبروك ساعات الأكل واستراحات الشراب في محادثات البوسنة فيقول أن مايلوسوفيتش كان يشرب كثيرا دون أن يؤثر فيه الخمر. ولذا قرر هولبروك ألا يذهب للشراب إلا بعد التوصل إلى اتفاق. المفاوضون عن الجماعة المسلحة حساسون لأي استخفاف بهم أو تجاهل لهم، ومن المهم أن يريهم المرء الاحترام والأهمية. كتب زارتمان يقول: "الاحترام علاقة شخصية، وليس اعترافا بمكانة رفيعة، ويعبر عنه بواسطة إيماءات رسمية وتأدّب شخصي. فالمفاوض يحتاج إلى إن يكون مهتما ويظهر عليه الفهم والإدراك عند اتصاله بالممثلين الإرهابيين. والاحترام لا يعني التعاطف مع أهداف الإرهابيين وغاياتهم، أو حتى الاعتراف بشرعيتهم، ولكنه يعني تفهما حقيقيا إلى أين تعود أصولهم.. فكريا وعمليا".

إن المفاوضات هي مناسبات غالبا ما تكون مشحونة عاطفيـــا إلى أقصـــى الدرجات. يذكر يوري سافير الجلسات في أوسلو كانت على "مستوى عال من التوتر. كانت المواجهات غالبا قاسية.. والأزمات علـــى وشـــك الانفجـــار.. وأحيانا يحتدم التوتر فيما يشبه هستيريا الضحك. وكنا أحيانا نتدافع إلى درجـــة الغيظ. إن الانفجارات العاطفية في تلك الجلسات كانت حواجز لنا بين البغض والتعاطف". إن عملية التفاوض نفسها يمكن أن تساعد في بناء الثقـــة. يقـــول كارل ميلر Carl Miller من كينجز كوليج Kings College بجامعة لندن: "حيث أن الشرعية والثقة، بطبيعة الحال، هما صفتان ضروريتان من صـــفات الشـــريك المفاوض، فإنه يمكن تنميتهما من خـــلال المفاوضـــات نفســـها. وحيـــث أن الدبلوماسية تعتمد على تقاليد وقيم معينة، هي أيضا تعززهما، فهـــي مؤسســـة حضارية ومؤسسة للتحضر في الوقت نفسه".

لا شك أن المرء يسعى بكل ما يملك إلى أن يحمي المفاوضات ضد الغضب. يصف مارتن غريفيثس موقفا في يونيو/حزيران 2001 عندما كان يكبح جماحـــه حتى لا ينهال بالضرب على مفاوض الحكومة الأندونيسية حســـن ويراجـــودا Hassan Wirajuda. لم يتوقف ويراجودا عن إيجاد أسباب لرفض الموافقة علـــى الأجندة واهتدى أخيرا إلى حيلة معينة وهي نقطة نظام سخيفة. رفع غـــريفيثس يده وكان على وشك أن يلطمه، وإذا بنائبه أندرو مارشال، الجالس إلى جانبـــه، يصيح قائلا "لا تفعل" وترك غريفيثس يده لتقع على المادة. ويقول هولبروك أن في مفاوضات دايتون "كان التوتر العاطفي (الصياح) المتبادل نادرا جدا، علـــى غير ما يعتقد المراقبون، وكان في العموم متعمدا". وهذا يذكرني بجلســـة معينـــة مفعمة بحضور الأورنج أوردر في أيرلندا الشمالية في مكتب مو مولام في كاسل بلدينج Castle Building بستورمانت Stormont مبنى البرلمان الأيرلندي. أحـــد رجال الأورينج احتد وبدأ يهاجم رئيس وزراء بريطانيا، توني بلير. علـــى غـــير عادتي، قفزت من مكاني ومسكت بتلابيب ملابسه وكنت علـــى وشـــك أن ألطمه، وإذا بتوني بلير يدفعني إلى الخلف حيث كنت أجلس فيه وينهرني. وبعد انتهاء الاجتماع أخذني جانبا وقال لي يجب ألا أفقد أعصابـــي أبـــدا، "إلا إذا

كان ذلك عن قصد". وكان في ذلك يؤكد ما جاء على لسان قدوته جلادستون الذي قال: "الغضب ليس هو الخطيئة العامة في النقاش وحسب، بل هو أعظم حجر عقبة فيها".

الكذب على الطرف الآخر هو الأمر الذي يجب أن يتفاداه المرء مهما كان الثمن، أن يقول لجماعة كلاما ويقول لجماعة أخرى كلاما آخر. وإن فعلت فسوف يُكشف أمرك بكل تأكيد وستحكم على نفسك بالإعدام وتصبح مفاوضا لا فائدة منك. في أثناء جلسة حامية الوطيس في بلفاست الغربية مال جيري آدمز فوق المائدة وقال لي: "الذي يعجبني فيك ياجونثان، هو أن وجهك يحمر عندما تكذب". فأجابه زميلي بل جيفري Bill Jeffery بسرعة البرق، وكان جالسا إلى جنبي، قائلا: "ليس مثلك يا جيري". ويقول هنري كيسنجر أنه من الأساسي أن تسعى للظهور بمظهر الشخص الذي يعتمد عليه في المفاوضات "فالشخص قليل الخبرة يعتقد أن الدبلوماسي العظيم شخص مراوغ، لكن الدبلوماسي الحكيم يدرك أنه ليس في صالحه أن يخدع خصمه، وعلى المدى الطويل فإن صفات مثل الثقة والإنصاف هي أهم ما يملك الإنسان. والمفاوضون يلتقون بصورة مستمرة، وقدرتهم على التعامل بعضهم مع بعض تتأثر إذا أصبح الشخص الدبلوماسي مشهورا بالتملص والنفاق". ولهذا السبب فإن الاتفاقيات السرية والرسائل الجانبية مع طرف من الطرفين، التي قد تبدو مخرجا من طريق مسدود، هي فخوخ وهوس. في اللحظات الأخيرة لمفاوضات أيرلندا الشمالية سرّبنا لدافيد تريمبل رسالة جانبية، تخص موضوع نزع السلاح، لإقناعه أن يوقع دون إخبار شين فين. لم تفده الرسالة في شيء على المدي البعيد، وكانت مصدر ارتباك بالنسبة لنا. وفي مفاوضات الباسك بإسبانيا، اقترح 'جورج' بنودا سرية وملاحق لحل مشكلة كيفية التعامل مع مقاطعة نباريه Navarre، ولكن إغويغورين رفض، وهو مصيب، على أساس أن ذلك سيؤدي إلى مشاكل في المستقبل. فاختاروا، عوضا عن ذلك، الغموض الإشارة إلى 'موطن الباسك' والذي يمكن أن تفسره (إيتا) ليشمل مقاطعة نافار، والحكومة يمكنها أن تؤكد أنه يعني المقاطعات الثلاثة في الباسك فقط الواقعة على المحيط الأطلسي.

إذا كانت الاتفاقات الجانبية خطأ، فهناك صحة في عروض "إجراءات بناء الثقة" أثناء المفاوضات. إن اتخاذ خطوات محدودة لإثبات أن الجماعة المسلحة تحقق مكاسب أثناء المحادثات يساعد في تعزيز موقف مفاوضيهم مع أنصارهم ويشجعهم على الاعتقاد بأن هناك حلا سياسيا للصراع. وتشكل إجراءات بناء الثقة المتبادلة من قبل جانب المجموعة المسلحة قد يطمئن أيضا المتشددين من جانب الحكومة بأن المفاوضات لا تسير في أتجاه واحد فقط. ويكتب هايسوم فيقول: "كان من ضمن الإجراءات التي تهدف إلى بناء الثقة في استراتيجية المفاوضات في جنوب أفريقيا تأمين إطلاق سراح السجناء وإلغاء القوانين العنصرية وإيقاف العدوان. فسوف يستمر النقاد والمعارضون في نشر الشكوك حول فائدة المفاوضات في غياب نتائج ملموسة من استراتيجية المفاوضات".

من الضروري في جميع الأحوال، للحكومة وللجماعة المسلحة، أن تكون لديها خطة بديلة.. 'الخطة **ب**' في المفاوضات. ما هو البديل إن أخفقت المفاوضات. كيسنجر ينصح بألا تضع الخطة التراجعية منذ بداية المفاوضات، لأن ذلك يضعف من تمسك المفاوضين بالموقف الأصلي الرسمي، أو على الأقل لا تطلع الذين تفاوضهم على 'الخطة **ب**'، لأنهم إذا عرفوا فسوف يركنون إلى ذلك الحل منذ البداية.

التفاوض بلا شك هو فن له حيله وأساليبه، ولكن له أيضا مجموعة قواعد وقوانين تحكم العملية في معظم الحالات. يؤكد الدبلوماسي البريطاني المتميز، بيرسي كرادوك Percy Craddock، الذي فاوض على اتفاق بريطانيا الخاص بهونج كونج، أن **أول** قانون في الدبلوماسية هو أن أصعب المفاوضات هي التي دائما ما تجري بين أعضاء فريقك أنفسهم. فقد وجد بالفعل أن المناقشات التي دارت بين رئيسة الوزراء مارغريت تاتشر وبين حاكم هونج كونج والمجلس التنفيذي هناك كانت أشد وأصعب من تلك التي دارت مع الصينيين. وجيري آدمز له نفس الرأي إذ يقول إن أصعب المفاوضات تلك "التي دائما تجريها مع جماعتك". وواجه رولف ماير في جنوب أفريقيا مشكلة أعضاء آخرين في الحكومة يقرأون أفكاره مسبقا ويخمنون ما يقوم به في المفاوضات. فالذين هم

خارج معمعة المحادثات يقولون أن الحكومة تستطيع أن تتجاهل مطالب المؤتمر الأفريقي، أما هو فبحكم وجوده في خضم المفاوضات كان يعرف ما هو ممكن وما هو غير ممكن. لقد اكتشف أنه إذا كان مسيطرا على الموقف بإحكام فيستطيع عادة أن يكسب الموقف في داخل الحكومة، خاصة إذا لم يكن معارضوه على علم بكل الحقائق والتفاصيل. ويصف العالم السياسي، روبرت بتنام Robert Putnam، هذا التحدي "لعبة على مستويين حيث يكون لزاما على الزعيم أو القائد أن يفاوض في اتجاهين متضادين، وأن يكون مزدوج الوجه كالإله الروماني جانوس Janus".

لقد كان هولبروك يشعر بقوة بالتحدي الذي تمثله السياسية الداخلية ويقول إنه كان مصمما على تفادي المعارك البيروقراطية داخل الوفد بالتأكيد على أن الفريق كان على ثقة وانفتاح كاملين بين بعضهم البعض. ويقول: "إذا فشلنا أن نخرج برأي واحد، فلكل عضو في الفريق الحق في أن يخاطب واشنطن مباشرة ليشرح وجهة رأيه، ولكن بشرط أن يكون قد أشركنا في ذلك الخلاف في الرأي". وفي تقديره كان ذلك "العنصر الأساسي" للنجاح. ويقول كيسنجر أن: "إن خطر التفاوض في بيروقراطية ضخمة، هو أن الذين لم يشاركوا في المفاوضات يمكنهم دائما الادعاء بأنهم أقدر على النجاح، وأنه كلما قل عدد المشاركين كلما زاد عدد أولئك الذين يغريهم ذلك الموقف. ونظرا لعدم مشاركتهم في عملية التوافق التبادلي، فإنه بإمكانهم التأكيد على أكبر قدر ممكن من الأهداف، وجاهلين بالمعوقات، فيمكنهم إلقاء التبعية عن كل تنازل على غياب الحزم الكافي أو نقص المهارات التفاوضية".

القانون **الثاني** من قوانين المفاوضات هو أهمية الرموز والإشارات، التي يمكن أن يكون لها مغزى أهم من مغزى الجوهر في مفاوضات من هذا القبيل. وافقت الحكومة الأندونيسية في مذكرة التفاهم مع حركة تحرير أتشيه (جي أيه أم) أن "أتشيه لها حق استعمال رموز وإشارات إقليمية منها العلم والإشارة والنشيد الوطني"، ولكن المذكرة منعت الحركة من استخدام "شارات أو رموز الحركة العسكرية". وبعد الاتفاقية هددت الشرطة والجيش باعتقال أي واحد يرتدي

شارات ورموز الحركة من الهلال والنجمة في التجمعات العامة، ولكن زعـــيم الحركة أصر أن الهلال والنجمة هما جزء من علم الأتشيه وعليه يكون مقبـــولا استعمالهما. مفاوض الحكومة عارض ذلك وقال إن المشرع الأتشي سيقرر العلم فيما بعد وأن ما يقبلونه فلن يكون بالتأكيد هو رموز وشارات الحركة الحاليـــة. طبعا بدا الموضوع وكأنه مسألة تافهة إلا أنه أدى إلى عدد من الحوادث العنيفـــة في أتشه والتي قضت على عملية السلام الأولى، ولم يزل الموضوع معلقا لم يحل بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ. إنه من المهم أن يحاول المرء أن يتفهم لمـــاذا موضوع كموضوع الرموز والإشارات له كل هذه الأهمية عند بعض الأطراف، بدلا من تجاهله على أنه غير منطقي، ويحاول أن يجد طريقا لاستيعابه وأخذه في الاعتبار.

ولربما كانت أهم قضية في مثل هذه المفاوضات هي موضوع هوية مجموعة أقلية في سكان دولة أغلبية. في كلمته لقبول جائزة نوبل قال دافيـــد تريمبـــل: "كانت آيرلندا الشمالية 'بيتا باردا' بالنسبة للأقلية الكاثوليك الـــذين يعيشـــون هناك. لقد أرادوا أن يعترف بهويتهم الكاثوليكية حتى وإن استمروا في العيش في جزء من المملكة المتحدة. لقد كانوا يريدون 'تساوي القيمة'. وكـــان علينـــا أن نبحث عن طرق أخرى يستطيعون بها التعبير عن هويتهم غـــير نقـــش ألـــوان وشعارات القبيلة على الحجر ورفع الغلم الأيرلندي في المقاطعات الكاثوليكيـــة. وهذه قضية تبرز لدى البانغسمورو بالفلبين، ولدى الفلسطينيين في إســـرائيل، ولدى الآتشيين في أندونيسيا.

القانون **الثالث** هو أن المادة الرئيسية التي تحتويها أي اتفاقية هي نادرا مـــا تكون جديدة. نفس القضايا تبرز في مفاوضات مختلفة في العالم: المشـــاركة في السلطة، والفدرالية، وحماية حقوق الأقليات، والاشتراك في المصادر... وهكذا. كانت القضية في سريلانكا لعقود، ولم تزل، هـــي الفدراليـــة. تقـــدم رانيـــل ويكريمسينغ Ranil Wickremasighe بعرض مشروع "فدرالية غـــير متكافئـــة" تكون فيه للتاميل هوية خاصة في الشمال الشرقي من البلاد بصلاحيات أكثر من صلاحيات الكانتون السويسري. وقد كان هو نفسه عارض الحل الفدرالي المقدم

من الرئيسة كاموراتونجا سنوات قليلة قبل ذلك. نوقش موضوع الفدرالية، وهو أساسي بالنسبة للمفاوضات في جنوب أفريقيا في التسعينات، للمرة الأولى عام 1909 في المؤتمر الوطني لجنوب أفريقيا. والمشاركة في السلطة هو الشرط الأساسي لإنهاء الصراع المسلح بين الأقلية والأغلبية. يقول أف دبليو ديكليرك: "إدراج نوع ما من أشكال المشاركة في السلطة في الدستور النهائي كان واحدا من الأهداف الأساسية للحزب الوطني. في الأخير أخفقنا لأن حزب حرية إنكاتا والحزب الديمقراطي رفضا تأييد مبدأ المشاركة في السلطة". في عام 1996 قاد ديكليرك الحزب الوطني للانسحاب من حكومة الوحدة الوطنية لأن، في وجهة نظره، كان المؤتمر الوطني الأفريقي في حقيقة الأمر رافضا للمشاركة في السلطة. يقول ديكليرك: "إن تعقيد تركيبتنا السكانية واقتصادنا – واحتمالات الصراع الكامنة التي يمكن أن يولدها ذلك – يمكن إدارته بشكل أفضل عن طريق نموذج هدفه الاتفاق العام.. بدلا من ذلك أُرهقنا بنموذج أساسه الأغلبية. ولقد قلت وقتها أن ذلك كان خطأ، ولا زلت أعتقد أنه واحد من أكبر نقاط الضعف في النظام الدستوري الجديد". ومن المفارقات العجيبة أنه برغم استمرار المواضيع التي رهن المناقشة، فالتفاوض حول النقاط الجوهرية الأهم يمكن أن يتم بسرعة. ففي مفاوضات الجمعة الحزينة في أيرلندا الشمالية فقد تم الاتفاق على شروط المشاركة في السلطة في خلال أقل من أربع وعشرين ساعة بالتحديد لأن جميع الأطراف شاركوا في عمليات شبيهة عدة مرات في السابق.

شروط المشاركة في السلطة ضرورة أساسية لضمان الاتفاق ولكن من الممكن أن تكون لها عواقب غير مقصودة على المدي البعيد. أدت اتفاقية بوسنيا، إلى أبرمت في دايتون أوهايو بالولايات المتحدة، الخاصة بالمشاركة في السلطة إلى إنشاء نخبة دائمة في السلطة هي حاليا السبب في الاحتجاجات الجماعية في البلاد. وفي أيرلندا الشمالية أدت اتفاقية على نظام دي هونت de Hondt للمشاركة في السلطة إلى تشكيل "ائتلاف بالقوة" حيث يكون جميع الأحزاب في الحكومة ولا تكون هناك معارضة وبذلك لا يستطيع أحد أن "يطرد الأوغاد" من المؤسسة السياسية. وفي كولومبيا نجحت منظمة أم – 19 في تأمين إحداث

منصب انتخابـــي جديد للمفتش العام لمحاربة الفساد بين النخب الحاكمة. ومن سخرية القدر الممتعة أن المقاتل السابق في أم – 19 الذي أصبح عميـــدا لبلديـــة بوغاتا، طُرد من وظيفته على يد المفتش العام نفسه الذي ســـاعدت أم – 19 في إحداث مركزه.

من المعضلات الأساسية التي تواجه المفاوض هي بأي القضايا يبدأ: السهلة أم الصعبة. يقول إسبوهو وتللي أن "من الأساليب الشائعة لبناء الثقة في المراحـــل الأولى للمفاوضات هو تمكين الأطراف المجتمعة حول مائدة المفاوضـــات مـــن التوصل إلى اتفاق سريع على أي شيء مهما كان ثانويا. فالبدايـــة بموضـــوع 'سهل' والاتفاق عليه من شأنه أن يبرهن للمتفاوضين أنه بالإمكـــان الثقـــة في الطرف الآخر وأن والمحادثات يمكنها الخروج بنتائج محددة". لا شك أن هـــذا الأسلوب مغرٍ جدا، ولكن إذا تركت المسائل الصعبة دون البث فيها، فهنالـــك احتمال حقيقي أن المفاوضات ستؤول إلى الفشل. وفي دايتون "رفض هولبروك نظرية الحد الأدنى بمناقشة تلك المسائل وحدها التي يعد إنجازها أســـهل نســـبيا" بينما تدل التجربة على أن المفاوضات التي تنفذ مباشرة إلى الفـــض في القضـــايا السياسية الجوهرية هي التي غالبا ما تنجح.

إن أثر هذا الاختيار يمكن عرضه بطريقة واضحة تماما بـــالتجربتين اللـــتين اتبعتا في حل قضة أتشيه بأندونيسيا. بدأ مارتي أهتيســـاري في 2005 بالقضـــية الأساسية وهي وضع الأرض. فسياسيا في تقديره لن ترضى الحكومة الأندونيسية بتقديم أكثر من وضع "حكم ذاتي خاص" للطرف الآخر، ولكنه في الوقت نفسه يعي أهتيساري جيدا أن ليس بمقدوره أن يحصل على بيان من حركة أتشيه الحرة (جي أيه أم) تتنازل فيه عن الاستقلال عند بداية المفاوضات. ولكـــي تنطلـــق المفاوضات، طلب أهتيساري من الطرفين دراسة خطة الحكم الذاتي في جوهرها بناء على شروط معينة، حتى يرى إن كان بالإمكان إغراء الحركة بالفكرة، دون أن يتنازل أي من الطرفين عن موقفه المبدئي. في الجلسة الافتتاحية في منصـــف يناير/كانون الثاني وزعت الحكومة على مفاوضي الحركة نسخا من قانون الحكم الذاتي الخاص المعمول به، وهو ما سبق وأن رفضوه. وكـــادت المفاوضـــات أن

تنهار عند تلك النقطة واقترحت الحركة أن يتناقشوا حول موضوع "وقف نار طويل". رفضت الحكومة الأندونيسية ذلك على أساس أنه حل مؤقت وأنهم هذه المرة يتوقون إلى حل شامل ودائم وليس إلى مجرد محادثات حول وقف العدوان. وبالمقارنة بدأت محادثات 2000 إلى 2002 حول أتشيه إلى قادها مركز هنري دونانت بالقضايا السهلة مثل موقف إطلاق النار ووصول المساعدات الإنسانية، ولم تستطع أن تخوض في المسائل السياسية الرئيسية. وانزلقت المفاوضات إلى تبادل التهم حول فشل الطرف الآخر في تنفيد الاتفاق. واندلعت أعمال العنف. وقاطعت حركة أتشيه الحرة المحادثات بسبب تصاعد العنف على يد قوات الحكومة، وعندما عادوا إليها جمدتها الحكومة بحجة انتهاكات من طرف الحركة.

في هيلسنكي تمسك أهتيساري بخطته، والتي هي أساسا عكس الأسلوب التي تبناه مركز هنري دونانت رأسا على عقب. فبدلا من الابتداء بالقضايا السهلة منذ انطلاق المحادثات اختار أن يواجه مباشرة جوهر عدم الاتفاق. كانت تلك مغامرة، تفضي بسهولة إما إلى طريق مسدود أو إلى فشل كامل، ولكن حركة أتشه الحرة خضعت ووافقت على النظر في فكرة الحكومة الذاتية كخطوة انتقالية في الوقت الذي لم تطرح جانبا تشبثها بمطلب بالاستقلال. فطالبوا بأكبر قدر ممكن من السلطات لحكومة أتشه وتركوا حدا أدنى من السلطات للحكومة المركزية كالدفاع الخارجي والشؤون الخارجية. فقد كان يعوزهم نظام سياسي مختلف، بأحزاب محلية ونظام قانوني منفصل عن أندونيسيا لا تكون له حقوق استئناف لدى المحكمة العليا في جاكارتا، واستبدال الجيش الوطني والشرطة بقوة للشرطية تجند محليا ومسؤولة أمام المحاكم، وحق تحدد نسبة الفائدة المصرفية الخاصة بهم، وأن يكون لهم علمهم الخاص. ورغم أن هذه المطالب لم تكن مقبولة لدى الحكومة الأندونيسية، إلا أنها كانت مطالب مطروحة على مائدة المفاوضات وفتحت المجال لمفاوضات حقيقية.

أخطر فخ قد تقع فيه الحكومة هو الخروج باتفاق مشروط بتسوية "أسباب النزاع". بالنسبة للجماعات المسلحة هناك مبدأ أساسي أن أسباب النزاع يجب

أن تحل قبل إنهاء الصراع نفسه. وتعريفهم لهذه الأسباب سوف يكون أوسع بكثير مما يمكن للطرف الحكومي أن يقبله كجزء من المفاوضات. فكثير من القضايا لن تحل سياسيا إلا بعد أن تلقي الجماعة المسلحة أسلحتها وتحاول أن تحصل على دعم ديمقراطي لمواقفها وليس في مفاوضات لا تشمل حتى ممثلين لكل الاتجاهات في المجتمع. ولا يمكن للحكومة والمجتمع ككل أن ينتظروا حتى تحل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية العميقة قبل أن تضع الجماعة المسلحة أسلحتها. ووضع حلول أسباب النزاع كشرط لنزع السلاح هي طريق مسدود خطير لمثل هذه المفاوضات.

لكن الجماعات المسلحة قد تأخذ خطا أيديولوجيا جدا بالنسبة لهذا الموضوع. فزعيم منظمة الباسك (إيتا) في إسبانيا، 'جورج'، أراد أولا أن يناقش أسباب النزاع مع إغويغورين في جنيف، وثم بعد ذلك مناقشة طرق حلها. كان إغويغورين على استعداد للتجاوب إيجابيا، ولكنه طالب توضيح أن وقف إطلاق النار يتوقف فقط على تنفيذ خطة الطريق التي تحاول (إيتا) والحكومة الموافقة عليها، وليس على محادثات سياسية بين الأحزاب في بلاد الباسك التي تعتبر نتائجها في عالم الغيب. فهو لا يقبل أن تقول (إيتا) أنها تتخلى عن أسلحتها إلا بعد تلبية مطالبها السياسية، لأن رئيس الوزراء الإسباني ثاباتيرو قال بوضوح أنه لن يكون هناك "ثمن سياسي للسلام".

ومن الأحداث التي سيذكرها التاريخ في مفاوضات أيرلندا الشمالية تلك التي المواجهة التي دارت بين المتحدث الجيد والشخصية الجذابة، دافيد إرفين David Ervine، زعيم حزب التقدم الاتحادي Progressive Unionsit Party، وهو حزب صغير من الموالين لبريطانيا، وبين جيري آدمز، في اجتماع ويستون بارك بمقاطعة ستافوردشاير بإنجلترا Weston Park, Staffordshire عام 2001. فقد واجه إرفين آدمز بسؤال لا جواب له. لقد طالب إرفين أن يعرف، هل انتهي الصراع، في رأي جيري آدمر، عند التوصل إلى اتفاق الجمعة الحزينة، أم عندما تتوحد أيرلندا. لقد كان السؤال محددا بدقة لأن إرفين كان يعلم أن دستور الجيش الجمهوري الأيرلندي (آي آر أيه) كان واضحا حيال هذه

النقطة بمعنى أن الجيش الجمهوري لا يمكن له أن يدمر أسلحته حتى تتوحد أيرلندا. ومع ذلك فقد كان آدمز يهدف إلى إنهاء الصراع قبل أن يوجد حل للسبب الرئيسي للصراع وهو تقسيم أيرلندا. كان آدمز محتاجا إلى ذلك الغموض الذي خيم على موقفه من أجل إرضاء الطرفين معا وكان رد فعله لسؤال إرفين غاضبا فرفض أن يجيب عليه. وانسحب إرفين وحزبه من محادثات ويستون بارك.

إذا كانت بداية المفاوضات سيئة فسيكون من الصعب إنقاذها. فالجلسات الأولى للمفاوضات تكون دائما نقطة هامة لتركيز الأضواء وتكون مركز اهتمام يبعث رسائل عامة حول طريقة تعامل الفريقين بعضهم ببعض وما يقولونه للإعلام. فإذا كانت الجماعة المسلحة تعامل الحكومة بازدراء فمن الصعب إنقاذ الموقف. فبينما كانت القوات المسلحة الثورية الكولومبية تستعد للجلسة الافتتاحية للمفاوضات في أواخر عام 1998، أعلنت أن مارولاندا (زعيم الثوار)، بعد دراسة الموضوع، لن يحضر الاجتماع مع الحكومة. وقال الرئيس باسترانا إذا كان مارولاندا لن يحضر فهو إذا لن يشارك في المفاوضات كذلك. وبعد ثمانية وأربعين ساعة عاد مارولاندا وقال إنه ذاهب إلى الاجتماع في كاجوان في 7 يناير/كانون الثاني وأنه سيحضر لعدة دقائق وأنه سيكون أول المتحدثين، وقبل حتى الرئيس. وعندما حل السابع من يناير/كانون الثاني تخلف مارولاندا وحضر نائبه روول ريس مكانه. قال روول أن مارولاندا موجود بالقرب من المكان ولكن أسبابا أمنية حالت دون حضوره شخصيا. حاول باسترانا استغلال الموقف بقدر المستطاع قائلا أن غياب مارولاندا ليس سببا لعدم انطلاق المفاوضات. ووافقت الحكومة على حضور الصحفيين ونقل المداولات نقلا حيا على التلفزيون. كان ذلك التزاما بالشفافية يشكرون عليه، ولكن المحادثات تحولت إلى مهزلة. فقد سمحت الحكومة للمقاتلين أن يجلبوا معهم مدفعا وبندقية ومُدية لمائدة المفاوضات، وأن يجلسوا والمدفع مصوب على الطرف الآخر ومسمار الأمان مسحوب.

لندع جانبا علاقة السلطة الكارثية حول مائدة المفاوضات منذ البداية، فقد كانت مادة المناقشات أفضل شيئا ما. فحسب أحد الجالسين على المائدة آنذاك، عندما انتقلوا إلى مناقشة القضايا الاجتماعية والاقتصادية وسئلت المجموعة المقاتلة إذا كانت لديهم فكرة عن الموضوع، قال مارولاندا أن عليهم أن "يتصرفوا حيال الليبرالية الجديدة هذه". وأضاف رووول رييس أن البطالة "يجب أن تصبح غير قانونية، وتمنع قانونا.. لأنها ظلم وباطل". وتساءل مارولاندا عن سعر الفائدة المصرفية، وعندما قيل له أن الدولار يساوي 1,500 بيسوس كولومبية، قال إنه سعر عالي جدا، ويجب أن ينزل إلى 1,000 بيسوس. وكما ذكر نفس المفاوض أنه عندما ذهب لقضاء حاجته، لحقه مارولاندا وقال له، وهما واقفين على المبْولة: "من الأفضل أن تعود لبيتك.. الوقت متأخر، وهناك مقاتلون كثيرون في هذه المنطقة".

أفضل طريقة لانطلاق المفاوضات هي طرح مقترح على المائدة يكون جذابا للطرف الآخر بحيث لا يستطيع تجاهله أو التغاضي عنه. في أوسلو أشار هيرشفيلد في الاجتماع الثالث مع أبي علاء أن الإسرائيليين على استعداد أن يسمحوا لياسر عرفات أن يعود إلى فلسطين. وقد كان شمعون بيريز أذن له بأن يطرح الاقتراح بعد مناقشته مع إسحاق رابين. طلب بيريز الإذن من رئيس الوزراء، ولما أجابه رابين بقوله "ليس لديّ جواب لذلك"، فهم بيريز ذلك على أنه لا يمانع. وذكر هيرشفيلد لأبي علاء أنه بإمكان الفلسطينيين ضمان هذا العرض بالموافقة على أمور يريدها الإسرائيليون. لقد كان هيرشفيلد يعلم أن عرفات حريص كل الحرص على هذه الغنيمة وعليه فهو على استعداد لتلبية معظم المطالب الإسرائيلية. لقد أحال هيرشفيلد الفلسطينيين في واقع الأمر إلى "مدّعي" *demandeur* في المحادثات وأخذ يكدس على جانبه حول المائدة كل ما يحتاج إلى تأمينه. وقدم الفلسطينيون أيضا من طرفهم أمران كان يرغب فيهما الإسرائيليون وهما: "غزة أول" وخطة مارشال للمنطقة بأكملها.. وهذان من أحلام بيريز الخاصة وها هم الفلسطينيون أنفسهم يطرحونهما على مائدة المفاوضات. واقترحوا أن تؤجل قضية القدس، ويا لفرحة الإسرائيليين، على

اعتبار أنها قضية صعبة. وبذلك قدر للمفاوضات أن تنجح من البداية تقريبا.

من المحتمل ألا تحل المفاوضات صراعا مسلحا، أو على الأقل لا تحلـــه في هذه الجولة. أما إذا كانت هناك عملية سلمية مستمرة فيكون هنـــاك أمـــل أن العنف سيخف. وكان رئيس الوزراء البريطاني، توني بلير، يقول لي مرة، حـــتى وإن لم يتمكن من تسوية الصراع في أيرلندا الشمالية، فهو على الأقل استطاع أن يتحكم في إدارته. ومن الجوانب المثيرة في عملية السلام هي عندما تصل الأمور إلى أحلك حدودها من الخارج تكون الأزمة على وشك الانفراج، وعندما يهيئ للجميع أنها تسير بزخم إلى الأمام، ولكنها في الحقيقة على شفة الانهيار. أحيانـــا يكون الشعور العام متشائما لأن المتفاوضين يريدون التخفيض من التوقعـــات. يقول هولبروك: "أعتقد أنه كان من الأفضل تهوين علامات التقدم والتقليل مـــن التفاؤل، والسعي في الوقت نفسه إلى بناء شعور بـــالالتزام والمشـــاركة مـــن الأمريكيين من جديد. فعندما كان القدح يقارب من الامتلاء، كنت أفضل أن أقول أنه يقارب أن يفرغ". هناك من المفاوضين من يتحمس في المبالغة في نجاح المفاوضات للتدليل على التقدم وللحفـــاظ علـــى معنويـــات عاليـــة ودعمـــا للمحادثات. والعبرة هنا أن يكون المرء معتدلا، فلا يبالغ في ردود فعله للنجـــاح بالفرحة والابتهاج، ولا يستقبل الصدمات بالحزن والبكاء. فكل المطلوب منك هو الاستمرار بكل همة وبلا تراجع، مع المحافظة على أعين مفتحة على توقعات الرأي العام والعمل على التعامل معها بحكمة.

لعل من أحسن المؤشرات على أن المفاوضات تسير نحو النجاح، أن يكون أسلوب الطرفين في التعامل معها أسلوبا استراتيجيا وليس مجرد تكتيكيـــا. فـــإن فشلا في التركيز على المحصلة النهائية التي يريدان تحقيقها، على أســـاس خطـــة واضحة للوصول هناك، ويكتفيان بمجرد حشوها بسلســـلة مـــن المنـــاورات التكتيكية قصيرة المدى، فالفشل في انتظارهما بدون شك. وكما يلاحظ سينيكا "إذا كان الإنسان لا يعرف إلى أي مَرْفأ سيبحر، فلا رياح تســـعفه". وقعـــت الحكومة الإسبانية في هذا الفخ في مفاوضاتها مع (إيتـــا). ويقـــول أورلانـــدو أوتيجي، زعيم القسم السياسي في (إيتا)، باتاسونا، أن الـــبعض اعتقـــدوا "أن

الشيء الوحيد الذي تريده الحكومة هو وقف إطلاق النار، وبمجرد أن تحصل على ذلك فهي مستعدة لتجاهل أي شيء آخر". نتيجة لذلك أخفقت عملية السلام. وعندما سألتُ زعيم جبهة فارابوندو مارتي للتحرير الوطني (أف أم أل أن)، خاكوين بجالوبوس، عن أهمية الثقة في المفاوضات كان جوابه أنه لا يضع ثقته في الحكومة ولكنه يثق في خطته هو الخاصة بالتفاوض. فهذا ما كان محل تركيزه طوال العملية.

الخطة لا بد أن تكون مرنة، وعليك أن تتكيف مع تطور المفاوضات. ينقل لورنس فريدمان في كتابه: الاستراتيجية.. نظرة تاريخية *Strategy: A History*، عن مايك تايسون قوله: "كل إنسان عنده خطة.. حتى يصاب بلطمة على وجهه". فالمحصلة النهائية لن تكون كالتصور الأصلي. يقول هولبروك *أن* "التفاوض يحتاج إلى المرونة في التكتيك، ولكن إلى نظر ثابت نحو الهدف النهائي". وهذه بالضبط هي الطريقة التي اتبعها في مفاوضات البوسنة. وقال أحد أعضاء فريقه: "لا تتوقع وجود قطعة ورق مكتوب عليه 'خطة'.. لأنه لم توجد أصلا. فكان أسلوبه: 'اخترعها وأنت ماشي'". ولكن هولبروك كان يعمل حسب استراتيجية عامة، وقال: "المفاوضات كموسيقى الجاز..: ارتجال طبقا للحن واحد. فلا بد أن تعرف متى تدخل ولكنك لا تعرف إلى أين تصل.. العملية ليست أفقية صرفا".

فالمفاوضات الناجحة، إذاً، تتطلب بنية صلبة، ومفاوضين بالمهارات الضرورية، والتزاما بالقوانين الثابتة، واستراتيجية واضحة ولكن مرنة، وبدايات ممتازة تأخذ في الحسبان مصالح الطرفين. ولكن مع كل ذلك، فعملية السلام يمكن أن تتثاقل وتتوانى حتى يضجر الرأي العام وتفقد المفاوضات مصداقيتها بالكامل. فإذا بلغ الأمر هذا الحد فيكون لزاما عليك البحث عن طريقة تدفع بها المفاوضات إلى نهاية المطاف. وكما يقول هنري كيسنجر: "على كل مفاوض أن يحدد النقطة التي تصبح عندها المكاسب الهامشية غير متكافئة مع الخسائر في الثقة، الناتجة عن هذا النوع من المساومات الذي لا بد أن يصاحب هذه الممارسات المقامرة".

الفصل الثامن

لماذا تنجح بعض المفاوضات ويفشل بعضها؟

السلام مسألة إرادية. فكل الصراعات يمكن تسويتها، وليس هناك مبررات للسماح لها أن تصبح أزلية.

مارتي أهتيساري *Martti Ahtisaari*

إنه من الأسهل أن تبدأ مفاوضات من أن تختتمها بنجاح. وربما كانت الجماعات المسلحة ميالة إلى الدخول في عملية سلام بسبب الشرعية أو الشعبية التي تضفيها عليهم أو تمنحهم إياها، ولكنهم عموما ينزعون إلى التحرك بالوفاق العام، ويفضلون الحوار باستمرار بدلا من مواجهة الحلول الوسط الصعبة والضرورية للوصول إلى اتفاق. وهم غالبا يفضلون أن تحوم الطائرة في الجو إلى ما لا نهاية بدلا عن أن تهبط على الأرض. إن وجود وسيلة لإنهاء الحوار بنجاح هي "الكأس المقدسة" التي يبحث عنها كل المتفاوضين.

ما هي الأسباب وراء نجاح بعض المحادثات (جنوب أفريقيا، موزامبيق، السلفادور، أيرلندا الشمالية، أم – 19 في كولومبيا) وفشل أخرى (سريلانكا، المحاولة الأولى في أتشه، محادثات كاغوان مع القوى المسلحة الثورية الكولومبية)؟ تناقش أودري كرونين Audrey Cronin الموضوع فتقول أن العوامل التي تحدد النجاح أو الفشل تشمل التالي: "طبيعة المنظمة (فالجماعات التي تقوم السلطة فيها على التسلسل الهرمي تمتاز على الجماعات التي لا تستطيع السيطرة على تصرفات أعضائها)، وطبيعة القيادات (التي لها قائد قوي أفضل من القيادة اللامركزية)، وطبيعة الدعم الشعبي الموجود للهدف (فالجماعات القائمة على

جمهور يمل من العنف هم أقرب إلى قبول الحلول الوسط والتفاهم)".

بينما هذه كلها عوامل لها تأثير على النجاح أو الفشل، فيظل العامل الرئيسي هو القدرة على إبرام الاتفاق، أي بمعنى آخر هل من الممكن الدفع بالطرفين إلى إنهاء المشوار والوصول إلى اتخاذ قرارات صعبة؟ إحدى الوسائل لفرض اتخاذ قرار هي وضع موعد نهائي، ولكن تحديد موعد يصدقه الناس ليس بالأمر السهل. بعد انتخابه لرئاسة الوزراء في مايو/مايس 1997 أعلن توني بلير موعدا نهائيا بعد سنة للانتهاء من المفاوضات حول مستقبل أيرلندا الشمالية. وقد اتخذ بلير هذا القرار لأن إخفاق رئيس الوزراء السابق جون ميجر، حسب تحليلاتنا، في إحراز تقدم سريع بعد إعلان الجيش الجمهوري الأيرلندي عن وقف إطلاق النار في عام 1994، دفع بهم إلى الرجوع إلى العنف من جديد. لقد شعر الجمهوريون بأنهم "عوملوا بازدراء"، وانهم مهما انتظروا فلم يكونوا جزءا من محادثات السلام المشتركة فيها كل الأحزاب في أيرلندا الشمالية. وبالمقارنة، فقد وضحنا موقفنا للجمهوريين، عن طريق حكومة جمهورية أيرلندا الجنوبية، أنهم إذا جددوا وقف إطلاق النار فسنرحب بهم في المحادثات مباشرة، وأن المحادثات ستجرى وستنتهي سريعا. وعندما كان الموعد يقترب شيئا فشيئا في عام 1998 قيل لنا أن الموعد الذي حددناه خطير، ومن الأفضل أن ننساه بالكامل. لكن توني بلير قرر التمسك بالموعد على كل حال، وبعد أربعة أيام وثلاث ليال من المفاوضات المكثفة، استطعنا أن نحقق اتفاقية في يوم الجمعة الحزينة Good Friday Agreement. في هذه الحالة نجحت فكرة الموعد النهائي المحدد.

تباعا لذلك حددنا مجموعة مواعيد نهائية للتنفيذ الكامل لاتفاقية الجمعة الحزينة، ولكنها كانت اعتباطية وغير مرتبطة بحدث تاريخي في العالم، وأخذنا نطويها واحدا واحدا بدون أي تبعات على أي من الأطراف. ونتيجة لذلك فقدت كل التواريخ التي حددناها مصداقيتها لدى الطرفين الذين أخذا في تجاهلها شيئا فشيئا. لقد أصبحت، في الحقيقة، نتائجها عكسية لأن الشين فين، على الأخص، ظلت تسألني عن متى تاريخ الموعد المحدد التالي، وتحتفظ بأي تنازلات حتى نقترب منه... وهكذا تعطلت المفاوضات بدلا من أن تتحرك

بسرعة. لقد استطعنا أن نعيد المصداقية للمواعيد النهائية التي حددناها عن طريق القوانين التي تسببت في انهيار المؤسسات في أيرلنـــدا الشـــمالية في عـــام 2006 وهكذا استعدنا ضمان الوصول إلى الاتفاق النهائي في نوفمبر/تشرين الثاني.

وهكذا نجد المواعيد النهائية هي حلول ومشاكل معا في الوقـــت نفســـه. بالتأكيد، تحديد تواريخ معينة يضع مصداقية الوسيط على المقصلة. ففي اختتـــام الاتفاقيات ما قبل مفاوضات السلفادور، كان الفارو دو سوتو Alvaro de Soto قلقا أن الرئيس كريستياني Cristiani لن يستطيع ضمان الدعم لموقفه دون وقف إطلاق النار وبدون مؤشرات عن طول العملية. ولذا اقترح "موعدا" طموحـــا يكون هو الهدف لاختتام المرحلة الأولى من المحادثات. تُرجم ذلك إلى الإنجليزية، لسوء الحظ، على أنه "موعدا نهائيا"، مما نصب فخا في العملية. وعلى ذلك صار بيرني أرونســـون Bernie Aronson، الـــوزير الأمريكـــي المســـاعد لشـــؤون الأمريكيتين، يستخدم "الموعد النهائي" في اضطهاد دو سوتو لإخفاقه في إقنـــاع جبهة فارابوندو مارتي للتحرير الوطني (أف أم أل أن) على أن ترتقي لمســـتوى وقف إطلاق النار. ويقول دو سوتو: "خضعت بصور مستمرة، في السلفادور، إلى ضغوط كثيرة كي أحدد مواعيد نهائية للأطراف المشاركة، ولكـــني كنـــت أقول بأنني 'لا أملك الصلاحية لذلك، هذا أولا، وثانيا، إذا حددت موعـــدا و لم يلتزم به أحد، فما العمل؟ هل ننسحب من الميدان؟'. لقد أكدت بشدة على أنني لست مستعدا لأن أغامر بمصداقيتي، ولا بمصداقية الأمم المتحدة كوسيط. فلـــن أحدد موعدا نهائيا لأي شيء ما لم أكن على يقين، مائة في المائة، أنني سأنفذه.. ذلك هو الخطأ بعينه".

يناقش إيسوهو Isoaho وتوللي Tuuli القضية فيقولا أنه: "يمكن لأســـلوب تحديد المواعيد النهائية أن يدعم عملية الوساطة إذا كانت مبنية علـــى أحـــداث حقيقة بدلا من أن تكون مواعيد اعتباطية". ويشير الكاتبان إلى مثال هام مـــن عملية السلام في السلفادور وهو: "انتهت مدة المجلس التشريعي في السلفادور في 30 أبريل/نيسان 1991 وهذا يعني أنه على الأطراف الوصول إلى اتفاق حـــول الإصلاحات الدستورية عند هذا التاريخ أو عليهم إن ينتظروا ثلاث سنوات أخر

لإجراء تلك الإصلاحات (حيث أن الإصلاحات الدستورية تتطلب التصديق من مجلسين تشريعيين). إن تغيير المشرع في 30 أبريل/نيسان سرع بالمحادثات كموعد نهائي حقيقي لا يتغير". وكان هناك موعد نهائي ثان كان له أثر أكبر وهو التوصل إلى الاتفاق في السلفادور عند منتصف ليل 31 ديسمبر 1991 لأن ذلك هو تاريخ انتهاء حقبة بيريز دو كويللار Perez de Cueller كأمين عام للأمم المتحدة. وكان خليفته بطرس غالي قد أوضح للأطراف المعنية أن يصلوا إلى اتفاق قبل أن يستلم هو المنصب. فرغم أن أزمة السلفادور كانت تعد أولوية أساسية بالنسبة لبيريز دو كويللار، إلا أن استلام سكرتير عام جديد يعني الحاجة إلى بعض الوقت ريثما ينسجم في العملية. واستخدم دو سوتو هذا العذر للضغط على الجانبين للتوقيع على الشروط المضمونة للاتفاق قبل حلول الموعد النهائي، رغم أنه كان الضروري الاجتماع مرة أخرى يوم 13 يناير/كانون الثاني للاتفاق على جدول زمني للتطبيق. ووقعت اتفاقية السلام النهائية رسميا في احتفال عاطفي في 16 يناير/كانون الثاني 1992 في قصر تشابولتبك Chapultepec في مدينة المكسيك.

في عملية السلام بأوسلو حدد الإسرائيليون زيارة شمعون بيريز لإسكندنافيا المخطط لها في أغسطس/آب 1992، كموعد نهائي للمحادثات. في صباح 17 أغسطس/آب اتصل بيريز بوزير الخارجية النورويجي، يوهان هولست Johan Holst، الذي كان يزور آيسلاندا، وسأله إذا كان من الممكن أن يلتقيا بصورة غير معلنة في استكهولم مساءً، قائلا: "إما الآن وإما فلا". جلس هولست ليلته تلك في غرفة بقصر هاجا Haga في السويد لمدة ثمان ساعات متواصلة يرسل رسائل من بيريز، في الغرفة المجاورة، إلى ياسر عرفات في تونس. مع الساعة الخامسة صباحا تم الاتفاق على الصيغة النهائية الخاصة بأمن المستوطنين الإسرائيليين وعلى مكان وصلاحيات السلطة الفلسطينية المقبلة. في 19 أغسطس/آب قام بيريز بزيارته الرسمية لأوسلو. عند الانتهاء من تناول العشاء وبعد منتصف الليل بقليل جاءت قوات الأمن لتصحب الفريقين المتفاوضين عبر المدخل الخلفي. جاءوا ومعهم الوثيقة الختامية لإعلان المبادئ Declaration of

Principles المتفق عليها. عند الواحدة صباحا وقع أبو علاء ويوري سافير علـــى الوثيقة بالحروف الأولى بحضور شمعون بيريز وهولست. استغرقت هذه العمليـــة ثمانية شهور.

الحكومات التي حددت مواعيد نهائية مصطنعة تجد نفسها أحيانا قد وقعت في فخ. فإذا لم تلتزم الجماعة المسلحة بتلك المواعيد، عندها ستضطر الحكومة إما لتراجع مهين أو إلى تقديم تنازلات لكي تقنع الطرف الآخر بالالتزام بالمواعيـــد. ولربما كان من الأفضل أحيانا بتحديد معالم واضحة أو علامات مختلفـــة علـــى الطريق المؤدي إلى الاتفاق، كالاتفاق على إنجاز أجزاء معينة في تواريخ محـــددة. هذا الأسلوب يساعد في تسريع العملية ويعطي الطمأنينة للجمهور بأن هنـــاك تقدما ينجز بدلا من ترك الجمهور أمام عملية غامضة. وربما ســـاعد أيضـــا في تركيز أذهان كافة الأطراف في حالة ما عرض الاتفاق على أنه 'فرصة متناقصة' بمعنى أن الجماعة المسلحة لها أن تقبل بالاتفاق الآن وإلا لن يظل مطروحا في بحر سنة من الزمان. في هذه الحالة تفلح المواعيد النهائية في ضمان الاتفاق إذا كانت مرتبطة بأحداث حقيقية في الواقع تعني أن المفاوضات ستتوقف في تاريخ معين. ولكن تحديد موعد نهائي اعتباطي يمكن أن يتحول إلى خطر ماحق على الجهـــة التي حددته، إلا إذا كانت تنوي بصدق أن تنتهي المحادثات في حالة أن الطرف الآخر لم يلتزم بالموعد النهائي.

من المغري أحيانا للوسطاء أن يحاولوا إنهاء المفاوضات 'متى شـــاؤوا'، أي بمجرد تحديد ما يعتقدون أنه نتيجة معقولة مطالبين الطرفين بقبول ذلك والرضى به. ففي قبرص، بعد صبر لسنوات على مفاوضات طويلة، شعر السيد كـــوفي عنان، الأمين العام للأمم المتحدة، أنه قد حان الوقت لاتخاذ قرار حيال ما تبقـــى من الخلافات بين الطرفين اليوناني والتركي في قبرص. وتقدموا بالاتفاق، بما فيه البنود التي صاغتها الأمم المتحدة بصورة نهائية، للاستفتاء واذا بالرئيس اليونـــاني، تاسوس بابادبوبلوس Tassos Papadopoulos يستغل تلك البنود حجة ليستحث أنصاره للتصويت ضد الاتفاق. فشل الاتفاق و لم يكن هناك أي تقدم في قبرص منذ ذلك الحين. التحدي والدفع بالأمور إلى حافة الهاوية قد ينجح أحيانا، وقد

نجح فعلا في الجولة الثانية لمفاوضات أتشيه. فقد صرح مارتي أهتيساري مسبقا بأن الإجماع الذي سيبدأ في 12 يوليو/تموز 2005 سيكون هو الجلسة الختامية في المفاوضات، رغم أن القضيتين الرئيسيتين في المفاوضات لم يبث فيهما وهما هل ستكون هناك أحزاب سياسية إقليمية في أتشيه، وما عدد الجنود الذين ستحتفظ بهم أندونيسيا هناك بعد الاتفاق. لقد غامر أهتيساري بذلك ولكنه نجح وظل الفريقان في المباحثات في اليوم الأخير لمدة اثنتي عشرة ساعة دون انقطاع. ووقّعت مذكرة التفاهم بين الجانبين بعد شهر. أسلوب "الإنذار الأخير" عادة لا ينجح إطلاقا. جرب ذلك رئيس أندونيسيا، يودهويونو، في عملية السلام الأولى في أتشيه عندما أعطى حركة أتشيه الحرة (جي أيه أم) مهلة أسبوعين لتقبل بالحكم الذاتي كهدف نهائي ولتقوم بتخزين أسلحتها. ردت الحركة بأنها لن تقبل بإنذار أخير، واقترحت اجتماعا في مايو/مايس في جنيف بعد انقضاء الموعد الأخير الذي وضعه يودهويونو، بوقت طويل. وفي محاولة يائسة لإنقاذ المحادثات، اقترح غريفيثس، من مركز هنري دونانت، اجتماعا آخر في طوكيو باليابان في 17 مايو/أيار، ولكن المحادثات فشلت، ومضى العسكريون الأندونيسيون في برنامجهم ضد الحركة الحرة "للقضاء على جذورها".

وربما كان من الضروري التهديد بالانسحاب من المحادثات لإقناع الطرف الآخر بأن الوقت قد حان للوصول إلى اتفاق. الخطورة في ذلك، بطبيعة الحال، أن الطرف الآخر قد يقبل بخدعة هذا التحدي ويختبرها، وهنا يصبح لزاما على المرء أن ينسحب إن أراد المحافظة على شيء من المصداقية. إن نظرية "الدراجة" تقتضي أن تحافظ على سير العملية إذا كان في استطاعتك، وعليه يكون أفضل سيناريو هو أن تهدد بالانسحاب ولكن دون تنفيذه في الواقع. وإن حدث وأن انسحبت عليك الانتباه إلى الظروف المحيطة بك. كانت علاقة رئيس الحكومة البريطانية، جون ميجر، مع الزعيم الأيرلندي الموالي لبريطانيا، أيان بيزلي، علاقة هشة، وفي اجتماع في صالة مكتب الحكومة بشارع داونينغ، الذي كان ميجر يستخدمها مكتبا خاصا له، اتهمه بأنه كاذب. طالب ميجر بأن يسحب بيزلي تلك التهمة الطعن في سمعته، وبيزلي رفض، فانسحب ميجر من الاجتماع. من

سوء حظ ميجر أن بيزلي قام باعتصام في المكتب نفسه واحتل مكتب ميجر. فعليك أن تعلم جيدا أين أنت والظروف المحيطة بك قبل أن تعلن انسحابك.

من المهم أن تعلم جيدا أن الجماعات المسلحة لا يمكن لها أن ترضى بالتسليم تحت أي ظرف من الظروف، أو تتظاهر بالتسليم، ما دامت لم تهزم. كنا على وشك التوصل إلى اتفاق في عام 2004 في أيرلندا الشمالية بين حزب إيان بيزلي الاتحادي الديمقراطي وشين فين. ولكن الاتفاق انهار لأن إيان بيزلي ألقى خطابا يطالب فيه الجمهوريين أن يرتدوا "الخيش ويضعوا الرماد على جباههم للتعبير عن التوبة عن أخطائهم" كما يفعل الكاثوليك. وطالب بصور فوتوغرافيه توكد تخليهم عن أسلحتهم. رفض للجمهوريين هذا، فبالنسبة إليهم هذا كلام تفوح منه رائحة الاستهزاء والهزيمة. وضاعت الصفقة. وفي إسبانيا، كما في غيرها من البلدان، تبذل الحكومة جهودا كبيرة لعقد صفقة فحواها أن الجماعة المسلحة تسرح مجنديها وتنزع أسلحتها مقابل عفو عام عن سجنائها. في الغالب الصفقة لا تتم. فمن المستحيل على زعماء الجماعة المسلحة أن يشرحوا لأعضائهم وأنصارهم أن كل تلك المعاناة والتضحيات والموتى كانت لتأمين إطلاق سراح أعضائهم من السجون. لا بد أن يكون لكفاحهم قيمة أعلى وأكبر. ويقول خيسوس إغويغورين أن الحكومة الاشتراكية في إسبانيا أدركت يقينا أنه لا يمكن أن يكون هناك استسلام غير مشروط، وأن الصراع لا بد أن ينتهي بكرامة وبتطلع إلى أفق سياسي يمكن الانفصاليين الباسك من العمل لتحقيق أهدافهم.

ولسبب الكرامة نفسها، نجد أنه من الخطأ أن يظهر المرء وكأنه يسعى لشراء المجموعة المسلحة. المواد الإغاثية والمساعدة من أجل التنمية أمور ضرورية للمناطق إلى مزقتها الحروب. من المهم أن يشاهد السكان أمورا ملموسة وسريعة لنتائج السلام إذا أريد منهم دعم الاتفاق. ولكن إذا حاول المرء أن يتحرك متسرعا على الصعيد الاقتصادي بدون تقديم مستقبل سياسي كذلك فمن الخطر أن الإغاثة وغيرها سترفض. ففي سريلانكا أتهم المجتمع الدولي "بشراء السلام". وبعد الاتفاق الأول في أتشه بأندونيسيا تشكلت هيئة مشتركة للأعمال

الإنسانية، وضخ المجتمع الدولي من خلالها مبالغ ضخمة للإقليم أملا في أن يعزز ذلك وقف إطلاق النار. لم ينجح ذلك لغياب اتفاق سياسي. في مينامر Myanmar قاومت الجماعات المسلحة محاولات توجيه مواد الإغاثة والاستثمارات إلى مناطقها لأنهم يعتقدون أن الحكومة تنوي تحويل اهتمامهم عن مطلبهم الذي قاموا من أجله منذ ستين عاما وهو حل سياسي فدرالي، وإقناعهم بأن يرضوا بالتسوية لأغراض التقدم الاقتصادي فقط. وفي فلسطين كذلك، فشلت محاولات التركيز فقط على بناء الاقتصاد الفلسطيني وتحسين المستوى المعيشي لعامة الشعب من وجهة نظر مادية، وذلك لغياب أي تقدم سياسي. فالرفاهية لا يمكن أن تكون بديلا للتسوية السياسية.

من وسائل تركيز المفاوضات لضمان وصولها إلى نتائج ناجحة هو الاتفاق على مبادئ عامة أو اتفاق هيكلي عام. هذا يساعد في إضافة الاحتمالات المناسبة وإقصاء تلك التي غير مناسبة من الاتفاق النهائي المفصل. في أيرلندا الشمالية وضعت الحكومة البريطانية "رؤوس الاتفاق" في فبراير/شباط 1998 الذي حدد المواضيع الرئيسية لمحتوي صفقة محتملة. هذا التصرف أحدث تموجات كثيرة خاصة لدى الجمهوريين الذين اعترضوا على عدم تضمين الكثير من مواضيعهم المفضلة. ولكن ديفيد تريمبل يقول أنه ساعد في نجاح اتفاق الجمعة الحزينة بتقديم هيكل للمفاوضات يمكن البناء عليه، ويسر التغاضي عن بعض القضايا والمطالب الأخرى.

بطريقة أو أخرى على المرء توجيه الطرفين إلى أقصى حد تصله مطالبهم. يعرض الكاتبان يوري وفيشر الفكرة الرائعة التي تعبر عن "أحسن بديل لعدم الاتفاق" عام 1981. ويقولا لكى تحدد مطالبك القصوى (آخر الكلام) فعليك التفكير في ما هو أفضل بديل عندك "لعدم الاتفاق" وفي نفس الوقت يلبي مطالبك. بمعنى آخر، ما هو أسوأ وضع نصل إليه في حالة عدم التوصل إلى اتفاق. على هذا الأساس يمكنك تحديد حلول الوسط الممكنة والمقبولة من وجهة نظرك. وكما يشير الكاتبان: "فالدافع الأساسي للتفاوض هو الخروج بنتائج أفضل من تلك التي يمكن الحصول إليها من عدم التفاوض". وعند التفاوض مع

الجماعات المسلحة فمن المعقول أن تحدد ما يمكن التوصل إليه ثم التركيز عليه بالتحديد بدلا من تضييع الوقت في قضايا لا أمل فيها ستطرح جانبا في النهاية، أو في خزعبلات تكتيكية لا يمكن إلا أن تعقد الأمور وتشوش الأذهان. بل من الأهم أن تحدد ما هو الحد الأقصى للطرف الآخر. ففي حالة الصراع المسلح ليس هدفك هو اقتناء سيارة بأرخص الإثمان وإنما هدفك هو إنقاذ أرواح بشر والوصول إلى نهاية محتملة للحرب الأهلية. فإن ترضى بالتنازل قليلا على أكثر مما تحتاج، أو السماح بمهلة من الوقت أطول مما يجب، فذلك لا بأس به إذا قورن بنتائج التصلب من أجل الحصول على ثمن أقل أو تخسر السلام كلية. ولكن من الصعب، ضمنيا، التعرف على الحد الأقصى لجماعة تعمل في الخفاء. أجهزة المخابرات قد تفيدك ببعض المعلومات ولكنها قد تكون مضللة أو مشوشة، كما اكتشفتُ شخصيا في مرات كثيرة في مفاوضات أيرلندا الشمالية. مما يزيد الطين بلة أن الجماعات المسلحة تغلب عليها نزعة المبالغة في التفاوض. فغالبا لا يدركون متى وصلوا أعلى مرحلة في التفاوض. وغالبا ما يكون السبب هو عجزهم عن إقناع أنصارهم بقبول اتفاق أو صفقه إلا إذا تمكنوا من الضغط إلى أقصى مرحلة غير محتمله. ولعل ياسر عرفات هو المثل الأعلى لظاهرة التفاوض إلى الأبد هذه. بل حتى في كامب دافيد أبى أن يقبل بالتسوية لأنه لم يكن يعرف كيف يستطيع إقناع بقية الدول العربية بالاتفاق.

هناك مشكلة أخرى شائعة في الوصول بالمفاوضات إلى نهاية ناجحة هي الصعوبة المتكررة في شرح الأسباب التي تجعل الحكومة أصلا مجبرة على مناقشة قضايا سياسية مع جماعة مسلحة. وأحسنَ طريقة للتعامل مع ذلك هي تقسيم المفاوضات إلى مناقشات لمناقشة لأمور فنية (منها نزع السلاح إطلاق سراح السجناء) يمكن التفاهم فيها بصورة مناسبة مع الجماعة المسلحة، وجلسات لمناقشة قضايا سياسية يمكن عقدها مع القسم السياسي للجماعة. وفي إسبانيا عملت الحكومة على وضع خط واضح بين الأمرين. فكانت تناقش "نتائج العدوان" مع (إيتا) في جلسات سرية، تتضمن تسريح المجندين وسحب السلاح، والسجناء أو المنفيين، ولكنها لا تشمل قضايا سياسية. المسائل السياسية مكان

نقاشها هو "مائدة" منفصلة مع باتاسونا، جناح (إيتـا) السياسـي، وأحـزاب الباسك الأخرى. الشين فين الأيرلندية الحّث على (إيتا) بالقبول بهذا التقسـيم، كما فعلوا هم تماما في أيرلندا من قبل، بالفصل بين المفاوضات السياسية وبـين الأحزاب السياسية في أيرلندا الشمالية بعضها مع بعض، وبين المفاوضات حول الأسلحة بين الجيش الجمهوري الأيرلندي والهيئة الدوليـة المسـتقلة لسـحب السلاح *Independent International Commission on Decommissioning*.

في محاولة لإنقاذ المحادثات مع (إيتا) في أغسطس/آب 2004، قرر خيسوس إغويغورين وأيرلندو أوتيغي أنهم في حاجة إلى الوصول إلى اتفاق سياسي لما قبل الاتفاق لإقناع (إيتا) أن الحكومة صادقة معهم. فدعوا، كزعماء سياسـيين في الحزب الاشتراكي وفي باتاسونا، حزب الباسك القـومي Partido Nacioalsta Vasco PNV للمشاركة معهم في محادثات في ملاذ ليـولا اليسـوعي Jesuit Sancturay of Loyola (سانت إيغنيشوس دو ليولا St Ignatius de Loyola، هو مؤسس اليسوعيين، ينتمي للباسك). عقدوا هناك اثني عشر اجتماعا وتوصلوا إلى "اتفاق ليولا". وأتفق الزعماء الثلاثة على التشاور مع أحزابهم ثم يعودوا لتوقيـع الاتفاق. ولكن قبل التاريخ المحدد للرجوع استَدعى أوتيغي إغويغورين للعـودة للمزرعة حيث كانا يجتمعان ليخبره أن (إيتا) نقضت قراره و لم يعـد يسـتطيع التوقيع بدون اتفاق على كيان ذاتي مستقل يجمع بين أقاليم الباسك الواقعة على البحر وإقليم نباريه. انهارت المحادثات السياسية. وأصبح بعد ذلك تشابك القضايا السياسية والفنية في تزايد بينما قربت المحادثات إلى الانهيار الكامل. طالبت (إيتا) بتقدم على المسار السياسي قبل أن تكون مستعدة لإلقاء أسـلحتها، وانتـهت العملية في اجتماع كان كارثة في حانة قديمة في إسافل جبال جورا Jura بالقرب من القرية السويسرية ساتيجني Satigny عند الواحدة صباحا تمامـا بتـاريخ 22 مايو/مايس 2007. أصر ممثل (إيتا)، 'مارك'، على أن توافق الحكومة على دعـم استفتاء على انضمام نباريه إلى بلاد الباسك قبل أن يواصل النقـاش بخصـوص الأسلحة على الجانب الآخر من المعادلة. الحكومة لم توافق حتما. وهكـذا، إذا وصل كل من الطرفين إلى هذا الحد من اللخبطة فمن الصعب أن تتوقع النجاح.

وكما هو الحال في كل المفاوضات هناك حاجة للقدرة على استعمال الجزرة والعصا. من الواضح جدا أن النفوذ الذي تستطيع أن توظفه الحكومة هو القدرة العسكرية، ولكن، كما بينت في الفصول السابقة من هذا الكتاب، ليس هناك ضمان أن يأتي دورها دائما على الشكل المطلوب. وسائل ضغط خارجي وداخلي أخرى يمكن أن يكون لها تأثير. فالدول المجاورة التي وفرت ملاذا للمقاتلين (كما فعلت فنزويلا مع القوات المسلحة الثورية الكولومبية)، أو وفرت دعما أيديولوجيا وماديا (كما فعلت كوبا مع جبهة التحرير الوطني في السلفادور)، يمكنها أن تزاول الضغط المستمر على الجماعات المسلحة، وإن كانت هنالك حدود لمدى قدرتها على التأثير على أولئك الخلفاء. الأهم من كل هذا أن السكان المحليين الذين يمثلون الدعم الحقيقي للمقاتلين يمكن أن يشكلوا أثرا على الجماعات المسلحة مطالبين بإنهاء العنف، كما فعل السكان الباسك القوميون مع (إيتا).

وعندما نتحدث عن الجزرة، من الضروري التفكير في المصالح الشخصية لأولئك الذين تتفاوض معهم بالإضافة إلى مصالح الجماعة نفسها. إذا كانت نتيجة التسوية هي فترة طويلة في السجن لزعماء الجماعة المسلحة، فليس من المستغرب إذاً أن يكونوا غير متحمسين للتطلع إلى الوصول إلى اتفاق. لا بد من خطة تضمن لهؤلاء الزعماء مستقبلا في السياسة أو تلبي طموحاتهم بشكل أو بآخر. كما يحتاج المرء إلى التفكير في مصير المقاتلين الذين لهم احتياجات وطموحات تختلف عن زعمائهم. فهم أيضا يريدون أن يطالهم العفو عن الجرائم التي ارتكبوها، وربما يريدن كذلك اقتناء مزارع صغيرة أو فرصا للتدريب على مهنة جديدة، وقد يرغبون في الاستمرار في الخدمة العسكرية كجزء من الجيش الوطني أو كجزء من قوة شبه عسكرية كالشرطة. هذا المستقبل بكل ملامحة لا بد أن يكون واضحا أمامهم إذا أريد منهم دعم زعمائهم وقياداتهم للوصول إلى اتفاق.

ومهما يفعل المرء، كما يلاحظ هنري كيسنجر، "فكل المفاوضات تصل إلى نقطة معينة تأخذ بعدها في الانطلاق بسرعة إلى نتيجة إيجابية أو تنحدر إلى

حالة من الشلل". والمشكلة أنه من السهل أن تتعرف على هذه النقطة الحرجة ولكن بعد فوات الأوان. ففي الموزمبيق أدىّ انهيار في المفاوضات إلى تطـــور مفاجئ، عام 1991. ففي حرارة الشمس القائظة في صيف روما ذلك العـــام قضى الطرفان الوقت في تبادل الشتائم. اتهمت حركـــة (رينـــامو) الحكومـــة الموزمبيقية بتبني لعبة مزدوجة معها بالحديث عن الســـلام في رومـــا وبشـــن هجمات في موزمبيق. وعندما انفض الاجتمـــاع قـــال دهالاكامـــا، زعـــيم (رينامو)، بكل وضوح أن فريقه لن يعود إلى روما مـــا لم توقـــف الحكومـــة هجماتها وتسنحب العشرة آلاف جندي التابعين لزيمبابوي من الـــبلاد. كـــان أولئك الجنود في موزمبيق لحماية وصول زيمبابوي إلى البحر بواسطة القطـــار وبالبر والأنابيب عن طريق بيرا Beira ونهر ليمبوبو Limpopo River. ســـافر الوسيط الإيطالي إلى مالاوي واستطاع إقناع دهالاكاما باستئناف المحادثات في نوفمبر/تشرين الثاني بدون الإصرار على انسحاب قوات زمبابوي، بشـــرط أن يكون الموضوع هو بند في جدول الأعمال. ومع ديسمبر/كانون الأول وافـــق الطرفان على "صيغة الممرات" التي بموجبها تحصر قوات زيمبابوي في شـــريط ضيق من الأرض بمحاذاة الخط الحديدي بدلا من المواجهة والاقتتال مع قوات (رينامو) في كل أنحاء البلاد. كما أبرموا اتفاقيات لوقف إطلاق النار داخـــل ممرات طولها 170 و330 ميلا وبعرض ميلين فقط لكل منهما علـــى التـــوالي. كلفت هيئة دولية للتفتيش، يترأسها دبلوماسي إيطالي، من خـــبراء سياســـيين وعسكريين من ثمان بلدان. وكما هي العادة دائما جاء هذا الترتيب بنتائج غير متوقعة. احتشد عشرات الآلاف من اللاجئين اليائسين على حافـــة خطـــوط السكك الحديدية لتفادي القتال في نواحي أخرى من البلاد. وما إن تجمعـــت هذه الحشود في هذه المناطق الصغيرة حتى برزت مشكلة إطعـــامهم. لم يـــتم الاتفاق إلا بعد جدال قوي بين الطرفين، ولكن في النهاية قدم كلا الطـــرفين تنازلات وعندما حان الوقت للتوقيع كان الجميع في حالة ابتهاج وسرور. كان ذلك الاتفاق الجوهري الأول في المحادثات، وهو الذي فسح المجـــال لاتفـــاق السلام النهائي.

في جنوب أفريقيا يعتقد ديكليرك أن نقطة التحول كانت الاتفــاق علــى "وثيقة التفاهم" في سبتمبر/أيلول 1992. لقد قاطع المــؤتمر الــوطني الأفريقــي المفاوضات ليس فقط بسبب مذبحة بوبياتونج، ولكن بسبب القضــايا الأكــبر المتعلقة بالطريقة التي اتبعها الحزب الوطني في التعامل مــع المحادثــات. اســتمر ديكليرك في دعمه لحقوق المجموعات العرقية التي لم يكن في نية حــزب المــؤتمر قبولها، ووصلت المفاوضات إلى طريق مسدود. وأراد حزب المــؤتمر (حــزب مانديلا) اختبار الطرف الآخر فيما إذا كان على استعداد لفتح صفحة جديــدة للضغط على الحزب الوطني (حزب البيض) ليعيد النظر في أســاليبه. لخصــت "القناة" القائمة بين رولف ماير (عن البيض) وسيريل رامافوزا (عــن الســود) المطالب الأربعة عشر لحزب المؤتمر في عدد من المسائل. ولما اطلع مجلس الوزراء على مسودة "وثيقة التفاهم"، عارض "الحرس القــديم" المحــافظ الفكَــرة. وفي اجتماع لاحق مع حزب المؤتمر، سمح ديكلارك لكوبــي كوتسي، وزير القانون والنظام، ولعناصر محافظة أخرى أن يقودوا النقاش ضد مانــديلا في موضــوع إطلاق سراح السجناء المدانين بجرائم قتل، حتى يضطر المتشــددون أنفســهم، وليس ديكليرك شخصيا، إلى تقديم التنازلات من أجل الوصــول إلى اتفــاق. فعندما جاءوا إلى مسألة محاصرة مساكن عمال حزب إنكاثا، قال ديكــلارك، بأسلوب لا يخلو من الخبث، أنه لم يحصل على فرصة لدراسة مسودِة الاتفــاق بصورة جيدة وطلب أن يناقش الموضوع في فرصة قادمة. فرد مانديلا قائلا أنــه بالتأكيد يمكنه أخذ ما يكفيه من الوقت لدراسة المسودة "بشرط أن تفهم أننــا عندما نخرج من هنا إلى مؤتمر صحفي سوف أقول للصحفيين أن الاجتماع كان فاشِلا فشَلا ذريعا". وعليه وافق ديكليرك على أن تقوم لجنــة عمــل بدراســةِ الموضوع خلال استراحة الغذاء، وعين أعضاء معتدلين من الشباب فقــط مــن طرف الحكومة لهذه اللجنة. وعندما عادوا إلى الاجتماع أعلن ديكليرك أن لجنة العمل قد وافقت على الوثيقة. وبهذا تم تجاوز "الحرس القديم" الــذين كــادوا يستشيطون غضبا. على كل حال، سوت وثيقة التفاهم القضــايا الرئيســية.. وأصبحت العملية السلمية لا محال منها.

نقطة اللاعودة في عملية السلام تأتي عادة عندما يتضح لزعماء الجماعة المسلحة أن العنف يعرقل تحقيق أهدافهم بدلا من ضمان تلك الأهداف. هذه الذروة عادة لا تحدث قبل الدخول في المفاوضات – وهو ما يعملونه تكتيكيا لينظروا ماذا يحدث – إلا بعد أن يشتبك الطرفان ويتضح أمامهما مخرج سياسي. يصبح التحول آنذاك أمرا أساسيا إذا أراد الطرفان التوصل إلى اتفاق دائم، وعندها فقط يصبح السلم لا رجعة فيه.

هذا التحول يحدث عادة عندما يرجح التوازن في داخل الحركات التمردية من الجناح العسكري إلى جناح سياسي. فتاريخيا كان للجيش الجمهوري الأيرلندي (آي آر أيه) السطوة القصوى بينما كانت شين فين خاضعة له. إلا أن الجمهوريين اكتشفوا خلال الإضراب عن الطعام عام 1981 أنه بإمكانهم كسب مقاعد في البرلمان بالمشاركة في الانتخابات باسم الشين فين، فاتضحت لهم الاستراتيجية المزدوجة وهي "البندقية في يد وصندوق الاقتراع في الأخرى". فتدريجيا انتقلت القيادة من الجيش الجمهوري إلى شين فين، بالرغم من أن نفس الأشخاص كانوا يتحركون في المنظمتين. ونفس الشيء حدث في بلاد الباسك بإسبانيا. كانت (إيتا) – تاريخيا – هي القوة المسيطرة، بينما كان باتاسونا مجرد واجهة سياسية، ولكن هذا الوضع بدأ يتغير عندما انفضت المحادثات مع الحكومة الإسبانية في عام 2007. كان أوتيغي وقياديون آخرون في باتاسونا يراقبون المحادثات ود استبد بهم القنوط بينما 'مارك' يسيء إدارة المفاوضات إلى أن انسحب منها. وفي أعقاب هذه الأزمة بدأوا في استشارات متشابكة مع القاعدة الكبرى من أنصارهم من أحزاب الباسك الانفصاليين تحت مضلة "إثكيردا أبرثالي" (أي اليسار القومي) *Izquierda Abertzale* التي أظهرت أن الغالبية العظمي كانت تريد السلام والتقدم من خلال المسار السياسي وليس بواسطة السلاح.

في البداية عارضت (إيتا) تلك المحصلة ولكن نتيجة لجهود أوتيغي وزميله روفي إتشيبريا Rufi Etxeberria استطاعا تعزيز الوفاق العام بصورة جعلت من الصعب على (إيتا) المقاومة. وهذا هو الذي جعل النجاح المفاجئ ممكنا مما

حقق النهاية الدائمة للصراع المسلح. وقال أورتيغي في مقابلة في نوفمبر/تشرين الثاني 2008 أن العنف أصبح عائقا لتحقيق للأهـداف السياسـية للقوميـة الراديكالية. وفي يناير/كانون الثاني 2009 دعا إلى "مواجهة الدولة في أضـعف نقاطها ألا وهي الساحة السياسية". وقد كسب أورتيغي حليفا له في أوغينيـو 'آنتكسون' إتشيبيستي، محاور (إيتا) القديم مع الحكومة في الجزائر والمفاوضـات التالية، الذي أطلق سراحه من السجن عام 2004. وقال أنه خيل إليـه أنـه مشترك في "كفاح من نوع آخر". ومن الغرابة أن هذه المجموعة عرفت بـين المتشددين بـ "الغانديين" *los Gandhis* (أي أنصار سياسية اللاعنـف نسـبة للمهاتما غاندي). وبدأوا باستراتيجية بناء التحالفات مع الأحـزاب الوطنيـة الصغيرة التي انفصلت عن باتاسونا في العقود السابقة بسبب معارضتهم للعنف، وهذه المفاوضات هي التي أجبرت (إيتا) على الرضوخ. حصل اليسار القومي، "إثكيردا أبرثالي"، على أسوأ نتيجة في الانتخابات التي أجريت علـى خلفيـة تفجيرات مطار مدريد في عام 2006. وقال أوتيغي آنذاك: "نحن نعلم أنه ليس بإمكاننا أن نفوز في سيناريو ديمقراطي بمائة ألف فقـط". وللحصـول علـى السلطة لا بد لهم أن يزيدوا من دعمهم السياسي وهذا يعني نهايـة الكفـاح المسلح.

إذا فشلت الجماعات أن تحقق التحول من كونها أساسا عسكرية إلى كونها أساسا سياسية، فإن السلام مستحيل. فنمور التاميل فشلوا في القيام بهذه الوثبـة بنجاح، وظلت نمور تحرير تاميل إيلام باستمرار عسكرية، وزعيمهم براباهاكاران لم ينفتح إطلاقا على العالم الخارجي أو على الواقع السياسي. وظل كشيخ القبيلة المسلح يحيط به رجال كلهم مطيع لأوامره. اسـتطاع يـده الـيمني، أنتـون بالاسينجهام، بعقله السياسي أن يتفهم الواقع السياسي وكان بإمكانه المناقشـة وتبادل الآراء والأخذ والرد، ولكن الرجلين ابتعدا عن بعضهما البعض بعـد أن وقّع بالاسينجهام على إعلان أوسلو عام 2002 وألزم الطرفين بحـل فـدرالي. وبوفاته عام 2006 سلبت من منظمة نمور تحرير تاميـل إيـلام ذراع سياسـية حقيقية.

بمجرد أن تذوق الأجنحة السياسية للجماعات المسلحة طعم النجاح الانتخابي، يصبح من المستحيل لها أن تعود إلى العنف من جديد. هذا النجاح السياسي يعد في أعين الآخرين كارثة للدولة الديمقراطية، ولكن إذا كانت الجماعة قد فازت في انتخابات نزيهة، فتختفي أسباب للاعتراض. في نيبال كان من المتوقع أن يحصل الماويون على ترتيب هزيل هو الثالث في انتخابات الجمعية التأسيسية لعام 2008، ولكنهم فاجأوا الجميع بالحصول على 229 مقعدا من 601 وهو تقريبا ضعف أقرب المنافسين لهم. وفي 2008 و2009 أصبح قائدهم العسكري رئيسا للوزراء. في أتشيه انتخب إرواندي يوسف، قائد سابق في حركة أتشيه الحرة، حاكما للإقليم في أول انتخابات إقليمية بعد اتفاقية السلام. وغالبا ما يكون الحزب السياسي، الذي يخلف الجماعة المسلحة بعدها مباشرة في الانتخابات التالية، إلا أنه مع الوقت تستطيع الجماعة المسلحة تعزيز وضعها السياسي والوصول إلى الحكم. ظهرت جبهة التحرير الوطني في السلفادور هي الكتلة المعارضة في الانتخابات الأولى بعد اتفاقية السلام عام 1994، ولكنهم في عام 2000 اصبحوا أكبر حزب في الجمعية الوطنية، وفي عام 2009 خاض مرشحهم انتخابات منصب رئيس الدولة. (المقاتلون السابقون، بطبيعة الحال، لا يصلحون، في كل الأحوال، لمناصب إدارية، حتى وإن وصلوا إلى مواقع السلطة فإن جمهور الانتخابات سيطردهم في المستقبل لعدم الكفاءة).

بما أن المرء يسعى، تحديدا، إلى أن تختار الجماعة المسلحة مسارا سياسيا، فسيكون من العبث أن توضع في طريقها العقبات عندما تحاول التحرك في ذلك الاتجاه. ففي الوقت الذي نجد من المفهوم تماما أن الأنظمة الديمقراطية تشعر بالاشمئزاز لظهور المدافعين على شاشات التلفزيون يبررون أعمالا إرهابية وحشية، فإن الأسلوب الصحيح للتعامل مع هذه الظاهرة هو الرد عليها سياسيا وليس بإقصاء رجال الجماعات المسلحة أو عدم السماح لهم بالحديث للناس. فقرار المسز تاتشر، رئيسة الحكومة البريطانية السابقة، بعدم السماح لجيري آدمز ومارتن ماغينيس، من زعماء الجيش الجمهوري الأيرلندي، بعدم الظهور في التلفزيون البريطاني عام 1988 لم يضعف من شأنهما. وقرار المسؤولين في

التلفزيون بإظهار صورهما واستخدام أصوت ممثلين عوضا عن أصواقمما أحـــال مسألة الحجر كلها إلى مهزلة. وكذلك الحظر في إسبانيا على باتاسونا والأحزاب السياسية الجديدة، التي حالوا تشكيلها بعد الحظر على باتاسونا، جعل الانتقـــال من العنف إلى العمل السياسي السلمي يستغرق وقتا أطول، وأعطى المتشددين في الحركة مبررا للاستمرار في العنف لكون المسار السياســـي أصـــبح مقفـــلا في وجوههم. المتمردون يعشقون أن يكونوا هم الضحية، وإعطائهم فرصة أكـــبر لادعاء ذلك تصرف تنقصه الحكمة.

يصر بعض رؤساء الحكومات ورؤساء الدول أحيانا أن الطريقة الوحيـــدة لحل أي صراع هي اللقاء وجها لوجه مع زعماء الحركة المســـلحة مباشـــرة. ويعتقدون أن هناك عنصرا ما يحول بينهم وبين اســـتيعاب الجماعـــة المســـلحة لموقفهم، وأهم لو اجتمعوا بهم وتحدثوا إليهم مباشرة فسيقدرون على إقنـــاعهم والتفاهم معهم. وهذه الفكرة ليست صحيحة دائما. يقول هنـــري كيســـنجر: "عندما يتولى الرؤساء مهمة التفاوض فلن يبقى مجال للهروب أو الدبلوماســـية". ظل رئيس وزراء بريطانيا، توني بلير، يلح على جيري آدمـــز، زعـــيم الجـــيش الجمهوري الأيرلندي، إذا كان بإمكانه الالتقاء بأعضاء المجلس العسكري المؤقت التابع للجيش الجمهوري. وكان رد آدمز دائما بالموافقة وأنه سيحاول تنظيم لقاء في الوقت المناسب، ولكن لم يفعل. وأخيرا أسر إليّ أنه يعتقد أن فكرة اللقاء غير سليمة. فالأشخاص الذين أراد توني بلير مقابلتهم غير مكتـــرثين بالسياســـة ولا تهمهم السياسية، وقد تكون نتيجة هذا الاجتماع أن يزيد في شكوكهم أكثر مما يبددها. والرئيس باسترانا في كولومبيا اجتمع بزعماء القوات المسلحة الثوريـــة، ورغم أن ذلك زاد من الدعم الشعبـــي له في البداية، ولكن عنـــدما أخفـــق في تحقيق ما وعد به وعملية السلام فقدت مصداقيتها بدأ الرئيس يظهـــر – شـــيئا فشيئا – وكأنه ارتكب خطأ فادحا.

من الأفضل أحيانا أن تعقد هذه الاجتماعات بعد انتهاء عمليـــة الســـلام للتصديق على اتفاق أو لإعلان تقدم أساسي في العملية، بدلا مـــن عقـــدها في البداية. فتدخل مباشر من زعيم أو قائد قد يكون له تأثير أساسي. أقدم رئـــيس

الفلبين، بنينو أكوينو، على مغامرة كبيرة بعقد اجتماع مع الحاج مراد، رئيس الوفد المفاوض التابع للجبهة الإسلامية لتحرير مورو، في طوكيو عام 2011. كانت قفزة نحو المجهول، أو كما جاء على لسان أحد المفاوضين: "أحد الأسرار القليلة التي نجحنا في إخفائها". لجأ الرئيس إلى استعمال رصيده السياسي للقيام بهذه الخطوة المفاجئة، وسمح للطرفين بتجاوز عقبات في طريق المفاوضات. فما كانت لتنجح لو أقدم عليها في فترة مبكرة، ولكن التوقيت جاء مناسبا بحيث أنها انطلقت بالمحادثات إلى اتفاق بعد مفاوضات استمرت أكثر من خمس عشرة سنة.

ولكن حتى بعد إحراز تقدم في المفاوضات، يظل بإمكان المعوقين هدمها بالكامل. ففي عملية السلام في الشرق الأوسط، كلما كانت هناك عملية انتحارية أو تفجير في إسرائيل أو الأراضي المحتلة، كانت إسرائيل تقطع المحادثات. رد الفعل هذا لجرائم لا مبرر لها مفهوم، إلا أن المشكلة فيه أنه يسلم مفاتيح المفاوضات في أيدي العناصر الأشد تطرفا. وموقف إسحاق رابين، كما وصفه رئيس الشن بيت (الشاباك وهو: جهاز الأمن العام الإسرائيلي) السابق، صحيح، إذ يقول: "سنحارب العنف كأن عملية السلام لا وجود لها، وسنواصل عملية السلام كأنه لا وجود للعنف". والمعوقون، بالطبع، ليسوا في طرف واحد، ولا حاجة تدعوهم إلى أن يكونوا سلميين. فكما يشير دويفيستن Duyvesteyn وشورمان Schuurman فقد "ثبت أن التوسع في بناء المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية معوق أساسي لتحقيق تسوية سياسية دائمة".

إن رد الفعل للمعوقين هو الذي يحدد عما إذا كان عملهم سينجح أم لا. يقول التقرير النهائي للهيئة العالمية المستقلة لسحب السلاح *Independent International Commission on Decommissioning IICD* في أيرلندا الشمالية: "نعتقد أن على القادة السياسيين ألا ينسحبوا من مائدة المفاوضات عندما ترتكب أعمال وحشية هدفها الأساسي هو انحراف مسار المفاوضات. وعلى القادة والزعماء أن يحذّروا أنصارهم مسبقا من هذه الأعمال ويؤكدوا على عدم الحاجة إلى ردود أفعال". ويكتب دويفيستن Duyvesteyn وشورمان

Schuurman قائلين "عندما لا تكون أعمال المعوقين التخريبية قائمة على الدعم الشعبي، فقد تعزز من عملية السلام نفسها التي يسعون إلى هدمها. فعندما فجر منشقون تابعون لمجموعة 'آي آر أيه الأصلية' قنبلة في سيارة في مدينة أوماه Omagh بأيرلندا الشمالية، شهورا قليلة بعد التوقيع على اتفاق الجمعة الحزينة، كان الشعور العام أن هذا الحدث الإرهابي سيدفع للتركيز على أهمية مزيد من الحوار ولن ينال منها". كان الانفجار أسوأ عمل إرهابي شهدته الثلاثون سنة من أحداث أيرلندا الشمالية، قتل فيه تسعة وعشرون وجرح المئات. تاريخيا، اعتاد القادة الاتحاديون (الموالون لبريطانيا) عدم التمييز بين المجموعات الجمهورية، ويعتبرون الجماعات المنشقة امتدادا للجيش الجمهوري الأيرلندي وخربوا عملية السلام. أما دافيد ترمبل، وهذا يحسب له، فقد اتجه في الاتجاه المعاكس واستخدم هذا الحدث المفزع سببا للإسراع بعملية السلام. وبشيء من الإقناع، كان آدمز وماغينيس شجاعين أيضا. لم يجرؤ الجمهوريون الأيرلنديون من قبل على إدانة عمل قامت به مجموعة أخرى من الجمهوريين، ولكنهم هذه المرة أدانوا هذا العمل بكل وضوح. وعملية السلام تعززت ولم تحد عن مسارها. وهكذا في جنوب أفريقيا، فبدلا من انحراف عملية السلام من مسارها، فإن اغتيال كريس هاني Chris Hani، الرئيس السابق للجناح العسكري لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي، على إيد متطرفين بيض عام 1993، بعث في العملية روحا جديدة. فاستجابة للجريمة حدد الطرفان 27 أبريل/نيسان 1994 موعدا أقصى للانتخابات وأصروا على الوصول إلى تسوية نهائية. ويقول ديكليرك في هذا الصدد: "لقد استطعنا تجاوز الأزمة لأنه، في أقصى تقدير، ليس بمقدور أحد من الأطراف الرئيسية أن يتخيل فشل العملية... لا يمكن لنا أن نسمح لحوادث عنف مريعة أن تنحرف بنا عن هدفنا الأصلي". ويقول دين برويت Dean Pruitt: "هناك دائما تقريبا عناصر شديدة التطرف ليس لديها الاستعداد للتفاوض، ويسعون إلى اكتساح أي اتفاق.. وربما توجد عناصر متطرفة على جانب الحكومة كذلك لديهم وجهة نظر متشابهة. والخطة أن تخرج الأطراف المعنية باتفاق مصدق عليه من قبل تآلف مركزي بوزن كبير، يضم أكبر عدد ممكن من الجماعات على

طرفي النزاع لإقصاء المجموعات الصغيرة ومنعها من أن تكون معوقة". وكما ذكرت الهيئة العالمية المستقلة لسحب السلاح، فإن على القياديين تحصين الجماهير ضد المعوقين والمرجفين مسبقا بإنذارها أن العنف سوف يتزايد أثناء المفاوضات، حتى لا يصبهم اليأس عندما يحصل ذلك.

* * *

مهما كان المرء حذرا في تخطي وتفادي الشِراك والمكائد، فقد تكون الهوة الفصلية بين الطرفين أحيانا واسعة لا مجال لتجسيرها. أبعد ما كانت الحكومة في سريلانكا أن تذهب إليه هو أن تعرض حل حكومة فدرالية، ولكن لم يكن واضحا إذا كان حتى ذلك الحل كافيا للسيد براهاكاران. فقد اشتهر أنه قال لحراسه أن يطلقوا عليه الرصاص في اللحظة التي يتنازل عن قضية دولة منفصلة لتاميل إيلام. فبينما من الصعب أن يعتقد المرء في حقيقة أنه قد فكر في تحقيق دولة مستقلة من خلال المفاوضات، فهو ربما تبني الأسلوب التكتيكي بأن يبدأ المحادثات ثم ينتظر ليرى ما يتبين له من خيارات. والآن من المستحيل أن نعرف ما هي وجهة نظره، ولكن بالاسينجهام بكل وضوح قد مدد في تفويضه عندما وقع على حل فدرالي في إعلان أوسلو في نوفمبر/تشري ثاني 2002. ربما كان من الممكن، بالطبع، قناع براهاكاران أن يتحرك مسافة إضافية إذا كانت المفاوضات تسير بسلاسة. ويعتقد رام مانيكالينجهم، مستشار الرئيسة كومارتونجا، أن باربهاكاران ربما قبل صفقة تؤجل قضية حق تقرير المصير إلى تاريخ لاحق مع فترة انتقالية يستمر فيها كيان التاميل جزءا من سريلانكا. ولكن المفاوضات فعلا لم تستمر لمناقشة حقيقية للقضايا السياسية، رغم بذل الوسطاء النرويجيون قصارى جهودهم، لأنهم كانوا مشغولين باستمرار في تبادل التهم حول من بدأ بخرق وقف إطلاق النار. فالمفاوضات كثيرا ما تنجر إلى جدل لا فائدة فيه حول ما يجري في ميادين المعارك. ومن الخطأ أن يحصل هذا لأنه يسمم جو المحادثات وفي الوقت نفسه لا يحل أي مشاكل على الأرض. في محادثات (إيتا) في إسبانيا أصر 'جورج' منذ البداية أن يختم على المفاوضات بالشمع

الأحمر، وألا تستدرج بما يحدث في الخارج مثل التفجيرات، وهو ما كان يعلم أنه سيقع.

وإذا كانت الهوة أوسع فيتعذر بناء جسر مباشر بين الطرفين، فعلى المفاوضين أحيانا أن يلجأوا إلى الغموض البناء. كتب روبرت كوبر Robert Cooper يقول: "وظيفة الدبلوماسية غالبا هي إيجاد معادلة ما – والتي في الغالب هي كلمات في تناسق غامض – التي يتظاهر الجميع أنهم متفقون عليها في انتظار تغيُر الأمر الواقع... يمكن أن يجعل حل المشكلة أسهل". وكرونين يعتقد: "الاتفاقات الجيدة التي جاءت عن طريق المفاوضات في الصراعات المعقدة لتعقيد الحملات الإرهابية، غالبا ما يكتنفها عنصر من الغموض يمكن الممثلين للطرفين أن يفسروها بالطريقة التي تناسب مكوناتهم الشعبية والسياسية. وفي حقيقة الأمر فإن الوضوح في المفاوضات ليس بالضرورة هدفا مرغوبا فيه، إذ ربما تضعف بالفعل الآمال المرجوة في السلام القادم إذا نُسّقت وأخرجت بعناية، والاتفاقيات المصاغة بطريقة دقيقة يمكن أن توقد شرارات لصراعات إضافية أخرى". ففي نيبال، مثلا، أراد الماويون جمهورية، ولكن حزب الكونجرس لم يقبل بعبارة "جمهورية" في اتفاق عام 2005 المكون من اثنتي عشرة نقطة. ويقول زعيم الماويين، بهاتاراي Bhattarai: "اضطررنا إلى أن نصل لحل وسط معهم حول هذه المسألة. ولكم كنا ندرك أنه إذا اتفقنا على مصطلح محايد، يمكنا أن نفسره بما يتراءى لنا". الغموض حل الإشكال، ولو إلى حين.

ويقر ألفريدو روبالكابا بوجود "غموض كثير" في اتفاق ما قبل الاتفاق مع (إيتا) "والكل فسره حسب ما أراد". وقال إغويغورين أنه "كان غياب تحديد المعنى إيجابيا بالنسبة لي. صحيح أن الغموض قد يولد سوء فهم، ولكنني أعتقد أنه في قضية الباسك غياب تحديد المعاني كان أساسيا للوصول إلى اتفاق". إغويغورين ذهب إلى أبعد من هذا عندما واجهه البعض آنذاك، ليقول أن الاتفاقيات التي توصلت إليها مع (إيتا) هي "فهم" أكثر منها اتفاق ما قبل الاتفاق. مع الأسف أن (إيتا) لم تشارك رأي الحكومة حول الغموض: إذ كانوا يعتقدون أن الحكومة قد فشلت في تنفيذ ما التزمت به وهذا ما ساعد على

اللجوء إلى العنف من جديد. وعليه إذا كان حل الغموض قد يُعينك على الخروج من مأزق فاعلم أنه حل قصير المدى وأنه عاجلا أو آجلا سيؤدي إلى الهلاك.

كان هذا بالتأكيد صحيحا في أيرلندا الشمالية، حيث جعل الغموض البنّاء اتفاق الجمعة الحزينة ممكنا، ولكنه أصبح مهلكا مع مرور الوقت. فلو أننا أصررنا على حل قضية سحب السلاح في ذلك الزمان والمكان لاحتجنا للجلوس لثلاث سنوات بدلا عن ثلاثة أيام وثلاث ليال. فلا الاتحاديون ولا الجمهوريون كانوا على استعداد للوصول إلى اتفاق على ذلك. وعليه كان لزاما علينا أن نتوصل إلى لغة يمكن أن تفسر بطرق مختلفة من كلا الجانبين. فبالنسبة للاتحاديين كانت تعني أن على الجيش الجمهوري أن يسلم أسلحته قبل أن تنضم الشن فين إلى الحكومة، وبالنسبة للجمهوريين كانت تعني أن الاتحاديين عليهم تقديم أدلة قاطعة على أنهم سيشاركون في السلطة قبل أن يتخلى الجيش الجمهوري عن أسلحته. هذا الغموض أدى بنا إلى الاتفاق، ولكن مع عام 2003 بدأ دعم الاتحاديين للاتفاق يضعف بصورة دراماتيكية لأن الجيش الجمهوري لم يسحب أسلحته كما توقع الاتحاديون، وأن عمليات شبه عسكرية وإجرامية ظلت مستمرة. شعرنا عندها أنه من واجبنا إزالة ذلك الغموض، وهكذا ألقي توني بلير خطابا في بالفاست طالب فيه الشن فين أن تختار بين البندقية وصناديق الاقتراع. كنا قلقين جدا حول تجاوب الجمهوريين ولكن، مما أسرني، أن آدمز اتصل بي بعد أيام ليخبرني أن الخطاب كان ممتازا. ومما زاد من دهشتي أنه طلب مني أن أصيغ له ردا باسمه. فحاولت أن أكتب بلغة الجمهوريين وصغت فقرة انتهت بالكلمات التالية: "فإن سألني أحد عما إذا كنت أتصور مستقبلا بدون الجيش الأيرلندي الجمهوري، فإن الإجابة واضحة. الإجابة: نعم". وبعد أيام فتحت التلفزيون لأشاهد آدمز يقرأ الخطاب دون تغيير. وهكذا، فقد اخترقنا – فجأة – عقبة أساسية وانتزعنا الغموض من العملية السلمية انتزاعا.

والغموض هو أحد السبل لبناء جسور قد لا تبدو متيسرة. ولكن، مع الاعتراف بالمخاطر، على المفاوضين عادة السعي لإيجاد حلول أخر إن أرادوا

الوصول اتفاق دائم. يقول يوري وفيشر: "تعد المهارة لاختراع الخيارات إحدى الخصائص المفيدة التي يمكن أن يمتلكها المفاوض". فعندما يعترض سبيلك حاجز معين، فلا بد من أحد يأتي بفكرة جديدة لتخرجك من المأزق وتنطلق بعملية السلام إلى الأمام، ونادرا ما تكون الجماعة المسلحة هي التي تنقذك. يكتب كروكر فيقول "عند الاصطدام 'بأزمة عسيرة' تصبح الخيارات المتوفرة للوسيط محدودة. ويمكن هنا اللجوء إلى حل الوسط المعروف: 'تقاسم الفرق'. يمكنك العمل من أجل حل إجرائي (انتخابات أو تحكيم، مثلا)، أو يمكن التفكير في دفعات تعويضية أو صفقات جانبية لتغيير موقف أحد الطرفين، أو تعدل الأجندة وتعيد تعريف أو تشكيل المسائل محل الخلاف". هنالك طرقتان للتعامل مع الفكرة الأخيرة أعلاه. الأولى – يقول كروكر – هي "أن تقسّم المشكلة إلى أجزاء صغيرة ثم تتابع كلا منها بطريقة منهجية... حل بعضها وإعادة تعريف البعض الآخر والتعامل مع البقية بأسلوب المتاجرة أو المقايضة بين بعضها البعض. والطريقة الثانية وهي تغيير تشكيلة أو تركيبة المسائل في الصراع وهذا يتم بزيادة عددها ثم جمعها في أجندة واحدة أكبر. ربط المشاكل المعقدة بعضها ببعض يحمّل الفريق المفاوض الكثير من العبء والتعقيد. ولكنه يزيد عدد "الأطراف" المعنية ويعيد تعريف عدد منها، ويرفع من الفرص الطويلة الأمد لبناء إطار مقبول لدى الجميع. ويقول هنري كيسنجر أن "الربط" يمكن أن ينجح في المفاوضات حيث التقدم في موضوع مرتبط بالتقدم في موضوع آخر. والعادة أن هذا خطير لأنه قد يجمد المفاوضات، إلا أن كروكر أدار الموضوع بمهارة في المحادثات حول انسحاب كوبا من أنجولا واستقلال ناميبيا في أواخر عام 1980، حيث الوعد باستقلال ناميبيا أمّن انسحاب كوبا من أنجولا.

هايسوم كذلك يؤيد وضع الصفقات في رزمة واحدة إذ يقول: "في جنوب أفريقيا، وفي الساعات الأخيرة قبل انتهاء الموعد النهائي للموافقة على دستور جديد، كانت هناك عدة قضايا مثيرة لا تزال عالقة منها التعليم باللغة الأم وبند الملكية الخاصة. لقد استنزفت تفويضات الطرفين حول هذه المواضيع. لم يكن بالإمكان التوصل إلى اتفاق لو طرح كل موضوع للتفاوض بشكل منفصل. و لم

يصبح الحل ممكنا إلا عندما جمعت هذه القضايا المستعصية معا في رزمة واحدة من التنازلات وتمت الموافقة عليه بطريقة مكنت الأطراف أن تشترك في موازنة بين الخسائر والمكاسب".

إذا لم تفلح في الوصول إلى حل عن طريق صفقات الرزم أو الغموض فعليك البحث عن وسائل إبداعية أخرى للحل. قبيل نهاية المفاوضات في جنوب أفريقيا كان الموضوع الفاصل هو بين المشاركة في السلطة، وهي رغبة الحزب الوطني، وحكم الأغلبية، وهي رغبة حزب المؤتمر. وجاءت فكرة بناء جسر بين الطرفين من جهة غير متوقعة: جو سلوفو، رئيس الحزب الشيوعي في جنوب أفريقيا وبعبع الحزب الوطني (حزب البيض) لأمد طويل. أصبح سلوفو، فيما قاله الصحفي أليستر سباركس Allister Sparks، "ذئبا في ملابس حَمَل". سلوفو اقترح في مقال في مجلة الشيوعي الأفريقي *African Communist* في أغسطس/آب 1992، حلا سماه "بند الغروب *sunset clause*". ينص البند على مشاركة إجبارية في السلطة ما بين حزب المؤتمر الأفريقي والحزب الوطني لعدد من السنوات ثم تختفي المشاركة رويدا رويدا كما تغيب الشمس عند الغروب. وكتب يقول: "نحن لا نتعامل مع عدو منهزم"، ومن العبث أن نطالب بالاستسلام غير المشروط عبر مائدة المفاوضات. ويجب على حزب المؤتمر الأفريقي أن يميز بين الحلول الوسط "النوعية" و"الكمية"، وبين الانسحاب الاستراتيجي مقابل التسليم في المبادئ. ويشرح سلوفو هذه الفكرة فيقول إن الالتزام المؤقت بالمشاركة في السلطة هو انسحاب استراتيجي، وهكذا العفو العام والعرض بضمان الشغل لموظفي الخدمة المدنية البيض لمنعهم من عرقلة التغيير. والأمران ثمن يستحق أن يُدفع في سبيل تأمين انتقال سلس من وضع لآخر. وقد أثار المقال موجة من الجدال داخل حزب المؤتمر، ولكن لكون مصدره لا يمكن القدح في مصداقية أصوله الثورية، فكان من الصعب صرف النظر عنه. ونتيجة لذلك عرض حزب المؤتمر الوطني الأفريقي على ديكليرك حكومة وحدة وطنية لمدة ثلاث سنوات، وضمانات لموظفي الخدمة المدنية وملاَك الشرطة والعسكريين البيض بأن يحتفظوا بوظائفهم أو يحصلوا على

شروط تقاعدية سخية وكان ذلك عرضا لا مجال لرفضه من غالبية أنصار ديكليرك.

ويصف هايسوم ميزات بنود "الغروب" و"الشروق" هذه عندما تكون هناك قضايا ذات أهمية أساسية لأحد الطرفين غير مقبولة لدى الآخر، على الأقل في المدى القصير. **بند الغروب** يسمح "بإضافة شرط يزول بعد فترة من الزمن (ما بين خمسة إلى عشر سنوات مثلا) وتقديم شرط آخر كذريعة توفر تطمينات للطرف الآخر دون أن يصبح من ملامح البلد الثابتة سياسيا واقتصاديا... أما **بند الشروق**، على الطرف الآخر، يجيز الاحتفاظ ببعض الخصائص الأساسية للبرنامج السياسي لحزب ما في التسوية، وكأحد الملامح الرئيسية في نظام الحكم في المستقبل، وتأجيل التنفيذ مؤقتا بنية إيجاد الأوضاع المناسبة للتحول، والسماح للطرفين أن يدّعيا الحصول على ميزات من هذا الإجراء، أحدهما في المدى القصير والآخر في المدى البعيد".

الطريقة الأخرى للتعامل مع معوق كبير هي التفكير بأسلوب إبداعي وغير مباشر، وتقديم إجابات مختلفة تماما للبديلين المطروحين على الطاولة. روبرت كوبر Robert Cooper يستشهد بما قالته جين مونيه Jean Monnet، أحد مهندسي السوق الأوروبية المشتركة، إذ يقول: "إذا كانت لديك مشكلة لا تستطيع حلها فوسع إطار العمل"، وهو ما حاولنا عمله في أيرلندا الشمالية عندما وصلنا إلى طريق مسدود في عملية سحب أسلحة الجيش الجمهوري الأيرلندي. تحدثت في الموضوع مع أحد الجنرالات البريطانيين الذي عمل في بوسنيا وكوسوفو ووصف لي النظام هناك، حيث أنهم وضعوا أسلحة الفئات المتحاربة في مخازن للأسلحة وختموا عليها بالشمع الأحمر وظلوا يراقبوها ليطمئنوا أن أحدا لم يعبث بها. ولقد ذهبت لمقابلة آدمز وماغينس في بيت آمن في غرب بلفاست وعرضت عليهما الفكرة. فكان الرد أن الفكرة لن تنجح وأنها بالتأكيد لن تكون مقبولة لدى المجلس العسكري للجيش الجمهوري الأيرلندي. وبعد أسابيع قليلة جاءوا إلى جلسة رسمية للمفاوضات وطرحوا علينا نفس الفكرة. وبدون أي إشارة إلى أننا سمعنا بالفكرة من قبل، قبلنا أن ندرسها. فأحيانا من

المفيد إذا كان بإمكانك اقتراح بعض الأفكار للطرف الآخر التي يستطيع طرحها وكأنها من أفكاره.

هناك دائما حاجة إلى الإبداع في المراحل الأخيرة من المفاوضات. فعندما وصلنا إلى نهاية عملية السلام في أيرلندا الشمالية، وأخيرا وافق إيان بيزلي على الالتقاء مع جيري آدمز، وجدنا أنفسنا في حيرة كيف نحدد الأماكن التي سيجلس كل منهما فيها. كان بيزلي يرغب في الجلوس وجها لوجه مقابل الجمهوريين ليظهرا كخصمين بدلا من صديقين. ولكن آدمز أصر على الجلوس بجوار بيزلي ليظهرا متساويين وزملاء. و لم نجد لهذا المعوق من حل حتى جاءنا أحد موظفي مكتب أيرلندا الشمالية بفكرة ذكية وهي تصميم طاولة خاصة في شكل مَعين (ماسي) فيجلسا على جانب منها يفصل بينهما رأس الزاوية فقط، فيكونا بجوار بعضهما وفي الوقت نفسه يقابل أحدهما الآخر.

وأحيانا عندما يستنزف المرء الحلول الإبداعية ليس هنالك من بديل أمامه سوى الإذعان لرأي أو موقف الطرف الآخر إذا كان الهدف هو الوصول إلى اتفاق ما. انسدت محادثات أتشيه بأندونيسيا، التي يترأسها أهتيساري، في مراحلها الأخيرة، بسبب إصرار حركة أتشيه الحرة على أن يشاركوا في الانتخابات كحزب محلي، بينما ينص القانون الأندونيسي على أن يثبت الحزب السياسي أن له فروعا عاملة في نصف أقاليم البلاد، على الأقل، وفي نصف دوائر كل إقليم، على الأقل. والغرض من هذا الشرط بالتحديد هو منع نشأة أحزاب محلية يمكن أن تؤدي إلى شرذمة البلد وتشتتها. في يوليو/تموز 2005، وبينما قاربت المفاوضات على النهاية، بدأت الحكومة الأندونيسية في البحث عن حل وسط للخروج من هذا الانسداد. اجتمع الرئيس يودهويونو ونائب الرئيس يوسف كاللا، مع زعماء الأحزاب الكبرى واتفقوا على أن تقوم هذه الأحزاب بترشيح أعضاء من الحركة في انتخابات أتشيه كأعضاء في تلك الأحزاب دون الحاجة إلى تعديل القانون. وعندما رفضت الحركة هذا الاقتراح، عرضت الحكومة إعارة أعضاء في أحزاب أخرى للحركة يقومون بإنشاء فروع في أقاليم أخرى. ولكن الحركة رفضت هذا العرض كذلك قائلة بأنه "صفقة عاشقين...

تقضي احتمال وجود احزاب سياسية اخرى... فعملية السلام ليست من اجل ترتيبات تؤمن للحركة الفوز بالسلطة في أتشيه، ولكنها من أجل تقديم ديموقراطية حقيقية في أتشيه". وفي اللحظة الأخيرة، عندما استنزفت الحكومة حلول الوسط المخترعة، لجئت إلى الموافقة على السماح لحركة أتشيه الحرة، بصورة استثنائية، كحزب في الانتخابات المحلية المقبلة ثم تعديل القانون ليسمح بإنشاء أحزاب سياسية في أتشيه. هذا التنازل حقق الصفقة.

حتى لو نجح المرء في بناء الجسور لتغطية الفجوة الجوهرية بين الطرفين، تظل هناك حواجز قد تعيق الوصول إلى اتفاق دائم.

عليك أن تحدد إلى أي مدى تريد الاتفاق أن يكون مفصلا. كل الأمور يجب أن تكون على مائدة المفاوضات، ولكن ليس كل الأمور يجب أن تكون في الاتفاق. فقد يكون من الأفضل التركيز على إطار للاتفاق، مختصر نسبيا، الذي يمكن أن يظل في مستوى المبادئ. وقد يخشى أحد الطرفين أن يظل هذا في مستوي المبادئ على طول ولا يتحرك أبعد من ذلك. ويكتب توم فريدمان أن في الشرق الأوسط "يرتعب الفلسطينيون من حل مؤقت يصبح حلا نهائيا، بينما يرتعب الإسرائيليون من حل نهائي يصبح حلا مؤقتا". ولكن على كل حال لقد آلت كثير من الاتفاقات الناجحة إلى إطار اتفاق، مثل اتفاقيات كامب دافيد بين أنور السادات ومناحم بيغن برئاسة جمي كارتر. ولكن اتفاقا كهذا، إذا أريد له أن يكون ناجحا، فلا بد أن يكون محددا حتى لا يعاد فتح نقاط من جديد فيما بعد حتى ولو كانت التفاصيل تحتاج إلى تفاوض أكثر.

هناك مبررات لأن يكون الاتفاق مفصلا حتى يكون بالإمكان مع تنفيذه أن يصبح عرضة للغموض حول ما أتفق عليه، ولكنه أيضا صحيح أن يقال أن الغوص في التفاصيل قد يطيح بالاتفاق. يصف الكاتبان إسوهو وتوللي كيف كان رد فعل الأمم المتحدة من مطالبة الطرفين في قبرص بالإجماع حول كل القضايا قبل الانطلاق إلى الاتفاق نفسه.. "وكانت الأمم المتحدة قد حددت نحو سبعين نقطة من قوانين الفدرالية التي يجب الاتفاق عليها كجزء من اتفاق السلام الشامل، ولكن الزعيم الجديد الذي انتخب حديثا، تاسوس بابادوبلس Tassos

Papadopoulos، أصر على عدم ترك أي شيء للتفاوض بعد الوصول إلى الاتفاق وتوحيد البلاد. ولهذا كان على فريق التفاوض أن يتوصل إلى اتفاق حول نحو 190 نقطة من القانون الفدرالي.. وهو مجهود دقيق احتاج إلى كمية كبيرة من الدعم الخارجي ولكنه أخيرا اكتمل بشكل جيد". ولكن التفاصيل نفسها الناتجة عن خطة كوفي أنان كانت هي قاصمة الظهر للمشروع. فدعت القيادة القبرصية اليونانية للتصويت ضد مسودة اتفاق الأمم المتحدة في استفتاء عام 2004 على أساس نقاط تفصيلية أضيفت من قبل الأمم المتحدة، وسقط الاتفاق.

وفشل اتفاق آخر بين حكومة الرئيسة غلوريا أرويو Gloria Arroyo الفليبينية وجبهة تحرير مورو الإسلامية في عام 2008 للأسباب نفسها. كانت الحكومة ضعيفة وفي حالة يائسة لتأمين نجاح ما. ونتيجة لذلك لم يكن هناك تشاور كاف مع الشعب. كمية التفاصيل في المسودة أعطت للمعارضين مبررا لتحدي الحكومة في المحاكم، فاتهموا الحكومة بأنها لم تتبع الإجراءات الصحيحة في تغيير الدستور. أيدت المحكمة العليا هذا التحدي وانسحبت الحكومة من الاتفاق. وعندما عاد الطرفان إلى مائدة المفاوضات تحت رئيس جديد، اتخذا قرارا حكيما ضد العمل من أجل اتفاق شامل ولكنهم انتهوا إلى صفقة هيكلية في عام 2003 تركت البت في أغلب التفاصيل لوقت لاحق من قبل هيئات مشتركة، بما في ذلك ملاحق عن إصلاح الشرطة وتسريح القوات العسكرية وسحب الأسلحة.

إن أريد لاتفاق أن ينجح كان على كل من الطرفين يتولى إقناع أنصاره بما يفعل أثناء سير المفاوضات. ولكن من السهل أن تصبح المفاوضات مجرد فقاعة عندما يعزل أصحابها عن العالم الخارجي. فهم، قبل كل شيء، يتداولون في أمور حياة أو موت، ويمكن أن تكون المفاوضات عنيفة ومرهقة بشكل كامل. فإذا انعزل الطرفان عن أنصارهما فسيجدان مسألة كسب دعم لنتيجة المفاوضات عملية في غاية الصعوبة. دافيد تريمبل أعطى الانطباع بأنه نادرا ما كان يخبر حتى كبار زملائه بما كان يوافق عليه مع الطرف الآخر، وكانت النتيجة أنه اضطر في

أغلب الأحيان إلى التراجع عن اتفاقات توصل إليها مع الطرف الآخر في وجه معارضة من أنصاره أنفسهم. رجال حزب إيان بيزلي، الديموقراطيون الاتحاديون، كانوا ضالعين في العمل كرجل واحد، يقدمون التقارير المستمرة لقيادتهم ولأعضائهم في البرلمان عن كل التطورات الكبرى. وكان أعضاء الشن فين أكثر التزما وتنظيما بطريقة عنقودية معقدة لتوصيل المعلومات لكل أعضاد الشن فين والجيش الجمهوري الأيرلندي حول كل خطوة قبل أن تذاع على عامة الناس. لقد كانت لديهم ميزة الانضباط الذي تفرضه الجماعات السرية على أعضاءها مما ساعدهم على تفادي تسرب المعلومات.

حركة أتشيه الحرة في أندونيسيا لم تحضّر أتباعها بطريقة جيدة لاتفاق هيلسنكي، وأصاب هؤلاء الهلع عندما علموا بحجم التنازلات التي قدمتها الحركة. وعلى الجانب الآخر، نجح نائب الرئيس يوسف كاللا في تسويق الاتفاق بصورة شجاعة لمواطنيه. وعندما هاجم الاتفاق الرئيس السابق ماغاواتي قائلا: "استسلمنا لحركة أتشيه الحرة" وقاطع احتفالات عيد الاستقلال، كان رد كاللا على أتبَاع حزب ماغاواتي بأن عليهم أن يذهبوا إلى أتشيه "ويخوضوا الحرب بأنفسهم" إذا لم يعجبهم الاتفاق. ويقول أف. دبليو، ديكليرك أن انشقاق اليمين المتطرف للحزب الوطني في جنوب أفريقيا عام 1982 ساعده كثيرا، وإصابة أعضاء البرلمان الأكثر لبرالية المتبقين في الحزب، بخيبة أمل جراء بطء حركة عملية السلام تحت بي. دبليو. بوتا. "فعندما أخبرت مؤتمر الحزب (الكوكس) بعد انتخابي رئيسا للحزب مباشرة في فبراير/شباط 1989 أنه علينا أن نقفز 'قفزة كمية' كان رد الفعل الغامر في الحرب 'أقفز ونحن من ورائك.. يا ديكليرك'". وقد بذل ديكليرك جهدا كبيرا في أن تكون الحكومة كلها في الصورة بالكامل. "لقد نظمنا مؤتمرات في الحدائق حيث طرحنا الخطوط العريضة لسياستنا التي ستتبعها، ورجعت إلى زملائي بتقارير عن التقدم الذي كنا نحرزه والعراقيل التي كنا نواجهها في العملية". وعندما هددت المعارضة اليمينية الاتفاق بإخراج العملية عن مسارها عام 1992 دعا ديكليرك إلى عقد استفتاء عام للحصول على تفويض كامل لسياسته التفاوضية ومضى في حملته بقوة نحو

التصويت تحت شعار: 'نعم للتغيير'. وقد أعطته النتيجة القوية الدعم الذي كـان في حاجة إليه ليتغلب على الاعتراضات وأن يتبنى سياسة جريئـة للتوصـل إلى اتفاق، بدلا من أن يظل ينظر إلى الخلف باستمرار. فإذا عقدت العزم على المضي في سبيل إحراز اتفاق فلا مبرر لأن تتخذ موقف الدفاع أو أن تكون مكسـور الخاطر باستمرار. الطريقة الوحيدة الناجحة لتسويق الاتفاق هي أن تكون جريئا.

السياسة أحيانا تجعل ذلك الأمر صعبا. كان هناك إجماع سياسـي لفتـرة قصيرة بين السينهاليين في سيرلانكا على السلام، ولكنه تبخر بسرعة في بدايـة الألفية الجديدة حيث ظهرت البلاد وكأنها تتذبذب بين منزلة من المنزلتين حيث "لا حرب ولا سلام". الأعمال الوحشية التي ارتكبها نمور التاميل غذت مشاعر القومية السنهالية، والأكثر من ذلك، الصراع بين الرئيسة كوراماتونجا ورئـيس الوزراء ويكريمسينج شجع النمور بالتعامل مع عملية السلام ككرة قدم سياسية. وأخيرا طغت عائلة راجاباكسا Rajapaksa على القطبين وجاءت بنوع آخر من القومية السنهالية، أكثر تطرفا، ومضاد بصور كاملة لعملية السلام. من المفارقات الغريبة أن ويكريمسينج كان من الممكن أن يفوز بالرئاسـة لـولا تكتيكـات برهاكاران. فنمور التاميل لم يقاطعوا انتخابات واحدة من قبل ولكن برهاكاران قرر أن يفرض على التاميل منعا للمشاركة في انتخابات 2005 لأنه شعر بـأن ويكريمسينج سوف يجد تأييدا دوليا ضخما بينما سيكون راجاباكسـا منافسـا ضعيفا. استطاع راجاباكسا أن يفوز بفارق بسيط: 50.4% مقابل 48.4%. لقد كان بالاسينجهام ضد المقاطعة، ولكنه كان يصارع الموت بسـبب السـرطان وعلاقته مع برهاكاران بدأت، مع ذلك الوقت، في الاضمحلال.

ربما كان أشد خطرا على الاتفاق من تغيرات السياسة المحليـة، الـتغيرات الناتجة عن ما يشير إليه الماركسيون بتعبير "تأثير القوى الفاعلـة". عنـد بـدء المحادثات في سريلانكا كانت هناك أزمة ضارة متبادلة عسكرية ولكن مع 2004 تغيرت الأوضاع. كان العقيد كارونا Karuna، الذي قاد قوات منظمـة نمـور تحرير تاميل إيلام في شرق البلاد وكان في الأصل حرسا شخصيا لبرهاكـاران وجزءا من فريق النمور المفاوض، وقد كان للاجتماع الأول في تايلندا أثر قوي

عليه شخصيا، وفتح عينيه على العالم الخارجي لأول مرة. وفي اجتماع أوسلو انحاز إلى صف بالاسينجهام في موضوع الفدرالية، ونتج عن ذلك هوة بينه وبين برهاكاران. ولعل أهم من الخلاف الأيديولوجي بينهما كانت ميول كارونا نحو الجنس اللطيف والحياة الرغدة، وربما أن وقف إطلاق النار، في الحقيقة، أعطاه الفرصة للخلاص من الموت. فقد اصطف هو إلى جانب الحكومة، وقوات نمور تاميل في الشرق تفككت، وآلاف الكوادر تخلوا عن صفوف المقاتلين. وهنا أصبح البديل العسكري يبدو أكثر جاذبية بالنسبة للحكومة. وكما هي العادة، لم يكن سوى حدث واحد هو السبب في عودة البلاد من جديد للحرب الشاملة. في 20 يوليو/تموز 2006 أقفل النمور بوابة سدّ لمياه الري في منطقة مافيل آرو Mavil Aru، جنوب ميناء ترينكومالي Trincomalee الرئيسي، وقطعوا المياه على خمسة عشر ألفا من سكان القري وآلافا من الهكتارات من حقول الأرزّ. ردا على ذلك قامت قوات الحكومة بشن "حرب نهائية" لم تتوقف حتى قتل برهاكاران وزملاؤه من الزعماء الآخرين وهزم نمور تحرير تاميل إيلام هزيمة نكراء.

الانشقاقات والانقسامات داخل الجماعة المسلحة يمكن أن تعرض المفاوضات للخطر في مراحلها الأخيرة. فشلت المحادثات بين (إيتا) والحكومة الإسبانية في 2006 لإصرار (إيتا) على ضم نباريه لأراضي الباسك، وهو ما لا توافق عليه الحكومة الإسبانية حتى وإن كانت ترغب في ذلك لأن ذلك يعتمد على إرادة أهل نباريه. ولقد أخذت (إيتا) موقفا متشددا تجاه الموضوع في موعد متأخر نسبيا في العملية لأن المنظمة ظهرت فيها انشقاقات وتغلب الفريق المتشدد. انضم 'مارك' لفريق المحادثات ليحل محل 'جورج' الأكثر اعتدالا والأوسع خبرة كمفاوض أول. وكان مارك قائد (إيتا) السياسي وقد تغلب في صراع على السلطة على قائدين عسكريين هما تشروكي Txeroki وأتا Ata وطردهما من القيادة الجماعية للمنظمة. وعندما جاء مارك إلى أوسلو في أكتوبر 2006 تبني موقفا يتزايد عدوانية، فاتهم الحكومة بعدم الالتزام، وحاول دمج المحادثات السياسية والفنية في وحدة واحدة حتى تتمكن (إيتا) من التفاوض فيهما

معا. وحذر الحكومة من أن (إيتا) تستهدف أحد القضاة لاغتياله. وعندما التقوا في أوسلو في منتصف ديسمبر/كانون الأول، اختفى جورج من على وجه الأرض، وكانت (إيتا) قد أصدرت، بدون علم الحكومة، أوامر لشن هجوم في إسبانيا. وقال مارك لإيغويغورين أنه في حالة فشل المحادثات "فهي فيتنام"... وأن الحكومة ستتحمل المسؤولية عن مقتل الكثيرين. اتفق الطرفان على اللقاء ثانية في يناير/كانون الثاني، ولكن في ديسمبر/كانون الأول انفجرت القنبلة في موقف سيارات الصالة رقم أربعة في مطار مدريد. لقد أخذت الحكومة على حين غرة بالكامل. وقد كانت (إيتا) في السابق دائما تعلن وقف إطلاق النار قبل أن تستأنف الهجوم. ومن الغريب أن المنظمة اعتبرت القنبلة كإنذار لا أكثر ولا أقل ولم تعتبرها خرقا لوقف إطلاق النار. وكتبت (إيتا) لثاباتيرو تعرض عليه المحافظة على وقف إطلاق النار وتؤكد استعدادها لمواصلة عملية السلام. وردت الحكومة قائلة أن ذلك ممكن فقط في حالة ما إذا تخلت (إيتا) عن أسلحتها. وكانت هناك محاولات متباعدة إضافية لعقد محادثات قبل هذه المرحلة من العملية التي انتهت بمارك في الاجتماع الذي عقد بالقرب من جنيف في 2007. اعتُقل مارك بعدها بسنة في مايو/مايس 2008 ومات في أحد السجون الفرنسية عام 2013.

حتى وإن فشلت المفاوضات، فمن المهم أن يبقى المرء على اتصال مستمر، حتى لا تسقط العجلة. بعد الفشل في إسبانيا، باتاسونا لملمت أمورها فيما يخص (إيتا) وأسست طريقة جديدة للتحرك. كان الوسطاء الذين ساعدوا في السابق ما زالوا مشاركين ولهم القدرة أن يحركوا الأمور من جديد. فعندما استأنفوا العملية كان الأسلوب الذي اتبعوه مختلفا تماما. الحل هذه المرة كان يعتمد على مناشدة (إيتا) من قبل شخصيات دولية من الخارج كانت على استعداد أن تلعب دورا في إنهاء آخر صراع مسلح في أوروبا. فخرجت مجموعة بقيادة كوفي أنان، أمين عام الأمم المتحدة سابقا، وغرو هارلم برندتلاند Gro Harlem Brundtland لتوجيه مناشدة في مؤتمر آييتي Aiete Conference في سان سابستيان بشمال إسبانيا، في أكتوبر/تشرين الأول 2011، موجهة إلى (إيتا) لإنهاء حملتها المسلحة

وإلى الحكومتين الإسبانية والفرنسية بالعمل معهم لتحقيق ذلك الهدف. اعلنت (إيتا) نهاية كفاحها المسلح تقريبا في الحال... وكانت تلك لحظة تاريخية.

عندما تصل المفاوضات مراحلها الأخيرة، يخرج أحد الطرفين في معظم الأوقات بمطالب في الدقائق الأخيرة فتبدو العملية على وشك الانهيار. في أغسطس/آب 1993، فجأة رفض الجانب الفلسطيني مسودة الاتفاق التي اشتغل عليها الطرفان في أولسو، وتقدموا بعشرين مطلبا جديدا بالكامل. التقى الطرفان في شقة وزير الخارجية النرويجي في باريس، واقنع الإسرائيليون الفلسطينيين بشطب أغلب النقاط، ولكن عندما أضافوا مقترحات أخرى جديدة، قطع الإسرائيليون المفاوضات. وتجاوبا مع ذلك جاء الفلسطينيون بمسودة جديدة مقبولة. تفاوض الجانبان طوال ليلة العشرين من أغسطس/آب وتوصلا في النهاية إلى تسوية مرضية للطرفين.

فمن المهم ألا يفقد المرء صوابه في هذه المراحل النهائية حين يبدو أن الجانب الآخر وكأنه يعيد للنقاش طرح كل النقاط التي سبق وأن اتفق عليها. فكل همهم هو في الحقيقة اختبار حدود المستحيل الممكن. فالأفضل أن يظل المرء هادئا، وأن يتقدم ببعض التنازلات لتحلية الجو ولكي يشعر الطرف الآخر بأنه كسب شيئا في اللحظات الأخيرة.. ثم يوقع الاتفاق وعلى شفتيه ابتسامة حلوة بدلا من تكشيرة متجهمة.

المشكلة الأخرى التي يمكن أن تنحرف بالاتفاق عن مساره الأصلي وهو على وشك الانتهاء هي إصرار الحكومة على حل الجماعة المسلحة. وفي الوقت الذي قد تبدو المطالبة باختفاء منظمة إرهابية منطقية، إذا أريد للسلام الدائم أن يعم، فهي ليست حكيمة على كل الأحوال. فأحيانا تكون في حاجة إلى ابقاء الجماعة على ما هي عليه حفاظا على "العلامة المميزة" بدلا من خروج مجموعة أخرى غير مؤهلين فيستولون على الاسم وبدأوا استئناف لدورة العنف من جديد. ومن الأفضل أحيانا أن الجماعة تظل موجودة لضبط عملية نزع السلاح وتسريح المقاتلين بدلا من تركها تتفكك إلى حالة من الفوضى. ومن المعتاد في مثل هذه المفاوضات لا يمكن جلب المنظمة كلها إلى حل سلمي ولكن جزءا

كبيرا منها ووحدات أخرى ستنفصل. وهذا ربما لا يهم طالما نجحت في جلب أكثر من نصف الجماعة المسلحة معك وهم قد جاءوا بالعلامة المميز للحركة معهم. وفي هذه الحالة حتى وإن استمر القتال فإن الواعز السياسي يكون قد تبخر.

آخر المشاكل، وربما أصعبها، هي مشكلة إنهاء الاتفاق هي مسألة من الذي سيجرؤ أن يكون الأول للنكث بالاتفاق. فالجماعات المسلحة دائما تخشي أنها بمجرد أن تتنازل على أسلحتها، وهي رصيدها الوحيد في المعركة، فإن الجانب الحكومي سينكث بعهوده التي قطعها على نفسه. وهنالك أسباب جيدة غالبا لهذا التخوف قائمة على تجارب تاريخية. ففي هذه الحالات لا بد من إدماج ضمانات في الاتفاق أن تغيرات أساسية لن تطرأ عليه وأن الحكومات المتتالية ستلتزم بما جاء فيه ولن تنقضه. فكل من الفريقين لا يرغب أن يكون أول من يخل ببنود الاتفاق لأنه لا يثق في أن الطرف الآخر لن يبادله التصرف. ولكي نتجاوز هذا المأزق في أيرلندا الشمالية – حيث الاتحاديون لا يثقون في أن الجمهوريين سيلقون بأسلحتهم واصروا أن يفعلوا ذلك قبل دخولهم الحكومة، وحيث الجمهوريين لا يثقون في الاتحاديين أنهم سيشاركونهم في السلطة عندما يتخلوا عن أسلحتهم – اضطررنا إلى تقسيم المطلوب من كلا الطرفين إلى مهمات صغيرة، وصممنا جدولا، معقدا شيئا ما، بحيث كل خطوة يخطوها أحد الطرفين، تتلوها خطوة من الجانب الآخر... فلا ينفذ أحدهما أمرا لا يمكن التراجع فيه حتى يكون واثقا من أن الطرف الآخر سيتبعه بعمل مما التزم به. هذه المتتابعات من الخطوات البديلة حول نزع السلاح والتغيير السياسي هي ملامح مشتركة في معظم الاتفاقيات.

وفي الأخير، على كل الأحوال، لا يمكن الوصول إلى اتفاق دائم إلا إذا نجح الطرفان من الخروج من لعبة المعادلة الصفرية – إما منتصر وإما مهزوم. فإذا شعر أحد الطرفين أنه قد أجحف في الاتفاق، فلن يهدأ له بال حتى ينكأ الأمر من جديد، كما فعلت ألمانيا بعد اتفاقية فيرساي Versailles Treaty. ويحذر الكاتبان غابريللا بلوم Gabriella Blum وروبرت منوكن Robert Mnookin من

الوقوع "ضحية للمعادلة الصفرية، أو مغالطة الحصة الثابتة – وهي الافتراض بأن الصراع هو حول التوزيع الغنائم فقط، وأن الكسب من قبل أحد الأطراف يشكل بالضرورة خسارة للطرف الآخر... فهناك احتمال للكسب المشترك أكثر مما نتصور". ففي محادثات أيرلندا الشمالية كان الجمهوريون أكثر ذكاء في التعامل مع هذه المشكلة من الاتحاديين. فجيري آدمز كان يخرج من جلسات المفاوضات مبتسما، بينما يخرج الاتحاديون مقتنعين بأنهم قد خسروا، بغض النظر عن النتيجة. وكان أغرب مثال على ذلك هو وقف إطلاق النار لعام 1994. ظل الاتحاديون يطالبون الجيش الجمهوري بالتوقف عن العنف، ولكن عندما تحقق ذلك فعليا خرج الجمهوريون في سياراتهم في الشوارع مهللين مزمرين رافعين أعلامهم في نشوة من النصر، بينما غرق الاتحاديون في حالة من الاكتئاب عميقة مقتنعين أن الحكومة خدعتهم في اتفاقية سرية. ولم ينتبه آدمز إلا في عام 2005 أنه يحتاج من أجل أن يثبت الاتفاق، أن يسوّقه إلى الاتحاديين قبل أنصاره وأتباعه. كان عليه أن يتوقف عن محاولة الفوز باستمرار وكأنه في مباراة كرة قدم. إن مجرد استيعابه لهذه النقطة كان له تأثير فعال في طمأنة الاتحاديين، ونجحنا أخيرا في التوصل إلى اتفاق دائم. هذه الفكرة كانت واضحة بشكل لا جدال فيه. ولكنني عندما طرحتها في مؤتمر صحفي تمهيدا لمؤتمر أييتي Aiete في بلاد الباسك شمال إسبانيا، صعقت بما تعرضت له من نقد شديد في الصحافة اليمينية الإسبانية. لقد أصروا أن تكون الحكومة هي الكاسب و(إيتا) هي الخاسر. ولكنني ليس بوسعي أن أفهم كيف يمكن أن يكون ذلك أساسا لسلام دائم. حتى في نيجيريا بعد الحرب مع بيافرا التي هزمت فيها بيافرا هزيمة كاسحة على يد العسكر، كانت الحكومة أكثر حكمة واتزانا فعلقت لافتات في كل نواحي البلاد تصر على عدم وجود "لا رابحين ولا خاسرين".

والحكومات هي الأخرى عليها أن تكون على استعداد لتسويق الاتفاقات مقدما إن أرادت لها أن تكون فعالة. والمعضلة هنا أنها تحتاج، من جهة، أن تبدأ بتسويق الاتفاق للجمهور، ومن جهة أخرى، عليها أن تقنع الطرف الآخر في المراحل الأخيرة من المفاوضات أنه من الصعب عليها أن تقدم أي تنازلات

أخرى. فمحاولة التوفيق بين هذين الهدفين أمر شائك، وفي هذه المراحل الأخيرة من المفاوضات على الحكومات أن تغير من خطابها وتتحدث عن فرص نجاح الاتفاق وعن الحاجة إلى العمل يدا في يد مع الجماعة المسلحة. فهناك حاجة إلى خطابين أو نوعين من الخطاب متناسقين. فالجماعة المسلحة تحتاج إلى أقناع أنصارها أنها لم تستلم، وأن تبين لهم بكل وضوح أن كل تلك المعاناة والأرواح لم تذهب سدى. أما خطاب الحكومة فيحتاج أن يكون مختلفا ولكن لا يتناقض مع خطاب الجماعة المسلحة. وفي الواقع كل من الطرفين يحتاج إلى كتابة خطاب النصر نيابة عن الطرف الآخر. لقد قضينا وقتا طويلا خلال الأسابيع الأخيرة من مفاوضات أيرلندا الشمالية في الاتفاق على ما يقال للإعلام وما لا يقال، مع الجمهوريين والاتحاديين على قدم سواء، للتأكد من عدم تناقض أحدهما مع الآخر فيما يقول عن الاتفاق الذي تمت الموافقة عليه.

أصعب مهام الحكومة هي إقناع الجمهور بما هي المبررات التي تجعل من الضروري ابتلاع حلول وسط بغيضة مع إرهابيين. فالشعب بطبيعة الحال يريد السلام ولكن بشروط الشعب. يقول المؤرخ مالكولم ديس Malcolm Deas عن المفاوضات مع القوات المسلحة الثورية الكولومبية أن منافس الرئيس سانتوس، "أوريب Uribe عرض السلام الذي كان يتمناه الكولومبيون ولا يمكنهم تحقيقه (بدون تنازلات). أما سانتوس فيعرض السلام الذي لا يريدونه، والذي يمكن أن يحصلوا عليه". وفي الحقيقة أنه من الممكن تقديم تنازلات حقيقة، كإطلاق سراح مساجين أيديهم ملطخة بالدماء، في إطار رزمة كبيرة من التنازلات يوازن فيها الشعب بين تنازلات لا يرضاها ومكسب تحقيق السلام بصفة عامة.

كما أن هناك، في الدقائق الأخيرة، تدفق الشعور بما يعرف "بحسرة الشاري". بمجرد التوقيع على اتفاق السلفادور انبرى شفيق هاندل إلى خوكيان بجلوبوس يسأله: "يا ويلنا.. ماذا فعلنا؟ آنها النهاية ولكن بدون نتيجة". لفد أخفق الاتفاق في أن يحقق الثورة الاجتماعية التي كان يهدف إليها هاندل وحارب من أجلها، وتملكه الرعب أنه سيتهم بالخيانة. لقد كان في حاجة إلى صراع منستمر ليحافظ على الدعم الذي كان يتلقاه. ولكن

منظمة القوات الثورية أقدمت على توقيع التسوية على أي حال، ورغم هواجسه وشكوكه.

جاءت اللحظات الأخيرة في مدينة المكسيك في يناير/كانون الثاني 1992. صافح الرئيس كريستياني قادة جبهة فارابوندو مارتي للتحرير الوطني. وقف خوكوين بجالوبوس بجوار الجنرال بارجاس، والابتسامة العريضة على وجهيهما، لالتقاط الصور التذكارية، وتعانقا وهما يغالبان الدموع. أكثر من 75 ألف قتيل والملايين أخرجوا من ديارهم في صراع دام اثني عشر عاما. بعد حفل التوقيع طار زعماء جبهة التحرير راجعين إلى السلفادور على متن طائرة الرئيس المكسيكي إميليانو ثاباتا Emiliano Zapata، وطلبوا من جيمس لوموين، صحفي في صحيفة نيويورك تايمز آنذاك، أن يصحبهم كشاهد عيان. وعندما دخلت الطائرة أجواء السلفادور أجهش أولئك الزعماء بالبكاء. لم يعودا إلى وطنهم قانونيا لعشرات السنوات. ولكن لم تكن هناك استعدادات خاصة لاستقبالهم، وكان في مطار مدينة سان سالفادور موظف وحيد ذو أعصاب قلقة في انتظارهم، متأبطا بندقية أم – 16 وينظر إليهم محدقا في وجوههم لا يدري هل يطلق عليهم الرصاص أم لا، وقرر في النهاية ألا يفعل. تركوا المطار في اتجاه سان سالفادور حيث نزلوا ضيوفا على السفارتين الإسبانية والفرنسية. عقد اجتماع كبير في الميدان الرئيسي حيث ارتكبت أسوأ المذابح في الماضي. جاء المقاتلون من أعالي الجبال ليحتفلوا ويبتهجوا، رغم أن العفو العام لم يتفق عليه بعد. ويقول لوموين في تقريره الصحفي أن مجموعة من المتردين قفزوا في سيارة ناقلة قديمة من نوع تويوتا وانطلقوا بها في الطريق السريع يغنون الأغاني الثورية ويلوحون بأيديهم للجنود في نقاط التفتيش. وعندما لوح لهم الجنود بأيديهم تجاوبا معهم تيقنوا أن السلام الحقيقي قد حل. وانضم الثوريون المقاتلون إلى آلاف آخرين يحتفلون بالمناسبة في قلب المدينة. واحتل أنصار الحكومة إحدى الساحات الكبرى في المدينة، واتفق الجميع على أنهم نظموا أحسن أنواع الألعاب النارية. واحتل المقاتلون ساحة أخرى وأكد الجميع أيضا أنهم جلبوا أحسن الفرق الموسيقية. طوابير خطوط الكونجا

انتشرت بعفوية حيث كان القناصون من قبل يتربصون بالمتظاهرين في الماضي. غطت الكاثيدرائية فظهرت مكسوة بقطعة قماش ضخمة طبعت عليها صورة لوجه الزعيم فارابوندا مارتي Farabundo Marti مؤسس الحزب الشيوعي في السلفادور. وأخذت صورة لبجلوبوس، الذي كان هدفا لفريق خاص من وكالة المخابرات الأمريكية (سي آي أيه) لعدة سنوات، في حفلة بصحبة السفير الأمريكي في السفارة الأمريكية. ووقف الزعيم المقاتل بعيدا، عند بداية الحفلة، في ناحية من الصالة، ووقف العسكريون في الناحية المقابلة. وبعد عشر دقائق، تخلص الجميع من استحيائهم، كالمراهقين في حفلة رقص، واختلط بعضهم ببعض. لقد تعارفوا في المدارس وفي الجامعات واليوم انطلقوا يجددون صداقاتهم ويستأنفون معارفهم من حيث تركوها.

وأحيانا تعلن نهاية الصراع في موعد لم تكن تتوقعه. لم نكن نترقب أن لقاء إيان بيزلي وجيري آدمز في مايو/مايس 2007 سيكون موعدا لنهاية عملية السلام، ولكن وسائل الإعلام قررت أن الصور الفوتوغرافية كانت إيذانا بذلك لا يقاوم ونشرت نعي "الأحداث" في أيرلندا الشمالية. لقد أدركت شخصيا أن الصراع انتهي عندما كنت أشارك، بعد ذلك بشهور، في الجلسة الافتتاحية للمجلس التشريعي Assembly بمبنى ستورمنت Stormont، البرلمان الأيرلندي. فبينما كنت أغادر الشرفة حيث كنت جالسا بصحبة توني بلير، رئيس الحكومة البريطانية، وبيرتي أهيرن، رئيس وزراء سابق في جمهورية أيرلندا (الجنوبية)، أخبرني أحد الزملاء أن أحد زعماء الجيش الجمهوري كان جالسا على بعد امتار مني مع أننا لم نعترف بهم بعد. أما في نيبال فكان ظهور الزعيم الماوي براشاندا Brachanda المفاجئ في مايو/مايس 2006. أقلت الحكومة الزعماء الماويين على متن طائرة مروحية إلى العاصمة كاتماندو Kathmandu، من المدينة الريفية التي كانوا يعقدون فيها جلسات تدريب سياسية، إلى مؤتمرهم الصحفي الأول في البيت الرسمي للرئيس، بعد خمسة وثلاثين عاما من العمل السري، والذي تزعمته وسائل الإعلام لإعلان وصول السلام إلى نيبال، برغم وجود عدد من الأزمات المقلقة في الطريق.

في عمليتي أوسلو كانت القضية بندقية. كتب محمد حسنين هيكل، الصحفي المصري، أنه أثناء الاستعدادات لحفل التوقيع في البيت الأبيض جاء مسؤول التشريفات للوفد الفلسطيني في الفندق ليطلب من ياسر عرفات أن يرتدي زيا مدنيا للاحتفال. رفض عرفات قائلا لا أحد سيتعرف عليه في بدلة مدنية. ثم كان عليهم أن يقرروا ماذا سيفعلون بالمسدس (من نوع سميث آند ويستون) الذي تعود عرفات على حمله في خصره طول الوقت. واقترح عرفات ابتداء أن يأخذه معه إلى البيت الأبيض، لأن "الثورة لا تسلم سلاحها"، ولكن قيل له أن رجال الأمن في البيت الأبيض سيخضعونه للتفتيش. الفكرة الأخرى كانت هي أن يحمل المسدس بعد أن يترك الرصاص في الفندق. الفكرة الثالثة هي أن يسلم المسدس للرئيس كلينتون كجزء من الاحتفاء بالمناسبة. وأقتنع عرفات في النهاية أن يترك المسدس في الفندق. ردود الفعل للحفل في إسرائيل كانت عينة لما هو قادم من إشكالات. ظهر عشرات الآلاف في الميدان الرئيسي بتل أبيب، وكان بعضهم يبكون من الفرح. والقى الكاتب أموس أز Amos Oz خطابا للجمع ختمه بقوله: "الموت لن يحكم بعد اليوم". ولكن بنيامين نتنياهو قال في الكنيست Knesset (البرلمان الإسرائيلي)، موجهاً كلماته لشمعون بيريز، "إنك أسوأ من تشمبرلين Chamberlain (البريطاني) الذي وضع سلامة أناس آخرين في خطر، أما أنت فتعرض شعبك كله للخطر".

إن المناورات من أجل الوصول إلى نهاية اللعبة في المفاوضات والتوصل إلى اتفاق دائم تستدعي المهارة وحسن الطالع. يحتاج المرء إلى الدفع بالأطراف المعنية إلى الحد الأدنى المقبول لدى كل منهم ثم تبدأ بالمقاربة من وجهات النظر بينهم. وغالبا ما يكون ذلك بالغموض البناء بحلول إبداعية لتوسيع سياقات متعادلة عسيرة حيث الأطراف في جدال لا نهاية له. وهنا تأتي لحظة التراجع وهي عندما تلمح الجماعات المسلحة بوادر عملية سياسية في الأفق وتدرك أن أسلحتها تشكل معوقا وليست مفتاحا للنجاح. فإن استطاع الطرفان التخلص من محاولات المعرقلين لتحويل المفاوضات عن مسارها الأصلي، ويتفاديا فخ اللعبة الصفرية، بينما يكسبون أنصارهم على طول الخط، عندها تظهر بوادر النجاح.

ولكن الطريق لا يزال طويلا وبعيدا عن القدر المحتوم أن المفاوضات ستنتهي إلى اتفاق ناجح. وحتى وإن نجح، فالاتفاق ليس إلا بداية عملية السلام، وهنا يجب عليك مضاعفة الجهود. لقد كنا – ويا للأسف – على خطأ إذ ظننا أننا قد توصلنا لتسوية قضية أيرلندا الشمالية عندما أقلعت بنا تلك المروحية من ستورمونت صباح الجمعة الحزينة عام 1998. لقد أخذت منا العملية تسع سنوات أُخَر حتى نفذنا الاتفاق ووصلنا إلى سلام دائم... وستحتاج إلى سنوات عديدة حتى تسوى مشاكل الطائفية في أيرلندا الشمالية.

التنفيذ.. هو العامل الوحيد الذي يولد الثقة

لقد اكتشفت السر.. فبعد أن تتسلق مرتفعات عالية، ستكتشف أن هنـــاك مرتفعات أخرى كثيرة يجب عليك صعودها.

نلسون مانديلا ***Nelson Mandela***

إن التوقيع على الاتفاق ليس كتحقيق السلام. فالاتفاق لا يولد الثقـــة في الطرف الآخر - وجود الاتفاق، في الحقيقة، هو بذاته دليل عدم الثقة بينـــهما. فالثقة تبدأ ثم تتطور تدريجا عندما يبدأ كلا من الطرفين في تنفيذ الوعود التي التزم بها بناء على الاتفاق بينهما. فالعمل الجدي والصعب يبدأ بمجرد التوقيع علـــى الاتفاق الذي، بكل بساطة، كما يقول مارتي أهتيساري، هو الـــذي "يمكـــن العملية من أن تأخذ مجراها. فإذا كانت العملية التفاوضـــية ناجحـــة، فســـتوفر للطرفين حجرات البناء الضرورية للشروع في العمل نحو مجتمع مسالم".

ما حصل في اتفاقيات أوسلو، بين الفلسطينيين والإسرائيليين، هو تحذير من النتائج التي قد تنشأ عندما يوقع اتفاق يعتبر في حد ذاته قفزة نوعية، ولكنـــه لا ينفذ أو لا يُسوّق إلى الجمهور بثقة وحماس. عنـــدما أعلنـــت الاتفاقـــات في أغسطس/آب 1993قوبلت بموجة من الابتهاج، خاصة بين السكان الفلسطينيين، ولكن أحدا لم يبذل جهدا حقيقا لتسويقها للرأي العام الإسرائيلي. ويقول رون بونداك: "لقد ارتكب بيرز ورابين، عقب توقيع اتفاق أوسلو مباشـــرة، خطـــأ فادحا في عدم توصيل حقيقة أن هذا الاتفاق يشكل تحولا كاملا في السياســـة الإسرائيلية، إلى كلا الفريقين الإسرائيلي والفلسطيني". بدأ الـــدعم ينحســـر في

أعقاب الهجمات الإرهابية التي تمت في قلب تل أبيب وأماكن أخرى من البلاد، ومع سنة 2004 تقلص الدعم لعملية أوسلو إلى 26% بين الإسرائيليين، وربما كانت النسبة أقل من ذلك في الجانب الفلسطيني.

كانت هناك أربعة أسباب رئيسية لماذا لم ينفذ اتفاق أوسلو كما اتفق. **أولا:** لو لم يغتل إسحاق رابين و لم ينجح حزب بنيامين نتنياهو في الانتخابات عام 1996 لكانت هناك فرصة أفضل لبروز قيادة أقوى تتولى توصيل موضوع أوسلو. وحسب قول المؤرخ أفي شليم Avi Shlaim فإن عودة حزب الليكود للسلطة "سددت ضربة أخرى موجعة لعملية أوسلو للسلام. فالليكود كان معارضا بشدة لصفقة الأرض مقابل السلام التي تبنتها حكومة العمل تجاه فتح. وقد شجب ناتنياهو شخصيا هذا الاتفاق مرارا كخرق للحق التاريخي للشعب اليهودي في أرض إسرائيل على أنه خطر مميت لأمنهم". **ثانيا:** لو كان عرفات قادرا ولديه الرغبة لبناء إدارة ناجحة ونظيفة، لكانت للجانب الفلسطيني شرعية أكبر في نظر العاديين من الإسرائيليين والفلسطينيين. **ثالثا:** لو أن العنف تناقص بدلا من ازداد، في أعقاب صدور الاتفاق الذي تسابقت الفصائل المتعددة لقتله في مهده، لشعر الإسرائيليون بثقة أكبر في أن الاتفاق اتفاقٌ دائم وليس هدنة تكتيكيه. **وأخيرا:** لو أن الحكومة الإسرائيلية بقيادة ناتنياهو لم تواصل التوسع في المستوطنات، لصدّق الفلسطينيون بأن الإسرائيليين جادون في تبنيهم لفكرة "حل الدولتين".

وأسهل الطرق للقضاء قضاء مبرما على اتفاق ما هي عدم الإيفاء بالعهود، وهذا ما جرى للاتفاق بين (إيتا) والحكومة الإسبانية عام 2006. وكما هو الحال في اتفاق أوسلو فإن الخطأ يقع على الطرفين. قوبل إعلان (إيتا) بوقف دائم لإطلاق النار في مارس 2006 بالبهجة والاحتفال في بلاد الباسك. ولكن بدلا من أن يتجاوب ثاباتيرو، رئيس الحكومة، أعلن عن مهلة "للتثبت" من وقف إطلاق النار دون أن يكون ذلك قد نوقش مع المنظمة. ونظرا لتجربة جيري آدمز في أيرلندا الشمالية فقد كتب إلى ثاباتيرو يحثه بألا يسمح بفاصل طويل من الوقت بين إعلان وقف إطلاق النار وتنفيذه. فاذا طالت الفترة بين إعلان وقف

إطلاق النار وبداية المفاوضات السياسية إلى أطول مما يجب، فالجماعة المسلحة يمكن أن تفقد الأمل وتتصيد فرص العودة إلى العنف من جديد.

وافقت الحكومة الإسبانية أنه تجاوبا مع إعلان (إيتا)، فإن ثاباتيرو سيلقي بيانا أمام البرلمان، ولكنه لما جاء الوقت، أخيرا في شهر يونيو/حزيران، فعوضا عن إلقاء البيان في الصالة الرئيسية للبرلمان، وهو ما كانت تترقبه (إيتا)، اتجه لإلقائه في ردهة عند مدخل البرلمان تسمى "قاعة الخطوات الخاسرة". وجاء البيان يحتوى على عناصر كثيرة مما اتفق عليه بين الطرفين بما فيه الالتزام "باحترام القرارات التي صادق عليها مواطنو الباسك بحرية". ولكن بدلا من الإشارة إلى "أوسكال هيريا" skal HerriaEu (أرض الباسك الكبرى) كما كانت (إيتا) تتوقع، أشار ثاباتيرو إلى "أوسكادي" Euskadi. هذا الاختيار للمصطلحات كان له الأثر الأكبر على الباسك. "أوسكال هيريا" تعبير يضم كل أراضي الباسك (أرض الباسك الكبري) بما فيها إقليم نباريه Navarre، بينما عبارة "أوسكادي" تشير إلى الأقاليم الثلاثة فقط (باستثناء نباريه) الواقعة في شمال إسبانيا على طول خليج بيسكاي Bay of Biscay. عندما اعترضت (إيتا) على التغييرات التي أدخلت من طرف واحد فقط، كان تبرير الحكومة أن ثاباتيرو كان معتمدا على ذاكرته وليس على كلام مكتوب. طبعا، وهذا مفهوم، (إيتا) رفضت المبرر على أنه سخيف. واشتكت كذلك من أن ثاباتيرو لم يحصل على موافقة حزب الشعب (بي بي) المعارض فيما سمي "باكتو ديل إستادو" Pacto del Estado (اتفاق الدولة)، الذي كان من شأنه أن يعطى (إيتا) شيئا من الطمأنينة أن الاتفاق سينفذ حتى وإن سقطت الحكومة الاشتراكية. وأما على الجانب الحكومي، فقد شعروا أن (إيتا) لم تف بعهودها كذلك. فقد استمرت المنظمة في تسريب مقاتلين وأسلحة إلى داخل إسبانيا، وأن عمليات الابتزاز وعنف الشوارع (كالي بوروكا) *kale borroka* استمرت. وفي الاحتفال "بيوم جندي الباسك"، أطلق ثلاثة من رجال (إيتا) الملثمين النار في الهواء ثم اختفوا بين الجموع. وهكذا أصبح الخرق الأولي لحاجز الثقة بين الطرفين يتفاقم من قبل الطرفين معا.

أطاحت مشكلة شبيهة من عدم التزام بالتنفيذ باتفاق أتشيه الأول. إن 'الاستراحة الإنسانية' Humaniterian Pause في عام 2000 اعتُمدت للتصديق عليها من قبل لجنة مشتركة حول الوسائل الأمنية Joint Committee on Security Modalities JSC وعلى فريق لمراقبة الوسائل الأمنية Security Modalities Monitoring Team، مكون من أشخاص معينين من كلا الطرفين وموافق عليهم من الطرف الآخر، ومكلفين بالتحقيق في الاختراقات. اتخذ الفريق من فندق كوالا تريبا Kuala Tripa قاعدة لهم في باندر أتشيه، وهو الفندق الوحيد في العاصمة الأتشية. حط مركز هنري دونانت رحاله في الطابق الثالث من الفندق، واختار لحركة أتشيه الحرة مقرا لها في الطابق الأعلى (الرابع) والحكومة في الطابق الأسفل (الثاني). كان هناك شيء من عدم الوضوح بالنسبة للاتفاق فيما يتعلق بما سيحصل بالتحديد على الأرض. فاعتقدت الحكومة أن قوات الأمن بإمكانها أن تستمر في دوريات روتينية ورفضت أن تسحب الجيش إلى ثكناته. لقد كانت تركيبة لجنة الوسائل الأمنية تفتقد إلى القوة الحقيقة، واكتفت باعتمادها على حسن نية الأطراف المتحاربة أنفسها. فكانت حركة أتشيه الحرة والجيش الأندونيسي يتحققون هم أنفسهم في مخالفات بعضهم البعض، مما أدى إلى رفض النتائج من قبل طرف أو آخر وتدهور سريع في مصداقية العملية ككل. فعندما واجه المراقبون القادة العسكرين على الأرض قال لهم هؤلاء أن "الاستراحة الإنسانية" هي من "شؤون الجنرالات" وانها ليست لها علاقة بهم إطلاقا. وفي مارس/آذار 2001 قتل أحد الفريق المراقب وسائقه ومحام عن حقوق الإنسان كان في صحبتهما... وسحبت القوات مباشرة.

قوبل التوقيع على اتفاق وقف العدوان الذي تلا ذلك في ديسمبر/كانون الأول 2002 بحماس شعبي في أتشيه ولكنه لم يكن أحسن حالا. فقد تعززت لجنة الوسائل الأمنية بالمراقبين الدوليين من تايلندا والفليبين. لقد شوش عدم الوضوح والغموض حول ما هي بالتحديد نتيجة الاتفاق على عملية التنفيذ منذ البداية، وفي خلال أسبوع واحد كان كل فريق يتهم الفريق الآخر باختراقات كبيرة. وأخذت الحكومة في إلقاء القبض على عناصر الحركة وهم يخطبون في

اجتماعات عامة، وبدأت الحركة استيراد أسلحة من جديد. لقد وافقت على تسليم أسلحتها ولكنها لم ترد تسليم ورقتها الرابحة الأخيرة وقالت أنها ستقوم بذلك في نفس الوقت الذي ينسحب فيه الجيش. والجيش رفض الانسحاب. وعرضت الحركة تسليم 20% من أسلحتها إذا وافق الجيش إعادة نشر 20% من أفراده كخطوة أولى. وتساءل الجيش بشيء من المعقولية، كيف لهم أن يحددوا الكمية التي تشكل 20% علما بأنهم لا يعرفون المجموع الكلي الذي تملكه الحركة من السلاح. وقال العسكريون من طرفهم أنهم في حاجة إلى 220 "موقع مؤقت" ولم يحصلوا إلا على 50 موقعا عسكريا جديدا منذ بداية ديسمبر/كانون الثاني. ازدادت المشاعر التهابا على الجانبين. ظن الجيش أن الحركة تستفيد من الوقت كاستراحة محارب لتجميع وتهيئة قواها وبدأت في تنظيم المسيرات التلقائية في مراكز حقول المراقبة التابعة للجنة الوسائل الأمنية. وفي حادثة في مارس/آذار انهال المتظاهرون ضربا على أحد ممثلي الحركة في الفريق المشترك وأحرقوا سياراتهم واشعلوا النيران في مكتبهم. كما شوهد كوادر من العسكر يوزعون اللافتات والمعلقات، كما شوهدت 30 شاحنة عسكرية تقل المتظاهرين إلى المكان. وتجاوبا مع ذلك سحبت اللجنة مراقبيها إلى العاصمة واستسلمت أتشيه إلى حرب ضروس مفتوحة من جديد.

كان دافيد غورمان مسؤولا على تنفيذ الاتفاق وشاهد عملية السلام تتهاوى من بين يديه. لقد لاحظ عناصر شرطة خاصة بإعداد أحسن وتنظيم أحسن وقوات جيش خاصة في ملابس عسكرية جاءوا ليحلوا محل جنود غير مدربين وفي ملابس غير لائقة من بناطل مهلهلة وتي شيرتات مزركشة وشباشب، كانوا يحرسون نقاط التفتيش. لقد أصبح من الصعب عقد اجتماعات مع السكان في الجزيرة حيث بدأت تدوى التفجيرات وتحترق القرى. لقد اعتقلت الشرطة غورمان وزوجته، عندما أُعلن قانون الطوارئ في مايو/مايس 2003 في مركزهم الرئيسي بفندق كوالا تريبا. وقالت الشرطة أنها ستأخذهما لمركز الشرطة لحمايتهما ضد محاولة اغتيالهما من عناصر الحركة، ولكن غورمان يعرف الشرطة جيدا وتخللت عملية اعتقاله كثير من النكات والممازحة. وفي

مركز الشرطة تعرضا للتحقيق. لماذا تدعمون حركة أتشيه الحرة؟ كيف تعرفتم على معدات صناعة القنابل والمتفجرات؟ وفي النهاية أحتجز غورمان وزوجته. واتصل غورمان برئيسه مارتن غريفيثس، الذي اتصل بالسفارة الأمريكية متوسلا إليهم أن يقدموا العون والمساعدة لإخراج غورمان وزوجته من السجن. سمع غورمان حديثا للشرطة عن مجيء رئيس الشرطة الوطنية فطلب من سجانيه أن يرافقوه إلى بيته ليغير ملابسه ويستقبله. وافقت الشرطة على مضض، فارسلوا معه أثنين من الحرس مسلحين. وفي الفندق اتصل غورمان بوزير التنسيق يودهويونو، الذي أعطاه الإذن بالبقاء والأمل في استمرار العملية لأطول مدة ممكنة. بقي غورمان في الجزيرة لمدة شهر آخر، وكان يرافقه للمراقبة المستمرة رجل شرطة بملابسه المدنية، أعرج لا يكاد ملاحقة غورمان إلا بشق الأنفس. وكان غورمان ينتظره أحيانا، لكن في النهاية طلب الشرطي من غورمان أن يخبره بالمكان الذاهب إليه. في شهر مايو/مايس، ذهب غورمان في إجازة وعندما وصل عائدا أرسلته السلطات في نفس الطائرة التي جاء فيها. فتوسل إلى يودهويونو الذي قال أن الأوضاع حاليا في أشد التعقيد. وخُرق الاتفاق بشكل لا أمل في استرداده.

والمفارقة الغريبة أن المتفاوض يحتاج أحيانا إلى الغموض لكي يصل إلى الاتفاق. ولكن إذا كان الاتفاق غامضا أكثر من اللازم فقد يسقط عند التنفيذ، خاصة إذا كان هناك عدم وضوح حيال المسائل العملية مثل الأسلحة وفك اشتباك القوات. وعلى الطرف الآخر، فإن التفاصيل في اتفاق طويل يمكن أن تتسبب في اختلافات عندما يأتي موعد التنفيذ. يقول الأكاديمي فين أوزلر هامبسون Fen Osler Hampson، "التسوية هي التي تحدد الاتجاه الذي يجب أن يتحرك فيه الطرفان إن كانا حريصين على تعزيز السلام. ولكنها عادة لا توضح لهما طريق الوصول إلى هناك، إلا بشكل عام. هناك عادة الكثير من الغموض في الاتفاق لأن 'الغموض هو أمُّ الحلول الوسط'". فتفاصيل مثل الترتيبات حول الأسلحة وتسريح الجنود هي في الحقيقة "أرض خصبة لسوء الفهم والتسويف". ولذا فإن هناك أسبابا لأن نجعل التفاصيل بسيطة بقدر الإمكان: "التسوية السلمية

يجب أن تكون بسيطة كبساطة التعليمات التي نجدها على الأجهزة والمعدات المنزلية، بل أسهل. فكوسيط عليك أن تحول بين الأطراف وبين أن تضيف إلى الاتفاق بنودا أكثر فأكثر. وعليك أن تدرك أنه ليس بإمكانك حل جميع مشاكل المجتمع في محادثات عملية السلام. فالاتفاق (الثاني) لأتشيه جيد في هذا الإطار لأنه يركز على مسائل محددة أساسية ويضع إطارا للوصول إلى الديمقراطية التي تجعل من الصعب أن تظهر الخلافات القديمة إلى السطح من جديد". وأهتيساري واضح جدا إلى أي الخيارات يميل إذ يقول: "أنا لا أحب الاتفاقيات التفصيلية. عندها من السهل أن تضع نفسك في وضع يمكن لأي إنسان أن يقول أن هناك نقطة تفصيلية أو أخرى قد خرقت. أما الاتفاق المختزل بما فيه الكفاية فيضع المسؤولية كذلك على أولئك الذي ينفذونها ويترك مجالا كافيا للتفسيرات".

المشكلة غالبا هي ليست عدم الوضوح ولكنها هي كون كلا الطرفين لا يعتقد أن الطرف الآخر جاد وينوي تنفيذ الاتفاق، فيحجم هو نفسه عن تنفيذه. يمكن اتخاذ خطوات معينة لتطمين الآخرين أن الحكومة تنوى فعلا تنفيذ الاتفاق في واقع الأمر. إحدى هذه الخطوات هي ضمان الحصول على موافقة ديمقراطية على الاتفاق عن طريق استفتاء. فإذا وافقت غالبية ساحقة على الاتفاق فمن الصعب عندئذ على الحكومة أن تتملص من الإيفاء بوعودها، ويزيدهم ثقة في تنفيذ الاتفاق دون التخوف من معارضيها. بالطبع، الحكومات غالبا ما تتوجس من استفتاء قد يميل إلى الاتجاه الآخر لعوامل غير تلك التي ينطوي عليها الاتفاق نفسه، خاصة عدم شعبية الحكومة في منتصف فترة حكمها أو الحاجة إلى نسبة معينة ليكون الاستفتاء ملزما، وهكذا. ربما احتاجت الحكومة في هذه الحالة إلى التصديق على الاتفاق عن طريق جهة تشريعية، رغم أن التشريع قد يستغرق سنوات لإعداده والموافقة عليه. إضافة إلى ذلك - كما كشفت منظمة م - 19 في كولومبيا - فليس من المؤكد أن الحكومة سوف تستطيع تمرير القانون في البرلمان. فالجماعات المسلحة عادة ما تكون مترددة في تسليم أسلحتها، ورقتهم الرابحة الوحيدة، إلا بعد أن تضمن أن القانون قد أجيز، بينما الحكومة والشعب غير مستعدين للانتظار سنوات حتى تضع الجماعات المقاتلة أسلحتها.

بل حتى كسب الاستفتاء لا يضمن الدعم المستمر. فكما سوّف الجيش الجمهوري في سحب أسلحته، وكما رأى الجمهور أن الدعم البرلماني ينخفض باستمرار، انحسر دعم الاتحاديين الأيرلنديين للاتفاق بشدة إلى 30% في عام 2003. كان علينا أن نجد طريقا لإقناع الناس بأن التنفيذ سائر على قدم وساق. وأخذنا باقتراح دافيد تريمبل، وهو تعيين هيئة مراقبة مستقلة لرصد الأمر ورفع تقارير بصورة منتظمة إلى أي مدى الجيش الجمهوري وغيره من التشكيلات العسكرية، وقوات الأمن البريطانية كذلك، تلتزم بتنفيذ التزاماتها ومدى تقدمها في ذلك. فالشعب، وخاصة الاتحاديون، لم يعودوا يصدقون تأكيدات الحكومة بأن هناك تقدما في الواقع، وهو كما بدى من طرفنا تمنيات غير واقعية، فعينا رئيسا متقاعدا من القسم الخاص البريطاني Special Branch (التابع للمباحث)، وقاضيا أيرلنديا متقاعدا، وأحدِ رجال وكالة الاستخبارات المركزية (الأمريكية) السابقين، يرأسهم قائد حزب التحالف Alliance Party الممثل لكل مكونات المجتمع، في تلك الهيئة. لقد كان بإمكانهم الاستفادة من تقرير الاستخبارات والشرطة والخروج بقرارات محايدة وغير منحازة حول ما يجري فعلا على الأرض. الجانب الأساسي في تشكيل الهيئة المستقلة هو إعداد قائمة من النشاطات التي يجب على الجيش الجمهوري المشاركة فيها. كان بعضها واضحا تلقائيا كعدم استهداف ضباط الشرطة وجمع المعلومات الاستخباراتية. ولكن كانت هناك نشاطات أكثر صعوبة مثل تحديد الحد الأعلى لذلك ووضع خط فاصل بين بعض النشاطات كالأعمال الإجرامية مثل سرقة السجائر أو السطو على المصارف. طبعا هذه أعمال مخلة ولكننا كان بودنا ألا نرى الاتفاق كله ينهار بسبب أعمال إجرامية "عادية" من هذا النوع. كان على إغريغورين أن يضع قائمة مماثلة لمنظمة (إيتا) أثناء تفاوضات أوسلو. ويروي بفخر كيف أن ممثلي (إيتا) استشاروا الحرس المدني وجهات استخباراتية إسبانية أخرى، بالرغم من أنه قد أعد القائمة بنفسه في بحر نصف ساعة وهو جالس في غرفته بالفندق. ونظرة خاطفة على هذه القائمة توحي أنه أعدها على غرار نفس الأفكار التي تحويها قائمتنا لأيرلندا الشمالية.

نظرا للغموض الذي يلف التزام الحكومة بتنفيذ ما عليها من تعهدات، فالجماعات المسلحة كثيرا ما تطالب أن يتولى مجلس تأسيسي إصدار دستور جديد، أو تعديلات دستورية أو، كما هو الحال في إسبانيا و(إيتا)، اتفاقا بين الأحزاب السياسية الرئيسية بحيث تكون الجماعات على ثقة أن التنفيذ سيستمر في حالة تغير الحكومة. ولكن التعديل الدستوري أحيانا يصعب على الحكومات، خاصة إذا كان يتطلب أغلبية ثلثي الأعضاء في البرلمان. طلبت حركة أتشه الحرة في محادثات هلسنكي أن تضمن الاتفاق تعديلا في الدستور الأندونيسي لتحصين الحريات السياسية التي اكتسبتها في المفاوضات، أو على الأقل إحداث أي تغييرات خاضعة للموافقة من أعضاء البرلمان من الأتشيه، ولكن جاكارتا لم توافق. وعوضا عن ذلك رضوا بقانون خاص ينظم الحكم في أتشيه (نوع من القانوني الأساسي) ويحتفظ بالمواد التي يريدونها، ومع ذلك فقد انتظروا سنتين حتى أجيز في البرلمان. أما في الفليبين فقد أصرت الجبهة الإسلامية لتحرير مورو عام 2007 على اتفاق لتعديل الدستور يدعم التسوية السلمية. ولكن بسبب تعهد الحكومة نفسها إجراء هذا التعديل سقط الاتفاق وقوبل بالمعارضة أمام المحكمة العليا، فرفض. وعندما رجع الطرفان إلى الموضوع عند مناقشة الاتفاق الإطاري عام 2012، لم تصر الجبهة على تعديل دستوري بل رضيت بالقانون الأساسي الذي لعبوا دورا أساسيا في صياغته.

في الحالات التي يكون فيها الهدف الأساسي من الاتفاق هو التحول السياسي بالكامل للهروب من ماضي استبدادي أو فاشيستي أو عنصري، تبرز كجزء من التسوية السياسية دساتير جديدة بالكامل، كما هو الحال في جنوب أفريقيا والنيبال وبوروندي. في حالات أخرى تختار الجماعة المسلحة أهدافا أخرى لاعتقادها أنه يحقق التحول المطلوب. وحسب خوكوين بجالوبوس اختارت جبهة التحرير الوطني في السلفادوز التركيز على الإصلاحات العسكرية بدل السياسية لأنها اعتقدت أن تحطيم القبضة العسكرية على البلاد سوف يأتي بتغيرات أساسية من مجرد ترقيعات سطحية في الدستور. وقد نقل عنه في سبتمبر/أيلول 1991 أنه قال: "هناك أمر يبدو أن الجيش لم ينتبه إليه وهو أن

الأجراس قد قرعت لإنهاء الحرب.. ولكنهم لا يريـــدون أن يســـمعوا هـــذه الأجراس... لأنهم حولوا الحرب إلى أعمال تجارية، وإلى أسباب وجـــودهم في هذا العالم".

إذا لم تكن التعديلات والإصلاحات الدستورية ممكنة وسهلة المنال، فإن الضمانات الدولية يمكن أن تساعد في تقديم تطمينات للجماعة المســـلحة أن التغيرات الموعودة سوف تتحقق. وهذا دور غالبا ما تقوم به الأمم المتحـــدة، كما فعلت في موزمبيق. ولكن الأمم المتحدث تحتاج إلى وقت لكي تتحرك وتحشد إمكانياتها. استغرق اتفاق روما سنة واحدة فقط من توقيع الاتفـــاق وحتى موعد الانتخابات، ولكن الفترة الانتقالية أخذت ســـنتين في التطبيـــق بسبب الوقت الذي أستهلك لنشر موظفي الأمم المتحدة وإعادة المهجـــرين إلى قراهم وتسجيلهم في الانتخابات. سواء كانـــت بطيئـــة أم لم تكـــن، فالأمم المتحدة كانت قادرة على تحمل وزر ضمان تحقيق التنفيذ. لقد كانت الخطة الأصلية لزعيم مقاتلي (رينامو) في موزمبيـــق، أفونســـو دهلاكامـــا akamaAfonso Dhl، هي الإبقاء على جنوده في الأحراش لأطول مدة ممكنه ليعطي نفسه قوة للمساومة أكبر خلال الفترة الانتقالية. ولكن ممثل الأمـــم المتحدة، آلدو أخيو Aldo Ajello استطاع إقناعه بأن جنود الأمم المتحدة هم أحسن ضمان لديه بأن الحكومة لن تخدعه. ووضح أخيو أن الجنود يكلفون المنظمة الدولية مليون دولار يوميا وأن المجتمع الدولي لن يتولى تمويلـــهم إلى الأبد. ولذلك فعلى دهلاكاما أن يسرح جنوده وأن يتحـــرك بســـرعة إلى الانتخابات قبل أن تنسحب القوات الدولية. وافقت منظمة المقاومة الوطنية الموزمبيقية (رينامو) وسحبت أكثر جنودها (إلا أنهم احتفظوا ببعض القواعد في الغابات).

ولا يمكن أن تعود الطمأنينة والثقة إلا بعد إجراء انتخابات نزيهة، وبعد أن توافق الجماعات المسلحة والنظام الحاكم على نتائج الانتخابات، عندها فقـــط بالإمكان أن يعود شيء من الثقة بأن التسوية ستثبت وسيكتب لهـــا النجـــاح. فبالمقارنة بين مثليْ أنغولا وموزمبيق تتضح الصورة كل الوضوح.

مهدت اتفاقيات بايسيس Bicesse Accords التي وقعت في البرتغال عــــام 1991 الطريق إمام الانتخابات التي جرت في أنغولا تحت إشراف الأمم المتحدة. كان من المعروف لدى عامة المراقبين أن متمردي الاتحاد الوطني لاستقلال كامل أنغولا (يونيتا UNITA) سيفوزون في الانتخابات بسهولة لكن الحكومة جندت كل إمكانيات الدولة ليفوز الحزب الحاكم (أمبالا) الحركة الشعبية لتحرير أنغوله People's Movement for the Liberation of Angola MPLA في الانتخابــات البرلمانية بنسبة 54% مقابل 34% لصالح (أونيتا)، وفي الانتخابات الرئاسية فـــاز دوس سانوس dos Santos بنسبة 49% مقابل سافيمبـــي Savimbi بنسبة 40%. وقد شهدت الأمم المتحدة على الانتخابات بأنها حرة ونزيهة، ولكن سافيمبـــي أعلن مباشرة أنها مزورة. وقامت (أونيتا) بردم كل أسلحتها بدلا من تســـليمها و لم تكن لدى الأمم المتحدة أي إمكانيات تستطيع بها أن ترصد أو تقترب مـــن معسكراتها. واستؤنفت الحرب بطريقة أشد وبنتائج مفجعة أكثر من ذي قبـــل. فقتل أكثر من الف شخص في اليوم من سكان عددهم حوالي اثنا عشر مليونا. فالإخفاق في الالتزام بالخروج بنظام ديمقراطي لم يكن مقتصرا على طرف واحد دون الآخر، وعندما طالب المجتمع الدولي بجولة ثانية في الانتخابات الرئاســـية، كما تنص اللوائح، رفض حزب (أمبالا) الحاكم ذلك.

ورغم ذلك، فقد نفد صبر المجتمع الدولي مع سافيمبـــي و(أونيتا) وفرضت الأمم المتحدة حظرا على السلاح والنفط على (أونيتا) وهددت بفرض المزيد من المقاطعات. لكن الحكومة، بفضل ما تدفق عليها من نفط، استطاعت أن تستعيد تسليح الجيش وإعداده وان تبدأ في احتلال الأراضي من جديد. وأخيرا، عنـــدما عادت البلاد إلى حالة أزمة، وافقت (أونيتا) علـــى العـــودة للمفاوضـــات في لوساكا، عاصمة زامبيا، عام 1993. في عام 1994 تم التوقع على اتفاق ولكـــن سافيمبـــي لم يحضر الحفل. وحاول المجتمع الدولي، هذه المرة، أن يتعلم من تجربة فشله الماضية. لم تكن لدى الأمم المتحدة إمكانيات كافية لرصد ومراقبة تنفيـــذ اتفاقيات بايسيس بفاعلية، فاتفقوا في لوساكا على نشر ســـبعة آلاف مراقـــب وطلب من (أونيتا) حجر جميع جنودها في أماكن مخصصة لـــتجمعهم تحـــت

إشرافها، بينما طلب من الجيش الانسحاب إلى مواقع دفاعية والى تكتلات خاصة. ورغم ذلك فلم يتمكنوا من الحيلولة دون التحايل من قبل الطرفين. وكما قالت الأمم المتحدة فإن "(أونيتا) خرقت الاتفاق بالنهار والحكومة خرقته بالليل". وحاولت (أمبالا) استعادة كل العواصم الريفية قبل أن يصبح وقف إطلاق النار ساري المفعول، بينما أصدرت (أونيتا) إعلانا لنزع السلاح. والأمم المتحدة فشلت في معاقبة أيٍّ من الطرفين على اختراقاته مما كان له أثر إذكاء عدم الثقة المتبادل. فشلت الانتخابات بمقتضى بايسيس، فأعلنت الأمم المتحدة عن حكومة وطنية ومصالحة مع (أونيتا) كمشارك في الحكومة على المستويين العام والمحلي. وكانت (أونيتا) تريد السيطرة على ثاني أكبر المدن، هوامبو Huambo، التي كانت البرتغال تخطط لجعلها عاصمة الإمبراطورية الأفريقية ولكن حزب (أمبالا) لم يكن مستعدا لتسليمها. كانت (أونيتا) في عام 1992 مسيطرة على 70% من مساحة البلاد، ولكن ميزان القوى في ذلك الوقت انتقل إلى صالح الحكومة. في عام 1998 رفض سافيمبي منصب نائب الرئيس وبدأ الحرب من جديد. وفي 2002 قُتل سافيمبي وهو يقاتل قوات الحكومة على ضفاف نهر في مسقط رأسه بمقاطعة موكسيكو Moxico. لقد كان مستعدا للتفاوض، ولكنه لم ينفذ ما أتفق عليه أو يرضى بنتائج الانتخابات أو العملية السياسية.

بالمقارنة، قبل أفونسو دهلاكاما من الموزمبيق بذلك رغم بعض الانتكاسات في آخر لحظة. فقد قبل، كجزء من الاتفاق، بالانتخابات إلا أن المقاومة الوطنية الموزمبيقية (رينامو) لم تكن مستعدة على الوجه المطلوب. وأعطى المجتمع الدولي 17.5 مليون دولار في هيئة صندوق استثماري لبناء قوة سياسية، بما في ذلك 4 ملايين دولار نقدا لمنع انشقاق المنظمة بعد تسليم السلاح مباشرة. ولكن قبل يوم من الانتخابات في أكتوبر/تشرين الأول 1994 أعلن دهلاكاما مقاطعة (رينامو) للانتخابات. ففي وثيقة يدّعى بأنها أعدت من قبل مستشارين للحكومة، أُرسلت بالفاكس لمكتب (رينامو)، تحتوي على قائمة خِدع يمكن أن تلجأ إليها الحكومة لتفوز في الانتخابات. أعلن أخيو مباشرة أنه نيابة عن الأمم

المتحدة سيبطل الانتخابات إذا ما اتضح أن أيا من الخدع الواردة في القائمة قد استخدمت في الواقع من قبل الحكومة. فبدلا من طمأنة دهلاكاما، كما كان المقصود، كانت النتيجة هي إقناعه بأن الأمم المتحدة تحاول في الحقيقة التغطية على ما تفعل الحكومة. قبل ذلك بوقت قصير كان دهلاكاما قد دعي للمشاركة في قمة دول المواجهة في زمبابوي ولكن الرئيس تشيسانو رفض أن يسمح له بحضور القمة نفسها. فبدلا من ذلك أُبقي دهلاكاما في غرفته بالفندق طوال النهار، وفي نهاية القمه جاء موغابي لزيارته ولإخباره بأنه إذا ما لم يحترم نتائج الانتخابات سيكون هناك تدخل عسكري من دول الجوار، دون أن يقول له شيئا عن حرية أو نزاهة الانتخابات. أثر كل هذا هو إقناع دهلاكاما بأن الحكمة قد نظمت لعملية خداع على مستوى ضخم للغاية، وأن الدول المجاورة كانت على استعداد لتغطية ذلك لتضمن الاستقرار، وأن المجتمع الدولي سيعلن أن الانتخابات حرة ونزيهة بغض النظر لما سيحدث.

بمجرد أن سمع أخيو بتهديد المقاطعة اتصل بدهلاكاما الذي قال له: "لن أعوَد ثانية إلى الأحراش. أنا لست سافيمبي. وأنا متأكد أن المجتمع الدولي سيتفهم قراري". واتصل أخيو بزعماء غربيين وسفراء يطلب منهم الاتصال بدهِلاكاما ومحاولة إقناعه بتغيير رأيه. استلم أخيو رسالة في الساعة الثانية صباحا من (رينامو) تبدى فيها استعدادها لخوض الانتخابات طالما ضمنوا لها أن كل شكوى تقدمها (رينامو) سوف يحقق فيها وأن الانتخابات ستلغى حيثما أكتشف آن هناك تزوير أو تحايل. وافق أخيو. فازت جبهة تحرير موزمبيق (فريليمو) بنسبة 44% في الانتخابات إلى نسبة 37% لصالح المقاومة الوطنية الموزمبيقية (رينامو)، وانتخب تشيسانو رئيسا بنسبة 53% ضد 33% لصالح دهلاكاما. اقترحت جهات في المجتمع الدولي فكرة المشاركة في السلطة، إلا أن تشيسانو رفض الاقتراح وقبل (رينامو) بنتائج الانتخابات على مضض.

ولكن التنفيذ لا يتعلق بالسياسة وحسب، بل هو يتعلق بتفكيك الجماعات المسلحة وسحب أسلحتها، أو بما يعرف اصطلاحا بنزع – أو التجريد من – السلاح وتسريح الجنود أو المجندين وإعادة الدمج في المجتمع المدني

Disarmament, Demobilisation and Reintegration DDR (دي دي آر). في أيرلندا الشمالية تعكرت أجواء عملية السلام عندما حاولت حكومة رئيس الوزراء، جون ميجور، الإصرار على تعطيل الجيش الجمهوري الأيرلندي (آي آر أيه) كشرط مسبق. وحصل نفس الشيء كذلك في أماكن أخرى. في يولو/تموز 2006 صرح رئيس وزراء النيبال، غيريجا براساد كوارلا Girija Prasad Koirala، موضحا أنه لن يسمح للماوْيين (الحزب الشيوعي المتحد لنيبال United Communist Party of Nepal) بالانضمام إلى الحكومة الانتقالية حتى يتم تعطيل جيش التحرير الشعبي، الجناح العسكري للماويين. أصبح الموضوع عقبة أساسية وانقطعت المحادثات لمدة أربعة أشهر. اعتقد زعيم الماويين أن اقتراح (دي دي آر DDR) من قبل المجتمع الدولي، يضع العربة قبل الحصان لأنه يطرح تفكيك قوات المتمردين قبل الاتفاق على إصلاحات في الجيش. وعلى ذلك يكون من الأفضل إدخال (دي دي آر DDR) في آخر العملية وليس في بدايتها، وعادة يكون ذلك الوصول إلى اتفاق على إصلاحات في قطاع الأمن، وهذا يثير السؤال عن ما هو مصير الجيش والشرطة. وإذا كانت النتيجة هي تباين كامل فيما بين المؤسسة العسكرية، التي خُفض حجمها ووجهت إلى وجهات أخرى ولكن لاتزال تحتفظ بأسلحتها... وبين المتمردين الذين، وإن لم يُهزموا، يطلب منهم أن يسرحوا مقاتليهم ويسلموا أسلحتهم، فلا يتوقع في هذه الحالة الوصول إلى تسوية دائمة.

أول الأولويات بعد الاتفاق هي إيقاف القتال، وفك اشتباك القوات المتقاتلة والتأكد من أنها لا تعود للقتال من جديد. وغالبا ما يحصل هذا كثمرة طبيعية للمحادثات. وكما عبر عن ذلك بجلالوبوس بقوله أن لا أحد يريد أن يكون آخر من يموت في حرب أهلية، وعندما بدأت محادثات السلام في السلفادور كان هناك اتجاه طبيعي لفك الارتباط وتفادي المواجهات مع العدو. فلا بد من آليات تتعامل مع هذه التطورات. فبعد وقف إطلاق النار مباشرة في السلفادور تعرض أحد مقاتلي جبهة التحرير الوطني لإطلاق النار، وكان بإمكان هذا الحادث أن يهدد عملية السلام برمتها لولا أن تحقيقا أجري فورا في الموضوع

وهدأت حدة التوتر. تبين أن الحادث كان، لحسن الحظ، معزولا وأخذت الأمم المتحدة بزمام عملية تسريح الجنود. قابل البريطاني، مـــارك غولـــدينغ Marrak Goulding، المسؤول على حفظ السلام، ممثلي الحكومة والمقاتلين وبسط أمامهم خريطة للبلاد. ادعى المقاتلون والجيش معا أنهما مسيطران على أكثر من مائـــة نقطة يمكن أن تتجمع فيها قواهم. ولكن، حسب ما قاله بجلالوبوس، كلاهمـــا كان كاذبا. وإذا بغولدينج يتجاوز الدعاية الفارغة قائلا لا يملك الطاقة البشـــرية الكافية ليراقب هذا العدد من النقاط الكثيرة، وأنه بإمكان الحكومة أن تأخذ مائة نقطة وجبهة التحرير الوطني خمسين نقطة. وقد استغرق الطرفان بعد ذلك تسعة أشهر لتسريح الجنود.

الفترة الانتقالية من توقيع الاتفاق إلى التنفيذ فترة هشة. هناك دائما حاجـــة إلى إجراءات توطين الاستقرار وإلى هيئة أو جهاز مستقل ليتابع التنفيذ. لقد كان الشعار الذي رفع أثناء المفاوضات بين الغرب والاتحاد السوفياتي حول الحد من الأسلحة في الثمانينيات هو: "ثق ولكن تحقق"، ينطبق تماما على تنفيذ اتفاقيـــات السلام في الحروب الأهلية. والعنصر الأساسي هو محاولة الإبقاء على الجوانـــب السياسية والعسكرية في الاتفاق متزامنين. ولا يمكن لطرف أن يظل في انتظـــار الطرف الآخر أن ينفذ كل شيء قبل أن يبدأ هو في تنفيذ نصيبه من الالتـــزام. والهيئة المستقلة تحتاج إلى أن تكون الراعي للجدول الزمني المتفق عليه ولحـــل أي مشاكل تنشأ. وأحيانا فإن الهيئة المشتركة يمكن تكليفها بشرح تفاصيل الاتفـــاق نفسه في المفاوضات المستمرة، كما هو الحال في الاتفاق الهيكلي بين حكومـــة الفلبيين والجبهة الإسلامية لتحرير مورو عام 2012، حيث اســـتمرت مجموعـــة العمل تتفاوض حول شروط (دي دي آر DDR) ووضع الشـــرطة في الوقـــت نفسه الذي كانت الخطوط العريضة للاتفاق في طريقها إلى التنفيـــذ. والجهـــاز المراقب يحتاج أيضا أن تكون له أنياب حقيقية تمكنه من التأكد مـــن أن كـــلا الطرفين يفي بما عاهد به، ومن فرض عقوبات في حالة تقصير أي منها.

من الصعب، بل يستحيل، أن تقوم مؤسسة غير حكومية بدور المراقبة هذا. لم يكن مركز هنري دونانت راغبا في القيام بهذا الدور في أتشيه في عام 2002،

ولكن الطرفين أصرا على ذلك وإلا فلن يوقعا على اتفاق وقف العدوان (كوها COHA). تحولت العملية إلى كارثة. يقول مارتي أهتيساري في هـــذا الصـــدد: "يجب على المؤسسات غير الحكومية ألا تقبل بهذا الدور. وأعتقد أنه من الأفضل أن يقوم به أطراف تمثل حكومات لأنه سيكون من الصعب أن يسيء أي مـــن الطرفين التصرف في وجود ممثلين عن حكومات أجنبيه. ولهذا السبب اقترحت أن الاتحاد الأوروبـــي يشارك في الموضوع بالإضافة إلى حوالي ست دول مـــن رابطة بلدن جنوب شرق آسيا (أسيان ASEAN). ومشاركة طرف إقليمي آخر كان مهما لحركة أتشيه الحرة في أندونيسيا، التي ظلت متهيبة مـــن كـــون دول الجوار فقط هم المراقب لتنفيذ الاتفاق. فبعثة المراقبة لأتشيه أدت عملـــها علـــى أحسن وجه في هذا الدور. وفي الأخير كان مهما بالنسبة لي أن أوضح أن تنفيذ الاتفاق لم يكن من واجبات المراقب ولكن من واجبات الأطـــراف المعنيـــة". تشكلت هيئة مراقبة أتشيه بعد اتفاق هلسنكي عام 2005 وتضم قـــوات مـــن الاتحاد الأوروبـــي ودول (أسيان) لتتولى تسريح الجنود وسحب السلاح والتهيؤ للانتخابات. لقد كانت صغيرة الحجم وسريعة الانتشار، وكانت لها استراتيجية واضحة للخروج وكان لها جدول زمني محدد. والأهم من هذا كله أنها كانـــت تتمتع بحرية كاملة للحركة في إقليم أتشيه و لم يكن للطرفين سلطة على ما تفعل.

وفي موزمبيق أختار الأمين العام للأمم المتحدة شخصية إيطالية لترأس قوات التنفيذ لدور إيطاليا في الوصول إلى الاتفاق. عند وصـــوله أراد آلـــدو أخيـــو Aldo Ajello مقابلة دهلاكاما وإقناعه بالانتقال إلى العاصمة. وآلدو دبلوماســـي متواضع، بسيط، أصر أن السبب الوحيد لاختياره لهذه المهمة لأن اسمه، الـــذي يبدأ بحرف (أيه A) بالإيطالية، يظهر الأول في قائمة الدبلوماســـيين الإيطـــاليين العاملين في الأمم المتحدة. انتقل بالطائرة إلى غورونيسا Gorongisa واستقبله عند الهبوط هناك كبير مفاوضي (رينامو)، روول دومينغوس Raul Domingos، على دراجة نارية فأخذه عبر مسلك وعر بين الأشجار. والتقي بدهلاكاما في كـــوخ في مارينغو Maringue محاطا بمساعديه. وهناك قال دهلاكاما إنه لن ينتقـــل إلى العاصمة مابوتو Maputo حتى يهيأ له بيتا مناسبا وأن تُنشر أعداد كافيـــه مـــن

قوات الأمم المتحدة في المنطقة. وبعد الزيارة مباشرة قامت (رينامو) بهجوم عسكري واستولت على أربع مدن. لم يكن هناك سوى ثلاثين من قوات الأمم المتحدة في موزمبيق، في ذلك الوقت، ولم يكن بإمكانهم عمل أي شيء تجاه هذا الخرق. رجع آلدو إلى مارينجو لمقابلة دهلاكاما ثانية. حاول إقناعه بأن الوقت حان لتغيير استراتيجيته. لقد أثبت للشعب الموزمبيقي أن لديه القوة العسكرية، والآن عليه أن يقنعهم أن لديه الحكمة أيضا. أخرج آلدو ورقة ورسم عليها صندوقين اثنين، كتب على أحدهما (رينامو) والآخر (فريليمو) وقال أن (فريليمو) ظلت الحزب الحاكم في البلد لعدة سنوات وأن كل الكراسي في صندوقها شاغرة، بينما صندوق (رينامو) خال وهناك عدد كبير من الشباب الواعد الذكي سيلتحق بهم طالما أنهم لم يظهروا للناس كفِرق عصابات. وبينما آلدو يغادر المكان آخذ دهلاكاما قطعة الورق فثناها ووضعها في جيبه وأخذ يكرر: "الحكمة وليس القوة". وتعهد بأنهم لن يقوموا بأي "هجمات حتى وإن استفززت، وأنا أعلم بأني سأستفز، فلن أسمح لنفسي بالرد".

بعد سبعة أشهر بدأت الأمم تسريح الجنود من الجانبين. اختارت (رينامو) عشرين نقطة تجمع والجيش تسعا وعشرين نقطة. لسوء الحظ أنهم اختاروا مواقع تمكنهم من الحفاظ على سيطرة استراتيجية على الأراضي بدلا من أن تكون قواعد مناسبة لجمع الجنود بها طرق موصلة لمصادر المياه أو للطرقات الرئيسية. لقد قرر مسؤولو الأمم المتحدة، بحكمتهم المتناهية، أن المقاتلين يجب أن يعطوا إمكانيات لنصب خيمهم عندما يصلوا إلى المواقع. ولكن المقاتلين لم يسرهم هذا عندما عرفوه بعد أيام عسيرة من المشي على الأقدام. كما قرر المسؤولون أنفسهم أن يعطوا المقاتلين نفس الحصة من الطعام وغيره التي تعطى للاجئين. ربما كان ذلك عادلا بمنطق اللوائح، ولكن آلدو أخيو شعر بأنه ليس من السليم منطقيا أن تدع رجلا بيده بندقية كلاشينكوف يذهب جائعا. وكما قال، فإنهم يحتاجون "إلى ما يكفي من أكل في بطونهم حتى يكونوا محبين للسلام". وأخيرا، اتفق على أن يعطى كل جندي راتب ستة أشهر. ونظرا للوقت الذي سيستغرقه إعادة الدمج في الحياة المدنية قرر أخيو زيادة قدرها راتب ثمانية عشر شهرا

إضافية. كما أن الطرفين قد عقدا النية، سريا، على الحفاظ على جنود الاحتياط في الغابات تحسبا لاندلاع القتال من جديد، ولكن بمجرد انتشار خبر أن رواتب ثمانية عشر شهرا متوفرة للصرف لأولئك الذين هم جاهزون للدمج، أصبح الجنود الاحتياط أول من يفد للتسرّح من الجيش. وفي الحقيقة، كادت كتيبة بأكملها تابعة للحكومة أن تتمرد في ماتولا Matola حتى لا يفقد الجنود كفاءاتهم وطالبوا باستلامها خلال أربع وعشرين ساعة. بعد مفاوضات اقتنعوا بالانتظار ثلاثة أيام.

كان أثر الأموال الإضافية هو تخفيض عدد الجنود الراغبين في الانخراط في الجيش الجديد. اتفق الطرفان في مباحثات روما على أن يتكون الجيش من ثلاثين ألفا، خمسة عشر ألفا من كل من (فريليمو) و(رينامو). انتهى الأمر باثني عشر الف جندي أكثرهم ضباط وضباط صف تقدموا للمناصب بينما فضل الأغلبية من الجنود عرض إعادة الدمج السخي. التوزيع بالتساوي كان متعذرا لأن الثلث فقط من المتطوعين جاءوا من (رينامو). شكر وزير الدفاع أخيو فيما بعد على دوره لأن بلدا فقيرا مثل موزمبيق لا تستطيع تحمل جيش من ثلاثين ألفا. النتيجة، بعد كل هذا، أن ثمانين الف محارب سرحوا وأعيد دمجهم بنجاح في الحياة المدنية.

إن تسريح المحاربين وإعادة إدماجهم في الحياة المدنية أمر يحتاج أن يتم تدريجيا. فلا يمكن مجرد تهديم وتفكيك الجماعات المسلحة. ففي نيبال اتفق الجانبان على تسريح الجيش الملكي النيبالي وجيش التحرير الشعبي الماوي معا وتأسيس قوة عسكرية جديدة. تتكون هذه القوة بنسبة واحد من كل من الجيش والجماعة المقاتلة بالإضافة إلى مدني لم ينتم لأي منهما. وكما عبر عن ذلك أحد زعماء الماويين فقال إن الهدف هو "تعليم مقاتلينا الماويين أصول المهنة وتعليم جيشنا الوطني أصول الديمقراطية". وافق جيش التحرير الشعبي على أن يدخل في كانتونات معينة، وبينما لم تتمكن الأمم المتحدة أن تصل هناك في الوقت المحدد، قبل زعيمهم، براشندا Prachanda، أن يتولى الإشراف عليهم خلال الفترة الفاصلة جنود من الغورخا Ghurkha السابقين. تطوع ثلثا التسعة عشر

ألف (19,000) محارب لشغر ستة آلاف وخمسمائة (6,500) وظيفة كانت معروضة في الجيش بدلا من عرض إعادة التأهيل السخي. وفي جنوب أفريقيا بدأت عملية دمج الجيش والجناح العسكري للمؤتمر الوطني الأفريقي، (أم كيه)، في عام 1991/2، وقبل أن يفرغ من إعداد الاتفاق السياسي. تولى وزير الدفاع جمع القادة العسكريين وزعماء المقاتلين معا لمناقشة كيف يتم ذلك، وتأسس ما عرف بالمجلس المشترك للتنسيق العسكري Joint Military Co-ordinating Council. فعلى جانب (أم كيه) أدخل نظام الرتب الرسمية، وأرسل الآلاف من الكوادر إلى الخارج لتلقي التدريب وخاصة إلى الهند. وخفض حجم الجيش وطرح نظام "بند الغروب" للسماح لأعضاء الجيش السابقين أن يتقاعدوا مبكرا بمعاش تعاقدي سخي. وكانت النيجة جيشا ناجحا متجانسا.

أول مهمة في برامج (دي دي آر DDR) هي نزع - أو التجريد من - السلاح، وهو موضوع حساس جدا خاصة بالنسبة للجماعات المسلحة. فهم لا يحبون أن يظهر عليهم أنهم استسلموا، خاصة عند مقارنة وضعهم بوضع الجيوش الرسمية الذين غالبا ما يحتفظون بأسلحتهم. ولذا لا يتوقع أن الجماعة المسلحة ستكون مستعدة لتسليم أسلحتها منذ الوهلة الأولى. كما أنهم لن يكونوا مستعدين لتسليمها للحكومة. في نيبال، من 2006 إلى 2011، وضع جيش التحرير الشعبي أسلحته في مخازن مقفلة بنظام قفل واحد واحتفظوا بالمفتاح في مكان آمن. قامت الأمم المتحدة بتسجيل الأسلحة والتفتيش على المخازن بصورة دورية بواسطة منبهات على أبواب الحاويات وبآلات تصوير تراقبها. ووضعت أسلحة الجيش الوطني تحت نظام مراقبة وتفتيش مشابه. وأخيرا، لم تسلم أسلحة الماويين إلا لهيئة أمنية مشتركة (ضمت قيادات جيش التحرير الشعبي)، في أغسطس/آب 2011، ثم سلمت بعد ذلك إلى الجيش المشترك. وفي السلفادور وضعت جبهة التحرير الوطني أسلحتها في خزانات تابعة للأمم المتحدة، بينما أصرت حركة أتشيه الحرة على تدمير أسلحتهم بأنفسهم. وقرر زعماء منظمة (أم19) في كولومبيا أن ينزعوا أسلحتهم بأنفسهم وأن يجروا تصويتا بين المقاتلين على ذلك. لقد وظفوا وكالة خاصة بهم تقوم بصهر

الأسلحة أمام عيون هيئة دولية بدلا من تسليمها للدولة. أما الجيش الجمهـــوري الأيرلندي (آي آر أيه) فلم يسلم أسلحته إلا لهيئة سحب السلاح الدولية المستقلة (IICD). وجاء في تقريرها النهائي: "إن عملية سحب السلاح يجب ألا تسجل انتصارا أو هزيمة لأحد، ونحن نعتقد أن هذا المبدأ ينطبق على كل المفاوضـــات الأخرى". ونظرا لأن عملية نزع السلاح تشتم منها رائحة الاستســـلام فـــإن اختيار الألفاظ والمصطلحات مسألة حساسة للغاية. ففي أيرلندا الشمالية وأتشيه وصفت بأنها "سحب الأسلحة"، وفي النيبال "التعامل مع الســـلاح والمعـــدات الحربية"، وفي كولومبيا "ترك الأسلحة". ولا توافق الجماعات المسلحة في كـــل الحالات على تدمير أسلحتها، وفي أيرلندا الشمالية استعمل تعبير "وضع الأسلحة خارج نطاق الاستعمال".

النقطة الأخرى هي كيف تتيقن من أن الجماعة المسلحة تخلت عن كـــل أسلحتها، خاصة إذا لم تكن تعرف كيف حصلت عليها في المقام الأول. هنـــاك محفزات، بطبيعة الحال، عند الجماعة المسلحة لأن تهون من عدد مقاتليها وحجم أسلحتها أملا في أن يكون بعضهم احتياطا لها في حالة ما إذا ساءت الأمور. في موزمبيق حيث كل إنسان كانت عنده بندقية وأن الكلاشينكوف ســـعرها 15 دولارا في السوق السوداء كان من المستحيل سحب جميع الأسلحة من السوق. وعلى أي حال فإن جمع الأسلحة لا يضمن أي شيء، لأن الجماعات المســـلحة لها القدرة على الحصول على المزيد منها. ولكن من المهم كشـــيء رمـــزي ولا أحدا يود أن تصل الأسلحة لأيدي غير مناسبة.

وإن اكتُشف أحد الطرفين أن الآخر متورط في الغش بالنســـبة لموضـــوع السلاح، فهذا سيكون ضربة موجعة للثقة بين الطرفين. كانت لـــدى المـــؤتمر الوطني الأفريقي خطة سرية باسم عملية فولا Operation Vula لتوريد الأسلحة وتخزينها في جنوب أفريقيا لضمان استمرار الكفاح المسلح. وأذنـــت زعامـــة الحزب باستمرارها حتى بعد الاعتراف بالحزب ومشاركته في المفاوضات مـــع الحكومة. وعندما انكشفت الخطة في يوليو/تموز 1990 واعتقل أربعـــون مـــن أعضاء حزب المؤتمر كادت تعصف بعملية السلام لأنها، كما قـــال أف دبليـــو

ديكليرك، "أثارت شكوكا حول مصداقية المؤتمر الوطني الأفريقي نواياه الحقيقة". وقد رأينا الغش والتحايل في أماكن أخرى كذلك. قوات التحرير الشعبية Liberation People's Forces، الجناح العسكري لجبهة التحرير الوطني في السلفادور، لم تسرح من مقاتليها إلا الكبار في السن و لم تسلم إلا القديم الذي لا فائدة منه من الأسلحة، محتفظة بكميات كبيرة منها، بما في ذلك الصواريخ، وجوازات السفر الجديدة وقائمة بالأهداف. احتفظ بها في مخزن سلاح سري في ماناغوا تحت حراسة أعضاء حركة الباسك التحريرية الإسبانية. وعندما انفجرت الأسلحة ذات يوم بالصدفة تعرت الخطة واستخدم الحادث كذريعة من قبل الجيش في السلفادور لإيقاف تنفيذ الاتفاق بصة مؤقتة. وطولبت الجماعة المسلحة بتقديم تقرير كامل عما جرى لأسلحتها كلها.

بالتوازي مع برنامج التجريد والتسريح والدمج هناك حاجة إلى إصلاحات في قطاع الأمن لتكوين جيش أو قوات شرطة يكون مقبولا لدى ذلك القطاع من المجتمع الذي دعم الجماعة المسلحة. ففي أيرلندا الشمالية دار الحديث حول تخفيض وجود الجيش البريطاني في الإقليم وتنفيذ توصيات تقرير باتن Patten Report لعام 1991 لإصلاح قوات شرطة أليسترا الملكية RUC Royal Ulster Constabular وتحويلها إلى قوة شرطة أكثر توازنا بنسبة تجنيد 50/50 من بين البروتستانت والكاثوليك. وفي سياسة شبيهة اتبعت في كوسوفو رفعت من نسبة الصرب في قوات الأمن إلى 8.2% بالرغم من أن نسبة الصرب لا تزيد على 5% من عدد سكان البلاد. وفي بوروندي وضعوا قاعدة لا تزيد بموجبها نسبة تمثيل أي مجموعة عرقية في الجيش أو الشرطة بأكثر من 50%.

إعادة تنظيم الجيش بعد صراع مسلح يعتبر، بصورة خاصة، تحديا صعبا للغاية. اتفق الطرفان في السلفادور على تكليف هيئة تتولى تطهير القوات المسلحة بقيادة أبراهام رودريغيز Abraham Rodriguez أحد المؤسسين الحزب الديمقراطي المسيحي. أوصى تقرير رودريغيز بتطهير الجيش من 103 ضباط. تعتبر هذه خطوة كبيرة في جيش صغير الحجم، وتمثل 85% من الحاملين لرتبة عقيد فما فوق، و لم تؤخذ بروح طيبة من قبل الجيش. ذهب جايمس لوميون إلى

بيت رودريغيز ووجد البستاني جالسا أمام الباب حاملا بندقيته. وكان رئـــيس المخابرات العسكرية قد اتصلَ تلفونيا وقال أنه سوف يقتل رودريغيز الذي كان محتجزا في غرفة نومه. وقال رودريغيز للوميون: "نعم.. لقد نفذت العمليـــة. لم يصدق أحد أنني سأعمل ذلك ولكنني فعلت". طلـــب لوميـــون أن يســـتخدم التلفون واتصل ببيرني أرونســـون Bernie Aronson في الخارجيـــة الأمريكيـــة، وتحدث مباشرة مع الرئيس جورج دبليـــو بـــوش George H W Bush الـــذي استدعى كولين باول Colin Powel القائد العسكري الأمريكي. استقل بـــاول طائرة في اليوم التالي متجها إلى سان سلفادور ليتحدث إلى القيادة العسكرية لمدة ثلاث ساعات بكلمات ترفع من معنوياقمم. فلربما أنقذوا حياة رودريغيز ولكـــن ذلك لم يحل الأزمة. وأخبر مسؤول المخابرات العسكرية الرئيس كريستياني بأن الجيش غير مرتاح للوضع وأنه إذا لم يراعي كريستياني مصلحة الجيش فالنتيجـــة ستكون انقلابا عسكريا في البلاد.

لم يكن هناك اتصال أو حديث بين الجيش وبين جبهة التحرير الـــوطني في البداية بعد توقيع الاتفاق. وقام لوميون بالترتيب لبعض الضباط العســـكريين أن يلتقوا مع عناصر مقاتلة سابقه بصورة خاصة في بيته. وكان الترتيب أن يأخـــذ الضباط في مخزن سيارته الخلفي إلى موقف السيارات الذي تحت شقته في المبني. وعلق أحدهم يقول: "ربما كان ذلك أهم ما حصل في تاريخ عمليـــة الســـلام، ولكنه أخطر ما حصل كذلك". قرر بجلوبوس أن التطهير المقترح في تلك المرحلة كان راديكاليا ومفاجئا أكثر من اللازم، وقد يؤدي إلى زعزعة السلام في الوقت الذي بدأ تنفيذ عملية السلام. فدخل في مفاوضات تكميلية مع كريســـتياني في أكتوبر 1992 لوضع شروط أفضل لصالح المقاتلين السابقين مقابل عملية تطهير أصغر. فاتُهم بالخيانة من قبل جماعته أنفسهم والمدافعين عن حقوق الإنسان، وفي المحصلة ضحى بمستقبله السياسي كله. ولكن كان مقتنعا بأنه ليس من الحكمـــة أن يهان الجيش إذا كان الهدف هو تحقيق سلام دائم. وفي النهاية سلم ما تبقـــى لديه من صواريخ أرض – جو الثمينة مقابل إدماج 600 مقاتل الـــذين أعطـــوا منحا دراسية وتدريب ووظائف. وقال لكريستيان "سأساعدك أن تتفادى انقلابا

عسكريا، على أن تساعدني في أن نمنع هؤلاء المقاتلين من الرجوع إلى الحرب من جديد".

ولعله من المفارقات، أن يُحافظ على تركيبة الجماعة المسلحة سليمة لمـــدة معينة على الأقل بعد التوقيع على اتفاق السلام، لأنه من الضروري المحافظة على تركيبة القيادة والسيطرة داخل الجماعة لضمان تنفيذ ما أتفق عليه من جانبـــها. فالتسرع في تفكيك تنظيم الجماعة يؤدي إلى إحداث فراغ أمني كبير إضافة إلى احتمالات ظهور الانشقاقات داخل الجماعة. ففي الفليبين اهتز الاتفاق الهيكلي بين الحكومة والمتمردين الإسلاميين في 2008 عندما انشق الزعيم أومبرا أميريـــل كاتو Umbra Amiril Kato وأخذ معه ألفا (1,000) من المقاتلين مـــن القـــوة الرئيسية للجبهة الإسلامية لتحرير مورو وعاد بهم إلى ميادين القتال تحت اســـم: المقاتلون الإسلاميون مـــن أجـــل حريـــة بانجســـامورو Bangsmoro Islamic Freedom Fighters. هذا الانقسام ترك الحكومة الفليبينية غير مطمئنة للتوصـــل إلى سلام دائم مع الجبهة الإسلامية لتحرير مورو كمنظمة واحدة مترابطة. وفي أندونيسيا، وبعد اتفاق هلسنكي، أعادت حركة أتشيه الحرة تشكيل نفسها من مجموعة مقاتلة إلى لجنة مدنية مؤقته (ك بـــي يه KPA) لتحافظ على وحـــدتها وتجانسها ريثما تنظم نفسها كحزب سياسي.

وعلى الجانب الآخر يجب الانتهاء من تسوية التركيبة التنظيميـــة ونـــزع أسلحة المجموعة المتمردة قبل أن تستولي عليها العصابات المجرمة. ففي السلفادور وغواتيمالا لحقت اتفاق السلام موجات كاسحة من الجرائم العنيفة. فضـــحايا القتل في السلفادور بعد الاتفاق فاق، في الحقيقة، حجم الضـــحايا في الحـــرب كلها. فالذين كانوا يخافون الشرطة والدولة أصبحوا الآن يلومون أنفسهم عـــن عجزهم أن يقوموا بشيء ما، وأصبحوا الناس يرددون "الوضع اليوم أسوأ مـــن أيام الحرب". إنها حقيقة مربكة ومن الصعب تقبلها أن أكثر التسويات الســـلمية يتبعها ارتفاع مفاجيء في الجريمة بعد القضاء على القمع والاستبداد.

كثير من المحاربين ليس لهم رغبة في الالتحاق بالجيش أو الشرطة، ولكن لا بد من برنامج لدمجهم في المجتمع المدني. وغالبا ما تكون هذه البرامج سخية أكثر

مما يجب. في أتشيه بأندونيسيا طلبت وكالة الدمج من الناس التقدم بطلباتهم فوصلها أربعمائة ألف (400,000) طلب أي بنسبة 10% تقريبا من عدد السكان. ولكن الوكالة، بكل بساطة، لم تكن لديها القدرة على استيعاب هذا العدد وألغي البرنامج كلية. وحاول حاكم الإقليم مواجهة موضوع التعويضات، فقرر لكل قرية مبلغا ثابتا، وحاول إدخال نظام الدية الإسلامي والذي ينص على مائة بعير للضحية الواحدة. فاقترح الحاكم دفع مبلغ قدره ستة آلاف وخمسمائة (6,500) دولار للضحية، ولكنه لنقص الإمكانيات فشل في الالتزام بهذا البرنامج كذلك.

فمن الصعب إعادة دمج المقاتلين في اقتصاد أنهكته الحرب، حيث العمل غير متوفر. وبالرغم أنه من الخطأ أن يحاول المرء شراء السلام بالدعم الاقتصادي دون ما يلازم ذلك التقدم السياسي، فإنه من الخطأ كذلك ألا تتوفر مردودا للسلام عندما تكون الحرب قد انتهت. وقد كان من الأسباب الرئيسية لانهيار وقف إطلاق النار في سريلانكا هو أن منظمة نمور تحرير تاميل لم تر فوائد اقتصادية ملموسة للمحادثات. وشعر زعيم النمور، براباكاران، أن الحكومة ذهبت بكل الإعانات والاستثمارات، وأن منظمة نمور تحرير تاميل رجعت بخفي حنين. وأدرك أنه إذا ألقى النمور بأسلحتهم فلن تبقى لديهم أي شرعية إلا بما يحصلون عليه من فوائد ملموسة لأبناء شعبهم. ولا بد أن يكون المجتمع الدولي مستعدا لضخ أموال هائلة لدعم عملية السلام. وفي الموزمبيق استثمر أكثر من مليار دولار في دعم جهود حفظ السلام وإجراء الانتخابات عام 1993/4، وهو مبلغ ضخم في حد ذاته، ولكنه يشكل نسبة ضئيلة مقارنة لما صوت عليه الكونغرس الأمريكي للعمليات العسكرية في العراق وأفغانستان ما بين عامي 2001 و2011 وهو 1.283 تريليون دولار.

أحيانا الحياة الشخصية للمقاتلين تكون تغيرت بشكل كبير نتيجة للصراع. فالشباب التابعون لحركة تحرير دلتا النيجر Movement to Emancipation for the Niger Delta في جنوب نيجيريا انتقلوا من العيش الكفاف، على أقل من دولار واحد في اليوم، إلى أموال هائلة بعد أن التحقوا بالحركة. فبعد أن عاشوا حياة على حدود الفقر في مجتمع تقليدي، أعطاهم امتلاك البندقية احتراما لم

يعرفوه من قبل، ومكنهم من تحدي شخصيات هامة في القرية. فإقناعهم بالرجوع إلى مستويات الحياة المنخفضة والاستغناء عن الثروة التي تعودوا عليها أصبح أمرا صعبا. ولكن قبل أن يكون هناك جواب لهذا التحدي - وهو في الغالب جواب لا يتقبل المجتمع مجرد التفكير فيه - فلن يكونوا هم على استعداد للقبول بأي تسوية سلمية. وفي نيجيريا دعمت الحكومة المقاتلين بإرسالهم إلى الخارج لتلقي التدريب ومواصلة التعليم، وهذا ما أوجد حلولا مؤقته على الأقل.

أن الحكومة، إن عجزت، فعليها ضمان الأمن للمسرحين من المقاتلين وحمايتهم من أن يصبحوا هدفا للانتقام. ففي كولومبيا، نقل مقاتلو حركة أم - 19 السابقين إلى أقاليم تعتبر أكثر أمانا وأقل تأثرا بالعنف. فقد قامت الحكومة بتحديد أربع طبقات من الخطورة ووزعت حراسا شخصيين وسيارات مصفحة إلى تلك الأقاليم. ولكن ذلك لم يمنع 160من أولئك المقاتلين أن يقتلوا. وخسر الحزب الاتحادي، التي شكلته القوات المسلحة الثورية الكولومبية في كولومبيا عام 1988، ما بين 3,000 و4,000 من أعضائه في حملة اغتيالات في بضع سنوات. وعليه، ما لم تضمن الحكومة للمحاربين السابقين أمنهم وسلامتهم، فإن الجماعات المقاتلة لن تخاطر بالانتقال إلى العمل السياسي.

من مبادئ الجماعات المسلحة الأساسية هو "عدم التفريط في أحد"، وعليه فإن أحد مطالبهم الثابتة في المفاوضات هو إطلاق سراح زملائهم الذين في السجون. كان إعلان عفو عام على جميع المقاتلين الحل المقبول، ولكنه طريق محفوف بالمخاطر بالنسبة للحكومات. ففي إسبانيا أكتشف رابلاكابا، أن العفو عن جميع السجناء لم يكن ممكنا حسب المادة 62 من الدستور، واضطر إلى التعامل مع سجناء (إيتا) حالة حالة. ويقول رئيس جنوب أفريقيا سابقا أف دبليو ديكليرك، "أن العفو العام كان شرطا لا غنى عنه في المفاوضات بين حزب المؤتمر الوطني الأفريقي والحكومة السابقة مما أدى إلى تكوين دولة جنوب أفريقيا الجديدة. وكان في الحقيقة هو أول موضوع أثير بالتحديد في أول اجتماع بين حزب المؤتمر والحكومة في مايو/مايس 1990". ولكن، من الجانب الآخر، إطلاق سراح أشخاص أيديهم ملطخة بالدماء، يعقد الأمور على حكومات منتخبة

ديمقراطيا أن تحافظ على دعم للتسوية السلمية بين الناس العاديين من المدنيين الذين يحترمون القانون. ويقول ديكليرك عن جنوب أفريقيا:

> **اقترحت الحكومة ابتداء الرجوع إلى مبادئ نورغارد Norgaard principles (لتعريف الجريمة السياسية) لتحديد من يمكن إضفاء الحصانة عليهم أو منحهم العفو العام. وقد استفيد من مبادئ نورغارد بصورة ناجحة في ناميبيا، وسمحت، عموما، بالعفو عن الذين ارتكبوا جرائم من أجل أهداف سياسية ما لم يكونوا قد لجأوا إلى العنف الفاضح أو المفرط. ولكن الحكومة اضطرت إلى التخلي عن هذه المبادئ ثمنا لرجوع حزب المؤتمر الوطني الأفريقي إلى مائدة المفاوضات بعد 26 سبتمبر/أيلول 1992. فقد أصر حزب المؤتمر على أن البواعث السياسية يجب أن تكون هي الاختبار الوحيد، وبناء على ذلك طالب بالإفراج عن 2,000 من أتباعه، كثير منهم كان متورطا في أعمال عنف مفرط بما في ذلك جرائم مانغو بار Mango Bar وجرائم "العِقد" necklace الشهيرة. إن قبول العمل بقانون الحصانة الإضافية Further Indemnity Act كان من أصعب وأبغض القرارات التي اتخذها في فترة رئاستي للدولة.**

ومن الإشكاليات غالبا الاتفاق على من يُفرج عنهم من السجناء. بعد أسبوعين من توقيع الاتفاق في أتشيه بأندونيسيا أطلق سراح 500 سجين، ألحق بهم 900 آخرون بعد ذلك. بقي من بعدهم 100 حالة أخرى أحيلت إلى المراقبين الدوليين لينظروا في أمرهم. فاستدعوا قاضيا سويديا، كريستر كارفامر Christer Karphammar، الذي استخدم قدراته الممتازة على الإقناع في موافقة وزير العدل الأندونيسي بتوسيع العفو لأكثر من مجرد حالات الخيانة ولضم حالات أخرى. فعرضت الحكومة الإسراع بإطلاق سراح المسجونين بدلا من العفو عنهم في بعض الحالات. وعندما أغلق باب العفو في أغسطس/آب 2006، لم يبق سوي عشرة مساجين محتجزين. ورغم كل ذلك فإن الإبقاء على الذين فجروا سوق جاكارتا للأوراق المالية وقتلة أستاذ جامعي محترم، في السجن أثار شعورا بالمرارة الشديدة لدى جانب حركة أتشيه الحرة. وذهب المعارضون إلى القول بأن الزملاء الذين أبقوا في السجن كانوا ضحية للتكفير عن الأخطاء التي ارتكبتها القيادة.

العفو من طرف واحد للإرهابيين من المحتمل أنه لن يستمر دون معارضة. وستطالب الشرطة والعسكريون بنفس المعاملة. اشتكى الجنرال الأندونيسي المتقاعد كيكي سيهنكري Kiki Sayhnakri بأن "حركة أتشيه الحرة، التي عارضت الجمهورية لها الحق في استلام معاش تعاقدي. فماذا يستلم جنود قوات الجيش الوطني الأندونيسي TNI الذين سقطوا في ساحات المعارك أو الذين بُترت أطرافهم في سبيل الجمهورية؟ إنهم يستلمون تهديدات بتقديمهم إلى محكمة حقوق الإنسان". لقد حاول رئيس كولومبيا السابق، يوريب Uribe، أن يهاجم المفاوضات بطلب القوات المسلحة الثورية الكولومبية الذي ادعت فيه أن "الجنرالات سينتهون إلى السجون، بينما ينتهي المقاتلون إلى انتخابهم لمجلس الشيوخ". فقوات الأمن، التي تحتاج الحكومة إلى الاستمرار في الاعتماد عليها، تعارض أن يترك المقاتلون أحرارا بينما يلاحقون هم بسبب جرائمهم. ومع هذا، فإن أنت منحت عفوا متكافئا لقوات الأمن كالذي منحته للمقاتلين فستنهال عليك منظمات حقوق الإنسان.

ولكن العالم تغير وتقدم بإنشاء محكمة الجنايات الدولية International Criminal Court ICC ومعايير دولية جديدة تجعل العفو العام أمرا مستحيلا. وفي الحقيقة، حتى الأسلوب الذي أخذنا به في أيرلندا الشمالية، والذي هيأ لعملية قضائية لإخلاء سبيل السجناء تحت شروط، بعد سنتين فقط من السجن، سيكون الآن عرضة للتحدي والنقاش. إذا كان الهدف هو عدم تعريض الجنود العاديين لمواجهة القضاء، فلا مناص من أن يحاسب الذين هم أكثر تورطا في العنف. فمن العدل والإنصاف أن تعطي حقوق الضحايا بروزا أكبر، ولكن كما يقول لاري ماي Larry May، من جامعة فاندربيلت Vanderbilt بمدينة ناشفيل بولاية تيناسي، أن "الصعوبة في تحقيق سلام دائم تكمن في كيفية التعبير عن احترام حقوق أولئك الذين هضمت وانتهكت حقوقهم دون الإصرار على رفع مستوي التعويض عاليا، إما ماليا وإما سياسيا، بحيث يصبح السلام صعب المنال". ومن المنصف أيضا أن نستعمل التهديد بالمقاضاة أمام محكمة العدل الدولية لردع المسيئين لحقوق الإنسان في

المستقبل. وهذا لا يتحقق إلا من خلال المعاملة الحاسمة مع الذي ارتكبوا فعلا هذه الجرائم البشعة. ولكن من الممكن أن يتجاوز الإنسان حدوده، كما نفعل إذا أخذنا بنصيحة مستشار محكمة الجنايات الدولة، كلاوس كريس Claus Kress إذ يقول "صناعة القرار السياسي يجب أن تعمل على افتراض أن القانون الجنائي الدولي له الأولوية".

العفو العام كحل تلقائي أصبح، بكل وضوح، أمرا لا وجود له، ولكن هل يصبح القانون الدولي أمرا له الأولوية مقابل تكاليف أرواح أخرى تزهق، بلا ضرورة، باستمرار الصراعات المسلحة؟ كتب المدعي العام الرئيسي لمحكمة الجنايات الدولية، فاتو بنسودا Fatou Bensouda، يقول: "السلام أم العدل؟ هل علينا أن نجاهد من أجل السلام رغم التكاليف، ونضحي بالعدل في المشوار، أم علينا أن نستمر ببطولة بحثا عن العدل لنتخلص من الحصانة؟ هناك مفاوضات أجريت في الماضي اختارت هذا الطريق بالتحديد وهو التضحية بالعدالة في سبيل السلام. ومع ذلك فالتاريخ يعلمنا أن السلام الذي يتحقق بتجاهل العدل يكون قصير الأجل في أغلب الحالات، وأن دائرة العنف تستمر بلا توقف". ليت الأمر كان بهذه السهولة. في سياق الحالة الموزمبيقية، وقبل أن توجد محكمة الجنايات الدولية، يقول أندريه بارتولي Andrea Bartoli أن "نص الاتفاق عبر عن حقيقة أن أهالي موزمبيق يريدون السلام أكثر مما كانوا يريدون العدل الجزائي". أما في حالة جيش الرب لأجل المقاومة Lord's Resistance Army التي وجدت على حدود أوغندا، فإن إدانة محكمة الجنايات الدولية لزعيمهم جوزف كوني Joseph Kony جعلت من المستحيل إقناع المجموعة بالجلوس من أجل تسوية سلمية. واشتكى موريس أوغينغا – لاتيغو Morris Ogenga-Latigo، أحد شخصيات المعارضة الأوغندية يقول "لقد أصبحت محكمة الجنايات الدولية عائقا في سبيل جهودنا. هل علينا أن نضحي بعملنا لحفظ السلام هنا، كي يتكمنوا هم من اختبار وتطوير إجراءاتهم للعدالة الجنائية هناك في محكمة العدل الدولية؟ إن العقوبة يجب أن تكون ثانوية بالنسبة لهدف تسوية الصراع".

لم توضع قواعد محكمة العدل الدولية محل اختبار حتى هذا التاريخ بصور كاملة من خلال اتفاقية سلمية. وسوف تكون الحكومة والجماعة المسلحة القادمتان اللتان تتوصلان إلى تسوية هما حقل التجارب لطريقة عمل هذه المحكمة. إنه من الصعب أن يتخيل المرء أي حكومة ستقدر على إقناع زعماء جماعة مسلحة بالتوقيع على اتفاقية سلمية ترمي بهم في السجون لمدة طويلة. فقليل ما هم الزعماء الذين يتمتعون بروح الغيرية والإيثار إلى حد أن يكونوا مستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيل الصالح العام. وإذا كان ذلك يمنعنا من الوصول إلى اتفاق، فهل نحن فعلا على استعداد بأن نضحي بأرواح حقيقية في سبيل نقطة مجردة في القانون؟ فمهما تكن المقاييس والمعايير القانونية، فإن توازن المكاسب في رأيي الشخصي يشير، بكل وضوح، إلى تفضيل السلام والأرواح التي ستنجو بإنهاء الصراع وليس بنظرة نظرية بحتة نحو العدالة.

حتى وإن لم يذهب الذين ارتكبوا الجرائم إلى السجون لمدد طويلة، فإنه لا يمكن نسيان الماضي بسهولة. يقارن أندرو ريغبي Andrew Rigby، خبير العدالة التصالحية، بين منهاج "فقدان الذاكرة" - خيار سامح وانسى - وبين المنهاج البديل القائم على "المحاكمات وحملات التطهير والسعي وراء العدالة"، ويقترح أن هيئات الحقيقة والتعويضات الترميمية تأتي في الوسط بين الخيارين. "فلا بد من التعويضات والدعم، وفوق كل هذا، ندم وتسامح إذا أريد للسلام أن يكون دائما. لا بد أن تكون هناك لحظة تنفيس وتطهير كي يتمكن المجتمع ككل من المضي إلى الأمام. فعملية السلام في جنوب أفريقيا انتهت بتشكيل هيئة للمصالحة وكشف الحقائق التي كان من ورائها هدف إقفال بوابات الماضي. وهناك حاليا جدال حول ما إذا كان تشكل الهيئة صائبا أم لا، لأنه أصبح ينظر إليها بأنها قاصرة في تعاملها مع الجرائم التاريخية، خاصة تلك التي ارتكبها النظام العنصري، وأن البيض في جنوب أفريقيا يرون أن المحصلة جاءت متحيزة لجانب دون آخر. ويقول أف دبليو ديكليرك: "لقد دعمت أنا شخصيا فكرة هيئة المصالحة وكشف الحقائق لأنني اعتقدت بصدق أن هناك حاجة لمنصة نستطيع من خلالها التعامل مع تاريخنا المهموم والمنقسم وتاريخنا السقيم". ولكن لم يكن

على تلك المنصة أحد من رجال الحزب الوطني، و لم يكن عليها احد يمثل وجهة نظر الإنكاثا، "ونتيجة لذلك تركت هذه الهيئة البلاد أقل تصالحا من أي وقت مضى". ويعتقد ديكليرك أنه "في المجتمعات المنقسمة ربما كان من المهم، في الواقع، أن نسعى للوصول إلى اتفاق بالتفاوض حول الماضي كما هو مهم أن نسعى إلى اتفاق حول المستقبل. ولكن العادة أنه من الأسهل الوصول إلى اتفاق حول المستقبل من أن نتوصل إلى اتفاق حول الماضي".

يقول رامزبوتوم Ramsbotham وودهاوس Woodhouse وميال Miall أن حزب المؤتمر الوطني الأفريقي استفاد أكثر من هيئة المصالحة وكشف الحقائق كهيئة لكشف الحقائق مع تركيز عليها أقل كهيئة مصالحة. ويعتقدون أنه "ليست هناك أدلة كثيرة أن الهيئة قد حققت أثرا كبيرا في التصالحات على مستوى الأفراد". ويضيفوا أن "مسحا للرأي العام نشر في يوليو/تموز 1998 يشير إلى أن ثلثي المواطنين في جنوب أفريقيا في ذلك الوقت يعتقدون أن هيئة المصالحة وكشف الحقائق أدت إلى تدهور في العلاقات العنصرية بدلا من تصالحات في المجتمع". ولكنهم يخرجون بمحصلة مفادها أن الهيئة، رغم ذلك، "قدمت، وبدون شك، في تفاصيلها المتميزة للأوضاع في جنوب أفريقيا في ذلك الوقت، مثالا رائعا ومتفائلا على وسيلة مبدعة للتعامل مع الماضي بطريقة تعزز التصالح في المجتمع في الحاضر وتؤيد حل النزاع في المستقبل". وكتبت بوملا غوبود - ماديكيزيلا Pumla Gobodo-Madikizela، العضو السابق في هيئة المصالحة وكشف الحقائق، تقول: "المصالحة أصبحت مصطلحا بذيئا، وبعض الناس يستعملونها كغطاء للحصانة. وقيمة سياسة المصالحة تكمن في أنها تحدث تحولا كبيرا في النظرة الضيقة للمحاكمات لكي تسمح لبروز سياسة حقيقية جديدة للاشتباك مع الماضي، ليس لإشعال فتيل أحقاده القديمة، وإنما لكي نتعلم منه".

نموذج جنوب أفريقيا، الناجح هناك، ليس بالضرورة مناسبا للتطبيق في كل مكان وفي كل الحالات. في أغلب الأحوال المبدأ المتفق عليه هو وجود هيئة للحقيقة والمصالحة مع انتهاء عملية السلام، ولكنها لا يمكن تأسيسهما في الواقع. ضم اتفاق أتشيه بأندونيسيا محكمة لحقوق الإنسان. أقر عددا من القوانين ولكن

الرئيس ظل يؤجل تعيين أعضاء المحكمة على مدى سنتين اثنتين حتى طال الأمد وألغتها المحكمة العليا. كان هناك جدال حول تأسيس هيئة حقيقة ومصالحة إلا أن حركة أتشيه الحرة، مثل الحكومة، كانت مترددة حول الفكرة، وفي الأخير لم تتأسس الهيئة إطلاقا. نقل عن أحد رجال الحركة قوله أن "دعوة جانبه إلى تشكيل محكمة لحقوق الإنسان كان 'لأغراض أكاديمية'.. والطلب بمثل هذه المحكمة كان، ببساطة، للتنبيه إلى أن حركة أتشيه الحرة لا توافق على مبدأ 'سامح وانسى'". وعلق أحد مشايخ الدين قائلا: "لقد اتفقنا جميعا على ألا نناقش جروح الماضي، وأن الأطراف جميعها قد قررت بناء أتشيه جديدة". وبنفس المعيار، الفشل في التعامل مع الماضي يهدد العملية السلمية بالانحراف عن مسارها السليم، كما ثبت ذلك باعتقال جيري آدمز في أيرلندا الشمالية في 2014 في قضية مقتل جين ماكونفيل Jean McConville. عندما تركنا الحكومة أسسنا هيئة برئاسة كبير الأساقفة البروتستانتي روبن إيمس Robin Eames ومعه القس الكاثوليكي السابق دينس برادلي Denis Bradley للتشاور في كيفية وضع خط فاصل بيننا وبين الماضي. وبعد سنتين لم يجدوا أي رغبة عند الجمهوريين ولا عند الاتحاديين في الدخول في عملية مصالحة وكشف الحقائق ولا أي نوع من الآليات الأخرى التي تعود بهم إلى نكش ذلك التاريخ غير المريح. ولكن الحقائق المرة لا تختفي بسهولة، وعندما يعود الماضي بشبحه على الحاضر ستظهر شروخ وتمزقات كثيرة في بناء عملية السلام، إذا ما لم يوجد سبيل متفق عليه للتعامل مع الماضي.

طلب الجماعات المسلحة أن تقدم اعتذارا عما صدر منهم وتعويض ضحاياهم قد يساعد على تضميد جراح الصراع، ولكن إذا بولغ في هذا الأمر لدرجة الاعتراف بأن ما فعلوه كان خطأ أو جريمة ومطالبتهم بالتوبة عنه... سيكون ردهم الرفض بلا شك. ثم هناك السؤال من هم الضحايا؟ فالجماعات المسلحة دائما تقريبا تصر على وجود تساوٍ أو تكافؤ في الضحايا، بما في ذلك مقاتلوهم وأنصارهم بالإضافة إلى من قتلوا على أيديهم، وهو أمر من الصعب على عامة الناس هضمه.

وعلينا أن نعترف بأن عمليات السلام، التي نستقبلها على الرحب والسعة، لا تشعرنا بأننا في حكايات ألف ليلة وليلة، وبمجرد الوصول إلى اتفاق فما علينا إلا الخلود إلى النوم إلى الأبد. المصالحة تحتاج إلى جهود ضخمة، والمرارة التي تتركها الحرب في نفوس الناس تستمر معهم لأجيال. استمر بي دبليو بوتا، رئيس وزراء جنوب أفريقيا سابقا، مستاء لفترة طويلة بعد أن ترك الوظيفة. ورفض الإدلاء بشهادة لهيئة المصالحة وكشف الحقائق، ولما ذهبت زانيل Zanele، زوجة تابو إمبيكي، أحد زعماء المؤتمر الوطني الأفريقي، للحديث في مؤتمر للكنيسة المصلحة الهولندية Dutch Reformed Church، أخذ بوتا سماعة التلفون، وكان في بيته الذي تقاعد فيه بمنطقة ويلديرنيس Wilderness بجنوب أفريقيا، واتصل بخليفته في رئاسة الوزراء ليشتكي إليه أن "إمبيكي وأسرته شيوعيون. وها هم استولوا حتى على كنيستي". ستظل هناك خصومات سياسية وقضايا معلقة لم تحل، وسيظل هناك شيء من العنف مستمرا، كما هو الحال في موزمبيق بين (رينامو) و(فريليمو) بعد أكثر من عشرين سنة بعد الاتفاق. وأكثر ما يبعث على القلق هو الطائفية، من النوع الذي لايزال يقض مضاجع الناس في أيرلندا الشمالية. فخطوط التماس الطائفية بإمكانها فتح شروخ بين الناس في غضون أيام، كما حصل بعد مظاهرات الشغب الخاصة بالتطهير العرقي في شارع بومباي في بلفاست عام 1969، أو يوليو/تموز الأسود في سريلانكا 1983، وتحتاج بعد ذلك لأجيال كي تندمل. كان هناك ثمانية عشر حائط سلام في بلفاست يفصلون بين المجتمعين البروتستانتي والكاثوليكي عندما وقعنا على اتفاق الجمعة الحزينة عام 1998، والآن وصل عدد الحوائط الفاصلة إلى ثمانية وثمانين حائطا. وكما لخص الوضع بيتر شيردان Peter Sheridan، الشرطي الكاثوليكي من دري، إن بناء السلام الذي يتبع صناعة السلام، عملية لا تنتهي.

هذه المشاكل المستمرة يجب ألاّ تعمي أبصارنا لما حققته عمليات السلام هذه. فالحكم العنصري لن يعود إلى جنوب أفريقيا، والصراع العرقي القومي، The Troubles، لن يرجع إلى أيرلندا الشمالية، والحرب الأهلية في السلفادور لن تتكرر. والناس في كل هذه البلدان الآن مشغولون بمشاكل وفرص جديدة في

حياتهم. لقد أصبحت حياتهم في أوضاع أفضل بدرجة يصعب قياسها. وفـوق كل شيء، علينا أن نذكر كم من الأرواح أُنقذت ونجت نتيجة لهذه الاتفاقيات السلمية وغيرها. فإنا إذا وعينا دروس التاريخ، فإن تحديات صناعة السـلام في المستقبل ستصبح أكثر سهولة، وستنقذ أرواح بشر كثيرين.

الفصل العاشر

دروس من التاريخ

عملتنا التجربة، ويعلمنا التاريخ نفسه، أن الأفراد والحكومات لم يتعلموا شيئا من التاريخ.. ولم يتصرفوا بناء على مبادئ استخلصوها منه.

هيغل: فلسفة التاريخ ***Hegel, Philosophy of History***

إن المبادئ المطروحة في هذا الكتاب حول كيفية التواصل مع الإرهابيين، وكيف تبدأ مفاوضات معهم، وكيف تبني الثقة بينك وبينهم، وحول أهمية تنفيذ ما أتفق عليه.. استُخلصت من تجارب عمليات سلام على مدى العشرين سنة الماضية. فهل هذه التجارب تعد ظواهر جديدة خاصة بعالم ما بعد الحرب الباردة، أم أنها تنطبق أيضا على اشتباكات سابقة مع جماعات إرهابية؟ فمراجعة وجيزة للمفاوضات التي أجريت خلال القرن الماضي تبين لنا أنه يمكن استخلاص الدروس والعبر نفسها منذ الأيام الأولى لبروز ظاهرة الإرهاب.

كان أول صراع قام بين حكومة وجماعة إرهابية وانتهى باتفاقية سلمية ذلك الذي نشب بين الجيش الجمهوري الأيرلندي (آي آر أيه) والحكومة البريطانية في ما بين 1919 و1921. إن أوجه الشبه بين أحداث ذلك الصراع وما رأيناه اليوم تكاد تكون مفزعة حقا.

وكما هو الوضع في غالب الأحيان، فقد كان تجاوب الحكومة البريطانية منذ ذلك الوقت لحملات الجيش الجمهوري بطريقة تضمن إضافة الحطب إلى اللهيب، فواجهت كل عمل إرهابي بعمل انتقامي والذي جاء بدوره بعمل انتقامي آخر من الجيش الجمهوري، مما زاد في تصاعد العنف. واستخدمت بريطانيا قوات غير نظامية بما في ذلك "السود والسمر" Black and Tans، الذين سموا على كلاب صيد تابعة لصيادي مقاطعة لمريك Limerick Hunt بأيرلندا

المشهورين بستُرهم الكاكي وقبعاقم المستديرة tam-o-shanter، وأحزمتهم الجلدية السوداء، والذين يجوبون شوارع المدينة "لإرهاب الإرهابيين"، يحرقون المحلات والمتاجر والمنازل، ويطبقون العدالة الفورية والإعدامات. حتى هنري ولسون Henry Wilson، رئيس الأركان الإمبراطورية العامة، استنكر الطريقة التي اتبعوها في تحديد أعضاء من (شن فين) ووصفهم بالقتلة ثم "الإقدام، بكل برود، على قتلهم دون مساءلة أو محاكمة". وقال هنري ويلسون أنه لم يكن يحلم كيف إن الحكومة كانت تأمل "في حل المسألة الأيرلندية بالعنف المقابل، أمر لم يخطر لي حتى في الخيال". وكانت حملة "السود والسمر" هي أول "حرب قذرة"... وكما فعلت كل الحروب القذرة فيما بعد، لم تزد الأمور إلا سوءا.

كانت هناك مجموعة ممن يسمون "الأمنوقراط"، عرفوا في ذلك الوقف بـ "المعاندين"، بمن فيهم الجنرال أتش أتش تيودر HHTudor الذي كان قائد المتطوعين من غير النظاميين، والعميد أورموند وينتر Ormonde Winter، أو "أو"، الشخصية الغامضة والمسؤول على جهاز الاستخبارات. وفي يوميات مارك ستورجيس Mark Sturgis، السير هامفري أبلبي Sir Humphrey Appleby من قصر دبلن Dublin Castle، وُصف "أو" بأنه "تحفة.. مظهره كمظهر الثعبان الأبيض الصغير الذي يكون دوما مستعدا للقيام بأي شيء. ذكي إلى درجة السماجة، وعلى أغلب الظن لا يعرف المبادئ إطلاقا.. راكب خيل من الطراز الأول. لاعب ورق ماهر. يتقن عددا من اللغات. ممتاز كشرطي سري.. ومبدع.. مدهش. وعندما علم أحد الجنود، الذي عرفوه جيدا في الهند، بقدومه إلى أيرلندا قال: 'كان الله في عون الشن فين.. إنهم لا يعرفون الشخص الذي سيواجهونه'". المعاندون المحافظون في لندن طالبوا بأن يضع الجيش الجمهوري أسلحته ويستسلم، وأعلن هيو سيسل Hugh Cecil، أخ اللورد سالزبيري الشهير Lord Salisbury، أن المسألة الأيرلندية "مسألة أخلاقية وليست مسألة سياسية". ظن العسكريون البريطانيون أنهم انتصروا في 1920 وضغطوا للمناداة بـ "دفعة أخيرة"، ولكن في عام 1920 اغتالت فرق مايكل كولنز Michael Collins أربعة عشر بريطانيا ممن اتهموا بالعمالة للمخابرات البريطانية في دبلن. وبعد ذلك

بوقت قصير قام الجيش الجمهوري بنصب فخ لدورية مساندة في كيلمايكل Kilmichael وقتلت سبعة عشر من رجالها. كانت تلك عملية عسكرية على مستوى آخر لم يعتادوه من قبل، وأصبحت آفاق النصر تبدو بعيدة بالنسبة للحكومة، فبدأت تفكر في احتمالات اللجوء إلى المفاوضات.

التسوية تصبح ممكنة عندما يصل الوضع إلى أزمة ضارة تبادلية، كما هو الحال في الصراعات إلى شهدتها السنوات العشرين الماضية. مع حلول عام 1921 كان الجيش الجمهوري استهلك رجاله وأسلحته وذخائره. لقد سجن أو أحتجز 5,500 من رجاله المقاتلين الذين بلغ عددهم 7,500 رجل. واعتقد زعيمهم مايكل كولنز أنه لم يبق أمامهم إلا ثلاثة أسابيع للقتال حيث كان في حوزتهم 3,000 بندقية بالإضافة إلى بنادق صيد ونحو خمسين بندقية رشاش. وقال كولنز فيما بعد: "كان عندنا مخزن رشاش واحد تقريبا لكل بندقية في حوزتنا". لقد كان كولنز مدركا تماماً لخطورة أن يكتشف البريطانيون مدى ضعف تسلحهم إذ كانت حملات تفتيشهم تسفر عن أسلحة أقل في كل مرة، فكان يتعمد ردم الأسلحة حتى تعثر عليها القوات الحكومية. نظام مخابرات كولنز تفكك، والمخابرات البريطانية اخترقت منظمته بشكل مخيف. وقال كولنز معترفا: "لقد نجحنا حتى الآن في حرمان العدو من هزيمتنا.. ولكننا أدركنا عدم قدرتنا على التغلب على البريطانيين وطردهم من أيرلندا".

إذا كان الجيش الجمهوري لا يملك القدرة على الانتصار، فالحكومة البريطانية، من طرفها، كانت "لا تستطيع هزم الجيش الجمهوري دون تصاعد غير مقبول، سياسيا، في حرب 1919 إلى 1921"، كما قال المؤرخ الأيرلندي الشهير رونان فانينغ Ronan Fanning. فالمشكلة بالنسبة لبريطانيا ليست أعداد الموتى، ولكن كما عبر وزير حزب الأحرار أيتش أيه أل فيشر H A L Fisher، فكل الذين قتلوا في الحرب كانوا 500 مقاتل "وهو عدد أقل ممن قتلوا في يوم واحد من أهدأ أيام الحرب على الجبهة الغربية أثناء الحرب العالمية الأولى". المشكلة الحقيقية كانت هي عدم قدرتهم على إخماد الثورة دون أن يضطروا إلى جلب 400,000 رجل وتدمير البلاد عن بكرة أبيها.

وفي يونيو/حزيران 1921 خاطب الجنرال نيفيل ماكريدي Nevil Macready، وهو قائد عسكري في أيرلندا على درجة ممتازة من الحكمة والعقل، مجلس الوزراء فقال لهم أن تكاليف النصر في أيرلندا باهظة، "فإما أن تكون حربا كاملة أو نتبع سياسة مختلفة". وعند تقريره لرئيس الوزراء لويد جورج Lloyd George تساءل مجازيا بقوله "هل سيمضوا في هذا السبيل؟ هل سيصيحون ويولولون عندما يسمعون أننا قتلنا مائة رجل في أسبوع واحد؟". وعليه قررت الحكومة عدم استعدادها للولوغ في الدم. وبمجرد توصلهم لهذا القرار، فلم يبق أمامهم إلا خيار واحد وهو التسوية السياسية. وكما قال ماكريدي: "كلما ازداد القتل، كلما صعب الوصول إلى حل نهائي... ولا يمكن لأي قدر من الإكراه أو الإجبار أن يحل المسألة الأيرلندية".

كما أن حلا لم يكن ممكنا في العقود الأخيرة دون قيادة سياسية قوية على الجانبين. أيمون ديفاليرا ومايكل كولنز كانا قياديين صارمين غير عاديين، ولم يبدأ التقدم في المسألة إلا بعد رجوع ديفاليرا إلى أيرلندا في أواخر عام 1920 بعد إقامة مؤقتة في الولايات المتحدة. وعلى الجانب البريطاني كان هناك لويد جورج الذي اكتسب بحق لقب "الساحر الويلزي" بعد انتصاره في الحرب العالمية الأولى. لقد كانت لديه، بكل تأكيد، "عقدة المسيح" لاعتقاده أنه الوحيد القادر على حل المسألة الأيرلندية. فقد أسر لصديقه المقرب، لورد ريدل Lord Riddell، بقوله "إن وفقت في الكسب هذه المرة فسيكون ذلك أمرا عظيما". وقد قال سي بي سكوت C P Scott، صاحب جريدة مانشستر غارديان *Manchester Guardian*، لمايكل كولنز أن "لويد جورج يحارب نيابة عنهم بصلابة وفي وجه صعوبات كبيرة، وأنه حقق المعجزات بجره المحافظين إلى جانبه. وأنه الوحيد بين كل السياسيين الذي أخذ بزمام المسألة الأيرلندية في يديه، وأنه الآن في وضع يمكنه من 'الوفاء بما وعد'. وبلا شك فإن له الحق أن يتوقع بعض المساعدة من أولئك الذين يساعدهم". فأجاب كولنز: "لا أعرف شيئا عن سياستكم.. ولكنني أفكر في أيرلندا فقط". فرد سكوت قائلا: "لا بد أن تفهم سياستنا، إن كنت تريد أن تحقق أي شيء".

لقد كان الصراع والتسوية كلها في أيرلندا حول السياسة، كما هو الحال بالنسبة لكل التسويات السلمية قبل ذلك وبعده. في أعقاب الانتخابات التي تلت الحرب العالمية الأولى كان لويد جورج، في رأي اللورد بيفربروك Lord Beaverbrook، "رئيس وزراء بلا حزب" الذي اعتمد على دعم أغلبية كبيرة من حزب المحافظين في البرلمان. وحسب ما قاله فانينغ Fanning: "كانت العملية الحسابية الحزبية في البرلمان هي العامل الحاسم للسياسات". ولذلك كان لويد جورج مصمما على أن يكون شديدا بالنسبة لقضية أيرلندا كشدة أعتى المحافظين حتى يكونوا هم جاهزين للتفكير في السلام كي يحافظ على أغلبيته في البرلمان. وكان عليه، بالأخص، انتظار رحيل زعيم المحافظين، أندرو بونار لو Andrew Bonar Law، الذي ينتمي إلى أسرة من ألستر Ulster وكان مدافعا متينا عن الاتحاد (مع بريطانيا). فعندما تقاعد بونار لو إلى فرنسا ليتعافى من مرض متخيّل في مارس/آذار 1921 وحل محله كزعيم لحزب المحافظين أوستن تشامبيرلين Austen Chamberlain، الرجل الأكثر مرونة، وجد لويد جورج المجال للحركة. لقد كان في حاجة ماسة إلى كسب القضية ليحافظ على سلامة استمرار حكومته الائتلافية وأن الخيار الوحيد الذي يبدو واضحا هو التسوية في أيرلندا. وكما شرح لويد جورج النقطة نفسها لآرثر غريفيث Arthur Grifith، مؤسس حركة شن فين وكبير مفاوضي أيرلندا، قائلا "إن الرجل السياسي الذي يعتقد في أنه قادر على التعامل مع العدالة المجردة بدون رجوع إلى القوى التي من حوله، هو رجل لا يصلح للحكم".

وكان للمؤثرات الخارجية، كما هو الحال في صراعات ماضية قريبة، تأثيرات مهمة ولكنها غير حاسمة. لقد كان لويد جورج طوال الوقت قلقا بالنسبة للموقف الأمريكي. في أبريل/نيسان 1917 أرسل الرئيس الأمريكي ودرو ويلسن Woodrow Wilson رسائل سرية كتبها شخصيا على الآلة الطابعة لوزير الخارجية الأمريكية تحمل تعليمات للسفير الأمريكي في لندن أن ينقل لرئيس الوزراء البريطاني بصورة غير رسمية وسرية للغاية أن "الفشل حتى الآن في إيجاد ترتيبات مرضية لحكم ذاتي في أيرلندا" هي العمل الوحيد الذي يقف في طريق

تعاون أنجلو - أمريكي "ودي متكامل". وفي 1920 قال لويد جورج يخاطب هنري ويلسون أنه على استعداد ليأمر بهجومات مضادة ضد الجيش الجمهوري ولكنه "يريد أن ينتظر حتى تنتهي الانتخابات (الرئاسية) الأمريكية". وبعد ذلك أثناء المفاوضات مع الأيرلنديين في نوفمبر/تشرين الثاني 1922، كان لويد جورج قلقا أن الأمريكيين قد ينسحبون من المؤتمر البحري الهام إذا الح كثيرا في الضغط على الأيرلنديين. وكان قلقا كذلك حول موقف الإمبراطورية. فقد ذكر الجنرال يان سمتس Jan Smuts، ممثل الإمبراطورية لدى مجلس الوزراء البريطاني، في حديث له للمجلس أن الوضع في أيرلندا يمثل "كارثة لا يمكن قياسها" سممت "علاقاتنا الإمبراطورية وعلاقاتنا الخارجية".

وكغيره من القادة المعاصرين، أصر لويد جورج في البداية أن تتحاور الحكومة مع الإرهابيين، واصفا الجيش الجمهوري الأيرلندي بأنهم "عصابات قتل حقيقية تتحكم في البلاد وتنشر فيها الرعب". ولكنه كذلك، كغيره من القادة الذين جاءوا من بعده، قد أدرك أنه لا بد من التحاور معهم. وفي نفس السياق المعهود ظلت الحكومة قلقة عما إذا كان الاتصال مع الجيش الجمهوري يسبغ عليهم شرعية. وقد قال باسيل ثومسن Basil Thomson، رئيس القسم الخاص التابع للمخابرات البريطانية، "حتى المتطرفون يرحبون بالسلام، ولكنهم سيعتبرون أي اعتراف بأنفسهم انتصارا ضمنيا في التفاوض معهم. طبيعي أن يقولوا ذلك، وهذا نفخ في غرورهم، ولكن هل لذلك أدنى أهمية؟". وهكذا تغلبت الحكومة على قلقها حول إعطاء شرعية للجيش الجمهوري.

وفي البرلمان، في أغسطس/آب 1920، قال لويد جورج بأنه سيشرك شن فين إذا قبلوا ثلاثة شروط. "**الأول**: يجب أن تعطى المقاطعات الست في أيرلندا الشمالية معاملة خاصة. **الثاني**: أنه هو شخصيا لن يقبل أي عرض يمكن أن يؤدي إلى انفصال أيرلندا. **والثالث**: أنه لن يوافق على أي سياسية قد تضر بأمن هذه 'الجزر' في حالة الحرب". لم يقبل الجيش الجمهوري بالشروط المسبقة هذه واضطر لويد جورج أن يستمر في الاتصال على أية حال. وكغالب القادة الذي جاءوا بعده، فقد اتجه لويد جورج إلى القتال والحوار في آن واحد.

فأما وقد قرروا الاشتباك بالحوار، وجد البريطانيون أنفسهم أمام المشكلة الكلاسيكية، وهي إيجاد المُحاور المناسب في منظمة سرية، فلم يكونوا متأكدين مع من يتحدثون. كتب ستورجس في مذكراته: "إذا أردنا أن نتكلم لألستر فهناك كريغ Craig أو كارسن Carson (زعماء الاتحاديين)، أما إذا أردنا التحدث مع شن فين فهي 'خليط' من شخصيات مختلفة الخواص والذين لم يكونوا يوما مجتمعين على رأي، والفضل يرجع إلى نشاطنا نحن تجاههم". وفي أبريل/نيسان 1922 بدأ بازل ثومسون علاقة مع أحد كبراء الصحفيين الأمريكيين، كارل أكرمان Carl Ackerman، الذي لعب دور إحدى قنوات الاتصال من قبل مع شين فين. وفي يونيو/حزيران أخبر أكرمان بأن "الحكومة حريصة جدا على تحقيق السلام في أيرلندا ولكن لم نعثر على أحد له صلاحيات كي يتحدث نيابة عن شن فين".

انطلق لويد جورج يبحث عن قناة موثوق فيها توصله إلى الجيش الجمهوري منذ عام 1920 إلى ما بعدها، ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح. وكما حصل في عمليات السلام الأخيرة، كانت هناك وسائل متعددة، ولكن الطرفان واجها صعوبات في تطوير أي منها إلى قناة ذات قدرة على الاستمرار.

فعملية السلام لسنتي 1921–1922 كان لها نسختها الخاصة من برندن دادي Brendan Duddy، ذلك الرجل الذي اشتغل كقناة سرية مع الجيش الجمهوري من عام 1974 وحتى عام 1992، في شكل باتريك مويلت Patrick Moylett رجل الأعمال الأيرلندي الجمهوري. إن تفاصيل مساهمات مويلت لم تعرف إلا أخيرا عندما نشرت شهادته التي قدمها أمام المكتب الأيرلندي للتاريخ العسكري Irish Bureau of Military History والتي رُفع الحظر عنها كوثيقة رسمية.

ويقول مويلت أنه أرسل إلى لندن بناء على تعليمات من آرثر غريفيث في أكتوبر/تشرين الأول 1920 للقاء بجون ستيل John Steele مراسل صحيفة شيكاغو تريبيون *Chicago Tribune*. وعرض عليه ستيل أن يقدمه إلى فيليب كار Philip Kerr، السكرتير الخاص الأول لرئيس الوزراء. لم يكن مويلت

مطمئنا لو شوهد وهو يدخل مكتب رئيس الوزراء في داونينغ ستريت، وحوله بعض الشكوك من قبل المنتمين لجانبه بأنه جاسوس، ولكنه صاحب ستيل لمكان الإجتماع على كل حال. وهناك بدلا من كار قابل سي جيه فيليبس CJ Phillips، سكرتير خاص سابق للويد جورج وحاليا سكرتير أيتش أيه أل فيشير HAL Fisher، رئيس لجنة مجلس الوزراء لشؤون أيرلندا. قضى مويلت ثلاث ساعات مع فيشر ذلك اليوم. وتحدث الوزير عن "عصابات القتل في أيرلندا" ومويلت تحدث عن عصابات القتل البريطانية. وأصر مويلت على أنه لم يأتِ ممثلا لأي جهة، ولكنه عاد مباشرة إلى دبلن لتقديم تقرير لغريفيث الذي بدروه طلب منه الرجوع مباشرة ويطالب البريطانيين بالاعتراف بالدويل أيريان Dail Eireann، الجمعية العمومية الأيرلندية. وعليه أن يطالب بهدنة وعفو عام ومؤتمر بدون شروط مسبقة.

في 25 أكتوبر/تشرين الأول حضر مويلت موكب جنازة تيرينس ماكسويني Terence McSwiney، من شخصيات شين فين وعميد مدينة كورك Cork، الذي توفي جراء إضراب عن الطعام في السجن، وأخذ في صحبته في التاكسي من الفندق أربعة رجال يمثلون حرس الشرف التابع للجيش الأيرلندي الجمهوري. وفي يوستن Euston وجد رسالة تلفونية في انتظاره من مكتب الحكومة البريطانية في داونينغ ستريت تطلب إليه عدم مرافقة موكب الجنازة إلى دبلن كما كان ينوي، ولكن، بدلا من ذلك، أن يأتي لمقابلة سي بي فيليبس ذلك المساء. وعندما دخل المكتب سئل عما إذا كان ممكنا ترتيب مؤتمر بين قادة القوات الجمهورية في أيرلندا والسلطات البريطانية، وهل بالإمكان أن يوقف الجيش الجمهوري حملته ضد بريطانيا. فأجاب أن عليهم أن يعترفوا بالدويل، الجمعية العمومية الأيرلندية.

جاء الرد بعد أربعة أيام من فيليبس الذي قال أن لويد جورج مهتم جدا بما قاله مويلت. وسأل فيليبس عما إذا كان الدويل مستعدا أن يرشح رجالا للالتقاء مع ثلاثة أو أربعة رجال من إنجلترا لمناقشة الأفكار التي يمكن أن ينظم على أساسها المؤتمر. وكتب العرض المقترح على ورقة ووافق مويلت للذهاب

بها إلى غريفيث في الليلة نفسها. وعندما قرأ غريفيث ما جاء في الورقة إنهار وأخذته العاطفة، وأصدر تعليماته لأحد أعوانه وهو ديسموند فيتزجيرالد Desmond FitzGerald (والد غاريت فيتزجيرالد Garret FitzGerald رئيس وزراء جمهورية أيرلندا الذي شارك في المفاوضات حول الاتفاق الإنجليزي الأيرلندي لعام 1985 مع مارغريت تاتشر رئيس الحكومة البريطانية)، لتأسيس خط لاتصالات بين الجانبين.

أخبر غريفيث مويلت بأن أحد رجال الجيش الجمهوري قد فلت من سلطات القانون ولكن ترك حقيبته خلفه وبها خطط لحرق أحواض السفن في ليفربول ولندن. ويجب على مويلت أن يستخدم هذه المعلومات في داونينغ ستريت لإثبات مصداقيته لأن تفاصيل الخطط لن نعرف إلا بعد ثلاثة أيام أو أربعة. أخبر مويلت داونينغ ستريت بالخطة بمجرد وصوله هناك وسلمهم رسالة غريفيث. بعد أيام قليلة استدعاه فيليبس وطلب منه "في حالة ما إذا رتب مجلس التشريع الأيرلندي أن يلتقي تحت ضمان باستلام عروض من الحكومة البريطانية، فهل يكون أول عمل له هو إيقاف قتل رجال الشرطة والجنود.. فنحن، من طرفنا، سنوقف الهجومات المضادة". أخذ مويلت المقترح إلى دبلن ورجع إلى لندن برسالة أخرى من غريفيث. وعندما رأى لويد جورج هذه الرسالة يقال إنه قال: "نبدأ مع هذا الرجل.. فهو عنده مصداقية"، وأخذ الرسالة معه إلى الريف، حيث يقض عطلته الأسبوعية، ليقرأها بتمهل وليتأمل فيها. كانت تلك عطلة الأسبوع بتاريخ 21 نوفمبر/تشرين الثاني 1920، يوم الأحد الدموي، الذي اغتيل فيه أربعة عشر عميلا سريا بريطانيا.

في اليوم التالي استلم مويلت رسالة لزيارة داونينغ ستريت بأسرع ما يمكن. وهناك أعطي رسالة موجهة إلى غريفيث تقول: "نرجوك بالله أن تتمالك نفسك، وألا تقطع هذه الحلقة المرهفة التي أقيمت بيننا"، مضيفة أن الذين قتلوا كانوا جنودا وأنهم عرضوا أنفسهم لما يعرض له أي جندي نفسه... "فقد نالوا ما يستحقونه، وهزموا على أيدي منافسيهم". وسأل فيليبس مويلت قائلا هل هناك شيئا نستطيع القيام به لنحصل على أسبوع واحد خالٍ من العنف، لكي

تهيأ أجواء أفضل في أيرلندا حتى يستطيع لويد جورج مواجهة البرلمان والشعب الإنجليزي بخطوة نحو التسوية. ورد عليهم مويلت أن عليكم أن "تبعدوا عنا كلابهم" كذلك. وعاد مويلت إلى دبلن للحصول على تعليمات أخرى من غريفيث ومايكل كولن، ثم رجع إلى لندن ليقضي أسبوعيا كاملا في اجتماعات متواصلة مع فيليبس محاولا الاتفاق على مكان وطبيعة المحادثات بين الجانبين. فاقترح مدينة تشيستر Chester كملتقى في منتصف الطريق وافق ولويد جورج على خطورة اللقاء في لندن حيث تتسرب أخبار المفاوضات كل يوم وتتحطم فرص الوصول إلى أي تسوية. وقال له فيليبس سوف يتوصلون إلى تسوية في غضون أسبوع. وقال لويد جورج إذا ما لم يعقد المؤتمر أثناء وجود الحكومة الائتلافية فسوف لن تكون هناك تسوية فعالة لأن أحدا من الطرفين الإنجليزيين لن يسمح للطرف الآخر بتحقيق تسوية على انفراد.

لم يكن هناك نقص في المعوقين في ذلك الوقت كذلك. أعتقل آرثر غريفيث في دبلن. وطمن فيليبس موليت أن بيانا سيلقى في البرلمان بأنه سيطلق سراحه. واتصل لويد جورج بفيليبس، بينما كان موليت لا يزال في مكتبه مطالبا بأن يعلم من الذي أمر باعتقال غريفيث. فأجابه فيليبس أنه متأكد أن الفاعل ليس مكتب أيرلندا في لندن. ولكن فيليبس استدعى موليت يوم الاثنين مرة أخرى ليقول له أن لويد جورج قرر أنه لا يستطيع المضي في تلك الخطة. الإدارة الأيرلندية هددت بالاستقالة. كل هذه الأحداث انعكست بدورها في يوميات ستيرجس. وقال جون أندرسون، نائب الوزير المشترك في قصر دبلن، مقر الإدارة البريطانية لشؤون أيرلندا في دبلن، لستيرجس أن غريفيث اعتقل دون الرجوع إليه أو لأي شخص آخر. وأضاف قائلا: "هناك بعض المبررات للاعتقاد بأن لويد جورج اتصل بغريفيث من وراء ظهورنا جميعا ولذلك فإنه (الوزير الأعلى في قصر دبلن) منزعج إلى حد كبير، على ما أعتقد".

في الواقع تحصل لويد جورج على قناة أخرى للاتصال بشن فين وقرر الاستفادة منها كبديل على أمل الحصول على صفقة أفضل. أخبر فيليبس موليت أن خطة قصر دبلن لن تنجح ولكن كان ولا بد من أن يجربوها. ورغم أنه لم

يتحقق شيء من الجهود الأولية، إلا أن القادة كانوا، ولا يزالون، على أمـل في الحصول على شرف أنهم حاولوا. وكتب ستيرجس يقول: "حتى وإن كانـت النتيجة هي أسوأ المتوقع، الذي لا يمكن تصوره، وأن رئيس الوزراء اتخذ خطوة جادة إلى الإمام ورفضه الجميع، سيكون رئيس الوزراء قد عزز موقفه بشـكل كبير في أعين العالم كله بأنه في سبيل السلام قد تقدم بعرض محدد، فوق القانون الذي قدمه، ولذا فإن المسؤولية على المزيد من الخلاف تقع على أولئك الـذين رفضوه".

كانت الخطوة التالية بالنسبة للويد جورج هي أن يطبق نسخة مايكل أوتلي Michael Oatley الخاصة به للحصول على قناة للاتصال بالجيش الجمهـوري، وذلك في شخصية ألفريد 'آندي' كوب Alfred 'Andy' Cope، الوكيل الثاني في وزارة التقاعد. كوب من أسرة فقيرة، لها أحد عشر طفلا، وبدأ حياته يعمل في المكاتب كشاب يافع وظل يصعد سلم الوظيفة حـتى وصـل إلى مفـتش في الجمارك. وكان طموحه أن يرسل إلى القسطنطينية (إسطنبول) كمدير لتحقيقات الجمارك هناك ولكنه أرسل بدلا من ذلك إلى دبلن لتأسيس اتصالات سرية مع شن فين، رغم الحظر الذي تفرضه الحكومة على صلات من هذا النوع.

وحسب ما يقول المؤرخ الرئيسي الاتحادي (الموالي لبريطانيا)، بـول بيـو Paul Bew، أنه منذ 16 يونيو/حزيران 1920 أخبر كوب لويد جورج بأنه نجـح في الاتصال بشخصيات مرموقة في شين فين. وعندما داهمت سـلطات الأمـن البريطانية بيت أحد كبار رجال الشين فين ووجدوا ملاحظة خطية علـى ورق قصر دبلن الرسمي تقول: "عندي الأوراق التي طلبت إرسالها إليك" وموقع عليها من قبل كوب. وتمكن في ديسمبر/كانون الأول من فتح قناة بواسـطة مـارتن فيتزجرالد، رئيس تحرير فريمانز جنرال *Freeman's Journal*، كبرى الصـحف الوطنية. وفي إحدى المرات وضعوا عصابة على عينه وأخذوه سرا للقاء بزعمـاء شن فين. وبذل كوب جهودا مضنية للإبقاء على أولئك الزعماء خارج السجن، وإصدار أوامر بعدم اعتقال ديفاليرا de Valera. وعندما اعتقلت دورية شـرطة ديفاليرا خطأ اتصل رئس الدورية بقصر دبلن وقال له كوب أن يطلق سراحه في

الحال. كما تمكن من أطلاق سراح إرســكين تشــايلدرز Erskine Childers، الروائي الشهير وأحد ناشطي شين فين، وكان يحمل حقيبته وهو في طريقــه إلى خارج السجن، وكان يدردش معه حول السياسة. كان تشايلدرز مرتعبا مــن كونه أُلقي عليه القبض وفي حوزته مواد تدينه وأنه سوف يقدم للإعدام. كمــا تمكن كوب من أطلق سراح آرثر غريفيث وكان ذلك مطلبا رئيسيا من مطالب شين فين. نشاطات وتحركات كوب جعلته منبوذا من قبل "الأمنوقراطيين" الذين لقبوه "محام ظبــي الشين"، ولدى الاتحاديين الذي اهموه بإضعاف قوّات التاج البريطاني. بل وذهب بعض أعضاء البرلمان المحافظين إلى التصريح داخل البرلمــان بأنه يعمل لصالح الشين فين.

ونفي مايكل كولنز بعد ذلك أنه التقى بكوب إلا بعد توقيع الهدنة، ولكن ذلك ليس هو الحقيقة. ففي تقرير أعده تم كينيدي Tim Kennedy أكد أهمــا التقيا. وكان كينيدي ضابط في المخابرات تابع لفرقة كيري الأولى Kerry No. 1 Brigade التابعة للجيش الجمهوري الأيرلندي، وأتي إلى دبلن للالتقاء بكولنز في عام 1921. فقد ذهب إلى فندق فون Vaughn بميدان بارنيــل Parnell Square وطلب من موظف الفندق استدعاء كولنز من اجتماع كان يحظره ليلتقي بــه. "عندما دخلنا إلى الصالة ذكر لي أن الحرب قد انتهت، وأن سير ألفرد كوب من قصر دبلن في الغرفة التي نحن ذاهبون إليها، وعليّ ألا أكشف له ولحراسه الاثنين أي شيء". وقدم كولن كينيدي لكوب ولضابطي قــوة الشــرطة العســكرية الأيرلندية الملكية الذين كانا يرافقنه، تحت اسم مستعار. "ميك (مايكل) أعلــن خبر الهدنة مرة ثانية، وشربوا البراندي والشامبانيا احتفاءً بها.. كوب وأنا وميك واصلنا الشرب كأسا تلو الآخر، وتظاهر ميك بأنه ثَمِل ولكنني اكتشفت بعــد ذلك أنه كان يشرب سائلا ملونا وليس خمرا". كنيدي وكوب أغمي عليهما.

لقد كان كوب هو الذي رتب الاجتماع "السري المسرحي" بين جيمس كرايغ، الزعيم الاتحادي في أيرلندا الشمالية، الذي عمل معه من قبــل في وزارة التقاعد والذي كان في زيارة لممثل الملكــة في دبلــن، وبــين ديفــاليرا في 5 مايو/مايس1921. لقد سبق وأن أخبرهما كوب أن كلا منهما يرغب في مقابلــة

الآخر. وقوبل كريغ في محطة القطار في بلفاست، وعصبت عيناه وأخذ بالسيارة إلى منزل آمن. وعندما أزيحت العصابة عن عينيه لاحظ أن الحديقة تعج برجال مايكل كولنز يتظاهرون بالإنهماك في أشغالهم، ولكنهم في الحقيقة يحرسون المنزل ومن فيه. وحسب ما رواه كريغ، ديفاليرا كان يتكلم أغلب الوقت وأن كريغ ينصت إليه "وهو يسهب في الكلام... حول معاناة القرون السبعة الأخيرة".

عند هذه النقطة عاد موليت إلى الصورة من جديد. في 28 مايو/مايس استدعي من قبل القنصل الأمريكي، السيد دامونت Mr Dumont، الذي كشف له أنه العميل السري السياسي الأمريكي كذلك. وأطلع موليت على رسالة من جون أندرسون في قصر دبلن، يطلب فيهما من دامونت المساعدة في الجمع بين السطات البريطانية وديفاليرا. دامونت ذهب بالرسالة إلى وزير ألشين فين دبليو تي كوسغريف WT Cosgrave، الذي أخذها بدوره إلى حكومة أيرلندا. ديفاليرا شجب الرسالة ووصفها بأنها فخ وقال أنه لن يذهب لأي اجتماع من هذا النوع، ولكنه وافق على أن يذهب موليت. في صباح اليوم التالي طلب ديفاليرا من كوسغرايف أن يرسل أربعة أو خمسة رجال آخرين لمرافقة موليت إلى القصر وأن يعلن اختفاءه إذا لم يحضر مع الساعة الثانية ظهرا.

في اليوم التالي كان موليت يمشي وحده إلى بوابة القصر، تاركا مرافقه قريبا منه. لقد ذكره كوسغريف بضرورة المغادرة مع الساعة الثانية لئلا يعرفوا أنه كان غير موجود. وعندما طرق موليت البوابة كان واضحا أنهم كانوا في انتظاره لأن رجلا من الشرطة فتح الباب مباشرة ورافقه إلى الداخل وأراه المكان الذي قتل فيه ثلاثة من رجال الجيش الجمهوري. ويقول موليت أنه أحس بشعور مروع في عقب رجليه، بينما كان الباب يقفل من ورائه. مر بمجموعة جنود يدربون على الرمي وأدخل شقة في الطابق الأرضي حيث قابل كوب. عرض كوب عليه سيجارة وقال أنه في شوق لمقابلة ديفاليرا. أقترح موليت وضع دعاية في الصحف وسأل كوب عن الأجندة، فأجاب قائلا: "نحن على استعداد أن أعترف بأننا هزمنا. ليس هناك أمامنا شيئا تعمله إلا تجنيد أربعمائة ألف جندي والدفع بهم إلى البلاد لسحق جميع سكان البلاد عن بكرة أبيهم.. ولكم لا نريد

عمل هذا. نحن على استعداد لسحب كل المؤسسات من إدني درجة في الشرطة إلى أعلى مستوى في القضاء". وذكر كوب أنه الممثل المباشر للويد جورج وجاء من أجل السلام. وبعد ساعتين ونصف من المحادثات طلب من موليت أن يرجع ويخبر كوسغريف بما دار، واستطاع موليت أن يغادر القصر قبيل الموعد النهائي إلى حدده ديفاليرا وهو الساعة الثانية. وبعد ثمانية وأربعين ساعة، تسلم ديفـــاليرا رسالة من مكتب رئيس الوزراء البريطاني في داونينغ ستريت يعرضون فيها هدنة وعفو عام ومؤتمر. في نهاية المطاف نجحت القناة ورتبت المفاوضات.

كما رأينا في صراعات العصر الحديث أن المشكلة لا تكمن في مضـــمون فحوى الخلاف نفسه ولكن في عدم توفر عملية تحكم هذا الخـــلاف. كتـــب سترجس في مارس/آذار 1921 يقول: "يا له من كابوس.. نزداد اعتقادا بأنـــه لا يوجد هناك شيء واحد ملموس وحقيقي بينا إلا إذا نحن اجتمعنا حول مائـــدة وبدأنا في الكلام في الموضوع". المشكلة هي غياب الثقة. ويعتقد ســـترجس أن شين فين "يخشون أنهم سيوعدون بشيء، بل ربما حتى يعطون شيئا، ثم يســـلب منهم". والتحدي، كما هو في الغالب، يرتبط بالتسلسل. من يبدأ العملية، ومن يتحرك الأول؟ سترجس يقول: "القضية الأولى هي نتغلب على العـــائق الأول. فرئيس الوزراء لن يتقدم بعرض واضح طالما ظلوا يطالبونه بجمهورية. وهم لـــن يتوقفوا عن المطالبة بجمهورية حتى يقدم لهم رئيس الحكومة عرضـــا واضـــحا محددا".

سبقت المفاوضات الرسمية، كما جرى في أيرلندا الشمالية بعد سبعين عاما، جَوقَة من من الرقص والخطب الفخمة خاصة خطاب "غصن الزيتون" للملـــك جورج الخامس. كان الملك يتهيأ لافتتاح الجلسة الأولى لبرلمان ســـتورمونت في أيرلندا الشمالية وأعطاه جايمس كريغ مسودة الكلمة وكانت تحمـــل أفكـــارا اتحادية صرفة. الملك لم تعجبه الكلمة. وقال الجنرال سمتس أن الكلمة يجـــب أن يستفاد منها كفرصة لمد غصن زيتون إلى شين فين. ونصح بأن "الوعـــد بمـــنح الأيرلنديين سيادة على أرضهم من قبل الملك شخصيا سوف يخلق وضعا جديدا واضحا يبلور الآراء بصورة إيجابية في أيرلندا وغيرها. بعد ذلك يـــدأ الترتيـــب

لمفاوضات غير رسمية مع قادة مسؤولين في أيرلندا". أعيدت كتابة المسودة من قبل مسؤولين في لندن وكان له الأثر المتوقع في أيرلندا وفي جميع أنحاء العالم.

اتبع ذلك بمراسلات سرية، تذكرنا بتلك التي جرت بين جون ميجر ومارتين ماغينيس. ذهب كوب إلى لندن وتكلم بقوة من أجل السلام أمام مجلس الوزراء البريطاني وعاد إلى دبلن ليسلم أول رسالة سرية تدعو ديفاليرا وكريغ إلى لندن لمناقشة ترتيبات معينة يوم 25 يونيو/حزيران. ولكن دفاليرا رفض مباشرة الأسلوب التي اتبعه البريطانيون لأنهم لا يعترفون بوحدة أيرلندا. أُرسل سمتس كوسيط غير رسمي. فهو كرجل سبق له وأن لعب دورا مرموقا في محاربة البريطانيين قبل عشرين عاما في حرب البور الثانية في جنوب أفريقيا، ولديه منفذ إلى الجمهوريين الذين درسوا حملات الأفريكانا بعناية فائقة. وكما هي الحال في الغالب، كلا الفريقين تلكأ في قضية الشروط المسبقة. أقنع سمتس الحكومة البريطانية أن تتنازل عن مطلبها بأن يسوى موضوع السيادة أولا وأن توافق على اللقاء مع ديفاليرا بدون حضور كريغ. ونصح ديفاليرا أن يتفادى استفزاز البريطانيين بإجابته، وارسل دوفاليدا برقية إلى لويد جورج ليقول له إنهم على استعداد للقاء ومناقشة "الأسس التي يؤمل عليها أن يحقق المؤتمر المقترح الأهداف المرجوة". ووفق على الهدنة في اجتماع في مانشين هاوس Mansion House بدبلن بين الجيش الجمهورى الأيرلندي والجنرال ماكريدي وكوب، وفي يونيو/حزيران 1921 وافق لويد جورج على "مصافحة الجريمة". واستمرت المسئلة الأخلاقية مثارة في الحديث مع الإرهابيين تلاحق البريطانيين وتقلق مضاجعهم. ولاحظ ستيرجس "موقف المورنينج بوست *Morning Post* من الرعب حول التعامل مع القتلة على أنه موقف يجب أن يُتعاطف معه.. وهذا الرأي له بدون شك الكثير من الأنصار في إنجلترا، ولكن المسألة ككل أكبر من ذلك بكثير وعلينا أن نستعد لأن نتجرع الكثير والكثير إذا كانت النتيجة هي التسوية الكاملة".

كان الاجتماع الأول بين رئيس الوزراء والشين فين في داونينغ ستريت في 14 يوليو/تموز 1921 حدثا هاما. وكتبت فرانسس ستيفنسن Frances Stevenson،

سكرتيرة لويد جورج وعشيقته، تقول أنها لم تر رئيس الوزراء "منفعلا كما كان قبل وصول ديفاليرا... كان يدخل غرفتي ثم يخرج، وكنت أراه يرسم أحسن طريقة يعامل بها ديف (ديفاليرا).. كانت عنده خارطة كبيرة للإمبراطورية البريطانية معلقة في غرفة رئاسة الوزراء، مغطاة ببقع كبيرة من الحبر الأحمر. الغرض منها إعطاء ديف انطباعا بعظمة الإمبراطورية والملك.. وقال (لويد جورج) أنه من عادة ديف الخروج عن الموضوع ومن الصعب حصره في نقطة معينة.. ويتكلم بكلاشيهات ويرفض مواجهة الحقائق". وعندما قرأت ما كتبت فرانسس أخذت بالشبه بين ذلك اللقاء واللقاء بين توني بلاير وجيري آدمز ومارتين ماغينس عام 1997. لقد جلس الفرقان في نفس المقاعد التي جلسا فيها نظيراهما بعد سبعين سنة: جلس ممثلو شين فين حول الطاولة بظهورهم لموكب حرس الخيول Horse Guards Parade والحكومة إلى جانب داونينغ ستريت. وقال لويد جورج أنها كانت "المرة الأولى التي قابلنا فيها حزب القوة الجسدية على طاولة وفي نقاش مباشر". وفي اللقاء الأخير في الغرفة نفسها، بعد ستة أشهر، وبينما الوفد الأيرلندي في طريقه للمغادرة، يقول بيو Bew، "أن كولنز مشي بخطوات هادئة إلى ركن حيث علقت به بندقية أمريكية.. أهداها الرئيس الأمريكي ويلسن للويد جورج. التقطها كولنز، وأعضاء الحكومة يراقبون مشدوهين.. ومشى في اتجاه كرسي لويد جورج وجلس بجواره قائلا للوزير: 'الآن يمكن لرئيس الوزراء أن يلتقط صورة لإرهابي'". وأذكر أن جيري آدمز قد شد انتباهه سيف أهداه أحد السلاطين العرب لجون ميجور، وكان على طاولة في غرفة مجلس الوزراء. فكان يأخذه في يده.. وكان يراودني الشعور بأن أبادر بطلب رجال الأمن.

لقد وجد لويد جورج غريمه في ديفاليرا، وكتب بعد عشرين سنة يتذكر قائلا: "عندي خبرة عن السيد ديفاليرا كمفاوض وبصراحة لم أر شيئا يشبه ما رأيت. إنه فريد تماما، كأنه كوكب وحده، شارد الذهن، يشعر بأن له حقا أصيلا بأن يشعر بشكر عميق على أنه فريد لا مثيل له". ووصف التفاوض مع ديفاليرا بأنه "كالتقاط الزئبق بالشوكة". أصر ديفاليرا في

الاجتماع على اعتبار أيرلندا جزءا من الجمهورية، وإلا سيطالب بالاستقلال الكامل. ورد لويد جورج بقوله إذا كانت تلك خلاصة رأيك الأخير فليس هناك شيء يناقش بعد ذلك إلا تحديد موعد نهاية الهدنة. طلب ديفاليرا مزيدا من الوقت للذهاب إلى دبلن للتشاور. وعندما وصل هناك أرسل برسالة أخرى إلى لويد جورج الذي تجاهلها كرد سخيف. كانت الحكومة على وشك أخذ تلك الرسالة رفضا للمحادثات، ولكن برقية وصلت من كوب أقنعتهم بالتعامل معها كباب مفتوح. وكتب البريطانيون ردا على ذلك ليقولوا أن المراسلات استمرت أكثر من اللازم واقترحوا معادلة محايدة كأساس للمحادثات. بلغ ديفاليرا بذلك، ومع ذلك أصر على رده بأن أيرلندا قد أصبحت دولة مسقتلة ذات سيادة. تجاهل البريطانيون ذلك وأرسلوا له الدعوة من جديد.

الفجوة بين إعلان وقف إطلاق النار وبداية المحادثات السياسية تعتبر دائما مرحلة خطرة قد يتجدد فيها العنف. وكتب ستيرجس عن "الخطر في أنه كلما تمدد وطال الأمر فإنه من الممكن أن حادثا قد يحدث 'فيفجر السلام تفجيرا'، كقتل زعماء أي من الجانبين". وكتب جيرمي سميث Jeremy Smith من جامعة ويلز يقول: "التحول من وقف إطلاق النار إلى تسوية لم يكن سهلا إطلاقا. فالعنف كان سببا في حرمان رجال أشداء كانوا يعتبرون التنازل والحلول الوسط خيانة للرفاق الذين ماتوا وللمثاليات المقدسة. ولقد كان من الواضح أن اتفاقا في هذه الظروف يحتاج جهود جبارة". ولكنه يضيف فيقول أنه "لكون الطرفين منهكين ومعنوياتهما في الحضيض ومتعبين بسبب القتال، فالخيار العسكري وصل إلى منتهاه عام 1921، تاركا الحل السياسي الطريق الوحيد المفتوح لأي من الطرفين للوصول إلى غاياته".

ووقع لويد جورج في الفخ بمجرد دخوله في المفاوضات، كما حصل مع قادة آخرين من بعده. كان في حاجة إلى نجاح ما ليحافظ على تماسك ائتلافه، وكما قال آرثر بلفور، "فإن النجاح كان ينبغي أن يكون بوزن كسب الحرب". وكان تقييم رونان فانينغ كالتالي: "لم يعد هناك خط رجعة. والهزيمة كانت بمثابة

إشارة بداية النهاية لرئاسته وانهيار حكومته الائتلافية التي اعتمد عليها كل رجال الدولة البريطانيين من أجل بقائهم السياسي".

النجاح يتطلب مفاوضين عمليين. كتب جيرمي سميث يقول: "إن ما كان تحتاجه تسهيل عملية التقايض والتنازلات هو شخصيات تملك البراغماتية والمرونة، بل 'اللزوجية'. شخصيات قادرة على التراجع بسهولة عن مواقفها المتصلبة، أي يستطيعوا أن يرضوا بما يمكن الحصول عليه بدلا من المرغوب فيه، وكان في وسعهم المخاطرة بالكثير في سبيل صعود العقبات الأولى والصعبة لتحقيق تسوية كاملة. ومن حسن الحظ أن ظهر أمثال هؤلاء في البلاد على الطرفين. في الجانب البريطاني كان هناك لويد جورج وونستون تشرشل Winston Churchill واللورد بيركنهيد Lord Birkenhead، وكلهم كان بكل أريحية وعلى أتم استعداد أن يبيع جدته في سبيل المصلحة السياسية. وأما على الجانب الأيرلندي كان آرثر غريفيث، معتدلا معروفا، ومايكل كولنز، الزعيم بلا منازع للحركة الجمهورية الأيرلندية الذي كان كذلك، ولله الحمد، رجلا عمليا صعب المراس".

كان لويد جورج واعيا بدرجة عالية بأول قانون في عالم الدبلوماسية وهو: أصعب المفاوضات على الإطلاق هي التي بينك وبين الذين في صفك. لقد ترك الوزارة في الظلام بالكامل حول سير العملية، ولكنه حرص على وضع أوستين تشامبرلين، زعيم حزب المحافظين، وبالفور Balfour كأقوى الاتحاديين تشددا، في الصورة بالكامل. كما تعمد إشراك تشرشل وبيركنهيد في الوفد لدورهم في المفاوضات. وكما عبر بيفربروك Beaverbrook على ذلك إذ قال: "إن تركهم خارج العملية كان أمرا غاية في الخطورة". وبعد ذلك، وبأسرع ما يمكن، أرسل أسوأ أعداء الصفقة، بلفور وموريس هانكي Maurice Hankey (سكرتير مجلس الوزراء)، إلى واشنطن لحضور مؤتمر السلاح البحري.

لقد كان للأيرلنديين نصيبهم من المعتدلين والمتشددين، ولكنهم لم يوفقوا في التعامل معهما. لقد اشتكى كلا من مايكل كولنز وآرثر غريفيث أن مشكلتهم الأساسية كانت مع دبلن وليست مع البريطانيين. لقد قرر ديفاليرا

البقاء في دبلن كمحكمة استئناف أخيرة بدلا من المشـــاركة في المفاوضـــات وأختار فريقا يعكس الفرق المختلفة في ائتلاف الشين فين بدلا من الأهلية. لقد كان مايكل كولنز قائدا عسكريا بارعا، واعترف بنفسه أنه يملك الصبر علـــى التفاصيل الدستورية. وكان مدركا أنه كبش فداء قائلا أنه يقوم بمـــا يعتقـــد زملاؤه في مجلس الوزراء "يجب أن يعمل ولكنهم يفتقدون الشجاعة الأخلاقية للقيام بالعمل بأنفسهم". عين ديفاليرا آرثر غريفيث رئيسا للوفد رغم علمه بأنه معتدل أكثر في طموحاته من ديفاليرا نفسه، واختار رجـــلا مثـــل غافـــان دفي Gavan Duffy ليكون عينه على الرئيسين. ولكن دفي اشتكى بأنه أُقصـــي مـــن الاجتماعات السرية مع لويد جورج، واشتكى أرسكن تشاليدرز، الذي أضـــافه ديفاليرا لرعاية مصالحه هو الخاصة، في يومياته بأنه استُهدف من قبل البريطانيين قائلا: "هاجمني النائب العام بسبب روايتي 'لغـــز الرمـــال' *Riddle of the Sands* قائلا أنني كنت السبب في حرب أوروبية سابقة وها أنا أسعي لإثـــارة حـــرب أخرى". ورغم كل المشاكل عيّن ديفاليرا الزعيمين سفيرين فوق العادة مما يعـــني إعطاءهما الصلاحية بالتوقيع دون الرجوع إليه مع أنه كان يتوقع أن يستشار.

غياب التكافؤ هو سبب المشاكل في كل المفاوضات، وهناك تباين كبير بين وفدي الشين فين والحكومة البريطانية. يملك لويد جورج وزملاؤه سجلا حافلا في التفاوض بما في ذلك اتفاقية فارساي Versailles Treaty الحديثة العهد. كان البريطانيون على أتم استعداد، فهم حضروا لموقفهم جيدا ودرسوا الجانب الآخر بعناية، وكانوا مسلحين بتقارير من قصر دبلن عن الوفدين الأيرلنـــديين. وأمـــا الجانب الأيرلندي لم تكن له تجربة سابقة ولا توجد لديه إرشادات أو تعليمـــات من أحد. وقال لويد جورج لدى لقائه بهم أنهم "بسطاء، ليس لهـــم مهـــارات القوميين القدامى، ولم يعتادوا التظاهر بالبراعة والفهلوة". والأسوأ من ذلك انهم لم يعدّوا للمفاوضات. لقد أمضى رجال شين فين السنوات وهـــم يخـــاطبون أنفسهم، فهم تنقصهم الخبرة الطويلة للتعلم من مفاوضات أخرى حيث تكـــون للطرف المتمرد الفرصة في كسب الشعور بنظرة بقية العالم إليهم ومـــا يمكـــن التفاوض عليه.

وكما رأينا في صراعات لاحقة، أنهم "قد كسبوا المعركة في تحـــدد إطـــار المفاوضات وليس في المفاوضات نفسها"، حسب ما يقول فانينج. إن إقرار قانون حكومة أيرلندا Government of Ireland Act في عام 1920 جعل مـــن أيرلنـــدا الشمالية حقيقة سياسية كان لزاما على الجمهوريين التفاوض حواليها. وحسب تعبير فيليب كار في عام 1920 "شعرت الحكومة أن أسلم السبل للخروج مـــن الموضوع هو تسوية القضية الجوهرية الآن وبدون أي تســاؤلات". واســتطاع البريطانيون أن يضعوا الهيكل العام لمحتويات الاتفاقية منذ بدايــة المفاوضـــات. وبمجرد ابتداء المحادثات أخبر توم جونز Tom Jones، السكرتير الخاص للويــد جورج، بونار لو "إن وضعا سياديا بدون سلاح بحري وبلا تعريفات جمركيــة عدوانية وبلا إكراه ألستر Ulster سيكون هو جوهر الاتفاقية"، وهكذا كان، في آخر المطاف.

الطريقة البريطانية كذلك ركزت علـــى أهميـــة الـــتحكم في القلـــم في المفاوضات. يقول المؤرخ الأيرلندي نيكلاس مانســـيرخ Nicholas Manesergh عن العملية أنها "مهما طرأ عليها من تعديل، فإن الورقة الأصلية التي تقدم في أي مؤتمر من شأنها أن تضعف حدود أو آفاق أي مناقشات تالية. و لم يكن الوضـــع هنا ليثبت استثناء للقاعدة". قام توم جونز بتوزيـــع العـــرض البريطـــاني في 20 يوليو/تموز ومسودة الاتفاقية في نوفمبر/تشرين أول. و لم تقدم ورقـــة أيرلنديـــة تعرض موقفا مغايرا في الحالتين، ووجد الأيرلنديون أنفسهم يتفاوضـــون طـــول الوقت على أساس النصوص البريطانية. حاول آرثر غريفيث تحويل المفاوضـــات إلى نقاش، وفي كلمات لويد جورج، "بطرح ذكي، ولا أقول مسهب، حـــول عدم غرابة وضع التقسيم".

وأثبت لويد جورج كل الأوصاف المطلوبة في المفاوض العظيم. فقد رفـــع من مستوى مهاراته في تسوية مشاكل العمال حيث دعا الأطراف للجلوس معه، فيما ترويه المؤرخة مارجريت ماكميلان Margaret MacMillan، "وهو إجـــراء طبيعي بالنسبة لنا اليوم ولكنه كان خطوة غير معهودة في وقته". ويقول أحـــد شهود تسوية الخلاف مع عمال السكة الحديدية: "إن لويد جورج يتعامل مـــع

الرجال الجالسين حول المائدة كما يعزف الموسيقي على أوتار آلته الموسيقية، مرة ملتمسا ومرة مقنعا، وأخرى جديا، وأخرى ممازحا، وثانية مهددا... في سلسلة متتابعة سريعة". إنه سريع الاستيعاب بدرجة فوق العادة، كما اكتشف جون مينارد كينز John Maynard Keynes أثناء مفاوضات اتفاقية فِرساي، حيث راجع كينز بندا من بنود الورقة المطروحة وأدخل عليه تعديلات، وجاء يهرع بها للويد جورج فوجده منتصبا يتكلم. مد كينز إليه التعديلات، وألقى عليها رئيس الوزراء نظرة خاطفة، ودون أن يتوقف لحظة واحدة، وأخذ يعدل في طرحه تدريجيا "حتى انتهى إلى وضع معاكس للوضع الذي بدأ به حديثه". ويقول فرانسيس ستيفنسن أنه "نجح في زحزحة تشرشل وبير.كينهيد" عن موقفهما، وهما في صفه، إلى درجة أنهما أصبحا في صف التسوية بالكامل. فمرونته ليست كلها ميزة جيدة. وقال اللورد ريديل، كاتم سره، "لا تستطيع الاعتماد على ما يقوله لويد جورج.. قد لا يكذبك القول في الحقيقة، ولكنه سيجرك إلى تصديق أن خلاصة كلامه ستجعلك تعمل ما يريد". لقد نجح في استغلال اجتماعات سرية مع كولنز وغريفيث لإغداق الإطراء عليهما كي يكسب ثقتهما، إما .بمفردهم أو بصحبة تشيمبرلين. ووصف ليونيل كيرتس Lionel Curtis، سكرتير الوفد البريطاني، "لويد جورج وهو يتفاوض مع الأيرلنديين كلوحة من لوحات أوغسطس جون Augustus John (رسام شهير من ويلز)... كل حركة فرشاة تتم بإتقان وبراعة، ولا تحتاج إلى تعديل أو تغيير".

ولويد جورج، كتوني بلير، استخدم مساعديه لتسيير المفاوضات، وعين جونز، سكرتيره الخاص متحدث لغة الويلز والموثوق فيه، سكرتيرا لمؤتمر السلام والشخص الرئيسي للاتصال بالأيرلنديين وقال هانكي، سكرير مجلس الوزراء، أن ذلك كان بسبب "أنه لم يكن يرغب في أن أحدا من أصول أنجلوساكسونية يدير المشهد!" وأن لغة الأيرلنديين والويلزيين التي تعود إلى أصول مشتركة كانت تسمح لهم بالحفاظ على بعض الأمور بعيدا عن زملائه في مجلس الوزراء. وفي إحدى المناسبات كان لويد جورج في دعوة عشاء في بيت تشرشل بصحبة بيركنهيد، وكان مايكل كولنز وآرثر غريفيث مدعوان ليقابلهما هناك فيما بعد.

واتصل جونز تلفونيا ليخبره، باللغة الولزية، أن كولنز وغريفيــث لا يثقــان في تشرشل وبيركينهيد، وأنهما يريدان مقابلة رئيس الوزراء بمفرده. وبناء على ذلك رتب لويد جورج اجتماعا في مكان آخر دون أن يخبر رفاقه على العشاء.

كان جونز يقوم بدور يشبه دوري الذي كنت أتولاه في حكومة بلير، وهو أن يصبح صديقا للجانب الآخر فيأخذ في طرح وإطلاق أفكارا بصــورة غــير رسمية فيتلقفونها ويتبنوها ثم يقدمونها على أساس أنها بنــات أفكــارهم. وفي 27 أكتوبر/تشرين الأول أخذ جونز المسودة البريطانية بصورة خاصة إلى إرســكن تشايلدرز وأكد له أنها لن تؤخذ على ظاهرها. كل المسألة أنها معــدة بطريقــة لإرضاء الوزراء الاتحاديين الذين يهددون بالانسحاب من الوزارة. وفي مرحلــة أخرى اقترح جونز رسالة جانبية للأيرلنديين، وهي حل لجأنا إليه بعد ســبعين عاما مع دافيد تريمبل.

وككل المفاوضات من هذا القبيل، فقد كادت المحادثات تتعطل أكثر مــن مرة، وكما عبر ستيرجس "في هذا العمل اللعين، كلما رأى المرء ضوء النــهار، يحصل شيء يعكر الجو بالكامل". إن الرد الأيرلندي على مسودة الاتفاقية الذي سُلم في نوفمبر/تشرين الثاني كان، حسب فانينج، "مكتوبا أساســا مــن قبــل تشايلدز وخرج في شكل مذكرة من صفحتين بالآلة الكاتبة تضــم مقدمــة في شكل ملاحظات تقول أن المقترحات مشروطة بوحدة أيرلندا الأساسية أن تظل سليمة. فهي تجاهلت فعليا التحفظات البريطانية و لم تذكر من قريــب أو بعيــد أيرلندا الشمالية إلا في البند الأخير". قال لويد جورج: "هذه المرة هــي الشــين فين، والأسبوع الماضي كانوا رجال ألستر.. وكلهم أولاد الشيطان الــرجيم!". وأعطي تعليمات لتوم جونز "أن يخبر الشين فين أن الوثيقة ملأت قلبه باليــأس. فالوزراء رجال مشغولون وقضوا أسابيع وأسابيع على هذه المسألة ولكن يبــدو أنهم لم يحققوا شيئا إطلاقا". وكما ينتظر من الوسيط المحنك، عندما ذهب جونز لمقابلة غريفيث وكولنز اختار أن يخفف من حدة تعليمات لويد جورج. فبــدلا من أن يطلب من الوفد الأيرلندي أن يحزموا حقائبهم ويغادروا، قال لهم إذا ما لم يكن عندهم مبرر لردهم هذا، فرئيس الوزراء سيضطر إلى إلغــاء المفاوضــات،

واقترح عليهم أنه توجد عدة توضيحات يمكن لهم أن يقدموها التي من شأنها أن تهدئ من روع الحكومة. وعاد إلى داونينغ ستريت ليجد لويد جورج مستلقيا على أريكة مغمض العينين، وفي حالة يأس. جلس إلى جانبه وأخذ يشرح له بهدوء وباللغة الويلزية ما قام به من عمل. لقد كان الرد الأيرلندي مغلفا في كلمات غامضة بطريقة ممتازة. وقال أوستن تشامبرلين لم يكن يفهم معنى الكلام وطلب من جونز أن "يخبر الأيرلنديين بأننا خدعنا".

المرة التالية إلى واجهت فيها المفاوضات عقبة جديدة، كانت وكأنها نهائية، ولكن لويد جورج تخطاها وأنقذ المفاوضات بطريقة بارعة من التفكير غير المباشر. كان البريطانيون يناورون طول الوقت لتفادي قطع المفاوضات بسبب موضوع يعتقدون أنه يضعف من وجهة رأيهم وموقفهم داخل الإمبراطورية. فسعوا إلى الحصول على موافقة على جميع النقاط الأساسية من جانبهم، وتركوا جانبا مسألة السيادة فقط، التي اعتقدوا أنهم يحظون بدعم دولي حيالها، أما الأيرلنديون فقد كانوا يرغبون في إرجاء موضوع الشمال إلى آخر اللقاء. اعتقد لويد جورج أن بإمكانه إقناع الاتحاديين أن يقدموا تنازلات تساعده في الالتفاف على هذه المشكلة ولكن كريغ رفض تقديم أي تنازلات. طلب لويد جورج، وهو في حالة من اليأس، من توم جونز أن يهيئ كولنز وغريفيث لقطع المؤتمر وتحدث إليه حول الاستقالة بدلا من إكراه الجنوب بقوة العسكر. ولكن جاء بعد ذلك بفكرة بارعة وهي هيئة لترسيم الحدود بين الشمال والجنوب مما يعطي الجنوب أغلبية من المقاطعات الكاثوليكية التي يرغبون فيها بشكل خاص. لم يكن لويد جورج، وهذا ديدن المفاوض الماهر، يواجه القضية المركزية التي تعيق المفاوضات بشكل مباشر، ولكنه يبحث عن جواب مختلف تماما، وقد نجح في ذلك. المشكلة الوحيدة أن هذه القضية كانت قضية كلاسيكية معروفة من الغموض الخلاق الذي مع الوقت انقلب إلى غموض مدمر. كريغ لم يكن على استعداد أن يقدم أي تنازلات في موضوع الحدود، بينما كولنز كان على يقين أنه سيحصل على مقاطعتي فرمانه Fermanagh وتايرون Tyrone وجزء من مقاطعة داون Down. ففكرة هيئة لترسيم الحدود أعطت للويد جورج فرصة

للحصول على اتفاق، لكنها تركت مشكلة طويلة المدى أسفرت فيما بعد عن حملة الجيش الجمهوري الأيرلندي، وفي النهاية إلى اتفاق سلام جديد.

قضى لويد جورج طوال شهر نوفمبر/تشرين الثاني في محاولات لإنهاء المفاوضات بنجاح، وأخيرا قرر في ديسمبر/كانون الأول أن الوقت قد حان للموافقة على قطع المفاوضات. وفي منتصف ليل 4 ديسمبر/كانون الأول ذهب توم جونز في زيارة لآرثر غريفيث في هانس بليس Hans Place، وكان غريفيث في حالة عاطفية متأججة حيث قال أنه هو ومايكل كولنز كانا يعتقدان أن لويد جورج كان راغبا في السلام ولكن زملاءهم في دبلن لم يشاطروهم الرأي. وتوسل غريفيث للويد جورج أن يساعدهم للتحقيق السلام.

عندما أخبر جونز لويد جورج بما سمعه في لقاء آخر الليل، شعر لويد جورج بوجود فرصة سانحة ووافق على الالتقاء مع كولنز وغريفيث سرا في الصباح. عندما جاء الاثنان إلى داونينغ سترت قال لويد جورج أن سيجتمع بالوزراء الساعة الثانية عشر ظهرا وسيخبرهم أن المفاوضات توقفت بسبب مسألة عما إذا كانت أيرلندا ستبقى في الإمبراطورية أم لا. عرض كولنز وغريفيث الاستمرار في المفاوضات. وعندما اجتمعوا ثانية بأعضاء وفودهم بعد الظهر، واجه لويد جورج غريفيث ببند عن ألستر كان قد اتفق بشأنه مع رئيس الوزراء شخصيا وكان توم جونز قد عثر عليه في مذكرة. وأقام لويد جورج زوبعة وأصبح "منفعلا. وأخذ بأوراقه يلوح بها في الهواء معلنا أنه كان يسعى عمدا لتحقيق أمر إيجابي بخصوص ألستر". ويذكرني هذا الاستعراض المسرحي بنصيحة توني بلير لي أثناء لقائنا مع جماعة الأورينج Orange Order بأن أتمالك أعصابي "إلا لغرض معين". اتهم لويد جورج غريفيث بأنه خذله ولم يوف بوعده. غريفيث فوجئ واعترض قائلا: "لم يحصل وأن خذلت إنسانا في حياتي كلها، ولن أفعل ذلك أبدا". وقال بأنه طالما الأمر يعنيه فإمكانه الموافقة على وضع الشمال ولكنه لا يستطيع الكلام نيابة عن بقية أعضاء الوفد. ونظرا إلى كونه رئيسا للوفد فإن هذا الموقف يبدو غريبا، ولويد جورج استغل هذا الوضع بأقصى ما يمكن.

قام لويد جورج مباشرة بانسحاب تكتيكي، شعورا منه أن الاتفاق على مرأى العين، بالنسبة لسلسلة من القضايا الأخرى لإشعار الأيرلنديين بأنهم حققوا عددا من المكاسب بدلا من مجرد أنهم خسروا في مسألة مركزية. فلكي يتوصلوا إلى اتفاق يجب أن يشعر كلا الفريقين بأنه كاسب. البريطانيون تنازلوا على الموضوع المزعج وهو قسم الولاء للتاج، وعلى بند الدفاع سمحوا لأيرلندا بحرية أكثر في سياستها الخارجية، وتخلوا على إصرارهم على التجارة الحرة، وهو موضوع خاصة بالنسبة لغريفتس الذي طالما تزعم المطالبة بنوع من سياسة الحماية الاقتصادية لأيرلندا.

وأخيرا حدد لويد جورج تاريخا نهائيا وفرض على الوفد الأيرلندي أن يتوصل إلى قرار. وأبرز رسالتين لكريغ.. الأولى تقول أن الوفد الأيرلندي زكّى الاتفاق للدويل (البرلمان الأيرلندي)، والأخرى تقول أنه لا وجود لأي اتفاق. وقال لويد جورج أن لديه في الانتظار قطارا ومدمرة لكي يرسل إحدى الرسالتين إلى بلفاست. فإن كانت الثانية "فهي الحرب.. والحرب في خلال ثلاثة أيام. فأي الرسالتين تريدونني أن أُرسل؟". وأضاف أنهم سفراء فوق العادة وأن عليهم أن يقرروا قبل العاشر مساءً من نفس اليوم. في الساعة الثانية صباحا عاد الوفد الأيرلندي إلى داونينغ ستريت ووقعوا المعاهدة... وتصافح الوفدان لأول مرة في تلك المداولات.

طبعا، وكما هو الحال بالنسبة للاتفاقيات الفاصلة، لم تكن تلك هي نهاية المطاف. حاول معوقون من الجانبين تغيير مجرى الأمور. ستة أشهر بعد توقيع المعاهدة، هنري ويلسن Henry Wilson، قائد الأركان العامة الإمبراطورية الذي تقاعد حديثا، والذي انتخب عضوا في البرلمان عن حزب ألستر الاتحادي، لقي مصرعه أمام منزله، بشارع أيتون بليس Eton Place، في وضح النهار، على أيدي وحدة لندن العسكرية التابعة للجيش الجمهوري الأيرلندي. هدد المحافظون بالانسحاب من الحكومة فورا. وفي بلفاست ارتكب البروتستانت مذابح مروعة ضد الكاثوليك. استولت قوات موالية لجناح ديفاليرا الجمهوري الأيرلندي، على الأربع محاكم الرئيسية في دبلن. لم يعد البريطانيون مقتنعين أن كولنز سيتخذ

قرارات ضد هؤلاء، وأمر تشرشل ماكريدي وما تبقى من قواتـه أن يتحـرك، ولكن ماكريدي، الذي كان دائما يسخر من تشرشل "وتسرعه المحموم"، تلكـأ بعض الشيء، وفي النهاية هاجمت قوات الدولة الحرة Free State وبدأت الحرب الأهلية.

كان التنفيذ، كالعادة، هو المفتاح. بدأ البريطانيون بتنفيذ تعهداهم مباشرة، فسلموا قصر دبلين، وأطلقوا سراح السجناء من الجيش الجمهوري الأيرلنـدي، وبالترتيب لسحب الجيش. ولكنهم كانوا مدركين أن الانقسام داخل الشين فين يعني أن الجانب الأيرلندي لن يستطيع الوفاء بوعوده وكان على استعداد للقتال. وكان لويد جورج حريصا على الحصول على دعم "المعاندين" فوضع تشرشـل مسؤولا على التنفيذ. وكان تشرشل يترنح على حافة الرجوع إلى الحرب لمـدة شهور، مما استفز روبرت سيسل ليقول: "لا أعتقد أن ونستون لديه أي اعتبـار للشؤون العامة إلا إذا كانت لها علاقة باحتمال سفك الدماء". ولكـن رغـم مواقفه الاستعراضية، استمرت الاتفاقية سارية المفعول بل أنها عاشـت خـلال الفترة الانتقالية من حكومة إلى أخرى، عندما سقط ائتلاف لويـد جـورج في أكتوبر/تشرين الأول وحلت محله حكومة المحافظين. ورغم الشكوك سمح رئيس الوزراء الجديد بونار لو Bonar Law لقانون دستور الدولة الأيرلندية الحرة Irish Free State Constitution Act أن يمر في البرلمان بأصوات المحافظين.

وفي أيرلندا رفضت الحكومة البريطانية ابتداء الحوار مع الإرهابيين، ثم سعت سرا وبدأت في التفاوض معهم ووجدت حلا وسطا، بطرقة شبيهة جدا لتلـك التي اتبعت سبعين عاما بعد ذلك. لقد أثبت لويد جورج أنه مفـاوض بـارع، يملك المهارة والثبات. وحسب روي هاترسلي Roy Hattersley، الوزير العمالي، "كل ما أراده هو اتفاق – أي اتفاق – يمكن، ولو لفترة من الزمن على الأقـل، أن ينزع أيرلندا من الأجندة السياسية. وقد نجح لويد جورج في ذلك... حيث فشل بيت Pitt وبيل Peel وجلادستون Gladstone" (كلهم رؤساء حكومـات بريطانية سابقون). ولكنه أثبت أيضا أنه من الممكن أن يكون المرء ذكيا أكثر مما يجب في ملاحقة اتفاق بأي ثمن. فعندما يعتمد المرء بشكل كبير على الغمـوض

والخداع والمراوغة، وتكون لديه الرغبة الجامحة في النجاح مهما كان الثمن، فلربما يتوصل إلى اتفاق يحمل في جوانحه بذور أسباب تدميره.

إن الدرس الذي تعلمناه، بكل حسرة وألم، من الصراع مع الجمهوريين الأيرلنديين، وهو في نهاية المطاف لا بد من الحديث والحوار مع أي حركة إرهابية طالما أنها تحظى بدعم سياسي ذي أهمية.. لم تبق معنا آثاره لمدى طويل. فعلى طول القرن العشرين كان موقف الحكومات والدول هو عدم الكلام أو الحوار مع الإرهابيين، لإيمانهم أنهم سيهزمون عسكريا.. وعندما اكتشفت أنها غير قادرة على ذلك وتحول الوضع إلى أزمات معقدة، اضطرت إلى تعلم الدرس من جديد والبحث عن كيفية التواصل معهم وإجراء مفاوضات ومحادثات.

القضية الأخرى الشبيهة بأيرلندا التي واجهها البريطانيون كانت في فلسطين عندما واجهوا الثورة العربية عام 1936. وكما يسجل روري ميلار Rory Miller، كان المسؤولون البريطانيون على وعي كامل بالسابقة الأيرلندية. وكان رأي اللورد دفرين Lord Dufferin، الوكيل في مكتب المستعمرات Colonial Office، أن ديفاليرا قدم سابقة قيمة في التعامل مع المفتي الفلسطيني الحاج أمين الحسيني. فالمفتي، كديفاليرا، كان الشخصية الوحيدة إلى تستطيع التحكم في تلك الانتفاضة "القومية الأهلية"، وأنه من الضروري أن "نتفاهم مع الرجل الوحيد الذي يستطيع، من طرفه، ضمان السلام". ولكن المندوب السامي البريطاني في فلسطين، هارولد ماكمايكل Harold MacMichael، متعنتا وقال أن حكومة صاحبة الجلالة "لا يمكنها التعامل مع الذين يحرضون على الجريمة". وقال أنه ستكون هناك "استقالات بالجملة" من الإدارة الفلسطينية في حالة "الاعتراف للمفتي بأي صفة تؤهله أن يكون متفاوضا". وكان رد أحد زملاء دفرين في مكتب المستعمرات، وهو غراتن بوش Grattan Bushe، الذي أشار يقول: "على العكس، فالذين صنعوا السلام في أيرلندا كانوا هم وزراء الحكومة والقتلة". وتدخل سكرتير المستعمرات، مالكوم ماكدونالد Malcolm MacDoland (إبن رامزي ماكدونلد Ramsay MacDonald)، ليقول "القياس بأيرلندا غير كامل لأن هدفنا في أيرلندا كان هو تنصيب القتلة في حكومة جديدة للمنطقة. أما في

فلسطين فالأمر مختلف لأننا ننوي الاستمرار في الحكم بأنفسنا". فحتى لو كانوا على وعي كامل بالدروس التي تعلموها من مواجهتهم السابقة مع حركة إرهابية تحضي بشعبية سياسية، فقد رفضوا أن يستفيدوا منها. وعوضا عن ذلك اختاروا طريقا أمنيا صعبا بقيادة ضابط في الشرطة اسمه دجـــلاس داف Douglas Duff، (الذي أوحت تصرفاته بالتعبير 'duffing up' وهو المعاملة الخشنة غير المضرة) التي يصاحبها أسلوب "التنازلات المبرمجة بعناية" الذي كان البريطانيون يأملون "أنـــه سينخر في وحدة العرب ويقصي المفتي ويسمح لهَم بفـــرض النظـــام واحتـــرام القانون".

من المثير أيضا أن أولئك الذين على الطرف الآخر من الصراع في فلسطين وجدوا أوجه للمقارنة بالحالة الأيرلندية كذلك. فقد استشهد إسحاق رابـــين، رئيس وزراء إسرائيل فيما بعد، بمايكل كولنز كشخص له تأثير، واستعمل، مرة، الاسم 'مايكل' كاسم كودي بعد مقتل شتيرن Stern واستلم بعده قيادة منظمة عصابات شتيرن. كما عكف مناحيم بيغن، زعيم منظمة إرغون ورئـــيس وزراء إسرائيل فيما بعد، على دراسة حملات الجيش الجمهوري الأيرلندي بعناية كبيرة. كان همه الأول باستمرار هو توريط البريطانيين في القسوة على منظمة إيشـــوف Yishuv (وتعني الكلمة حرفيا استيطانا واصطلاحا هي الممثل الرئيسي لعمـــوم اليهود في فلسطين) وإقصائها. وحسب تعبير المؤرخ باوير بيـــل Bowyer Bell "كان هدفه خلق سيناريو معين مؤداه أن خيارات بريطانيا كانت بين القمـــع أو الانسحاب". كانت أكبر عملية قامت بها منظمة إرغون هي تفجير فندق الملك دافيد في يوليو/تموز 1946، عندما سربوا إلى الفندق سبع براميـــل لـــبن مليئـــة بالمتفجرات إلى الطابق ما تحت الأرضي وقتلوا واحدا وتسعين شخصا بمن فيهم مدنيون يهودا وعربا بالإضافة إلى مسؤولين بريطانيين. وكان رد البريطانيين بنفس الطريقة التي اتبعوها في أيرلندا عام 1916 فاعتقلوا آلاف الناس، في العموم أبرياء، وحجزوهم، وفي ذلك تنفير للسكان أكثر وأكثر. وكرر المشير مونتجـــومري، الذي كان مسؤولا عن السياسة العسكرية، وكان يريد قتل خمسين مـــن أبـــرز قيادات منظمة إيشوف، المقولة المعهودة: "يجب علينـــا هزيمـــة الإرهـــاب وإلا

سيهزمنا". وكتب المندوب السامي ألن كانينجهام Alan Cuningham، في عـــام 1946 يقول: "أنجع وسيلة في التعامل مع الإرهابيين هي قتلهم". وارتكب عمـــل مروع، موازٍ لما حصل في الصراع التالي في أيرلندا الشمالية، عنـــدما اختطفـــت منظمة إرغون ضابطين بريطانيين وقتلتهما شنقا تاركة جســـديهما المفخخـــين يتدليان من شجرة. لقد نجحت إرغون في لفت أنظار المنظمة الدولية الجديـــدة، الأمم المتحدة، التي بدأت تدرس فكرة حكومة ذاتية للفلسطينيين، بـــدعم مـــن الولايات المتحدة بقرار من الكونغرس يدين تصرفات الحكومة البريطانية. ومـــع عام 1947، والحكومة البريطانية تواجه مشاكل أكبر محليا، وجـــدت الحكومـــة نفسها وجها لوجه مع الخيارين، اللذين واجهاها في أيرلندا، إما القمع الكامل أو الانسحاب التام. فاختارت الثاني معلنة في شهر سبتمبر/أيلول أنها منسحبة مـــن فلسطين. وهكذا ترك البريطانيون وراءهم حماما من الدماء وصراعا طويل الأمد ظل يحير العالم بأكمله.

وارتكب البريطانيون الأخطاء نفسها في كينيا عندما أصروا على مقاطعـــة الإرهابيين ثم عادوا بعد أن فشل القمع، واضطروا للحوار والمفاوضات. وصف سكرتير المستعمرات آنذاك، آلن لينوكس بويد Alan Lennox-Boyd، منظمـــة الماو ماو بأنها "مؤامرة قائمة على تشويه كامل وإفساد للروح البشرية بقوة عهد اليمين والسحر والتهديد بالقوة".. وبأنهم "تحت مستوى البشر" ويعتبرون "الموت خلاصهم الوحيد". وعندما لم تفلح حملات القمع قام البريطانيون بمنع الاتحـــاد الأفريقي الكيني Kenyan African Union KAU واعتقال زعيمه جومو كينياتـــا الذي وصفه حاكم كينيا، باتريك رينيســـن Patrick Renison، بأنـــه "القائـــد الأفريقي إلى الظلام والموت"، ومعه مائة من زملائه. ووصف إيان ماكلاود Iain Maclead، خليفة لينوكس بويد كسكرتير المستعمرات، هجوم الحاكم الســـابق بأنه غير حكيم "لسبب واضح هو أننا عاجلا أو آجلا سنضطر للتعامـــل مـــع جومو كينياتا وأن ما قام به الحاكم يبدو وكأنه مقدمة غير حكيمة وغير جيـــدة لذلك". واتسعت رقعة العنف. ونجح البريطانيون في إبعاد الكيكويـــو عمومـــا بمعاملتهم وكأنهم أعضاء في الماوماو، باعتقال نحو 150 ألفا منهم في معســـكرات

اعتقال ونقل مليون آخرين قسرا إلى قرى محصنة. أعلنت حالة الطوارئ وطـــرد الماوماو إلى الغابات حيث يُصطادون كما تصطادوا الحيوانات.

أخيرا أحرز شيء من التقدم عندما ذكر أحد المسؤولين درسا من تجـــارب بريطانيا السابقة. عين ريتشارد كاتلينج Richard Catling قائدا لقوات الشـــرطة في عام 1954، وكان قبلها في فلسطين حيث أقام علاقات سرية مـــع منظمـــة إرغون، وكان ضمن الموجدين في فندق الملك دافيد ساعة انفجـــاره ولكـــن لم يصب إلا بجروح طفيفة. وقرر كاتلينج أنهم في حاجة إلى إقامة علاقـــات مـــع كينياتا إن أرادوا إخماد التمرد، وذهب إلى السجن بالقرب من بحـــيرة توركانـــا Turkana في شمال كينيا حيث كينياتا يقضي حكما بالسجن لمدة سبع ســـنوات مع العمل الشاق وبدأ علاقة صداقة معه. كان كينياتا طباخ الســـجن وتبـــادلا الحديث وهما يطوفان بمبنى السجن. واشتكى كينياتا من فقر التربة وعدم قدرتـــه على إنتاج كميات كافية من الخضروات الطازجة لطبخها للمساجين. فـــاقترح عليه كاتلينج، الذي يعود إلى أسرة من المزارعين من مقاطعة سوفولك Suffolk في جنوب شرق إنجلترا، زراعة السَّبَانَخ. كينياتا لم يسمع بهذا النوع من الخضار وعندما رجع كاتلينج إلى نيروبـــي أرسل إليه كمية من بذور السبانخ. وكـــان كينياتا كثيرا ما يذكر ذلك للمزاح فيقول: "إن سبانخ المندوب الســـامي" هـــو الذي مكنه وزملاءه من تحمل الحياة في السجن.

في عام 1961 أطلق البريطانيون سراح كينياتا وقاد كينياتا بدوره وفد حزب الاتحاد الوطني الأفريقـــي لكينيـــا (كـــانو) Kenya African National Union KANU للمؤتمرين الأول والثاني في لانكستار هاوس Lancaster House بلنـــدن حيث جرت المفاوضات حول استقلال كينيا. أما حاكم كينيا أيفلن بـــارينج، الذين قال عنه المؤرخ كيث كايل Keith Kyle، أنه "كان يتمنى أن اسم كينيا لا يلطخ باسم كينياتا إلى الأبد، قبل أن يعترف بكينياتا شخصية حميمة وحاكمـــا ناجحا".

طوال فترة القرن العشرين وقعت بريطانيـــا في فـــخ تســـمية مناوئيهـــا "إرهابيين"، قائلة بأنها لن تحاورهم، فيتصاعد العنف، ثم تعود بعد فـــوات الأوان

فتدرك أن لا مفر من التفاوض معهم. وفي النهاية يعامل البريطانيون مع خصومهم معاملة الند للند ويصفونهم بأنه "رجال دولة". و لم يقتصر الأمر على البريطانيين الذين استمروا في ارتكاب نفس الأخطاء بعد فترة الاستعمار. فسار الفرنسيون على نفس النهج خاصة مع الجزائر.

اندلع العصيان المسلح الوطني في ذكرى يوم عيد كل القديسين All Saints' Day عام 1954 بهجمات في كل أرجاء الجزائر تستهدف الشرطة والجيش والبنية التحتية للاتصالات. أذاع راديو القاهرة مطالب جبهة التحرير الوطني الجزائرية كالتالي: "إعادة بناء الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة في إطار المبادئ الإسلامية"... و"الحفاظ على جميع الحريات الأساسية دون تمييز جنسي أو ديني". وأعلن وزير الداخلية الفرنسي، فرانسوا ميتران، أن "أسلوب التفاوض المحتمل الوحيد هو الحرب"، وكالعادة دائما، تصاعد الصراع. نظرت فرنسا إلى الصراع في إطار تجربتها في الهند الصينية ولجأت إلى استخدم الوسائل المضادة للإرهاب التي تعلمتها هناك، حتى أطلق الفرنسيون على جبهة تحرير الجزائر اسم "ليه فيت Les Viets" أي "الفيتناميون". شحذت الحكومة فرق المضلات الخاصة، بقيادة الجنرال جاك ماسو Jacques Massu الذي حارب في فيتنام. مع عام 1958/9، وباستعمال التعذيب والإعدامات الفورية واستراتيجية الأرض المحروقة كسبت فرنسا المعركة واستعادت احتلال الجزائر ولكنها خسرت الحرب. لقد جندت ما يقرب من نصف مليون جندي لحرب الجزائر، ولكنها ظلت تخسر الدعم في الداخل الخارج على قدم سواء.

أسفرت كارثة الحرب الجزائرية عن سقوط الجمهورية الرابعة وعودة الجنرال ديغول رئيسا لفرنسا. لقد أدرك ديغول، فيما قاله خبير الحرب الفرنسية ضد التمرد دافيد جالولا David Galula، "أن الهدف هو السكان. والسكان هم في ذات الوقت الأرضية الحقيقية التي تقوم عليها الحرب". فبدأ بمعالجة بعض المظالم التي تكمن وراء الانتفاضة بإصلاحات اجتماعية ودعا إلى انتخابات في الجزائر منفصلة على تلك التي في فرنسا. وقام الفرنسيون بعدة محاولات للحديث مع جبهة التحرير الجزائرية ولكن دون فائدة. وفي ليلة العاشر من يونيو/حزيران

1960 التقي ديغول سرا مع ثلاثة من زعماء جبهة التحرير في قصر إليزيه Elysee Palace. أخذ الزعماء بالطائرة على وعد أنهم سيلتقون "بشخصية سياسية رفيعة"، ولم يخبروا بأن هذه الشخصية هي ديغول نفسه إلا في صباح اليوم الذي سيتم فيه اللقاء. ولإثبات أنهم يعتبرون شخصيات موثوقة لم يخضعوا لأي تفتيش على السلاح عند دخلوهم قصر الإليزيه. ورغم ذلك كان هناك أحد القناصين مختبئا خلف أحدى البسط الحائطية المزدانة بالزخارف في حالة الضرورة. وقال لهم ديغول أن سيوجه خطابا لجبهة التحرير قريبا يرجوهم فيه الجلوس لمناقشة وقف إطلاق النار. وفي نهاية الاجتماع قال ديغول: "نظرا لأننا في حالة حرب، فلن أصافحكم... ولكنني أحييكم".

من الدروس التي تظهر واضحة جدا من التجربة الفرنسية في الجزائر هو أن الدور المهم الذي تلعبه الأطراف الثالثة يسبق نهاية الحرب الباردة بكثير. كانت الحكومة الفرنسية مصرة منذ بداية الصراع على أنها لن تسمح بتدخل قوى خارجية في الجزائر، ولكنها بعد سلسلة من المبادرات الثنائية الفاشلة مع جبهة التحرير، وانعدام الثقة الذي تولد كنتيجة لذلك، احتاجت الحكومة إلى طرف ثالث ليساعد في استئناف المحادثات. تولى هذه المهمة دبلوماسي سويسري، أوليفر لونغ Olivier Long، الذي سجل تجربته في مذكرة داخلية رائعة لوزارة الخارجية السويسرية.

في نوفمبر/تشرين الثاني 1960، بعد أربعة أشهر من إخفاق المحادثات الثنائية في ميلون Melun بفرنسا، اتصل محامٍ يعرفه لونغ في جنيف وذكر أنه يعتقد أن الجزائريين يرغبون في استئناف المفاوضات. كان المحامي صديقا للطيب بولحروف، ممثل جبهة التحرير في روما، وكانت لديه رغبة في أن يعرّف الطيب بولحروف بأحد السويسريين في وزارة الخارجية. وافق لونغ على مرافقة المحامي في زيارة خاصة مع الشخصية الجزائرية بصفة شخصية بحت والاستماع لما يقوله. التقى الجميع حول كوب من الشاي في جنيف. وقال بولحروف أن الطريقة لتسوية الصراع لا تتم إلا من خلال المفاوضات المباشرة مع الفرنسيين، ومن أجل تفادي كارثة أخرى مثل كارثة ميلون هناك رغبة لدى الجزائريين في

سَبَّر أغوار، وبطريقة سرية، إمكانية عقد محادثات جديدة. وجبهة التحرير لديها رغبة أن تتولى سويسرا دور الوسيط مع الفرنسيين. ووافق الطرفان على ضرورة انتظار نتيجة الاستفتاء على مستقبل الجزائر، الذي دعا إليه ديغول ليحصل على تفويض شعبـــي، قبل الاتصال بالفرنسيين.

وفي 10 يناير/كانون الثاني 1961، بعد يوم واحد من نتائج الاستفتاء، ذهب لونغ إلى باريس لمقابلة لويس جوكس Louis Joxe، وزير الشـــؤون الجزائريـــة، مؤرخ لبق ودبلوماسي، والذي كان بالصدفة صديقاً شخصيا للونغ لســـنوات عدة. التقيا في بيته، وأنصت جوكس باهتمام لما قاله لونغ. قـــال أنـــه يلتقـــى بالكثيرين كل يوم من الذين يدّعون أنهم على استعداد لتوصـــليه إلى المتمـــردين ولكنه رفض، لأنه حريص على ألا تنزلق الحكومة الفرنسية في فخ، ولكنه عرف لونغ لمدة خمسة وعشرين عاما وعرفه رجلا جادا. وقال جوكس أنه سيستشـــير ديغول وأشار إلى أن اتصالات سابقة جرت وفشلت لأنها لم تكن سرية بشكل جيد. وفي غضون أيام جاء جوكس برد من ديغول يقول: "دع الســـيد لونـــغ يستمر في مهمته".

لقد فوجئ السويسريون، علما بأن ديغول كان متشددا في معارضـــته لأي تدخل خارجي في الشؤون الجزائرية، ولكنه من الواضح لديهم أن هذا الســـبيل كان هو الوحيد الجاد لديهم كي يصلوا إلى المتمردين. كانت المخابرات الفرنسية تحاول فتح قنوات من قبل ولكن ديغول طلب من رئيس الوزراء، ميشيل دوبريه Michel Debre، الاستغناء عنها جميعا. وأصدر ديغول تعليماته إلى السويســـريين أن يخبروا الجزائريين أن جورج بومبيـــدو George Pompidou ســـيكون ممثلـــه لديهم. كان بومبيدو مديرا لمكتب ديغول، ثم تولى الرئاسة من بعده، ولكنه كان في ذلك الوقت مدير مصرف الإخـــوة روثتسشـــايلد Rothscild Brothers في باريس. عبر الجزائريون عن عدم ارتياحهم لكون بومبيدو لـــيس مســـؤولا في الحكومة الفرنسية، ولكن الفرنسيين أوضحوا لهم أنه مـــن الصـــعب أن يـــأتي جوكس إلى سويسرا في زيارة سرية دون أن يكشف أمره. إن بومبيدو يحظـــى بثقة ديغول الكاملة.

في مساء 19 فبراير/شباط وصل بومبيدو سويسرا، حسب تعبير لونغ، "وفي يده نسخة من 'مذكرات تاليران Memoirs of Talleyrand' ومعه برونو ديليوس Bruno de Leusse من وزارة الشؤون الخارجية". ووضع السويسريون الوفـــدين في فندقين مختلفين في لوسير Lucerne ورتبوا اللقاءات في فندق ثالث هو فنـــدق شفازرهوف Schweizerhof، وأخبروا صاحب الفندق أهم وفـــدين فرنســـي وعربـــي يعقدان مناقشات مالية خاصة جدا. وقال الجزائريون للسويســـريين أن "هذه الاجتماعات تختلف اختلافا كاملا عن مولون Melun". وكانت تلك المرة الأولى التي يلتقي الخصمان لمناقشة مسائل جوهرية بعد سبع سنوات من الحرب.

قرر السويسريون أن ينقلوا اجتماع اليـــوم التـــالي إلى فنـــدق النوختيـــل Neuchatel ليتفادوا تسرب خبر الاجتماع. ولكن الاجتماع هذه المرة لم يمـــش على خير، حيث اهم كلا الطرفين الآخر بالتعنت في موقفه وتصـــعيد مطالبـــه. وأصر الفرنسيون على المفاوضات فوق الأراضي الفرنسية، بينما كان الجزائريون يريدوها في أراضي محايدة. اقترحت مدينة إيفيان Evian على الشاطئ الفرنســـي من بحيرة جنيف، حيث يمكن للجزائريين أن ينسحبوا عبر الحدود إلى سويســـرا بين الجلسات ليعبروا عن أنفسهم بحرية فوق تراب أجنبـــي. وأراد الفرنســـيون وقف إطلاق النار أثناء المحادثات ولكن الجزائريين كانوا يخشـــون أن إيقـــاف إطلاق النار قد يضعف من رغبتم في الحرب إذا ما فشلت المحادثـــات. وعـــبر الجزائريون على رغبتهم في مفاوضات متوازية: الأول عسكرية تهتم بوقف النار، والأخرى سياسية. وأراد الفرنسيون استبعاد قضية الصحراء الغربية. وانصـــرف كلا الفريقين يقول إنه في انتظار ردود الطرف الآخر.

كما هو واضح باستمرار، فإن شروطا مسبقة من هذا القبيل مـــن شـــأنها وضع حجر عقبة في طريق المفاوضات. سارع لونغ إلى باريس يتوسل إلى ديغول واستطاع أن يحصل منه على أفكار مكتوبه بخط يده تخلى فيها الـــرئيس علـــى شروطه المسبقة ووافق على إدراج قضية الصحراء في جدول الأعمال. وأشـــار جوكس كذلك إلى استعداده أن يلتقي بالجزائريين شخصيا في فرنســـا ولكـــن بالقرب من الحدود السويسرية. ومقابل ذلك طلب الجزائريون إطلاق ســـراح

زعيمهم أحمد بن بللا من السجن في فرنسا لينضم إلى المحادثات، ولكن الفرنسيين أجابوا بصراحة أن ذلك لا يمكن أن يتم ذلك إلا بوجود وقف إطلاق نار ساري المفعول.

وبعد مداولات داخلية مطولة عاد الجزائريون يقولون أنهم موافقون على العروض الفرنسية، والتقي الجانبان للتفاوض حول الجوانب اللوجستية للمحادثات. اتفقوا على أن تعقد المحادثات في إيفيان على أن يبقى الجزائريون قريبا من الحدود على الجانب السويسري. وبعد أن اقنعوهم بالموافقة، كان على الدبلوماسيين السويسريين أن يأخذوا المشاركين بالسيارة آناء الليل لتفادى أن يراهم الصحفيون بنفس الطريقة التي اتبعها مركز هنري دونانت مع ممثلي (إيتا) الإسبانية خارج جنيف بعد خمسين سنة.

ولما كانت المحادثات على وشك أن تنطلق في إيفيان، انتكست بسبب إعلان الفرسيين أنهم يريدون أن يعقدوا مفاوضات موازية مع منظمة أخرى هي غريمة لجبهة التحرير الوطني المعروفة باسم الحركة الوطنية الجزائرية. لم يكن الفرنسيون على استعداد للاعتراف بجبهة التحرير كممثل شرعي ووحيد للجزائر، وكانوا حريصين على الحفاظ على الحركة الوطنية كمشارك في الميدان بالرغم من أنها قد أصبحت لا محل لها من الإعراب. أرسل الجزائريون إنذارا بأنهم سينسحبون من المحادثات وطلبوا تبليغه إلى الفرنسيين بأسرع ما يمكن. حاول أحد الدبلوماسيين طوال المساء الاتصال بالتلفون بالفرنسيين، وأخيرا تمكن من إيقاظ أحد كبار المسؤولين وحذره مما سيحدث. اختصر المسؤول المكالمة، والأسوأ من ذلك أنه لم يبلغ الرسالة إلى جوكس وإلى الرئيس. ولما تنبه الفرنسيون إلى خطورة الموقف، سعوا يبحثون عن مخرج من ذلك المأزق ولكنهم عجزوا أن يهتدوا إلى حل. وقرر لونغ أن دوره كطرف ثالث هو امتصاص الصدمات ووضع ثقته في عامل الوقت وظل ينتظر ما تسفر عنه التطورات. فأبقى على بولحروف في سويسرا وظل هو على تبادل المكالمات التلفونية المشفرة مع جوسيه الذي كان يعيش في وضع يزداد توترا عاطفيا يوما بعد يوم.

استدعى جوكس بعد ذلك لونغ إلى باريس، الذي عندما وصل اكتشف أن الوزير يعلم بالتحذير الذي أصدره الجزائريون بخصوص الحركة الوطنية الجزائرية، وبدأ الآن فقط يتفهم لماذا يشعرون بالخيانة. وقال جوكس أن ديغول كان يشعر بالانزعاج بسبب المكائد التي تحاك من خلفه، ومن اللازم التهدئة بشكل ما. كان عليهما الذهاب إلى رئيس الوزراء من جديد. اتجهوا وخوسيه يقود سيارته الرسمية إلى موتيغانو، ودخل لونغ من البوابة المؤدية إلى الحديقة خلف الموتيغانو لتفادي أن يتعرف عليه أحد. وتقدم لونغ بسلسلة من البدائل أخذهما دوبريه وخوسيه إلى جنرال ديغول في نفس الليلة. وعاد الرجلان ليقولا أنه في حالة نفسية سيئة وأن الفرنسيين قد قدموا تنازلات أكثر من اللازم.

وعاد لونغ إلى جنيف وأخبر بولحروف أن السويسريين قد بذلوا كل ما في وسعهم. وقد جاءت اللحظة لاتخاذ قرار حاسم للاختيار بين المفاوضات أو الحرب. وحذر من خطورة التفاوض أكثر من اللازم. وأن الرأي العالمي لن يتفهم السبب في أن يقاطع الجزائريون المحادثات تحت هذه الظروف. وعلى أية حال، فإن مؤتمر لاوس Laos للسلام كان وشك أن يفتتح في جنيف وأن السويسريين في حاجة إلى اتخاذ قرار بين ذلك وبين مفاوضات إيفيان حول الجزائر، حيث أنهم ليس بوسعهم استضافة الحدثين معا في آن واحد. ذهب بولحروف ليتشاور في الموضوع ورجع بعد يومين برد سلبي من الجزائريين. وحاول لونغ تلطيف الرسالة ليتمكن الفرنسيون من هضمها عندما بلغها لخوسية على التلفون. واضطر إلى الأسلوب نفسه عندما بلغ الرد الفرنسي للجزائريين. ورجع بولحروف إلى تونس للتشاور، وعندما عاد إلى جنيف للالتقاء بلونج كان الاثنان يستمعان إلى أنباء في الراديو عن محاولة انقلاب في الجزائر بينما كانا يتفاوضان حول نصوص الاتفاق.

بعد فشل محاولة الانقلاب، اتصل جوكس بلونج ليقول أن ديغول حريص على الاستمرار بسرعة، واقترح يوم 16 مايو/مايس كتاريخ لافتتاح المحادثات. كان الجزائريون يفضلون التأجيل إلى آخر الشهر ولكن السويسريين أقنعوهم بعقدها بتاريخ 20 مايو/مايس. وبما أن القتال لا يزال مستمرا، اقترح ديغول أن

يكون الاجتماع بسيطا جدا وجافا. وحاكم إيفيان لن يصافح الوفد الجزائري. وقبل زعيمهم، كريم بلقاسم، بالترتيبات، قائلا المهم هو النتيجة. نزل الوفد في الشاليه الخاص لأمير قطر وكانوا ينقلون يوميا عبر بحيرة جنيف بواسطة مروحيات عسكرية سويسرية أو قوارب سريعة، حسب الطقس. ومنع ديغول الجانبين من تناول وجبات الطعام معا لأنهم لا يزالوا أعداءً، وتكرم السويسريون بتوفير الطعام للجزائريين.

انسحب السويسريون عند هذه المرحلة. ودون لونغ في مذكراته أنهم كانوا مقبولين من الجانبين كطرف ثالث بسبب ما عرف عن التزام البلد نفسها التاريخي بالبحث عن التسويات السلمية للصراعات وبسبب تكتمها، كما قال، "إلى أننا نمتنع عن كثرة السؤال". وكانت السرية عاملا هاما، فتمكن السويسريون من أن يظل المتفاوضون بعيدين عن أعين الصحافيين... "فهذا التصيد المتوحش المتعمد للبشر، نتيجة لنمو الصحافة الرخيصة التي تجري وراء الإثارة، لا يجعل مهمتنا سهلة أبدا". واعتقد لونغ أن الوسيط يجب ألاّ يكون أنانيا لأن "كل شيء يصبح ممكنا إذا كان المرء لا يبحث عن السمعة". ولعله أضاف أن الأمر الأساسي الرجل المناسب (الذي يفهم رجال جبهة التحرير الجزائرية، ويفهم جوكس كذلك) في المكان المناسب في الوقت المناسب، عندما أدرك ديغول أنه في حاجة إلى وسيط يحرك عملية المحادثات.

وكما هي العادة، كان الفجوة بين الجانبين في إيفيان كبيرة جدا. ومما زاد الطين بلة أن المحادثات تزامنت مع اغتيال عميد إيفيان الشاب، على أيدي منظمة الجيش السري Organisation de l'Armie Secrete OAS اليمنية الفرنسية التي كانت ضد استقلال الجزائر عن فرنسا، والتي في الحقيقة قتلت مواطنين فرنسيين أكثر مما قتلت جبهة التحرير الجزائرية. انهارت المحادثات في يوليو/تموز. أصابت ديغول حالة من اليأس وهو يسعى لإيجاد حل، وأمر بعقد محادثات جديدة. لم يكن من السهل العثور على مكان مناسب. كان من المطلوب أن يكون المكان آمنا ضد الجيش السري وضد الصحفيين وفي الوقت نفسه قريبا من سويسرا. اختار الفرنسيون شاليه (بيت سويسري) يتي Yeti على ارتفاع ثلاثة آلاف قدما

في جبال جورا Jura. كانت الاجتماعات الأولية بعد انهيار إيفيان مباشرة بطيئة ومؤلمة. ظهر جوكس وهو متعب وأعصابه مشدودة، لدرجة أن كان في مرة من المرات على وشك أن يرمي بنفسه أمام الجزائريين على الطاولة. رجع جوكس إلى باريس ليطلب الدعم من ديغول الذي أرسل إليه روبرت بورن Robert Buron، وزير الأشغال، الذي أصدرت جبهة التحرير الجزائرية أمرا باغتياله، ولكنه الذي أضفى بروحه المرحة جوا من البهجة على المحادثات. وكانت آخر تعليمات للفرنسيين هي: "لا تتركوا المفاوضات تطول إلى ما لا نهاية... وبالإضافة لذلك فلا تربطوا أنفسكم بكثير من التفاصيل. فهناك المستحيل وهناك غير المستحيل".

كان جوكس الفرنسي الوحيد الذي نزل في غرفة بمفرده في شاليه يتي. ومما زاد من الازدحام داخل الشاليه هو حشر الحراس في الداخل أيضا لكي لا يجذب وجودهم خارج الشاليه انتباه الناس. ولكن هذا الوضع المزدحم ساعد في كسر الجليد بين أعضاد الفريقين. وفي يوم 18 فبراير/شباط أعطى ديغول لجوكس تعليمات هامة بالتلفون تقول: "أهم شيء يجب عليكم هو أن تتوصلوا إلى اتفاق ينص على وقف إطلاق النار ويتبعه حق تحرير المصير. هذه هي النتيجة – أكرر النتيجة – التي يجب أن تنتهوا إليها اليوم.. فلس هناك مقارنة بين الهدف الأساسي والذي يتكون من الوصول إلى اتفاق. والهدف الثانوي وهو الذي يتكون من أمور معينة يمكن تأجيلها لفترة أطول، والتي على أية حال، لا نتوقع أننا سنؤجلها إلى الأبد". وأدى ذلك إلى جلسة تفاوضية استغرقت طوال الليل وامتدت إلى الساعة الخامسة صباحا. تبادل الطرفان إعلانات مختصرة وتصافح الجميع للمرة الأولى. واتفقوا على اللقاء في إيفيان من جديد يوم 7 مارس.

في 18 مارس توصل الفريقان إلى اتفاق من 93 صفحة. لقد وقع الفرنسيون في الفخ المعهود إذ بدأوا بالقول أنهم لن يتحاوروا أبدا مع الإرهابيين ولكنهم عادوا في النهاية متأخرين وأدركوا أنهم لا بد أن يفعلوا. ولما عادوا ليبدأوا الحوار كانت كل قواهم على التفاوض قد تبخرت، وارتكبوا سلسلة من الأخطاء التقليدية في التعامل مع مجموعة مسلحة. ولم يحرزوا أي تقدم حتى استدعوا طرفا ثالثا موثوقا به للتوسط.

في نفس اليوم الذي وقع فيه الاتفاق، كان الزعيم الأفريقي نلسون مانديلا يزور معسكرا لجبهة التحرير الوطني الجزائرية على الحدود المغربية الجزائرية لغرض التدريب العسكري على ما زعموا. ولقد رأى الجزائر كمثل يُقتدى لجنوب أفريقيا، التي كانت أغلبية سكانها من البيض وما يعنيه ذلك من مشاكل. لقد التقى ماتديلا بعدد من زعماء الجبهة وتعلم دروسا في الثورة. وعندما رجع إلى جنوب أفريقيا اعتقل، وفي السجن بدأ رحلته الطويلة في المفاوضات التي انتهت إلى تسوية في جنوب أفريقيا.

كتب المؤرخ دافيد فرينش David French وهو يتناول تلك الفترة من 1945 وحتى 1967 فيقول:

> **من الظاهر هناك الكثير يمكن أن يقال أثناء المقارنة بين أهداف المتمردين أو الخارجين عن السلطة في منتصف القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين. وتبدو الأهداف التي يصبو إليها المعاصرون من الخارجين عن السلطة لبعض المراقبين في الغرب غامضة وغير محددة. فالبعض يريد إعادة دولة الخلافة الإسلامية. والبعض الآخر يبدو راضيا أن يحيل العراق أو أفغانستان بلدا يصعب حكمه بالمحافظة على مستوى عالٍ من العنف على أمل أن بإمكانهم إقناع القوى الغربية الانسحاب من تلك البلدان تجر أذيالها جرا. والمحصلة التي يظهر بها بعض المراقبين الغربيين هي أن المفاوضات مع الخصوم ذوي الأهداف الضبابية والسلبية والمضادة للنظم والأعراف الليبرالية الغربية غير متيسرة إطلاقا. وهذا أمر ليس بجديد. فالمحافظة على مستوى معين من العنف، الذي تعتبره القوة الاستعمارية في تقديرها ثمنا عاليا جدا، كان عبارة عن تكتيك معروف عند أغلب المتمردين عن السلطة في حقبة الاستعمار. فالذين يسعون إلى إعادة الخلافة يرفضون القيم الليبرالية الغربية. ولكن كثيرا من المتمردين على السلطة من الذين حاربتهم بريطانيا في فترة الاستعمار كانوا كذلك أيضا، ولكن لم تكن تلك الحقيقة، في نهاية الأمر، مانعا يصعب اجتيازه للوصول إلى المفاوضات. فالبريطانيون أدركوا – ولو على مضض – أنه لكي يحققوا السلام لا بد لهم في النهاية من أن يتحاوروا مع أعدائهم.**

يبدو أن هناك قدرا لا يستهان به من الاستمرارية في الطريقة التي عاملت بها الحكومات المتعاقبة الإرهابيين أو المسلحين أو الخارجين عن السلطة، ومن

الأخطاء التي ارتكبتها، ليس فقط على مدى العشرين سنة الماضية، بل على طول القرن الماضي. ومن المحتمل أننا سنستمر في ارتكاب الأخطاء نفسها كلما نواجه مجموعة مسلحة جديدة نعتقد أنها تختلف عن الجماعات التي جاءت قبلها. وكما يعبر عن ذلك الفيلسوف جون غراي John Gray فيقول: "إن العقبة في التعامل مع خطر الإرهاب هي الاعتقاد بأنه مختلف عن كل ما سبقه في الماضي". ولن نستطيع تحطيم هذا العائق والهروب من هذه الدائرة في المستقبل إلا إذا أثبتنا أن هيغل Hegel كان مخطأ وأن الحكومات تتعلم من دروس التاريخ.

الفصل الحادي عشر

المستقبل

ليس هناك حاضر ولا مستقبل.. فلا يوجد إلا الماضي يكرر نفسه، في الحاضر، مرة تلو الأخرى.

يوجين أونيل *Eugene O'Neill*

عندما صرحت علنا عام 2008 أنه يجب علينا أن نكون على استعداد للحوار مع طالبان وحماس بل والقاعد أيضا، استنكر كلامي، كما هو متوقع، متحدث باسم الحكومة. فهذه الجماعات تعتبر خارج التغطية، وتختلف إختلافا كاملا عن من سبقهم من الحركات المسلحة أو الإرهابية. وحتى إذا قبلنا الحوار مع الجيش الجمهوري الأيرلندي (أي آر آيه) أو حركة التحرير الفلسطينية (فتح)، فليس من الأخلاقي أو من الصواب أن نشتبك في حوار مع هذه الجماعات. ويعتقد دونالد ستينبرغ Donald Steinberg، خبير أمريكي في السياسة الخارجية، اعتقادا راسخا بأن علينا التمييز بين أولئك الذين هم "محاوزون شرعيون وغيرهم ممن... أعطوا انفسهم، في الواقع، بطاقة حمراء ووضعوا أنفسهم خارج نطاق اللعبة بالكامل".

ولكن كما رأينا، كلما ما واجهنا جماعة إرهابية أو مسلحة جديدة في السابق، اعتبرناها مختلفة أساسا عن غيرها، ولكننا سرعان ما أدركنا في النهاية أن علينا أن نتعامل معها بنفس الأسلوب التي انتهجناه مع غيرها قبل ذلك. فهل وصلنا، في الواقع، الآن إلى مرحلة في تاريخ الإرهاب نواجه فيها تهديدا مختلفا تماما عن ذلك الذي واجهناه خلال المائة سنة الماضية، وهل نحتاج إلى أسلوب للتعامل يختلف اختلافا أصليا؟

الحقيقة، إنه بعكس الحركات المسلحة الحديثة، فإن القاعدة لديها الرغبة والاستعداد لقتل عدد لا حدود له من البشر بوسائل أكثر رعبا وأكثر ترويعا. بالنسبة لأستاذ الشؤون الأمنية الأمريكي جوناثان ستيفنسن Jonathan Stevenson، فإن "هجمات 11 سبتمبر/أيلول، بمجرد حجمها المطلق، وضعت خطا أحمر قانٍ بين 'العنف الجديد' الذي تمارسه القاعدة، 'والعنف القديم' المتمثل في جماعات كمنظمة التحرير الفلسطيني والجيش الجمهوري الأيرلندي". فحيثما كانت (إيتا) الإسبانية والجيش الجمهوري الأيرلندي على رضى بـ "بروباجندا، أي دعاية، الأموات" من خلال قتل العشرات، أو على الأغلب أكثر قليلا، تهدف القاعدة إلى قتل الآلاف من خلال هجماتها. فهم أكثر شرا وأكثر وحشية. ويقول آلان ديرشوفتز Alan Dershowitz أن "طبيعة الإرهاب ستتغير باستمرار في المستقبل، كما تغيرت في الماضي. لقد كنا بالأمس مهمومين بأعمال إرهابية متفرقة، بالقطّاعي، كالاغتيالات والتفجيرات والاختطاف. وكان من أصعب الأزمات ألا نستسلم لمطالب إرهابية محددة، وعادة ما تكون إطلاق سراح إرهابيين آخرين. واليوم، الذي يخيفنا ويقض مضاجعنا عمليات إرهاب بالجملة، كاستخدام طائرات الركاب المدنية كصواريخ موجهة ضد أهداف بأعداد مكثفة من السكان. وهذه الأعمال نادرة وتصحبها مطالب محددة. وهي ليست تهديدات منوطة بأشياء معينة وغير مشروطة، أو عندما تكون كذلك، يكون سقف الشروط عمدا أعلى ما يمكن لدرجة أنها تصبح مطالب غير واقعة". ولكن الاختلاف، في النهاية، اختلاف في الدرجة وليس اختلافا في النوع. فقتل نفس بشرية واحدة في عمل إرهابي واحد كقتل مئات الأرواح. فهدف الجماعة واحد.. ترويع الجمهور لكي ينتبه إليهم وإلى مطالبهم. فالإرهاب شر، وهو عمل مخرب ونتائجه تقطع القلوب، ولكن درجة الرعب التي يكون باستعداد الجماعة الوصول إليها لا تؤثر بدرجة كبيرة في مبررات عما إذا كان من الممكن الحوار معها أم لا.

توصل الأكاديميون وصناع القرار إلى أربعة أسباب عملية، مختلفة ولكنها مربطة بعضها ببعض، لماذا لا نتحاور مع هؤلاء الإرهابيين الجدد. **الأول** لأن

دوافعهم مستقاة من الدين، وعليه فإنهم لا يخضعون للوسائل العقلانية أو المنطقية. ويقول الوزير الإسرائيلي السابق، دان ميريدور Dan Meridor، "عندما يدخل الإله في النقاش، فالإله لا يتنازل". بل يدعي البعض أن الحوار مستحيل لأن الإرهابيين الجدد إسلاميون وأن دينهم لم يحظ بالتطور أو التمدن المطلوب. هناك بطبيعة الحال أسباب قوية للقول بأن الحوار مع الإرهابيين المتدينين لا يقل يسرا عن الحوار مع الماركسيين أو القوميين. الاختلافات الدينية كانت، على أية حال، أحد العوامل في أيرلندا الشمالية. كما أنه كان من الممكن جدا التفاوض مع دول إسلامية، وتحقق السلام مع عدة جماعات إسلامية مسلحة بما في ذلك الجبهة الإسلامية لتحرير مورو في الفليبين وحركة أتشيه الحرة في أندونيسيا.

السبب **الثاني** هو وجود نوعين من الإرهاب: إرهاب منطقي، كالإرهاب الذي لجأ إليه الفلسطينيون، والإرهاب النهائي أو المجرد أو المفزع مثل إرهاب القاعدة. ويفرق الأكاديميان بروس هوفمان Bruce Hoffman ووليام زارتمان William Zartman بين الإرهابيين العدميين النهلستيين، الذين يحملون أهدافا مطلقة أو نهائية، وبين الإرهابيين التقليديين والذين هم "ذرائعون" أو "متسيسون"، وبالإمكان أن يتحولوا إلى محاورين يستفاد منهم. فالتقليديون يستخدمون الإرهاب كأداة أو وسيلة أو ذريعة للوصول إلى أهدافهم، أما العدميون هم أولئك "الذين عملهم ليس وسيلة لما يهدفون وإنما هو عمل ذاتي يكتمل عند ظهوره وليس أداة للوصول إلى أهداف أخرى. فالذين يقومون بالعمليات الانتحارية، والذين يقومون بالتفجير والخطف، هم إرهابيون بالمطلق، ولذا فهم لا يقبلون بالحوار أو التفاوض. فهؤلاء ليس لديهم ما يتفاوضون حوله وليس لديهم ما يتفاوضون به". وتضيف ستاسي بيتيجون Stacie Petteyjohn من مؤسسة راند RAND Corporation أن "سياسات الاسترضاء والترجي تزيد الإرهابيين العدميين جرأة وصلابة". ولكن دون أن نحاول التحاور معهم، كيف نستطيع أن نعرف أن هذه الجماعات تزاول الإرهاب لغرض الترويع والتدمير فقط أم أنهم على استعداد للحوار والتفاوض؟ لقد اعتبر الجيش الجمهوري الأيرلندي ومنظمة التحرير الفلسطينية عدميين في السنوات الأولى لأنهم لم يكونوا على استعداد

للتنازل، ولكنهم سلكوا طريق التفاوض في النهاية. ويشير ستاثيس كاليفاس Stathis Kalyvas من جامعة ييل Yale إلى أن "حتى أشكال العنف المتطرفة تستخدم استراتيجيا.. فأمثلة العنف المتطرف ضد المدنيين في إطار الحروب الأهلية ليست أعمالا مستهترة أو لا معنى لها. فهو سلوك له قواعد منطقية". إن هدف "الإرهابيين الجدد" ليس هو الإبادة، فالعنف بالنسبة لهم وسيلة إلى غاية.

تحمل نظرية العنف "المطلق" أو "النهائي" ضمنيا فكرة أنه لا توجد فرص ولا وسائل للتفاهم مع هذه الجماعات لأن مطالبهم ليست منطقية وغير قابلة للتفاوض. يضع لويس ريتشاردسن Louise Richardson خطا فاصلا بين تلك الجماعات التي لها "أهداف مؤقته"... "يمكن أن تتحقق أو تضيع دون قلب ميزان القوى الأساسي"، وبين تلك التي تهدف إلى "تحول جذري في المجتمع" الذي "بحكم طبيعته غير خاضع للتفاوض، ويتطلب تحقيقه التدمير الكامل لنظام الدولة الإقليمية برمته". فالإرهابيون المعاصرون "لا رغبة لهم في المشاركة في العملية السياسية، ولا الحصول على دعم شعبي. ومن المحتمل أن يكون الحوار والمفاوضات بالمعنى التقليدي معهم غير مجدٍ، حيث أن مطالبهم، في الحد الذي يجعلها منطقية ومفهومة أصلا، لا يمكن اعتبارها تتضمن تهديم النظام نفسه بشكل كامل". وكما عبر رئيس وكالة المخابرات الأمريكية السابق، جايمس وولسي James Woolsey، إذ قال أن الإرهابيين المتعصبين المعاصرين لا يريدون الجلوس على مائدة المفاوضات، بل "يريدون تحطيم المائدة وجميع من يجلس حولها". وبما أنه ليس من الممكن في واقع الأمر أن بلدا ما سيوافق على إنشاء دولة خلافة إسلامية تغطي رقعة واسعة من الأرض، كما تطالب به القاعدة، فإنه من الواقع كذلك أن الدولة البريطانية لم تكن لتوافق على إجبار غالبية سكان أيرلندا الشمالية على النزوح من المملكة المتحدة ضد رغبتهم. فالجيش الجمهوري الأيرلندي عندما دخل المحادثات كان ملزما بالتخلي عن مطلبه المطلق وهو أيرلندا المتحدة. والحكومة الإسبانية لم تكن لديها رغبة للاعتراف بدولة مستقلة للباسك، ولا حكومة أندونيسيا الاعتراف بدولة أتشيه المستقلة. فالجماعات المسلحة دائما تبدأ بمطالب غير قابلة للتفاوض. وإذا لم يفعلوا، لما احتاجوا إلى

اللجوء إلى العنف بادئ ذي بدء. الفكرة في الكلام معهم هي إقناعهم بالتحفيف من حدة تلك المطالب حتى يتمكنوا من التخلي عن مطالبهم الأصلية والرضى بمطالب تلبي رغباتهم وما كانوا يصبون إليه. والحكومة تقدم إليهم حلول وسط معينة تقنعهم أنه بإمكانهم السعي لتحقيق أهدافهم بالوسائل السياسية. ومن غير الواضح هنا لماذا لا تنجح هذه العملية في الإقناع، مع مرور الزمن، في تيسير وتخفيف مطالب طالبان وحماس والقاعدة كي يصبحوا هم كذلك على استعداد للتسوية على ما نعتقده أسسا منطقية ومعقولة. إننا نحتاج إلى إشراكهم والتشابك معهم كي ندفع بهم إلى التفكير حول ما يريدون فعلا وحول ما هو ممكن الحصول عليه.

إن الجماعات المسلحة تحتاج إلى شيء من الوقت حتى تقطع هذا المشوار. فالأسهل عليها التحصن وراء شعارات غامضة لا يمكن تحقيقها، منها "لتخرج القوات"، الذي كان مطلب الجيش الجمهوري في أيرلندا، وهو مطلب طالبان اليوم، بدلا من إقناع أتباعها أن يقبلوا بحول وسط صعبة ولكنها ضرورية لتحقيق تسويات دائمة. ولكن بعض الأكاديميين يكتب وكأن أهداف هذه الجماعات ثابتة لا تتزحزح، بينما هي في الواقع تتغير مع تغير الزمن والظروف، خاصة إذا واجهت أزمة أو طرقا مسدودة. فقد كان من الضروري إقناع الجبهة الإسلامية لتحرير مورو وحركة أتشيه الحرة بالتخلي عن هدفهما في الاستقلال وأن يرضيا بنظام الحكم الذاتي. إن التجربة العملية تفيد أن الأهداف المعلنة وأيديولوجية الجماعة المسلحة يجب ألا يكونا العامل الحاسم في تحديد ما إذا كانت عندها الرغبة في الوصول إلى حلول وسط أم لا. فلا بد أن ننظر إلى مصالحهم ولا ننظر إلى مواقفهم.

يضع ميتشال ريس Mitchell Reiss الخط الفاصل بين جماعات قابلة للتصالح وأخرى ستظل على الدوام غير مستعدة للمصالحة، "وبناء على الظروف المتوفرة، الاشتباك معهم ربما كان مأمورية أحمق" (أي ضياع وقت). وتعتقد أودري كرونين Audrey Cronin أن تنظيم القاعدة المركزي تنظيم لا يقبل المصالحة ولذا تقول: "إن لب تنظيم القاعدة المركزي هو مجموعة صغيرة وخطيرة

جدا من حوالي مائتي عنصر ناشط تجتمع حول القيادة العليا للتنظيم ومحاصرة في منطقة الحدود مع باكستان. وليس من الممكن التفاوض معهم لثلاثة أسباب هي: **أولا**، لأن لدهم شروطا غير قابلة للمفاوضات؛ **وثانيا**، لارتباطهم أكثر فأكثر بالعنف العشوائي؛ **وثالثا**، لأنهم لا يتجاوبون مع قاعدتم العريضة". ورغم هذا فهناك ما أشرنا إليه بالنسبة للجيش الجمهوري الأيرلندي والماوماو في كينيا، ورأينا كيف يمكن في النهاية تحويلهم إلى تنظيمات تتصالح وتتحاور. فعلى الطرفين، الجماعات المسلحة والحكومات، توجد عناصر متشددة وعناصر معتدلة، والحوار هو وسيلة لتقوية الجانب المعتدل على حساب الجانب المتشدد، في الطرفين.

ثالثا: هناك رأي يقول أنه نظرا لكون القاعدة تنظيما إرهابيا عالميا شاملا لا تحده حدود، فالتعامل معه أصعب من غيره بكثير. وربما كان من الصواب أن امتداد شبكة القاعدة عبر الحدود، جعل ميكانيكية الاشتباك معها أكثر صعوبة، ولكن ذلك ليس سببا في عدم إمكانية الحديث معها بل والبحث عن مجالات للاتفاق. إن حقيقة وجود القاعدة في أماكن متعددة هو نفسه يعني أن هناك تنظيمات محلية للقاعدة، في الصومال واليمن مثلا، ممن لها مصالح مختلفة ومحددة تمكننا من الارتباط والاشتباك معها. وعلى أي الأحوال فالعنف العابر للحدود ظاهرة معروفة في التاريخ من أيام الفوضويين والعدمين وما بعدهم. فالإرهابيون "الجدد" ليسوا بجدد كما نعتقد.

والسبب **الرابع** والأخير أن هذه جماعات ليست مستعدة للحديث معنا. وقد يكون ذلك صوابا، إلا أنه رغم ذلك فإن كثيرا من الجماعات "التقليدية" التي تناولناها في هذا الكتاب بدأت برفض التفاوض مع الحكومات ثم انتهت بفعل ذلك تماما. وعلى كل حال، فإن هذه الحجة ليست مبررا للحكومات أن ترفض الحوار مع الجماعات نفسها. فيجب أن نكون مفتوحين للحوار وإن رفضوا هم ذلك.

من الخصائص المدهشة حول هذه الآراء والنظريات تلك التي تركز على أن من الأسباب التي تجعل مما يسمى "الموجة الرابعة" من الإرهاب (بعد موجة

الفوضويين ثم الموجة المضادة للاستعمار ثم موجة اليسار الجديد) حالة مختلفة عن الموجات السابقات، فريدة من نوعها في الشر ومن الصعب الاشتباك معها بصورة من الصور، هي أنهم طبقوه على جميع الجماعات الإرهابية التي واجهناها في تاريخنا السابق. كانت النظريات مخطئة في السابق وهي على الأرجح مخطئة هذه المرة أيضا. فهناك، بطبيعة الحال، نقاش شرعي جدا يمكن أن نمضي فيه حول كيفية الدخول في الاشتباك مع هذه الجماعات الجديدة في الواقع العملي. فهم ليسوا سواءً، حتى وإن ظهروا كذلك عند النظر فيهم من بعيد. فزارتمان Zartman وفور Faure، مثلا، يسوقان الحجة أن حماس "ممكن التفاوض معها"؛ وأما القاعدة فلا؛ وأما طالبان ففي منزلة بين المنزلتين.

فحماس لها قاعدة دينية وتستهدف المدنيين، ومطالبها من الوزن الثقيل، وهي بالتأكيد تقع تحت التعريف العام وهو "الإرهابيون الجدد". وموقفها يتلخص في أنها غير راغبة في الحوار مع الحكومة الإسرائيلية. وظل الإسرائيليون دائما على وضوح كامل بأنهم غير راغبين في الاشتباك مع حماس بصفة مباشرة أو خفية، رغم أنهم سبق وأن تفاوضوا معها من خلال الحكومة المصرية، ومن خلال مسؤول في المخابرات الألمانية، ومن خلال ناشط سلام إسرائيلي لتأمين طلاق سراح العسكري العريف جلعاد شاليط Gilad Shalit. وأما فيما يتعلق بالقضايا السياسية فإن إسرائيل والغرب وضعوا شروطا مسبقة طلبوا من حماس تلبيتها قبل الدخول في أي محادثات. فلا يمكنهم الاشتباك حتى تعترف حماس بإسرائيل، وتتخلى عن العنف، وتقبل بجميع الاتفاقات السابقة بين إسرائيل والفلسطينيين. هذه الشروط المسبقة من المتوقع أن تحبط أي محادثات بالضبط كما حصل في موضوع سحب السلاح بالنسبة للجيش الجمهوري الأيرلندي. أما مطلب الاعتراف يشبه إقناع شين فين بالاعتراف بوجود أيرلندا الشمالية قبل أن تبدأ المفاوضات، عوضا عن أن يكون الاعتراف بندا يتفق عليه كجزء من المفاوضات. والأمرّ من ذلك أن إقصاء حماس سوف يحبط أي محادثات ناجحة بين الحكومة الإسرائيلية وفتح أبي مازن. لا يوجد متفاوض إسرائيلي لديه الرغبة في تقديم تنازلات صعبة للحصول على اتفاق مع أبي مازن وهو يعلم

أنه للوصول إلى سلام دائم فلربما اضطر إلى تقديم تنـــازلات إضـــافية لضـــمان الحصول اتفاق مع حماس. وعند النقطة التي يكون فيهـــا الطرفـــان جـــادين في الوصول إلى اتفاق سلام فلا بد من العثور على طريق للالتفاف حـــول هـــذه الشروط الاستباقية حتى تعقد محادثات مع وفد فليسطيني موحد للمشـــاركة في المفاوضات.

فمسألة الحوار مع حماس وكيف يتم، لا تبدو أصعب مـــن الحـــوار مـــع الجماعات "التقليدية" التي تعرضنا إليها في هذا الكتاب. ربما كانت طالبان حالة مختلفة. فهم أيضا أصحاب قاعدة دينية، واسم الحركة نفسه يعود إلى المشـــائخ الشباب الذين بدأوا هذه الحركة. وهم لايزالون حلفاء للقاعدة. وهم لا يحيدون قيد أنملة عن مطلبهم الأساسي بأن تغادر القوى الأجنبية أراضي أفغانستان قبـــل بدء أي محادثات مع الغرب، ورفضوا الحوار مع حكومة حامد كرزاي. وهـــم يستعملون العمليات الانتحارية ويهاجمون المدنيين. رفض الغـــرب - ابتـــداءً - الحوار مع طالبان وكان هدفنا المعلن هو تدميرهم. ولكن عندما اتضح أن هـــذا مستحيلا لجأت القوات الأمريكية إلى التحـــرك بكثافـــة في موجـــة اجتيـــاح لأفغانستان بهدف الحصول على اليد العليا وقبل الدخول في محادثات. لقد ظـــل المسؤولون في بريطانيا والولايات المتحدة لمدة طويلة ضد المفاوضـــات. ســـعت الولايات المتحدة بعد ذلك إلى الحوار مع طالبان ولكن تلك الجهود أحبطـــت بسبب الشروط الاستباقية، التي في الأصل فرضت من قبل الولايات المتحدة ومن قبل طالبان وهي إطلاق سجناء من معسكر غوانتنامو.

وقد يتساءل المرء لماذا أبدت طالبان رغبتها في الحوار في ذلك الوقت الذي أعلنت قنوات حلف شمال الأطلسي (ناتو) أنها ستنسحب مـــن أفغانســـتان في 2014. كان بإمكانهم الانتظار حتى غادرت القوات الغربية أفغانستان ثم يستلموا السلطة، وبالتأكيد هناك في الحركة من قال بذلك. لم يكن هناك أي دليل علـــى أن موجة الاجتياح للقوات الأمريكية قد أثرت بأي شيء يذكر في ميلهم نحـــو الحوار. بدون شك، كما هي عادة الجماعات في كل مكان، فإن طالبان يتوقون إلى الاعتراف بهم وبشرعيتهم، وساورت بعض زعمائهم شكوك حول ما الذي

حصل بعد انسحاب قوات (ناتو). فغالبا أنهم أدركوا أن ليس بإمكانهم أن يستلموا السلطة في كل أنحاء البلاد بنفس السهولة التي كانوا يتصورون. سوف يترك الغربيون إمكانيات وممتلكات مهمة وراءهم في البلاد، بما فيها الطائرات بدون طيار، بالإضافة إلى جيش أفغاني كبير وقوات شرطة. وهناك أيضا الطاجيك والهزارة والأوزبيك، إضافة إلى نسبة كبيرة من السكان البشتون الذين لن يسمحوا لطالبان باستلام السلطة والسيطرة بسهولة في جميع أرجاء البلاد. كما أن كثيرا من مقاتليهم سيكونون مرهقين من خطر الموت الماحق المستمر وعدم الاستقرار وفقدان الحياة الطبيعية بين الأهل والأولاد. كما أنهم لا يستطيعون الاعتماد لفترة طويلة على الدعم الباكستاني. ولذلك فإن الانخراط في المحادثات أمرٌ معقول وله ما يبرره.

أما المشكلة بالنسبة للغرب تتلخص في أن الاشتباك مع طالبان أصبح متأخرا جدا. بالنظر ألى الخلف قليلا نجد أنه من الخطأ إقصاء طالبان من المحادثات الأصلية في بون Bonn بألمانيا حول مستقبل البلاد في 2001 و2002. وقال الجنرال نيك كارتر Nick Carter، نائب قائد قوات الغرب في أفغانستان، في يونيو/حزيران 2013، "في 2002 كانت طالبان هاربة في الجبال. وأعتقد أنه في تلك المرحلة، لو كنا ذوي بصيرة حقيقة، فلربما لاحظنا أن حلا سياسيا نهائيا لما بدأ في 2001، من وجهة نظرنا، كان بالإمكان أن يوجد، ويضم كل الأفغان حول مائدة واحدة للتداول حول مستقبلهم... ولكن المشاكل التي ظلت تواجهنا منذ ذلك الحين هي أساسا سياسية، والمشاكل السياسة لا يمكن حلها إلا بالحوار وبكلام الناس بعضهم مع بعض". والآن، لم يبق من الوقت إلا النزر للجانب الذي نتعلم منه في العملية حيث يمكن لمنظمة قائمة على أساس الوفاق العام مثل طالبان أن تكيف مطالبها تدريجيا للعالم الحقيقي. ومع ذلك، هناك دلائل تشير إلى أن طالبان على استعداد لمناقشة الاشتراك في السلطة بدلا من السيطرة على السلطة، رغم إنه ليس من الواضح كيف نضع نظاما فعالا لتقاسم السلطة في البلاد. ومن الوضح أيضا أن طالبان كانت على استعداد للتخلي عن علاقاتها مع القاعدة كجزء من الاتفاق، ولكن الأقل وضوحا هو كيفية التدليل

على ذلك الفصل في العلاقات ليكون حقيقيا أو مجرد فصل إعلاني للدعاية. كما أنه ليس من الممكن أن تتشبث طالبان بمواقفها الأصلية المتشددة حول المرأة والتعليم، والتي قد بدأت في تعديلها علنا. ولربما يعتبر نظام القضاء التقليدي والسريع والمتيسر بالنسبة لهم أساسيا، إلا أنهم على استعداد لتلطيف مطالبهم حول الشريعة والحدود وغيرها من العقوبات. وهكذا فإنه من الممكن جدا تخيل تسوية متوازنة ترضي جميع الأطراف.

وكما هو الحال بالنسبة لجماعات مسلحة أخرى، فبدأ محادثات خاصة مع طالبان تجعل الذين حرموا منها يشكون بأن صفقة سرية ما تحاك من ورائهم وستؤثر على مصالحهم بدرجة كبيرة. لقد كان مفهوما أن الرئيس كرزاي كان محترسا جدا من النيات الأجنبية، وطلب فعلا طرد اثنين من موظفي الاتحاد الأوروبي عام 2007 الذين اتهمهما بالتعامل مع طالبان من وراء ظهره. والأدهى من ذلك أن الطاجيك في التحالف الشمالي، الذين كانوا آخر من قاوم طالبان حتى عام 2001، كانوا خائفين أن حكومة مركزية ستفرط في مصالحهم. فالذين حرموا من المشاركة سيحتاجون إلى تطمينات أن مصالحهم مأخوذة في الاعتبار، كما ستحتاج لهذه التطمينات دول الجوار مثل إيران وباكستان والهند. النقطة الهامة للغاية هي أنه رغم تأخرنا كثيرا في دعوة طالبان لمحادثات، فإن آفاق التفاوض معهم لا تبدو مختلفة اختلافا كثيرا عن محادثات أجريناها تاريخيا مع جماعات أخرى.

فلربما، إذاً، تنظيم القاعدة هو الوحيد الذي يبدو مختلفا نوعا ما. صحيح بالتأكيد أن طموحات القاعدة هي طموحات عالمية وليست قومية أو إقليمية وهي عبارة عن تنظيم شبكي، والقاعدة هي شبكة وليست تنظيم. وصحيح كذلك أن أسامة بن لادن قد فارق الحياة، وأن القاعدة المركزية، في الأراضي الوعرة في باكستان وأفغانستان، هي اليوم في موقف دفاعي تحت رحمة الطائرات بدون طيار. ويذهب بعض المسؤولين الأمريكيين إلى القول بأن هزيمة القاعدة هي قاب قوسين أو أدنى، ولربما كان الحل الوحيد هو "قطع الرأس". ويقول المؤرخ النرويجي برانيار ليا Brynjar Lia أنه "عند نقطة معينة، هيلمان القاعدة لا

بد أن يختفي؛ وكما أن لكل الأيديولوجيات المتطرفة عمر محدد فكذلك للمفهوم الإسلامي المتطرف الذي تدعو إليه القاعدة عمر محدد. ستفقد القاعدة جاذبيتها لدى الشباب المسلم يوما ما في المستقبل، و لم يعد 'الجهادي' رمزا لشخصية لها سحر يُفتن به الناس".

ولكن القاعدة من غير المحتمل أن تختفي تماما. وكما قال بروس هوفمان Bruce Hoffman أن "النواة الأصلية للقاعدة، والتي عاشت طويلا، أثبتت أنها مرنة وصعبة المِراس. فقد قاست لأكثر من عقد من الزمن أضخم هجمات دولية وجهت لتنظيم إرهابي في التاريخ. كما أثبتت وبشكل مستمر قدرتها على التكيف والتعديل والتبديل حتى مع أكثر العوامل المضادة التي استُعملت ضدها، مما مكنها، رغم كل الصعوبات، من أن تستمر لما يقرب من ربع قرن من الزمن". ويشير هوفمان إلى خروج جيل جديد من بين صفوف القاعدة يمتاز بأنه "مثير جدا للقلق... لأن الأجيال اللاحقة للمنظمات الإرهابية أثبتت أنها على مستوى من العنف مهلك أكبر بكثر من سابقاتها". وعلى نفس المنوال فإن مجلة الإكونومست البريطانية تفترض أن "القاعدة تعتقد أن أمريكا في حالة تقهقر، ليس فقط في أفغانستان ولكن في جميع أنحاء الشرق الأوسط. لقد منحتها سموم الربيع العربي أهدافا جديدة وزخما أيديولوجيا. فقد تكون القاعدة نفسها منقسمة أو في بعض المناطق استنزفت.. ولربما كانت مبعدة من قبل مجموعات لديها الأيديولوجية نفسها.. ولربما تجاهلت، أكثر فأكثر، التنظيمات المرتبطة بها قيادتها التي أصابتها الشيخوخة... ولكن الطرح السلفي الجهادي للإسلام الذي تتبناه القاعدة وتدعو إليه وتدافع من أجله لم يحظ بمثل هذا القبول والإتباع". ويواصل هوفمان قائلا: "لقد كُتب تأبين القاعدة مرات في السابق، ولكن ليتأكد دائما أنه سابق لأوانه وأنه أضغاث أحلام لا أصل لها في الواقع".

إذا كانت هذه المنظمات والجماعات لن تهزم ولن تختفي، وإذا كنا غير قادرين على قتلهم جميعا، فلربما علينا أن نتحاور معهم كما سبق وأن تحاورنا مع من سبقهم من الجماعات الإرهابية الجادة. وفي ردها على سؤال حول القاعدة

أثناء محاضرتها ضمن سلسلة محاضرات ريث Reith Lectures قالت إليزا مانينغهام بولار Eliza Manningham-Buller (المديرة السابقة لجهاز الاستخبارات البريطانية أم آي 5) "أن يقول المرء أنه لن يحاورهم ولن يحاول أن يحاورهم، فأعتقد أنه موقف أحمق. فمن الواضح أننا لازلنا أبعد ما نكون عن ما يمكن وصفه بالمفاوضات، حتى ولو كانت ممكنة، ولكن بمجرد أن نشرع في التفكير في هذه المسائل، ونبذل جهودا في مجرد المحاولة، وأن نعقد المناقشات والمجادلات كهذه هو في ذاته بداية طيبة". وقال تيري ويت Terry Waite (مساعد رئيس الأساقفة لكنيسة إنجلترا السابق الذي اختطف في لبنان واحتجز من 1980 إلى 1991)، وهو يتكلم مؤيدا الحوار مع القاعدة، "تجربتي في لبنان وإيران وليبيا دللت في الحقيقة على أنه بإمكان المرء أن يحاور الذين لهم مواقف معلنة تبدو أنها ممكنة وقابلة لأن تتحقق. فالإرهاب عرض من أعراض الحالة. وهو ليس جذور المسألة. وعلينا أن نعالج جذور المسألة. والسبيل الوحيد إلى أن نفعل ذلك هو بألا نحشر الناس في زاوية ضيقة: إما القصف أو القتال.. ولكن بالدخول في حوار". ومع ذلك فإنه من الصعب حقا أن نميز كيف نستطيع أن نشتبك مع القاعدة المركزية في حوار مباشر، حتى وإن كانت تلك رغبتنا، إذا ما أخذنا في الاعتبار الضغط العسكري الذي تواجهه.

ولكن شيئا مهما حدث لهذه المجموعة. ورغم أنها لم تكن تنظيما مركزيا أو هرميا، فهي معروفة الآن بأنها أكثر مجموعة فدرالية رخوة منظمة بطريقة عفوية تجعل من العسير التعرف عليها من قبل أجهزة المخابرات الغربية. فالمركز لا يتحكم فيما تقوم به المجموعات التابعة له، كما يدلل على ذلك ما فعله أبو مصعب الزرقاوي، قائد تنظيم القاعدة في العراق، بأسلوب حي واضح، بإصراره على تقتيل وتذبيح الشيعة في العراق متحديا ومتجاهلا لكل النداءات الصادرة من المركز. لقد انتقلت، وتنتقل باستمرار، نشاطات القاعدة، من أفغانستان إلى باكستان، إلى مجموعات أخرى لها حرية التصرف خاصة في المغرب العربي والصومال وسوريا واليمن. ويقول تقرير لجهاز المخابرات الكندية أن القاعدة "في هيكلها الواسع تضم هذه الظاهرة مجموعة مركزية من كبار الشخصيات

القيادية يشار إليها بالقاعدة الأم أو القاعدة الأساس، وهي مجموعات تابعة إقليمية تشكل في مجموعها، بالإضافة إلى القاعدة الأساس، مجموعات على نفس خط التفكير في أماكن النشاط الرئيسية (رفقاء سفر)، ومجموعات إسلامية متطرفة محلية في بلدان غربية، ومتعاطفين في جميع أنحاء الكرة الأرضية، وأيديولوجية القاعدة نفسها". فالقاعدة في الواقع مثل مطاعم دومينو لأكلة البيتزا الشهيرة Domino Pizza. فالفروع تُمنح حق الامتياز في استعمال واستخدام الاسم ووصفة الطبخة، ولكن عليها هي أن تتكفل بتأجير المكان وتوظيف العمال الذين يعدّون الطعام ويوزعونه على الزبائن.

هذه التطورات من الممكن أن تيسر وجود طريقة للحوار مع هذه الجماعات. ويقول كارل ميللر Carl Miller أنه "رغم أن التركيبة المعقدة للقاعدة كثيرا ما يشار إليها كعقبة في طريق التفاوض، هي في الحقيقة فرصة يجب أن تستغل. فالتنظيم ذو التركيبة الشبكية يوفر نقاطا متعددة للنفاذ إلى جسم التنظيم أكثر من التنظيم التقليدي الهرمي. وعندما تُكتشف نقاط الدخول هذه، غالبا ما نجد الجماعات الحرة المرتبطة بالقاعدة والأفراد النشطاء فيها، تتبنى مطالب محلية مؤقتة وليست عالمية أو مطالب هدفها تحوّل كامل". إنه من اليسير جدا أن نتخيل أن هناك تعاملا ذا صبغة تجارية أو تعاملا يقوم على تبادل المصالح يمكن أن نقيمه مع هذه الجماعات حول قضايا تمس البلاد أو الجهات أو الفضاءات التي يتحركون فيها. هذه العناصر ليست، أو على الأقل لم تصبح حتى الآن، خارجة على السلطة على مستوى قومي، وهم أكثر اهتماما بتصحيح أوضاعهم ورد مظالمهم داخل أوطانهم من أسامة بن لادن. تقول كرونن: "كثير من العناصر المرتبطة بالقاعدة تستخدم اسم 'القاعدة' لأهداف مثيرة واستفزازية، زيادة في القوة وللتهويل من صورهم. فالجماعات التابعة للقاعدة في أندونيسيا والمغرب وتونس وتركيا، مثلا، لها الكثير من القضايا المشتركة مع الجماعات الانفصالية القومية العرقية الكلاسيكية التي ظهرت في القرن العشرين، مما لهم مع برنامج الكفاح الطموح إلى تقوده القاعدة". إذا كان الحوار ممكنا مع تنظيم القاعدة في جزيرة العرب في اليمن، والشباب في الصومال، وتنظيم القاعدة في المغرب

الإسلامي في منطقة الساحل الأفريقية، حول قضايا أساسية وتلبية بعضها مطالبهم، فلعله من الممكن جر تنظيم القاعدة المركزي للمفاوضات في نهاية الأمر، كما عملنا مع معظم المكونات والتشكيلات الإرهابية السابقة.

إن الحقيقة التي لا مراء فيها، إذاً، هي ليس هناك وجود لشيء يسمى الإرهاب "التقليدي" أو الإرهاب "الجديد". فالإرهابيون الجدد يشبهون الإرهابيين القدامى بأكثر مما نتصور. فالجماعات التي تستخدم الإرهاب هي مخلوقات متغيرة باستمرار، تعدل وتكيّف في أوضاعها حسب ما تقتضيه الحاجة، وذلك تماما لأن العنف وسيلة وليس غاية في ذاته. وهم، على أية حال، يتعايشون مع كثير من الإرهابيين الأيديولوجيين والقوميين من "الموجة الثالثة" من الإرهاب التي ما زالت مستمرة، بما في ذلك جبهة فارابوندو مارتي للتحرير الوطني وجيش التحرير الوطني في كولومبيا، والماويين في الفلبين والنكسليين في الهند والإرهابيين في كشمير والإرهابيين القوميين الدينيين في الشيشان.

إننا لن نصل إلى نهاية الإرهاب حتى لو أننا نجحنا في إنهاء ما تبقى من هؤلاء الإرهابيين من الموجة الثالثة أو الرابعة. فنحن نستطيع أن نتنبأ بظهور مجموعات جديدة تستخدم الإرهاب لتجذب الانتباه وتحاول إجبار الحكومات والناس عموما على القبول بمطالبها. وما حدث في السنوات القليلة الماضية يدلل على قدرة خروج هذه الجماعات، بكل سرعة ويسر، فجأة ومن لا شيء، ابتداء من تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) إلى جماعة التوحيد والجهاد في غرب أفريقيا Movement for Unity and Jihad in West Africa MUJWA في مالي بوسط أفريقيا، فتتشكل وتتعدل في قوالب وأشكال متعددة وبأسماء مختلفة. إلا أنه من الصعب التأكيد كيف ستكون طبيعة الموجة القادمة ومحتواها. فلربما تولد من بين المقاتلين العائدين إلى البلدان الغربية من سوريا كما ولدت طالبان والقاعدة من رحم الحرب مع الروس في أفغانستان. وربما كانوا تجسيدا للمقاتلين الجدد في شمال مالي، كالمختار بالمختار الذي يتخصص في الخطف، أو بوكو حرام والأنصارو في شمال نيجيريا. وربما نضطر إلى مواجهة مزيد من الإرهابيين من نوع "الذئاب الوحيدة" كمثل بريفيك Breivik في النرويج، أو القاتلين

النيجريين الاثنين الذيْن طعنا الجندي البريطـاني، لي ريغبـي Lee Rigby، في وولتش بلندن بسكاكين حتى الموت.

ويتنبأ دافيد كيلكالن David Kilcullin، الجندي السـابق الـذي كـان مستشارا للجنرال بيتروس في العراق، بموجة جديدة من إرهاب مقاتلي المدن من النوع الذي هاجم مومباي في عام 2008. ويعتقد الرئيس الأمريكي أوباما "إننـا سنواجه تهديدات محلية أكثر مثل ما شاهدناه في بنغازي، أو منشـآت شـركة النفط البريطانية (بـي بـي) في الجزائر حيث نشطاء محليون، ربما لهم علاقات رخوة مع شبكات إقليمية، هم الذين يقومون بشن هجمات ضد دبلوماسـيين وشركات غربية وغيرها من الأهداف السهلة، أو يلجأون إلى الخطف وغيره من الأعمال الإجرامية لتمويل تحركاتهم". القضايا الجديد، كالماء والمصادر الأخرى، والأيدولوجيات الجديدة، ستوحي لكثير من الجماعات برفع السلاح واللجـوء إلى القتال. وكذلك الصراعات التي ظلت نائمة لفترة عقود من الزمن قد تنفجر فجأة من جديد كما هو الحال في ناغورنو كاراباخ والشيشان. وهنـاك عـدد متزايد من الدول الفاشلة التي ستصبح ملاذا آمنا للجماعات المسـلحة، كمـا أصبحت مالي وليبيا بالنسبة للدول المجاورة في إقليم شمال أفريقيا. وربما تغـرق أفغانستان في المستنقع الذي كانت فيه من قبل بمجرد انسحاب القوات الغربيـة منها، والصومال لم تستطع أن تنتشل نفسها من مستنقعها منذ إنهار السلطة هناك في عام 1991. يقول آندرو باركر Andrew Parker، مدير جهـاز المخـابرات البريطانية (أم آي 5)، ما يلي:

> **عشر سنوات خلت كانت نقطة التركيز العالمية الوحيـدة تقريبـا بالنسـبة للجهود المضادة للإرهاب هي تنظيم القاعدة في جنوب آسيا. ومنـذ ذلـك التاريخ شاهدنا تجمعات إسلامية تتبنى العنف في بلدان وأقاليم عدة، مسـتغلة الصراعات والثورات وفرص ضعف أجهزة الحكم لكسب القوة والاحتماء. وانتحل البعض شخصية القاعدة وأصبح ينسج على منوالها ومرتبطا بها ارتباطا يعطيه حرية التصرف. هذا، بينما ينحسر تأثير القاعدة الأم في جنوب آسـيا. وبنظرة على خريطة العالم على مدى العشر سنوات الماضية نجـد تطـورات متلاحقة شملت العراق وشمال وغرب أفريقيا واليمن والصومال وسوريا منـذ**

عهد قريب. بالنسبة للمستقبل، هناك أسباب كثيرة تدعو إلى القلق على الأوضاع في سوريا. لم تعد القاعدة قادرة على القيام بتلك الهجمات الكبيرة التي تتحكم فيها من المركز، لأنها أنهكت وانخفض تأثيرها، وإن كانت لم يُقض عليها بشكل كامل. ورأينا كيف اتجهت إلى التهديدات بعمليات صغيرة ولكنها كثيرة، وأصبحت الجماعات والأفراد، نسبيا، هي التي تتولى القيام بتنفيذ الأعمال الإرهابية. وبشكل عام، فإنني لا أعتقد أن تهديد الإرهاب هو أسوأ الآن مما كان عليه في السابق. ولكنه أصبح الآن أكثر انتشارا وأكثر تناثرا. إنه الآن أكثر تعقيدا، والتنبؤ به أصبح أكثر صعوبة.

ونظرا إلى كون جماعات جديدة سوف تواصل استعمال الإرهاب كوسيلة تكتيكية، فنحن ملزمون أن نتخلص مما أصابنا من مرض النسيان الجماعي، وألا نفاجأ كلما ظهر علينا الإرهاب في شكل جديد، وأن نكون أكثر تناغما في كيفية التعامل معه، متعظين بالعبر والدروس التي تعلمناها في السابق.

إن إدراك الطبيعة المتكررة للإرهاب يقودنا إلى النظر في إمكانية الاستفادة من الحلول السهلة مثل التقنية لمواجهة التهديدات المستمرة. ولكن التقنية الجديدة تجعل التعامل مع تحدي الإرهاب أكثر صعوبة مع تقديم حلول جديدة. وكما غير اختراع مادة الديناميت المتفجرة في طبيعة الإرهاب في القرن التاسع عشر، وغيرت مادة السمتيكس المتفجرة طبيعته في القرن العشرين، فالتقنيات الحديثة أحدثت تحولات هامة في قدرات الإرهاب المعاصر. فحصول المجاهدين في أفغانستان على راميات الصواريخ المحمولة (صواريخ ستينغر stingers) أعطاهم قدرات ومواقف أقوى مكنتهم من إخراج الاتحاد السوفياتي من أفغانستان، ومكنت جبهة التحرير الوطني أن تحول دون القوات الجوية والطيران في السلفادور. كما أحدثت التقنية من وراء القنابل التي تزرع في الطرقات، ثورة في استخدم التلفونات المتنقلة وغيرها من التطورات التقنية الحديثة كأجهزة للتحكم عن بعد. ويقول تقرير لجهاز الأمن الداخلي للولايات المتحدة عن مستقبل الإرهاب أنه "سوف يعتمد بقدر كبير على استعمال وسهولة الحصول على التقنية الحديثي. فالأسلحة الأكثر فاعلية في التدمير تجعل الإرهاب أكثر فاعلية في القتل. والتطورات في أساليب النقل توسع من مجالات الإرهاب. كما أن هبوط

تكاليف وسائل الاتصالات ويسرها المتزايد يجعل من تتبع الإرهاب واكتشافه أمرا صعبا. وبينما هذه التقنيات تتطور وتنمو وتصبح سهلة المنال أكثر فأكثر لقطاعات أوسع من الناس، فإن كثيرين وكثيرين ممن هم أعداء لنا سيلجأون إلى استعمال الإرهاب كوسيلة استراتيجية وتكتيكية في آن واحد".

إننا نعلم أن عددا من الجماعات المسلحة قد شرعت في البحث والحصول على أسلحة كيماوية وبيولوجية ونووية. ونحن نعلم أن هناك أنظمة غير مسؤولة التي يمكن أن تكون مستعدة لمساعدة هؤلاء للحصول على هذه الأسلحة. وعلى أغلب الاحتمالات، فالمسألة مسألة وقت ليس إلا، وعندها فإن طبيعة التهديدات والمخاطر سوف تتغير تغييرا أساسيا. فالجماعات المسلحة آنذاك ستكون قادرة على قتل المئات بل الآلاف من البشر، وهز عروش الأنظمة السياسية الكبرى، وربما تشكل تهديدا حقيقيا لبعض البلدان. ويكتب خبير العمل المضاد للإرهاب، دافيد بندر David Pinder فيقول: "إن اليوم الذي كنا نخافه منذ سنوات، سيأتي عندما تحصل بعض الجماعات على أسلحة دمار شامل قابلة للاستعمال، وتكون لديها القدرة والرغبة في استعمالها. وعندها ستكون المفاوضات البديل الوحيد أمامنا، وعليه سيكون من غير المسؤولية ألا نخطط منذ الآن لذلك اليوم". لقد تطورت التقنيات وتحسنت قدرات الحكومات كذلك. فكل الحكومات المحترمة تسعى للحصول على طائرات بدون طيار، التي بإمكانها متابعة ورصد تحركات الإرهابيين والتخلص منهم وممن حولهم من المتعاونين والمساعدين، والرادارات التي تخترق الحواجز فلا يستطيعون الاختباء أو الاختفاء في الغابات. هذه التقنية بإمكانها أن تضع تلك الجماعات في مواقف دفاعية لفترت طويلة من الزمن، ولكن الإرهابيين سيعملون على تطوير طرق ووسائل أخرى للتغلب على الإجراءات المضادة التي تواجههم بها الحكومات.

إن قدرة التقنية على تهوين أو إضعاف آثار الهجمات الإرهابية ومفعولها أكثر تدميرا وتهديما، وجعل تجاوب الحكومات لذلك أيضا أكثر دموية وقساوة كذلك... لا تقدم الحل الأنجع للمشكلة الأساسية التي يتناولها هذا الكتاب. هذه المشكلة هي إنه طالما كانت جذور الصراع سياسية، وكانت الجماعة المسلحة

تتمتع بقدر محترم من الدعم السياسي، فلا بد أن يكون الحل سياسـيا، وهـذا يقتضي الحوار في نهاية المطاف. الضربات الجوية باستعمال صواريخ كروز ضـد قواعد القاعدة في أفغانستان والسودان ردا على تفجيرات السفارات الأمريكية في تانزانيا وكينيا عام 1998 لم تفلح في حل القضايا الجذرية الكامنة وراء المشكلة. إن الردود العشوائية الانفعالية وغير المحسوبة، والتي تصيب الأبرياء المدنيين، كما تصيب الأهداف المعنية، سيكون من شأنها أن تؤلب الناس ضد الغرب. وهـذا تماما ما نتج عن رد الفعل البريطاني لانتفاضة عيد الفصح في دبلن بأيرلندا عـام 1916. أعداد كثيرة من المجندين أكثر بكثير عن الذين تخلصت منهم. كما لعبت عمليات الهجوم بالرصاص على إيدي فرقة المظلات البريطانية في مدينة ديـري بأيرلندا الشمالية في يوم الأحد الدموي عام 1972، وكذلك كـان لحمـلات الاعتقال لمئات من الأبرياء الكاثوليك، دور هام في تجنيد العشـرات لصـفوف الجيش الجمهوري الأيرلندي.

العولمة غيرت كذلك من طبيعة وحقيقة الإرهاب والرد عليـه. سـهولة الوصول إلى تقنيات الإنترنت، والتلفونات الخلوية النقالة وأسـاليب التشـفير المتقدمة، كلها جعلت من اليسير استعمال وسائل التأثير الجمـاهيري وغسـل الدماغ والتنظيم بدون أي رقابة ولا حساب. جاء في محصلة لتقرير لجهاز الأمن الداخلي الأمريكي أن "مستقبل الإرهاب سيتأثر بسهولة تنقل البشر في العـالم اليوم. والعولمة تعني وتستتبع حركة أكبر في البضائع والخدمات والبشر، وكذلك في الأموال والمعلومات. فاتساع الأسواق ورخص وسـائل السـفر ويسـرها وسرعتها يزيد من انحسار الحدود القومية. وسواء أكانت هذه الظاهرة تزداد أم تنحسر، سيكون لها الأثر الأكبر في إمكانيات الجماعات الإرهابية ودور الحدود القومية في التفكير الأمني". فخدمات التلفزيون المستمر لمدة 24 ساعة في اليـوم توفر جمهورا من المشاهدين للدعاية للأعمال التي تقوم بها المنظمات الإرهابيـة سواء كانت قطع رؤوس البشر على يد بوكو حرام أو عملية انتحارية في بغداد، بينما وسائل الاتصال الاجتماعي عن طريق الإنترنت تمكن هؤلاء مـن إقامـة تنظيمات وعلاقات أكثر مرونة وأنشط حيوية. إن نظام الخلايا الـذي طـوره

الجيش الجمهوري الأيرلندي وجماعات أخرى نجح في منع الاختراق من قبل أجهزة المخابرات المعادية وتهديم المنظمة بكاملها. الفيس بوك وتويتر هما من الوسائل الحديثة التي تمكن التنظيمات الشبكية من التأثير على تنظيمات أخرى والإيحاء إليها أو التنسيق معها بالقيام بعمليات بدلا من تنظيمها أو التدخل فيها مباشرة. فمتابعة خيط أو اتصال إلكتروني ممكن فقط مع عناصر راديكالية معروفه. لقد اعتمدت الجماعات الإرهابية دائما على قدرتها لاستعمال "البشرة النظيفة" وهم الشبان، ذكورا وإناثا، الجدد الذين لم يتم التعرف عليهم بعد من قبل أجهزة الشرطة أو المخابرات، للقيام بهذه العمليات.

إلا أن هذه التطورات لا تشكل تغيرا أساسيا في طبيعة الإرهاب أو في كيفية العامل معه. وكما أشارت مارغريت ماكميللان Margaret MacMillan، كانت العولمة ظاهرة قبل الحرب العالمية الأولى عندما غيرت السفن الضخمة وخطوط السكك الحديدية والهاتف والبرق والراديو في نظرة الناس للعالم فجأة على أنه أصبح صغيرا. وكان أثرها كأثر العولمة على إنسان اليوم وسمحت بالانتشار السريع للأيديولوجية الراديكالية والتواصل بين العناصر المتشددة. وتقول "إن الفوضويين والاشتراكيين الثوريين في أنحاء أوروبا وأمريكا الشمالية تربوا على قراءة الكتب نفسها وتكونت لديهم الآمال والأهداف نفسها... فكانوا يتقون إلى القضاء على النظم الاجتماعية القائمة. وحرك الإرهابيون بعضهم بعضا من كالكاتا في الهند إلى بافالو في الولايات المتحدة، فرموا القنابل في المكاتب وأسواق الأوراق المالية وفجروا خطوط السكك الحديدية وطعنوا وأطلقوا الرصاص على من اعتبروهم طغاة ظالمين".

فالإرهاب لن يختفي، ولن نجد تقنية جديدة أو حلولا أمنيه له. فقدرنا أن نستمر في مواجهة التحدي نفسه إلى ما لا نهاية. بمعنى آخر، الإرهاب هو التوأم القبيح للديمقراطية. فالخطر نما وترعرع جنبا إلى جنب مع الديمقراطية الحديثة، وهو تجسيد لنقاط الضعف في النظام الديمقراطي. فلو لجأت الحكومات الديمقراطية إلى إجراءات فوق القانون من أجل قمع الحركات الإرهابية، كما بإمكان النظم الأوتوقراطية المستبدة أن تفعل، لعرضت معنى وجوهر الديمقراطية

نفسه للخطر. ومع الاعتراف بضرورة وجود عنصر أمني قوي للحـــل، فإننـــا سنجد أنفسنا مخدوعين إذا اعتبرنا أن ذلك وحده سيقدم لنا حلا متكاملا. فهو لا يزيد عن كونه عامل ضغط ليمكننا من حل المشكلة بطرق أخرى. ويـــذهب الجنرال روبرت سمث Robert Smith، القائد السابق لقوات الأمم المتحـــدة في البوسنة وقائد وحدة عسكرية في أيرلندا الشمالية، إلى القول أن الغرض الأساسي من جراء القوة العسكرية، أي فائدها، هو أن تفسح المال وتهيء الأجواء المناسبة للأسلوب غيز العسكري... "فنحن نتدخل في صراع معـــين لكـــي نؤســـس لظروف يمكن أن تتحقق فيها الأهداف السياسية بوسائل أخـــرى وبأشـــكال أخرى. فنحن نسعى إلى خلق فضـــاءات افتراضـــيه للدبلوماســـية والمحفـــزات الاقتصادية والضغوط السياسية وغير ذلك من الإجراءات".

إنه بإمكاننا، بالطبع، أن نصبح قادرين على مواجهة الأســـباب الحقيقيـــة للإرهاب مبكرا بدلا من تركها تتفاقم. إن تنفيذ تسوية سلمية بين الإســـرائيليين والفلسطينيين لم يأت لغرض منع الهجمات الإرهابية هناك فقط، بل لإزالة مظالم كانت تبرر الإرهاب في أماكن أخرى. والتعامل مع الإسلام بمشاعر الاحتـــرام والمراعاة، حتى لا يشعر الشباب المسلم أهم أهينوا أو انتقص من كرامتهم بانتهاك أراضيهم من قبل الغربيين وانتشار أسلوب الحياة الغربـــي في بلادهم، ربما يمنـــع من انتشار الراديكالية. ولربما حال ذلك دون تفاقم واستفحال الصراعات بسرعة في المستقبل لو أننا تعلمنا من الماضي وتخلينا عن العادة السيئة وهي أن نســـمح لأنفسنا أن نقع باستمرار لعبة في أيدي الإرهابيين من خلال دوائر متصاعدة من الانتقام والعقوبات. وحتى هذه الخطوات لن تكون كافية. إن الفكرة الأساســـية التي يلف حولها هذا الكتاب، بناء على التجربة التاريخية، هي أننا لكـــي نقنـــع هؤلاء الرجال الذين يرفعوا ضدنا السلاح، ويواجهوننـــا بـــالعبوات الناســـفة والأسلحة الكيماوية، أن ينصرفوا عن الإرهاب. فلا بد من الحوار في نهاية الأمر. لقد حاورناهم باستمرار، وسنحاورهم في كل الظروف. الطريقـــة الوحيـــدة للوصول إلى نهاية دائمة للصدام الإرهابـــي هي بالتوصل إلى اتفاق يقبله الطرفان على أنه منصف. إن المدرسة الأكاديمية إلى تقول بأن الانتصارات العسكرية، إذا

نجحت، تستطيع أن تحقق سلاما يعمر لفترات أطول من ذلك الذي يتحقق عن طريق التفاوض، تثير جدالا طويلا ليس من قبل دراسات أكاديمية حديثة فقط، صادرة عن جامعة أوبسالا Uppsala بالسويد، بل من قبل الشعراء والفلاسفة على مدى العصور. فقد كتب ملتون Milton يقول: "من ينتصر بالقوة يكون قد انتصر على نصف عدوه"، وفريدريخ شيللار Friedrich Schiller يعتقد أنه "كم من عدو واقع على الأرض ربما قام من جديد.. ولكن الذي روضته على الوفاق فذلك هو المهزوم حقا". ويقول العالم العسكري البروسي كارل فون كلوسفيتز Carl von Clausewitz: "إن الحصيلة الأخيرة للحرب يجب ألا تعتبر دائما هي الحصيلة النهائية. فالدولة المهزومة ترى النتيجة مجرد شر لا بد منه، وسيزول، وقد يكون علاجه في مواضع ومواقع سياسية في وقت لاحق".

يقضي الأكاديميون جل وقتهم في جدال متواصل حول ما إذا كان من الواجب ألا نتحاور مع الإرهابيين إطلاقا، أم يجب أن نتحاور معهم دائما، وينتهي الغالبية بالوقوف في المنتصف بين الخيارين. يكتب نيومان Neuwmann فيقول: "إن افتراض أن المفاوضات مناسبة في جميع الحالات افتراض ليس أقرب للصواب، كنظرية، من ذلك الذي يقول إن المفاوضات ليست كذلك على الإطلاق". ويقول البروفيسور منوكن Mnookin إن لديه نفورا طبيعيا من القول بشكل قاطع أن نتحاور "دائما" أو لا نتحاور "أبدا". أما يوري Ury وفيشر Fisher، على الطرف الآخر، يميلان بكل وضوح إلى جانب الحوار، فيقولان: "مهما كان الطرف الآخر غير مهضوم لديك، وفي حالة غياب بديل أفضل للتفاوض، أي بمعنى بديل أفضل من لا بديل، فإن المشكل الذي يواجهك ليس هو: هل تفاوض، بل هو: كيف تفاوض". وأنا أجد نفسي في صف يوري وفيشر. فعلينا أن نكون دائما على استعداد للحوار مع الإرهابيين حتى وإن كانوا هم لا يرغبون في الحوار معنا. ويجب أن نعمل طول الوقت على تحويل تلك الاتصالات إلى مفاوضات دون الانتظار حتى تصبح تلك الظروف "ناضجة".. لا لشيء إلا لأن العملية بكاملها تستغرق وقتا أطول مما نتصور، وأننا كلما بدأنا الحوار مبكرا كلما حققنا نهاية الصراع في وقت أقصر.

إن الحوار ليس خيارا سهلا، وغالبا ما يفشل في المرة الأولى. يقول مارتي أهتيساري Martti Ahtisaari عن مفاوضاته حول أتشيه في أندونيسيا، أنه "كان لدينا وقتا للتفكير في المرات السابقة التي فشلت فيها المفاوضات. فالتاريخ له دور وله تأثير، والزمن نفسه مهم لتقييم الخيارات والفرص. وكان هناك قدر من الواقعية الحقيقة حول المسار السياسي". لقد أُسس نجاح اتفاق جمعة الآلام، أو الجمعة الحزينة، في أيرلندا الشمالية، على أنقاض فشل اتفاق سنينغديل Sunningdale عام 1974 وعلى الاتفاق الأنجلو - أيرلندي مع مارغريت تاتشر في 1985 واتفاق جون ميجر المعروف بإعلان داونينغ ستريت Downing Sreet في عام 1993. ووصف شيموس مالون Seamus Mallon، زعيم الحزب الاجتماعي الديمقراطي والعمل Social Democratic and Labour Party-SDLP، الحزب الكاثوليكي المعتدل في أيرلندا الشمالية، اتفاقية جمعة الآلام بأنها "سنينغديل لبطيئي الفهم" لاحتوائها على معظم البنود نفسها مثل المشاركة في السلطة التي جاءت في اتفاق سنينغديل قبل خمس وعشرين سنة.. ولكن ملاحظته الساخرة هذه تنسينا نقطة هامة وهي أن الاتفاقات السلمية الناجحة تبنى بعناية على أنقاض جهود سابقة قد فشلت.

قصة الصراع في بلاد الباسك بإسبانيا، رغم أنه لم يسوىَ بعد، هو مثال آخر لكيف يبني الفشل على فشل سابق حتى الوصول إلى النجاح. في غضون ساعات من دفن الجنرال فرانكو في إسبانيا في نوفمبر عام 1975 كان وفد مبعوث من الملك الجديد، خوان كارلوس Juan Carlos، في طريقه إلى بيرتس Biarritz في جنوب فرنسا في محاولة للاتصال بحركة الباسك التحريرية (إيتا). كان المبعوث هو مارسيلينو أوريخا Marcelino Oreja (وزير خارجية فيما بعد) الذي دخل مكتبة لبيع الكتب في وسط المدينة الفرنسية ليقدم طلبه لصاحب المكتبة. وبعد ساعات التقى بممثل عن (إيتا). لم تسفر تلك المحادثات عن شيء للأسف - كانت لدى (إيتا) شكوك حول طريقة الاتصال وقامت باغتيال عميد مدينة من مدن الباسك الصغيرة في اليوم التالي. وبعد شهور قليلة فُجر صاحب المكتبة الذي شارك في ترتيب اللقاء بين السلطات و(إيتا)، وكان هذا جزاء من

شاركوا في ترتيب مناقشات ولقاءات بين الطرفين على مدى السنوات العشر التالية.

وحسب ما جاء على لسان المؤرخ روبرت كلارك Robert Clark، كانت هناك ما لا يقل عن ثلاثين محاولة توسط للتفاوض مع (إيتا)، كلها فشلت. وكانت هناك ثلاث مبادرات سلمية هامة ما بين 1988 و2005. **الأولى** بدأها فيليب غونثالث Flipe Gonzalez في الجزائر سنة 1987 عندما أعلنت (إيتا) وقفا لأطلاق النار مؤقتا. عرضت الحكومة عفوا عاما مقابل السلام ولكن (إيتا) طالبت بتنازلات سياسية مستحيلة. قطعت الحكومة الاتصال مع (إيتا) بعد أن قامت (إيتا) بتفجير في ساراجوثا Saragoza أسفر عن إحدى عشرة ضحية، منهم خمسة أطفال، ولكنها سرعان ما استأنفت المحادثات لتعود لمقاطعتها من جديد عندما اختطفت (إيتا) رجل أعمال عام 1988. ومع ذلك استأنفت الحكومة المحادثات وعقدت ست جلسات من يناير/كانون الثاني إلى مارس/آذار 1989. تناولت المحدثات مواضيع عدة من تاريخ وثقافة الباسك ولكن الحكومة في رأي (إيتا) كانت تريد "السلام مقابل لا شيء". انتهت المحادثات أخيرا في أبريل/نيسان عندما ادّعت (إيتا) بأن الحكومة طلبت تعديلات غير مقبولة في نص مسودة الاتفاق. ومن هناك ارتمت إسبانيا في أحضان العنف من جديد.

من الجهود الرامية – **ثانيا** – للمفاوضات أيضا التي كانت مستوحاة من اتفاق الجمعة الحزينة في أيرلندا الشمالية، هي أسلوب القوميات العامة بين (إيتا) وحزب الباسك القومي *Partido Nacionalsta Vasco* PNV في مدينة إستيلا ليثارا Estella-Lizarra في إقليم نباريه Navarre في سبتمبر/أيلول 1998. وقد نتج عن ذلك أطول وقف لإطلاق النار قامت به (إيتا) إلى ذلك الوقت. ولكن حزب الباسك القومي لم يكن هو الحكومة القومية و لم يكن قادرا على الإيفاء بالوعود التي طالبت بها (إيتا). هذه العملية توقفت أيضا. والمحاولة **الثالثة** كانت جهود أثنار Aznar في جنيف. عندما استلم حزب الشعب People's Party السلطة في 1996، رفض وزير الداخلية، خايمي ميور أوريخا Jaime Mayor Oreja، عرضا من (إيتا) عن طريق سانت إغيدو Sant'Egidio. وكان رده أن

يخبروا (إيتا) بأن "رسالتهم لم تُسلم"، وقال لسلفه الاشتراكي.. "إن مجرد فكـــرة أن نأخذ قياس درجة حرارة (إيتا) (أي نجس نبضها).. فهذه فكرة لا تـــروق لي إطلاقا". ولكن عندما أعلنت (إيتا) "إعلان وقف إطلاق نار دائم وغير محـــدد"، تعهد أثنار بأنه لن يتجاهل الآمال التي أثارت هذا العمل. وقامت الحكومة بنقل 135 سجينا من الباسك إلى أماكن أقرب للإقليم وسمحت للمنفيين أن يعودوا إلى ارض الوطن. وعندما قُطعت المحادثات بين (إيتا) وحزب الباسك قـــام أثنـــار بالتواصل مع الباتاسونا (الجناح السياسي لحركة الباسك) عن طريـــق أســـقف كاثوليكي وممثلين عن الطرفين التقوا جميعا على أطراف جنيف في مايو/مـــايس 1999. عرضت الحكومة السلام مقابل إطلاق سراح سجناء قائلة: "ليس هدفنا هزيمة (إيتا)". لم يعقد اجتماع آخر ولكن استمر وقف إطـــلاق النـــار حـــتى ديسمبر/كانون الأول. ومنذ ذلك التـــاريخ أصـــبح أثنـــار معارضـــا عنيـــدا للمفاوضات.

عندما التقى أرنالدو أوتيغي Ornaldo Otegi وخيســـوس إيغويغـــورين Jesus Eguiguren بدءا حوارهما بعد سنة، وقررا أن فشل محادثات الجزائـــر جاء نتيجة مطالبة (إيتا) بمفاوضات سياسية مباشرة مع الحكومة، بينما فشلت محادثات إستيلا ليثارا لأن الحكومة لم تكن مشاركة وأن قسما كـــبيرا مـــن مجتمع الباسك قد أقصي. كما ناقشا عملية السلام في أيرلندا الشمالية وقررا تبني فكرتها الأساسية وهي القبول العام التي يرتكز عليها اتفاق الجمعة الحزينة عام 1998. هذه السلسة من الإخفاقات في المفاوضات على مـــدى خمـــس وعشرين سنة كانت بمثابة حجر الأساس الذي بُني عليه النجاح النـــهائي في الوصول بالصراع المسلح إلى نهايته في إعلان آيتّي Aiete في عـــام 2011. في إسبانيا إذا، كما في أيرلندا الشمالية كذلك، مجرد فشل محاولة واحدة لعقـــد مفاوضات، لا يعني أن العملية السلمية ككل مصيرها الإخفاق.

بالطبع كل الصراعات يختلف بعضها عن بعض وتتطلب حلـــولا مختلفـــة، ولكن هناك دلائل ومؤشرات على أن المشاركين في الصراع يمكنهم أن يتعظـــوا من نجاح غيرهم وفشلهم. وقد كانت زيارة أحزاب أيرلندا الشمالية إلى جنوب

أفريقيا فرصة ليستوردوا أفكارا محددة، مثل "الاتفاق الكافي"، مستعارة من عملية بين المؤتمر الوطني الأفريقي والحزب الوطني.. وربما الأهم من ذلك أنها أعطتهم الفرصة للحديث بعضهم مع بعض وبناء الثقة فيما بينهم بطريقة لم تتهيأ لهم في وطنهم. المجموعة التي شاركت في صراع الباسك استوردت أفكارا من أيرلندا الشمالية، كما أسهمت الزيارات المشتركة إلى قامت بها الحكومة الفليبينية والجبهة الإسلامية لتحرير مورو إلى أيرلندا الشمالية في نجاحهم في الوصول إلى اتفاق سلمي.

كما أذكر أنني منذ سنوات قليلة زرت المقر الرئيسي للجبهة الإسلامية في ميندناو، برفقة جيري كيللي Gerry Kelly، قائد سابق في الجيش الجمهوري الأيرلندي. فبينما سيارتنا تتعرّج من الطريق السريع إلى طرقات ضيقة تغطيها الرمال والغبار تقود إلى أعماق الأحراش والغابات، لاحظنا أشخاصا من المقاتلين في بدلات سوداء يقبعون وراء الأشجار. توقفت السيارة في فتحة صغيرة في الغابة وذهبنا إلى كوخ لنجتمع فيه مع أعضاء اللجنة المركزية للجبهة. ولما دخلنا الكوخ أخرج كل واحد من أعضاء اللجنة نسخة من كتابي حول عملية السلام في أيرلندا الشمالية التي حصلوا عليها من المجلس الثقافي البريطاني. هذا المشهد المحرج جعلني أفكر أن بالإمكان أن يتعلم الذين يشاركون في مفاوضات من الذين شاركوا من قبل في عملية سلام ناجحة، عملية واردة تماما... وإن كان يفصلهم عن بعض نصف الكرة الأرضية، ومهما اختلفوا عن بعضهم البعض.

إن أهم الدروس التي استقيها من عملي مع الجماعات المسلحة والحكومات على مدي العقدين الماضيين، ومن عمليات السلام التي تناولها هذا الكتاب، هو أمر لاحظته وسجلته في البداية وهو: لا جود لصراع غير قابل للحل، مهما كان دمويا أو صعبا أو قديما. يقول كبير الأساقفة في جنوب أفريقيا ديزموند توتو Desmond Tutu أن تسوية الصراع في جنوب أفريقيا كانت إشارة للعالم بأن أكثر المسائل تعقيدا لها حل، وهكذا بقية الاتفاقيات السلمية المعروضة هنا. وقد عبر الرئيس كينيدي عن هذا المعنى أبلغ تعبير إذ قال: "ليس هناك ما يدعو لأن

يكون السلام أمرا صعب التنفيذ.. والحرب لأن تكون أمرا حتميا". فحتى عملية السلام في الشرق الأوسط، التي ظلت تتعثر لعقود كثيرة، ستؤول في نهاية المطاف إلى اتفاق دائم. وكونها قد فشلت مرات عديدة في الماضي لا يعني أنها في كل مرة ستفشل، وستبنى التسوية النهائية على الفشل السابق وعلى الدروس التي تؤخذ من ذلك الفشل، كما كان الأمر بالنسب للسلام في أيرلندا الشمالية.

من الظواهر المدهشة حقا هي سرعة الانتقال من حالة يكون حل الصراع فيها "ممتنعا" إلى حالة يوصف فيها بأنه "حتمي الوقوع"، بمجرد الوصول إلى اتفاق. ففي البداية، وحتى الوصول إلى المراحل الأخيرة في العملية، المنطق السائد يقول أن الصراع غير قابل للتسوية، ولكن قبل أن يجف الحبر الذي كتب به الاتفاق يكون الناس على استعداد للوصول إلى نقطة أن تسوية الصراع صارت أمرا لا مفر منه. ويسوق الناس لذلك أسبابا خارج الإرادة البشرية مثل انتهاء الحرب الباردة أو أحداث سبتمبر/أيلول 2001 في نيويورك أو تغير الظروف الاقتصادية. فالمنطق السائد، في الحالتين على خطأ. فكما أنه لا يوجد صراع لا حل له، فهو ليس حتميا أن الصراع سوف يحل في لحظة تاريخية محددة. فالاعتقاد بأن الحل قادم لا مفر منه، هو أكثر خطورة تقريبا من الاعتقاد بأن الصراع غير قابل للحل. فإذا ظل الناس ينتظرون حتى "يُطبخ" أو "يستوي" أو "يجهز" الصراع، أو أن تتولي يد التاريخ السحرية تسويته نيابة عنهم، ففي هذه الحالة فسوف لن يسوى الصراع. فإذا كانت المفاوضات قد لعبت فيها أيدٍ مفسدة، فسوف تفشل لا محالة، ولهذا يصبح لزاما أن نتعظ بتجارب الآخرين. إن صناعة السلام تتطلب القيادة السياسية والصبر وأن يرفض المرء قبول الإجابات السلبية في جميع الأحوال. فحاجتنا اليوم ماسة إلى قيادات سياسية قادرة على اقتحام المخاطر إلى لا مفر منها، ولها القدرة على استذكار ما حصل في الماضي.

الحوار مع تنظيم
"الدولة الإسلامية في بلاد الشام"

لقد انتهيت من إعداد هذا الكتاب في الوقت الذي انبثق فيه تنظيم "الدولة الإسلامية في بلاد الشام" (أو الدولة الإسلامية في العرق والشام – داعش – كما تسمي نفسها) مكتسحا بجرافاته الحدود بين العراق وسوريا. ومنذ ذلك التاريخ انطلق التنظيم الجديد يعزز موقعه في منطقة الهلال الخصيب، وبتأجيج الهجمات في أوروبا. وانتشرت الظاهرة في أفغانستان وليبيا ونيجيريا أيضا. لقد طغى تنظيم داعش على تنظيم القاعدة كالجماعة الجهادية المفضلة الأولى لدى الشباب المسلم، بقلبها للتعهد بتأسيس خلافة إسلامية رأسا على عقب والالتزام بتحقيقه على الأرض الآن وفي عالم اليوم. طبيعي جدا أن هذا تبلور في وضع جديد، يغير كل شيء، ويجعل الحوار مع هذه الصنيعة الجديد غير وارد بأي شكل من الأشكال. ورأيي أنه إذا أخذنا التاريخ دليلنا، فإنه من المحتمل، حتى في هذه الحالة المتناهية جدا في الغلو، أن الطريق سينتهي بنا إلى الحوار معه كذلك.

المجتمع الدولي، بطبيعة الحال، تجاوب مع هذا التهديد الإرهابي بالأسلوب المعهود. فالرئيس الأمريكي باراك أوباما أعلن عن عزمه على الحط من قيمة داعش وتدميرها. وقام الغرب بحشد ائتلاف من القوى الإقليمية لقصف التنظيم. وأحرزت العملية العسكرية بعض النتائج، خاصة في مساعدة المقاتلين الأكراد لتحرير مدينة عين العرب (قباني) وريفها في سوريا. كما تمكنت الميليشيات الشيعية أن تحرر مدينة تكريت مسقط رأس الرئيس العراقي السابق صدام حسين.

ولكن القصف وحده لن يدمر داعش. ولكي نتمكن من الحصول على مجرد احتمال ذلك، نحتاج إلى انزال قوات برية على الأرض. ولكنني لم أجد أدنى

رغبة لدى دول الغرب لتوفير تلك القوات البرية. كما أن الاعتماد على قوات البشمركة الكردية، وعلى الميليشيات الشيعية الموجودة في جنوب العراق، لن يحل المشكلة. فالأكراد على استعداد أن يقاتلوا إلى أقصى حدود الأراضي الكردية، وليس أبعد من ذلك. وحدود ما يمكن أن تحققه القوى الشيعية، في إطار استعادة المواقع السنية في العراق، اتضح من خلال الدمار الطائفي الذي نتج عن تحرير تكريت، والتقدم المستمر لقوات داعش في مناطق أخرى في البلاد. وحتى لو استولت المليشيات الكردية والشيعية على كل المناطق السنية في العراق، فمن ذا الذي سيهزم داعش على الأرض في سوريا؟ فلم يدلل الجيش السوري الحر، التي تدربه الولايات المتحدة وتركيا، حتى الأن على قدرة قتالية من النوع المطلوب. فالقوات المعادية للأسد التي تحقق انتصارات هناك حاليا هي جبهة النصرة، الموالية للقاعدة، وداعش نفسها.

فإن لم نكن قادرين على إضعاف داعش أو القضاء عليها عسكريا، فما هي إذاً استراتيجيتنا البعيدة المدي للتعامل معها؟ يصاب الناس بالفزع حاليا لمجرد التطرق لفكرة الدخول في حوار مع داعش. وهذا رد فعل طبيعي جدا، إذا ما أخذنا في الاعتبار الجرائم البشعة التي يرتكبها أتباع قائد التنظيم، أبوبكر البغدادي. فنحن نعتبرهم وأعمالهم خارج حدود المعقول. ويقول أصحاب الرأي وصناع القرار أن داعش تختلف اختلافا تاما عن الجماعات الإرهابية التي سبقتها، في الوقت الذي كان الحوار مع الجيش الجمهوري الأيرلندي ومنظمة التحرير الفلسطينية معقولا ولا غبار عليه، وأنه لا يوجد مبرر أو مسوغ للحديث مع هؤلاء القتلة المجرمين. فهؤلاء لا يحكّمون عقولهم، وهدفهم الترويع لمجرد الترويع لا غير، وهم يسعون إلى تغييرات جذرية... على عكس الجماعات التقليدية الأخرى التي تعمل ضمن حدود قومية معينة والتي واجهناها في الماضي.

لقد قلنا، بطبيعة الحال، الكلام نفسه في كل مرة واجهتنا جماعات إرهابية جديدة - كما وضحنا في هذا الكتاب - ومع ذلك انتهى بنا الأمر إلى الحديث مع تلك الجماعات. وإذا نظرنا إلى الموضوع في عز النهار، ووضعنا الردود الانفعالية المفهومة جانبا، فإن تلك الحجج التي تساق ضد الحوار لا تستقيم

وتنهار أمام التفحّص والتدقيق الرصين. فزعماء داعش منطقيون تماماً. فهم يعملون لتأسيس دولة تساس حسب مبادئهم. ولقد حققوا شيئا من النجاح في سبيل ذلك. وهم ليسوا عدميين هدفهم الإرهاب لمجرد الإرهاب ذاته، ولكنهم يستعملون وحشية فائقة بكل شراسة لأجل هدف واحد، ألا وهو إفزاع خصومهم فينصرفوا عن قتالهم بدلا من المقاومة أو الرد عند الهجوم عليهم. إنهم يحسبون، وبكل عناية، وقع ما يقومون به، ويدركون أن إعدام مواطن غربي واحد بطريقة بشعة قاسية، أمام عدسات التلفزيون، سيحقق لهم تغطية أوسع بكثير من قتل ثلاثمائة جندي سوري أو ثلاثمائة كردي. أما كونهم جذريين، فهم يسعون إلى تأسيس دولة كانت جسرا بين حدود مصطنعة في السابق.

وبناء على تجاربنا السابقة مع جماعات من هذا القبيل، فإن الاختبار الرئيسي الذي أخذنا به عما إذا كنا في حاجة للانخراط في حوار مع أي جماعة هو مدى ما تتمتع به من دعم سياسي. فإن لم تكن كذلك، فلربما يكون بإمكاننا إجبارهم على الخروج جبرا أو الصبر عليهم حتى يخرجوا، كما فعلنا مع فرقة الألوية الحمراء Brigate Rosse (تأسست عام 1970 في إيطاليا) وجماعة بادر – ماينهوف Baader-Meinhof (ظهرت عام 1970 في ألمانيا). ولكن الدلائل تشير إلى أن داعش تتمتع بدعم سياسي. فلم يكن من الممكن لألف من مقاتلي داعش أن يدخلوا مدينة الموصل ويحتلوها إذا لم يكن سكانها يخافونهم أقل ممن يخافون القوات الطائفية التابعة لدولة تسيطر عليها الشيعة والتي كانت ترتكب أعمالا غاية في البغض داخل تلك المدينة قبل ذلك. وما تؤكده تجاربنا السابقة هو أنه في الظروف التي توجد فيها قضايا سياسية، فإنها تحتاج في نهاية الأمر إلى حلول سياسية.

هذه ليست حجة للجلوس مع السيد البغدادي الآن والدخول في مفاوضات، حتى وإن كان هو مستعدا للجلوس معنا. وكما يوضح هذا الكتاب، فلربما كانت الفرصة مهيأة للحوار، إلا أن هذا لا يعني أن الوقف مناسب للدخول في مفاوضات ناجحة. فالتجارب السابقة، من أيرلندا الشمالية إلى كولومبيا إلى جنوب أفريقيا، تشير إلى أن الآن هو وقت فتح قنوات سرية مع

داعش، أو ما يوصف بـ "القصبة الخيزرانية" التي يمكن من خلالها الاتصال بالتنظيم. وهذه خطوة صعبة وخطرة في الوقت نفسه، ولكنها ضرورية التنفيذ إذا كان في نيتنا تهيئة آفاق للتفاوض. فوجود قناة للاتصال هي التي تسمح بعملية متنورة واعية أن تبدأ حيث نستطيع أن نوضح لزعماء التنظيم الصورة التي يراهم من خلالها العالم الخارجي، وما هو الممكن تحقيقه من أهدافهم وما هو غير ذلك. ونحن كذلك نحتاج أن نفهم أكثر ما هي الشكاوى والمظالم التي تغذي تحركهم، وما هو المقبول من طرفهم في إطار تسوية سلمية للصراع. عملية التوعية وبناء الثقة هذه تستغرق حيزا طويلا من الزمن. ففي أيرلندا الشمالية أسسنا القناة السرية مع الجيش الجمهوري في عام 1972، ولكننا لم نبدأ الانخراط معه في مفاوضات جادة حتى عام 1993، ولم نتوصل إلى اتفاق حتى عام 1998. وبدون وجود هذه القناة يصبح الشروع في أي مفاوضات أمرا صعبا، إن لم يكن مستحيلا. فالجماعة المسلحة في حاجة لمعرفة عما إذا كانت هناك منظورية سياسية إذا ما توقف القتال. والحكومة تحتاج إلى أن تتيقن من أن الجماعة مستعدة للإقلاع عن العنف لكي تبدأ المحادثات.

ويتساءل البعض عمّ نتحاور مع داعش؟ هل سنقبل بدولة خلافة عالمية؟ والجواب هو نفس الجواب في الحالات الأخرى المذكورة في هذا الكتاب. فالحوار مع الإرهابيين ليس هو كالاتفاق معهم. فالحكومة البريطانية لم تكن لترضى بالموافقة على "أيرلندا موحدة" تحت تهديد السلاح، أو ضد إرادة الأغلبية من سكان تلك المنطقة. ولكننا عندما جلسنا للحوار مع شين فين وجدنا أن لديهم قضايا شرعية أخرى بدلا من تلك يرغبون النقاش فيها. من هذه القضايا المشاركة في السلطة، وحماية حقوق الإنسان، واستخدام اللغة الأيرلندية، ومسألة الهوية، وهلم جرا.

والأمر كذلك بالنسبة لداعش. فنحن لن نتفاوض على خلافة عالمية، لا يمكن أن نقبلها. ولكن السنة من أهالي العراق وسوريا لديهم مطالب ومظالم شرعية حول الطريقة التي عاملتهم بها الأنظمة الطائفية في بغداد ودمشق. وما لم نواجه هذه المسألة، ونقدم لهذه الشعوب ضمانات حقيقية فيما يخص معاملتهم

في المستقبل وإشراكهم في السلطة... فسيظل السلام في بلاد الهلال الخصيب احتمالا ضعيفا.

إن حقيقة أن كثيرا من رجالات أبي بكر البغدادي وأعوانه هم من البعثيين الأوائل وضباط سابقين في الجيش العراقي لدليل على دوافعهم الأساسية... فالمسألة ليست مسألة تأسيس دولة الخلافة.

السؤال الذي يلح على طرح نفسه بالطبع هو: من هو المخول بالحوار مع داعش. فالمرشح في الدرجة الأولى هو الولايات المتحدة الأمريكية، كزعيمة للتحالف الدولي، للحديث مع داعش كما كانت الولايات المتحدة هي أول من فتح قنوات الحوار مع طالبان في أفغانستان. ولكن سياق سير المفاوضات يجب أن يتسع لسلطات أخرى شرعية في كل من دمشق وبغداد حول مستقبل البلدين، كما حصل في أفغانستان حيث كان لزاما أن تجري المفاوضات مع الحكومة وأطراف أخرى هناك. ففي سوريا يجب إشراك الأكراد والعلويين والمسيحيين والدروز ومنحهم مقاعد حول مائدة المفاوضات، بالإضافة للسنة، عند النظر في موضوع دستور مستقبل للبلاد.

ربما أكون على خطأ، بطبيعة الحال. فلربما تتبخر داعش في السماء بنفس السرعة التي ظهرت بها علينا فجأة من الأرض، بسبب ضغوط لنظامين قويين في كل من سوريا والعراق بدعم من التآلف الدولي. ولكن الصراعات وعمليات السلام التي تعرضنا إليها في هذا الكتاب لا تقدم الكثير من الأمثلة، أو في الحقيقة أي أمثلة، من هذا النوع في الماضي. فإن نحن سارعنا لفتح قنوات اتصال الآن، فإن ذلك لن يؤثر في التأخير بأي هزيمة عسكرية تمنى بها داعش إذا كان ذلك حاصلا على كل الأحوال. أما إذا كنت على صواب، ولم تكن داعش لتدمر عسكريا، فسيسمح لنا ذلك بأن نبدأ في المفاوضات في وقت مبكر، وأن ننقذ أرواحا كثيرة كانت من الممكن أن تذهب سدا.

إن الحكومات تحتاج إلى استراتيجيات عسكرية للتعامل مع جماعات مثل داعش... ويكون من انعدام المسؤولية ألا تتخذ هذا الإجراء. ولكنها، على المستوي نفسه، فهي تحتاج إلى أن تكون صادقة وصريحة مع أنفسها ومع

شعوبها، فتعد استراتيجية سياسية تمشي جنبا إلى جنب مع الخطة العسكرية استعداد للوقت الذي نواجه فيه جماعات أكثر شذوذا وهمجية. فالحالات التي استعرضناها في هذا الكتاب تؤكد أننا كثيرا ما نبدأ بالقول أننا لن نحاور الإرهابيين والجماعات المسلحة، ومع ذلك فإننا نرضخ للحوار في كل الحالات تقريبا.

شكر وتقدير

عندما سمع ويل سالكن Will Sulkin، من دار النشر بودلي هيد Bodley Head، بسلسة برامج إذاعية كنت أقدمها على راديو البي بي سي رقم 4، BBC Radio4، في عام 2011، وهي عبارة عن مقابلات مع عدد من الشخصيات عن تجاربهم كوسطاء في عملية صناعة السلام، اقترح عليّ هذا الكتاب... فإذا بي أقفز على الفكرة قفزا. لقد شعرت بأنها ستعطيني فرصة لأستكشف ما إذا كانت الدروس التي استخلصناها من تجربتنا في أيرلندا الشمالية تنطبق على مفاوضات سابقة مع الإرهابيين. فانطلقت في المشروع، بإجراء مقابلات مع رؤساء دول سابقين وزعماء جماعات مسلحة، ومسؤولين في المخابرات وعسكريين ووسطاء شاركوا في تسوية صراعات، وفي عمليات السلام التي جاءت بعد ذلك. ولأسباب لا تخفى على أحد، فإن كثيرا منهم لا يرغبون في الكشف عن هويتهم، ولكنني أود أن أشكر أولئك الذين بإمكاني ذكر أسمائهم ومنهم الرئيس ديكليرك ورولف ماير من جنوب أفريقيا، وألفيرو دو سوتو، وفرانسيسك فيندريل وخوكوين بجلوبوس من السلفادور، وإيير هيرشفيلد، الأب الروحي لعملية أوسلو من الشرق الأوسط، ورام مانيكالينجام، وإيريك سولهايم وفيدار هلجيسن، الوسيطان النرويجيان في سريلانكا.

وأود، بشكل خاص، أن أشكر زملائي السابقين في مركز هنري دونانت، وعلى رأسهم مؤسسه مارتن غريفيثس ونائبه أندرو مارشال، وجايمز لوميون، الوسيط الذي لا يمل ولا يكل، بالإضافة إلى مايكل فاتيكيوتيس ودافيد غورمان العاملين في مكتب آسيا. ولا زلت أذكر عندما ظهر مارتن وزميلاه في مكتبي بداونينغ ستريت عام 2006 يطلبان مساعدتي في مفاوضات معينة وصلت إلى طريق مسدود. وأصبحنا جميعا أصدقاء حميمين وقد أسهموا في مساعدتي في

إعداد هذا الكتاب بشكل كبير. ولقد تعلمت كثيرا مما أعرفه عن التفاوض والمفاوضات مع الإرهابيين من هؤلاء.

مارتن هو الشخص الذي دفع بي إلى أن أتبنى هذا النوع من العمل لكي يصبح حرفتي الأساسية، وهو الرجل الذي أقنعني بأن الحديث مع الإرهابيين هو دائما الخط الصحيح. فعندما أنهيت وظيفي في الحكومة كنت مقتنعا في نفسي أن الحوار هو الأمر الصحيح والصواب في بعض الأحيان، ولكن مارتن أكد لي أنه يجب ألا يُترك الصراع يلتهب، والمعاناة الإنسانية تتضاعف، بل يجب علينا في كل الأحوال أن نبذل قصارى جهدنا للتقريب بين الطرفين والجمع بينهما للحوار وإن لم يهدأ القتال.

إن ما قمت به من استقصاء وأبحاث ودراسة أثناء إعدادي لهذا الكتاب أعطاني الفرصة للاطلاع بشكل واسع على مفاوضات سابقة مع الجماعات الإرهابية والمسلحة. والكثير من القصص والمواقف والأحداث التي أرويها وأستشهد بها في هذا الكتاب هي في الحقيقة مستقاة من مذكرات لأشخاص عاشوا تلك المواقف وصنعوا تلك القصص وشاركوا في تلك الأحداث التي كونت الصراع والمفاوضات وعمليات السلام التي انبثقت منها. يضاف إلى ذلك تقارير الصحفيين والخبراء والمؤرخين. ونظرا إلى أن الكتاب لا يمكن اعتباره بحال كتابا أكاديميا، فيأتي بلا هوامش ولا حواش، فإنني أرجو أن تكون قائمة المراجع، أي الببليوغرافيا، المدرجة في آخر الكتاب كافية لتوضيح المصادر المختلفة لتلك المادة المشار إليها. وتتضمن الببليوغرافيا الأعمال والأبحاث حول نظرية التفاوض والدراسات الأكاديمية حول ظاهرة الإرهاب، التي اعتمدت عليها. فلم يكن هدفي في هذا البحث تقديم دراسة شاملة للصراعات والنزعات وعمليات السلام التي تناولتها أو أشرت إليها في هذا الكتاب. ولكنني حرصت على أن أستقي منها الدروس والعضات، ومن العجيب في الأمر إلى أي مدى تطفح هذه القضايا كلها وتتكرر هذه النماذج في جميع هذه الحالات.

لقد راجع الأشخاص الذين كانوا مشاركين في الأحداث الأجزاء المتعلقة بالصراعات التي شاركوا فيها، ولكنني على يقين بوجود أخطاء وتجاوزات. كما

أنني أعي جيدا مدى الفزع الذي يصيبني، كلما قرأت كتابا عـــن مفاوضـــات أيرلندا الشمالية، بسبب الأخطاء التي يرتكبها آخرون عند الحديث عما جـــرى هناك. وإني على يقين أن الأمر ينسحب على المشاركين في التجارب إلى تناولتها في هذا الكتاب. ولا أعتقد أن هذه الأخطاء سوف تزعزع من ثقي في الدروس العامة التي أستقيتها من الأحداث، ولكنني أود أن أعتذر عنها من القارئ الكريم مسبقا. وإنني لأهيب بالقراء الكرام أن يوافونني بما لـــديهم مـــن تصـــويبات وتصحيحات عن طريق الناشر، لأتمكن من مراجعتها في الكتاب وإخـــراج مـــا يمكن اعتباره دليلا مفيدا للمفاوضين في المستقبل.

وأنا مدين بخالص الشكر لماثيو رايت Matthew Wright التي تولي نيابة عني مهمة البحث لهذا الكتاب. فهو صاحب الفضل الأكبر لاطلاعه الواسع حـــول الموضوع ولمقترحاته النافذة. والشكر موصول إلى مساعدتي الخاصة، لورنا ماكيغ Lorna McCaig، التي تصارعت مع خطي الرديء لتقدم مسودة تلو الأخـــرى، وإلى جميع زملائي في مؤسسة أنتر ميديت Inter Mediate الذين غذوا جهـــودي بالمعلومات والدعم المتواصل. كما أود أن أشكر أولئك الأصدقاء الذين تفضلوا بقراءة الكتاب وأدلوا بملاحظاتهم قبل أن يدفع به إلى المطبعة. ومن هؤلاء أذكـــر بيل أوراي ودادلي أنكرسون وتشيستر كروكر وتيريزا ويتفيلد وإليزا مانينغهـــام بوللر، وغيرهم ممن لا أستطيع أن أذكرهم بالاسم. كمـــا تفضـــل المؤرخـــان البارزان، رونان فانينج وبول بيو، بمساعدتي في الجزء الخاص بالمفاوضـــات مـــع الجيش الجمهوري الأيرلندي (آي آر أيه) في الفترة 1919 –1921.

لم يكن لهذا الكتاب أن يري النور لولا إصرار الناشر، ستيورت ويليـــامز، خليفة ويل سالكن بدار النشر بودلي هيد، ومتابعته، وما كان له أن يخرج بهـــذه الصورة بدون نصائحه القيمة والثاقبة. أما وكيلتي ناتاشا فيرويذر الـــتي كانـــت تشجعني على طول الطريق وتحثني على مواصلة العمل لإكمال الكتاب. وأمـــا الفضل في جودة هذا الكتاب، شكلا وأسلوبا، فيعود إلى ألمعية المراجع المعقـــب دافيد ميلنر، الذي كان له فظل على في إخراج كتابـــي السابق. لهؤلاء جميعـــا خالص الشكر والعرفان.

وأخيرا، فإن عملي كوسيط في الصراعات والمنازعات يحتم عليّ السفر من أقصى الكرة الأرضية إلى أقصاها، كل أسبوع تقريبا، ولذا فإني مدين بشكل لا يوصف لزوجتي ساره Sarah وطفلتي جيسيكا Jessica وروزامند Rosamund لوقوفهن إلى جانبي على طول الخط، ودعمهن لي وصبرهن على غيابي المتواصل من أجل ما أرجو أنهن يعتبرنه هدفا نبيلا.

جوناثن باول

لندن في 1 يونيو/حزيران 2014

تعريف بالكتاب

الكتاب: *Talking to Terrorists: How to end Armed Conflict*

الحوار مع الجماعات المسلحة

السبيل إلى إنهاء الصراعات المسلحة في العالم

المؤلف: جوناثان باول Jonathan Powell

كبير المفاوضين مع الجيش الجمهوري الأيرلندي (آي آر أيه IRA) في حكومة حزب العمال البريطانية برئاسة توني بلير

الكتاب

يتناول الكتاب ظاهرة الإرهاب والجماعات المسلحة في العالم منذ بدايات القرن السابق، ويتطرق إلى كيفية التعامل معهم: بالمواجهة المسلحة أم بالتحدث إليهم والتحاور أم بالتفاوض معهم... أم بها جميعا.

يتعرض الكتاب في أحد عشر فصلا إلى أهم وأشد وأعتى الجماعات الإرهابية المسلحة التي عرفها العالم في القرن العشرين، متتبعا نشأتها والأهداف التي قامت من أجلها، والوسائل التي تستخدمها، ومدى الدعم الشعبي أو السياسي الذي تتمتع به بين شعوبها وفي أراضيها.

ويتناول الكتاب جغرافية الإرهاب من الفليبين وأتشيه في جنوب شرق آسيا إلى سيرانيكا في شبه الجزيرة الهندية إلى التجربة الفلسطينية في العالم العربي إلى تجربة مانديلا في جنوب أفريقيا إلى الجيش الجمهوري الأيرلندي في المملكة المتحدة إلى منظمة الباسك (إيتا) الإسبانية إلى المنظمات الإرهابية في أمريكا اللاتينية... مع التركيز دائما على أوجه الشبه والاختلاف بين هذه الجماعات وأساليبها، واستخلاص العبر والدروس منها.

ويؤكد الكاتب أن الحكومات في الأغلب لا تتعلم ولا تتعظ بتجارب الآخرين. وتعمد إلى اتباع نفس الأساليب وارتكاب نفس الأخطاء إلى ارتكبتها دول وحكومات سبقتها. ويقول أنه من واجب الحكومات أن تستفيد من تجارب من سبقها، وتؤسس على ما حققه الآخرون.. وإلا فلا أمل في إنهاء الصراعات المسلحة في العالم.

ويقول المؤلف أنه ليس رجل نظريات وليس أكاديميا وإنما هو رجل عملي. وبرغم وجود كتب عديدة حول نظرية التفاوض، بل ونظريات التعامل مع الإرهابيين، إلا أن هناك القليل جدا حول الممارسة العملية للتفاوض المباشر مع الإرهابيين. وقد أعد هذا الكتاب خصيصا لملء هذا الفراغ.

ويعتمد المؤلف على خبرته الخاصة والفريدة في العمل في هذا المجال. فقد كان رئيس المفاوضين البريطانيين في أيرلندا الشمالية من 1997 إلى 2007، وتعامل تعاملا مباشرا مع أعلى قيادات الجيش الجمهوري الأيرلندي (IRA) من داخلها لأجل التوصل إلى حل سلمي في أيرلندا الشمالية بعد صراع دام نحو ثمانين عاما.

يأتي هذا الكتاب حاملا تجارب شخصيات رسمية وحكومية، وقادة وزعماء جماعات مسلحة، ووسطاء، شاركوا فعلا في محادثات تهدف إلى إنهاء حالات الصراع المسلح حول العالم منذ السبعينيات.

من خلال دراسة تجارب الآخرين، والممارسة العملية، والمساهمة المباشرة في حل الأزمات... يستخلص الكاتب ما يمكن أن يستفيد منه المفاوضون اليوم في التعامل مع حركات مثل طالبان وحماس وتنظيم القاعدة... ولو كان المطلوب هو الحوار والقتال في آن واحد.

موضوع الكتاب حي وحيوي وحديث ومجاله واسع. يجوب كل أنحاء العالم ليعرض الأساليب المختلفة للتفاوض والمداولات بين الحكومات والجماعات المسلحة على اختلاف ثقافاتها وأديانها وتركيبتها العرقية والاجتماعية.

إلى ذلك فالكتاب غني بالمراجع والدراسات والقصص الدرامية الميدانية المباشرة التي يرويها المؤلف على السنة شخصياتها وزعمائها وهم أحياء يرزقون.

وقد كان للكتاب صدى واسع في الدوائر السياسية والدبلوماسية والفكرية في الغرب، وترجم إلى عدة لغات أجنبية منذ صدوره بالإنجليزية في أكتوبر 2014.

إن ترجمة هذا الكتاب إلى العربية في هذا الوقت بالذات تكسب الكتاب أهمية خاصة. إذ يأت في وقت تغص المنطقة العربية بالجماعات والأفكار المسلحة التدميرية والميليشيات والمؤامرات والأعمال الإرهابية والعناصر المتمردة والخارجة على المجتمع وتقاليديه ودينه السمح، والتقاتل بمختلف أشكاله وأنواعه... بما يهدد سلامة المنطقة وأمنها واستقرارها ونسيجها الديني والاجتماعي والثقافي، ويستهدف شبابها وهم في زهرة أعمارهم فيستغلهم في القتل والتدمير والعنف الجنوني... ويعرقل لحاقها بالدول المحضرة وتقدمها وتطورها وانطلاقها نحو مستقبل واعد مشرق.

فالمعادلة الناجحة الوحيدة في التعامل مع الجماعات المسلحة والفرق الخارجة على المجتمع والدين والعرف هي الجمع بين الضغط العسكري مع عرض مخرج سياسي من خلال الحوار بما يمكن أن يؤدي، مع مرور الوقت، إلى نهاية الصراع المسلح.

يقول المؤلف: "لقد أقنعتني تجربتي في أيرلندا الشمالية، التي أوحت بهذا الكتاب، أنه لا يوجد صراع غير قابل للحل، مهما كان دمويا أو قديما أو صعبا. فبالصبر والمثابرة، وبالقيادة السياسية الحكيمة قبل كل شيء، يمكن تجاوز كل الصراعات حتى وإن تكرر فشل محاولات سابقة لإحلال السلام".

المؤلف

هو جوناثان باول شخصية سياسية مرموقة في بريطانيا. دخل السلك الدبلوماسي منذ أواخر السبعينيات وشارك في العديد من المفاوضات. عمل رئيسا لمكتب رئيس مجلس الوزراء توني بلير، وكبير المفاوضين للحكومة البريطانية في أيرلندا الشمالية من 1997 وحتى 2007. وكان من أوائل من نادى بالحوار مع حركات مثل حماس وطالبان والجيش الجمهوري الأيرلندي وغيرهم من الحركات المسلحة في العالم الإسلامي لإنهاء الصراعات المسلحة.

عين في فبراير/شباط سنة 2014 مبعوثا خاصا لرئيس الـوزراء البريطـاني، دافيد كاميرون، إلى ليبيا للمساهمة في بناء استقرار ليبيا.

الترجمة

ترجم الكتاب عن الإنجليزية عاشور الشامس المقيم في بريطانيا حيث تلقى تعليميه الجامعي. اشتغل بالترجمة منـذ السـبعينيات مـع مؤسسـات منـها الـ (بـي بـي سي BBC) و(أم بـي سي MBC) وغيرهما، وترجم عددا من الكتب من وإلى العربية.

أهم أعمال الترجمة التي قام بها من والى العربية ما يلي:

نحو تفسير موضوعي لآيات القرآن الكـريم، الشـيخ محمـد الغـزالي، عربي/إنجليزي.

في ظلال القرآن (عدة أجزاء بالتعاون مع مترجم آخـر)، سـيد قطـب، عربي/إنجليزي.

رحلتي الطويلة من أجل الحرية، نلسون مانديلا، إنجليزي/عربـي.

الحصاد: حرب أمريكا الطويلة في الشرق الأوسـط، جـون كـوولي، إنجليزي/عربـي.

حسن الترابـي: الرأي والاجتهاد في الفكر السياسي، محمـد الحامـدي، عربي/إنجليزي.

عاشور الشامس

لندن في 25 يوليو/تموز 2015

Bibliography

قائمة المراجع

Sources مراجع

1. Terrorism الإرهاب

Alonso, Rogelio, 'Leaving Terrorism Behind in the Northern Ireland and Basque Country: Reassessing Anti-terrorist Policies and "Peace Processes", in Tore Bjørgo and John Horgan (eds), *Leaving Terrorism Behind: Individual and Collective Disengagement* (Routledge, Abingdon, 2008)

Anderson, Jon Lee, *Guerrillas: Journeys in the Insurgent WOrld* (Penguin, London, oo originally published 1992)

Bew, John, Martyn Frampton and Inigo Gurruchaga, *Talking to Terrorists: Making Peace in Northern Ireland and the Basque Country* (Hurst, London, 2009)

Bjørgo, Tore and John Horgan (eds), *Leaving Terrorism Behind: Individual and Collective Disengagement* (Routledge, Oxford, 2009)

Burke, Jason, *The 9111 Wars* (Allen Lane, London, 2009)

Burleigh, Michael, *Blood & Rage: A Cultural History of Terrorism* (HarperCollins, London, 2009)

Carr, Matthew, *The Infernal Machine: An Alternative History of Terrorism* (Hurst, London, 2011)

Crenshaw, Martha, *Explaining Terrorism: Causes, Processes and Consequences* (Routledge, Abingdon, zoii)

Cronin, Audrey Kurth, *How Terrorism Ends: Understanding the Decline and Demise of Terrorist Campaigns* (Princeton University Press, Princeton, 2009)

Dershowitz,Alan, *Why Terrorism Works: Understanding the Threat, Responding to the Challenge* (Yale University Press, New Haven, 2002)

Freedman, Lawrence (ed.), *Superterrorism: Policy Responses* (Blackwell Publishing, Oxford, 2002)

Gray, John, *Black Mass: Apocalyptic Religion and the Death of Utopia* (Penguin, London, 2007)

Hoffman, Bruce, *Inside Terrorism* (Columbia University Press, New York, 2006)

Horgan, John, *Walking Away from Terrorism: Accounts of Disengagement from Radical and Extremist Movements* (Routledge, Oxford, 2009)

Ignatieff, Michael, *The Lesser Evil: Political Ethics in an Age of Terror* (Princeton University Press, Princeton, 2004)

Jones, Seth G. and Martin C. Libicki, *How Terrorist Groups End: Lessons for Countering al Qa'ida* (RAND Corporation, Santa Monica, 2008)

Kilcullen, David, *Counterinsurgency* (Hurst, London, zoio)

Law, Randall, *Terrorism: A History* (Polity Press, Cambridge, 2009)

Reese, Phil, *Dining with Terrorists: Meetings with the World's Most Wanted Militants* (Pan Macmillan, London, 2005)

Richardson, Louise, *What Terrorists Want: Understanding the Enemy, Containing the Threat* (Random House, London, 2006)

Taylor, Peter, *Talking to Terrorists: A Personal Journey from the IRA to Al Qaeda* (HarperPress, London, 2011)

Wilkinson, Paul, *Terrorism versus Democracy: The Liberal State Response* (Routledge, Abingdon, 2001)

Articles مقالات

Abrahms, Max (2006), 'why Terrorism Does Not Work', *International Security,* Vol. 31, No. I, pp. 42—78

Abrahms, Max (zoiz), 'The Political Effectiveness of Terrorism Revisited', *Comparative Political Studies,* Vol. 45, No. 3, pp. *366—93*

Cronin, Audrey Kurth (zoo6), 'How al-Qaida Ends: The Decline and Demise of Terrorist Groups', *International Security,* Vol. I, No I, pp. 7—48

Hoffman, Bruce (2013), 'Al Qaeda's Uncertain Future', *Studies in Conflict & Terrorism,* Vol. 36, No. 8, pp. *635—53*

Jones, David Martin and M. L. R. Smith (2009), 'We're All Terrorists Now: Critical — or Hypocritical — Studies "on" Terrorism?', *Studies in Conflict and Terrorism,* Vol. 32, No. 4, pp. 292—302 Kalyvas, Stathis N. (2003), ' The Paradox of Terrorism in Civil War', *Journal of Ethics,* Vol. 8,No. I, pp. 97—138

Lia, Brynjar (2008),.'Al-Qaida's Appeal:. Understanding its Unique Selling Points', *Perspectives on Terrorism,* Vol. 2, No. 8

Stevenson, Jonathan (.2001), 'Pragmatic Counter-Terrorism', *Survival,* Vol. *43,* No. 4, pp. 3 *5—48*

News تقارير إخبارية

'The Unquenchable Fire', *The Economist,* z8 September 2013

Other مصادر متفرقة

Canadian Security Intelligence Service, *The Future of Al Qaeda: Results of a Foresight Project* (2013)

'Director General's Speech at RUST, 2013', www.mi.gov.uk, 8 October 2013

Homeland Security Advisory Council (2007), *Report of the Future of Terrorism Task Force,* http://www.dhs.gov/xlibrary/assets/hsac-futureterrorism-olo i o.pdf

'Remarks by the President at the National Defense University', www.whitehouse.gov, 2.3 May 2.013

2. Conflict resolution فض النزاعات

Butler, Michaelj., *International Conflict Management* (Routledge, Abingdon, 2009)

Dudouet, Veronique, Hans Giessmann and Katrin Planta,. *Post-war Security Transitions: Participatory Peacebuilding after Asymmetric Conflicts* (Routledge, Abingdon, zoiz)

Hampson, Fen Osler, *Nurturing Peace: Why Peace Settlements Succeed or Fail* (United States Institute of Peace, Washington DC, 2005)

Hoibrooke, Richard, *To End a War* (Modem Library, New York, 1999)

Martin, Harriet, *Kings of Peace, Pawns of War: The Untold* Story of *Peacemaking* (Continuum, London, zoo6)

Ramsbotham, Oliver, *Transforming Violent Conflict: Radical Disagreement, - Dialgoue and Survival* (Routledge, Abingdon, 20,0)

Ramsbotham, Oliver, Tom Woodhouse and Hugh Miall, *Contemporary Conflict Resolution* (Polity Press, Cambridge, 20,,)

Van Engeland, Anisseh and Rachael M. Rudolph, *From Terrorism to Politics* (Ashgate Publishing, Aldershot, 2008)

Zartman, I. William and Guy Olivier Faure, *Engaging Extremists: Trade-offs, Timing, and Diplomacy* (United States Institute of Peace, Washington DC, 2011)

Articles مقالات

Conciliation Resources, *Choosing to Engage: Armed Groups and Peace Processes,* Accord i6 (Conciliation Resources, London, 2005)

Conciliation Resources, *Powers of Persuasion: Incentives, Sanctions and Conditionality in Peacemaking,* Accord 19 (Conciliation Resources,. London, 2008)

Griffiths, Martin, *The Prisoner of Peace: An Interview with Kofi A. Annan* (Centre for Humanitarian Dialogue, Geneva, 2008)

Haspeslagh, Sophie (2013), "Listing terrorists": The Impact of Proscription on Third-Party Efforts to Engage Armed Groups in Peace Processes — a Practitioner's Perspective', *Critical Studies on Terrorism,* Vol. 6, No. i, pp. 189—208

Haysom, Nicholas 'Fink', *Reflecting on the IGAD Peace Process,* Accord i8 (Conciliation Resources, London, 2008)

Khattak, Daud (2012), 'Reviewing Pakistan's Peace Deals with the Taliban',j CTC *Sentinel,. Vol.* 5, No. 9, pp. 11—13

Kristol, Irving, 'Conflicts That Can't Be Resolved', *AEI Online, 5* 1997, http://www.aei.org/issue/foreign-and-defense-policy/regicmiddle-east-and-north-africa/conflicts-that-cant-be-resolved-issue/ Luttwak, Edward N. (i), 'Give War a Chance', *Foreign Affairs,* Vol. No. 4, pp. 3 6—44

Stedman, Stephen John (1997), 'Spoiler Problems in Peace Processes', *International Security,* Vol. 22, No. z, pp. *5—53*

Wither, James K. (2009), 'Selective Engagement with Islamist Terrorists: Exploring the Prospects', *Studies in Conflict & Terrorism,* Vol. 32, No. "pp. 18—35

Zartman, I. William (2001), 'The Timing of Peace Initiatives: Hurting Stalemates and Ripe Moments', *The Global Review of Ethnopolitics,* Vol. i, No. i, pp. 8—i8

News تقارير إخبارية

How to Stop the Fighting, Sometimes', *The Economist,* November 2013, http://wwweconomist.com/news/brieflng/z i 8943 i-bringing-end-conflicts-within-states-vexatious-history-provides-guide

'Norway as Peacemaker', *Christian Science Monitor,* r May 2000, http:ll www.csmonitor.com/zooo/o531/pIS4.html

Richardson, Bill, Melanie Greenberg and Derek Brown, 'Why Talking Peace is Essential and why it is Threatened', *Insight on Conflict,* October 2011, http://www.insightonconflict.org/2oi i/io/talking-peace-essentialthreatened!

Steinberg, Gerald, 'Peace, War and Messianism', *Jerusalem Post,* 25 January zoI4,http:llwww.jpost.comlOpinionlOp-Ed-Contributors!Peace-war-and-messianism-3 39344

Other مصادر متفرقة

Ahtisaari, Martti, *Nobel Lecture,* io December 2008, http://www.nobelprize.org!nobel_prizes/peace/laureates/2008/ahtisaari-lecture_en.html

'Secretary of State John E Kerry: Remove the Barriers to Peacebulding', http:ll www.charityandsecurity.org/system/fileslPeacebuilding%zoPetition%2o2013_0.pdf

'Symposium on the Future of Conflict Prevention, Session,', *Council on Foreign Relations,* io December 2007, http:llwww.cfr. org/conflictprevention!symposium-future-conflict-prevention-session-rush-transcriptfederal-news-service/p i 023

3. Negotiation التفاوض

Atran, Scott, *Talking to the Enemy: Violent Extremism, Sacred Values, and What it Means to Be Human* (Allen Lane, London, zoio) de Callières, Francois, On *the Manner of Negotiating with Princes* (Houghton Mifflin, New York, 2000; originally published 1716)

Faure, Guy Olivier and I. William Zartman, *Negotiating with Terrorists: Strategy, Tactics, and Politics* (Routledge, Abingdon, 2.010)

Feste, Karen A., 'Terrorist Negotiation Strategy in Lebanon', in, Guy Olivier Faure and I. William Zartman (eds), *Negotiating with Terrorists: Strategy, Tactics, and Politics* (Routledge, Abingdon, 'zo,o)

Fisher, Roger, William Ury and Bruce Patton, *Getting to Yes: Negotiating Agreement Without Giving In,* second edition (Penguin, New York, 1991; originally published 1981)

Goerzig, Carolin, *Talking to Terrorists: Concessions and the Renunciation of Violence* (Routledge, Abingdon, zoio)

Hoglund, Kristine, *Peace Negotiations in the Shadow of Violence* (Martinus Nijhoff Publishers, Leiden, 2008)

Lieberfeld, Daniel, *Talking with the Enemy: Negotiation and Threat Perception in South Africa and Israel/Palestine* (Greenwood Publishing Group, Westport, 1999)

Mnookin, Robert, *Bargaining with the Devil: When to Negotiate, When to Fight* (Simon & Schuster, New York, 2010)

Perry, Mark, *Talking to Terrorists: Why America Must Engage with its Enemies* (Basic Books, New York, 2010)

Pinder, David, 'Supping with the Devil', in Guy Olivier Faure and I. Williai. Zartman (eds), *Negotiating with Terrorists: Strategy, Tactics, and Politi6j* (Routledge, Abingdon, 2011)

Quinney, Nigel and A. Heather Coyne, *Talking to Groups that Use Ter* (United States Institute of Peace, Washington DC, 2011)

Reiss, Mitchell, *Negotiating with Evil: When to Talk to Terrorists (Q* Road Integrated Media, New York, 2010)

Articles مقالات

Byman, Daniel (zoo6), 'The Decision to Begin Talks with Terrorists:

Lessons for Policymakers', *Studies in Conflict & Terrorism,* Vol. 29, No. 5, pp. 403—14

Cronin, Audrey Kurth, *When Should We Talk to Terrorists?,* Special Report 240 (United States Institute of Peace, Washington DC, 2007)

Duyvesteyn, Isabelle and Bart Schuurman (zoii), 'The Paradoxes of Negotiating with Terrorist and Insurgent Organisations', *Journal of Imperial and Commonwealth History,* Vol. 39, No. 4, pp. 677—92

Duyvesteyn, Isabelle and Bart Schuurman (2012), 'Beware of High Hopes: Counterterrorism and the Negotiation Paradox', *ICCT Commentaries,* 15 November 2012, http:/Iwww.icct.nllpublications/icct—commentaries/ beware-of-high--hopes-counterterrorism-and-the-negotiation-paradox

Faure, Guy Olivier (2008), 'Negotiating with Terrorists: A Discrete Form of Diplomacy', *Hague Journal of Diplomacy,* Vol. 3, pp. 179—200

Faure, Guy Olivier and I. William Zartman, *Negotiating with Terrorists: A Mediator's Guide,* IIASA Policy Brief, No. 6 (International Institute for Applied Systems Analysis, Laxenburg, 2009)

Merari, Ariel *(1993),* 'Terrorism as a Strategy of Insurgency', *Terrorism and Political Violence,* Vol. 5, No. 4, pp. 213—51

Miller, Carl (zoii), 'Is it Possible and Preferable to Negotiate with Terrorists?', *Defence Studies,* Vol. ii, No. "pp. 145—8 *5*

Neumann, Peter (2007), 'Negotiating with Terrorists', *Foreign Affairs,* Vol. 86, No. i, pp. 128—38

Pettyjohn, Stacie L. (2009), 'Engagement: A Path to Disarmament or Disaster?', *International Negotiation,* Vol. 14, No. i,pp. 41—69

Pruitt, Dean G. (2006), 'Negotiation with Terrorists', *International Negotiation,* Vol. ii, No. 2, pp. 371—94

Spector, Bertram I. (2003), 'Negotiating with Villains Revisited: Research Note', *International Negotiation,* Vol. 8, pp. 613—21

Wanis-St John, Anthony (2006), 'Backchannel Negotiation: International Bargaining in the Shadows', *Negotiation Journal,* Vol. 22, pp. 119—44

Wheeler, Michael (2013), 'The Fog of Negotiation: What Negotiators Can Learn from Military Doctrine', *Negotiation Journal,* Vol. 29, No. i, pp. 23—38

Zartman, I. William (2003), 'Negotiating with Terrorists', *International Negotiation,* Vol. 8, pp. 443—50

News تقارير إخبارية

Arquilla, John (2013), 'Getting to Yes with the Taliban', *Foreign Policy,* http:llwww.foreignpolicy.comlarticles/2o13/o5/zo/getting_to_yeswith_the_ taliban

Atran, Scott and Robert Axeirod, 'Why We Talk to Terrorists', *New York Times,* 29 June zoio, http://www.nytimes.com/2oI0/06/3o/opinion/ 3oatran.html?ref= opimon

Cambanis, Thanassis, 'Talk to Terrorists', *Boston Globe,* 12 December zoio, http://www.boston.com/bostonglobe/ideas/articles/2oIo/12/Iz/talkto_ terrorists/?page='full

'Egeland urges Negotiation, also with Terrorists', *AftenPosten,* 14 September 2007, http://www.freerepublic.comlfocus/f-news/i 896975/posts

'Interview with Peace Negotiator Erik Solheim', *SpiegelOnline, zs* May 2009, http://www.spiegel.de/international/world/interview-with-peacenegotiator-erik-solheim-sri-lanka-s-government-must-show-it-can-also-winthe-peace-a-62673.html

'This House Believes it is Time to Talk to Al Qaeda', *Doha Debates,* - September 2007, http:I/www.dohadebates.comldebates/iteml?d=8&mode= transcript

'UK Dismisses AlQaeda Talks Call', BBC, is March zoo8, http:llnews.bbc. co.uk/I/hiluk_politics/7297896.stm

"We Should Have Talked to Taliban" Says Top British Officer in Afgh *Guardian,* 2.8 June 2Q13, http://www.theguardian.comlworldlzo 131 z8/talks-taliban-british-officer-afghanistan

4. Mediation التوسط

Brahimi, Lakhdar and Salman Ahmed, *In Pursuit of Sustainable Peace, Seven Deadly Sins of Mediation* (Center on International Coope New York University, New York, 2008) -

Crocker, Chester A., Fen Osler Hampson and Pamela R. Aall (eds), *I Cats: Multiparty Mediation in a Complex World* (United States11 of Peace, Washington DC, zooi; original edition 1999

Crocker, Chester A., Fen Osler Hampson and Pamela R. Aall, *Taming Intractable Conflicts: Mediation in the Hardest Cases* (United States Institute of Peace, Washington DC, 2004)

Greenberg, Melanie C., John H. Barton and Margaret E. McGuiness, *Words Over War: Mediation and Arbitration to Prevent Deadly Conflict* (Rowman & Littlefield, Lanham, zooo)

Articles مقالات

Berghof Peace Support and Conciliation Resources (2011), *Mediating Peace with Proscribed Armed Groups, A Policy Workshop Report on the Implications of European Union (EU) Counter-Terrorism Legislation for Mediation and Support for Peace Processes,*

http:// www.berghof-peacesupport.org/publications/RLM_Mediating_Peace_withProscribed_Armed_Groups.pdf

Curran, Daniel, James K. Sebenius and Michael Watkins (2004), 'Two Pathsto Peace: Contrasting George Mitchell in Northern Ireland with Richard Holbrooke in Bosnia-Herzegovina', *Negotiation Journal,* Vol. 20, No. 4, pp. 513—37

Greig, Michael (2005), 'Stepping Into the Fray: When Do Mediators Mediate?', *American Journal of Political Science,* Vol. 49, No. 2, pp. 249—66

Isoaho, Eemeli and Suvi Tuuli, *From Pre-Talks to Implementation: Lessons Learned from Mediation Processes* (Crisis Management Initiative, Helsinki, 2013)

Whitfield, Teresa, *Engaging with Armed Groups: Dilemmas & Options for Mediators, Mediation Practice Series* (Centre for Humanitarian Dialogue, Geneva, 2010)

5. Backchannel talks محادثات القنوات الخلفية

Articles مقالات

Babbitt, Eileen F. (2013), 'The Price of Secrecy: A Journey through Negotiation's Backchannels', *Negotiation Journal,* Vol. 29, pp. *93—8*

Browne, Julie and Eric S. Dickson (zoio), "We Don't Talk to Terrorists":

On the Rhetoric and Practice of Secret Negotiations', *Journal of Conflict Resolution,* Vol. 54, No. 3, pp. 3 79—407

Cowper-Coles, Freddie (zoiz), 'Anxious for Peace: The Provisional IRA in dialogue with the British Government, 1972—75', *Irish Studies Review*

Pruitt, Dean G. (zoo8), 'Backchannel Communication in the Settlement of Conflict', *International Negotiation,* Vol. '3 pp. *37—54*

6. Diplomacy دبلوماسية

Berridge, G. R., Maurice Keens-Soper and T. G. Otte, *Diplomatic Theory from Machiavelli to Kissinger* (Paigrave Macmillan, New York, zoo,)

Cooper, Robert, *The Breaking of Nations: Order and Chaos in the Twenty- first Century* (Atlantic Monthly Press, New York, 2003)

du Plessis, Armand Jean (Cardinal Richelieu), *The Political Testament of Cardinal Richelieu: The Significant Chapters and Supporting Selections* (University of Wisconsin Press, Madison, 196,)

Kissinger, Henry, *White House Years, Vol. i* (Little, Brown, Boston, 1979)

Kissinger, Henry, *Diplomacy* (Simon & Schuster, New York, 1994)

Renwick, Robin, *A Journey with Margaret Thatcher: Foreign Policy Under the Iron Lady* (Biteback Publishing, London, 2.013)

Tenet, George, with Bill Harlow, *At the Center of the Storm: My Years at the CIA* (HarperCollins, New York, 2.007)

7. Peace versus justice السلام مقابل العدالة

May, Larry, *After War Ends: A Philosophical Perspective* (Cambridge University Press, Cambridge, zoiz)

News مقالات

Bensouda, Fatou, 'International Justice and Diplomacy', *New York Time* 19 March 2013, http://www.nytimes.com/zoi3/o3/2.o/opinion/g the-role-of-the-icc-in-international-justice-and-dip1omacyhtml?r internationaicriminalcourt

Godobo-Madikizela, Pumla, 'Towards an Anatomy of Violence', *Ma Guardian,* i January zo 10, http://mg.co.za/article/zo 10-01-15 -tO an-anatomy-of-violence

'Uganda: when international justice and internal peace are at odds', *Christian Science Monitor, 24* August zoo6, http:I/www.csmonitor.comlzoo6/o824/ pO9sOI-coOp.html

8. Conflict صراعات

Boot, Max, *Invisible Armies: An Epic History of Guerrilla Warfare from Ancient Times to the Present* (Liveright Publishing Corporation, New York, 2013)

Caliwell, Colonel C. E., *Small Wars: Their Principles and Practice* (University of Nebraska Press, Lincoln, 1996; originally published 1896)

Clausewitz, Carl von, *On War* (Princeton University Press, Princeton, 1976; originally published 183 z)

Kilcullen, David, *The Accidental Guerrilla: Fighting Small Wars in the Midst of a Big One* (Oxford University Press, Oxford, 2.009)

Kilcullen, David, *Out of the Mountains: The Coming Age of the Urban Guerilla* (Hurst, London, 2013)

Smith, Rupert, *The Utility of Force: The Art of War in the Modern World* (Penguin, London, zoi originally published 2.005)

Van Creveld, Martin, *The Transformation of War* (The Free Press, New York, 1991)

Articles مقالات

Kilcullen, David (2.oo5), 'Countering Global Insurgency', Journal *of Strategic Studies,* Vol. 28, No. 4, pp. *597—617*

MacMillan, Margaret, 'The Great War's Ominous Echoes', *New York Times,* 13 December zo 13, http://www.nytimes.com/zoi3/I.2./14/opinion/ macmillan-the-great-wars-ominous-echoes.html?_r=o

Petraeus, David H. (20,3), 'Reflections on the Counter-Insurgency Era', *RUSI Journal,* Vol. *158,* No. 4, pp. 82—7

9. Fiction أعمال روائية

Conrad, Joseph, *The Secret Agent* (Penguin Classics, New York, 2007; originally published 1907)

Ledgard, J. M., *Submergence* (Vintage Books, London, zoi z) Soans, Robin, *Talking to Terrorists* (Oberon Books, London, 2005)

Modern case studies دراسات لنماذج معاصرة

1. Basque conflict الصراع في بلاد الباسك

Clark, Robert, *Negotiating with ETA: Obstacles to Peace in the Basque Country, 1975—1988* (University of Nevada Press, Reno, 1990)

Eguiguren, Jesus and Luis Rodriguez Aizpeolea, *ETA — Las Claves de la Paz: Confesiones del Negociador* (Aguillar, Madrid, zoii)

Munarriz, FermIn, *El Tiempo de las Luces: Entrevista con Arnaldo Otegi* (Baigorri Argitaletxe, S.A. Bilbao, zoiz)

Whitfield, Teresa, *Endgame for ETA: Elusive Peace in the Basque Country* (Hurst, London, 2014)

Articles مقالات

Douglas, William A., 'The Unknown Mediator in the Basque Peace Process of zoo6', argia.com, 22. November 2009

2. Colombia كولومبيا

Bouvier, Virginia (ed.), *Colombia: Building Peace in a Time of War* (USIP, Washington DC, 2009)

Dudley, Steve, *Walking Ghosts, Murder and Guerrilla Politics in Colombia* (Routledge, London, 2006)

Kline, Harvey, *Chronicles of a Failure Foretold: The Peace Process of Colombian President Andrés Pastrana* (The University of Alabama Press, Tuscaloosa, 2007)

Pardo, Rafael, *De Primera Mano Colombia 1986—1994: Entre Conflictos y Esperanzas* (Cerec, Bogota, 1996)

Pizarro, Eduardo, *Las Farc (1949—2011): de Guerrilla Campesina a Máquifl de Guerra* (Norma, Bogota, zoii)

Articles مقالات

Conciliation Resources, *Alternatives to War: Colombia's Peace Process,* Accord 14 (Conciliation Resources, London, 2.004)

News تقارير إخبارية

'Digging in for peace', *The Economist,*1 June 2013

3. El Salvador السلفادور

Alvarez, Martin, *From Revolutionary War to Democratic Revolution* (Berlin, Berghof Conflict Research, ioio) -De Soto, Alvaro, 'Ending Violent Conflict in El Salvador', in Chester A.

Crocker, Fen Osler Hampson and Pamela R. Aall (eds), *Herding Cats: Multiparty Mediation in a Complex World* (United States Institute of Peace, Washington DC, zoci; original edition 1)

Samayoa, Salvador, *El Salvador: La Reforma Pactada* (UCA, San Salvador, 2002)

Villalobos, Joaquln, *Sin Vencedores ni Vencidos* (Instituto para un Nuevo El Salvador, San Salvador, 2000)

4. Indonesia (Aceh) أندونيسيا – أتشه

Aspinall, Edward, *The Helsinki Agreement: A More Promising Basis for Peace in Aceh?,* Policy Studies, No. zo (East-West Center, Washington DC, zoos)

Articles مقالات

Aspinall, Edward and Harold Couch, *The Aceh Peace Process: Why it Failed* (East-West Center, Washington DC, 2003)

Conciliation Resources, *Reconfiguring Politics: The Indonesia—Aceh Peace Process,* Accord zo (Conciliation Resources, London, zoo8)

Huber, Konrad, *The HDC in Aceh: Promises and Pitfalls of* NGO *Mediation and Implementation* (East-West center, Washington DC, 2004)

Morfit, Michael (2007), 'The Road to Helsinki: The Aceh Agreement and Indonesia's Democratic Development', *International Negotiation,* Vol. iz, pp. 111—43

Schulze, Kirsten E. (2007), 'From the Battlefield to the Negotiating Table: GAM and the Indonesian Government 1999—2005', *Asian Security,* Vol. 3, No. 2, pp. 80—98

Sebenius, James K. and Alex Green (zoio), 'Everything or Nothing: Martfi Ahtisaari and the Aceh Negotiations (A)', Harvard Business School, http:ll hbr.orglproductlEverything-or-Nothing-Ma/anJ9 I 1040—PDF—ENG

5. Israel / Palestine فلسطين / اسرائيل

Agha, Hussein, Shai Feldman, Ahmad Khalidi and Zeev Schiff, *Track-Il Diplomacy: Lessons from the Middle East* (MIT Press, Cambridge MA, 2003)

Baskin, Gershon, *The Negotiator: Freeing Gilad Schalit from Hamas* (The Toby Press, London, 2013)

Egeland, Jan, 'The Oslo Accord: Multiparty Facilitation through the Norwegian Channel', in Chester A. Crocker, Fen Osler Hampson and Pamela R. Aall (eds), *Herding Cats; Multiparty Mediation in a Complex World* (United States Institute of Peace, Washington DC, zool; original edition 1999)

Heikal, Mohamed, *Secret Channels: The Inside Story of the Arab—Israeli Peace Negotiations* (HarperCollins, New York, 1997)

Jones, Deiniol, *Cosmopolitan Mediation? Conflict Resolution and the Oslo Accords* (Manchester University Press, Manchester, 1999)

Klieman, Aharon, *Compromising Palestine: A Guide to Final Status Negotiations* (Columbia University Press, New York, 2000)

Kurtzer, Daniel, *Pathways to Peace: America and the Arab—Israeli Conflic.* (Palgrave Macmillan, New York, 2012)

Qurie, Ahmed, *From Oslo to Jerusalem: The Palestinian Story of the Secr Negotiations* (I. B. Tauris & Co. Ltd, London, 2006)

Savir, Un, *The Process: i,ioo Days That Changed the Middle East* (Vi Books, New York, 1998)

Waage, Hilde Henniksen, *'Peacemaking Is a Risky Business': Norway's in the Peace Process in the Middle East, 1993—199* 6 (InternatiOflal Research Institute, Oslo, 2004)

Articles مقالات

Lieberfeld, Daniel (zoo8), 'Secrecy and "Two-Level Games" in the Oslo Accord: What the Primary Sources Tell Us', *International Negotiation,* Vol. 13, pp. 133—46

Shlaim, Avi, 'Chapter ii: The Rise and Fall of the Oslo Peace Process', in Louise Fawcett (ed.), *International Relations of the Middle East* (Oxford University Press, Oxford, 2.005)

News تقاير إخبارية

Ahren, Raphael, 'No regrets, many laments, from the architect of Oslo', *Times of Israel,* 15 September 2013, http://www.timesofisrael.com/no- regrets-many-laments-from-the-architect-of-oslo!

Dromi, Un, 'Remembering Oslo', *International Herald Tribune,* 13 September 2013

'Talks Begin on Mideast, to Doubts on All Sides', *New York Times,* 29 July 2013, http://www.nytimes.com/zoi 3/07/3 o/world/middleeast/kerryappoints-veteran-diplomat-to-manage-mideast-talks.html?pagewanted= i &_r=o&smid=tw-share

6. Mozambique / Angola أنغولا / موزمبيق

Ajello, Aldo, 'Mozambique: Implemention of the 1992 Peace Agreement', in Chester A. Crocker, Fen Osler Hampson and Pamela R. Aall (eds), *Herding Cats: Multiparty Mediation in a Complex World* (United States Institute of Peace, Washington DC, zool; original edition 1999)

Anstee, Margaret J., 'The United Nations in Angola: Post-Bicesse Implementation', in ibid.

Bartoli, Andrea, 'Mediating Peace in Mozambique', in ibid.

Bartoli, Andrea, 'Learning from the Mozambique Peace Process: The Role of the Community of Sant'Egidio', in Ronald J. Fisher (ed.), *Paving the Way: Contributions of Interactive Conflict Resolution to Peacemaking* (Lexington Books, Lanham, 2005)

Hume, Cameron R., *Ending Mozambique's War: The Role of Mediation and Good Offices* (United States Institute of Peace, Washington DC, 1994)

Morozzo della Rocco, Roberto, *Mozambique: Achieving Peace in Africa* (Georgetown University, Washington DC, 2003)

Van den Bergh, Lucia, *Why Peace Worked: Mozambicans Look Back* (Association of European Parliamentarians with Africa, Amsterdam, 2009)

Articles مقالات

Conciliation Resources, *The Mozambican Peace Process in Perspective,* Accord (ConciliationResources, London, 1998)

Messiant, Christine, *Why did Bicesse and Lusaka Fail? A Critical Analysis,* Accord i (Conciliation Resources, London, 2004)

7. Nepal النيبال

Ogura, Kiyoko, *Seeking State Power: The Communist Party of Nepal (Maoist)* (Berghof Series, Berlin, 2004)

Whitfield, Teresa, *Masala Peacemaking: Nepal's Peace Process and the Contribution of Outsiders* (Conflict Prevention and Peace Forum, Center on International Cooperation, New York University, New York, 2008)

8. Northern Ireland ايرلندا الشمالية

Cochrane, Feargal, *Northern Ireland: The Reluctant Peace* (Yale University Press, New Haven, 2013)

Articles مقالات

Dixon, Paul *(zoi x),* 'Guns First, Talks Later: Neoconservatives and the Northern Ireland Peace Process', *Journal of Imperial and Commonwealth History,* Vol. 39, No. 4, pp. 649—76

Other مصادر متفرقة

Final Report of the Independent International Commission on I commissioning (The Stationery Office, London, 2011).

Twenty-sixth and Final Report of the Independent Monitoring Co (The Stationery Office, London, 2011)

9. Peru البيرو

Gorriti, Gustavo, *The Shining Path: A History of the Millenarian War in Peru* (University of North Carolina Press, Chapel Hill, 1999)

10. South Africa جنوب أفريقيا

Crocker, Chester A., *High Noon in Southern Africa: Making Peace in a Rough Neighborhood* (W. W. Norton & Co., London, i993)

de Klerk, F. W., *The Last Trek: A New Beginning* (Pan Macmillan, London, 2000)

Esterhuyse, Willie, *Endgame: Secret Talks and the End of Apartheid* (Tafelberg, Cape Town, 2012)

Haysom, Nicholas 'Fink', *Forty-one Lessons for the South African Negotiators* (University of Cape Town, Cape Town, 2002)

Heald, Geoffrey, 'Learning Amongst Enemies: A Phenomenological Study of the South African Constitutional Negotiations from 1985—1998' (PhD thesis, University of Witwatersrand, Johannesburg, 2006)

Lieberfeld, Daniel, 'Contributions of a Semi-Official Pre-Negotiation Initiative: Afrikaner—ANC meetings in England, 1987—1990', in Ronald J. Fisher (ed.), *Paving the Way: Contributions of Interactive Conflict Resolution to Peacemaking* (Lexington Books, Lanham, 2005)

Mandela, Nelson, *Long Walk to Freedom* (Abacus, London, 1995; originally published 1994)

Renwick, Robin, *Unconventional Diplomacy in Southern Africa* (Paigrave Macmillan, London, 1997)

Sampson, Anthony, *Mandela: The Authorised Biography* (HarperCollins, London, 1999)

Sparks, Allister, *Tomorrow is Another Country: The Inside Story of South Africa's Road to Change* (University of Chicago Press, Chicago, 1996)

Articles مقالات

Interview of Dr Niel Barnard by John Carlin for *Frontline,* PBS, 2012

Lieberfeld, Daniel (zoo2.), 'Evaluating the Contributions of Track-Two Diplomacy to Conflict in South Africa, 19 84—90', *Journal of Peace Research,* Vol. 39, pp. *355—72*

The Reunion: Nelson Mandela's Release, BBC Radio Four, 2009

Young, Michael (zoio), 'Alumnus Michael Young and his Role in Ending Apartheid', *University of York Alumni Magazine, pp.* 16—22

News تقارير إخبارية

Interview: Anthony Sampson', PBS, http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/shows/mandela/interviews/sampson.html

'Interview: Dr Neil *[sic]* Barnard', PBS, http://www.pbs.org/wgbh/pages/ frontline/shows/mandela/interviews/barnard.html

'Interview: Jack Swart', PBS, http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/ shows/mandela/prisonlswart.html

'Mandela and Botha: The Crocodile & the Saint', *Independent, a* November 2006

11. Sri Lanka سريلانكا

Hoglund, Christine and Isak Svensson, *Mediating between Tigers and Lions: Norwegian peace diplomacy in Sri Lanka's civil war* (Informal Perspectives, 2008)

Moorcraft, Paul, *Total Destruction of the Tamil Tigers* (Pen and Sword Books, Barnsley, 2012)

Sørbø, Gunnar, Jonathan Goodhand, Bart Klem, Ada Elisabeth Nissen and Hilde Selbervik, *Pawns of Peace: Evaluation ofNorwegian Peace Efforts in Sri Lanka, 1997—aoo9,Report* 5/2011 — Evaluation (Norad, Oslo, 2011)

Weiss, Gordon, *The Cage: The Fight for Sri Lanka and the Last Days of the Tamil Tigers* (Bodley Head, London, 2011)

Articles مقالات

Bullion, Alan (aooi), 'Norway and the Peace Process in Sri Lanka', *Civil: Wars,* Vol. *4,* No. 3, pp. 70—92

Conciliation Resources, *Demanding Sacrifice: War and Negotiation in SriJ Lanka,* Accord (Conciliation Resources, London, 1998)

'Sri Lankan Rebel Leader also Served as a Cult Figure', *New 'York Timer* i 8 May 2009,
http://www.nytimes.comlaoo9/o5/19/worldlasia/I9talII-html?ref=velupillaiprabhakaran&_r=o

News تقارير إخبارية

'Prabhakaran: The Life and Death of a Tiger', *Time,* i May 2009, http://content.time.comltime/world/article/o,8 599,1899 590,00.html

Colonial and older history حقبة الإستعمار وما سبقها

French, David, *The British Way in Counter-Insurgency 1945—19 67* (Oxford University Press, Oxford, 2011)

Hastings, Stephen, *Drums of Memory* (Pen & Sword Books Ltd, Barnsley, 2001; originally published 1994)

MacMillan, Margaret, *Peacemakers: Six Months that Changed the World* (John Murray, London, 200,)

Newsinger, John, *British Counterinsurgency: From Palestine to Northern Ireland* (Paigrave Macmillan, London, 2002)

Walton, Calder, *Empire of Secrets: British Intelligence, the Cold War and Twilight of Empire* (HarperPress, London, 2013)

Articles مقالات

Hack, Karl (2011), 'Between Terror and Talking, the Place of "Negotiation" in Colonial Conflict', *Journal of Imperial and Commonwealth History,* Vol. 39, No. 4, pp. *539—49*

News تقارير إخبارية

'Sir Richard Catling', obituary, *Daily Telegraph,* April 2005, http:/Iwww.telegraph.co.uk/news/obituaries/14 871 17/Sir-Richard-Catling.html

1. Algeria الجزائر

Home, Alistair, *A Savage War of Peace: Algeria 1954—1962* (New York Review Books, New York, 2006; originally published 1977)

Long, Oliviem, *Le Dossier Secret des Accords d'Evian: Une Mission Suisse pour la Paix en Algérie* (Editions 24 Heures, Lausanne, 1988)

Ruedy, John D., *Modern Algeria: The Origins and Development of a Nation* (Indiana University Press, Bloomington, 2005)

News تقارير إخبارية

Kaufman, Michael T., 'Jacques Massu, 94, General Who Led Battle of Algiers', *New York Times,* 31 October zooz, http://www.nytimes.comlzooz/ 10/3 i/world/jacques-massu-general-who-led-battle-of-algiers.html

2. Anarchists الفوضويون

Ulam, Adam, *In the Name of the People: Prophets and Conspirators in Prerevolutionary Russia* (Viking Press, New York, 1977)

Articles مقالات

Aydinli, Ersel (zoo8), 'Before Jihadists There Were Anarchists: A Failed Case of Transnational Violence', *Studies in Conflict & Terrorism,* Vol. 31, No. Ic, pp. 903—2.3 -

Jensen, Richard Bach (2004), 'Daggers, Rifles and Dynamite: Anarchist Terrorism in Nineteenth-Century Europe', *Terrorism and Political Violence,* Vol. i6, No. i, pp. 116—53

Jensen, Richard Bach (zoo 8), 'Nineteenth-Century' Anarchist Terrorism: How Comparable to the Terrorism of al-Qaeda?', *Terrorism and Political Violence,* Vol. 2.0, No. 4, pp. *589—96*

Jensen, Richard Bach (2009), 'The International Campaign Against Anarchist Terrorism, 1880—193 OS', *Terrorism and Political Violence,* Vol. zi, No. "pp. 89—109

3. Cyprus قبرص

Holland, Robert, *Britain and the Revolt in Cyprus, 1954—59* (Oxford University Press, Oxford, 1998)

Articles مقالات

Robbins, Simon (zoiz), 'The British Counter-Insurgency in Cypus', *Wars and Insurgencies,* Vol. 23, Nos. 4—5, pp. 720—4

4. Ireland أيرلندا

Bew, Paul, *Ireland: The Politics of Enmity 1789—200* 6 (Oxford University Press, Oxford, 2007)

Fanning, Ronan, *Fatal Path: British Government and Irish Revolution* (Faber & Faber, London, 2013)

Hattersley, Roy, *David Lloyd George: The Great Outsider* (Little, Brown, London, 2010).

Hopkinson, Michael, *Green Against Green: The Irish Civil War* (Gill & Macmillan, Dublin, 1998)

Hopkinson, Michael, *The Irish War of Independence* (McGill-Queen's University Press, Montreal, 2012)

Mansergh, Nicholas, *The Unresolved Question: The Anglo—Irish Settlement and its Undoing, 19 12—72* (Yale University Press, New Haven, 1991)
McMahon, Paul, *British Spies and Irish Rebels: British Intelligence and Ireland, 1916—1945* (Boydell Press, Woodbridge, 2008)
Smith, Jeremy, *Britain and Ireland: From Home Rule to Independence* (Routledge, Abingdon, *1999)*
Sturgis, Mark, *The Last Days of Dublin Castle: The Mark Sturgis Diaries* (Irish Academic Press, Dublin, i999)

Other مصادر متفرقة

Moylett, Patrick, 'Statement by Witness', Bureau of Military History, 1913— *1921,* Document No. W.S. *767*

3. Israel / Palestine إسرائيل / فلسطين

Bowyer Bell, John, *Terror Out of Zion: The Fight for Israeli Independence* (Academy Press, Dublin, 1977)
Miller, Rory (ed.), *Britain, Palestine and Empire: The Mandate Years* (Ashgate, Aldershot, 2010)

Articles مقالات

Charters, David (2007), 'Jewish Terrorism and the Modern Middle East', *Journal of Conflict Studies,* Vol. 27, No. z, pp. 80—9

6. Kenya كينيا

Anderson, David, *Histories of the Hanged: The Dirty War in Kenya and the End of Empire* (W W. Norton & Co., New York, 2005)
Kyle, Keith, *The Politics of the Independence of Kenya* (St Martin's Press, London, 1999)

Articles مقالات

Porter, Bernard, 'How Did They Get Away With It?', *London Review of Books,* March 2005

Miscellaneous متنوعات

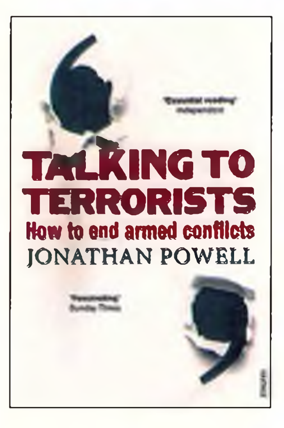
Lustig, Joshua, 'Second Glance: Halberstam's Vietnam and The Anxiety of Power', *Open Letters Monthly,* http://www.openlettersmonthly.com/ second-glance-halberstams-vietnam-and-the-anxiety-of-power/
Manningham-Buller, Eliza (2011), *The Reith Lectures,* BBC, http:Ilwww. bbc.co.ukIprogrammes/boi a6dz9



هذه هي وجهة نظر أحد كبار المستشارين السابقين لرئيس الوزراء البريطاني الأسبق، توني بلير حول التعامل مع الجماعات المسلحة المتطرفة مثل تنظيم داعش.

ويستند جوناثان باول مؤلف هذا الكتاب في رأيه على تجربته كأحد كبار المفاوضين البريطانيين مع الجيش الجمهوري الايرلندي أثناء حقبة رئاسة بلير للوزراء.

وهو هنا يدعو المجتمع الدولي إلى الاستفادة من دروس التاريخ، مشيراً إلى تجارب أخرى مثل تجربة الامريكيين مع حركة طالبان في أفغانستان، وتجارب حكومات الفليبين وإندونيسيا مع جماعات متطرفة مسلحة.



ويقول باول: «عندما يتعلق الأمر بالإرهاب، يبدو أن الحكومات تعاني من فقدان جماعي للذاكرة. فكل التجارب التاريخية تخبرنا بأنه لا يمكن أن يكون هناك حل عسكري بحت لمشكلة سياسية، ورغم ذلك كل مرة نواجه فيها جماعة إرهابية جديدة نبدأ بالإصرار على عدم التحدث معها أبداً».

ويقول إن خبرته في مفاوضات الحكومة البريطانية مع الجناح السياسي للجيش الجمهوري الايرلندي، بالاضافة إلى تجارب أخرى له مع جماعات أخرى حول العالم على مدى سبعة عشر عاماً أقنعته بصحة نهج التفاوض، «إذا كنا نريد حلاً دائماً للصراع المسلح».

إلا أن باول يرى أن التفاوض لا يعني بالضرورة تلبية كل مطالب تلك الجماعات المسلحة.

ويضيف: «قد تحاول وتنجح بعض الدول في القضاء على المسلحين من خلال استخدام القوة المفرطة، إلا أن ذلك لا يحل الصراع، بل يؤجله».

النجاح الحقيقي، في نظر المؤلف، يعتمد على «إرفاق القوة العسكرية بتقديم مخرج سياسي لإنهاء الأزمة».

قضى جوناثان أكثر من عقدين من الزمن في التوسط بين الحكومات والجماعات المسلحة بكل أنواعها. وتأتي هذه الدراسة الميدانية مفعمة بالأمل وموثقة ومدعمة بالشواهد الحية وواسعة في نطاقها - من كولومبيا الى سريلانكا ومن فلسطين الى جنوب أفريقيا - حول «لماذا» و«كيف» يكون الحوار الهادف لإنهاء الصراع مع الجماعات المسلحة.

ويقول: «أنه لا يوجد صراع غير قابل للحل، مهما كان دموياً أو قديماً أو صعباً. فبالصبر والمثابرة، وبالقيادة السياسية الحكيمة قبل كل شيء، يمكن تجاوز كل الصراعات حتى وإن تكرر فشل محاولات سابقة لإحلال السلام؟.


ISBN: 978-614-01-2176-8





دار العرب للنشر والتوزيع
AL-ARAB PUBLISHING




توزيع
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com